أندريه ميكيل

جغرافية دار الإسلام البشرية

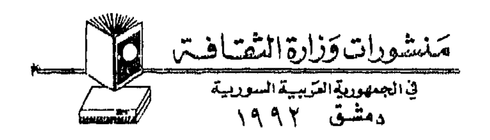
حتى منتصف القرن الحادي عشر

الجزء الثالث

الوسط الطبيعي

القسم الأول

ترجمة: ابراهيم خوري



منشورات وزارة الثقافة
في الجمهورية العربية السورية
دمشق ١٩٩٢



العنوان الاصلي للكتاب :

ANDRÉ MIQUEL

La géographie humaine du monde musulman jusqu'au milieu du 11e siècle

Géographie arabe et représentation du monde : la terre et l'étranger

جغرافية دار الاسلام البشرية : حتى منتصف القرن الحادي عشر /
أندريه ميكل ؛ ترجمة ابراهيم خوري . ـ دمشق : وزاره الثقافة ،
١٩٩٢ . ـ ج ٣ ؛ ٢٤ سم .

القسم الأول من الجزء الثالث الذي بعنوان « الوسط الطبيعي » .

١ ــ ٩١٠ م ي ك ج ٢ ــ العنوان ٣ ــ ميكيل ٤ ــ خوري

مكتبة الأسد

الايداع القانوني : ع ــ ١٠٥٦ ١٩٩٢/٩/١

تنبيه

أفردت للأدب الجغرافي العربي جزئين (١) سابقين من عملي ، استهدف أولهما إعادة وضع هذا الانتاج في منظور الأدب والثقافة العربيين ، مثلما تمّ تكوينهما في القرون الثلاثة الأولى من الخلافة العباسية ، ورمى ثانيهما إلى البدء بدراسة مضمون مصنفات ذلك الأدب . ولن أعود هنا إلى الأسباب التي دعتني إلى تقديم أبحاث الشعوب الأعجمية . فقد بدا لي ، كما قلت من قبل ، أنها تتصل صلة وثيقة بالتسلسل الزمني الخاص بنضوج الجغرافية العربية . واتوخى بعد الآن ، جهد المستطاع ، أن اقتصر في رؤيتي على دار الاسلام ، بالمعنى الضيق ، مما يدفعني إلى إبداء ملاحظتين .

فما دام البحث يتناول دار الاسلام ، تقضي ملاحظتي الأولى أنْ تعتمد جل تقصيّاتي ، إن لم يكن كلها إطلاقاً ، على مصنفين خصوا دار الإسلام دون سواها بأعمالهم. بذا أنوه بمدرسة المسالك والممالك، على حد ما عرفت به اصطلاحاً وتيسيراً ، وبأطلس البلخي أيضاً ، أعني بجغرافيين ، علقوا على رسوم صور تمثل البلدان الرئيسة في دار الاسلام ، وانتقلوا

(١) جغرافية دار الاسلام البشرية حتى منتصف القرن الحادي عشر ، باريس لا هاي ،ج١ : الجغرافية والجغرافية البشرية في الأدب العربي . . . الطبعة الثانية ، ١٩٧٣ ، ج ٢ : تمثيل الأرض والغريب ، ١٩٧٥ .

من الصورة إلى الشرح ، ومن الشرح إلى الوصف المفصل، فتوسعوا في وصف دار الاسلام وحدها ، كالإصطخري وابن حوقل والمقدسي (١).

وأود في سياق حديثي أن أعيد إلى الذاكرة أحد أسس تحليلي ، الذي يقول إن هؤلاء المصنفين وغيرهم يؤلفون جميعاً بين عامي ٨٥٠ و ١٠٠٠ ميلاديين ، هيئة متجانسة تماماً ، بأصول عدد من أعضائها بلا شك ، وبانتمائهم الثقافي على نطاق واسع . والقضية حقاً قضية أدب متوسط في ثلاث نواحي . فهذا الأدب متوسط اجتماعياً أولاً ، ومتوسط أيضاً بخياراته السياسية الدينية التي تتجه كلها إلى تأمين حصول قناعة ووضع نظرية وتحقيق رغبة ببقاء دار إسلام تجمع ولا تفرق رغم تبايناتها، ومتوسط أخيراً على مستوى المعرفة . وأبرز من هذه الناحية الأخيرة أن مصنفي المسالك والممالك يمثلون ، تمثيلاً يبذ سائر المصنفين ، معرفة متوسطة تقترب من التجربة الشعبية والأدب العلمي ،من ثقافة تمتد جذورها في أضعاف الحياة اليومية ومعطيات الكتب معاً ، من معرفة حريصة على وصف الحقيقة وعلى تقديم إثبات، باحدى الطرق ، يُري أن نقل هذه الحقيقة إلى الخلف ميسور وفق أصول اللغة السليمة الفصيحة .ويستهوينا منافسو البلخي من هذه الزاوية بالذات أكثر من سائر المصنفين ، لأنهم يحدثوننا أكثر منهم عن هذه الثقافة المتوسطة ولأن هذه الثقافة ذاتها ، حتى لو كانت متقدمة بفضلهم تقدماً كافياً يرينا من خلال الكتابة ، الواعية أو اللا واعية ، بعض مفاهيم أساسية مشتركة بين الناس في عصرهم، لم تتطور تطوراً عظيماً ، يجيز لنا أن نستخلص من المفاهيم

---

(١) وكاليعقوبي على نطاق اضيق، فهو بشير المدرسة (انظر حول هذه النقطة ج ١ القسم الثاني، مذكور في الحاشية السابقة ، ص ٩٧ وما يليها) .

السابقة أن أحد الأذهان الخارقة تدخل تدخلاً فعالاً فحورها وربما جعلها مُهَمَّشة .

فوحدة هذا الأدب قائمة ، تثبتها روائز كثيرة ، منها — مفهوم دار الاسلام . وفي هذه الحالة ، لن نعجب اذا تبين أن مصنفي المسالك والممالك ، هنا أكثر من أي مكان آخر رمز هذه الوحدة في الجغرافية أكثر من سواها . أما في الملاحظة الثانية من الملاحظتين اللتين أشرت إليهما من قبل ، فاتساءل : أيجـوز الحديث عن دار الاسلام بتعابير تختلف عن تعابيرهم ، والاعتماد على قواعد جيدة وضعت لدراسة الذهنيات ؟ أتمثل دار الاسلام تقسيماً سهلاً . اخترته أنا كيفيا في الوقت الحاضر بهدف عرض مضمون مصنفات الجغرافية ، أم تستجيب هذه التسمية ، في عرف أهلها آنذاك ، إلى شعور أحسوا به إحساساً عميقاً وواقعياً ؟ لا تحتمل الاجابة الشك ، لإن المرء يستطيع أن يتتبع من مصنف إلى مصنف ، ومن القرن ٣هـ / ٩م إلى آخر القرن ٤ هـ / ١٠ م ، بطريقة رائعة بدقتها وتدريجها ، تكوّن هذا المفهوم ونشوءه وأخيراً بروزه. وخضعت مملكة العرب ومملكة العجم ، الواردتان في مصنفات الجغرافية الأولى ؟ إلى سُنّةِ التاريخ ، ورُوعِيَ في خضوعهما التفاوت الزمني الخاص بالظاهرات الثقافية ، فاندمجت « أقاليم » العرب و « أقاليم » العجم معاً وألفتا أقاليم دار الإسلام ، على حد تسميتها ، عند جغرافيي مدرسة البلخي ، وعند المقدسي على وجه أخص ، وقيل مملكة الاسلام ، أو المملكة باختصار ، ولم يقل حتى « أقاليمنا نحن المسلمين » ، بل الأقاليم (١) على وجه التعريف ، اذا تجرأت وعبرت عن فكرتي بهذه الطريقة .

---

(١) بشأن تفاصيل هذا التطور ، انظر ج ٢ ، المذكور من قبل القسم الثاني ، ص ٣٠٩–٣١٢

ويرد الحذف أحياناً على خلاف ما تقدم ، فيستغنى عن لفظ مملكة ، ويبقى لفظ « الإسلام » وحده ، مستعملاً بمعنى « دار الإسلام » (١). من هذه الناحية يمكننا أن نقدر بتجرد دقة العلماء المعاصرين الذين يصرون على التمييز بين الاسلام ، الدين ومظاهره في مجال الشعائر أو الفكر ، وبين دار الإسلام التي يعتبرونها نطاقاً جغرافياً يدين جل أهله بالإسلام أو كلهم إطلاقاً . ولم يكن لدى مصنفي الجغرافية مثل هذا الحرص اللامألوف ، لأنهم كانوا يتبعون أصول لغة واضحة جداً على سلاستها ، ويستخدمون لفظاً واحداً يعنون به الظاهرة الدينية . ودار الاسلام ـــالتي تنتمي إلى سلطة سياسية مبنية على هذا المعتقد . . ولم تكن كلها مسلمة . وهم يعرفون ذلك ويدونونه .

لا يبالي أحد ، إن قيل مملكة أو قيل إسلام . ولا يبالي أحد أيضاً إذا وصل هذا المفهوم إلى أجلّى وضوحه ، متأخراً فترة من الزمن نوهنا بها ، في وقت تزعزع فيه البناء الذي أوحى به ، بعد حلول العام ألف وظهور الاتراك ، وقبل أن تخلفه بلدان اسلامية ، وحوزات إسلامية . وربما دور إسلام متعددة مرة أخرى. ويبدو أن الأصل أن مصنفي الجغرافية يدعوننا إلى وصف دار إسلام على وجه الإجمال ، ويتصورونها متماسكة ، رغم التقلبات السياسية ، ومخاطر طريق القوافل أو البحر . وتموجات الشعائر الدينية ، وأحياناً العقيدة فقد ظهر مفهوم المملكة ولفظها

---

(١) انظر المقدسي ، ٢ ، ١٠ ، ١٩ ، ٢٣(حاشية ك ، ص ٢٢) ، ص ٢٤ ، ٣٥ ، ٣٦ (مرتين) ، ٣٧ ، ٤٦ ، ٥٧ ، ٧٦ ، ٢٨٠(حاشية ا) وأماكن أخرى (خاصة ١٠١ : « مياه الاسلام » ، ١١٦ : « وقد شققنا الاسلام » ، ١٧٥ : « غير ان ماءها أخف ماء في الاسلام » ، ٢٤١ : « في جبال المسلمين ») . انظر أيضاً مثلا الاصطخري ، ١٣٣ (ابن حوقل ، ٤٠١) ، ابن حوقل ، ٤٧١.

إلى حيز الوجود ، وصارا متلازمين . وما على الانسان إلا أن يدركهما قبل فوات الأوان ، لأنهما في طريقهما إلى الزوال في وقت قريب من الجغرافية العربية .

سوف نقوم بجولة طويلة في دار الإسلام ، مثلما كانت عليه في تاريخ يقارب العام الألف . ونتقصى الوسط الطبيعي في البدء . وسيأخذ العجب القارىء ، عندما يرى أن دراستنا الاجمالية التي ورد عنوانها « جغرافية دار الاسلام البشرية » ، تهتم على هذا النحو ، بالدرجة الأولى ، بما ليس بشراً ، نعني الأرض والماء والهواء والنبات والحيوان . أما الواقع ، كما أبنا مراراً وتكراراً (١) ، فهو أن الانسان يتجلى في جميع أبحاث هذا الأدب الجغرافي . ويزعم الباحثون اليوم أن هذا الانسان ينظر إلى الأشياء والأحياء من حوله نظرة لا تخلو من دوافع تحثه عليها . فهو لا يتأمل في الصخر أو الحيوان أو الشجر بحد ذاتها ، بل لما بينها وبين البشر من صلات : كمنفعتها لهم أو ضررها ، أو ، بمزيد من الدقة ، لما تثيره في ذهننا من تساؤل عن مكانتها – ومكانتنا – في هذه الدنيا وعن غاية الباري من خلقها . كلا ، قطعا ، لا يأبه باحث بهذه الجغرافية ، أما نحن فنستهل عرضنا بالأرض لأسباب عديدة ، منها أنها أجمد سائر العناصر ، وأغذاها على وجه العموم ، وأغمضها إطلاقاً على الأرجح ، وأهمها في جميع الحالات . وهي بداهة العنصر الذي جبلنا منه ، ونشعر أحياناً أنه جسم غريب يؤذي بعض حواسنا . لذلك أتممنا دراسة(٢)الأرض التي تصورناها كياناً مستقلاً في الكون،والتي

(١) انظر جغرافية دار الاسلام البشرية ، ج ١ ص ١٠ – ١٢ ، و ٨٩ – ٩٢ وأماكن أخرى ، ج ٢ ، قسم أول ص ٨ – ٩ ، و ١٢١ ، ١٢٢ وأماكن أخرى .
(٢) جغرافية دار الاسلام البشرية ، ج ٢ ، فصل قسم أول ، ١ – ٢

تخيلناها حيز البشر الموزع بين أبناء آدم، ولم نعد ننظر اليها ببصرناوحده، بل صرنا نطؤها بأقدامنا . ونلمسها بأيدينا، ونشعر بها بقلبنا بالذات .

قلت منذ لحظة : وسط مملكة الإسلام الطبيعي . على أن هذا الوسط لا يمثل كلا منفرداً ، شأنه شأن مملكة الإسلام التي لا تنعزل في هذا العالم عما يحيط بها من شعوب . وطبيعة دار الاسلام طبيعتان ، تشترك باحداهما مع الغرباء، وتحوز الأخرى لنفسها ، على حد قول الجغرافيين. وتهم الطبيعتان بحثنا ، بداهة ، شريطة أن نشير إلى انتماء إحداهما إلى مملكـــة الاسلام أو إلى الغرباء . ولن نهمل هنـــا سوى طبيعة الغرباء حصراً ، مع أننا تناولناها من قبل (١) .

وأختتم هذا التمهيد ببضع كلمات عن المنهج ، أضعها في صيغة سؤال : كيف تقرأ النصوص الجغرافية ؟ تقرأ على عدة مستويات ، وهذه ناحية بديهية فقد تعرض هذه النصوص العالم فعلاً بأبسط وأوضح كتابة ، وتصفه أو تدون معطياته ، حسبما نشاء ، دون أن تلتفت إلا إلى الموضوعية . وقد تعيد تقديم العالم ، لذاتها أو لنا. لكن لابد لنا هنا أن نميز ، جهد المستطاع ، بين ما يراد كتابته وبين ما لا يراد كتابته ، بين تقديم صورة واعية تماماً وبين تقديم صورة ناشئة عن التردد والتحفظ وحتى عن الكتمان ، بين ما يستهدف النص قوله وبين ما يقرأ بين سطوره ، بين جهد التأمل المتعمد الذي يرمي ، من خلال المعطى الوارد إلى وعي التنظيم والمعنى والبنية والذهول الذي تقع فيه هذه الجغرافية في أيامنا الحاضرة ، فيما لو عُرِضَ عليها هذا التنظيم والمعنى والبنية المستخاصة من نصوصها ذاتها ، دون أن تكون قد خطرت لها

(١) جغرافية دار الاسلام البشرية،ج٢قسم أول ص١٣٨(وحاشية ٤١٢، ص٣٥٦)-١٣٩

ببال من قبل على الاطلاق . من هذه الزاوية ـ ونكتفي بهذا المثال ـ قد تنشأ آليات الكتابة ولا اراداتها على حد سواء ، عن نية يتوخى فيها المصنف أن يتمسك تمسكاً منهجياً بهذه النقطة أو تلك من وصفه ، وتقديم تعليل مقصود لهذه النية في سياق حديثه . وقد تكشف تلك الآليات ولا اراداته ، دون علم المصنف ، عن اهتمام ، يحتمل ألا يكون واضحاً تماماً في وجدانه .

ذكرت المصنف في الجملة السابقة . طبعاً ، يتراءى خلف النصوص ، أشخاص نعرف دوماً بعض الشيء عنهم من خلال نصوصهم بالذات فقط . إنما لا نبالي بالأشخاص إلا شذوذاً . فاذا كانت هيئة الجغرافيين متجانسة تماماً ، وأظنني استطعت إثبات تجانسها ، وجب اعتبار هذه النصوص قد كتبت ، من خلال هذا الشخص أو ذاك ، بيد مصنف واحد أساسي ، هو شخصية المسلم المتوسط الثقافة ، في الذهنية المعروفة حوالي ٨٥٠ ـ ١٠٠٠ م . وسوف نسترشد بهذا المبدأ في مطالعتنا . وما لم يحتدم نزاع صارخ بين المصنفين ، تقضي الامانة العلمية أن نشير إليه ، حق لنا أن ننسب إلى هذا المصنف الوحيد المتوسط الثقافة ، جملة أفكار مكررة نلحظها بانتظام من مصنف إلى مصنف . كذلك يجوز لنا أن نرسم ، استناداً إلى التدوينات العائدة إلى موضوع معين من الوصف ـ لكن يتنوع ويتجزأ ويتوزع على عدة تصانيف ـ صورة إجمالية عن ذلك الموضوع . ويمكننا أيضاً ، في حالة وجود تدوين خاص عند أحد المصنفين ، أن نفترض أن هذا التدوين ينتمي إلى جملة الهيئة ، ما دام لا يتناقض ـ ونلح على هذه الناحية ـ مع أي تأكيد آخر دقيق ، ولا مع توحيد خصائص مجمل الهيئة .

اذن ينحصر هدفنا بالدرجة الأولى في إعطاء صورة عن الوسط الطبيعي في دار الاسلام حوالي العام ألف، اما واقع الأرض أو التاريخ ، فلن نتناوله إلا عندما يسمح لنا أن نقدر على وجه التقريب المسافة بين هذه الصورة وبينه . وهنا نقتصر في الاحالات على الحد الأدنى الذي لا يستغنى عنه في رأينا . مع ذلك يتعدى هذا العمل طاقة رجل واحد ، يشترط فيه أن يكون خبيراً في مجالات متنوعة ، كالجغرافية الطبيعية ، وعلم المناخ ، وعلم المياه ، وعلم الحيوان ، وعلم النبات وغيرها أيضاً. وأنا واثق أن الاخصائيين سوف يكملون الاضبارة المعروضة عليهم .

* * *

المصـــادر والمـــراجع

لا نذكر هنا إلا أسماء المؤلفات التي لم ترد في مصادر المجلدين السابقين الأول والثاني . مع ذلك نكرر فيما يلي ثبت المؤلفين (بالرموز) لأسباب بديهية من تيسير العودة إليها.

آبل (ف . م .) ، جغرافية فلسطين ، باريس ، جزءان ، ١٩٣٨

آبل (ف . م .) ، الدليل الأزرق لسورية وفلسطين ، باريس ، ١٩٣٢

ابستين (هـ) ، اصل الحيوانات الاهلية الافريقية ، نيويورك – لندن – مونيخ ، جزءان ١٩٧١ .

ابن البيطار ، جامع المفردات ، ترجمة ل . لوكلير ، باريس ، ٣ أجزاء ، ١٨٧٧ ١٨٨٣

ابن الفقية ، كتاب البلدان ، ترجمة هـ . ماسيه « بعد وفاته » (راجعها ش . بيلا)، دمشق ، ١٩٧٣ . حافظت على ذكر ترقيم صفحات النص العربي ، الوارد في الترجمة أصلا ، لكي أوحد الاحالات مع حواشي الجزئين السابقين .

اتشيكوبار (ر . د .) و هو (ف.) طيور الشمال في افريقية ، باريس ، ١٩٦٤

الا دريسي ، وصف افريقية والاندلس،طبع وترجمة ر . دوزي و م . ج . دي خويه، إعادة طبع القديم ، لايدن ، ١٩٦٨ .

الوز (ب . أ .) ، مراجع فقريات العراق والبلدان المجاورة ، ج ٤ ، الا سماك ، بغداد ، ١٩٥٥

الياد (م .) ، والاقيان والخيميائيون ، باريس ١٩٧٧

الياد (م .) ، كتاب تاريخ الأديان ، باريس ، ١٩٥٤

اليسيف (ن .) ، نور الدين ، أمير مسلم سوري عظيم في زمن الحروب الصليبية ، دمشق ، ٣ أجزاء ، ١٩٦٧.

انستاس الكرملي (ب .) ، « نظرات في كتاب التبصر بالتجارة » ، مجلة المجمع العلمي العربي ، دمشق ، ١٣ روماني ، ١٩٣٥ ، ص ٢٨٧ — ٢٩٥ .

اوغنيف (س . ا.) ، ثدييات الاتحاد السوفييتي والبلدان المجاورة ، ٣ روماني: الحيوانات اللاحمة (المفترسة) ، ترجمة انكليزية لـ ا . بيرون و ز . س . كول ، القدس ، ١٩٦٢

بدار (ف .ا .) ، كتاب الحيتان ، لندن ، ١٩٠٠

بديكر (ك .) ، فلسطين وسورية ، لايبزيغ ، ١٨٩٣

بديكر (ك .) ، مصر والسودان ، لايبزيغ — باريس ، ١٩١٤

بديكر (ك .) ، مصر العليا ، لايبزيغ — لندن ، ١٨٩٥

بيراتز (س . هـ .) ، كتاب الحيوانات الهندية ، الطبعة الثانية ، بمباى ، ١٩٦٥

برك (ج .) ، من الفرات الى الاطلس ، باريس ، جزءان ، ١٩٧٨

برنتجس (ب .) Die Haustierwerdung in Orient ويتنبرغ ، ١٩٦٥

بلاشير (ر .) — شويجي (م.) — دينيزو (ش .) ، معجم عربي فرنسي انكليزي، باريس ، ١٩٦٤ (وبعدها)

بلانشار (ر .) ، انظر الجغرافية العالمية .

بلانفورد (و . ن .) ، حيوانات الهند البريطانية ، الثدييات ، لندن —كلكوتا— بمباي — برلين ، ١٨٨٨ — ١٨٩١

بلانفورد (و . ن .) ، فارس الشرقية . تقرير رحلات لجنة الحدود الفارسية، لندن ، ٢ روماني ، ١٨٧٦ .

بلانهول (كزافيه دي) ، الاسس الجغرافية لتاريخ دار الاسلام ، باريس ، ١٩٦٨

بلانهول (كزافيه دي) ، « ثور الحمل في الشرق الأدنى وفي افريقية الشمالية» ، مجلة تاريخ الشرق الاقتصادي والاجتماعي ، ١٢ روماني ، ١٩٦٩ ، ص ٢٩٨ — ٣٢١

بلانهول (كزافيه دي) ، « خمور افغانستان وجبال هيمالايا الغربية » ، مجلة جغرافية الشرق ، ١٧ روماني ، ١ — ٢ ، كانون الثاني — حزيران ، ١٩٧٧ ، ص٣—٢٦

بلدشينو (ج .) ، ترجمة المقدسي الجزئية (انظر هذا اللفظ) ، جزءان ، اطروحة دكتوراه دور ثالث ، جامعة باريس ٣ ، ١٩٧٨

بليغفاد (هـ .) ولوينثين (ب .) ، التقصيات العلمية الدانماركية في فارس ، ٣ روماني : أسماك الخليج الفارسي ، كوبنهاكن ، ١٩٤٤ .

بولنز (ل .) ، طرق الزراعة في القرون الوسطى في كتب الفلاحة الاندلسية : التقاليد والتقنيات ، جنيف ، ١٩٧٤ .

بولي ويسوفا، Real - Encyclopadie der Classissshen Altertumswissenschaft ستوتغار ، ١٨٩٤ وبعدها.

تيسيجر (و.) ، مفازة المفاوز . مع البدو ، آخر المتبدين في جزيرة العرب الجنوبية، ترجمة فرنسية لـ م . بوشيه – فورنيز ، باريس ، ١٩٧٨ .

جغرافية دار الاسلام البشرية ، ح ١ و ٢ : ميكيل (ا .) ، باريس – لاهاي، ج ١ ، طبعة ثانية ، ١٩٧٣ ج ٢ ، ١٩٧٥ .

الجغرافية العالمية ، نشرت باشراف ب . فيدال دي لا بلاش ول . غالوا ، باريس.

بلانشار (ر .) ، ج ٨ : آسية الغربية ، ١٩٢٩ ، ص ١ – ٢٣٤

كامينا داليدا (ب .) ، ج ٥ : الدول البلطيقية ، روسيا ، ١٩٣٢

غرينار (ف .) ، ج ٨ : آسية العليا ، ١٩٢٩ ، ص ٢٣٥ – ٣٧٩

موريت (ف .) ، ج ١٢ : افريقية الاستوائية والشرقية والجنوبية ، ١٩٣٨

الحيوان ، انظر النقد

دوسو (ر .) ، الطوبوغرافية التاريخية لسورية القديمة وسورية القرون الوسطى ، باريس ، ١٩٢٧

الدينوري ، كتاب النبات :

آ – كتاب النبات ، أبو حنيفة الدينوري ، جزء من القسم الابجدي (ز) . نشره ب. ليزين ، ابسالا – ويسبادن . ١٩٥٣ (مع معجم ألفاظ ، ص ٢٠ – ٥٢ ، اعتمد على مراجعة مصنفات قديمة – منها مصنفات ابن البيطار وابن العوام – ومصنفات حديثة .

ب – معجم نبات أبي حنيفة الدينوري (كتاب النبات ، س – ي) ، مأخوذ من استشهادات مصنفات متأخرة ، طبعة م . حميد الله ، القاهرة ، نسخ .

روبرتز (ت . ج .) ، نديات باكستان ، لندن — نونبريدج ، ١٩٧٧

سرجنت (ر . ب .) ، انظر لومبار النسيج .

سزكين (ف .) ، تاريخ التراث العربي ، ج ٣ ، ١٩٧٠

سليم علي ، وريبلي (س . د .) ، كتاب طيور الهند وباكستان ، اكسفورد ، ١١ روماني ، ١٩٦٩ .

شوارتز (ب .) ، Iran in Mittelalter nach den arabischen Geographen لابيزيغ ، ١٨٩٦ — ١٩٢٩ ، ٩٥٧ صفحة في ٧ أجزاء ، مع فهرس ، وجزءان ملحقان ، ستوتغتار برلين ، ١٩٣٤ و ١٩٣٦.

عزيز فكري (م .) ، القمح المصري ، القاهرة (مستخلص من مجلة اتحاد المزارعين في مصر ، الجمعية الملكية الزراعية ، رقم ٢٩٦ و ٢٩٧ ، تشرين الأول والثاني ، ١٩٣٨.

غالب (ا .) ، الموسوعة في العلوم الطبيعية ، ذكرت من قبل في جغرافية دار الا سلام ، ج ٢ : تنطوي على مراجعة مصنفات قديمة وحديثة، خاصة لمصطفى الشهابي . إلا أن اهتمامها انصب على مفردات اللغة العربية الجاري استعمالها أو العلمية ، ويبدو المنظور التاريخي ضعيفاً فيها .

غرينار (ف .) . انظر الجغرافية العالمية .

غوتنر (ا .) ، « رسالة في أسماك نهر دجلة » ، حوليات ومجلة التاريخ الطبيعي ، السلسلة الرابعة ، ١٤ روماني ، ١٨٧٤ ، ص ٣٦ — ٣٨ .

فانيان (ا .) ، اضافات إلى المعاجم العربية ، الجزائر ، ١٩٢٣

فليش (هـ .) ، كتاب فقه اللغة العربية ، ج ١ : مقدمات ، علم الأصوات، الصرف ، بيروت ، ١٩٦١

فهد (ت .) ، « العجيب في الحيوان والنبات والجماد » ، في الغريب والعجيب في دار الاسلا م في القرون الوسطى . مؤتمر جمعية تقدم الدراسات الاسلامية (باريس ، ١٩٧٤) ، باريس ، ١٩٧٨

فولرز (ج . د .) ، معجم اشتقاق فارسي لا تيني ، بون ، ٣ أجزاء ، ١٨٥٥ — ١٨٦٤ (ملحق ١٨٦٧)

فيليبس (و . و . ا .) ، كتاب تدييات سيلا ن ، سيلان – لندن ، ١٩٣٥

كامينا دالميدا (ب .) ، انظر الجغرافية العالمية

كوتيير (هـ .) ، عالم الأحياء ، باريس ، ٥ أجزاء ، ١٩٢٧ – ١٩٣٠

كووك (ج .) ، جامع المصادر العربية الخاصة بافريقية العربية من القرن الثامن إلى القرن السادس عشر ، باريس ، ١٩٧٥

لا ووست (هـ .) ، مفصل قانون ابن قدامة ، بيروت – دمشق ، ١٩٥٠

لوروا لادوري (ا .) ، فلاحو لانغدوك ، باريس ، جزءان ، ١٩٦٦

لوسترانج (ج .) ، أراضي الخلافة الشرقية ، كمبريدج ، ١٩٠٥

لومبار (م .) ، دار الاسلام في عظمتها الأولى ، باريس ، ١٩٧١

لومبار (م .) ، النسيج في دار الاسلام ، من القرن السابع إلى القرن ١٢ ، باريس – لاهاي ، نيويورك ، « معطيات لكتابة تاريخ النسيج الاسلامي حتى الفتح المنغولي » ، مجلة الفنون الا سلا مية ، ٩ روماني ١٩٤٢ – ١٦ روماني ١٩٥١.

ليفي بروفنسال (ا .) ، تاريخ الاندلس الاسلا مية ، باريس – لا يدن ، ٣ أجزاء ١٩٥٠ و ١٩٦٧ . المعجم العالمي للتاريخ الطبيعي ، باريس ، ١٣ جزء ، ١٨٤١ –١٧٤٩

المقدسي ، أحسن التقاسيم في معرفة الا قاليم ، ترجمة جزئية لـ ج . بلداشينو (انظر هذا الا سم) و ا . ميكيل ، « مصر كما رآها جغرافي عربي من القرن الرابع الهجري/العاشر الميلا دي : المقدسي » ، حوليات اسلا مية ، ١١ روماني ، ١٩٧٢ (مجلد مخصص لا حياء ذكرى غستون وايت) ، ص ١٠٩ – ١٣٩ . انظر أيضاً جغرافية دار الاسلا م البشرية ، ج ١ ، ص ٤٨ روماني .

مورو (ف .) ، (باشراف) ، النبات ، باريس ، ١٩٦٠

موريت (ف .) ، انظر الجغرافية العالمية .

ميزيون (كزافيه) ، تحليل جغرافي حيواني لثدييات فارس ، بروكسيل ، ١٩٥٩

النقد ، ٣٧٥ – ٣٧٦ ، آب – أيلول ، ١٩٧٨ ، عدد خاص ، الحيوان .

نورمان (ج . ر .) وفريزر (ف . ش .) ، عمالقة البحر ، ترجمة فرنسية لج. مونتاندون ، باريس ، ١٩٣٨

هاريسون (د . ل .) ، ثدييات جزيرة العرب ، لندن ، ٣ أجزاء ، ١٩٦٤ — ١٩٧٢

هاسنجر (ج . د .) ، مسح ثدييات أفغانستان ، شيكاغو ، ١٩٧٣

الهروي ، كتاب الزيارات ، دمشق ١٩٥٣ ، وترجمته لج . سورديل — تومين ، دمشق ١٩٥٧

هوزيه (ج .) ، نباتات الحبوب ، باريس ، ١٨٩٦

هويه (ف .) و انشيكوبار (ر . د .) ، طيور الشرقين الأدنى والأوسط ، باريس ، ١٩٧٠ .

* * *

ثبت المؤلفين ومصنفاتهم (بالرموز)

نكرر هنا ثبت الجزء السابق مع بعض الاضافات لتيسير الرجوع إليه

اسم المؤلف	اسم المصنف	الرمز
ابراهيم بن محمد الفارسي الكرخي الاصطخري ، أبو اسحاق	كتاب المسالك والممالك	اصط
ابراهيم بن وصيف شاه	مختصر العجائب	وص
ابراهيم بن يعقوب الاسرائلي	رحلة إلى اوربة الغربية	ابرا(ا)
الطرطوشي	رحلة إلى الصقالبة(١)	ابرا(ص)
احمد بن اسحاق (أبي يعقوب) بن جعفر بن وهب ابن واضح اليعقوبي ، أبو العباس	كتاب البلدان	يعق
أحمد بن عمر ابن رسته ، أبو علي	كتاب الأعلاق النفيسة	رست
أحمد بن فضلان بن العباس بن الراشد بن حماد	رسالة	فض
أحمد بن محمد بن اسحاق بن ابراهيم الهمداني ، ابن الفقيه	كتاب البلدان	فق
أحمد بن محمد الرازي ، أبو بكر	صفة الأندلس	راز
اخوان الصفا وخلان الوفاء	رسائل	اخ
اسحق بن الحسين	كتاب آكام المرجان	اسح
تميم بن بحر المطوعي	رحلة في بلاد خاقان التغزغز(٢)	تم

(١) لاسباب تتعلق بتيسير المراجعة ، سوف نشير ، بعد الاحالة إلى طبعة كوالسكي ، إلى طبعة الحجي .

(٢) ياقوت ، معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ٢٤ .

الحسن بن أحمد بن يعقوب بن يوسف بن داود من بني همدان، أبو محمد، ابن الحائك أو ابن ذي الدمينة.	صفة جزيرة العرب	هم
الحسن بن احمد (محمد) المهلبي	مقاطع من أبي الفداء	مه (ف)
	مقاطع من صلاح المنجد	مه(م)
	مقاطع من ياقوت	مه(ي)
سهراب (ابن سرابيون) مع احالات إلى طبعة فون مزيك	كتاب عجائب الاقاليم السبعة	سر
عبد الله بن احمد بن سليم الاسواني، أبو محمد	كتاب أخبار النوبة	اسو
عبد الملك بن محمد بن اسماعيل، أبو المنصور الثعالبي	لطائف المعارف	ثعا
عبيد الله بن أحمد ابن خرداذبه، أبو القاسم	كتاب المسالك والممالك	خر
علي بن الحسين بن علي المسعودي أبو الحسن	مروج الذهب	مس(م)
	التنبيه والاشراف	مس(ت)
علي بن محمد الشابشتي، أبو الحسن	كتاب الديارات	شاب
عمرو بن بحر بن محبوب، الكناني بالولاء،	كتاب الامصار وعجائب البلدان	جا(ا)
أبو عثمان، الشهير بالجاحظ	كتاب الحيوان	جا(ج)
	كتاب التبصر بالتجارة	جا(ت)
* قدامة بن جعفر بن قدامة بن زياد، البغدادي، أبو الفرج	كتاب الخراج وصناعة الكتابة	قد
ماشاء الله بن سارية	كتاب الاسعار	ماش
محمد بن أحمد بن أبي البناء الشامي المقدسي البشار شمس الدين، أبو عبد الله	أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم	مقد
محمد بن أحمد بن يوسف، أبو عبد الله، الكاتب البلخي الخوارزمي	مفاتيح العلوم	خو(م)
محمد بن اسحاق بن محمد بن اسحاق، أبو الفرج بن أبي يعقوب، ابن النديم	الفهرست	ند

محمد بن حوقل البغدادي الموصلي	كتاب صورة الأرض	حو
محمد بن موسى الخوارزمي، أبو عبد الله	صورة الأرض	خو(ص)
محمد بن يزيد السيرافي، أبو زيد	ملحق أخبار الصين و الهند	سيرا
محمد بن يوسف الوراق، أبو عبد الله	كتاب المسالك و الممالك	ور
	ترجمة جزئية للبكري اف. مونتيل ذكر في جغرافية دار الاسلام البشرية ج٢ قسم أول، ص ٢٨	ور(م)
مسعر بن مهلهل الخزرجي الينبوعي، أبو دلف	الطريق إلى اسية	مس(ا)
	الرسالة الثانية	مس(ب)
مطهر بن طاهر المقدسي	كتاب البدء و التاريخ	مقب
المغرورون	قصة رحلتهم	مغ
يحيى بن الحكم البكري الجياني، المعروف	رحلة إلى القسطنطينية	غز(ق)
	رحلة إلى بلاد النورمان	غز(ن)
يعقوب بن اسحاق بن الصباح الكندي	رسائل فلسفية	كن(ر)
مجهول	أخبار الصين و الهند	اخب
مجهول	تقويم قرطبة	تق
مجهول	حدود العالم	حد
مجهول	عجائب الهند	عج

* * *



الفصل الأول

الأرض

تشبه ازمنة الخالق
جبالا تجتاز الأرض
من البحر الى البحر
مؤلفة امواجا عالية
هولدرلين

تعتبر الفيزياء القديمة ان الأرض أحد العناصر الأربعة التي يتشكل منها الكون . ويدعي الانسان ، على ما يعلم جميع الناس ، أنه جبل من التراب (١) . إلا أن الأرض لا تلخص وحدها وجود البشر ، بل ينعم بنو آدم بالحياة لالتقائها بالهواء والماء بلطف من الله . وتصبح الأرض في النهاية ضرورية وكافية لذاتها فقط ، على غرار كل من العناصر الثلاثة الأخرى . لذلك ، تتم اتحاداتها بهذه العناصر ، بما فيها بالنار ، في معزل عن غائيات العالم ونظامه المسخر لمصلحة الانسان ، الذي قد يقال بأنها لا تبتغي شيئاً منه ، اذن لا تبدو الأرض عنصراً مفيداً في الغذاء أو أحد عناصر تركيب الكون فقط ، بل أيضاً كائناً قائماً بحد ذاته ، يثير ، على هذا الاساس ، تساؤلاً شاملاً . لكن لابد أن نقطع طريقاً طويلة على سطح هذا الجرم وفي داخله ، قبل أن نصل إلى طرح السؤال الخطير الأزلي الذي يوجهه الانسان إلى الأرض : من انت اذن أيتها الأرض التي

نعيش فيها ؟ في آخر المطاف ، ينبغي على المرء فعلاً ، لكي يدرك كيف يتحدد تعريف أحد الكائنات ، أن يسأل نفسه في البدء كيف يتركب هذا الكائن ومما يتركب ؟

بنيـــةُ الأرض

يتألف كل جرم من بنية معينة أو هيكل محدد قبل أي شيء آخر. والجبال هيكل الأرض . وقد تضمن القرآن هذه الحقيقة المعروفة منذ نزوله : والقي في الأرض رواسي أن تميد بكم (٢) . وتتردد هذه الصور عند جميع الجغرافيين العرب تقريباً ، وتتكرر حرفياً (٣) أحياناً. أما الخوارزمي ، على مُلتقى التقليدين الإسلامي واليوناني ، فيوزع الجبال على الأقاليم إقليماً إقليماً ، كما لو أنه يقصد أن يشدها بحزام : فتصير أطوالها وعروضها وتحديد مواقعها على الجهات الأصلية ، وألوانها . مرتكزات مطمئنة تدل على الهندسة الكونية (٤) .

وأراد مصنف كتاب « حدود العالم » ، الفارسي ، المجهول الاسم، أن يدخل المراتب في نظام الجبال . ولعله يكرر أحـــد أفكار ابن خرداذبه حين يقول (٥): « طبيعة الجبال مزدوجة. فبعضها أصلي ،يمتد من ناحية إلى أخرى ، يضيق أو يعرض . يستقيم تارة وينعطف أخرى ، حتى يبلغ منتهاه . فهذا البعض يدعى عمود الجبال . وبعضها الآخر فروع جبال تتشعب عن عمود الجبل . وتذهب إلى منتهاها ، وتدعى شقوقاً(*)،وتشبه فروع أغصان الأشجار. وقد تتفرع عن الشقوق شقوق

(*) جمع شق ، بفتح الشين ، النصف أو الجانب من كل شي ، واللفظ ، كغيره في هذه الفقرة ، من أصل كتاب الحدود الفارسي . وقد جرينا على استعمال مصطلحات المؤلفين ، وعلى أخذها من كتبهم ذاتها ، واحببنا اعلام القارىء الكريم . (المترجم) .

أصغر منها . فهذا مثال الجبال . وعلى وجه الإجمال ، تتشعب عدة شقوق عن عمد الجبال التي تمر في الكور والرساتيق ، في حين يقل كثيراً عدد هذه الشقوق في عمد الجبال التي تخترق المفاوز أو تنتصب على شواطىء البحار أو ضفاف الأنهار . وتتصل عمد الجبال بعضها ببعض في معظم الأحيان » .

في جميع الأحوال ، سواء شبه المصنفون الجبال بشجرة أو بهيكل عظمي أو بجهاز عصبي . فهي ، على حد تصورهم لها، تنتشر في جرم الأرض العظيم ، وتمدد فروع البنية الاجمالية إلى أطرافه القصوى ، لتضمن ما أراده الله له من توازن في أدق أجزائه . وفي الوقت ذاته ، يقيم المخطط العام المعروض علماً ، إنما علماً حقيقياً ، أرسي على الأصول والفروع . على غرار بعض أنبل علوم التقليد العربي الإسلامي . ويبرر هذا النهج المزدوج ، الذي يسمح بالانتقال من جبال ، أسميها أصلية إلى جبال فرعية متشعبة عنها ، أو من الجبال الفرعية إلى الجبال الأصلية ، الحرص على معرفتها ، واحتمال الوصول إلى هذه المعرفة ، ويطمئننا أيضاً على هندسة عالم يظن أن لا ناظم لها .

وقد أوحت لي النصوص بصورة الأرض المشدودة بعمد ، التي أشرت إليها منذ قليل . فمن المرتفعات الشاهقة في آسية الوسطى ، التي نسميها اليوم سقف العالم (٦) ، حتى أطراف البلدان المعروفة ، باتجاه شرقي غربي ، يحيط بكرة الأرض عمود العمد . لكن في وسط هذا النظام ، من جهة الغرب ، نحو دار الاسلام ، التي ينبض فيها قلب التاريخ وقلب أرض البشر ، يتسامى هذا العمود الأصلي أيضاً ان أمكن : « فمن تخوم هندوستان حيث تبدأ هذه السلسلة ، إلى تخوم جيلان (٧) حيث تنتهي ، تدعى منطقة الأرض (٨) ».

وهكذا يقوم كتاب « حدود العالم » بسلسلة متتالية من التعميمات ، حتى يبلغ جوهر النظام ، ويصل إلى الأصل الأول ، أي إلى الحلقة التي تضمن متانة المنطقة ، بما فيها هوامشها . لكن ماذا ندرأ؟ سواقط جرم بالي أم حدة شباب لا تضغط ؟ — هذه الأخيرة بلا ريب . فقد قلت في كتاب سابق (٩) إن الأرض تتجدد باستمرار ، جزءاً جزءاً ، ضامنة بهذه الطريقة بقاءها من جيل إلى جيل . فأعثر هنا مرة أخرى على ذلك الايمان، المرفوض الآن ، بأزلية حيوية الاجرام السماوية ، إنما بعد أن رمز له ، بأسلوب حديث ، برداء خاص يطوع النار الكامنة .

إذن ، ترمز الجبال إلى الحياة ، نعني الحياة المنتشرة ، ضمن حدود معقولة ، في أدق أطراف الشجرة ، وتنطوي عليها . ويغطي نظام الجبال الوارد في كتاب « حدود العالم » ، بشكل اساسي ، التبت والهند والقبق وأرمينية : أما سائر العالم ، بما فيه دار الاسلام ، فمبحوث من بعيد ، ويكاد يغفل أحياناً ، مثلما أبان مينورسكي جيداً في تحاليله الطويلة العلمية (١٠) . فلا عجب أن تتبسط جغرافية المسالك والممالك ، وفي طليعتها جغرافية ابن حوقل — وفي إطار نظام الجبال العالمي ذاته — في عرض جبال مملكة الاسلام . بالتالي سوف نبحث بخاصة هذه الجبال بالذات ، وبروح تقصينا الحالي ، دون أن نعزلها ، ببتر لا مبرر له ، عن مجمل الجبال العالمية التي تنتمي إليها (١١) .

ويشرح ابن حوقل موضوع الجبل الأصلي ، بلا صورة الحزام . ويكتفي بالقول إنه يمتد « على وجه الأرض » (١٢) . ويتصرر هذا النظام تصوراً مركزاً وجلياً يفوق ما جاء في كتاب « حدود العالم » . ويثبت ، على وجه التخصيص ، الجزء الغربي من هذا الجبل ، أي الجزء

الذي يهمه ، هو ، أن يبحثه على أساس أنه واضع خرائط دار الاسلام دون سواه فماذا يقول لنا ؟ يقول : « أوله (أي الجبل) بالمشرق من بلد الصين خارجاً من البحر المحيط . فيقطع بلاد التبت على مغاربها إلى أن يأتي من حدود الاسلام فرغانة،فتخرج منه ثلاث قطعات نحو الشمال والجنوب والجنوب الغربي . ونحن نتتبع القطعة الجنوبية الغربية التي تأخذ إلى سمرقند . ويقطعها نهر جيحون (اوكسوس أو آموداريا) ، » وكأنه (الجبل) قُطِعَ ليستمر الماء في وسطه، ويجتاز على البلاد التي هندس مضيّه إليها . « ثم يأخذ الجبل إلى نيسابور وينفصل عنه فرع يتجه إلى النواحي الجنوبية الشرقية من بحر الخزر (قزوين) . ثم يأخذ إلى الري قرب طهران الحالية . ويتصل من هناك ، من جهة ، بجبال أصبهان وشيراز إلى أن يبلغ بحر فارس ، ومن جهة أخرى ، بجبال تخوم بحر الخزر الجنوبية الغربيــة وجبال أذربيجان والقبق وبلــد الروم . أما عمود الجبل فيأخذ في امتداده نحو العراق ، ولا يكاد يخترقه حتى يعدل عن سمت المغرب إلى الشمال الغربي إلى أن يأتي إلى نهر دجلة الأعلى ، ثم يقطعه ، ويأخذ على مدينة سُمَيْسَاطَ على الفرات ، بعد أن يتشعب إلى جبال كثيرة ، خاصة جبال أرمينية التي تتصل هي بجبال أذربيجان وجبل القبق وفرغانة حتى يبلغ بلاد ياجوج وماجوج . ولا يزال هذا الجبل يأخذ من عند الفرات إلى جبل اللكام (الامانوس) الذي يتصل نفسه بجبال الروم وبلاد الشام الشمالية ولبنان وبيت المقدس والفسطاط وجبل المقطم . وتقع شعبتان منه أيضاً على جانبي نهر النيل : تمضي احداهما إلى بلاد النوبة وبعدها إلى جبال القمر المجهولة التي ينبع منها نهر النيل العظيم (١٣)،في حين تصل الشعبة الغربية إلى جبل برقة . أخيراً ومن هناك بالذات ، إما أن يمضي الجبل إلى سرت وجبل نفوسه في

جنوب غرب طرابلس ونفزاوه بين قابس وقفصة حيث يقف ابن حوقل ، وإما ان يضرب في أضعاف البر إلى فزان ، ثم يغوص في البراري حتّى سواحل البحر المحيط .

تثبت نزهة ابن حوقل على سروات الأرض ، وهومرخ العنان ، في ما يقل عن صفحتين ، رؤيته الواضحة الاجمالية لبنية الكرة الأرضية. فلا ريب أن هذا المصنّف يعرف، كما يعرف مصنّف « حدود العالم » ، أحوال الجبال التي تتشعب وتذهب بعيداً لتنتهي ، أو ، خلافاً لذلك، لتلتقي في مكان آخر بالسلسلة التي تفرعت عنها ، فتمثل على هذا النحو عروقاً أو شباكاً تحصر عيونها الأرض (١٤) . إلا أن ابن حوقل لا يتيه في التفاصيل ، وبخاصة ، كما يفعل مصنّف كتاب « حدود العالم » ، في جبال آسية البعيدة ، بل يجمل النظام في بناء أعم لأنه أوجز في كلامه وأغفل الدقائق ، ووضع صيغة المراتب دون أن يشوشها في ما لا نهاية له من الحالات المحتملة : « جميع الجبال . . . متناسبة متفرعة من الجبل الخارج من بلد الصين ذاهباً على الخط المستقيم إلى البحر المحيط من بلد السودان بالمغرب (١٥) » .

مع ذلك ، لا يكتفي ابن حوقل بهذا القدر . فهو يدقق في المصور ، ويضيف إلى النظام الجبلي نظاماً آخر ، ويقول في مكان ثان : « وكذلك جبال الأرض كلها متناسبة متصلة إلا القليل اليسير منها » ، كما أن « جميع الرمل الذي على وجه الأرض متصل متناسب ، لا أعرف فيه بلداً رمله ذو فصل إلا القليل (١٦) » . وهكذا يقدم لنا ابن حوقل، حتى في تكراره الصفات الواحدة ، الرمل والجبل وكأنهما متماثلان في تنظيمهما . وفي الحالة القصوى ، يمتزج الجبل والرمل . ويصبح بالإمكان

استبدال أحدهما بالآخر : ففي حين يتحول الرمل في قلب الصحراء الكبرى إلى « جبال لا يكاد يرتقى إلى ذراها إلا بمشقة شديدة (١٧) » ، يلاحظ ، على النقيض ، أن الجبل الأصلي يصير عند وصوله إلى نفزاوه جبال رمل ، فيستبدل طبيعته ، إن لم يكن شكله ، بطبيعة الرمل (١٨).

وعند هذا الحد ، تظهر صفة بارزة في هذه النظرة العامة لأرض دار الإسلام : فمن يحدق بها . ولنا عودة إلى هذه الناحية ، يسترع انتباهه حاجز مرتفع الذرى أو انبساط مفازة شاسعة ، يحاول فيه الرمل أحياناً ، مثلما رأينا منذ قليل ، أن يتخلى عن مستواه الأفقي ليقتحم الجبال . ويعتبر الحديث عن ترافق هذين العنصرين ميزة كبرى تنفرد بها بنية الأرض : وقد تبدو الرمال ، لأول وهلة ، أضعف في انتظامها من الجبال ، إذ لا أحد يذكر نواة رملية تقابل العقدة الجبلية في آسية العليا. فهل تسود الفوضى في الرمال ؟ نود في البدء أن نشير الى محاولة إجراء مقارنة لفظية : فكما أن الجبال تتألف من فروع تتشعب عن الجبل الأصلي ، كذلك تتوزع الرمال الى عروق(١٩) تأخذ على وجه الأرض . اذن ما عسى هذه النزهة الجديدة (٢٠) التي ندعى لإجرائها ، أن تعلمنا أيضاً ؟

لنبدأ هذه المرة من الغرب . يتخذ الرمل هنا شكل حدوة فرس ، ترتكز دوماً على إحدى شعبتيها ، وينطبق قسمها الأوسط مع ساحل إفريقية الغربية . وتنتهي شعبتها السفلى شرقاً في مفاوز لا تعبر ، في حين تمر شعبتها العليا بجنوب المغرب ونفزاوه وسرت والفيوم ، وتبلغ النيل حيث تتعامد هي وعرق رملي آخر ، يصل النوبة ، من جانبي النيل ، بجبل المقطم . ثم يأخذ الرمل من جهة إلى بلاد الشام ومن جهة أخرى

اخرى الى جزيرة العرب التي يحصرها من الغرب والجنوب والشرق ، ويصعد منها إلى العراق . وتحتل شمال جزيرة العرب شعبة أخرى تصل مباشرة المنطقة الواقعة بين المدينة وتبوك بالبحرين . وبعد جزيرة العرب ، يعبر نظام الرمل البحر ، ويعود فيظهر في الجنوب في بلاد الزنج ، وعلى شواطيء الخليج الفارسي مقابل البحرين وعمان ، يأخذ نحوسجستان. وهنا تفتح شعبة الكماشة الأسيوية الكبرى : شمالا . نحو خراسان وخوارزم وبلاد الترك والصين حتى البحر المحيط ، وجنوباً ، نحو الهند والتبت والصين حتى البحر المحيط أيضاً . ويختتم ابن حوقل(٢١) قائلا : « وهو (يعني الرمل) على ما وصفته وسقته (٢٢) من المحيط بالمشرق إلى المحيط بالمغرب » .

اذن لا انقطاع في نظام الرمل ولا في نظام الجبال . ولا يسع الرمل أبداً ، وهو متحرك في جوهره ، أن يطمح ، كالجبال ، بتثبيت بنية الكرة . في النهاية ، يعثر عليه في جميع الأماكن ، ويقترن توزيعه بتوزيع التضاريس في أماكن كثيرة . ومهما يكن ، تتجرِ الأمور وكأن الجبل هيكل الأرض والرمل علامته . وقد ينكر البعض فائدة الرمل هذه ، لأن الجبل يدل على نفسه بنفسه ، إضافة إلى دوره الخاص كعمود الأرض . لابأس ، إنما لا ترى هذه الهندسة دوماً : فهي تغوص أحياناً في باطن الأرض ، وعندئذ يدل عليها الرمل ، كما يقولون ، من على وجه الأرض ، يسمح باتباع أثرها المدفون ، كما هي الحال في الصحراء الكبرى مثلاً ، حيث ، على حد قول ابن حوقل (٢٣) : « لا يزال هذا الجبل يظهر في مواضع مستحجراً وفي مواضع جبال رمل ودهس . . . ويغوص في تلك البراري » . ويلاحظ التدرّج : من الجبل الحقيقي المنظور ، الذي يأتي هنا من فزان ، إلى الجبل الصخري ، ثم إلى الرمل

الذي يكشف عنه أيضاً ، وأخيراً إلى الرمل المولى وحده الدلالة عليه . اذن هذا الرمل أمين ، وضع في مكانه ليدل حسياً ، عند اللزوم ، على استمرار الجبل ، حتى تحت البحر . فهاك بلدين على جانبي خليج فارس عند مدخله : فمن جهة ، تقع عمان التي يقال لنا (٢٤) بأنها ربما وقع فيها ثلج رقيق ، ومن جهة ، الجبل الذي يتصل بجبال أصبهان وشيراز إلى أن « يصل إلى بحر فارس » (٢٥) . فماذا يحوي هذا البحر اذن من شاطئه إلى شاطئه تحت مائه؟ عرق رمل ، يجيبنا ويشرح ابن حوقل . اذن قد يجوز لنا أن نضيف : عرقاً جبلياً أيضاً . ولا يدقق ابن حوقل في هذه الناحية ، إلا أن المسعودي يعطي الجواب لأنه هو وابن حوقل يكمل أحدهما الآخر : فراس الجمجمة ، الذي يشكل على ساحل مكران ، الحد الشرقي لبحر فارس ، « جبل متصل ببلاد اليمن من أرض الشحر والأحقاف ، والرمل منه تحت البحر ، لا يدري أين تنتهي غايته في الماء » (٢٦) .

فاذا كان الرمل يقوم فعلاً بهذه الوظيفة على الأرض ، أعني اذا كان حقاً دليلاً على بناء الأرض ، سواء أجدى أم لم يجد ، حسب ظهور التضاريس ذاتها أو اختفائها في باطن البر ، عندئذ لا عجب لما يبذله الجغرافيون الرسامون من عناية في تمثيله على خرائطهم (٢٧) ، ولا إذا شكلت عروق الرمل ، عند ابن حوقل ، نظاماً يعادل تماسكه في النهاية ، تماسك نظام الجبال ، ويفوق كثيراً في جميع الأحوال النظام الوارد ، بهذه المناسبة ، في كتاب « حدود العالم » (٢٨) . وأعود إلى صورة حدوة الفرس أو إلى الكماشة ، لأبرز أنها تكرر ، في إفريقية وآسية ، على جانبي ما يبدو قلب النظام ، أو أيضاً ، مثلما قلنا في حديثنا عن الجبال ، حلقة الحزام الرملي هذه المرة : وهذه الحلقة مرسومة بدقة

تامة ، وتعطي شكلاً رباعياً ، لا يقل وضوحه عن رباعي بوهيميا الجبلي ، وتشع منه في العالم الأسهم الكبرى الصحراوية التي تمتد على طول الجبال لتبين ، كما لو كانت معالم ، كمال الهندسة التي حباها الله بها . فهل يتحتم علينا أن نعجب لأن هذا القلب أو الحلقة أو هذه اليد ، كما تشاء ، انطبق مع جزيرة العرب ، التي يذكرنا نشوؤها الكوني ، في الاسلام ، أنها الأرض الأم الممتازة منذ استقبلت آدم وحواء المطرودين من الجنة ، وأن البيت رفع لما غرقت الأرض ليعرف مكانه (٢٩) ، وأن جبالها من جبال الجنة في جميع الأحوال (٣٠) ؟ ومن هنا نشأت ، عند التقاء التقليد والجغرافية ، « عجيبة » جبل العرج الذي يقع بين المدينة ومكة ، ويمضي حتى يتصل بلبنان واللكام والقبق ، ويشكل بالتالي مرة واحدة ، عقدة النظام الجبلي العظيم العالمي (٣١) عوضاً عن آسية الوسطى . ويبادر الجبل الأصلي إلى مساعدة الرمل ، بعد أن غيرت الارادة الاسلامية مكانها ، وثبتت جزيرة العرب ضد صور عالم أخرى ، في دورها البارز كقطب مملكة الاسلام (٣٢) .

بعضُ الجبال والمفاوز في دار الإسلام

ثبت قطعاً أن جولتنا الحرة ، على حد تعبيرنا ، كانت كافية لكي ترسخ في أذهاننا صورة جبال دار الاسلام ومفاوزها . ويسعنا الآن أن نخترق الأقاليم على مسار الطريق الرئيسي بالذات أو على جانبيه ، وأن نتوقف ، ونتهادى ، ونتسكع . إلا أن هذه التفاصيل تتوهنا ، وتبعدنا عن اهتمامنا ، الذي ينحصر في تحديد صورة شاملة اعتماداً عليها . ولم يقل أحد إن هذه الرحلات الكثيرة غنية بالدروس على الدوام . ففي أغلب الأحيان ، يذكر الجغرافيون رمالاً وجبالاً هنا وهناك ، ولا

يصفونها . لذلك أحيل القارىء إلى الحواشي (٣٣) لكي يطلع عليها ، على أن أحدد تحديداً عاماً على خريطة دار الاسلام موقع أهمها أو ما يبدو أهمها لوروده في النص . عندئذ أستطيع أن أرجع إلى مجمل المفاوز والجبال ، وأجمع المعطيات . وأستخلص منها الخصائص الوثيقة الصلة بتمثيلها .

مع ذلك ، نود ، قبل أن نستبعد تعداد أشكال التضاريس الممل ، منطقة فمنطقة ، أن نكرر مرة أخرى أن التمسك بتدوينها وتنطس المصنفين أحياناً في تدوينها ، يشهدان على تفنن الباري في خلق العالم واحكامه بناء أدق نهايات جرمه الهائل . من هذا المنطلق ، يتضح توزيع المفاوز ، وينتظمُ في ثلاث حوزات كبرى ، تبرزها عروق الرمال العامّة ، أو تحصرها أو تعتبر امتداداً لها أحياناً . فمن جهة أولى ، تمتد أرض قفر شاسعة ، تجاور أرض دار الإسلام : نعني الصحراء الكبرى ، المَعبر إلى افريقية الداخلية ، بلد الزنوج المجهول . ومن جهة ثانية ، يمتد نطاقان جافان تحويهما أرض دار الإسلام ضمنها : بادية العرب ، أي صحراء الشام ، بين إقليم الشام وأقاليم العراق وجزيرة العرب ومصر ، ثم المفازة الكبرى المسماة مفازة فارس ، التي تتصل بأقاليم سجستان وكرمان وفارس والجبال وخراسان . ولاشك أن هذه الحوزات تتبدل من مفازة إلى أخرى وبحد ذاتها : فالمفاهيم والتسميات تستبهم أحياناً من المفازة المطلقة الخالية من الحياة إلى البادية التي تسمح ببعض أشكال النشاط الطبيعي أو البشري . وسوف تتاح لنا فرصة العودة إليها . لكن هنا على الخريطة ، لا يوجد أي إبهام : فالبقع الثلاثة البيضاء — أو الصفراء في تلوين المقدسي ، تبرز جيداً من بعيد ، على خلفية دكناء

من الأرض (٣٤) . والمفاوز الكبرى ، الشهيرة متصلة ، مثلما يظن ، ولا تحتمل كتلتها بالذات تدقيقاً في التفاصيل .

ولابد أن ينطبق هذا الوضع على الجبال أيضاً ، مادام الباحث يبرز وحدتها العضوية من أقصى الدنيا إلى أقصاها . إلا أن الجبال تتباين باختلاف علوها ، وتجزىء وجه الأرض ، وتعزل البلدان عن بعضها ، أو تتوارى في أضعاف ظهر البسيطة ، فيتمكن الناس أن يميزوا في كتلة ظُنّ انها غلظ الجبل ومعظمه مع انها متبدلة ، أطواداً يتفاوت تمايزها . ويوزع التصنيف الأول الجبال على الأرض جمعاء ، حسب التقليد اليوناني بعد إعادة النظر فيه وتصحيحه على ضوء المعارف الأرضية الحاصلة من التاريخ الإسلامي الجديد ، أي حسب الأقاليم ، أقصد الأقاليم السبعة الطولانية التي تتوالى بدءاً من خط الاستواء . وبذا يصبح لكل إقليم نصيبه من الجبال . ويعتبر الخوارزمي (محمد بن موسى) رائد أصحاب هذا التصنيف الذين نذكر منهم قدامة وابن سرابيون وإخوان الصفا . ويرى الخوارزمي أن عدد الجبال يبلغ على وجه الأرض (٣٥) ١٨٠ جبلاً . ومهما بلغت أهمية هذا التوزيع الاقليمي (٣٦) ، فهو لا يذكر مملكة الإسلام إلا في نطاق إندراجها في نظام الكون ، ثم إن الجبال تصبح فيه مواقع على الخريطة ، كالعناوين الأخرى ، من بحار أو جـــزر أو أنهار أو عيـــون أو مـــدن . في جميع الأحوال ، لا يتحدث أحد البتة عن مراتب في الجبال ، ولا أثر لهذه المراتب ، لأن الغاية تنحصر لا في إجراء تصنيف ، بل في تحديد الجبال على وجه الأرض بطريقة منهجية ، وتقديم إحصاء شامل لها يصل ، إذا جاز لي القول ، كيانات التضاريس في رؤية موحدة .

وتبدو بعض الأخبار أهم . وإن كانت لا تعلن صراحة عن تمسكها بجبال دار الاسلام ، مع أن اختيارها لا يقع إلا على بعض منها . ويبدع ابن الفقيه (٣٧) في هذه الناحية ، ويكرر قول قتادة (٣٨) : بنيت الكعبة من ستة أجبل : طور سينا ، وطور زيتا . وأحد ولبنان ، وحراء وثبير . وبذا نرى أن جبلاً واحداً يختص بالتقليد الموسوي ، وجبلين اثنين بالنصرانية (٣٩) وثلاثة جبال بالإسلام : هي الحراء مقر الوحي الأول، وثبير (٤٠) القريب منه ، وأحد جبل الشهداء الذي آوى في أحد شقوقه الرسول الجريح ، الذي قال عنه : « وأحد جبل يحبنا ونحبه ، جاءنا سائراً إلينا ، متعبداً ، له تسبيح يزفّ زفا (٤١) » . وقال مجاهد (٤٢): أسس ابراهيم زوايا البيت بأربعة أحجار : حجر من حراء ، وحجر من ثبير ، وحجر من الطور ، وحجر من الجودي . أما المقدسي (٤٣) ، فيقول إن أربعة أجبل من الجنة ، ثم ينسى واحداً منها ، ويسمي أُحد والطور ومجنة . ومجنة في أرض مكة ، ورد ذكرها طبعاً لتقارب اسمها واسم الجنة (٤٤) . أخيراً (٤٥) ، يشير المسعودي إلى أربعة أطوار مقدسة عند النصارى ، أولها طور سينا ، والثاني طور هارون ، وهو جبل هور قرب البتراء ، والثالث طور زيتا ، والرابع طور الأردن « بين فلسطين وطبرية » ، وهو بلا شك جبل طابور ، الذي يحمل حتى الآن ، كالجبل السابق ، اسم جبل الطور (٤٦) .

يتضح بجلاء العيب ، إفراطاً أو نقصاً ، في جميع التصنيفات التي عرضناها : فما غاية بحثنا إلا أن نبرز في أرض دار الإسلام الجبال التي تحدد آفاقها هنا وهناك على الوجه الصحيح . فالتصنيف المستوحى من الكرتوغرافية اليونانية ، يرفض مبدئياً كل فكرة مراتب ، لأنه يتوخى أن يدون تدويناً منهجياً جميع الجبال على حد سواء ، وأن يحولها من

ناحية ثانية إلى نقاط موضوعة على الخريطة ، ناشئة عن تقاطع خطي طول وعرض . أما سائر التصنيفات ، فترتكز على فكرة دينية ثابتة ، تضيف إلى مفهوم الجبل ، أو تحل محله مفهوم الحيز المقدس . وحتى لو تطابق هذان المفهومان أحياناً ، على نحو ما سوف نلحظ أحياناً فيما بعد ، فان الجبل يعرف بحد ذاته أولاً ، أعني بتضريسه ، وبشكله الذي يميزه عن العالم ، وحتى عن الجبل الكوني المنتشر في جميع الأماكن. إذن يتحتم علينا أن نرجع إلى النصوص (٤٧) ، لنتعمق فيها ، ونتجاوز التصنيفات المعروضة صراحة على علاتها ، ونستخلص بعض المفاهيم ، والأقوال المعادة ، والاستطرادات ، والصورة الحقيقية للجبال الحقيقية في دار الإسلام .

ولنبدأ من الشرق . ففيه نلقى مفاجأة : فالحاجز بين أفغانستان وبين الهند ، الشهير في تاريخ الغزوات ، ثم في ملحمة خطوط الدفاع عن الامبراطورية البريطانية ، يكاد يتلاشى في نصوص الجغرافيين ، ويقتصر ذكره على بضعة أسطر ، تقنية جداً ، تتناول كلها بنية السلاسل الجبلية وتفرعاتها ،ترد في كتاب حدود العالم ، الذي يستفيض في بحث هذا الموضوع (٤٨) . ويحبّذ الجغرافيون جبال إقليم كرمان، التي ينهّج المقدسي ما ورد بشأنها من معطيات عند الاصطخري ، ويفرد لها نبذة خاصة (٤٩) . ويقال لنا إنها من مشاهير الجبال مع من يقطنها من قبائل القفص (كوفش ، كوج) والبلوص (بلوش) والبارز . فلماذا ؟ لأنها غنية بالفضة (يدعى أحدها جبل الفضة) وحشة ومنيعة ، وتتمايز بزرعها عن جدب المفازة الكبرى القريبة منها ، وتنشر الرعب مثلما يحدث في المفازة . وتزيد عليه ما تثيره من مخاوف قبائل شبه متوحشة ، تدعي الإسلام . والبلوص شر منهم يبث قومهم الذعر بقساوة قلوبهم .

والجبال إقليم آخر ، يفرد له المقدسي نبذة خاصة . ويغني اسم هذا الاقليم عن التعايق . و « الجبال » « شاهقة » . يقول عنها ابن حوقل إنها تحتكر معظم أرض الإقليم ، الذي لا يمكن ألا يسمى باسمها (٥٠). وفيما عدا هذه التسمية المشتركة . يرد ذكر خمسة جبال في هذا الفيض من التضاريس (٥١) في الشمال الغربي والغرب والشمال الشرقي ، نعددها على التوالي : جبال الخرمية (٥٢) التي تعيد ذكر مآثر بابك الثائر الحانقة القتالة ، ثم أروند إلى جنوب همذان ، وفيه عين من عيون الجنة وأنوارها (٥٣) ، ثم جبل بهستون (بيستون) ، « الجرف الرمادي الشاهق » (٥٤) ، بين كرمنشاه وهمذان . ويمده ابن حوقل من الري ومشارف العراق ، وهو « جبل منيع ، لا يرتقى إلى ذروته أيضاً ، . . . ، ووجهه من أعلاه إلى أسفله ، أملس ، حتى كأنه منحوت » ، أخيراً جبل دونباوند (دماوند) ، سيد الجبال ، وملك البورز ، ويتوزع على اقليمي الجبال والديلم (٥٥) . ويطيب للاصطخري وابن حوقل والمقدسي وغيرهم (٥٦) ، أن يشيدوا بهذا الجبل الواقع في وسط جبال يعلو فوقها كالقبة ، ويحيط بالموضع الذي يعلو على الجبال ، نحو أربعة فراسخ (حوالي ٢٣ كم) ، ويرتفع حتى يرى من خمسين فرسخاً لعلوه. ويضاعف المسعودي هذ الرقم ، ويقول : فاذا صارت المراكب في بحر طبرستان على نحو من مائة فرسخ ، ودنت من جبال طبرستان ، رأت في الأفق اليسير من أعالي جبل دنباوند ، المنعزل ، الشامخ ، العملاق . فكلما قربت من الساحل ، ظهر لها ، وهذا دليل على كرية ماء البحر وأنه مستدير الشكل . وتسمو قلته الجرداء في الهواء ، ويرتفع الدخان من أعاليه التي تترادف عليها الثلوج ، ويشتد فيها البرد ، وتعصف فيها الرياح حتى لا يلحقها شيء من الوحش ولا من الطير . ومسافة الصعود إليه(٥٧)

ثلاثة أيام بلياليها . لكن يا لروعة المكافأة ؟ فعلى هذا العلو الشاهق ، يرى من يعلو دنباوند « ما حوله من الجبال الشامخة كأنها رواب وتلال » و « البحر كأنه نهر صغير » .

وتعتبر فارس والديلم على جانبي إقليم الجبال ، اقليمي جبال أيضاً ، ينظر إليهما نظرة واحدة شاملة . ولم تعط التضاريس أسماء في إقليم فارس . لسبب بسيط : لأنها تسود في جميع الأماكن ، حتى إن الاصطخري يقول في صيغة موحدة : ليس بفارس بلد إلا وله جبل . بالتالي ، لا يسعه ، مثلما يستنتج بنفسه ، أن يثقل الخريطة بالجبال المنتشرة في جميع الأماكن . ويكرر كتاب « حدود العالم » وابن حوقل والمقدسي ، حرفياً أحياناً ، هذا القول ، لفرط سهولته على الأرجح(٥٨)، ويكتفون بأن يعيدوا أثناء وصف المدن أو الحصون اسم الصرود الشائع . ويكاد الوضع يعيد نفسه على هذا المنوال في الأصقاع القريبة من بحر قزوين ، كالجيلان ، وطبرستان (مزندران) ، وجرجان ، التي يتألف منها إقليم الديلم . ومما يسترعي الانتباه ، هنا ، إضافة إلى التأكيد على الجبال (٥٩) ، هو ربطها بنظام العالم الكبير ، غرباً باذربيجان والقبق ، وشرقاً بخراسان . فيما عدا ذلك ، لا يطلق على الجبل ، المنظور إليه بالإجمال ، إلا اسم الأقاليم التي ينتمي إليها أو السلالة الحاكمة فيه (٦٠).

وهكذا تحتل فارس والديلم في مشهد دار الاسلام الجبلي العام ، وضعاً متوسطاً بين الاقاليم الشامخة الجبال ، مثل إقليم الجبال ، وبين أقاليم أخرى ، لا تخلو من الجبال — وهذا مستحيل كما نعلم — إنما جبالها نادرة ، أو صغيرة أو تكاد لا ترى ، مثلما هي الحال في خوزستان ، أي سوزيان القديمة ، الإقليم الذي ليس به جبل شاهق (٦١) ، الذي

تعلو تخومه الشرقية قطعاً لقربها من أقليم الجبل الذي يسبب لها البرد وجمد الماء في الشتاء ، وربما سقط فيها الثلج (٦٢) .

ويتصل إقليم الجبال بجبال شبيهة بجباله في جهة الشرق والشمال الشرقي . وقد أشرت من قبل إلى اتصال جبال خراسان وما وراء النهر بسلسلات آسية الوسطى . وأود الآن أن أعتمد على النصوص ، لاستعرض ذرى هذا الجبل الطويل الشاهق المتشعب ، أو أطواده ، التي يحبوها مصنفو الجغرافية أهمية خاصة ، تعبر عنها أعلامها . ونبدأ بمفازة فارس . فالى شمالى شرق قاشان ، يمتد وعر من ربى ووهاد ، يحيط بجبلي كركس كوه وسياه كوه . وكركس كوه جبل ليس بالكبير الطويل ، وهو منقطع عن الجبال ، وعر المسلك إلى ذراه ، فيه معاطف ومسالك وحشة ، يعتصم به اللصوص ، ويخفون فيه أموالهم وذخائرهم .فلا ريب أن هذا الجبل يسترعي الانتباه : فمثلما انتصب في الطبيعة ، امتد على الخريطة (٦٣) ، واستوجب فقرة خاصة في النص أبرزته بوضوح(٦٤) ولم تكتف بذكر اسمه ، بل أبانت ان كركس اسم المفازة التي تتاخم الري وقُمْ (٦٥) .

ويذكر المشهد العام في الشمال الشرقي ، من ناحية خراسان وما وراء النهر ، بالمشهد العام في فارس إلى حد معين فالغور ، وفرغانة ، وهيطل ، وختل ، ووخان وغيرها ، وكل البلدان أو جميعها تقريباً ، بمدنها ، فيها جبال قليلة أو كثيرة . فمتى لفظت أسماء هذه الكور ، تتبادر إلى الذهن صورة الجبال آلياً تقريباً ، في حرفية النص وضمير القارىء (٦٦) ، ويدرك الانسان (٦٧) أن انعدام التضريس أو ضعفه أو بعده ، كما لو أريد صرف النظر عن لازمة كانت في الماضي ملحة وساحقة أحياناً (٦٨) ،

تصل إلى ذروتها بذكر اسم الغرج (غرج الشار ، غرجستان ، غروشستان) والغرج هي الجبال حسب المقدسي : وهذا أمر طبيعي في بلد كله جبال (٦٩) . على أننا نشاهد في هذا المنظر الجبلي العام ، بعض المعالم كما هي الحال في إقليم الجبال ، عددها أوفر وتتناسب مع بقعةٍ أوسع . منها الجبل الأسود الذي يعتبر مرحلة على الطريق إلى جنوب هراة (٧٠)، ثم جبل سابلغ (سافلغ) الذي يحمي من الأتراك بلد الشاش أي طشقند الحالية (٧١) هو والسور ومجرى نهر سيحون (سرداريا ارياكسارت). ثم جبل كو ، أقرب الجبال إلى بلخ (٧٢) ، ثم الجبال التي تحيط بسمرقند : مثل جبل كوهك الصغير الذي يمتد أصله إلى سور هذه المدينة ، ومنه أحجار البلد ، والطين المستعمل في الأواني والنورة والزجاج (٧٣) ، ثم سيام ، وجبل الزابج ، وبخاصة جبل الشاوذار (الساودار) إلى الجنوب ، المتصل الغلات لا تغبُّ ولا تمتنع ، ثم جبال البتّم إلى الجنوب الشرقي، ويشار إلى أنها تتصل بالنظام الجبلي العالمي وتقسم إلى البتم الأول والأوسط والبتم الخارج (٧٤) . ويسترعي انتباه الجغرافيين وجود معادن الزاج والنزشاذر والذهب والفضة في هذه الكور الشهيرة في تاريخ عملات الشرق (٧٥) ، ثم جبل الفضة ، وهو سلطان هنا ، يطلق اسمه على إحدى المدن (مدينة جبل الفضة) (٧٦) ويقع على بعد مائة كم إلى جنوب غرب هرات . وبقرب جبال الفضة ثلاث مدن في بلد سرداريا المجاور لفرغانه (٧٧) . أخيراً بنجهير ، وهي جبل الفضة ، عند منابع نهر كابل (٧٨) .

مع ذلك ، لم ترو غلتنا . فيا لعجبنا . لقد لقينا كثيراً من السلاسل الطويلة ، المتقاطعة ، المتكتلة ، المتفرعة ، تتشعب عن الجبال في جميع الأماكن ، تتيح لنا في أفضل الاحتمالات أن نتنفس قليلاً قبل أن نستأنف

التقصي . وكانت حصيلة هذاالجهد بعض الأسماء المحدودة العدد .
وكنا لتتأسى لو حصلنا هنا على شروح طويلة حماسية لجبال عملاقة، أثرت فينا روعتها بعض الشيء ، مثل بهستون أو دنباوند في الجبال . لكننا لم نتوصل إلا إلى جبال شبه مغفلة الاسم ، اذا جاز القول . وفي هذا المجال، ينال كتاب «حدود العالم» قصب السبق : فقد قلنا إنه يعنى عناية فائقة ، لا طائل تحتها دوماً ، ليوضح هذه المتاهة ، وقد حقق مأثرة مفاجئة ، فذكر اسم علم واحداً مبهماً ومشكوكاً فيه (٧٩) في إقليمي خراسان وما وراء النهر . لكن هل نحصل على حظ أفضل من نصوص المسالك والممالك ؟ في الواقع ، لولا أهمية المعادن الثمينة أو ضرورات تحديد الطريق أو مجاورة بلدان شهيرة ، لما تمتعت الجبال الوارد ذكرها، بأجمعها ، بوجود خاص بها فيما عدا الاسم الذي تأخذه عن كورة أو مدينة أو سلالة . وتجري الأمور كما لو أن البشر قرروا ، في ردة فعلهم حيال الجبال ، أن يمتلكوها ، بتغير مفاجىء في الأشياء : ففي صميم جغرافية ترتبط ، حسب مبادئنا الحالية ، بطبيعة الأرض ، نحن مدعوون في الواقع مرة أخرى ، إلى معرفة البشر .

ويحتف جبل القبق بتقويس إقليم الجبال في الشمال الغربي ، في الأفق البعيد . ويؤلف غلق قبة النظام الجبلي . وقد تحدثت في مكان آخر (٨٠) عما ينطوي عليه هذا الجبل الثغري من عظمة وأسرار وقلق. وبه تتصل ، في نطاق التضاريس العالمية ، أذربيجان وأرمينية والجزيرة . وتقتطع الجزيرة من فارس ، كما رأينا ، جزء من السلسلة الطويلة، ويطوف هذا الجزء على حدود العراق حتى ينتهي إلى ضفة دجلة اليسرى (٨١) ، ويحمل أسماء متنوعة ، يأخذها أحياناً من أسماء البلدان التي يجتازهـا (٨٢) قبل أن يصل إلى الكتلة الجبليـة العظيمة التي

تحوي أماكن عديدة ، في طليعتها ، ثمنين (٨٣) تحت قمم جبل الجودي الشهير دون سواه : ويقال إن سفينة نوح استقرت عليه ، ويقال إن جميع من كان مع نوح في السفينة ثمانون رجلاً ، بنوا تلك القرية ، فسميت باسمهم (٨٤) . ويفترض أن جبل الحارث (ارارات) (٨٥) مكان آخر استقرت عليه سفينة نوح ، إلا أنـه لا يبـدو كـذلك عنـد الجغرافيين (٨٦) . وهو جبل عظيم ، أعظم من جبال إقليم الجبال ، « متعال على الاسلام » لا يمكن أحداً صعوده لارتفاعه وصعوبة مسلكه . والثلوج عليه دائمة . ودونه جبل صغير يسمى الحويرث . وتخرج من الحارث مياههم . ومحتطبهم وتصيدهم فيه . ويقال إنه لا يعرف جبل أعلى منه بهذه المدن . وكان حضيضه خصباً يجمع حوالي ألف قرية (٨٧). أما أذربيجان ، فجبلية كالبلدان المجاورة لها (٨٨) . وأكبر مدنها أردبيل ، ولها جبل صعوده ونزوله نحو ثلاثة فراسخ (١٧ كم) — إن تسلقه أحد — يسمى سبلان ، رفيع شامخ ، مطل عليها من غربيها ، لا تفارقه الثلوج صيفاً ولا شتاء ، وإذا كان بعض المصنفين قد حطوا من شأنه ، مثلما فعل مؤلف كتاب حدود العالم وإن كان أكبر من دنباوند ذاته ، فذلك لأنه يبدو أقل علواً لانعزاله في وسط الجبال المحيطة به (٨٩) ، على حد قول ابن حوقل .

لننتقل الآن إلى الجنوب ، نلق تفاصيل أوسع ، وتحديد أسماء أفضل ، يفرد لها المقدسي بحثاً خاصاً (٩٠) . ويمثل جبل اللكام (الأمانوس) المحور الشمالي في نظام الجبال العالمي . فهو يتصل بجبال ملطية وشمشاط وقاليقلا والجزيرة والشام . ويفصل بلد الاسلام عن بلد الروم : وهو أعمر جبال الشام وأكبرها وأكثرها ثماراً . ويمضي إلى جنوب حمص ، فيسمى جبل بهراء وتنوخ ، ثم يسمى جبل لبنان بعيونه وثماره وعباده.

وهنا يعود الجبل شامخاً ، فيشرف على البحر أو الأرض . ويرتفع بدرجات عملاقة ، فيسمى « طريق المدارج » من الجليل إلى بعلبك(٩١). مع ذلك ، يظهر بعض الغموض على الخريطة . ففي الأغلب ، يقصد فعلاً بالسلسلة الممتدة بين حمص ودمشق ، لا جبال لبنان الغربية ، بل جبال لبنان الشرقية التي يضاف إليها جبل الثلج وسنير (٩٢) الذي يستغرب وضعه عند منابع بردى ، ثم جبال البلقاء إلى شرق البحر الميت ، وأخيراً جبال الحوارج بين البحر الميت وسينا ، وجبال الشراة بين البحر الميت وجزيرة العرب . وأصل المقدسي من بيت المقدس ، ولا يجوز نسيانه ، لذلك فهو يعدل الخريطة . فجبل عاملة (أو صديقا بين صور وقدس وبانياس وصيدا) يطل على البحر ، ويتصل بجبل لبنان ، تليه جبال طبرية ونابلس ، وجبل زيتا ، وجبل نضره قرب حبرون (٩٣) . ووراء جبل عاملة ، سلسلة طويلة تشمل جبل الثلج (حرمون) وجبل الجولان وجبال جرش المسماة اليوم جبال عجلون ، على منتصف الطريق بين بحيرة طبرية وعمان . وفي أقصى الجنوب ، يتصل النظام الجبلي بآن واحد ، بسيناء وبجبل المقطم في مصر ، وبجبل الشراة في سلسلة جزيرة العرب الساحلية .

ويتبدل موقف الانسان من جبال الشام فيعطيها هوية حقيقية ، فيما يبدو . لكن هل هذا صحيح ؟ لنستثن المقدسي ، الذي تملي عليه وطنيته الفلسطينية أن يعنى بالجبال عناية خاصة ، مثلما يعنى بالأنهار والعيون والمدن في بلده (٩٤) . فما هو وضع الآخرين ؟ إن ما يهيمن مرة أخرى وراء الأسماء ، هو البناء الأرضي ، والشعور بهذه السلسلة الفريدة التي تحمل وحدها هنا ثقل الظهرة العالمية الكبرى . فتعداد أسماء

الجبال من الأناضول إلى جزيرة العرب يدل على الدقة في الاستقامة ، خلافاً لما يحصل في المشرق في دار الاسلام ، الذي يظهر فيه تعقيد النظام الجبلي ، فيصور على حاله أو يحول إلى مخططات عامة مقتضبة ، فيغفل عدداً كبيراً من الأسماء وأكثر مما نفترض بلا أدنى شك إذا راعينا اتساع هذه الجبال ووجودها في جميع الأماكن . لكن هل ينطوي الموضوع في الشام على شيء آخر يضاف إلى البساطة ؟ ففيما عدا اللكام، الذي أبنا دوره العظيم كمحور على خريطة تضاريس العالم ، ماذا تمثل الجبال في نظر مصنفي الجغرافية والمقدسي ؟ تدل على قبائل أو جماعات أخرى ، مثل تنوخ أو بهراء أو عاملة أو الخوارج ، وعلى مدن مثل جرش أو طبرية أو نابلس ، وعلى نواحي مثل البلقاء أو الجولان (٩٥) أو الشراة (٩٦) . ماذا يبقى اذن في النهاية ؟ جبال تقليد التوراة : جبل زيتا (٩٧) ، سيناء ، حرمون وسنير (٩٨) ، ولبنان (٩٩) ، وحتى جبل نضرة ، الذي يضمن له قرب حبرون وبالتالي ذكر ابراهيم ، الإحالات اللازمة (١٠٠) .

إذن تلتقي ثلاثة تصورات في تضاريس الشام وفي التضاريس الشامخة الواقعة إلى شمالها . فالجبل أولا مادة بناء أرض وعلامة تدل عليه تزداد وضوحاً مهما بدت بسيطة (١٠١) . وهو كيان منعزل ، يمتاز ببعض الصفات البارزة كالعلو والوعورة أو الثلج أو الغلظ ، كما هي الحال في أرارات أو اللكام . أخيراً هو مركز تاريخ وتاريخ مقدس ، مثل الجودي أو سيناء . ولا ريب أن هذه الصفات يمكن إيجادها في الأقاليم الأخرى. إلا أنها لا تصل إلى التركيز الذي تتمتع به هنا ولا إلى الأهمية المعطاة لها ، إذا جاز هذا القول . ففي الجبال مثلاً ، يعتبر جبل دنباوند فعلاً محوراً

أساسياً في السلسلة العالمية ، ويلفت النظر بشكله وعلوه واسمه ، ويحمل مثلما سوف نبين ، تاريخاً يرتبط بأقدم التقاليد الفارسية : لكنه تاريخ أسطوري غير مقدس ، قلما يكون في نظر الإسلام . ويختلف الوضع بعض الشيء بالنسبة إلى جبل المقطم ، وهو جبل محور كما نعلم ، وبه مشاهد فسرها المفسرون ، على حد قول المقدسي (١٠٢) ، إلا أن ارتفاعه لا يضاهي علو جبال العالم السامقة . خلافاً لذلك ، تجمع الأرض في الشام جميع الصفات التي يحتمل أن يمثل بها الانسان الجبل . وتمتاز بعض الذرى ، كلبنان ، بأنها تستقطبها لنفسها ، كما لو كانت ترمز ، في نوع من المنارة الجبلية ، إلى تمجيد أرض براءتها روح الله (١٠٣) وتزورها .

فهل نعجب إذا ألح الجغرافيون على القدسية في جزيرة العرب المقدسة (١٠٤) من دار الاسلام ؟ لقد أبنت من قبل كيف جعل إدخال القدسية جبل العرج غلقاً في بناء الأرض . وذكرت ، كما فعل الجغرافيون ، هذا الجبل المبارك ، الذي شق فيه جبريل النبي وقت هجرته طريقاً إلى المدينة (١٠٥) . وقرنته بالحراء ، جبل الوحي القرآني ، وبأحد ، الجبل الذي أنجى حياة محمد ، هو وعير ، جبل المدينة . ويجب أن نضيف إليها كل الجبال القريبة من مكة التي تشترك بهالة قدسيتها . فاليعقوبي يعددها ، وإليه أحيل . وتتصل بعض القمم بما قبل الوحي أو بعده : كالأثالب ، وبها كانت ديار ثمود (١٠٦) التي نحتت بيوتها فيها ، ورضوى ، الجبل الأخضر الكثير المياه ، الذي تزعم طائفة الكيسانية أن محمداً بن الحنفية حي مقيم به (١٠٧) ، وأخيراً المذيخرة ، قلعة القرامطة الحصينة في اليمن (١٠٨) . وتتحرر ثلاثة جبال صراحة (١٠٩) من السيطرة المطلقة لسلطة الدين وتاريخه ، هي جبل

شبام (١١٠) الشهير دون غيره بالعقيق والجزع ، ثم غزوان ، الجبل المبنية عليه الطائف وهو معتدل الهواء ، بارده ، ربما جمد الماء في ذروته في بعض الأيام . ثم جبلا طي ، وهما مرتكزان هامان لتحديد الطرق أو تعيين المشهد ، ويحملان أصلا اسم إحدى القبائل العربية (١١١) . ونستخلص أن قدسية الجبال تتفوق قطعاً من بين صفاتها الثلاثة التي أشير إليها من قبل . وقد تنقل هذه القدسية ، مثلما قلنا ، مركز بنية جبال العالم إلى جزيرة العرب . وينزل دور الجبال في تاريخ الخلاص بلا شك غلظها إلى المرتبة الثانية ، أو يحيطه بإبهام له مغزاه في الحد الأدنى. فابن حوقل يعرض أحياناً بعض الذرى العملاقة الوعرة ، ويعتبرها كتاب حدود العالم جبيلات ، وجبالاً بلا تدقيق إضافي في أماكن أخرى . فلا ريب إطلاقاً أن الناحية الأساسية تنحصر في كلام الله .

يتصور المقدسي (١١٢) جزيرة العرب بناءاً له ثلاثة أجنحة تحصر ظهرة جبلية ينفتح انفتاحاً واسعاً على السهوب في الشمال ، وينغلق في جميع الجهات الأخرى ، أي على البحر . وليست هذه الجزيرة سوى إحدى فرعي العمود العالمي الذي يبدأ من بلاد الشام الجنوبية . أما الفرع الآخر ، فيأخذ إلى الفسطاط ، ثم إلى ضفتي النيل حتى النوبة ، وبعدها صعداً حتى الجبال التي ينبع منها النهر العظيم . ويوسع أحياناً اسم جبل المقطم ليشمل سلسلة الصفة الشرقية بأجمعها ، ويطلق على السلسلة المقابلة لها على جانب النيل الآخر ، اسم جبل الواحات (١١٣) . ويحسن أن نضيف إلى هذا النظام المزدوج ، سلسلة ثالثة ، تجاري على وجه التقريب منتصف الظهرتين الخارجتين من بلاد الشام نحو جزيرة العرب ونحو مصر . ويكاد ابن حوقل يعزل جبل سينا ، وإياه نقصد بالسلسلة الثالثة ، عن مجمل السلاسل ، إلا أن كتاب حدود العالم أوضح في هذه الناحية

بالذات ، ويتصل هذا الجبل المقدس، من جهة الشمال الشرقي ، بالكتلة الشامية ، ومن جهة الشمال الغربي ، بالمرتفعات الواقعة على يسار المسافر من فلسطين إلى القاهرة (١١٤) .

أما في غرب مصر ، فقليلة جداً الجبال التي تنال شرف تسميتها باسم خاص : وقد قلنا من قبل إن ابن حوقل تخلى عن متابعة وصف الظهرة العالمية عند تخوم أطرابلس وإفريقية . وتعتبر جغرافية أهل المشرق إقليم المغرب منعزلاً على حدة ، ومعرفتها به محدودة ، لوقوعه على هامش دار الإسلام . فهو « كمّ الثوب » (١١٥) . ولا غرابة في معرفة هذه الجبال التي يشار أحياناً إلى عظمتها وتدون أسماؤها حسب البلدان أو المدن . ويتصور اليعقوبي . بعد تدقيقه في المشهد ، وجود نظام جبلي شامل ، إلا أن تصوره جاء خاطئاً ، لأنه جمع في سلسلة واحدة جبل الدرن وجبل جزول قرب تاهرت وأوراس (١١٦) . فاذا استبعدنا هذه المحاولة الفاشلة ، لن نحصل في النهاية إلا على بعض الأسماء (١١٧) من تضاريس المغرب : مثل جبل توجان قرب مسكرة (١١٨) ، و« فج الجبل المعروف بتازا » (١١٩) ، وجبل زالاغ ، الذي « غلب على سائر المدن العامرات » ، وهو مدينة أيضاً على جبل عال يطل على كورة فاس (١٢٠) ، وبخاصة جبل نفوسه ، المشار إليه من قبل ، واسمه مأخوذ من اسم قبيلة من قبائل البربر ، وصورته واضحة في ذهن المصنفين الذين يقولون عنه إنه جبل منيف يطل على ما حوله ، وفيه مياه جارية وريّ وزروع (١٢١) ، وجبل أوراس ، وهو طويل جداً وكثير المياه والزروع والمراعي (١٢٢) .

بقي علينا أن نعبر البحر لنصل إلى صقلية والأندلس . وينفرد ابن حوقل بوصف صقيلية بالتفصيل ، ويقول فوراً إن الغالب عليها الجبال

والقلاع والحصون (١٢٣) . لكنه لا يضيف شيئاً على الإطلاق عن هذه التضاريس التي يقدمها لنا رأساً على أنها تنتشر في جميع الأماكن أو تكاد . مهما يكن ، فابن حوقل يتبع في النهاية نهج سائر المصنفين : فصقيلية في الحقيقة أرض أطمة واحدة فقط ، هي إلاتنا ، الذي يسمّونه جبل البركان أو جبل النار الجارية (١٢٤) . وسنعود إليه وإلى أمثاله فيما بعـــد .

والمعلومات قليلة عن الأندلس أيضاً (١٢٥) . ويصعب علينا تصور تضاريس هذه الجزيرة على ما نعرفها ، إذا طالعنا كتاب ابن حوقل . ويتحدث بعض المصنفين الآخرين عن جبالها هنا وهناك ، لكن كخلفيّة مبهمة خالية من الأسماء على الدوام . خلاصة القول ، لا نجد سوى جبل العيون ، وهو مدينة ، وجبل طارق ، والجبال المحددة مواقعها بالنسبة إلى قرطبة : مثل جبل بطلش الذي بنيت في سفحه مدينة الزهراء الجديدة ، وجبل يسمى شلير بينه وبين قرطبة أربعة أيام ، ويقع عليه الثلج (سيرا نيفادا) ، وأخيراً جبل لينشكة الذي يحير اسمه ولعله سيرا سيغورا ، ويقع على نحو ستة أيام من قرطبة وهو مبدأ نهرها . ويستشف أحياناً قصد يتحقق بسرعه ، يرمي إلى فهم مجمل النظام . فابن حوقل يشير إلى تقابل الأندلس والمغرب على جانبي المضيق الواقع بين رأسي أشبرتال والطرف الأخضر اللذين سُمِّيا جبلين باسم الجبلين المنتصبين على ساحليهما (١٢٧) . ويعتمد كتاب حدود العالم على وجود المدن ، ويشير إلى سلسلة جبلية تتفرع عن سيرا نيفادا ، وتصعد مستقيمة إلى الشمال وتساير خط تقسيم المياه بين بحر الروم وبحر الظلمات ثم تنعطف إلى الغرب ، وتنتهي في طليطلة ، في حين تجاري سلسلة أخرى ضفة نهر تاجو اليمنى (١٢٨) .

ويحسن بنا أن نقارن هذه المحاولات الأولى لتصوير الأرض بالمعلومات التي جمعها الرازي (١٢٩) من مصـــادر محلية . فهو يعرض أن الأندلس مؤلفة من ثلاث سلاسل رئيسة تقطعها من جهة إلى أخرى ، فتبدأ من بحر الروم وتصل إلى بحر الظلمات دون أن يخترقها أي مجرى ماء ، مما يؤول ، كما يلاحظ ، إلى دمج نظامي التضاريس والماء في نظام واحد . وعليه ، يؤلف نهر قرطبة (الوادي الكبير) في الجنوب محور جبال قرطبة (سيرا سيغورا وموربنا) التي تذهب من الساحل الشرقي إلى سهل الغرب . كذلك ، تحتل حوض وادي تاجو في الوسط الجبال التي « تفصل الأندلسين » وتصل طرطوشة بأنحاء لشبونه . ويبدو شمال الأندلس مشوشاً ، ويخرج عن دار الإسلام : فالسلسلة التي تمتد من نربونه إلى جليقة ، تدمج سلسلتي البيرينه وشنترة في سلسلة واحدة كما نرى . ويجدر بنا أن نضيف إلى هذه الظهرات الثلاث بعض الجبال الوارد ذكرها هنا أو هناك : منها في الجنوب جبل ريو (سيرا نيا — مالقة) الذي يصل إلى الجزيرة في الغرب ، وجبل شلير (سولوريوس أو سولاريوس) (١٣٠) الشهير بعيونه وثلجه ، أي سيرا نيفادا ، وجبل سلبه (أو شبيه)،«الذي يعلو حتى السحاب»،وتكثر فيه الزهور العطرية والطبية، أي سيرا كابرا وبخاصة لوباتيجوا (١٣١). ولا يوثق بالمعلومات المعطاة عن الشمال ، كمـــا هي الحال بالنسبة إلى السلسلة الرئيسة ، بل يزيد الشك فيها عنها ، إذ يقال لنا بأن سيرا غواره الواقعة في منطقة هويسكة تبلغ البحر ، ثم أين يقع الجبل الأسود المتصل بجبال آراغون ، المنيع والعريض جداً حتى إن الفارس الجاد يجتازه في ثلاثة أيام ؟ أفي الجبال المنتصبة جنوب جنوب شرق لوغرونو ، قرب قرية مونتينيغرو دي كاميروس ، أم في منطقة لوس مونتيغروس على ضفة الابره

اليسرى بين سرغوسه ولزيده ؟ (١٣٢) . إذن الشكوك كثيرة في الشمال ، حتى لو أوردها قلم يقيم صاحبه في الأندلس بالذات ، التي لا تعتبر نائية في مملكة الإسلام . مهما يكن ، لم يدون شيء عن الأندلس يشير بوضوح إلى دخولها في نظام جبال العالم . فعند الرازي وسائر المصنفين ، تبقى الأندلس فعلاً على هامش مصور جبال دار الإسلام . فجبالها لا تتصل البتة أو تكاد بجبال المغرب ، ولا يسعها أن تكون في أفضل الاحتمالات سوى أقصى طرف « كم الثوب » ، إذا فرضنا أن هذا الطرف لا يزال قائماً . فالجغرافية هنا تستبق فيما يبدو التاريخ الذي سوف يكرس فصل الأندلس عن دار الإسلام .

الجبل والجبال ، جبل أو كتلة جبلية

هذا هو اذن مشهد دار الاسلام ، وفيه إلحاح على جبالها ، التي تحددت مواقعها على المصور ، وبقي علينا أن نتوقف عندها لنجيب عن سؤال آخر لا يتعلق بمكانها ، بل بماهيتها . وقد يظن البعض أنها سائدة فعلاً لأول وهلة ، وأننا نفرط بالاهتمام بها . لكن من المسؤول ، اذا كنا قد اقترفنا ذنباً ، فالجغرافيون لا نحن ، هم الذين وضعوا الجبال في وسط اللوحة كلما تسنى لهم . وإن هم فعلوا ، فما ذلك إلا لأنهم مسلمون دينون يؤمنون إيماناً عميقاً بالآيات القرآنية ، ويعتبرون الجبل دليلاً واضحاً على أن الله أنشأ الأرض .

فالجبل في الواقع دليل واضح ، وهو سائد على الأرض بلا ريب. وهنا نستعيد قول الجاحظ : « اعلم أن الجبل ليس بأدل على الله من الحجارة ، ولا الفلك المشتمل على عالمنا هذا بأدل على الله من بدن الإنسان ، وأن صغير ذلك ودقيقه كعظيمه وجليله . ولم تفترق الأمور

في حقائقها ، وإنما افترق المفكرون فيها » . وقوله أيضاً : « وما الصفدع بأدل على الله من الفراش » (١٣٣) . وهكذا نرى أن تفكير الجاحظ ينزع إلى جعل جميع الخلائق متساوية ضمن كل وحيد ، هو الكون إياه ، ويقصد الخلائق التي تقوم بوظيفة واحدة ، تثبت فيها وجود الله . ولا يناقش أحد في تباين الحجم أو القيمة بحد ذاته : فلا ينكر إنسان أن الجبل أكبر من الحجارة ، وأن رؤية الفراش أبعث إلى البهجة في النفوس من رؤية الضفدع . أما ما ينازع فيه ، فهو الانتقال من هذه الفئات إلى البرهان الوجودي ، بتعبير آخر ، التدرج منها إلى واجب الوجود والوصول إليه ، إذن لا يطعن الجاحظ بالحس السليم ، لكنه يحصره في نطاق محدد له . فهو معتزلي صلب ، يستخاص من الآيات القرآنية تأويلاً عقلانياً ، يدرك به الأرض الكلية من عناصر يختارها قرائن يستقطب بها مخيلة أكبر عدد من الناس : فالجبال ، كالبحار والأنهار والرياح أو الماء الهاطل من السماء ، لا تعطي وحدها صورة عن الأرض ، بل هي إحدى الأدلة على جعل الله البشر خلفاء هذه الدنيا . وأحيل بهذا الشأن إلى السورة ٢٧ من القرآن التي تبدو لي واضحة جداً : « أمن جعل الأرض قراراً ، وجعل خلالها أنهاراً وجعل لها رواسي وجعل بين البحرين حاجزاً . أاله مع الله (. . .) . أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض أاله مع الله » (١٣٤) .

ولا يبحث الجغرافيون في هذه المناظرات الفلسفية الدقيقة ، ولا يحاولون أن يتبينوا ما إذا كان تفكيرهم يضل في استنتاجات خارجية مبنية على سوء تأويل الحس السليم ، الذي يتمسكون به ، وينغمسون فيه ، فينظرون إلى الجبل على حقيقته ، أي حسب منطوق الآيات الإلهية ، كدليل ثابت على إرادة الله بشأن الأرض . ولم يصلوا إلا إلى صيغة نظرية

وحيدة — بل وصل إليها بعضهم فقط — تتمثل في تحديد هيكل إجمالي ، أو نظام جبلي عالمي ينتشر على وجه الأرض من أقصاها إلى أقصاها حسب مشيئة الله . وفيما عدا ذلك ، إذا كان الجبل دليلاً على وجود الله ، فلا ريب أولاً أنه لابد من التحدث عنه كلما شوهد : فهو كاسح حقاً لكن كبرهان على وجود الخلق الإلهي في جميع الأماكن ، ولا ريب أيضاً أنه ينبغي أن يتفق مع جلال خالقه وقدرته ، فيكون هائلاً ومهيباً ومنيعاً أو عظيماً ، وسوف تتكرر هذه الصفات في النصوص الجغرافية تكرار المدائح في سبيل مجد الله .

وصحيح أن دار الاسلام تحوي جبالاً متواضعة ، لكنها قليلة إلى أقصى حد،أقصد ان لفظ جبل يتكرر بالحاح دائم ، من مدينة إلى أخرى ، ومن رستاق إلى آخر ، ومن اقليم إلى اقليم ، وينقصه في الغالب نعت يصفه . ثم ان احتمال وجود جبل صغير وارد ، لكن لماذا العكس؟ في جميع الاحوال ، الواقع ظاهر أمام ناظرينا : فالجبل الصغير ، المنعوت صراحة بهذه الصفة ، نادر جداً ، خلافاً للجبل العظيم ، أي الجبل الحقيقي ، كما سوف نرى . وقد عثرت عند ابن حوقل وعند المقدسي ، إذا لم أكن مخطئاً ، على ستة أو سبعة تعابير واضحة تشير صراحة إلى تضريس ضعيف الشأن : منها « جبل صغير » ، و « جبل متلاط » ، و « جبل ليس بالكبير الطويل » (١٣٥) .

لكن علامَ تنطوي هذه الصفات في واقع الحال ؟ فالتعبير الأخير يتعلق بأحد الجبال (كركس كويه) الواقع في مفازة فارس ، دور أسفله نحو فرسخين ، أي أن قطر قاعدته يزيد قليلاً عن ١/٢ ٣كم . ونحن نعترف أن هذا البعد ليس بسيطاً . لكن هل تتحدد عظمة الجبل

بارتفاعه ، كما هي الحال في عرفنا ؟ إلا أن ابن حوقل أطلق اسم جبل على تضريس علوه خمسون قامة ، ولم يصفه بالصغير (١٣٦) . وقد يخطر ببالنا في هذه الحالة ان الجبل يعوض بفخامة انتصابه عما يخسره من جلال في ضخامته المفقودة : إذ إنه يطل على نهر دجلة . ويردد المقدسي الفكرة ذاتها،فيتحدث عن « جبل صغير » يشرف على بحيرة صغرى(١٣٧) ويبدو أن ابن حوقل يجعل الانقطاع والارتفاع متناسبين عكسياً ، مثلما مر معنا في حالة جبل سبلان في الظاهر ، لأنه ينقطع عن الجبال التي تصاقبه ، ويعلو في وسطها و « فوقها » كالقبة ، وليس على حدة (١٣٨).

ويؤيد هذا التردد ما استطعنا استنتاجه من الاحصاء البسيط ، من ندرة الصيغة التي تدعي ربط الجبل بما هو صغير أو لاطىء أو منخفض أو ضيق أو متقلص ، وعن الشك فيها ، وضعف ترابطها ، واستحالتها . ويستعمل الجغرافيون (١٣٩) ألفاظاً غير لفظ الجبل ، ليعبروا عن تحدب السطح البسيط أو عن ارتفاع الأرض قليلاً عما يجاورها . من ذلك: نشز أو نشزة (١٤٠) ، وحزنة (١٤١) ، ومدرة (١٤٢) ، وجرف(١٤٣) وشرف (١٤٤) ؛ وأخيراً الربوة أو الرابية (١٤٥) ، وخاصة التل الطبيعي أو التل الاثري (١٤٦) . ويتجلى الفرق واضحاً جداً بين هذه التضاريس المنخفضة وبين الجبل الحقيقي : فلإحدى المدن مثلاً باب يسمى باب الجبل ، والأخرى باب يدعى باب التل — آمد — (١٤٧) ، وفي بادية العرب تلال ، إلا أن الجبال قليلة فيها (١٤٨)، وفي أحد البلدان روابي وجبال (١٤٩) . وقد تؤلف الربوة والسفوح والمنخفضات والتموجات جزء من جملة التضريس الذي له وحده الحق بأن يسمى جبلاً (١٥٠). وهكذا نرى أن العلاقة واضحة بين الصغير والكبير ، وبين الأدنى والأعلى ، وبين الجزء والكل . ولا يجوز أن نخطىء ، فالعودة دوماً

إلى الجبل في كل مقايسة : فمنذ لحظة حاولنا عبثاً أن نخفض علوه ، في حين تبذل جميع تلك المدرات جهدها لكي تتخذ مظاهر هامة بارتفاعها ، إذا جاز هذا التعبير : فالرابية الكبيرة ، والتل الرفيع ، والنشز المطل على نهر وعين (١٥١) ؛ كل ذلك . وحتى الاطراء على هذا التل أو ذاك الكثيب بوصفه انه « عظيم كالجبل » (١٥٢) ، يثبت أن التقدير لا يكون بوسط المقياس ، بل باعلاه ، حيثما وضعه الله . وان ذكر الجبل يعني الأخذ بالعظمة والكمال والجلال . وان احتمال اتخاذ التل صورة الجبل أحياناً ظاهرة واردة جداً ، والعكس ليس صحيحاً ، وان هذا التل يختلف عن الجبل ، ويطلق عليه اسم خاص أو أسماء يدل عددها على اضطراب وضعه بالنسبة إلى وضع الجبل ، الأعظم والفريد ، وانه ، ولو جازت أحياناً مقارنته بالجبل فاعلت من شأنه، يبقى جبلاً منقوصاً في أفضل الحالات ، ومع احترام مشيئة الله .

لذلك لن يقال عن الجبل أنه عظيم ، لأن هذه الصفة مفروضة فيه . لكن تختار له نعوت تنطوي على المبالغة على الدوام ، وتتراكم بطيبة خاطر متى سمح المشهد . اذن لا تذكر العظمة ، بل الضخامة (١٥٣)، ولا العلو وحده (١٥٤) بل السموق (١٥٥) ولا الانافة (١٥٦) ، ولا الانحدار وحده ، بل وعورة الصخور المكدسة أو الجدران الملساء (١٥٧) ومناعة الحصن وامتناعه (١٥٨) . وتستدعي هذه الصفات غيرها ، فيصبح الجبل عامراً ، ويصل إلى حد الاشتراك بحياة البشر : فيتحول العلو والسعة إلى سموق وشهوق (١٥٩) ، أو على النقيض ، إلى وحشة وشموخ وعبوس (١٦٠) .

وتنطق الأرقام هذه المرة . فقد ذكر الفرسخان من قبل لدور أسفل

أحد الجبال ، ونشير الآن إلى أن علو جبل ماردين (١٦١) نحو فرسخان من قرار الأرض إلى ذروته . أما جبل دنباوند (١٦٢) العملاق ، فهو بالموضع الذي يعلو عليه نحو أربعة فراسخ . وفي كرمان ، طول جبال المعادن نحو مرحلتين (١٦٣) ، ويكون جبل نفوسه ثلاثة أيام في أقل من ذلك (١٦٤) . ويعطي رقمان قياسيان ، أولهما لجبل بتم : فقسم من البتم (وهو الأوسط) ، حول بحيرة جن ، يكون نحو ثلاثين فرسخاً ، أي ما يساوي كل الواقع (١٦٥) . ويشير المقدسي (١٦٦) إلى جبل في اردبيل مساحته ١٤٠ فرسخاً (كله قرى ومزارع) ، أي حوالي ٨٠٠ كم : ولا ندري أي سلسلة باذربيجان يمكن أن تمتد على هذا النحو بلا انقطاع . لكن ماذا نقول إذا كان المقصود ، مثلما أخشى ، جبل سبلان ، الذي يبلغ صعوده ونزوله نحو ثلاثة فراسخ فقط لاسيما أنه منقطع عن الجبال التي تصاقبه ؟ لا شك أن أنصار المقدسي ، وأنا واحد منهم ، ممن يعرفون رصانته ، سيتذرعون بحدوث سهو عابر والتباس حصل في ذهنه مع جبل القبق غير البعيد جداً — أو — من يدري؟ أو في مخيلة الناسخ . لكن لابأس : فالذهاب بالتفضيل إلى هذا الحد ، يعود إلى مسلمة تقضي بأن تعطى القروض إلى الأغنياء وحدهم ، والجبل لا يمكن أن يشد إلا نحو الأعلى .

أقول نحو الأعلى ونحو المتراص أيضاً . وإذا كان الجبل يتألف ، مثلما رأينا ، في الأصل والواقع ، من فروع تتشعب إلى ما لا نهاية له ، على ما يقال ، فالمشهد الشامل لن يهمل أبداً ، ولن يوجه الاهتمام إلى التفاصيل المستقلة وحدها . ويدرك المصنفون الجغرافيون الجبل بكليته حتى في امتداداته بالذات ، وعلى مستوى العالم ، أو على مستوى هذا البلد أو ذاك ، أو هذه المنطقة أو تلك : ولا تعني التجزئة والتوزيع ، التمزيق

والانفصال ، بل الهندسة المرتبة . والتنظيم العضوي . وأعرف جيداً ان ابن حوقل يكرر الاصطخري ، ويقول عن قرية الحجر في جزيرة العرب : « وهي جبال في العيان متصلة ، حتى إذا توسطت كانت كل قطعة منها (١٦٧) قائمة بذاتها ، يطوف بكل قطعة منها الطائف » (١٦٨). ويقول في مكان آخر عن النواحي الواقعة إلى شرق سمرقند : « بهذا المكان تتفسخ الجبال ، وتظهر الأراضي التي يمكن فيها الزرع وجري الأنهار » (١٦٩) . مع ذلك ، لابد أن يلاحظ المرء أن التصريح بوضوح عن انقسام الجبال ، لم يرد إلا مرتين ، وان لفظ « قطعة » ، أي قطعة من المشهد العام في هذا المنظور ، لم يذكر إلا مرة واحدة في النصوص الجغرافية ، لأن ابن حوقل يكتفي بتكرار الاصطخري . وهذا يعني أن النظرة إلى الجبل تبقى شاملة تقريباً ، لا انفصام فيها رغم وجود فروع له معروفة ومفهرسة ، وهذا على الدوام أو على أي حال في غالب الأحيان ، لكي يشار إلى شواذات تخرج عن الوضع الراهن .

ويطغى هذا التماسك على العلو : وقد دوّن ابن حوقل هذه الحالة بوضوح ، واعتبرها بديهية : وقد ذكرت هذا الحدث وكررته ، ولن أعود إليه . فالكتلة تزيد الشعور بقيام حاجز أيضاً . مثال ذلك الحاجز الفاصل بين سواحل سرت وبين الصحراء الكبرى ، أو ما هو أوضح ، الجبال المتشعبة عن جبال اللكام (١٧٠) ، القائمة كالحاجز بين طرسوس وبين ثغور الروم . وتتجلى أهمية الجبل على الأرض في بعض الأحيان بألفاظ مثل اجتياح وسيطرة واحتفاف . فمن البلدان المجتاحة وحتى المغمورة ، كما رأينا ، صقلية وفارس ، والمرتفعات الواقعة على سواحل بحر قزوين أو في شمال شرق دار الاسلام ، وأخيراً الجبال (١٧١)التي يطلق اسمها على ايران . ونذكر من البلدان المسيطر عليها ، اضافة إلى

ما مر من قبل ، وبلا تحديد معين ، إحدى مدن خوارزم أو فارس(١٧٢). ونسمي من البلدان المطوقة ، بلا تخصيص أيضاً ، مرسى وهران ، وغوطة دمشق ، وشتى مدن الديلم التي يقال عنها ان الجبال تحتف بها على مثال القوس، وأحد الأماكن النائية ، الذي تحيط به مفازة فارس من جميع جهاته ، حتى ليظن المرء حقاً أنه « ضمن سور » (١٧٣). وفي الحد الأقصى ، لا يدري المصنف أيستعمل جبلاً أم جبالاً ليدل على كتلتها . مهما يكن ، استعمالات الجبل واردة كثيراً : منها الجبل الذي يدور بعدن ، أو القريب من مدينه كوه بيان في كرمان (١٧٤)، أو الذي يحيط ببقعة برقة من سائر جهاتها — وهي بقعة فسيحة تكون مسيرتها يوماً وكسراً في مثله — ، أو الذي يحتف ببقعة مدينة حران مسيرة يومين في مثلها (١٧٥) . ويستعمل الجبل مفرداً (أو بمعنى شبه جمع ؟) ليدل على جبال اليمن على ساحل بحر القلزم ، أو على أطراف تقويس جبال فارس في العراق ، أو أخيراً على جبل أرمينية العظيم المتصل بجبل القبق (١٧٦) . وتجمع الجغرافية العربية مناطق كاملة ، وتطلق عليها اسم « الجبل » مفرداً ووحيداً (اقليم الجبل) . وتحبو هذا الجيل وجوداً كثيفاً ، وسلطة راسخة جداً ومتينة ، فيجسد ما هو في الواقع مفهوم قرآني موروث : فالجبل قوي وعال ، لأنه رمز الله ، ولا يمثل ارتفاعاً منظوراً من أراضي سخرها الله للانسان فحسب ، بل أيضاً ، ولأسباب إلهية عيناها ، كتلة متماسكة ومتجانسة على صورة باريها (١٧٧) . لذلك تزول السلاسل في معظم الأحيان أمام الجبل في الرؤية الشاملة.

ولا شك ، لحسن الحظ ، في وجود ثغرات في هذه الكتلة ، تسمح بالالتفاف على العقبات الكبرى في الحد الأدنى. فالجبل ليس في الواقع سوى عكس الوادي ، وتتحاور امنع ذراه مع طرق الدخول إليه والتوغل

فيه الي تقع عنـــد حضيضه،وتدعو البشر إلى الانتقال اليها ، وحتى إلى الاستيطان والعيش فيها . وتتوفر هذه الطرق في مملكة الاسلام هنا وفي سائر الأماكن ، وهي معروفة ومدونة ومطروقة وموصوفة . لكن لم ينظر المصنفون الجغرافيون إلى الوادي من زاوية علاقته بالجبل : وسوف يعرّف فيما بعد ، وسنرى كيف يتم تعريفه . وعلى وجه أدق ، اذا أقيمت صلة ، وهذا أمر قليل جداً أصلاً ، يعبّر عنها بلفظ شعب (شعب ـ شعبة)(١٧٨) وهذه الكلمة غنية بمعانيها ولي عودة إليها . ولا أذكرها هنا إلا في النواحي التي تهم حديثي . فألاحظ أولاً ان ألفاظ الوادي في هذه النقطة ، هي ألفاظ الجبل بالذات : لأن شعب يؤدي معنى الارتفاع (رؤوس الجبال) والانخفاض (ما تعرج بين جبلين) . لكن ، حتى لو كانت الجبال عكس الأودية ، وعندما يراد وصف بلد يتناوب فيه المشهدان ، يستعمل لفظ الجبل لا الوادي في الجغرافية العربية والجغرافية المعاصرة . وهذا يعني أن شعب من الاضداد ، أو سلسلة تشاهد من أعلاها أو من أسفلها ، وان هذا اللفظ يرتبط بالجبل في جميع الأحوال . والبرهان أنه عندما يقصد به وادي ، لا يفارق النطاق الجبلي الذي يطبعه بطابعه في معناه الآخر (١٧٩) ، وأنه لا يعني أبداً مثلاً منخفضاً حفر في منبسط من الأرض . فهو مقيد بالجبل ، ويثبت فيه الوادي معه ، فلا يفقد الجبل شيئاً من مقوماته . ولا يدخل أحد في الجبل ليخرج منه ، والواقع أنه لا يخرج منه : فلا درجات ولا تدرج في هذه القلعة : فهي كتلة ولا تغادر إلا كتلة .

لكن ما هو الوادي المقصود ؟ لا ريب البتة أن الألفاظ المشتقة من «شعب» تدل في أغلب الأحيان على ثغرة بسيطة في جبل لا يسمح سطحه المحدود بأكثر منها . ويتحدد شكلها بالقمم العالية : فمكة واقعة بين

جبال فيها أودية ذات شعاب (١٨٠) . وتشبه شكلها ، على ما يقال صراحة ، سجلماسة ، وعمان ، واصطخر ، وفي خراسان : آنبار وقرية الحمراء (١٨١) . ويدانيها مواضع أو مدن أخرى : مثل منى في جزيرة العرب ، ومازمان أو سابور في فارس (١٨٢) . ويضيق شعب الجبل أحياناً إلى حد كبير جداً حتى لا يستطيع أن تسلكه إلا عناصر الطبيعة . فالريح تقع على ذروة جبل (في بحر القلزم) ، وتنقطع قسمين ، فتنزل على شعبتين في سفحه متقابلتين ، وتخرج من كميهما ، وتثير البحر في مضيق فاران (تاران) (١٨٣) . وفي مجاهل شعاب جبل كركس كويه ، مياه قليلة ، وهو جبل في مفازة فارس (١٨٤) . وتأتي مياه دمشق من الفيجة وعين بردى ، وتجري في شعب ، ويخرج ماء نصيبين من شعب جبل (يعرف بباالوسا) (١٨٥).

وفي الشعب ، تنضغط المدن ، وتنحبس الرياح والمياه في حيز صغير ، فتندفع أحياناً غاضبة لحصر الجبال لها في رقعة ضيقة . وهكذا نرى أن الشعب لا يمثل في وسط الجبل ظهور أرض الهضاب أو السهول المتسعة ، بل امتداد الحد الأدنى من المجال الحيوي الذي تسمح به القلعة الشامخة . وليس الشعب وادياً ، بل فجاً عميقاً . ويمكن دائماً تمييز الوادي عن الشعب على ضوء الأوصاف الواردة في النصوص الجغرافية ، ويعبر عن الفارق بينهما بوضوح كبير أحياناً : فيقول الاصطخري (١٨٦) ان أحد جبال جزيرة العرب (= جبل رضوى) ذو شعاب وأودية ، ويقول المقدسي عن الكعبة (١٨٧) : « الكعبة في شعب واد » (١٨٨). وننتقل الآن إلى ذكر الأرقام . فمنى قرب مكة ، شعب طوله دون الميلين ، أي ما يقرب من أربعة كيلومترات ، وعرضه دون رمية السهم ، لنقل أقل من ٢٥٠ متراً (١٨٩) . ولدى الباحث برهان آخر ، هو الماء

أيضاً ، بل ماء من نوع جديد . فاذا كانت مياه الأنهار تتمكن من المرور في الشعاب ، فان هذه الشعاب ذاتها ، متى نحتت ما يتناسب مع الأنهار الكبرى ، مثل جيحون والنيل ، لا تسمى شعاباً ، بل مضايق ، أو لا تعطى اسماً البتة . ويطلق اسم شعبة على الجبل وحده ، المقسوم إلى قسمين على جانبي الانقطاع . ويجوز استبدال هذا الاسم في أماكن أخرى . أما هنا ، فيقتصر على الجبل ، ويستبعد هذه المرة الظاهرة التي نجحت في تشكيله ، ليدخلها في نطاق آخر غير محدد ، لكنه ليس نطاق الجبل في جميع الأحوال (١٩٠) .

ونورد اثباتاً آخر وأخيراً . فقد ينفرج الشعب حقاً ، وتسمح له الجبال بالاتساع ، فيحتوي القرى ، والحقول الحقيقية ، والبساتين ، والمشاجر ، والمياه الوافرة . وعندئذ يندرج وضعه في عداد الحالات النادرة . وتعتبر ظاهرته سعيدة وشاذة . مع ذلك ، حتى في هذه الشروط يذكّر المصنفون بوجود القمم . واذا انفتح في الجبل واد ، طوله عشرون فرسخاً مثلاً ، أي حوالي ١١٥ كيلومتراً ، يتبدى العرض بوضوح كاف من « اتصال » الزروع والمنازل (١٩١) . ويستثنى فعلاً شعب بوان الشهير وحده ، ويقع في فارس ، وهو إحدى جنات الدنيا الأربع . وتغطي فيه الأشجار القرى حتى لا يكاد يراها الانسان إلا أن يدخلها ، ويتناسب فيه رغد العيش، عن خبرة فيه وشعور به ، مع طبيعة آفاقها عريضة ، ومع جبل قريب لا يحصر ، بل يجري المياه إليه ، فيحبوه رطوبة (١٩٢) مع المياه والاتساع .

ويمثل جميع ما ذكرته حالات شاذة، ويجب الالحاح على هذه الناحية . فليس الوادي ـ أعني الوادي الجبلي ، كما ننظر إليه نحن عادة ، رمز

انتصار على التضريس ، ولا نهجا في ازدراء شهوق الجبل العملاق بالاستيلاء على ركائزه الأساسية ، بل على النقيض ، تسامحاً من الجبل ولا شيء سوى هذا التسامح ، لأنه يتحكم في المواقف على الدوام . وربما بدا لبعض الناس ان في هذا القول شيئاً من الاستقراء الخارجي : فهنا وفي سائر الأماكن ، سيطر البشر على الجبل ، واستقروا في اضعافه، ونجحوا في توفير متطلبات الحياة ومباهجها في كتلة قد تظن ممتنعة من بعيد . وهذا صحيح . وصحيح أيضاً أن النصوص الجغرافية تعكس هذه الحقيقة . وقد يقال بأنها تعكسها تلقائياً وعرضاً ، وفي جميع الأحوال ، دون أن يشعر أحد أن معركة حاسمة نشبت هنا بين الانسان والطبيعة . وتختلف رؤية هذه النصوص لهذه المجابهة اختلافاً كلياً ،وترى أن اختراق الجبل أضعف من توقله .

ذلك أن العقبة (خانق ، ممر ، صعود) لا الوادي ، تتحمل في أذهان الناس وطأة الصراع مع الجبل والانتصار عليه . ولنتفكر مرة أخرى ان الجبل تدبير الهي ، ويبقى تدبيراً إلهياً ، حتى في عوائقه التي تعتبر وجهاً من وظيفته في تثبيت التوازن . ويرسو الجبل في وسط الدنيا، ويعرض لطريق البشر ، ولا بد له من فاتحين قادرين على اجتياحه .ولا يتمثل هؤلاء الفاتحون في الحضر من أهل الأودية ، الذين يكدحون في عمل الأرض ، ويسعدون جداً فيما حازوا عليه وفي نطاقهم الثابت الضيق — فجميع هؤلاء ينعمون « في الأودية الصغيرة » (١٩٣) ، على حد قول جيونو — بل في أناس آخرين من رحالة الكرة الأرضية ، وفي طليعتهم التجار ، والمغامرون وطالبو المعرفة — وقد يجمعون كلهم في فئة واحدة— ومنهم أيضاً الجغرافيون في جميع الأحوال . أما هؤلاء الجغرافيون ، فيرومون الذهاب إلى آفاق أبعد من الحدود السابقة ، ويريدون تجاوزها

وتخطيها . ولا يبتغون متعة ، يأثمون ، ان هم سعوا إليها وحدها : إذ لا يجوز الجحود بخلق الخالق ، ولا يمضي أحد في أرض شاء الله أن تتجلى فيها قدرته العظيمة مثل دنباوند وسبلان ، إلا اذا أصابه مسٌ من الجنون . أما في سائر الأماكن ، فاذا اقتضت التجارة أو تبادل الحاجات أو فرض السلطة أو نقل الفكر ، فتصبح مجابهة العقبة واجباً شبه مقدس ، يرضى الله عنه في رؤيته مواجهة خلقه وخليقته . ويعتبر الانسان نداً للجبل في خصومته له . لذلك تمكن من اجتيازه ، إلا أن معاناته في غضون هذا الاجتياز علّمته وجوب احترام الجبل .

ويكاد هذا الحوار ينقطع بين المتحاورين هذين المتحاورين بحكم استمراره في غضون المرحلة الأولى : فيكسب الميل البقاء اقاء ما يخسره من حدة انحداره . وهكذا يتحدث المقدسي عن بعض الجبال في مفازة فارس ، فيقول ان فيها عقاباً هينة (١٩٤) . ويتكلم ابن حوقل (١٩٥) عن الطرق بين وادي نهر النيل وبين بلد الواحات ، فيعتبران أكثرها في عقاب وأودية . وبذا نرى أن المقصود بعقبة لم يعد خوانق أو أودية ، بل أعرافاً وانحدارات : أي توالي حدبات ووهدات اذا شئنا (١٩٦). وفي نهاية المطاف ، لا تلحظ العقبة ، وتصبح اسم مكان فقط ، أو حتى اسم مدينة ، مثل ميناء العقبة على الحدود الجنوبية في المملكة الأردنية الهاشمية الحالية (١٩٧) . وفي الأماكن الأخرى ، وفي أغلب الأحيان ، تبقى العقبة الظاهرة الكبرى في المرحلة ، والتدوين الوارد حتماً في النص كلما استدعت ذكره ضخامة كتلة التضريس ، كما هي الحال مثلاً في زغروس أو فارس ، حيث يشكل الجبل « أعظم تحديب باستمراره وثخانته وانتظامه » ، و « يفصل تسلق سلاسله عبر ممراته العالية . . على

المجازفة بسلوك وديانه . . . بما فيها من خرق عرضانية . . . وفجاج عميقة رهيبة ، منيعة وممتنعة ... وخوانق حديثة جداً » (١٩٨).

في النهاية ، تعطي العقبة صورة عن الجبل ، واضحة ، لا رموز فيها ، يراها الناس بأعينهم ، ويطؤونها بأقدامهم ، لا تتناول كيان الجبل القائم بحد ذاته ، بل ابعاده . وينفرد كل جبل بارتفاعه الذي يطول ويصعب ويتميز ، كلما زاد علوه وضخمت تضاريسه . ولنلق نظرة إلى الخريطة . فقد قلنا من قبل أن الجبل يتجزأ شيئاً فشيئاً في الغرب ، ثم يزول . بالتالي ، لا يستغرب الا تتجاوز آخر عقبة سميت باسمها السفوح الحادة في برقة : أي عقبة برقة ، أو العقبة باختصار ، وهي على ساحل البحر المالح بالنسبة إلى القادم من مصر (١٩٩) . أما في طرف دار الاسلام الآخر ، فتختفي جبال شمال غرب الهند من النصوص الجغرافيـــة ، وتخفي معها ممر خيبر (٢٠٠) رغم شهرته في التاريخ والجغرافية .

وقلنا أيضاً من قبل أن الجبل في جزيرة العرب وفي هذا السياق الخاص يكاد يتخذ طابعاً دينياً ومقدساً على الدوام تقريباً . بالتالي تتسم العقبة بهذه السمة أيضاً . وتشتهر العقبة المسماة أحياناً عقبة أهل المدينة (٢٠١) ، بالمفاوضات التي جرت بين الرسول وبين أهل المدينة أي الانصار ، وبطقوس الرجم في الحج . وتشتهر أيضاً عقبة أخرى ، تقع على سفح جزيرة العرب الشرقي ، وتسمح بتسلق الأعراف التي تقطع الطريق الكبيرة من العراق إلى المدن المقدسة في الحجاز (٢٠٢) . ويشار في اقليم الشام إلى عقبة الرمان ، المسماة حالياً جسر الرمان ، والواقعة على طريق بعلبك دمشق التي تمر في جبال لبنان الشرقية (٢٠٣) ، ثم إلى عقبة فيق

« المعروفة » التي تقع شرق بحيرة طبرية ، وتسمح باجتياز هضبة الجولان (٢٠٤) . وتتمثل ثغور الروم (الاناضول) بعقبة الأكواخ وعقبة البراذع في حوض بردان الأعلى (سيدينوس) ، نهر طرسوس ، ويقابلهما ممرات طورس الشهيرة وربما أبواب كيليكية في إحدى التسميتين (٢٠٥) . ولأرمية في أذربيجان ، عقبة واقعــة على الطريق الذاهبة من ارمية أو بحيرتها إلى الموصل ، ويمكن أن يتصور المرء أنها تدعى عقبة اورمية (٢٠٦)، ويبرز المقدسي صعوبتها لأن جبال كردستان على الحدود الحالية بين العراق وايران وتركيا ، تعلو إلى ما يقرب من أربعة آلاف متر .

مع ذلك ، تكثر الوعورة في أماكن أخرى ، نعني في فارس . وتتتابع سلسلة حقيقية من العقبات على الطرق المارة في جبال زغروس، وتحمل في أغلب الأحيان أسماء المدن التي تحرس مشارفها . وهي على التوالي : عقبة حلوان بين حلوان وكرمنشاه (٢٠٧) ، وعقبة ماذران (٢٠٨) ، وعقبة اسداباذ (٢٠٩) ، وعقبة همذان (٢١٠) ، وأخيراً ثنية الركاب (٢١١) في أنحاء نهاوند . وتعترض عقبات أخرى تتوزع على طرق طرف اقليم الجبال الآخر ، كل من أراد الذهاب إلى شيراز وفارس ، وأولاها قرب أصبهان (« مدينتان : اليهودية وشهرستان) وتسمى عقبة سرفراز . فمتى صعدها الانسان ، أشرف ، بصحبة ابن حوقل (٢١٢) على المدينتين والرساتيق المتصلة بالبلد ، ورأى « انزه مكان وأطيبه » ، يستوقف نظره ليودع ما ارتاحت له نفسه ولم يسأمه بصره . وتقع عقبة كيسا (٢١٣) ، أي ممر اسماعيل الحالي ، المؤدي إلى شمال شرق زغروس ، على الطريق ذاتها ، وقبل الوصول إلى مائين ، في شمال غرب اصطخر . ومتى وصل الانسان إلى شيراز ، تضطره جميع

الطرق تقريباً إلى الصعود . فالى الجنوب ، على الطريق من شيراز إلى سيراف تعترضه عقبه كسائر العقبات .(٢١٤) وإلى الغرب تنتصب عقبة على الطريق من شيران إلى خراسان ، بين كازرون وتوز (توج) (٢١٥). وتأتي بعد عقبة بالان أو مالان (٢١٦) . أخيراً تجتاز الطريق من شيراز إلى خوزستان في الشمال الغربي . جبال زغروس الغربية وتمر في عقبة الطين وعقبة الفيل (٢١٧) لتنتهي في ارجان عند نهر ارجان ، حيث تشاهد عقبة أخيرة عند التقاء نهر ارجان بنهر رامهرمز (٢١٨) .

في الختام (٢١٩) ، نلقى العقبات الأخيرة في خراسان وفرغانة إلى شمال شرق دار الاسلام.فمن نيسابور إلى طوس، كما في اصبهان، يصعد الناس إلى نيسابور العقبة التي تقع نيسابور في سفحها ، ويجتازون سلسلة بينالود التي يبلغ ارتفاعها ما يقرب من ٣٥٠٠ متر (٢٢٠) . وبعد ذلك، تقطع حيود هزار مسجـــد ، قبيل سرخس ، عقبة مزدران (٢٢١) . وبعدها إلى الشرق أيضاً ، تربط إحدى الطرق وادي مرغاب بوادي جيحون ، وتجاري ظهر جبل بنـــد — اي — تركستان ، وتمر في عقبة ترابية ليست صعبة أصلاً ، مجهولة الاسم . (٢٢٢) . خلافاً لما تقدم ، يرد ذكر عقبة في أقصى دار الاسلام ، على حدود فرغانة ، وتخصها النصوص الجغرافية بالاشارة إلى وصف علوها وصعوبتها، فلا بد بالتالي أن تكون واقعة في وسط سلاسل تيان شان الغربية ، وان يقصد بها ممر كوغرت أو توروغرت الحالي (٢٢٣) .

وبذا نرى أن النصوص الجغرافية تعطي صورة اجمالية عن العقبة . إلا أن هذه الصور لا تعرض منفردة في النهاية . فقد قلنا ان الانسان يتحاور مع العقبة ، ويوضح أولاً أماكن تأثيرها في الجسم أو في العقل.

مثلاً لا يتحتم على المرء دوماً أن يصعد العقبة . فربما اختار ارتقاءها ليكسب الوقت أو ليمضيه في جهة أخرى ، وترك الدواب تدور حول هذا العائق ، مثلما يحصل بين نيسابور وطوس (٢٢٤) . ويمكن أيضاً إزالة عوائق الطريق بالقيام بأعمال استصلاح ملائمة ، وانتهاز الفرصة لتقديم بعض اليسر إلى المسافرين ، كما جرى على السفوح الشرقية في جزيرة العرب . التي يروي ابن رسته عن قرية العقبة فيها أنها « كانت عقبة فسهلت » : وهذا على الأرض بالذات بلا ريب ، لكن هان العمل لوجود آبار يتحدث عنها المقدسي (٢٢٥) . ويتعاظم انتشار العمران في بعض الأماكن الأخرى . فهنا — على الطريق من شيراز إلى جنابة — يقوم خان — خان الأسد — ، وهناك — على الطريق من شيراز إلى اصبهان — بني مرصد ، مما يدل على قدرة البشر على الافادة من العائق الطبيعي (٢٢٦) . أخيراً ، يتمثل رمز الجبل الديني في قبة كازرون ، التي أشيدت قرب العقبة الواقعة بين كازرون وتوّز . وتزعم المجوس أنها وسط الدنيا ، فتحول هذا المكان العالي إلى مكان سامي (٢٢٧) .

ونشير في الختام وعلى وجه التخصيص ، إلى أن الانسان يندرج حتى في وصف العقبة ، وكدت أقول في وصفها المحض . لكنني تراجعت. فهنا ، لا لوحة رائعة ، ولا مشهد طبيعي ، ولا جغرافية طبيعية صرفة ، بل جغرافية بشرية يتفاوت ابرازها . فالصعود ، عندما يذكر ميله ، شاق ، وحاد ، وصعب ، وخطر أحياناً ، والطامة الكبرى في عقبة اورمية على طريق الموصل، التي « يركب الناس فيها اعناق الرجال كما تركب الدواب لصعوبتها » (٢٢٨) .

السهل ، لا يسترعي الانتباه

اذن يعتبر اجتياز الجبل مغامرة . وعلى النقيض ، يفترض البقاء فيه على مر الأيام أن الناس ارتضوا لأنفسهم ما يلائمهم منه ملاءمة بديهية تامة ، كأن يقيموا في حضيضه أو في ذيله ، ليتسنى لهم اشادة بنيانهم ، وللماء الانسكاب من عيونه . ويرد كثيراً لفظ السفح (٢٢٩) في النصوص الجغرافية تعبيراً عن هذا الوضع . فيكرر في نطاق الجبل الخاص ، تصنيفاً جوهرياً ، يميز العالي عن المنخفض ، ويتردد في معظم أبحاث الجغرافية : كالتضاريس ، حتماً ، أو أحد البلدان أو إحدى المدن أو حي منها ، أو حتى إحدى الدور منفردة (٢٣٠) .

وهكذا يشار إلى الارتفاع والانخفاض ، ويحكم دوماً على كل منهما بدلالة الآخر ، ويلحّ عليهما لتحديد معالم الطبيعة الأساسية . اذن أين نعين موضع الأرض المطمئنة الخالية من الحزون ، نعني السهل ؟ فهل امتنعت نصوص الجغرافية عن ذكره أو كيف تراه ؟ نلاحظ أولاً أن لفظ سهل (٢٣١) ، الذي نضمنه حالياً هذا المعنى تيسيراً ، ليس في الغالب سوى احدى كلمتين تقترنان وتتعارضان ، نقصد بهما السهل والجبل ، ونسوق على سبيل الذكر بعض الامثلة المأخوذة من ابن حوقل والمقدسي : فـ « تنس مدينة عليها سور ، ولها أبواب عدة ، وبعضها على جبل قد أحاط به سور ، وبعضها في سهل » . وفي احدى النواحي — ما بين همذان إلى الري إلى قم — في اقليم الجبال ، « فان الغالب عليها السهل ، والجبال بها قليلة » . وفي مكان آخر ، اسبره مدينة ، « سهلية جبلية » ، وسوخ مدينة على حدة الجبال » ، وفي محلات أخرى أيضاً ، يجتمع السهل والجبل في أرض واحدة قرب البحر (٢٣٢) .

ويتجلى التضاد في النصوص الجغرافية بين تضريسي الحزن والسهل، في غالب الأحيان وبوضوح غالب . حتى ليمكن استخلاصه أيضاً من مقاطع كثيرة يرد فيها ذكر احدهما فقط، فيستبعد الآخر ضمناً ، تطبيقاً لمبدأ « ما ليس سهلاً . فهو جبل ، والعكس صحيح » ، على حد زعم السيد جوردان عند موليير (٢٣٣) . مع ذلك يلاحظ أن ذكر الجبل في النصوص الجغرافية يزيد قليلاً عن ذكر السهل ، مما يثبت أن الجبل يظل في أذهان الناس المعيار الكبير على الدوام وحتى النهاية . فلا يكتفي المصنف بالإشارة إليه ، على حاله ، متى وجد ، بل يستعين به ، ويتحدث عنه ، ليوحي بأن السهل الذي يعارض الجبل ، لا يسترعي الانتباه ، ويبتعد عن الأنظار ، ويغيب عنها ، وإن كان لا أحد من الجغرافيين يفكر بالاحتجاج بغياب السهل ، عندما يريد وصف مكان حزن (٢٣٤).

ويؤول الوضع السابق ، حتى لو وجد السهل، وتمتع بالقيم التي نقر له بها في أيامنا الحاضرة ، إلى أن السهل أضعف تأثيراً من الجبل ، وأصعب انقياداً للتدوين . لكن ماذا نقصد بالسهل ، وهل له وجود ملموس ؟ أيعني ارضاً ارتفاعها صفر قياساً على التضاريس المجاورة له ؟ الجواب نعم ، أحياناً ، على الأرجح ، لكن نادراً جداً عندما يعبر ابن حوقل عن الأرض مثلاً ، فيجمع في سلسلة واحدة الفجاج ، والأعماق، والسهول ، والجبال ، ويحصر السهل بين بطونها ومتونها (٢٣٥) ، أو اذا تناوب عند المقدسي في جملة واحدة من حديثه عن اقليم الشام ، السهل والجبل والأغوار (٢٣٦) .

مع ذلك ، يغلب ان تقترن مفاهيم أخرى بمفهوم الجبـــل ، أولها السطح أي إذا شئنا السهل المستوي ، والأفق الفسيح الذي يعترض فيه

أي شيء النظر ، كأن يتكلم ابن حوقل عن بلاد خولان ويقول « هي مفترشة » (٢٣٧) ، أو عن قرية طبرقة ، فيقول « إنها واسعة الفضاء » (٢٣٨) ، أو أخيراً عن أرض المعدن في حدود البجة ، لينقلنا في جولة قصيرة خارج مملكة الاسلام (٢٣٩) ، فيقول انها « مبسوطة لا جبل فيها » (٢٤٠) . على الرغم من ذلك ، يحيّرنا غياب لفظ سهل في اليمن ، ولا يسعنا فيما نعلم ، ان نصف تضاريسها إلا بالارتفاع ، وإن بلاد البجة تقع في الحقيقة وفي تنظيم العالم البنائي ، حسب ابن حوقل بالذات ، في وسط سلاسل جبلية تمتد بين النيل وبحر القلزم . أخيراً ، إذا عدنا إلى النص ، أدركنا أن المقصود بطبرقة ، ليس الآفاق الواسعة أو المنظورة ، بل الحقول الكثيرة الغلات والمزارع (٢٤١) المعروف وسطها هنا نعني جبال كرومير . اذن على وجه الاجمال ، تبدو «السهول » — وهي نادرة — المذكورة هنا ، صراحة ، أماكن منفرجة ضمن كتلة الجبال ، ولا شيء سوى هذا الانفراج ، أي ما يشبه بلاد ريبيلار في نشيد العالم لجيونو (٢٤٢) .

بالمقابل ، نحصل حتماً على معان كثيرة ، تدل عليها الألفاظ المشتقة من جذر « سوي » ، التي تصف الأرض المطمئنة المنبسطة ، مثل اسم الفاعل واسم المفعول ، بالمذكر والمؤنث — مستوى ، مستوية أو مستواة— عندما تنعت بها الأرض الواردة صراحة في النص أو المستترة ، ويترافق مدلولها مع أوصاف أخرى تتناول طبيعتها أو خصبها (٢٤٣) . وأهم من هذه الألفاظ لبحثنا ، بعض مقاطع تجتمع فيها الأرض المستوية وغياب التضريس منها أو ابتعاده عنها (٢٤٤). والمقصود بلا ريب ، السهل الذي يمترش ويمتد في الآفاق خالياً من النتوءات ومن العوائق التي تنطوي عليها الجبال . وتقوم فيه المدن وتشاد (٣٤٥) ، فيمثل

«المستواة مطمئنة في وجه الأرض » (٢٤٦) وينشأ السهل أخيراً « في أحد البلدان » في الشتاء ، في ضباب أقصى شمال دار الاسلام ، كما جاء في هذا المقطع : « وقد استوت فجاج الأرض ، وأوعارها ، وجبالها ، وأوديتها، بما استولى عليها من الثلوج ، فصارت كالمستوية الأرجاء»(٢٤٧)

لكن قد يحتج البعض بأن الألفاظ السابقة اشتقت من جذر « سوي» لا من جذر « سهل » الذي كانت معرفته تتحتم علينا . فكيف نربط بين هذين اللفظين ؟ أهما مترادفان تماماً ، حتى ليمكن استبدال أحدهما بالآخر ، مثلما يتبادر إلى الذهن أحياناً (٢٤٨) ؟ ليست الأمور بسيطة إلى الحد الذي نتصوره . فابن حوقل يتحدث عن انتشار الرمل المعروف بالهبير في الصحراء الكبرى ، ويقسمه إلى جبال و « أرض سهلة » أو على الأصح أرض مستوية ومطمئنة ، إذ إن الجبال « العظام » ، التي تتعارض مع السهل، « لا تتوقل ولا ترتقى » (٢٤٩) . فالسهل يضيف هنا إلى استواء الأرض سهولة المسالك والمسير .

ولا ينفصل مفهوم السهولة ، فيما يبدو بجلاء تام ، في صميم النصوص الجغرافية ، عن جذر « سهل » ، ويعرف به تعريفاً أساسياً في الأصل . وجاء في مقطع آخر عند ابن حوقل ذاته ان الجبال في اذربيجان تمتد « بين وعر وسهل وجبل » (٢٥٠) . وكان يجوز ان يذكرنا هذا التصنيف بتقسيمات أخرى مرت معنا من قبل في حديثنا عن العلو صفر ، لولا أن النص وصف هذه الأوعار في الأسطر القليلة السابقة بأنها « صعبة ومنيعة » ، ووصف تلك الجبال بأنها « شاهقة عالية» (٢٥١)، مما يثبت ، بالتضاد ، ظهور فكرة الاستواة في السهل ، وملازمتها فكرة التضريس المتوسط . أقول ملازمتها . لكني أذهب إلى حد التأكيد على رسوخ البنية

ردحاً كاملاً في أماكن أخرى . على الأقل عندما يؤدي الثبات بصيغة افعل التفضيل : أي اسهل . ويعتبر المقدسي طريق الري « أسهل » الطرق التي رآها ، ويقصد ان العوائق فيها قليلة . ويقول إن طريق فارس أصعبها . وأصعب ضد أسهل ، ويعني أن الجبال وعوائق أخرى تكتنفها . وهكذا يدرك القارىء في النهاية أن الألفاظ وحدها تشرح الجغرافية ، وان مفاهيم السهولة والوعورة – وهي أصلية (٢٥٢) تدخل في النظرة الشاملة مفاهيم التضريس المستوي أو الغليظ .

ولن نختتم بحثنا قبل إلقاء نظرة عاجلة على بعض الألفاظ الأخرى المختارة من شتى النصوص الجغرافية . فالفحص يبدو في جوهره مزدرعاً غنياً بالماء والزروع (٢٥٣) . والقرار أو القاع هو سهل الحضيض عند أصل الجبل تحت سفوحه (٢٥٤) . والساحة من الأرض ، هي المستوية الضيقة المساحة التي تشرف عليها الجبال المحيطة بها (٢٥٥) . والصحصاح من الأرض ، ما انبسط وكان ذا حصى (٢٥٦) . أخيراً الصحراء أشد استواء ، لا جبال فيها ، على حد ما يقال لنا ، ملساء إلى أقصى حد ، لكن تقع في حيز جاف بوضوح ، وبالتالي هي « المفازة » التي لنا عودة إليها . (٢٥٧) .

ويبدو للباحث أن هذه الألفاظ لا تترافق لا من قريب ولا بعيد ، مع أحد مشتقات السهل. وتؤدي باللغة الفرنسية بكلمة سهل الفرنسية(٢٥٨) لأن المترجم لا يجد سواها . وقد رأينا أن السهل يعبر عن السهولة الناشئة عن استواء الأرض وعن التضريس المتوسط بين الظهور والبطون . اذن يجوز أن يطرح المرء قبلياً ان استعمال الألفاظ المدروسة منذ قليل عوضاً عن مشتقات « سهل » ، يعلل بأداء تلك الألفاظ معنى واحداً أو معنيين

من المعاني الثلاثة المضمنة في كلمة سهل ، أو باستبدال أحد معاني السهل بمعنى آخر (٢٥٩) . اذن لابد من مقارنة تلك الألفاظ لفظاً لفظاً بالسهل. أما قرار وقاع ومشتقات « سوي » المحللة ، فبسيطة . فالقرار والقاع لا يؤديان من معاني السهل سوى فكرة التضريس المتوسط . وتقتصر مشتقات « سوي » على الاشارة إلى الانبساط (٢٦٠) . وأما الصحراء ، فتشبه السهل بتعبيرها مثله عن غياب الحزونة وعن استواء الأرض ، وتختلف عنه بالاستعاضة عن السهولة بالجفاف . وهنا يتساءل المرء: هل يعني هذا الاستبدال أن الجفاف لغو في تعريف السهل (وعندئذ يصبح الخصب سقطاً أيضاً في المنطق السليم) أم أنه تضاد بيّن ؟ لنقل مبدئياً ان جذر « سهل » يتضمن الخصب والجدب ، ويسعه أن ينزع إلى أحدهما ، إلا أن الاختيار يتجه في الواقع وعلى نطاق واسع ، إلى وفرة الخير (٢٦١) . لكن لا يبدو الاختيار قسرياً على الدوام . ففي حالات كثيرة ، لا يفصل الجغرافي الرضع الاقتصادي ، واذا تطرق إليه ، فلا ينعت لفظ السهل ليعبر عنه (٢٦٢) ، بل يجيء به في سياق النص وفي وصف الأماكن عامة كما لو أن مفهوم السهل يحرص على التمسك بالمعاني الثلاثة التي تعرّفه (وخاصة معنى السهولة الذي يلخصها جميعاً) ، ويتحاشى زيادة صفات أخرى يحتمل وجودها فيه ويرتضيها ، لكنه يفضل الخصب على نقيضه . ومن هنا الميل إلى استعمال الصحراء لتأدية معنى الجفاف (٢٦٣) .

ويرد في النصوص الجغرافية مفهومان آخران يستدعيان ملاحظة مماثلة ، أقصد ان بوسعنا ، فيما يبدو ، أن نتناولهما بحرية تامة مع جذر «سهل » ، وان كانت حرفية تلك النصوص لا تجيز مثل هذا العمل . فالصحصاح ، وقد مر معنا من قبل ، يعبّر كالسهل عن الأرض المستوية

والمطمئنة ، لكنه يزيــد شيئاً عن وجود الحصى فيها واظنني على صواب اذا استنتجت أن هذه الناحية تفرّق الصحصاح عن السهل ، وتقضي أن تكون أرض السهل لينة . وفي الواقع ، يتعارض وجود الحصى (٢٦٤) مع قيام الزراعة التي تحدثت عنه ، ومع فكرة السهولة المضمنة في جذر «سهل» ، بالتالي يعتبر استواء الأرض في الصحصاح تقريبياً حتماً وناشئاً عن رؤية نظرة شاملة ، لا عن تمحيص أدق يقيم ارتباطاً وثيقاً بين وجه الأرض وبنيتها . وتكتشف هذه النظرة الشاملة إياها أرضاً ملساء في السهل لأنها لينة ، وتختفي أحياناً وراء لوحة السهل الموجزة ، وليس مباشرة وراء السهل . ثم تأتي الاعتبارات الاقتصادية ، فتنبؤنا ما اذا كانت الأرض اللينة واقعة في أرض الأرياف المنبسطة الواسعة ، وهذه هي الحالة الغالبة، أو في أرض الرمال السهلة الشاسعة في المفازة التي يتكلم عنها ابن حوقل (٢٦٥) . لكننا ندرك جيداً ، على ضوء الصفة الأخيرة ، وهن ارتباط المفاهيم السابقة بتعريف السهل واحتمال وجودها مستقلة . لأن الرمل والحصى ينبسطان ، إلا أن الرمل ألين و « أسهل » من الحصى ، بالتالي أقدر منه على تكوين المستواة ومهاياتها . مع ذلك لا يشكل الرمل دوماً أرضاً سهلة ، ومتى تخلى عن تشكيلها ، تصبح ليونته عقبة ، ويتحول إلى جبال لا تتوقل ولا ترتقى ، يتحدث عنها ابن حوقل أيضاً (٢٦٦) ، وتجاور الأراضي السهلة .

أخيراً ، يرد مفهوم السعة في النصوص الجغرافية ، وقد أشرنا اليه مرتين من قبل . والحقيقة أن معنى السعة لا يتضح تماماً ، ويكتنفه بعض الغموض. فاذا كان السهل في تصورنا يعبر عن اطمئنان الأرض بالتعريف فلا بد من رفض كل أرض يصطدم فيها المرء مباشرة بعائق ، وكل أرض يتعذر عليه الوصول إليها وسلوكها بعد فترة وجيزة . أما اذا قورن

السهل بالساحة ــ وهي في الأصل فضاء ضيق بين دور الحي خاصة (٢٦٧) فيتبين أنه يعبر عن الحد الأدنى من اتساع الأفق ، الذي يسمح له به مثلاً تضاده مع الجبل . الوارد كثيراً في النصوص الجغرافية . ولا يرد الاتساع في هذه النصوص صراحة إلا نادراً ، ربما لأنه بديهي . وفي جميع الأحوال ، لا يدون اتساع السهل بتاتاً وعندما يظهر أفق عميق وفسيح بوضوح وصراحة ــ وهذا شيء نادر ــ يقارن بالتضريس المحروم منه بالتعريف ، أي بالجبل المتماسك العظيم الذي لا يبدو فيه الاتساع إلا شاذاً وعجيباً (٢٦٨) .

ونختتم هذا البحث (٢٦٩) بالقول ان مشتقات جذر سهل (٢٧٠) العربية التي تؤدى بلفظ سهل الفرنسي ، تعبر بانتظام فيما يبدو عن أرض لينة وسالكة على نطاق واسع ، وعن خصب الأرياف على نطاق أضيق . ويلاحظ الباحث أن فكرة السهولة متشعبة ، وان مفردات أخرى تدل على المعاني المقصودة وتحددها . بالفعل يعبر السهل عن سهولة ترتبط بتطامن الأرض واستوائها بالتالي عن سهولة الموضع وسلوكه، أي في النهاية عن صفات تعطي تعريف السهل بعد مقارنته بالجبل . ويتفهم الباحث هذا الموقف تماماً، لأن الجبل يسترعي الأنتباه لأول نظرة يلقيها على الأرض ، ويفرض فعلاً كيانه ، العظيم في الغالب ، في حين يمثل السهل في الواقع تضريساً مستوياً بالتالي أرضاً تصعب الاحاطة بها . اذن يبقى الجبل حتماً المعيار الأكبر ، حتى لو تحوّل بعضه شيئاً فشيئاً إلى سهل ، عندما ينخفض ارتفاعه ، وتضعف حدة انحدار سفوحه ، فيحكم عليه باتباع سيرورة تراجعية متنافرة ، أي بالحد من العوامل التي تربطه ــ وتربط السهل معه بالتضاد ــ بمضمون الجغرافية البشرية وتبعده عن الجغرافية الطبيعية .

بعض النواحي الرائعة في الجبال

تجتذب الجبال البشر إليها ، رغم عوائقها وعلوها ، الشاهق أحياناً ، ورغم غلظها ، المنيع في ظروف معينة . ولا نقصد بالبشر أناساً تواقين إلى كسب المال ، ولا مغامرين أو ساعين وراء الحصول على المعرفة . بل كل من يستقر في الجبال ، ويعمر أرضه ويعيش فيها . ولا ريب أن أهل الجبال يختارون سفوحها وحضيضها لسكناهم ، اذا كانت باذخة . لذلك تبقى رؤوسها ملكاً لله وحده (٢٧١) ، مثل قلل دنباوند المكللة بالثلوج الدائمة ، وبالهواء المتخلخل . أما سائر الجبال ، التي تتوفر فيها أسباب الحياة — لعظمتها أو لكرمها — فينعم الناس بشيء من خيراتها التي لا تقدر بثمن .

وأول هذه الخيرات الهواء (٢٧٢) ، بمعنى المناخ ، لأن لكل جبل هواءه . ويقول ابن حوقل (٢٧٣) : « اللور بلد بذاته خصب ، والغالب عليه هواء الجبل » . ويشمل الهواء النبات فيشير المقدسي إلى « الثمار الجبلية » في حديثه عن ثمار نقاوس في المغرب (٢٧٤) . لكن ماذايعني هذا الكلام ؟ يعني أولاً أن الهواء مرادف للبرد (٢٧٥) . لكن لابد من إدراك المقصود بلفظ برد . بالفعل قد تكون الجبال باردة بحد ذاتها ، بفعل شموخها وحده ، وهذه ناحية بديهية وجاء في كتاب التنبيه والاشراف (٢٧٦) : وفي بلاد مصر « يحمى جوها ، فلا يغلظ البخار السائل إليه ، ولا تجتمع ، حتى يخالط بحر الاسكندرية ، ويمتزج به ، ويجوزان معاً جهة الشمال من بلاد أروفى . واذا صارا إلى الموضع الذي يعرض لهما فيه الانحصار ببرد الجو وما يحيط به من الجبال ، سالت تلك الأبخرة هنالك ، فصارت أمطاراً في تلك المواضع الشمالية . فلهذه

العلة ، عدم أهل مصر المطر » . مع ذلك تخضع الجبال وأرضها ، في بعض الأماكن الأخرى ، إلى ما يؤثر في ارتفاعها فيضعف فعله أو يقويه ، مثل سلطان الكواكب ، وكمية المياه ، وكمية الأشجار ، وطبيعة التربة ، واختلاف مجاورة البحار (٢٧٧) . واستشهد في هذا المنظور بالمقطع التالي من كتاب التنبيه والإشراف ، لأنه يذكر أسماء جبال نعرفها (٢٧٨) : « وهوية هذه المواضع تختلف ، وان اتفقت فيما ذكرنا من العرض وغيره ، لآفات وعوارض . من ذلك أن يكون بخارات باردة وفي أعماق الأرض ، فتظهر ، فتكون سبيل تلك المواضع من الأرض ، ان ما يتولاها من الكواكب يوجب تأثير الحرارة فيها ، فيغلب ما ظهر من البرودة منها عليها ، تدفع فعل الكواكب ، كالسروات من أرض التهائم ، وهي ثلاث : سراة منها ما بين تهامة ونجد ، ادناها وجّ وهي الطائف ، وأقصاها قرب صنعاء من أرض اليمن . والسروات أرض عالية وجبال مشرفة ، يجب أن تكون حارة ، لتأثير الكواكب ، إلا أن ما يظهر من بخار الأرض يغلب على البلد ، فصار بارداً . وكذلك أيضاً دمشق ، عرضها وعرض بغداد واحد . . . فيجب أن تكون حارة كحر بغداد ، إلا أن البرد يغلب عليها ، لما يظهر من بخار الأرض من البرودة . فكان الحكم له . وكذلك ، قد تكون مواضع من الأرض ما يتولاها من الكواكب يوجب تأثير البرودة فيها ، فيظهر من قعر الأرض بخارات كثيرة حارة ، فتدفع ذلك ، ويصير الحكم لها ،وتجعل ذلك البلد حاراً ، ككثير من البلدان الحارة . وقد تكون بقاع من الأرض يغلب على ما يظهر منها من البخار البارد ، تأثيرات الكواكب بالحر . فيكون الحكم له ، ويغلب على ما ظهر منها من البخار الحار تأثيراتها بالبرد . فيكون الحكم له .

وتعتبر هذه التأملات وغيرها (٢٧٩) أفكاراً تتناول الهواء ؛ ولا تعنينا الآن إلا اذا أقحمت الجبال في تبصرها . وهي تلحّ في النهاية على أحد أهم مبادىء الفيزياء في القرون الوسطى ، أي على التعقيد المذهل في تداخل القوى الفاعلة في تكوين الحياة : مثل الجهات الأربع الأصلية ، والعناصر الأربعة (الهواء والماء والأرض والنار) ، والطبائع الأربع (البرودة ، والحرارة،واليبوسة ، والرطوبة) ، والكواكب والنجوم والبروج (٢٨٠) . وتخضع جزيرة العرب ، التي أخذت مثالاً هنا ، إلى تأثير الشمس ، فهي بالتالي حارة ، وإلى تأثير الأرض ، فهي بالتالي باردة مبدئياً (٢٨١) . ومن هنا نشأ التضاد بين الطبيعتين . لكن لا يبيّن المسعودي لماذا يتغلب البرد أحياناً ، ولا لماذا لا تتضح هذه الغلبة إلا في الجبال . وأظن أننا نستطيع أن نجيب نحن . فغلبة البرد نسبية تماماً ، شأنها شأن سائر الأشياء في الدنيا : فدمشق ليست باردة إلا عندما تقارن ببغداد . ويمكن أيضاً وصف بعض بقاع جزيرة العرب بالبرودة والرطوبة ، لأنها تدخل في الربع الذي يخضع لتأثير الشمس والأرض ، وتلامس الربع المجاور الذي يخضع لتأثير القمر والماء (٢٨٢) . وهكذا يستطيع الباحث أن يعلل تعليلاً نسبياً — والح على هذه الناحية — ضعف تأثير الشمس ، وبالتضاد ، تقوية تأثير البرودة المشتركة بين عنصري الأرض والماء ، مع أن الماء يقوّي عنصر اليبوسة الخاص بالأرض . ويلاحظ أن جميع الظاهرات السابقة تدعم وجود وقوة الأبخرة الرطبة التي تقاوم حرارة الشمس . لكن لماذا تحصل هذه الظاهرة في الجبال وحدها دون غيرها ؟ ربما لأن الجبال أماكن اعلاء الأرض وارسائها وانعطافها ، فتبدي استعداداً لإمرار قوى عنصرها ، وتسمح لها بلقاء نار السماء .

ولا يأبه الجغرافيون لهذه المبادىء العلمية التي يتقيد بها الموسوعيون . وأخص بالذكر منهم الذين عقدوا العزم على التجوال في دار الاسلام ووصفها كما يرونها بنظر حاد وقلم متأهب على الدوام . ويكتفون بوضع تصنيف أساسي يقسم وجه الأرض إلى جروم وصرود ، ويدخلون الجبال في الفئة الثانية ، مثلما نتوقع . ونحن نحذو حذوهم بحس سليم في بعض أنحاء كرمان أو في المغرب مثلاً (٢٨٣). وقد تجري بعض التعديلات على هذا التقسيم بلاريب (٢٨٤) . إلا أنه ليس الناحية الجوهرية . فالأصل فيه ما يخلفه البرد من آثار ، تحدث وتدون على علاتها ، كالمطر والجليد والثلج .

والمطر المقصود هو الغيث الدائم ، كما هي الحال في طبرستان ، التي يلخص المقدسي مزعجاتها باستنتاج مقتضب من كلمتين : « والصيف مطر » (٢٨٥) . أما الجليد ، فيقال عنه : ربما جمد الماء في ذروة جبل الطائف – زغوان – في قلب ؟ جزيرة العرب (٢٨٦) . وهذا يحصل في الفصل البارد طبعاً ، وقد يشرح المسعودي أسبابه . إلا أن الجبال تحوّر الفصول ، وتدعم سيطرة الصقيع الدائمة . فعلى شط بحيرة خوارزم ، جبل عال ، يجمد عنده الماء ويبقى سائر الصيف ، وله اجمة قصباء . والنص صريح يفيد ان الجبل يوزع برد الشتاء القارس على جميع فصول السنة ، وهو أبرد ما على جيحون من البقاع (٢٨٧) . وهنالك ما هو أغرب : ففي ناحية من جبال بتم ، عيون ماء يجمد في الصيف اذا اشتد الحر ، وقاظت السموم ، حتى يصبح الجمد كالأعمدة ، وينقطع جري مياهها (٢٨٨) . أخيراً يتكرر ذكر الثلج وكأنه نشيد البلدان الباردة ووثيقة تعريف بالجبال أصلية ، ويرد في الحديث عن الجبال العظام كدنباوند ، وحرمون أو سبلان ، وعند الكلام عن كرمان وما

وراء النهر وفارس والسلاسل العالية في غرب ايران . فالثلج يكلل جميع هذه الأماكن في جميع الفصول ، ويصل أحياناً حتى إلى الجبال التي تشرف على سواد العراق (٢٨٩) .

ولا تغري أمثال هذه الجبال على وجه الاجمال ، لكن لابأس . . . فالبرد القارس لا يظهر في جميع الأماكن ، وهذا فأل حسن . ويصغر الجبل أحياناً أو يشرف من ارتفاع منخفض على أراضي حارة ، فلا ينفث برداً ، بل رطوبة . فيصبح جنة حقيقية بهوائه « المعتدل » . وينطبق هذا الكلام على الديلم ، وبلاد شيراز ، وسلاسل اقليم الشام التي تطل على البادية القائظة ، وأخيراً على الطائف التي يصيف بها أهل مكة هرباً من شدة الحر (٢٩٠) . ويتحدث المقدسي عن شؤون اقليم جزيرة العرب ، : « هو اقليم شديد الحـــر ، الا السروات ، فان هواءها معتدل — وحدثت أن رجلاً صنعانيا ، طبخ قدراً من اللحم ، ثم ذهب إلى الحج ، فعاد وما تغيرت » (٢٩١) .

إلا أن في الجبال مياهاً جارية ومحيية ، لا مياه مناقع أو مياهاً عكرة. وتنحدر أكبر أنهار دار الاسلام من الجبال العالية ، وتعظم وتطول حتى ان بعض الجغرافيين يعللون أنفسهم برؤية مخرجها من أعالي تلك الأطواد عياناً ، ايستعيضوا بمشاهدتها عن معارفهم السماعية . ومن هذه الأنهار الكبيرة ، سواء عرفت منابعها الجبلية أم لم تعرف ، النيل ، ودجلة والفرات ، وجيحون وسيحون ، وأخيراً مهران (٢٩٢) . وتليها فئة ثانية من الانهار تأتي أسماؤها مقترنة بأسماء جبالها ، منها الأردن وجبل الثلج ، وبردى وجبل سنير ، وهرماس الأعلى وجبال نصيبين ، والزابان رافدا دجلة وقمم أذربيجان ، والكر وجبل القبق ، وجداول جبال

فارس ، ومياه خرزستان والجبال ، وزرين روذ اصبهان ، ونهر مرو (مرغاب) وغرحستان ، وزرفشان (نهر السغد) وجبل بتم (٢٩٣) . ولا تسمى تلك المياه في معظم الأحيان وعلى الأرجح ، تغفل أسماء العلم الخاصة بها ، ويكتفى بلفظ الماء وبأسماء مجامعها العامة التي ترد في النصوص الجغرافية بعض مفرداتها كالمياه ، والمياه الجارية ، والعيون ، والجداول ، وكالمياه المستثمرة مثل الآبار ، والأقنية . والأحواض، والسدود.ويتكرر ذكر هذه التعابير بلا ملل في الحديث عن غاظ الجبال وحضيضها أو رؤوسها ، وفي الكلام عن الأرياف حيث تدير الارحية، وعن المدن التي يصل الماء النظيف إلى أزقتها وأسواقها (٢٩٤) .

وهكذا تبرز صورتان في هذه الجغرافية ، أولاهما كلاسيكية حتى أيامنا الحاضرة . تعتبر الجبل خزان ماء ، يصفه المسعودي ويقول (٢٩٥) : « واما انشازها ، فمنها الجبال الشامخة ، ومنافعها ظاهرة في قوة تحدر السيول منها ، فتنتهي إلى الأرضين البعيدة بقوة جريها ، ولتقبل الثلوج ، فتحفظها إلى أن تنقطع مياه الامطار وتذيبها الشمس ، فيقوم ما يتحلب منها مقام الأمطار ، ولتكون الآكام والجبال في الأرض حواشر للمياه لتجري من تحتها ومن شعوبها وأوديتها ، فيكون منها العيون الغزيرة ، ليعتصم بها الحيوان ، ويتخذها مأوى ومسكناً ، ولتكون متاطع ومعاقل وحواجز بين الأرضين من غلبة مياه الأمطار عليها ، وما لا يحصيه الا خالقها » .

وهنا نود الاشارة إلى بعض التعابير المائيـــة الواردة في النصوص الجغرافية ، مثل « المياه الغزيرة » في جبل اوراس ، والديلم ، والسلسلة الساحلية في فلسطين ، وفرغانة ، ومثل « هو اقليم كثير الأمطار ، وربما اتصل المطر سنة » وعظيم الامطار أيضاً حتى أنها تصبح « مؤذية

ومضجرة » في الجبال الساحلية الواقعة إلى جنوب بحر الخزر ، ومثل عيون وأنهار « كثيرة » أو « واسعة المياه » في الجليل وفلسطين ، وفي جبال ارمينية وأذربيجان ، وفي جبال همذان ، وأخيراً في الغور بين هرات وكابل غزنة (٢٩٦) . وتصور بعض المشاهد المياه تصويراً أفضل : منها خروج نهر الأردن من تحت جبل الثلج ، ولوحة عيون طبرستان التي تتحول مباشرة إلى أنهار ، وأخيراً صورة جبال البتم واشرسونة وسمرقند ، التي يمد ذوبان ثلوجها في الصيف نهر زرفشان (نهر السغد) ، فيزيد الماء فيه أحياناً حتى ليقلب السكر لقنطرة جبرد (٢٩٧) . بالتالي يوفر اقتران النهر ، سمي أم لم يسم ، باسم الجبال ، المعطيات الاساسية اللازمة لخريطة الجبال من جهة ولخريطة الامطار والعيون من جهة ثانية. ويلاحظ أيضاً أن الجبل الأجدب والاجرد أحياناً يبدو شاذاً ، فيدوّن . وينطبق هذا الكلام على الجليل ، وخاصة على جزيرة العرب التي تضم الحرة المؤلفة من « جبال كلها يابسة لا تنبت الا مواقع المواشي والغضى» التي لاتشاهد فيها إلا بعض الأعشاب النادرة المألوفة في المفازة (٢٩٨).

وهكذا تحوي الجبال الماء والحياة ، فتصبح معين المياه ومعين الحياة. وتستحق صورة الأرض العالية المغذية ، الواردة كثيراً في النصوص الجغرافية ، اهتماماً خاصاً . ولا ريب أن مصنفي الجغرافية يصفون الحياة الامينة والمزدرعات الخصبة وصفاً بديعاً وعجيباً أحياناً ، دون أن يتحدثوا عن ارتباطها بوجود الماء صراحة على الدوام . إلا أن هذا الماء مفروض توفره لأنه يسقي البساتين ، أو يروي الحقول ، وينمي الأشجار ، وينضر الثمار ، وتشرب منـــه القرى . وأذكر هنا ثلاثة استشهادات من عدد لا يحصى من النصوص الجغرافية التي سوف نمحصها . وأولها واضح تماماً يتكلم فيه ابن حوقل عن سيراف ويقول :

« وإنما فواكههم وتوسعهم وطيب عيشهم بما يصل لحيهم من مياه تفرغ من جبل مشرف عليهم » (٢٩٩) . أما المقدسي الذي يتباهى بأدبه ، فيريد أن يبهر القراء ، فيصف بلدان نيسابور أو خوزستان وصفاً مقتضباً، فيقول مثلاً ما معناه أن جبالها وعرة وقاحلة ومزدرعات حضيضها موحشة وجافة ، لكنه يسبك هذه الافكار في نثر مسجوع ، فتصير : « سواد يابس وجبل عابس » (٣٠٠) . وأبدع من هذا السجع قوله عن شيراز : « وأبعد الجبال عنها على فرسخ ، وأقرب الحطب اليها على مرحلة » (٣٠١) . اذن يبدو وضع جبال شيراز غريباً ومثيراً تقريباً . فهي تحيط بها ويفترض أن تزودها بما يتوقع وجوده في المرتفعات من حاجاتها ، لكنها لا تفعل ، وتضطر شيراز أن تجلبها من مكان آخر بعيد عن نطاقها .

الجنان الجبلية

وتعيد النصوص الجغرافية إلى ذاكرتنا باستمرار (٣٠٢) بأن الخصب ناشيء عن الماء . فلننصت مرة أخرى ، عند ابن حوقل ، إلى الماء وهو ينساب سراً، وأكاد أقول بين فاصلتين . مع ذلك فهو يرى في اضعاف جبال أرمينية وأذربيجان ، ويحملها على التمتع برقة هدوء الحياة اليومية. ويختلج أيضاً في صميم كيان الاحياء ، فتطمئن أجسامهم وأفئدتهم إلى الأرض الغنية ، ويتطورون تطوراً عادياً متوازناً . . ولنقرأ ما كتبه ابن حوقل (٣٠٣) : « وبهذه الجبال والنواحي والمدن والبقاع التي ذكرتها ، من الرخص ، والخصب ، والمراعي ، والمواشي ، والسوائم ، والخيرات (٣٠٤) والبركات ، والمشاجر ، والأنهار ، والفواكه ، الرطبة واليابسة ، والخشب ، على سائر ضروبه ، من خلنجة (٣٠٥)

وكرمة وجوزة ، مالا يحاط بعلمه . ولا يبلغ كنهه . وملوكها بها من سعة الأحوال ، وتمتعهم بالنعم . والملاذ . والترف بالطيب والثياب ، والخدم الروقة ، والخيول والبغال، ذوات المراكب (٣٠٦) من الفضة والذهب ، وقنية الجواري (٣٠٧) الروقة ، من المغنيات والشهوريات والطباخات (٣٠٨) ، والنفقات الدارة السابغة ، وكثرة الآلة من الذهب والفضة ، والآنية الرفيعة ، الثقيلة المخرشة بالسواد ، من الصواني ، والأطباق ، والارطال (٣٠٩) ، والطسوت والاباريق والاسطال (٣١٠) في غرائب الصنعة من اللجين والعسجد (٣١١) إلى ما يشكل ذلك من الزجاج المحكم ، والبلور المخروط الثمين ، والجوهر من الحب والياقوت (٣١٢) .

فالجبل نعيم ، ونقر بذلك ،ونعتبره نعيماً على مستويين : مستوى ترف عظماء العالم ، ومستوى تأمين عيش عامة الناس . ونعزو هذا النعيم إلى الجبل بحد ذاته وإلى وجود الماء ، سواء أشير إليه صراحة أو ضمناً. ويلخص لفظ « عامر » (٣١٣) وضع الجبال المزروعة والمسكونة ، ويشتق من جذر « عمر » الذي يفيد احياء الأرض على يد البشر . ذلك أن الجبل والماء ينميان عفوياً نباتهما من الأشجار والأعشاب (٣١٤) ؛ أما البشر فيقيمون في الأرض ، ويستثمرونها ويحولونها . فهم يقطعون خشب الأشجار (٣١٥) ، ويجنون ثمارها . بالفعل الجبال طيبة جداً ، حتى أنها تقدم لجميع الناس ، بكثرة ، ودون حاجة لزراعة أشجار ، ثروة عظيمة من اللوز والجوز ، والعنب ، والتين ، والبطيخ ، والخرنوب ، والرمان ، والعناب ، والزيتون ، والتفاح ، وحتى الاترج والنخيل (٣١٦) إذا كان المناخ ملائماً . وتتغذى الماشية ، من الدواب وسائر الكراع (٣١٧) بأعشاب الجبال . وتسترعي انتباه الجغرافيين الأرض المحروثة والمزروعة،

فيشيرون إلى البساتين والحقول والزروع ، في شتى أنحاء الجبال الخصبة، ويوجزون بلفظ « خصب » الوحيد (٣١٨) جميع ما يلحظونه . ويرسم ابن حوقل (٣١٩) لوحة عجيبة لجبال ضواحي سمرقند ، ويذكر فيها مباهج الجبال المنيعة أو المستغلة ، ومواردها . ويقول : « وليس بنواحي سمرقند رستاق أصح هواءاً ، ولا أجود زرعاً، ولا أحسن فاكهة منه — أي الشاوذار — ، وأهله أصح أهل نواحيهم ابداناً ، وأجمل الوانا . . . . وهو من أنزه الجبال ، وأحسنها ، في عمارة لا تنقطع ، وغلات متصلة لا تغبّ ولا تمتنع . . . وللشاوذار فجاج (٣٢٠) وكل فج منها أنهار جارية إلى ضياع في خلال ذلك حسنة زاكية، وصيود من غير جنس، كثيرة ، وخصب وغدق من جميع وجوه العيش والتمتع به » .

وتنشط حياة البشر إلى أقصى حد في أماكن تجمعهم ، في المدن والقرى التي يعددها الجغرافيون ، ويصفون اتساعها (٣٢١) كلما استطاعوا إلى ذلك سبيلا ، ويبالغون في أقوالهم ، مثلما فعلوا في زعمهم ان ألف مدينة كانت على نهر الرس في ظلال جبلي الحارث والحويرث (٣٢٢) . اذن الجبال حاضرة ، وهذه صفتها البارزة . ويتكرر تعداد مدنها وقراها ومزارعها في حالات كثيرة وكأنه لازمة في بحث الجبال ، ويقترن أحياناً بأسماء المراعي على نحو ما سوف نرى . مع ذلك ، لا يستنفد اقتصاد الرعي ، ان وجد ، جميع نشاط البشر(٣٢٣) ويمثل وجهاً واحداً منه ، ويعد الوجه الآخر فيه ، العمل في الحقل والبستان أو المشجرة . وقد أشرنا من قبل إلى تعبير المقدسي الواضح جداًفي بحث جزيرة العرب،وهو: (٣٢٤) :« والحرة . . . جبال ، كلها يابسة، لا تنبت إلا مواقع المشاشية والغضى » . إلا أن هذه الجبال اليابسة شاذة

هنا ، وتعد تجربة تتعارض مع التعريف العام الذي يربط الجبل بصلة وثيقة جداً بالماء والزروع الدائمة والخضر .

اذن عدنا إلى اكتشاف مفهوم الجبل الأم الموصوف بأوصاف اضافية ، لا على أنه أساس الهندسة الكونية ، بل باعتباره أصل العيون والخضرة والحياة في جميع الأماكن تقريباً . لكن لم نرجع إلى مفهوم الجبل الأم الذي يحدد له مكان وحيد وثابت على الأرض ، وينشأ عنه كل شيء ، بل إلى مفهوم الجبال الامهات . فليس المقصود ظاهرة ثابتة إلى الابد في وقت ماض لا مثيل له ، مر وانقضى نهائياً بعد تحديده في الدهر الكوني ، بل حركة تتجدد يوماً بعد يوم في صميم الزمن المعاش . ولا نعني بالجبل الأم جبلاً نشأت عنه جميع جبال الأرض ، ولا شيء سواه ، بل كل جبل احتضن البشر بحد ذاته ، ولا نشير إلى أرض لم تلد الا ذاتها ، بل إلى الأرض الخاضعة إلى خلق دائم وشامل ولا الى أم واحدة ، بل إلى أمهات عديدات . وربما وجب علينا ان نضيف : لا إلى البادية ، أمّ البدوي القاسية والحرة ، بل ، على حد قول جورج دوبي ، غابة الخضر الأصلية ، المغذية ، الكثيفة ، حاملة مزايا التربة الثابتة التي اجتاحها البشر بعد أن تعلموها باتقان (٣٢٥) .

مع ذلك ، تقدم الجبال للبشر ما يزيد عن أودهم اليومي ، لكي يستقروا فيها . فتمدهم بالأغذية النباتية والحيوانية ، وبالملح ، مادة المطبخ الأساسية ، التي تؤخذ من جبال الملح على ظاهر الأرض ، على الأقل في فارس (ناحية دارابجرد) (٣٢٦) . ويشمل ما تعطيه المستحضرات الطبية والتجميلية ، كالمن ، والاثمد ، أساس صنع الكحل ، وأخيراً أملاح المغنيزيا والنشادر (٣٢٧) . وفي هذه الحالة الاخيرة ، يسمعنا ابن

حوقل تنفس الجبل (٣٢٨) : فقد كتب يقول : « وفي كل جبل من جبال البتم كالغار قد بني عليه كالبيت ، واستوثق من أبوابه وكواه ، وفيه عين يرتفع منها بخار يشبه بالنهار بالدخان ، وفي الليل كالنار ، فاذا تلبد هذا البخار في حيطان هذا البيت ، وسقفه ، قلع منه النوشاذر ، وداخل هذا البيت من شدة الحر ما لا يتهيأ لأحد أن يدخله إلا احترق ، إلا أن يلبس اللبود المبلولة . ويدخل كالمختلس ، ويأخذ ما يقدر عليه من ذلك ، وهذا البخار ينتقل من مكان إلى مكان ، فيحفر عليه حتى يظهر . فاذا خفي في مكان ، حفر عليه في آخر إلى ان يوجد . واذا لم يكن عليه مبني يمنع البخار من التفرق ، لم يضر من قاربه حتى اذا اختنق في بيت احرق من يدخله لشدة الحر » . ونرى هنا أن الجبل يتمرد، وان الحضر يضطرون إلى الانسجام مع مزاجه . فعند الانتقال من الحقل إلى المنجم، يجب فرض سيطرة أخرى وبذل جهود أخطر بكثير . مع ذلك ، يصبح تنفس الجبل العملاق ، الضار متى أريد ترويضه ، ملائماً بعد التغلب عليه ، اذ يستثمر تجارياً لأن له استعمالات عديدة ، ويعد مصدر خيرات وافرة . ولا يشبه هذا التنفس التنفس الآخر الذي سوف ندرسه ، ولا يفيد منه الانسان ، بل يتعرض إلى أخطار قاضية من جرائه ، لأنه يختص بجبل لم يمس ولم يخضع لبشر : نعني البركان .

في جميع الأحوال ، نذكر فيما يلي بعض المواد التي لا تنطوي على أخطار ، وتستعمل في المنازل أو في الأعمال الحرفية ، كحجارة الفرش أو البناء ، والنورة ، والجص ، والصمغ ، والزرنيخ ، والقير ، والكبريت ، والزاج ، والسنباذج ، والاسبستوس ، وسائر الطين الذي يستخدم في الغسيل وتبييض الثياب ، وصنع الأواني الفخارية ، والتدفئة .

والزجاج ، والمداد الأسود ، ودوى الكتاب والأختام (٣٢٩) . ثم المعادن المفيدة ، كالنحاس، والرصاص، والزئبق، وخاصة الحديد اللين في فرغانة، الممكن لما يراد قنيته في أي صنعة قصد منه، وتتفق لهم الخواطر بالغرائب التي يتخذونها منه (٣٣٠) ، ثم المعادن الثمينة أي الفضة والذهب ، التي تكثر جداً في بعض الأماكن من الجبال ، فتسك منها عملة جيدة العيار في أرض مناجمها (٣٣١) . وأخيراً الحجارة الكريمة التي تكاد تختلط بعضها ببعض ، مثل البرام . والفيروزج ، والهيماتيت ، واللازورد ، والدهنج ، والبلور ، والجزع ، والجمشت ، والزمرد ، والحب ، والياقوت (٣٣٢) .

اذن تقدم الجبال لأهلها ضروريات الحياة ، وفيضاً من شتى المعادن الثمينة ، يضاف إليها التمتع بالبذخ ، وسحر ألوان الجنان ، وزهو الأسرار التي يكشفها الانسان أو تظهر تلقائياً، كما في جبال بلق باسبرة في فرغانة ، حيث تبدو قطعة سوداء حالكة ، وأخرى حمراء قانية ، وأخرى صفراء فاقعة ، على غرار الجبال الوارد وصفها في القرآن (٣٣٣). مع ذلك نظن أن الذين هربوا إلى الجبال أو دفعهم قلقهم الدائم إلى اللجوء إليها ، لم يلوذوا بقللها الشاهقة وأوديتها الخفية السرية ، ليحصلوا على وسائل العيش أومباهجه ، بل قصدوها ، ليتقوا الاعداء ليبقوا على قيد الحياة. فأهل الجبال حضر ثابتون في الأرض ، ومنعمون أحياناً ، لكنهم غالباً ما كانوا حضراً مكرهين في البدء ، استقروا فيها لا لأنهم أحبوا الاقامة أو امكانية العيش فيها ، أو رغبوا بمستوى حياة أعلى ، بل لأن الشعور بالخوف كان مسيطراً عليهم ، وطغى على جميع الاعتبارات الأخرى على الأرجح .

الجبال ملاجىء أم مخابىء ؟ ملامحها

قال مصنف كتاب حدود العالم . وهو مجهول ، (٣٣٤) في حديثه عن جبال كرمان : « تنفصل جبال كرمان بعضها عن بعض ، ولو أطلق عليها هذا الاسم الموحد . ويسمى أحدها جبل القفص ، ويقع في وسط مفازة فارس ، ويمتد شمالي البحر حتى جروم جيرفت . وهي سبعةأجبل متصلة . ولكل جبل فيها رئيس ، ولا ممثل للسلطان عندهم ، بل يجمع رؤساؤهم أتاوة كل عام ، ويبعثون بها إليه . وتستقل هذه الجبال بعضها عن بعض سياسياً . . . ولأ هلها لغة خاصّة بهم . وهي منطقة مزدهرة جداً وقوية جداً ، لا يمكن فتحها بالسلاح والحرب » .

ويتضمن هذا النص صفات جديدة نعتت بها الجبال وأضيفت إلى صفات قديمة معروفة ، تجيز جميعها للباحث أن يتصور جيداً كيف يستفاد من تلك الجبال وكيف كانت تستثمر . وكيف كان أهلها ومن ينظر إليها من قاعدتها ، يشعرون بها ويحبونها . ولاحظ القارىء حتماً أن كتاب الحدود قدّم مرتين هذا الجبل المرصوص ظاهرياً ، مرة أولى ليعزله عن سائر الجبال ، ومرة ثانية ليميز فيه سبعة جبال متصلة ، مع أنها سبعة عوالم منفصلة . اذن جبل القفص مجزأ ، وهذا هو التعبير الصحيح ، لغة ودينا ، وسياسة أو عادات . ونزيد على نص حدود العالم معطيات إضافية وردت عند ابن حوقل والمقدسي : ففي جبال ارمينية — القبق — اذربيجان ، ثلاث مائة لسان مختلف ، وممالك كثيرة ، وتمنع خفي عن أداء الخراج . وتقوم امارات مستقلة محلية في بعض الكور أو البلدان ، معفاة أحياناً من دفع الخراج ، في الجبال النائية الواقعة إلى شمال شرق دار الاسلام . ولكل جبل في الديلم على وجه التخصيص ، رئيس وعادات

يستعرضها المقدسي بالتقصيل ، نشير إلى إحداها : فالديلم لا يزوجون إلى غيرهم ، وقتل كل من يفعل ذلك واجب عندهم (٣٣٥) .

وتعزى هذه التجزئة إلى الطبيعة في الأصل بلا ريب . إلا أن البشر أيضاً انقادوا إلى تقسيم الأرض ، وأحبوه ، وعززوا انقطاع الجبال ، فأسسوا مجتمعات منعزلة في تلك المكامن الطبيعية ونكتفي بالكرد مثالاً على هذا الوضع (٣٣٦) . فقد لبوا نداء الجبال بطيبة خاطر ، ورددوا صداه ، وضخموه ، اذعاناً لهلعهم العظيم وارتعابهم من سائر البشر : فالتجزئة ، والارتجال ، والحرص على العزلة ، كل هذه الأمور توحي بأن الجبال ملاجىء . على أن اتساع رقعتها يحتم وجود درجات عديدة في العزلة ، ترتبط بضعف علوها ، أو باستمرار أهلها باجراء اتصالات بالغير بوساطة تجار القوافل ، أو بتصميم السلطة على فرض سيادتها على جميع الأماكن ، أو بقدم اعمار الأرض . أخيراً ، عجز أهل الجبال في الغالب عن الانقطاع عن العالم الخارجي ، أو لم يشاؤوا ان يثابروا عليه . وقد رسم الجغرافيون لوحات كثيرة ، أشارت إلى جبال عامرة على نطاق واسع ، ومنفتحة على سواها أيضاً ، ولا حاجة إلى الالحاح على هذه الناحية. وفي بعض الأحيان ، يجرؤ البشر ، ويؤوبون عائدين مثلما فعل أمراء المغرب الذين نزلوا من جبل زالاغ إلى فاس (٣٣٧) . وفي بعضها الآخر ، يهبط أهل الجبال ليقطعوا الطريق ، ويعترضوا أبناء السبيل ، مثلما يعمل أهل جبـــل أوراس وأهل جبـــال القفص وكركس كويـــه في مفازة فارس (٣٣٨) .

وهكذا ندرك (٣٣٩) سهولة تحول الجبال من ملاجىء إلى مخابىء . مع ذلك ، تعد النصوص الجغرافية الجبال ملاجىء بالدرجة

الأولى ، وتكثر من الحديث عنها على هذا الاساس . ولنذكر قبائل القفص النازلين في جبال كرمان الذين لا يخافون أحداً إلا من البلوص النازلين على سفح جبلهم ، مع أن البلوص قوم ذوو سلامة ، لا يتأذى بهم أحد (٣٤٠) . ونشير خاصة إلى سكان جبال بحيرة كبوذان في أذربيجان ، الذين ينعزلون في وسطها ، يحميهم الماء والجبل . ويدفعون غالباً ثمن هذه الحماية ، على حد قول النصوص الجغرافية ، لأن أمواجاً عظاماً تهب على البحيرة في الشتاء ، كما أن البلاد فقيرة : « فجبالها مسكونة مأهولة على مياه زهيدة وعيش شظف ، وسكانها أصحاب المراكب ونواتيها المختلفون بالأمتعة والركاب بين شطيها . ولهم معز يقوم برمقهم ، ولا شيء عندهم إلا ما جلب اليهم . . . ويربطون أرجل الصبيان بالسلاسل والحبال كي لا يتدحرجوا إلى البحيرة » (٣٤١) .

ويأتي الدين في طليعة دواعي اعتصام الناس في الجبال .فهو يفرق أهل البلاد تماماً عن اشقائهم المعادين لهم أو الخطرين عليهم . والاسلام هنا حديث العهد أحياناً ، كما هي حاله في جبال البارز ، وفي كرمان التي يدين أهلها بالزرادشتية (٣٤٢) ، أو يتحداه الكفر جهاراً ، كما في الديلم أو في الغور ، دار الكفر التي تذكر في الاسلام لأن بها مسلمين (٣٤٣) . وفي بعض الأماكن الأخرى ، يكثر النصارى ، كما في جبال ارمينية وأذربيجان ، أو يقتصر وجودهم على بعض المحلات ، كالاديرة في جبل سيناء أو العمر الطيبة المنعزلة في جبل الشاوذار في سمرقند ، كما يقال لنا . وفي جبل لبنان عيون ضعيفة يتعبد عندها أقوام قد بنوا لأنفسهم بيوتاً من القش يأكلون من الأشجار الثمار المباحة ، ويرتفقون بما يحملون منها إلى المدن من القصب الفارسي والمرسين وغير ذلك (٣٤٤) . أخيراً اعتصمت بعض المذاهب أو الطوائف الاسلامية

في الجبال لضمان كيانها أو بقائها ، مثل الخوارج في جبل نفوسه ، والزيدية في التخوم الجبلية إلى جنوب بحر قزوين ، والخرمية في جبالهم ، والقيسية والقرامطة في جبال جزيرة العرب ، وزهاد جبل الجولان من اتباع مذهب سفيان الثوري الذين يلبسون الصوف ، ويتقوتون بالبلّوط (٣٤٥) .

وترمز كثرة الحصون والقصور والقلاع في الجبال إلى انها ملاجىء. وتبرز الألفاظ المشتقة من « حصن ومنع » التوافق بين البشر والجبال ، ويشير الفعل واسما الفاعل والمفعول أو النعوت المأخوذة من هذين الجذرين إلى تحصين الجبال ومناخها واعتبارها دعامة طبيعية في الدفاع عن النفس ، وتعبر أحياناً عن الدفاع عن النفس فقط (٣٤٦) . ونختار من شتى الشواهد أولاً هذه اللوحة الشاملة التي توجز وصف البلد بالقول ان الجبال والقلاع والحصون (٣٤٧) غالبة عليها . والمثال الجيد على ذلك فارس (٣٤٨) . ففي هذه البلاد الجبلية ، مثلما قلنا ، أربع فئات من الحصون . فأولا أكثر « مدنها محصنة بحصون منيعة وأسوار وثيقة شاهقة عالية » . وبها حصون داخل المدن . ولها أيضاً « حصون في جبال منيعة منفردة عن البنيان قائمة بأنفسها » . أخيراً « بفارس زيادة على خمسة آلاف قلعة منفردة في جبالها لا تقرب من المدن » . وفي هذه القلاع ، ما لم يذكر لأحد من الجبابرة أنه قدر عليها عنوة ، منها قلعة ابن عمارة ، وهي مرصد على البحر . وتسمى قلعة داكباياه ، يريدون باسمها انها كثلاث أثافي ، لأنها قارة على ثلاث شعب كقرار القدر على الأثافي (٣٤٩) .. ولا يقدر أحد أن يرتقي إليها بنفسه ، إلا أن يرقى به شيء من البحر » (٣٥٠) .

وتكثر هذه القلاع في فارس ، وتشاهد في عزلتها باسقة فوق مستواة من الأرض ، وتعتبر رمز الجبل الملجأ الكامل ومركز قوته . وتقتصر وظيفتها أحياناً على حماية المنازل المشادة في سفلها ، ويرتاع العدو لضخامتها ، وتعامل المدينة بسماحة . فهنا تقوم عليها القلاع كما هي الحال في عمان . وهناك تستكمل هي والبحر أو النهر نظام دفاع الموقع الطبيعي ، كما هي الحال في عدن ، والفسطاط ، وأوش في فرغانة(٣٥١). لكن تتحول القلعة أحياناً إلى مدينة كاملة ، وتصير ، حصنت أم لم تحصن ، قلعة ومدينة شاهقة في الجو ، يعبّر موقعها ، على حد قول ابن حوقل ،« عن تراوح مشاعر أهلها بين الخوف والرجاء » (٣٥٢) .

هذه هي ملامح الجبال . ولها ، بين اعتبارها ملاجىء أو مخابىء مواقف عديدة ، يكفيها الموقع أو تستجيب لاختيار البشر موضعها . وتهيمن طمأنينة الحضر الذين « لا يتأذى بهم أحد » (٣٥٣) ، على اللوحة على نطاق واسع ، ويعود الفضل الأكبر فيها إلى الأرياف الهادئة التي يطيب العيش فيها . ونوجز ما أشرنا إليه منها في سياق أبحاثنا ، في هذا المثال المختار (٣٥٤) : فغرجستان اسم غرج الشار عند العوام ، والغرج « هي الجبال » و « ثم عدل حقيقي ، ونظر عزيزي (٣٥٥) ، وبقية من سنن العمرين (٣٥٦) ، ورسوم تقر بها العين ، لا عمّال ظلمة ، ولا أسباب مغيّرة . ما يؤخذ من أغنيائهم ، فهو موضوع في فقرائهم . ومن جنى جناية ، فالعفو أو الحد . مع ذلك قوم سلماء ، صالحون من الطينة الأولى . وصدق رسول الله: «كما تكونون يولى عليكم » . وربما وجب أن نضيف تأثير الطبيعة في الحالة الراهنة ، لأن التوافق تام في كل شيء فيها : فالأرض السعيدة الخصبة وقف على الناس الحكماء ، وخصال الملك تجمع مزايا الأرض والناس ، حتى أن اسمه يظهر أحياناً

في تسمية البلاد (غرج الشار : جبال الملك) ، وهو مثال الاستقامة والعدالة .

مع ذلك ، لهذا النعيم وجه قاتم . فقد يثير أطماع أناس ممن يقطنون في سفل الجبال أو يجتازونها . وقد يضطر أهل الجبال أن يرتضوا شظف العيش وقسوة البر على التخصيص ، كما قلنا . ، ثمناً لأمانهم في ملجأهم . في هذه الحالة ، لا يواتي الحظ أهل البواذخ (٣٥٧) مثلما يحالف أقرانهم من أهل الجبال الآمنة المعتدلة ، فيولدون أشداء ، ويتميزون بنشاط (٣٥٨) عظيم تحتمه مقتضيات الدفاع عن النفس ضد البشر أو الوسط ، يتحول أحياناً إلى فظاظة تبعث على العدوان . وشاهدنا لاهل الديلمان (٣٥٩) الذين لا ترى لهم لباقة ، ولا علم ولا ديانة ، بل ثم دولة ورجلة ، وهيبة ، وصولة وصبر في الحروب ، تسمح لهم بابعاد أفضل الجيوش تنظيماً (٣٦٠) ، وبملاحقتها إلى دار الاسلام ، وحجر سلطة الخلافة التي سوف يصبح البويهيون الجبليون أوصياء عليها في القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي (٣٦١) .

وما قام به البويهيون في الواقع ، هو تنظيم المؤسسات وترسيخ الدعائم في حركة سميت لصوصية في أماكن أخرى ، أجلت دورياً سكان الجبال عن مخابئهم ، لكنهم لم يلبثوا ان عادوا إليها بعد انتهاء الغارة عليهم . ولا ريب ان هذه الجبال ليست نزهة ، لأنها عاجزة عن تثبيت البشر في الأرض . ولا تعلل جميع الأحداث بنزعة بعض الناس إلى السلب والنهب . مع ذلك (٣٦٢) ، سادت (٣٦٣) هذه الروح العدوانية في الماضي ، وتسود الآن في اقليم كرمان القشف وفي مفازة فارس الكبرى . ويستثنى أهل جبال البارز ، وهم ذوو سلامة ، لا يرون اذية أحد ،

والبلوص على سفح جبل القفص ، وكانوا أشرس الجميع حتى أبادهم عضد الدولة (السلطة البويهية) ، وأخيراً في الجبال ذاتها ، القفص (الكوج) الذين أرهبتهم فيما يبدو سابقة قمع البلوص (قبل أن ينكي فيهم عضد الدولة) ، وكانوا يسرون بقطع الطرق . وقد عرفهم المقدسي ، ووصفهم على الوجه التالي : « القفص يسيرون إليها (أي إلى المفازة) من جبال كرمان . قوم لا خلاف لهم . وجوه وحشة ، وقلوب قاسية ، وبأس ، وجلادة ، لا يبقون على أحد ، ولا يقنعون بالمال حتى يقتلوا من ظفروا به بالأحجار كما تقتل الحيات . تراهم يمسكون رأس الرجل على بلاطة ويضربونه بالحجارة ، حتى ينصدع . وسألتهم عن ذلك . قالوا : تفسد سيوفنا ، ولا يفلت منهم أحد إلا ما ندر . ولهم مكامن ، وجبال يمتنعون بها . وكلما قطعوا في عمل ، هربوا إلى آخر » .

الجبال : تاريخ مقدس أو اسطوري

قد تكون الجبال ملاجىء أو مخابىء ، ساحرة أو رهيبة . إلا أن البشر لم يهملوها البتة ، لاسيما الذين عاشوا أو تدربوا فيها أو اعتصموا ، من فلاحين أو جند أو لصوص ، وحتى الذين اجتازوها اجتيازاً أو رأوها فقط . وميزة الجبال أنها علامات منظورة ، تدل على مشيئة الخالق وغايته ، وهذا ما يجب العودة إليه . فقد شدت البشر إليها بانتمائها إلى التاريخ الدائم قبل أن يهتم الناس بدورها في صنع التاريخ الحالي .

وثبتّت الجبال أذهان البشر وأجسادهم وذكرياتهم وهمومهم اليومية ، عندما اختاروا هم أنفسهم سكناها في عصور البطولة — مثلما ارتضاها بعض الناس في الوقت الراهن ، ليعتصموا بها — أو عندما شاء

الله أن ينيط بها بعض تاريخ الخلاص الذي يتجدد باستمرار وكنت أشرت من قبل (٣٦٥) في هذا التاريخ ، إلى أحدث ذكرى له نشأت في جزيرة العرب عند ظهور الاسلام . وأضيف هنا إلى المقطم الأحاديث الخاصة عن فتح مصر وظل الخليفة عمر الكبير على جبل زيتا (٣٦٦). والآن أعود نصف قرن إلى الوراء . فقد تحدثت سابقاً عن العلامات المنظورة . وهذه علامة أخرى تدل على التاريخ الكوني ، بل على تاريخ الإيمان : أعني التلال . ويعطي ابن حوقل مثالاً عنها ويقول : « وبقرب ابرقويه تلال رماد كالجبال العظام التي صعود التل ونزوله نحو ميل ». وفي كلامه مبالغة بلا أدنى ريب . إلا أن هذا الرماد يتناسب مع تاريخ . عظيم ، خاص بنمرود أو ابراهيم في فارس (٣٦٧) . وقد يقال ان هذه التلال مصطنعة ، وهذا في الحقيقة ما نفعله اليوم في تعريف التلال التي تتوزع بانتظام في أرض المشرق وتاريخه . لكن لماذا يقارنها المقدسي بالجبال ، اذا افترضنا ان حجمها يسمح بهذا التشبيه الدقيق ؟ إلا أنها تحولت فعلاً إلى جبال مثل غيرها بعد أن نسي الناس أصلها ؟ كلا ، لأن الذاكرة حفظت بحرص ذكرى هذا الأصل . إنها لابد من تسميتها جبالاً — وهذا هو السبب —لأن الجبال والضخامة وحدهما — وهذه إحدى الصفات الأساسية — ينسجمان مع عظمة الحدث الماضي ، ولو كان في الأمر بعض المبالغة .

مهما يكن ، نعدد فيما يلي جبالاً طبيعية دخلت في التاريخ المقدس (٣٦٨) . فعلى الجودي استقر فلك نوح ، كما رأينا . ويظن أن قبر آدم خلف جبل زيتا أو بجواره ، ومنه صعد يسوع المسيح إلى السماء . وبتل التوبة في الجزيرة مسجد يونس (٣٦٩) . وعلى فرسخ من حبري ، جبل صغير وقريات لوط ، موضع مرقد ابراهيم قد غاض في

القف نحو ذراع . وعلى رأس جبل المقطم في قلته مكان يعرف بتنور فرعون . ويقترن اسم عيسى وحده أو مع أمه مريم بجبل قاسيون ، المشرف على دمشق ، ويقول بعض المصريين أن الربوة ذات قرار ومعين هي مصر ، وقد كان عيسى ومريم بها مدة . وتحتفظ جزيرة العرب في جبالها بذكرى النبي صالح الذي أرسله الله إلى قوم ثمود الكفرة العنيدين. أخيراً يرقد أصحاب الكهف في بادية عمان أو في هوية جبال الأناضول ، التي تتطلع دار الاسلام إلى السيطرة عليها واسترجاعها .

وهنالك جبال ارتبطت في الماضي مرة واحدة بتاريخ خلاص البشر ولا تزال تعيشه — شأنها شأن جبال أخرى ليس لها وظيفة اضافية — على مر الزمن ، وستبقى حتى اليوم الأخير ، الذي سوف تعلن عنه بذاتها وتشهد على مجيئه . وهي جبال الجنة التي أشرنا إليها من قبل (٣٧٠). وجبل المقطم المقدس الذي به مواضع يفضلونها ، وصوامع يقصدونها ليالي الجمع (٣٧١) وعند جبل لبنان الجنوبي (= جبل صديقا بين صور وقدس وبانياس وصيدا ، وثم قبر صديقا) مسجد (٣٧٢) له موسم كل سنة (يوم النصف من شعبان) يجتمع إليه خلق كثير . وجبل رضوى الذي يعيش فيه محمد بن الحنفية ، حتى رجوعه مهدياً (٣٧٣) .وجبال جزيرة العرب التي تنبع فيها تسعون عينا — بعدد أسماء الله الحسنى — وسوف تظهر فيها علامة في نهاية الزمان ، ربما كانت ناراً (٣٧٤) . وباقليم الجبال تل عظيم كالجبل ، وعليه قلعة ، وفيها بيت نار ، ويقال إن ناره من قديم النيران الأزلية ، وبكازرون منها قبة تزعم المجوس أنها وسط الدنيا (٣٧٥) . وقد برزت من اليم جميع تلك الجبال في غابر الأيام بعدما اتضحت فيها وفي أمثالها مشيئة الله في خلق الدنيا . ثم مجدها أتقياء الناس ، فترافقت ذكراها مع فكرة نشأة الأرض ومع ترقب

الأمجاد الأخيرة . ولا شك أن جبل سينا وجبل بيت المقدس أجل منها كلها . فعلى قلة جبل سينا زيتونة جاء ذكرها في القرآن ، قالوا هي التي لا شرقية ولا غربية ، كما أن طور سينا المقدس لا يتبع لا جزيرة العرب ولا اقليم مصر (٣٧٦) . أما بيت المقدس في الأرض المقدسة ، فمدينة « مرتفعة على جبال يصعد اليها من كل مكان يقصدها القاصد من فلسطين » . وعلى جبل زيتا أيضاً زيتونة يقال انها لا شرقية ولا غربية. وبه موضع يسمونه السامرة، يقال إنها أرض القيامة ، وهي بيضاء لم يسفك عليها دماء (٣٧٧) .

وبقي أن نتحدث عن جبل (٣٧٨) شهير بين الجبال ، يرى لارتفاعه ، من أقصى الآفاق في البر والبحر ، لم يدخله الاسلام في تاريخه ولا في تاريخ خلاص البشر ، لأن تقاليد فارس الثابتة كانت قد سيطرت عليه. إلا أن الأدب العربي توخى تسجيل كنوز ثقافة الحضارة التي تتمثل فيه، وحاول أن يجمع « الامم » تحت شعار اللغة العربية والاسلام ، فلم يسعه إلا أن يدون أساطير هذا الجبل العجيب ، وتعذر عليه الذهاب الى أبعد من هذا الحد ، واستعصى عليه أن يدرج في منظوره روايات لا لا تنفصل البتة عن تاريخ غريب عنه في جميع الأحوال . وجل ما فعله، بعد أن عجز عن الاستيلاء عليها ، أنه حاول أن يلقي عليها ظلال الشك ، وسنرى كيف عمل . وباء بالفشل لأن الاسطورة كانت حية جداً ، ومنسقة جيداً أيضاً لتتفق مع ذوق العصر في العجيب . فاضطر البعض أن يتكيف معها بلا عناء كبير .

واسم الجبل المقصود دنباوند (دمافند) ، وقد عرفنا من قبل (٣٧٩) مظهره العام ومكانته في نظام الجبال العالمي . ونود الآن أن ننظر إليه

عن كتب . بصحبة أبي دلف مسعر (٣٨٠) أو بعض مستكشفيه ؛ ومنهم ابن الفقيه الذي يقص علينا روايته . فماذا نرى ؟ نرى قبة منخرطة هائلة ، بأعاليها مساحة فيها ملّ اورمل (٣٨١)، تغوص فيه الاقدام. وهذا الملّ حمم مسحوقة ، ورماد بركان قطعاً . وبأعاليها أيضاً نحو من ثلاثين ثقباً، يخرج منها الدخان الكبريتي العظيم . ويخرج من هذه المخارق مع الدخان دوي عظيم كأشد ما يكون من الرعد ، وذلك صوت تلهّب النيران . ويخرج نهر أصفر كبريتي ذهبي اللون من أسفل هذا الجبار . أقول « الجبار » ، وأقصد أنه أحد الجبابرة المحبوسين في جوف الأرض، الذي يستر الجبل جسمه ، ويقذف نفثه . ولا يسع الاسطورة الا أن تتناسب مع هذه القبة الغامضة . الرائعة ، المذهلة ، المنعزلة ، الباعثة الدخان . ويستطيع المرء أن يتخذ منها مواقف عديدة . فقد لا يصدقها، ويرفضها ، سواء ذكرت أم لم تذكر ، على أنها حماقة محضة ، على غرار ما فعل الاصطخري (٣٨٢) . أو يحاول ، مثلما عمل أبو دلف مسعر ان يجرد معطياتها من الخداع ، فيستبدل نفث العملاق بانبعاثات طبيعية من الأرض، ونخيره بصوت الهواء المدفوع من أعماق الجبل ، وعينيه بلهيب البركان . وعلى النقيض ، يمكن أن يؤمن الانسان ، بقوة تضاهي صلابة الحديد ، بهذه الأسطورة العجيبة معتمداً على التقليد الفارسي الذي ابتدعها . أخيراً ، تتخذ جغرافية الأدب موقفاً وسطاً بين المؤلفين السابقين ، فتعرض على القارىء ، كما فعل ابن الفقيه ، نتاج ذهن يحرص ألا يفوته شيء ، فيفصل الوقائع المادية أي الجبل ، مثلما يشاهد عياناً ويعرفه الناس ، عن الاسطورة الشيقة جداً ، حتى إنها تستحوذ على معظم نص روايته . ومادام لابد من بقاء الوقائع والاسطورة جنباً إلى جنب ، فليأت افتتان القارىء رضائياً ، وليستشهد له بالبينة الشخصية ،

وبأقوال مراقب يبادر إلى إقناعه بغاية الصراحة وبهدوء وشجاعة ، لا بالأمر الطبيعي وحده . بل بالعجيب أيضاً . أفليس صحيحاً ما يروى ؟ إنه صحيح ، فقد شوهد عياناً .

ورُوِيَ ان افريدون (فريدون) ، وكان طوله تسعه ارماح ، اهان أحد ملوك الأشرار ، السحرة والمخادعين ، على حد ما جاء في الاسطورة ، وكان اسمه الضحاك (زهاك) ، ويدعى بيوراسف أيضاً ، وخلعه عن عرشه ، وأوثقه بأساطين وسلاسل ، وادار سلاسله على جبل . فاجتذب البيوراسف سلاسله مع تلك الاساطين والجبل ، وطيّر به في الهواء . فتبعه افريدون ، ولحقه ، وقمعه بمقامع من حديد . ثم سار به نحو دنباوند ، فسجنه في جبل قرية الحدادين ، ووكّل ارمائيل بحفظه وغذائه ، فكان يذبح له في كل يوم نسمتين يتغذى بدمائهما . لكنه استطاع في وقت مبكر أن ينجي حياة الضحايا المهيئين للذبح : فقد تمكن أحد المطلسمين أن يطلسم مأكول البيوراسف ومشروبه في جوفه . فهو يتغلغل في صدرة إلى انقضاء أيامه . وفي الجبل قوم من الحدادين يضربون مطارقهم على سندناتهم ساعة بعد ساعة ، ويتكلمون بكلام يهجسون به موزون عند ضربهم ، لا يفترون لحظة ، لئلا ينحل من وثاقه البيوراسف الذي دأب يلحسه ويلحس سلاسله ، فاذا ضربت هذه المطارق ، عادت السلاسل إلى ما كانت عليه من الغلظ . وجعل افريدون يوم سجنه البيوراسف عيد المهرجان . وتقول رواية أخرى إنه قتل الضحاك في يوم عيد نيروز العام التاسع .

وننتقل الآن إلى الأشياء التي عوينت أو زعم أنها شوهدت عياناً . فجبل دنباوند يلد مسوخاً ، منها ذئبة في عظم البغال ، وطيور أمثال

النعام في خلق الفصلان ، وقلته مغشاة بالثلج . وتنحط دود عظام كأنها جذوع عن هذا الثلج إلى القرار ، فتعدو عليها تلك الطيور ، فتبتلعها . وتقع قرب القلة ، من الناحية الشرقية ، جوبة عظيمة ، وعليها اسكفة كتابة تخبر ان على القلة سبعة أبواب من حديد مصاريع ، على كل مصراع أربعة اقفال ، قد كتب على كل عضادة منها : « له أمد يجري إلى غايته ، ونهاية لا يعدوها . فلا يعرض خلق لفتح شيء منها . فيهجم من هذا الحيوان على الاقاليم آفة لا تدفع عنكم ، ولا حيلة لكم في صرفها » (٣٨٣) .

ويعد جبل دنباوند هنا جبلاً كونياً ، بمعنى هذا اللفظ الشامل ، بناره — نار فولكين أو نيبلولجن — وبتاريخه الناشيء ، الذي يجمع المعرفة والشقاء ، شأنه شأن علبة بندورا (٣٨٤) ، وبالعدد أربعة الذي يشير إلى رمز العالم الأرضي ، وأخيراً بايقاف المغامرة البشرية عند حدود معينة . ومثلما قلنا ، تنطوي على شيء من التردد محاولات ادراج الاسطورة في رؤية الاسلام العالمية . ولا يجدي زعم بعض المحدثين أن المحبوس بدنباوند صخر الجني الذي أخذ خاتم سليمان بن داود ، فهو يرد في بضعة أسطر من قصة ابن الفقيه ، وترد الاسطورة الفارسية في بضع صفحات . وفي هذه القصة شيء آخر : فقد اقحمت فيها أسماء خلفاء عظام في التاريخ الاسلامي هم المهدي وهارون الرشيد والمأمون (٣٨٥) .

لكن هل يعني هذا الكلام أن أهمية أعظم جبل من جبال فارس ، اكسبته شيئاً في مجال التقاليد المقدسة ، الوثنية أو غير الوثنية ، الخاصة . بقمم الأرض ؟ لا نظن . والواقع ان دنباوند جبل من جبال دار الاسلام ،

ولا يضير أن يرتبط بتاريخ فارس العائد إلى ما قبل الاسلام.من جهة أخرى ، وضعت فارس كنوزها في هذا الجبل ، وحصرتها به ، إلا أن دار الاسلام استعرضت جبالاً كثيرة تخصصها ، ويطغى عددها وقدسيتها الآن ، وسوف يطغيان في المستقبل ، على بركان عظيم وعلى جبار محبوس يتأهب على الارجح لإظهار بأسه ، على غرار البلد الذي يهيمن عليه ويجسّده (٣٨٦) .

البادية والمفاوز

أشرت من قبل (٣٨٧) إلى الصحارى الواسعة الثلاث في دار الاسلام ، أي الصحراء الكبرى وبادية العرب ومفازة فارس . وحان الآن وقت العودة إلى هذا التقسيم لتوضيح مفهوم المفازة . وأتساءل ان كان لدينا مفهوم واحد أم مفاهيم كثيرة ، إذ لم يثبت أن الصورة ذاتها تنطبق على جميع هذه القفار ، بالتالي ان الصورة واحدة للمفازة ، وتخلو من التدرج . ويقول مصنف حدود العالم (٣٨٨) : «تسمى صحراء كل أرض تحوي رمالاً ، أو سباخاً ، وليس فيها جبال ، ولا مياه جارية ولا حقول . مع ذلك لا يمكن وصف المفاوز بألفاظ مماثلة . فبعضها واسع ، وبعضها ضيق . كذلك الرمال فيها واسعة أو ضيقة» . اذن لابد لنا من البدء باستعراض الألفاظ ، ودراستها في النصوص الجغرافية التي تستعملها منهجياً ، لنحصل بهذه الطريقة على استعمالات تتكرر وعلى عينات اختبار تتنوع جهد المستطاع ، عن الاسماء والأوضاع المقابلة لها.وفي هذا المنظور ، نستعين (٣٨٩) مرة أخرى بجغرافيي المملكة أي الاصطخري وابن حوقل والمقدسي .

ونأخذ التيه أولاً ، وهو أبسط الأسماء ، وتسمى به مفازة سيناء،

ومن هنا تسميتها الكاملة تيه بني اسرائيل (٣٩٠) . ويتصل حد له بالشام ، وحد بجزيرة العرب ، وحد بمصر . ويوصف مع مصر ، لكنه يمثل موقفاً فريداً (٣٩١) . ويبلغ طوله من مصر إلى الشام نحو أربعين فرسخاً أي مائتين وثلاثين كم (٣٩٢) من الرمال والسباخ والسماق خاصة . وبعضه جلد (٣٩٣) ، وفية نخيل وعيون مفترشة قليلة . ونسلم بأن التحليل يمكن استخلاصه من جميع هذه المعطيات لوصف الصحراء العام ، لأن التيه مكان تاريخي حائد بالدرجة الأولى ، ولا ينطوي في حد ذاته على تعريف جغرافي (٣٩٤) . ولابد للتيه ، باعتباره مسنداً إليه ، من لفظ آخر من الألفاظ التي يجب أن نتساءل عنها بالتفصيل والدقة ، مثل لفظ برية ، الذي يستعمله الاصطخري وابن حوقل (٣٩٥) .

مع ذلك نبحث قبل البرية لفظ صحراء الذي نعرفه . فقد قلنا إنه أرض مستوية ، لا جبال فيها ، تركيبها أملس تماماً ، وتقع في المناطق الجافة (٣٩٦) . ويهمنا الآن أن نبين بدقة كيف يعتبر هذا « السهل » صحراء أيضاً (٣٩٧) ، وبماذا يقارن . فأولاً نفاجأ بأن لفظ الصحراء لايستعمل أبداً ليدل على الصحراء الكبرى ، لسبب بسيط : فاتساع هذه الأرض الفسيحة جداً ، يتعدى كثيراً امتداد الصحراء الضيق على الدوام. بالفعل ، يطلق اسم صحراء لا على مفازة مهيمنة بل على قسم منها ، يعبر عنه بالأرقام أحياناً ، طوله مثلاً فرسخ إلى ثلاثة فراسخ ، أي ٦ إلى ١٧ كم . اذن الصحراء سهل جاف ضيق ، يقع على مشارف إحدى المدن ، أو يغطي رستاقاً منعزلاً في إحدى الكتل الجبلية ، أو يقتطع ، وهذا أفضل ، أحد أقسام عراء واسع حقيقي اسمه مفازة .

اذن للصحراء حدود ، وربما كان لمناخها حدود أيضاً . ولاشك أن المقدسي يقول في حديثه عن مغامراته : « سحت في البراري ، وتهت في

الصحاري » ، مما يبدو ، نظراً لاتساع الارتحال ، وكأنه يعيّن للصحراء أبعاداً تفوق إلى الحد الأقصى ما عينّه ويسمها أيضاً بصراحة بصفة قبيحة ، لأن أمثال هذه الأسفار تدخل في عداد المغامرات . وبذل الجهود ، ومواجهة العقبات أو التعرض للمخاطر ، التي يجابهها كل مسافر يسعى لجمع وثائق كتابه (٣٩٨) — . لكن لا يجوز اعطاء تعبير المقدسي قيمة كبيرة . فقد أملاها عليه حرصه على اظهار براعته في الكتابة بنثر مسجوع ومقفى . فجملة « تهت في الصحارى » عنده صيغت بداهة لتحقيق الجرس الصوتي مع الجملة الأولى « سحت في البراري » التي سنعود إليها فيما بعد .

وقطعا لا يشك أحد في جفاف الصحراء : والبرهان وجود الحجارة ، ولو كانت جمشت ، التي تتألف منها أرض جزيرة العرب أو الأرض الغبرة التي تتعارض مع خضرة النبات الزاهية في ما وراء النهر ، على حد قول ابن حوقل (٣٩٩) . مع ذلك ، لا تعني هذه الأرض انتشار القحط التام . ففي فارس ، على الطريق الذاهبة من شيراز إلى سيراف ، يشاهد خان آزادمرد في وسط صحراء كلها نرجس مضعّف . وفي وسط مفازة فارس ، تسترعي انتباه المسافرين صحراء بما فيها من آبار قليلة . وفي اقليم الجبال ، صحراء أمينة حقيقية ، تقوم على وسط الرمال دون أن تقع فيها الرمال . وتلقى السباع مواشيهم فيها : فلا تبدأها بسوء . أخيراً يستشهد ابن حوقل بأبي عثمان الجاحظ الذي يقول ان غبرة المزارع في أضعاف خضرة النبات من الزينة (٤٠٠) . ونختتم حديثنا عن الصحراء ، ونقول إنها لا تحتمل المقارنة بمشاهد الأراضي الخصبة ، المغذية ، الكثيفة الزراعة والسكان . خلافاً لذلك ، تندرج في نطاق الأراضي الجافة بتربتها ، وبوسطها . ولا بد أن القارىء لاحظ أن

المصنفين لم يذكروا أبداً وجود مياه جارية فيها . مع ذلك ، لا تمثل الخلاء التام ، ولا الفراغ المطلق ، ولا مفازة الجماد ، إذ لا تمتلك لا اتساعها الشاسع ولا مضارّها الرهيبة . ولاشك أنها فقيرة ، وتحتفظ بفقرها . إلا أن ضيق رقعتها يحرمها من وسائل التأهيل الصحيحة الكاملة ، وهي من صنع الوسط المجاور لها ، الذي يجعلها صحراء حقيقية في عرف سكان الأراضي الغنية الذين ينظرون إليها بازدراء ، مثلما فعل ابن حوقل ، أو صحراء تتضاءل معارضتها للحياة بالنسبة إلى جميع الذين يأتون إليها ، ليستمتعوا بالبقاء وبشيء من الراحة ، بعد اختبارهم بلدان الموت .

ويمثل الرمل القحط المحتوم ، والصحراء بالذات ، قبل أن يكون أحد عناصر التربة أو صخرا ، وما تتألف منه الصحراء الحقيقية في الحد الأدنى . وهذا هو الوضع ، بلا أدنى شك في أماكن عديدة من دار الاسلام . ، يقترن في وصفها لفظ الرمل ، وكأنه مسند إليه صرف ، باحدى الكلمات التي تشير مبدئياً إلى الصحراء ، مثل البرية ، أو البادية أو المفازة . وينطبق هذا القول على الصحراء الكبرى وعلى كرمان أو سواد العراق أو نواحي نهر جيحون (٤٠١) . لكن يرد لفظ الرمل وحده في بعض الأحيان ، ويعبّر ، دون دعم أي لفظ آخر ، عن الأرض الخالية من جميع الاحياء : حيوانات كانت أم نباتات . وهكذا يغطي الرمل أو الرمال (٤٠٢) بقاعاً تامة من الخريطة ، ويقال لنا بأن بعض المنشآت أو المدن أو المناطق يجتاحها أو يحيط بها هذا العنصر الغريب الذي يؤثر في عدة وجوه ، فيشكل تارة أرضاً ثابتة وثقيلة ، تسحق كتلتها كل شيء ، وطوراً أرضاً متحركة كالماء السائل ، تندس في أدق الشقوق ، وأحياناً أرضاً خفيفة عالقة في الهواء وتجتاح جميع الأماكن وتتواجد

فيها . وابدع مثال عنها بلاد زرنج في سجستان ، التي يضطر أهلها لحماية أنفسهم أن يوجّهوا الريح ضد حليفها الطبيعي (أي الرمل) . فيجعلون زربا وسياجا كالحائط ، ويفتحون في أسفله باباً من تلقاء الريح ، فتدخله ، وتطير به ، وتصير بأعلاه كالزوبعة ، ويرتفع بعيداً وبعيداً جداً عن القطاع الذي يريدون حمايته (٤٠٣) . ولا نستغرب هذا الوجود الدائم المعقد الأشكال ، لأننا نعرف أنالرمل يشكل ظهرة كبرى توازي الظهرة الكبرى الجبلية في العالم ، وتمتد من أقصى الدنيا إلى أقصاها (٤٠٤) . ولا ريب أن الرمل ، خلافاً للجبل ، لا يحمل اسماً خاصاً به ، دائماً تقريباً ، أو على الأصح ، لا يطلق عليه الا اسم الرمل، وحده ، أو مرفوقاً بأحد الالفاظ المرادفة لصحراء ، مثلما قلنا ، فيأتي مشتركاً فيها ولا يتغير في جميع الأحوال في كل المشاهد التي يسمها بطابعه . وفيما عدا ذلك ، يسمى بأسماء البلدان أو المدن التي يحتف بها : مثل رمال نفزاوة ، سجلماسة ، وأودغست ، والقلزم ، والبحرين ، ونواحي البصرة ، وعمان والشحر ، ومرو ، وسرخس ، ولم نذكر من لائحة ابن حوقل الطويلة (٤٠٥) إلا البلدان الواردة صراحة (٤٠٦)في «التعبير النحوي » مضافة إلى لفظ رمل ذاته . مع ذلك ، قد يشمخ الرمل ، كالجبل ، ويحصل على اسم علم (٤٠٧) : كالعبير ، وهو اسم الرمال التي تتوزع على جانبي شمال جزيرة العرب (٥٠٨) ، وكالاحقاف وهي رمال حضرموت ، وكالجفار التي تمتد وراء الساحل بين مصر ومشارف فلسطين .

نستخلص من جميع هذه المعطيات أن الرمل يدل على الجفاف المطلق ، ويضيف اليه بعض المفاهيم الناشئة عن طبيعته ، وأكاد أقول عن صفته : فجفافه خاص يفترض ضمنا وجود خلفية زوال الحياة والخفاء،

يكتنفهما صعاب تعترض حياة البشر أو سبل حركتهم (٤٠٩) ، ومن المساحات الشاسعة جداً أحياناً لكي تحظى باطلاق اسم عليها . خلافاً لذلك يعبّر أحد الالفاظ العربية صراحة ، وبلا التباس ، عن فكرة الخلاء والصحراء : نقصد قفر . جمعه قفار (٤١٠) الذي لا تعطي النصوص الجغرافية البته تعريفاً له ، لأنه مضمونه واضح بحد ذاته، ويؤدي معنى الخلاء التام والأرض التي لا ماء فيها ولاناس (٤١١) . وهكذا يجوز استعماله وحده ، أو مقروناً ، لأنه مسند اليه ، بلفظ يدل على البلـــد أو على الأصح على الصحراء : مثل « برية » التي آن أوان الحديث عنها .

ولأول وهلة ، يثير اجتماع اسمين قضية اقترانهما . فما الداعي إليه ؟ أهو الاطناب فقط ، بقصد التعبير عن صحراء مثلى ، أم أن ذكر «القفر » يعود إلى الحرص على التعبير ، في فكرة الخلاء التام ، عن «برية » لا تؤدي بالتالي على الدوام معنى الصحراء الخالية من الحياة ؟ لنستقصي النصوص الجغرافية . فمن جهة أولى ، يعبر « القفر » عن الخلاء التام . أي عن « برية خالية من الآبار والسكان والمراعي ، قفرة ، لا تسلك ، ولا تسكن » (٤١٢) . وغالباً ما تهب فيها ، كما قلنا ، زوابع رملية تخفي المشهد السابق (٤١٣) . وفي بعض الأحيان ، يدل لفظ «البرية » وحده على الخلاء التام الذي يفصل بين أجزاء العمارة ،ويعارض عبور البشر ، في بعض الأماكن ، وقد لا يتجول فيه سوى الجن (٤١٤). بهذا المعنى يظن أن مدلول لفظ « برية» عكس مدلول لفظ « البادية » أيضاً . فالمناطق الساحلية ، في البحرين وعمان ، التي ذكرنا من قبل انها خلاء تام ، تتميز على هذا الاساس ، عن الانحاء البعيدة إلى الشمال ، والواقعة عند مشارف نهر الفرات و « بادية » البصرة ، التي تنزل فيها

قبائل عربية من بني أسد . ويظهر التضاد ذاته في الحديث عن الطرق (المسالك) في جزيرة العرب : ففي حين تقيم « البرية » سداً منيعاً في وجه المواصلات فيما يبدو ، تبقى « البوادي » ، على خلافها ، مطروقة . يميل إلى سلوكها الخواص من أحياء اليمن ومخاليفها : على سفح الجبال (طريق الصدور) (٤١٥) .

مع ذلك ، لا تبدو صورة « البرية» قاتمة إلى هذا الحد على الدوام . فحتى لو ابرزت أشد وعورة من « البادية »، فبعض الأقوال المدونة هنا وهناك ، تشير إلى وجود بعض الحياة فيها ، ولو كانت وجلة، فمدينة سنجار في الجزيرة ، تقوم في وسط « البرية» ، وعلى سفح جبل خصب ، على حد ما جاء في النصوص الجغرافية . وتحيط « البرية» بمدينة سر من رأى، التي تمدّ عمارتها ومياهها وأشجارها في الجانب الغربي . وفي أماكن أخرى ، كالسند وبلدان وادي جيحون ، ترتاد بعض القبائل « البرية » ، ولها فيها مراعي ، تنتجعها لتعيش (٤١٦) . اذن تبدو «البرية» وكأنها تلطف قسوة الصحراء المطلقة ، على أطرافها ، أو حتى في داخلها أحياناً . وهنا لابد أن نتذكر أولاً أنها تشير إلى القارة في اشتقاقها اللغوي ، وان بوسعها بالتالي أن تميز بوضوح موقع إحدى المدن، بعيداً عن أحد البحار أو حتى عن أحد الأنهار (٤١٧) : فهي تؤدى من هذه الناحية معنى الأرض على مرمى النظر ، بلا شاطىء يحد الرؤية، ولا مجرى ماء يحتفر كتلتها ، أو يجلب لها الرطوبة أيضاً : هنا يقال لنا : لا يعتمد إلا على الامطار (على الاعذاء أو البخوس) (٤١٨).

وهكذا نفهم تبدل المعنى ، كلما تضاءلت نعم السماء في هذه الأرض البرية بالمعنى الصحيح : بالفعل الصحراء ليست بعيدة . وندرك

أيضاً أن معنى « البرية » الاصلي لن يختفي تماماً أبداً : يدل على ذلك اقتران لفظ « البرية » بلفظ « مفازة » ، كما لو أن وجود « البرية» أريد به تخفيف الانطباع الكئيب الذي تعطيه المفازة . ونستشهد بالصيغة التالية من بين صيغ أخرى متنوعة (٤١٩) : « مفاوز وبراري منقطعة(٤٢٠) قليلة المياه ، متعذرة المراعي » : اذن شروط الحياة مضطربة لكن لا خلاء شامل . وهذا النص أيضـاً : « بين أضعاف مدن كرمان ، مفاوز وبراري كثيرة ، وليس اتصال عمارتها كاتصال عمارة فارس » : أي عمارة منقطعة ، لكن لم تبلغ تماماً من الخريطة ، وصحراء لم تتمكن أن تعم جميع الأماكن . أخيراً نقول : « البرية » تشبه الصحراء قليلاً ، لكنها تمتد على أراضي شاسعة إلى أقصى حد ، ويبرز الجفاف كثيراً فيها ، فتبدو نوعاً متوسطاً من الصحارى : الخلاء الرهيب كما في الجماد الميت بل أقل منه أو ما يقاربه أحياناً ، بحياة رقيقة وخطرة ، وفي جميع الأحوال أصعب كثيراً من البادية بعيشها الشظف أيضاً .

ونترجم لفظ « البادية » ، حسب العرف الجاري ، بلفظ « سهب » الفرنسي (ستيب : Steppe) ، ماركين أن هذا الاداء يزيل معنى الاشتقاق الأصلي . فالبادية مسكن البدو ، وتنطوي على نمطي لغة وحياة . ولغة بدو جزيرة العرب أصح اللغات (٤٢١) . بهذا المعنى الدقيق ، يقصد «بالبادية» المنطقة الواسعة الجافة التي تحد الهلال الخصيب الشهير ، من شمال جزيرة العرب (٤٢٢) حتى تخوم اقليم الشام وضفة نهر الفرات اليمنى . إلا أن البادية بمعناها الواسع ، وباعتبارها نطاق اقتصاد البدو ووجودهم ، يمكن أن تدل ، في أماكن كثيرة ، على المشاهد التي يعيش فيها « غير قبيلة ، متعزّبون ، لم يروا قط حاضرة ، ولا عرفوا غير البادية العازبة » (٤٢٣) .

اذن لدينا بادية العرب من جهة ، أو أحياناً البادية باختصار .
ويدرك الجغرافيون ادراكاً جيداً جداً البادية ، لكنهم لا يدرجون ذكرها في لائحة الاقاليم المعنية : أي « جزيرة العرب ، والشام ، والعراق ، والجزيرة . وينفرد المقدسي بالحرص على الوضوح إلى الحد الأقصى ، فيقول : « وبين أقاليم العرب بادية ، ووسط أقاليم الأعاجم مفازة ، تسمى مفازة فارس ، فلابد من افرادهما والاستقصاء في وصفهما لشدة الحاجة اليهما (٤٢٤) . حتى على هذا الاساس ، لا يسعنا أن نحصر البادية ضمن الحدود الصارمة ، لأن لها امتدادات في قلب المعمورة في جزيرة العرب بالذات وفي الهلال الخصيب ، ويشبه وجودها في النصوص الجغرافية ، كمجموع أو لوحة (جمعها بوادي) ، موقعها المسيطر على الأرض (٤٢٥) في الغالب . ويعطي المقدسي صورة رائعة عنها في اقليم الشام ، عندما يقول : والبادية على تخومه « كالزقاق منه إلى تيما » ، نحو واحات شمال جزيرة العرب (٤٢٦) .

وفيما عدا هذه الأراضي المختارة ، تظهر البادية في هذا المكان أو ذاك ، من أقصى دار الاسلام إلى أقصاها . فتندس بين مدن المغرب ، وتمتد على حدود الصحراء الكبرى الشمالية ، وتنبسط في طرابلس الغرب ، وخوزستان ، واورستان ، ومكران ، وحتى في السند ذاتها (٤٢٧) . فما هي اذن هذه البادية التي يبدو أنها تتوزع شعاعياً من وسط جزيرة العرب حتى مغرب دار الاسلام ومشرقها ، فأولاً فيها بشر ، بدو أو رعاة آخرون لهم نمط حياة قريب من نمط حياة البدو ، يعيشون في هذه البقعة الجافة ولا يفارقونها أبداً ، كالبربر والاكراد ، والبلوص ، والبدهة في السند (٤٢٨) ، مما يثبت أن الحياة فيها سهلة ، أو على الأقل ممكنة ، لجماعات كاملة (٤٢٩) ، شريطة أن يكتفوا بالبداوة طبعاً ، لأن البادية

بقعة يعوّض امتدادها عن ندرة الأُرض المغـنـية أو رقتها . فالبادية واسعة : ولا يتضح اتساعها من رؤيتها على الخريطة . بل يدوّن تدويناً (٤٣٠) . وفيها يتم الانتجاع . نقصد أن بعض القبائل البدوية الكبيرة تنتقل فيها مع قطعانها ، وتكتفي بالعشب النادر بلا ريب وتستطيع دائماً أن تطلبه في مكان أبعد . والبادية أيضاً نطاق حياة حضرية حقيقية لاناس يقل عددهم عن عدد البدو ، ولهم مزارعهم ، وأساليب زراعة تستغني عن الري ، تلائم المناطق الجافة ، وتخضع لضرورة مطلقة تقضي بالتكيف مع ندرة المطر (٤٣١) . ويتعذر علينا التحدث عن خصب حقيقي (٤٣٢) في هذه الشروط . مع ذلك الحياة قائمة فيها ، ومستقرة ، ولها مستغلات دائمة،وضيع أيضاً (٤٣٣) . وتمتد رقعة حياة حضرية واسعة وحقيقية على أطراف البادية خاصة ، وتكثر فيها تربية الحيوان والزراعة ، وترتبطان بالمدينة القريبة وبسوقها ، في حين يعتمد معظم ازدهار المدينة القريبة منها على حياة البداوة التي ترتكز عليها . فاذا تساندت البادية والمدينة ، أمكن قطعاً أن يقال إنهما خصبتان : مثال ذلك واسط في العراق ، التي يقال لنا بأن حزامها الغذائي ضيق جداً ، على الأقل في غربها ، ومثل مدن أخرى كثيرة في الجزيرة تلتصق بالبادية (٤٣٤) .

خلاصة القول إذن ان درجات كثيرة تظهر بين هذا الخصب وبين البادية « العازبة » (٤٣٥) ، مروراً باحتمالات البداوة أو الحقل الموقت . ولعل أفضل تعريف للبادية ما قاله الاصطخري عن البقاع التي تمتد من شمال شرق بغداد نحو فارس : « ولما كانت . . . كالبادية متقطعة العمارة ، منفردة المنازل والقرى » (٤٣٦) . بالتالي الحياة مضطربة، ومتباعدة ، ومتقلبة ، ومتقطعة فيها ، إلا أنها ليست غائبة عنها .

فالبادية تختلف عن المفازة التي تعد صحراء أقل رحمة بكثير . والبرهان عند الاصطخري أيضاً (٤٣٧) ، الذي يستهل فقرة خصصها لمكران بهذه التعابير : « مكران ناحية واسعة، عريضة، والغالب عليها المفاوز والقحط الضيق . ثم يأسف لأنه ذكر في سياق حديثه وجود زروع ومدن أيضاً في أرض يتوقع القارىء أن تكون مقفرة ، ويصحح أقواله بعد فترة طويلة ، وقبل أن يختتم فصله عن اقليم السند الذي يضم مكران ، ويستدرك نفسه : « والغالب على أرض مكران البوادي والزروع البخوس » . وهكذا يكون قد أدخل في وسط هذه المفازة التي لا تلائم الحياة امابر حياة محتملة ، ومتباينة بين طرفي هذا الفضاء الفسيح ، لكنها واقعية وحسية من مكان إلى آخر ، فيحول الصحراء المطلقة إلى بادية تتقبل بعض البشر في الحد الأدنى .

وتعد بادية العرب التي اشتق منها هذا الاسم ، أكمل نماذج البوادي . فلنلق نظرة على هذه البادية المثلى قبل أن ننهي حديثنا عن البادية ، معتمدين على المقدسي الذي أفرد لها بحثاً خاصاً ، كما سبق وقلنا . فهي فسيحة ، وهذا ما نتوقعه (٤٣٨) ، وفي جميع الأحوال سعتها كافية ، لتضم في أضعافها أحياناً مساحات أضيق مثل أقسام البادية (٤٣٩) . وهي مستوية أيضاً . أو على الأقل خالية من التضاريس الشاهقة ، ولعل هذا ما يفرقها عن جزيرة العرب بالمعنى الصحيح ، بجبالها العالية . فالسهل مع الدرجات التي ألمحنا اليها ، يميز واحة تيماء (٤٤٠) ، وعلى وجه العموم، يبرز (٤٤١) القمم التي لا تشكل فيها سوى تلال . ولا تحوي مدناً سوى تيماء (٤٤٢) ، وبعض القرى (٤٤٣) في أفضل الاحتمالات.

والواقع أن بادية العرب منطقة مرور (٤٤٤) ، تعرض مقسمة إلى ثلاث عشرة طريقاً (٤٤٥) تسع منها طولاً يؤدين إلى مكة ، وثلاث

عرضاً يؤدين إلى الشام ، وبها طريق آخر لقرح يؤدي إليها من سواد العراق إلى البصرة ثم إلى مصر . وليس لأحد من أهل الاقاليم الثلاثة عشر طريق في البر إلى الأماكن المقدسة ، إلا اذا سلك إحدى طرق هذه الشبكة التي تضم ثلاث محجات تعد طرق العرب إلى مكة ، وفيها كان بريد بني أمية ، واياها سلكت جيوش العمرين وقت فتح الشام ، وهن قريبات ، آمنات ، وأصحابها بنو كلاب ، ويصحبهم كثير من أهل الشام وغيرهم ، يهدون المسافرين ، ويخفرون القوافل ، ويحرسون الناس ، ويعادون الذين يرفضون هذه الحماية القسرية (٤٤٦) .

ويفرض الماء (٤٤٧) نفسه على جميع الذين ينزلون البادية أو يمرون فيها ، وهو ملاذهم الوحيد ، والشيء الذي لا يستغنون عنه . وتتعاظم أهميته حتى ان التعبير عن قطع المسافات بالمراحل أو النهارات أو الليالي ، يستبدل أحياناً بالمناهل (٤٤٨) . والماء رديء اجمالاً في البادية ، ولا يستساغ شرابه (٤٤٩) ، فيما عدا بعض الحالات الشاذة ، لكن لابد من الاشارة إلى وجود هذا العنصر المنقذ مهما كان ، بلا تدقيق عن وضعه ، وبالأشكال التي تحيطه بها الطبيعة أو عمل البشر : عيون . غدران ، سباخ ، آبار ، قنى ، برك عذيبية أو حفر في الرمل (٤٥٠). ويفرق أحد التصنيفات ندرة المياه ووفرتها التي يرحب بها الناس بداهة بحماس كما نتصور : بركة عظيمة ينبع فيها الماء ، بساتين تسقى بالسواقي ، آبار يقصدها عرب بالاباعر وفيها « فرج للحجاج . وميّز تصنيف آخر ماء الآبار العذيبية السهل المنال وماء الآبار البعيدة القعر جداً. ويفرّق تصنيف أخير الماء الحلو (العذب) ، النادر جداً ، كما قلنا والماء غير الطيب أو المالح تماماً : « الكريه » ، « المنتن » ، الذي يطلق

الناس سواء شربوا منه أم خبزوا به أو طبخوا . والماء الذي يتورم من يشرب منه وربما يقضي نحبه .

وتتفق آراء المصنفين الجغرافيين على النبات . فالنخيل يذكر حيثما وجد (٤٥١) . إلا أن مشهد نبات البادية العام يتألف من الأعشاب البرية والحشائش وأدغـال الطرفاء في الغيـاض ، أو من نبت الفث الشبيه بالخردل ، الذي يجمعه البدو إلى الغدران . ثم يبلونه بالماء فيتفتح عن ذلك الحب ، ثم يطحنونه ويخبزونه ، ويتقوتون به ، مع لحم اليربوع .

اذن العيش شظف . يعلل هو وكرم البدو والطباع الفظة جداً ، حتى في بلدة مثل تيماء ، رغم بساتينها « الهائلة » ، وكثرة نخيلها ، وغزارة مائها . وفي تيماء أمور لا يجوز اغفالها ، مثل تدني مستوى الثقافة فيها ، وسوء تصرف أهلها ، وانخفاض مستوى حياتها . لأنها تعلل جميع الظاهرات ، لاسيما كون خطيبهم بقالاً ، وحاكمهم نعالاً (٤٥٢). مع ذلك البادية كثيرة العرب اذا ما تجمعوا (٤٥٣) . وفي النهاية . تعوض بعض مزاياها عن مساوئها . فقطعاً طرقها وعرة ، تخترق المفاوز والرمال وأرض الجوع ، مما يؤدي إلى تخريب العمارة ، وتدمير الآبار ، وتعطيل البرك ، التي استفيد منها في الماضي (٤٥٤) . لكن اذا صرفنا النظر عن موارد التجمعات البشرية التي لا تتناسب مع الضيق العام (٤٥٥) ، نعترف مثلاً أن الماء ، حتى لو كان رديئاً ، متوفر في كثير من المراحل (٤٥٦) ، وان بعض هذه المنازل حسنة ونيرة (٤٥٧)، وان الهواء ، على وجه التخصيص ، ولو كان حاراً ، طيب في جميع الأماكن ، وصحي وخفيف ورائع أيضاً (٤٥٨) .

ونقول في الختام إن البادية ، عربية كانت أم غير عربية ، تشكل

عراءاً فسيحاً جافاً ، فيه امكانات عيش تفوق ما في البرية ، ليس دائماً ولا في جميع الأماكن بلا ريب ، بل من وقت لآخر ، وفي بعض المحال ، وليس أصلاً بالنسبة إلى الحضر الذين تتقبلهم تقبلاً فقط ، بل بالنسبة إلى أبنائها البدو الذين يتنقلون على دروبها ، تحت سماء وجو صافيين ، هم وقطعانهم وخيمهم ، في تجوالهم الابدي ، فيتمتعون بحريتهم الذاتية . وتقل الجبال في البادية ، ولهذه الندرة قيمة رمز في الواقع : فآفاقها الفسيحة المفتوحة على نطاق واسع ، تدفع أهلها إلى الارتحال من الحيز الموقت الذي يقيمون فيه بضعة أيام أو بضعة أسابيع في أفضل الاحتمالات ، وإلى الذهـــاب إلى مكان أبعد منه : فتقصيه عن يسر وكآبة الحياة اليومية التي لا تتبدل ، وتجعل أهل الجبال يربطون مصيرهم بها نهائياً .

بقي أن نتحدث عن المفازة ، لكي نختم استعراض الصحاري . ويطلق هذا الاسم في الأصل على عراء جاف فسيح ، نقول انه من فارس ، ويسميه المصنفون الجغرافيون مفازة خراسان ، أو المفازة باختصار (٤٥٩) ويعتبرونه بوضوح وحدة طبيعية متميزة ،انتزعت من جملة أقاليم دار الاسلام في المشرق ، ويبرزون كيانها بالتمام والكمال . ففي حين أن بادية العرب لا تحظى ببحث منفرد إلا عند المقدسي وحده ، كما قلنا ، يعالج جميع جغرافيي مدرسة البلخي المفازة على حدة : مثل الاصطخري وابن حوقل ، وطبعاً المقدسي الذي يقارن هذه المفازة غير العربية ببادية العرب .

ويكرر ابن حوقل الاصطخري ، ويصف المفازة بهذه الالفاظ (٤٦٠) « هذه المفازة من أقل مفاوز الاسلام سكاناً وقرى ومدناً ، على قدرها ،

لأن مفاوز البادية فيها مراع واحياء للعرب ومدن وقرى ، ولا تكاد تخاو نجد وتهامة وسائر نجودها ونواحيها والحجاز وما يشتمل عليه من بقاعه واصقاعه من أن تكون في حيز قبيلة، تتردد فيها على المراعي ، وكذلك عامة اليمن ، إلا ما بين عمان واليمامة مما يلي البحر (٤٦١) إلى حدود اليمن ، فان ذلك الموضع خال فارغ من ديار العرب من السكان . وكذلك المفاوز التي في اضعاف كرمان ومكران والسند عامتها مسكونة بالاخبية والاخصاص وغيرها . ومفاوز البربر أيضاً القاصية المتصلة بالبرية التي لا تسلك في الجنوب إلى البحر المحيط عامرة . اعرف ذلك واقف عليه باحياء البربر في مراعيهم ، وليس يستدرك من مفازة فارس وخراسان غير علم الطريق ومايعرض في أضعاف طرقها من المنازل (٤٦٢) والرباطات الموقوفة على سابلة الطريق ، ليستجار بها في شدة البرد من الثلوج ، وفي شدة القيظ من الحر ، وليس فيما عدا أطرافها كثير عمارة ولا سكان » .

اذن الوضع العام السائد في الصحراء ، أو على الاقل في هذه الصحراء ، هو الموت . وتنفرد مفازة فارس بالخلاء التام ، اذا ما قورنت بالبرية ، أو البادية ، وحتى بالمفاوز الاخرى ، اذ تكاد الحياة لا تظهر إلا عندما يمر المسافرون فيها مروراً . وينتظم وصف المفازة حول الطريق (٤٦٣). ونكرر القول بأن ذكر المفازة يؤدي إلى وصف مسهب تتناوب فيه وحشة الأماكن الرهيبة التي تبرز باعجوبة أمام المسافر في وسط يخفف قسوته بعض الماء والخضرة ، مع التوقف والاستراحة والامان (٤٦٤) .

ونبدأ أولاً باتساع المفازة . فقفارها تخيف ، حتى لو لم ترد امتداداتها في البلدان المجاورة لها . ويقول المقدسي : « تتوسط طولانياً»

ستة من أقاليم الاعاجم في دار الاسلام ؛ « ومثلها كمثل البحر » ، لا معالم ثابتة فيها سوى الطرق المشهورة المسكونة (٤٦٥) . مرة أخرى - نعود إلى الطرق التي تلخص جميع الحياة في هـذه المفاوز (٤٦٦) ، وتسمح برسم خريطتها . إلا أن مراحلها قريبة على وجه العموم (٤٦٧) ، لكن ما أكثر العقبات فيها . وتأتي التضاريس في طليعتها : ففيها ، خلافاً للبادية ، ليس فقط تلال أو رمال ، بل جبال أيضاً ، « وحشة » ، «ممتنعة » و « معارج » (٤٦٨) . وتضيف المفازة إلى الصعاب الخاصة بالأرض ، في شكلها المضرس ، عقبات التجزئة : فهي موزعة طبيعياً وسياسياً على عدة أقاليم ، ويكثر الدعر فيها ، بخاصة في جبل كركس كيوه ، من القفص أو البلوص (٤٦٩) . ولا يؤمن شر هؤلاء اللصوص والفساد الا بطريقتين : التحالف معهم (٤٧٠) أو ، وهذا هو الاسلوب الشائع ، الاعتماد على بذرقة من قبل السلطان مع القوافل أو على الحصون التي أقامتها السلطة في مراحل كثيرة على الطرق (٤٧١) . لكن لعل أسوأ ما في الأمر أن يضل المسافر الطريق . ويقول المقدسي أنه مكث في الطريق (من طبس إلى فارس) سبعين يوماً يعدل من ناحية إلى ناحية(٤٧٢) إذ لا معالم هنا في أغلب الاحيان ، وربما برزت الأرض من مكان إلى آخر بألوان فاقعة ، سوداء ، أو حمراء ، أو بيضاء ، أوخضراء(٤٧٣) أو بصورة غريبة جداً من حجرة تجاور الطريق (٤٧٤) . لنسمع ابن حوقل يتحدث عن سائر الأمور ، لأنه يعرف من أين جاء ، اذ إنه سلك المفازة على الوجهين مرة مع المفردة ، وأخرى مع الجمال المحملة (٤٧٥) : « فهي مفازة يصعب سلوكها بالخيل ، وانما تقطع بالابل . فاما دواب عليها احمال ، فلا تسلكها إلا على طرق معروفة ، ومياه معلومة ، ان

تجاوزها في اعراض هذه المفازة متجاوز ـ هلك » . ويقول فيما بعد(٤٧٦) : « ولا يسلك إلا عند الضرورة ، والمسلك فيه على السمت والقصد بالنجم».

فاذا ضل المسافر الطريق ، لا يهتدي إلى الماء . هذا ما قاله ابن حوقل منذ قليل . واذا لم يتوفر له الماء في المفازة أو البادية ، تعرض إلى موت محتم في الأولى أكثر من الثانية . لكن من أين يستقي الناس الماء ؟ من آبار . وأحواض ، يجتمع فيها ماء المطر الطارىء . وأحياناً وهذا أمر عجيب ، من عين ماء تجري في أقنية ، وتستتي بضعة آلاف من الأمتار المربعة من الأراضي المزروعة (٤٧٧) . اذن ، تعد مظاهر الحياة شاذة ، ويشار إليها بعناية . فماذا يشاهد المرء في معظم الأحيان ؟ لا يرى لا بحيرة ولا نهرا قطعا ، بل سباخا ، و « عيوناً ضعيفة » ، تدير رحى صغيرة ، وتغذي رجلين أو ثلاثة من حقل يزرعه هؤلاء النفر ، وماءاً رديئا غير شروب أحياناً ، من آبار ، لا تفي بقافلة صغيرة ، أو سيولا ، لا تكاد تنشأ حتى تجف على أرض يحرقها الملح (٤٧٨) . والانطباع العام الحاصل عن المفازة هو الفراغ شبه المطلق . ففيها مدينة واحدة ، وتتوزع جميع المدن الأخرى على تخومها . أما الضياع ، فتعد على أصابع اليد . وقد أحصاها الاصطخري سبعاً بتماسها ، وتبعه ابن حوقل (٤٧٩) . وذكر ان عدد سكانها يتراوح بين مئتي نسمة وألف نسمة (٤٨٠) . بالمقابل ، يغلب وجود جماعات قليلة من الناس ، حول رباط أو في قطعة أرض صغيرة جداً ، ووجود حصون مهجورة أحياناً ، تحولت إلى منازل بسيطة طارئة ، وضياع اختفت تحت اطلالها ، ومناهل غير مضمونة أو خانات تستجير بها مارّة تحدو ألحان السير وتغني أناشيد الوحشة . وتتكرر تعابير رتيبة كثيرة تصف الجفاف ، منها « أربع مراحل في مفازة متصلة » ومشاهد ، ما مدّ البصر ، « لا يرى

فيها نبات » و « لا فيها ساكن »،و « لا أثر للحياة فيها ». ويتردد لفظ « مفازة » ليدل على الكل أو الجزء ، كأنه شعار هذا الخلاء الشاسع ، أربعاً وأربعين مرة في صفحات سبع ، وصف فيها ابن حوقل مفازة خراسان وفارس ، أي ما معدله مرة في كل أربعة أسطر (٤٨١).

اذن تعد الحياة في المفازة مظهراً اضيف اضافة إلى أرض تنبذه تلقائياً ، وفرضه البشر عليه فرضاً لضرورات تنقلهم من مكان إلى آخر . وتعتبر المفازة أرض عبور لا يستغنى عنها ، وتتفوق على البادية بهذه الناحية . والدليل على هذا القول اغفال الحديث عن مناخ المفازة ، في حين قيل إن مناخ البادية ممتاز (٤٨٢) ، كما سبق وأشرنا . ولا يشك أحد في هذا الوضع ، وتستثنى بعض الضياع القليلة ، بل النادرة جداً . واذا أراد الانسان أن يعيش في المفازة يضطر أن يرضى بحياة بدو قساة القلوب ومتوحشين أحياناً ، من قفص وبلوص ذكرناهم سابقاً . إلا اذا عهدت له السلطة بحراسة الحصون ، أو ضمن اوده من حقل فقير ، من مبيت المارة وتزويدهم بالطعام في المرحلة مساءاً. ويبدو العاقل في أحد الامثال، في أغلب الظن ، غريباً جداً في المفاوز ، على الرغم من حكمته . فقد كتب المقدسي (٤٨٣) ما يلي : « ساغند حصن خرب . . . ثم أشجار توت وحبائك قليلة تزرع . وثمّ يجتمع القفص، ويستعدون لقطع الطرق ويدبرون . ورأيت ثم رجلاً واحداً يزرع تلك الحبائك . قلت له : الا تستوحش في هذا الموضع ؟ قال : اعلم اني ذهبت إلى نيسابور في بعض السنين ، فكنت فيها نحو شهر ، وأنا ضيّق الصدر ، مستوحش من الناس ، حتى رجعت إلى هاهنا » .

ولابد أن يتنوع الناس لتكوين البشر ، فيشملون المنعزلين (المنزوين) والمنفيين (المبعدين) . وربما المجانين أيضاً . وتعطي مفازة فارس

الكبرى صورة أساسية عن المفاوز ، ويرد لفظ المفازة وصفاتها في جميع دار الاسلام من أقصاها إلى أقصاها . ويعبّر الشرح ، كلما اقتضت الحاجة ، عن الأرض القفر الحقيقية ، التي تكاد لا تحتمل ، أو لا طاقة لاحد بها ، بعيونها البعيدة المنال أو الشحيحة ، وملحها ورمالها ، ونباتها النادر القصير ، المعدوم في الغالب ، وزروعها ، ان وجدت ، واعدائها المشكوك بمطرها ، وبدوها وقطعانهم في النهاية . وقد استعرضنا جميع هذه الأمور ولن نعود إليها (٤٨٤) . ولعل تحديد مواضع المفاوز جغرافيا أجدر باهتمام الباحث . فلا ريب ، كما قلنا ، أنها تنتشر في جميع الأماكن تقريباً . ويعني لفظها ، في مغرب دار الاسلام على التخصيص ، الخلاء الذي يمتد من بلاد المغرب حتى بلاد النوبة (٤٨٥) . ويعثر على هذا الفراغ ذاته في سيناء وفي بعض أنحاء الجزيرة العليا (٤٨٦) في وسط دار الاسلام . ويبلغ الخلاء أقصى اتساعه في المشرق ، فيغمر الخريطة من وادي نهر مهران إلى إقليم الجبال وآسية الوسطى ، ويجتاحها أحياناً . ويبدو أن مفازة فارس الكبرى تتراءى خلف المفاوز الصغيرة التي تتوزع هنا وهناك ، وتشبه فلاة هائلة عاتية ، تتعدى على تخومها ، فتتوسع ، ثم تختفي لتظهر في مكان آخر ، يبعد عن حدودها (٤٨٧).

ويرتبط استعمال لفظ مفازة ، كما ورد في النصوص الجغرافية بمفهوم واحد يعبر في النهاية عن حياة لا استقرار فيها ، لكن من وجهة نظر مختلفة . فيمكن أن يشعر البشر بالجفاف الشديد في المفازة لاتساع رقعتها ، كما هي الحال في مفازة فارس الكبرى ، وهذا ما يلاحظه الباحث على وجه العموم في المشرق الذي تحاكي مفاوزه مفازة فارس. بالفعل يشير الجغرافيون إلى قفار تتفق أوصافها مع ما هو معروف عنها على الأرض ، أعني مفاوز الجبال وخراسان وآسية الوسطى ، ومع

أوصاف مفازة فارس (٤٨٨) ، إذ ليس فيها ، مثلها ، من مظاهر الحياة ، إلا ما ينشأ عن ذهاب القوافل وإيابها على طرقها المعهودة العريقة في القدم . لكن يجوز الانطلاق من نمط المفازة إياه والشعور باحساس متفاقم بالجفاف من خلال بلوغه حد غير مألوف . عندئذ ، يدل لفظ المفازة على انقطاع حاسم وشامل مع الحياة ، أي الحياة السابقة أو الهامشية (٤٨٩) . وبهذا المعنى بالذات . يتساءل المرء عن كثرة تكرار لفظ المفازة بالمفرد في الاشارة إلى مفازة فارس الكبرى ، ويدقق في ما قلناه من قبل (٤٩٠) . فكما قلنا ، تعبر « مفازة فارس » عن رقعة الأرض كاملة أو عن أحد أجزائها ، لكن لابد أن يشار في هذه الحالة الثانية إلى أن المقصود بدقة تامة ، هو إما الخلاء الجاف المطلق الذي يحيط بخان أو منهل ، أو حصن أو أي أثر حياة آخر ، واما الطريق القفر أيضاً ، الذي يفصل مرحلتين من تلك المراحل . اذن في النهاية ، تعبّر المفازة دوماً عن القفر بالذات ، كما المعنا ، لكن لا من ناحية بقعته برمتها مع ما تحيط به من مظاهر الحياة ، بل من ناحية صفتها الاساسية ، نعني بالضبط الصحراوية ، بصرف النظر عن أماكن عودة مراكز الحياة إلى الظهور .

ونختم هذا البحث الطويل عن المفازة . بالقول ان الالفاظ التي تدل عليها (٤٩١) تؤول إلى قيام أربعة ضروب من التوزيع . التوزيع الأول كمي ، تتعارض فيه مساحة السواد الضيقة مع اتساع البادية والبرية والمفازة . والتوزيع الثاني جيولوجي : فالبرية تلح على الضخامة والتماسك شبه القاريين ، في حين تفيد الصحراء غياب الحزونة واستواء الأرض ، والبادية انخفاض التضريس الذي يتمثل في التلال في الحد الأقصى ، والمفازة في وجود السهول (٤٩٢) والجبال مترافقة فيها . والتوزيع

الثالث جغرافي : فلا أهمية فيما يبدو ، لموضع الصحراء والبرية ، إلا أن البادية ، في أصلها وبنيتها على ما يظن ، خاصة بجزيرة العرب ، وان كانت تنتشر في جميع أنحاء دار الاسلام ، كما أن موقع المفازة محصور في المشرق في معظم الاحيان . والتوزيع الرابع والأخير مناخي واقتصادي : فالجفاف وتناقص السكان يتدرجان في الصحراء والبادية والبرية والمفازة ، ويتزايدان ، فيكونان خفيفين ، ثم بارزين ، فشديدين فبالغين الحد الأقصى .

وقلنا « تدرج » ، ولا نحصره في التوزيع الرابع دون سواه . فالواقع أن تداخل التوزيعات الأربعة ، أو على النقيض ، تفضيل المصنّف لأحدها ، عمداً أو عن غير قصد ، يعللان على الارجح الحيرة الظاهرة في سياق النص ، أو جمع لفظين ليصحح أحدهما الآخر (٤٩٣) . لكن لابأس بهذا الغموض الذي انتقل إلى الألفاظ أيضاً ، فهو دليل على التنوع في المفاوز وفي ادراكها ، وربما في استجابة البشر إلى تحديها الطبيعي : فمن يدري إذا كانت المفازة تقوم في جميع الاماكن ، ويدوم شمولها اذا سيطر البشر عليها أو سكنوها أو التفوا حولها أو اجتازوها ؟

أرياف دار الاسلام

ولا نتوقع أن يستوفي الحديث عن الجبال والمفاوز وصف طبيعة بلدان دار الاسلام ، وان كانت أهميتها طاغية فيه . وترتبط مكانة الجبال العظيمة بنشوئها بمشيئة الله وبكثرتها ، ومكانة المفاوز الفريدة بالاهتمامات التجارية التي تفرض على البشر ان يعرفوا معرفة تامة موقعها وشكلها ومسالكها الصعبة الوعرة . ويدخل عنصر ثالث في تكوين الوسط ، نعني الريف ، الذي يستقل عن الجبال والمفاوز ويصحبهما أو

يعد جزءاً منهما أحياناً . والريف غني — أو يشار دوماً إلى غناه تقريباً — وينظر إليه على وجه العموم من زاوية علاقته بالمدينة التي يغذيها (٤٩٤)، ومن ناحية خضرته الداكنة البارزة في الأرض المحيطة بها : « فالسواد (٤٩٥) هنا في المنطقة الجافة ، سواد الزروع والتربة ، الذي يستحوذ على ناظري المسافر القادم من المفازة أو البادية ، وهو جزء صغير من الواحة ، أو مساحة واسعة من أحد البلدان كالعراق ومصر والصغد والأندلس (٤٩٦) .

ويثير تعظيم الخضرة والماء ، والجوع والعطش بعد التغلب عليهما ، موضوع الجنة ، فيقال ان في الدنيا أربع جنات ، هي الصغد ، خاصة حول سمرقند ، والغوطة أي واحة دمشق ، ومنطقة البصرة ، ووادي شعب بوّان الذي عرفناه من قبل (٤٩٧) . وتضاف أحياناً بعض البلدان الأخرى إلى لوحة الشرف هذه : كالرقة على الفرات ، والري قرب طهران الحالية ، وجيرفت في كرمان ، وجاين في الاندلس ، وتستر في خوزستان ، التي عدت مع الأسف « جنة ترعاها الخنازير » ، وجبال أرمينية واذربيجان التي « تلتف الأشجار والمياه » فيها ، ويكثر العسل المصفى الذي وعد الله المتقين بأنهار منه في الجنة (٤٩٨) .

فلنسبح الباري تعالى ونحمده الذي خلق هذه الأشياء الرائعة . وقد كتب ابن حوقل عن برذعة: « وكانت عندما رأيتها كالمُشَبَّهة حسنا » (٤٩٩) . وقال المقدسي عن كورة سابور النزيهة في فارس : « وترى الأنهار جارية، والثمار دانية ، والقرى ممتدة تمشي الفراسخ تحت ظل الأشجار » (٥٠٠) . ويتكرر أيضاً عند المقدسي موضوع الحياة التي « تغيب » في الخضرة ، والضياع التي تلتف بها الأشجار وتغيب

في البساتين (٥٠١) . وعند ابن حوقل صفحات طوال يطري فيها على رونق أرياف أو واحات الاندلس ، وصقلية ، أو مصر . أو الشام ، أو العراق ، أو فارس أو آسية الوسطى (٥٠٢) . نختار منها المقطع التالي الذي يحدثنا فيه باسهاب واطناب عن اقليم ما وراء النهر ، ويشرح الاسباب العميقة لروعته (٥٠٣) : « ولم أر ولم أسمع في الاسلام بظاهر بلد أحسن من ظاهر بخارى ، لأنك اذا علوت قهندزها . لم يقع بصرك من جميع النواحي إلا على خضرة تتصل خضرتها بلون السماء ، وكأنما السماء مكبة (٥٠٤) زرقاء على بساط أخضر ، تلوح القصور فيما بين ذلك كالتراس التبتية ، والحجف اللمطية (٥٠٥) أو كالكواكب العلوية بياضاً ونوراً بين أراضي ضياع مقوّمة بالاستواء (٥٠٦) ، مهندمة كوجه المرآة بغاية الهندسة . وليس بما وراء النهر من البلاد ولا غيرها من البلدان أحسن قياماً بالعمارة للضياع منهم ، مع كثرة متنزهات في سعة المسافة وفسحة المساحة من أرضهم » .

أجل ، يندفع ابن حوقل ، ويوسع لوحته صعداً ، ويدخل فيها أنحاء بعيدة عن نطاق بخارى مثل صغد سمرقند ، وفرغانة ، وبلد طشقند ، ويقول : « لأن من حد بخارى على وادي السغد (٥٠٧) يميناً وشمالاً ضياعاً تتصل إلى حد البتم ، لا تنقطع خضرتها ، ولا تتصرم زهرتها ، ومقدارها في المسافة ثمانية أيام ، مشتبكة البساتين والخضرة والرياض والميادين (٥٠٨) ، قد حفت بالأنهار ، الدائم جريها والحياض في صدور (٥٠٩) رياضها وميادينها . فخضرة الأشجار والزروع ممتدة على جانبي واديها ، ومن وراء الخضرة عن جانبي النهر . مزارعها ، ويحرسها من وراء المزارع مراعي سوائمها وقصورها . والقهندزات من كل مدينة وقرية منها تبص في اضعاف خضرتها

كأنها ثوب ديباج أخضر قد سيّر بمجاري مياهها ، وزينت بترصيف قصورها ، فهي أزكى بلاد الله » .

ولا يعثر القارىء على أثر لوصف الطبيعة الوحش عند الجغرافيين الذين تناولت أقوالهم ما سيطر عليه الانسان منها وما استصلحة . ولم يتحدثوا عن تنظيم الزروع ذاتها . وقسموا الوسط إلى ضياع حضر ، واقتصاد رعي ، وحياة مدينية . واتبعوا سنة جمع المدينة والريف على نمط واحد ، ليخلقوا توازناً ، تغذي فيه الأرض المدينة ، وتحمي المدينة الأرض . وتضمن وصفهم ظاهرة أخرى أيضاً : فهم يبرزون الماء دون عنصري الوسط الباقيين أي الهواء واليابسة ، ويلحون على اعادة ابرازه . ولا يشيرون إلى الهواء الا في حديثهم عن زرقة السماء التي يظن أنها دائمة . ولا يتكلمون عن الأرض التي تتراءى من خلال الحياة التي تهبها فقط ، وسنعود إلى هذه الصفة المذهلة لأول وهلة .

وقد شعروا بالحياة ذاتها شعوراً عاماً وقوياً ، مثلما شعروا في أماكن أخرى بالمفازة التي عدوها نقيض الريف فيما يبدو ، فعارضوا مساحة المفازة الفسيحة بمساحة الآفاق المزروعة ، والجفاف المطلق بالنبات الكثيف . ويدرك الباحث رأساً بلا أدنى ريب أن الخضرة قوام تصورهم وان لونها يرمز إلى اتساع النشاط البشري وكثافته معاً : وهاتان ميزتان هامتان جداً حتى ان ابن حوقل افرد لهما عرضاً خاصاً ، وكتب في المقطع السابق اياه الاسطر التالية التي أشرنا اليها من قبل في حديثنا عن الصحراء (٥١٠) : « وقد قال أبو عثمان الجاحظ ان غبرة المزارع في اضعاف خضرة النبات من الزينة ، غير ان الأرض الغبرة بالتربة المنتشرة متى عدمت تقويمها من العمارة بالعيان سلبت بهجة النضرة ، وبزت

حلية الزينة ، وعدمت حلاوة البهجة ، وقعدت بالمتنزه عن اللذة . ويشتمل ما وراء النهر من هذا الأمر على نصيب وافر وقسط زاخر . ويحيط ببخارى وقراها ومزارعها سور قطره اثنا عشر فرسخاً في مثلها (٥١١) ، كلها عامرة زاهرة ناضرة » .

اذن لا يتقبل الجغرافيون الحقل الكئيب الفقير بأرضه العارية ، إلا منعزلاً وبجوار نبات حقيقي . ولا يأبهون له اذا امتد واتسع . ولا تبدو الأرض الفسيحة نزهة ، إلا اذا فرشت بغطاء منتظم يضعه البشر عليها ، ولا تبهج فيها إلا الخضرة التي لا تنقطع ، ولا « تتصرم » ، وتثير الشعور بالكثافة ، وتدفع المرء إلى رفض الأرض الغبرة ، التي كاد يراها جميلة (٥١٢) متأثراً بالجاحظ . ونعود مرة أخرى إلى ابن حوقل لنستعرض مقطعاً آخر من كتابه ؛ « وذلك لهم (يقصد أهل بخارى) دون غيرهم ، لأن المشار إليه من متنزهات الأرض سغد سمرقند ، ونهر الابلة (٥١٣) ، وغوطة دمشق . على أن سابور وجور فارس لا تقصران عن غوطة دمشق ، لأنك اذا كنت بدمشق ترى بعينيك على فرسخ أو أقل جبالاً فراغاً قرعاً من النبات والشجر وأمكنة خالية من العمارة . وأكمل النزهة ما ملأ البصر ، وسد الافق ، وتناهى في الطيب. وليس بنهر الابلة ولا بنواحيه مكان يستوقف النظر على نحو فرسخ ، وليس فيـــه مكان عـــال ، فيدرك النظـــر أكثر من فرسخ ، ولا يستوي المكان المستتر الذي لا يرى منه مقدار ما يرى من مكان ليس بمستتر في النزهة ، ومكان يستوقف البصر منه سعة في العيان وسفر في المنظر ، ولذة واصلة إلى النفس (٥١٤) . وسغد سمرقند فلا نعرف به مكاناً وبلدة اذا علا الناظر قهندزها وقع بصره على جبال خالية من

الشجر أو صحراء غبراء . وذلك ان مزارعهم محفوفة بالشجر مشحونة بالخضر » .

وبذا تتضح شروط التنعم في الريف وتتجمع . ويقصر النموذجان الزائفان في دمشق وسواد العراق في تركيبهما وفي امكان ادراكهما حسياً ، لأن الخضرة تبدو تارة واسعة في العيان وضيقة في المنظر ، وطوراً يسدها الافق فلا ترى كلها . بالتالي ، لا تكتمل اللوحه إلا اذا كانت تامة فعلاً ، وتسنى استيعاب حقيقتها . ولا تصبح الطبيعة نزهة إلا اذا تولى الانسان تحويلها إلى ريف ، ولا يجمل الريف إلا اذا أحدقه المرء بعينيه ، وجعل منه منظراً . ولنتوقف لحظة مع أحد الجغرافيين . أحد الجغرافيين أو أحد القواد ؟ لنتحاش التورية ، ونكتف بالوضع عند ابن حوقل : فالناظر يعلو قهندز سمرقند ، ويقع بصره عليها كلها ، مثلما يفعل في المصورات التقليدية قائد المعركة الذي يشرف على مسرح العمليات الحربية . وتقف المقارنة عند هذا الحد . ويرى سترابون على الاقل (٥١٥) ان اعتماد القائد أو الجغرافي على السمع في عماهما يفوق اعتمادهما على الرؤية ، ولهما في السماع تدبير ، يرتكز على تجميع المعلومات عن تركيب تصور منتظم من قطع متفرقة . خلافاً لذلك ، يستند ابن حوقل ويحذو حذوه جغرافيو نمط المسالك والممالك ، في اخباره وعلمه على العيان والمشاهدة المباشرة والشخصية . ويذهب إلى أبعد من العيان ، فيجيز لنفسه ، لأنه رحالة ، ان يحوّل هذا النهج الاخباري إلى متعة ، كما هي الحال هنا .

اذن تضم عناصر الحكم شعور الناظر وحتى متعته ، وواقع المشهد المعاين . وما دام الحال على هذا المنوال فان الريف الكامل يوفق بين

أشياء استعصى التوفيق بينها . فيشترط أن تكون خضرته ممتدة على نطاق واسع ، وخالية من الانقطاع مهما صغر ، ومن البقاع الغبراء التي « تصرمها » مهما تضاءلت . ولابد أن تسد الخضرة الافق اللا متناهي ، وتغطي مستواة من الأرض أو منبسطاً منها يكاد لا يتموج ، لئلا تستوقف النظر جبال خالية من الشجر . ويجب أيضاً أن ينتصب في وسطها مكان عال يرتقيه المراقب ليملأ بصره برؤية البساط الأخضر بأجمعه . وتعج هذه الخضرة بالحياة ، ويقوم فيها القهندز مقام الجبل المحظور وجوده ، ويعد متناً صنعه البشر ، ووفقوا بينه وبين الحياة التي بعثوها في الطبيعة الوحش ، بحقولهم وأشجارهم وبيوتهم . والقهندز منظرة تسمح للناظر أن يتأمل في أعمال البشر في الريف الذي لا ينفصل عن البصر المحدق به ، ولا يعكس تأثير البشر في الأرض فحسب ، لأن وصفه بالذات ينطوي على وجودهم في نشاط الحقول . ويعجب الكاتب لرؤية ذلك المنظر الشامل تحت السماء الزرقاء من أعلى القهندز ، وينقل اعجابه إلى قرائه ، فيحبس الطبيعة وكائناتها في صفحات كتاب لم يكن يسعه لولاه أن يتميز بانسانية عظيمة (٥١٦) تتسامى إلى مستوى الكمال ولا تخلو من البساطة .

وتندر في النهاية الاشارة إلى الأرض في الحديث عن الريف ، لوجود البشر في أوساطها المستصلحة أو الموصوفة . ويتناسب جمال الأرض مع جهود الانسان لفرشها بالخضرة . ويبدو ظهور متونها الغبراء شراً لابد منه . فلا يستغرب أن تتوارى الأرض في الريف تحت ثرواتها . ويعد قارىء النصوص الجغرافية قديراً جداً ، اذا استطاع أن يحدد نوع الصخور في المزارع الخصبة جـداً ، او اذا تمكن أن يعبر عن توالي الزروع والأرض الوحش بتناوب غير تناوب الخضرة والغبرة . ولا

ينكر أحد أن الجغرافيين العرب يميزون ، كما سوف يأتي فيما بعد ، شتى الترب بألوانها وخصائصها، انما ليس في الريف الذي يهمنا هنا(٥١٧)

فماذا نرى في هذا الاطار بالذات؟ نرى ترباً توصف بابهام شديد أنها جيدة أو أفضل تربة في الاقاليم أو عجيبة (٥١٨) . مع ذلك تغيب أحياناً اما في التسمية العامة « الاماكن النزهة » (٥١٩) ، أو في نطاق يلعب فيه الهواء والماء دورهما (٥٢٠) . وفيما عدا ذلك ، تدون درجة خصب التربة . والتربة « الصحيحة » فيذكر جفاف الأرض أو رطوبتها أو قساوتها أو ملوحتها (٥٢١) . لكن لا يقال شيء عن صخر الأرض ولا عن لونها .

وتُعَدُّ مصر مثالاً نموذجياً على هذا الوصف. فابن حوقل والمقدسي ينطلقان على سجيتهما في وصف ريف مصر الوافر الخصب ، الذي يبلغ عرض العمارة بجنبتيه من حد اسوان ما بين نصف مرحلة إلى يوم حتى ينتهي إلى الفسطاط ، ثم تعرض العمارة على وجه الأرض ، فيصير عرضها من حد الاسكندرية إلى الحوف الذي يتصل بعمارة القلزم نحو ثمانية أيام وأكثر : وهذه الصورة أخاذة وجذابة إلى حد كبير حتى ان التاريخ القديم يبالغ فيها ، ويمدّ العمارة في مخيلة المؤرخين ، ويوصل النيل إلى الفيوم والواحات (٥٢٢) . ويتصور البعض ان مصر لو عمرت كلها لوفت بأعمال الدنيا ، وتحتاج إلى ثمانية وعشرين ألف ألف فدان ، وإنما يعمر منها ألفا ألف فدان (٥٢٣) . ونحن نعرف هذه الثروة ، ونعلم من أين تأتي : فمصر معولة على النيل ، على حد قول المقدسي (٥٢٤) ، أي على الماء . وسواء أراد المصنف أن يتحدث عن نظام الري بالفيضان، أو عن نظام استيفاء الخراج (٥٢٥) فهو يشير على

الدوام إلى المـــاء الذي يهيمن في سياق النص هيمنته في المشهد الطبيعي . لكنه لا يقول كلمة واحدة عن طمي النيل ، بل يذكر تراباً تسد به ترعة قبل زيادته ، فاذا أقبل الماء رده السد وعلا الماء على الجرف ، وعكّر مياه الشرب (٥٢٦) . ولا يتم الحوار بين الأرض والماء (٥٢٧) في وادي النيل ولا في وادي مهران (٥٢٨) الذي يقارن به عادة ؛ بل بين الخضرة والماء من جهة أولى وبين المفازة من جهة ثانية (٥٢٩) على طول مشهد أعرض جداً ، يشمل جميع وادي النيل الخصب . وحتى هنا ، في هذه البلاد ، بتقاليدها ذات المواضيع الواغلة في التقدم ، تختفي التربة وراء الخصب ، ويحجب النبات ، بفضل الماء ، علة حياته . مرة أخرى ، تحلو الأرض في زينتها التي تدل على نعم الله : ففي السجع المقفى الشائع في العربية تجري الأمور كما لو أن الاشارة إلى العامر من الأرض تلصق التربة في بنيتها بالذات (٥٣٠) ، وكما لو أن ذكر الخصب بدقة يحيل ، تلقائياً تقريباً ، إلى الغامر من الأرض .

بداية أبحاث جيولوجية

يتضح من هذه الظروف استحالة القول بوجود أبحاث جيولوجية حقيقية عند الجغرافيين . فماذا يصبح العلم الذي لا يولي الأرض اهتماماً، ما دامت تفيد وتقوم بدور الأم المغذية ؟ وقد يتغاضى أبناء الأرض العاقون عنها ، ويهتمون بثرواتها ، لكنهم لن يستطيعوا عندئذ أن يتطلعوا إلى معرفة واقعها . وتبدو هذه الظاهرة غريبة ، اذ إن بعض المقاطع تبعث على شيء من التفاؤل. فالمسعودي يعلن مثلاً (٥٣١) ان الأرض من أربعة جواهر : الرمل ، والطين ، والاحجار ، والاملاح . لكنه يطرح مبدأ عاماً جداً ، ينص عليه ، في نطاق وصف الأرض الشامل ،

لا في وصف اراضي دار الاسلام محصاة ومحددة المواضع. ويتوقع المرء قبلياً من المقدسي ما يزيد عن الوصف. لأنه يتمسك بالعيان ، ويحصر اهتمامه بدار الاسلام وحدها: فهو يؤكد في مقدمة كتابه أحسن التقاسيم انه ينفرد بذكر « السباخ والصلاب والرمال . والتلال والسهول والجبال ، والحواوير والسماق . والسمين منها والرقاق » (٥٣٢) . ثم يلي مباشرة هذه الوعود الخلابة ، ذكر « معادن السعة والخصب . ومواضع الضيق والجدب » . فهيهات ، كما نرى . أن تكون هذه الجيولوجية كاملة ، أو خالية من قصد الافادة : فالكاتب يفكر مرة أخرى في استثمار الأرض ، عندما يعرض تصنيفه الموجز .

لكننا نتغاضى عن النيات . فقد يردّ علينا ويقال بأن معرفة التربة ، ومعرفة طاقاتها الانتاجية ترتبطان فعلاً ارتباطاً وثيقاً . وان الغايات المحددة للعلم لا تضيرد بالضرورة . بل على النقيض ، تدفعه لأن يجد فيها حجة قوية لاجراء بحث رصين . فما هو الوضع اذن على ضوء النصوص ، لا في أقاويل المصنفين ؟ وكيف يفسر وجود تدوين دقيق عن التربة وتركيبها ومظهرها ، اذا ما ورد ؟ نحن نلاحظ أولاً توفر مجموعة من التدوينات العائدة إلى أراضي عالية التخصص . أقصد بكلامي اولا تركيبها بالذات ، اذ لا تشمل نوعاً عاماً ، كالكلس أو الطين أو الرمل . بل نوعاً محدداً جيداً : كالحجارة الكريمة ، والمعادن ، والملح الطبيعي أو الفلزات أو صخور أخرى معينة بدقة . ثم أقصد الأراضي المتخصصة من ناحية الافادة منها ، لأنها تتكون من جميع الأراضي التي لا تزرع ، بالتالي التي لا تصلح إلا للاستعمالات الصناعية أو الحرفية أو حاجات الزينة. أخيراً متخصصة أيضاً لجهة وجودها في الجبال (٥٣٣) على نطاق واسع ، مثلما قلنا سابقاً .

فيما عدا ذلك ، يغلب جداً ذكر الطين والرمل والملح في المشهد . ولعل اللفظ الأول ، أي الطين ، ورد هنا لأنه يلمح إلى المادة التي جبل منها الانسان (٥٣٥) . في جميع الأحوال ، يشير المقدسي إلى ذلك صراحة مرة واحدة في الحد الأدنى (٥٣٦) . وينتشر اللفظ الثاني ، أي الرمل ، في المفاوز ، وهو العنصر الغالب في مناطق كاملة ؛ كما قلنا ، يتجمع فيها ، ويضاهي تكتله تكتل الجبال أحياناً . وقد يؤلف دهساً ، أو تذروه الرياح (٥٣٧) . أخيراً ، يتوضع الملح في جوف الأرض ذاته أو على سطحها ، فيشكل جبالاً كاملة ، هنا أيضاً ، أو يتوزع على مساحات واسعة (سبخة ، جمعها سباخ) ، فيصير رمز القحط الشامل (٥٣٨) . فيما عدا هذه الصخور الثلاثة الأساسية ، يعثر في النادر على الكلس والجص والرخام والنسفة (٥٣٩) والسمقة ، والحوارة عند المقدسي (٥٤٠) . وتشكل الأراضي الحمرية في باكو وفارس « عيون قار » ، وفي خوزستان « معادن النفط والقار » ، وتشرف الدولة (٥٤١) اشرافاً دقيقاً جداً عليها كلها . أخيراً يذكر الصخر اوالحجارة والحصباء (٥٤٢) .

ونعترف أن حصادنا زهيد . فهل نحظى بما هو أفضل اذا اعتمدنا اللون أو الصلابة أو الشكل ؟ لقد ثبت أن مثل هذا الاحصاء ممل في الواقع وناقص ولا يمت إلى الموضوع بصلة . بالفعل يكاد المرء يظن أن التدوينات ترد صدفة ، ولا ترتكز البتة على مبدأ تصنيف . والسبب بسيط : فورودها كورود التدوينات المتعلقة بالأراضي ، يرتبط بثوابت لا علاقة لها بالجيولوجية ، أتت شذرات متقطعة ، تزعم أنها ترتبط بتصنيف جيولوجي .

فأولاً : ينظر إلى الأرض من زاوية علاقتها باحدى المدن . مثلاً أرض الدامغان في الديلم محصبة ، وهي مالحة في البصرة في العراق وفي الفرما والعريش في مصر ، وكلها سباخ في الأهواز في خوزستان والملتان في السند . وتغطي السباخ والرمال مدينة زرنج عاصمة سجستان — والمدينة في حرة سبخة . وأرض مرو (٥٤٣) سبخة كثيرة الرمال . وأرض برقة حمراء خلوقية التربة . وثياب أهلها أبداً محمرة . ويعرفون في الفسطاط بحمرة ثيابهم وتغبرهم (٥٤٤) . وعلى صيحة من الفسطاط موضع يسمى القرافة ، ترى فيها البلد غبراء والمقابر بيضاء . وقد شابهت نموجكث قصبة بخارى الفسطاط في . . . . سواد الطين (٥٤٥).

وتوحي الاستعمالات الحرفية ، خاصة في البناء ، بكتابة تدوينات أخرى . منها ، مواد القار ، وطين فارس الأبيض الذي يكتب به الصبيان الواحهم ، وطينها الاسود للختم ومواد الدوى ، والحوار الذي يستخدم هنا وهناك لتبييض السقوف والحمامات ، ورخام البناء وكلسه ، وجص كنيس اليهود خارج حلوان في العراق وحجارته ، والسمقة الحمراء الرخوة في اقليم الشام ، والحجارة السوداء الصلبة في أسوار آمد في اقليم الجزيرة ، والحجارة الغليظة السوداء وقيل لا بل حجارة رخوة تضرب إلى البياض في مباني البصرة ، والحجر الاسود في إحدى أقنية المفازة أو في مسجد شهرستان قصبة سابور ، والحجر المخوخ في قنطرة سنجة الشهيرة في اقليم اقور (الجزيرة) (٥٤٦) ، والطين كمادة شائعة في البناء ، الغليظ أو العلك الشديد المقاومة (٥٤٧) . ونحن نسلم بأن هذه التدوينات لا تتعلق بالجيولوجية ، بل بتطبيقاتها . لذلك يقتضي أن تبحث في مجلد مستقل جديد هي وأنشطة البشر ، ونكتفي الآن بأن نلاحظ أن الأرض تتوارى ، هنا أيضاً ، خلف محاصيلها أو استعمالاتها ، ويقل

تواريها عما هو عليه في الريف فعلاً ، لأن المادة التي تتألف منها مذكورة باسمها وموصوفة أحياناً ، إلا أن الذهنية واحدة : فالانسان سبب وغاية كل نظرة إلى الأرض .

ونكرر تعليقاتنا ذاتها فيما يختص بالممارسات الطبية أو الغذائية . فالأحجار التي تخرج من البحيرة المنتنة ، ويعرف الواحد منها بالحجر اليهودي ، يستشفى بعرقها ، ويستعمله أهل الطب لتفتيت الحصى المتولد في الكلي أو المثانة . والمدر ، أو أي طين الأكل ، الأبيض أو الأخضر ، المرغوب فيه بلا ريب ، اذ إنه يحمل إلى مصر والترك . والملح الذي يصدر هو أيضاً ، ويؤخذ من جبال بناحية دارابجرد ، أبيض أو أسود أو أصفر أو أحمر أو أخضر أو من الالوان المتفرعة عنها ، أو يؤخذ من الملاحات الطبيعية (٥٤٨) . وتذكر أحياناً عجائب عن الطين أو نوادر تاريخية أو طبيعية أو سحرية . من ذلك حجر يولّد النار ، أو يطفو فوق الماء ، أو يسبح في الخل كأنه سمكة ، أو حجارة كل من تناول منها حجراً وحركه فكأنما حرّك مقلة نواتها في جوفها ، أو الخرزة التي تجعل في حقو المرأة لئلا تحبل ، والحجر الذي يوضع على حرف التنور فيسقط خبز التنور كله ، أو الحجارة السوداء المتقاربة في الكبر في ديار قوم لوط ، وعلى جميع تلك الحجارة كالطابع من وجهيها ، وهي الحجارة المسوّمة التي رمى بها قوم لوط . كذلك مساحات شاسعة من الرمل ، « فيها أشياء عجيبة » ، أو أرض القيامة البيضاء (٥٤٩) في موضع الساهرة في بيت المقدس . ولنقف هنا : فقد مزّقت التربة ، وجزّأت ، وكاد أصلها ينسى ، ولم تعد سوى شيء تابع من أشياء كثيرة في عنبر العجائب الكبير ، الذي سوف نفتحه فيما بعد في حديثنا عن البشر أصحابه.

أخيراً تصبح الأرض سمة أحد المسالك ، ومعلما يشار إليه ليتأكد المسافر من طريقه عندما يجتاز الصحراء بالدرجة الأولى طبعاً . وأشكال هذه الصخور أو الحجارة غريبة ، تشبه اللوز ، أو التفاح أو الاجاص ، أو الأشجار ، أو أطيافاً بشرية ، أو حتى ثديي امرأة ، ولونها أحمر أو أسود أو أصفر في الجبال والمعارج ، أو رمال متجمعة دهسة ، أو على النقيض تصلح للتفتيش عن المياه ، ومنها الرمل الأصفر والأحمر القانىء والأزرق السماوي ، والأسود الحالك ، والأكحل المشبع كالنيل ، والأبيض كالثلج . وبعضه يحكي الغبار نعمة ، وبعضه خشن ، جريش اللمس أحرش ، بألوان الرمل السوداء أو البيضاء أو الخضراء بلا نقصان مثلما يشاهد في التصوية (٥٥٠) . لكن لم تعد الأرض معروضة لنا ، بل طريق بوسيه الصغير .

وتؤيد رؤية الأرض - في الريف أو سواه ، اذا اقتضى الأمر ، ما أصبح كلاماً معاداً في دراستنا ، نعني أن هذه الجغرافية بشرية بالدرجة الأولى ، صنعها البشر أنفسهم لأنفسهم ، وانها لا تتناول الوسط الطبيعي ، عندما تبحثه . إلا من خلال ما نخصصه له من أوجه استثمار ، في حرصنا على تأمين غذائنا ، ومسكننا ، ولباسنا ، والعناية بأنفسنا ، وزينتنا ، واتجاهنا وحتّى تسليتنا . وربما قيل بأن ذلك ينصب على تركيب الأرض أو على بنيتها أو شكل صخورها . لكن ماذا يحدث لو انتقلنا إلى معطيات أعم ، مثل أشكال المشاهد هذه المرة ؟ فقد سبق واستعرضنا أوسع هذه المشاهد : نعني الجبال والسهول ، والمفاوز والأرياف ، ورأينا مدى اعمار الانسان لها ووجود الله فيها . بقي ان نستعرض حيزاً متوسطاً يقع بين هذه الأشكال الرئيسة وبين تفاصيل تضاريس الأرض : فمن يدري أن الجيولوجية مستبعدة تماماً عنه ؟

والجواب واضح : يعيب التدوينات هنا عجزها عن تكوين علم مستقل ومتكامل معاً ، أو ، وهذا أصح ، ان هذه النواحي خارجة عن موضوع لها . وفي جميع الاحوال ، لا يمكن ، لا هنا ولا في دراسة الترب بالمعنى الضيق ، وضع احصاء شامل ودقيق ، على مستوى الجيولوجية. والسبب الأول النقص في استقلال البحث ، لأن دراسة هيئة الأماكن وتضاريسها لا تحيل أحياناً إلى المجموعات ، بل إلى وحدات جغرافية لها أسماء اعلام ، فتتلاشى الطوبوغرافية ما وراء تعدادها . فتعريف سراة (جمعها سروات) الجبل وغيرها ، يعدّ في الواقع موضوعاً أدبياً ، يرتبط بالمعارف التقليدية عن جزيرة العرب ، أو يقصد به على العموم الظهرة الساحلية في الحجاز واليمن ، أو كل جزء من أجزاء هذه السلسلة ، الذي يسمى باسم القبيلة أو المدينة التابع لها (٥٥١) . ونجد ، التي نؤديها بهضبة في اللغة الفرنسية ، لا تنسينا أبـداً أنها منطقة في جزيرة العرب أولا . ويذكر ابن حوقل الأراضي العالية في اذربيجان مثلاً ، فيتحدث عن الجبال والمنخفضات والسهول دون الهضاب (٥٥٢) . . . والغور ما بين جبلين غائر في الأرض جداً وبه . . . . عيون وأنهار (٥٥٣) وهو بالدرجة الأولى انهدام البحيرة المنتنة الكبير . ويستعمل مفرداً أو جمعاً (غور واغوار) ليدل على الأودية العميقة في هذه الشبكة المائية، وقد أصبح علماً من أعلام المناطق في اقليم الشام (٥٥٤) . ويرى المسعودي أن قسماً من الجبل تحت البحر يسمى في البحر الرومي سفالة ، فيمكن بالتالي اطلاق هذه التسمية على السلاسل الجبلية المغمورة بالبحر والواقعة بين جزيرة العرب ومكران ، أو بين قبرص والأناضول . إلا أن هذا الاسم يشعر بوجود سفالتين أشهر من الأولى ، وهما مدينتان متقابلتان في افريقية الشرقية والهند (٥٥٥) . ويرجح أن البطيحة (جمعها بطائح)

تدل عامـــة على أرض واسعة برمائيـــة ، إلا أن الجغرافيين يعنون بها اولا بطيحة سواد العراق ، واليها يحيلون عنــدما يذكرون مناطق أخرى من هذا النوع (٥٥٦) .

وفي التدوينات نقص آخر ، اذ لا تنظر رؤية المشهد إلى ارض مستقلة ، بل مقترنة بالعناصر الثلاثة الأخرى ، أي الهواء والنار ، كما في حالة السراة (٥٥٧) وخاصة الماء . وينطبق هذا القول على لفظي سفالة وبطيحة وعلى ألفاظ أخرى كثيرة نشير منها إلى ألفاظ معروفة مشتقة من جذر شعب . وقد ذكرناها من قبل (٥٥٨) على أنها ألفاظ خاصة بالجبل ، ويمكن أن تحيل « مشتقاتها » إلى التضاريس الشاهقة أو المقعرة : سلاسل أو أودية ، عميقة في أغلب الأحيان . لكن يظهر عنصر الماء بقوة من سهل متيجة إلى نهر جيحون : أي ماء أذرع أحد الأنهار والأقنية المتفرعة منه (٥٥٩) ، أو على النقيض ، ماء أنهار تترافد (٥٦٠) أو أيضاً أقنية مسحوبة من إحدى البحيرات (٥٦١) . في النهاية ، يبدو أن جذر شعب ، شأنه شأن مدلوله ، يعني تفرعات المسلك ، ومتاهات السوق ، وتقطع حدود أحد البلدان (٥٦٢) .

وتمزج الطوبوغرافية الانسان والمشهد مزجاً متشابكاً في حالات أخرى ، وكنا قد لحظنا وجوده في بحث المياه المسيطر عليها بالأقنية. ولكن سواء وجد الماء أو لم يوجد ، فالمقدسي يستعمل جذر « رحب » الذي يدل على مكان واسع ، أو الاصح ، سالك وسهل . ويقصد به هنا تارة أرضاً فسيحة جداً ، كالتي يدل عليها اقليم الرحاب ، ويضم ايران واذربيجان وارمينية ، وطوراً الأراضي المحيطة باحدى المدن ، واحياناً فناء الدار أو ساحة المسجد . في جميع الأحوال ، يشعر الباحث

دوماً ان وراء استعمال هذه الالفاظ ، ان الانسان اضاف سهولة الحياة الى اتساع الوسط الطبيعي وأن الطريق بين الواسع والسعة ليست طويلة(٥٦٣). ويندرج لفظ بقعة في نطاق ذهنية مماثلة ،اذا أخذ بأدق معانيه (٥٦٤) ، لكنه بالغ التنوع مثل لفظ «باغوس» القديم عند الفرنسيين . فنحن هنا أمام « بلد » تعين حدوده الجغرافية بدقة ، خاصة في بطون الأرض ، بالنسبة إلى الجبل المجاور ، ويمتد أحياناً على مسيرة يوم أو يومين ، وهو فائق الخصب (٥٦٥) . ويعد هذا المشهد النموذجي جداً ، مشهد الجزيرة أيضاً : لا الجزيرة المائية ، على الاقل ليس دوماً ، بل الأرض المعزولة تماماً أولا بالبحر ، كما في جزيرة العرب ، أو الواقعة بين نهرين . مثل الجزيرة الأخرى ، أي اقليم الجزيرة ، أو في انعطاف أحد الأنهار مثل جزيرة ابن عمرو على نهر دجلة (٥٦٦) ، أو أخيراً بالمفازة كما في قول ابن حوقل « جزيرة اوجلة » و « جزيرة ودان » في شمال صحراء ليبيا ، ليدل على ما نسميه نحن واحة اوجلة وواحة ودان (٥٦٧) .

ويظن أحياناً أن الألفاظ غنية جداً بالنسبة إلى المفهوم . ولا شك أن الألفاظ المترادفة تماماًغير موجودة لا في اللغة العربية ولا في سواها . مع ذلك لابد أن نسلم أن النصوص الجغرافية لا تسمح في الغالب بتحديد الفرق بين المترادفين . فالبطيحة في السهول المرزغية مثلا ، محدودة الاتساع جغرافياً كما رأينا . فماذا نقول عن الغيضة التي يقترب معناها صراحة من معنى البطيحة (٥٦٨) وعن المرج الذي نؤديه بالفرنسية في أغلب الاحيان « بمرعى » (٥٦٩) أو لنقل بسهل غني بالماء كالمتيجة(٥٧٠) وعن غمر ، أي أرض « غارقة » في الماء ، وعن نز أي أرض يتحلب منها الماء (٥٧١) ؟ وفي الاقسام الشاهقة من الجبال ، كيف نميز الظهرة والسراة في جزيرة العرب — ان لم يعتمد تفريقنا مرة أخرى على أسماء

العلم — وبين « سنام » إحدى الكتل الجبلية الأخرى (٥٧٢) ؟ أخيراً . لكي ننهي هذه الامثلة ، ما هو التعريف الحقيقي لتقعير الأرض بين الألفاظ الكثيرة المعروضة علينا : أهو بطن ، أي المنخفض عامة باحجامه المتبدلة إلى أقصى حد (٥٧٣) . أم العمق الذي يعد مرجاً محاطاً بالجبال (٥٧٤) ، أم دارة وبحرة ، أي كل ارض اتسعت فأحاطت بها الجبال في غلظ أو سهولة (٥٧٥) أم وهدة التي تلح فيما يبدو على وضوح المنخفض (٥٧٦) أو أخيراً الوعر في نطاق جبلي باذخ (٥٧٧).

قلنا إن الألفاظ اللغوية وافرة جداً . على النقيض ، لدينا لفظ واحد في الحد الأدنى وهو من أهم الألفاظ ، لكنه لا يدل دوماً بدقة فيما يظهر على واقع . فالسفح أسفل الجبل ، إلا أن النصوص الجغرافية لا تسمح دوماً أن نعرف ، خاصة اذا تعلق الأمر بموقع إحدى المدن ، إذا كان الجبل يبدأ بالسفح أم ينتهي به ، اذا كان المقصود المنحدرات الأولى أو على النقيض ، الأرض المجاورة ، أو السهلة التي تشرف عليها (٥٧٨) . وندرك سبب صعوبة التدقيق الذي لايترخاه الجغرافيون أصلاً . وسواء تحدثنا عن المنحدرات الأولى أم لا ، فالأمر يتعلق دوماً بسعة الجبل ، وبتبعيته (٥٧٩) ، ونعرف مكانه لكي لا نعجب في هذه الحالة لهذه الامبريالية الجغرافية .

بقي أن نستعرض لفظ « الوادي » في لائحة الالفاظ الدالة على أشكال تضاريس متوسطة . لكن لابد من تحديد الوادي المقصود . ففكرة المنخفض البسيط تفرض نفسها في حالات كثيرة ، ويغلب في الحقيقة المنخفض الفسيح ، المتطاول ، مثلما يستخلص من اطلاق هذا الاسم على وادي القرى ووادي تهامة في جزيرة العرب ، وعلى الانهدام

الكبير لنهر الأردن والبحيرة المنتنة ، وعلى منطقة وادي دراعة في المغرب الأقصى . وقد أوضحنا من قبل الفرق بين الوادي والشعب الذي يحتمل ألا يكون سوى تضييق محلي في « واد » يذكر ذكراً عابراً أنه يتميز بتسهيل طرق المواصلات (٥٨٠) . وماذا عن الماء ؟ ليس وجوده حتمياً ، ويشار هنا وهناك إلى واد يابس وقاس (٥٨١). واذا مُطِرَ الوادي قليلا ، صار في الجغرافية مسيلا لفترة هطل المطر (٥٨٢) التي تكفي في جميع الأحوال لتنفذ في الأرض ، وتغذي الآبار والعيون وتسقي الزروع (٥٨٣). أخيراً نجد أنفسنا أمام ترافق الوادي والمياه الجارية : فعلى الحد ، يبدو الوادي أحياناً وكأنه مجرى الماء بالذات (٥٨٤) . في الواقع ، لا ينسى أبداً معنى الوادي الأول ، أي كونه أحد أشكال الأرض : فصيغ « وادي تجتمع فيه المياه » و « وادي عميق يجري فيه نهران » ، تذكرنا ، بوضوح (٥٨٥) بأن الوادي يظل اطاراً طبيعياً ، حتى عندما يجري الماء فيه ، ويبقى فاعل الحركة الوادي نفسه في الصيغة النحوية . وينبغي أن نقول في الترجمة الحرفية لا « نهر يجري » بل « وادي يجري بين الجنان » و « وادي لا يجري إلا بالأمطار » ، و « وادي يجري مالحاً» وأخيراً « وادي جرار » ، إلى جانب « نهر جرار » (٥٨٦) ، وهو تعبير متوقع استعماله اندر .

خلاصة القول ان سمات الوادي تتوضح على ضوء الفروق التي تميزه عن أشكال المشاهد الطبيعية الاخرى من ناحيتين . ففيما يختص بالتضريس ، لا يرتبط الوادي حتماً بالاطار الجبلي مثل الشعب . ويستمد تعريفه من شكله بالذات أي من امتداد لا يعني اختناقاً ، خلافاً للشعب هنا أيضاً . ولا يرتبط الوادي حتماً بالماء . فاذا كان الماء الراكد لا يتفق مع تعريفه ، ويعزله عن كل ما يمكن أن يشبه المستنقع (٥٨٨) فالمياه

الدائمة على النقيض . وحتى المياه المتواترة ، ليست ضرورية لتعريفه الذي يمكن حصره في النهاية ، من هذه الزاوية ، في المياه الجارية ، شريطة أن يقال بأن هذه المياه قد تكون وقتية . وحتى استثنائية ومحتملة الوجود . واذا كان لابد من ايجاد صيغة لكل قوة ، فالوادي تضريس تلقي جريان متوقع .

ولعل الوادي وحده من بين جميع المشاهد التي عددناها . يبرز بروزاً كافياً . يجعله تضريساً حقيقياً إلى جانب الجبل والصحراء والريف . مع ذلك يجب أن نلاحظ أن مفهوم التضريس في رأي عالم الجيولوجية ، تعرض إلى « تمويه » عظيم قام به لا الماء عامل الحت ، بل الماء الذي يحتمل أن يدعم المزروعات والحياة . وقد رأينا أصلاً أن الريف ، وهو شكل من السهول تستثمره البشر ، يقتضي من الباحث إجراء تحفظات مماثلة . كذلك المفازة بخلفيات أفكار الاعمار والمواصلات التي تكاد لا تختفي وراء الاشارة اليها . كذلك أخيراً الجبل ذاته متى تسنت الاستعاضة عن وصف أشكاله بوصف البشر المستفيدين من موارده. اذن في الختام ، لا يسعنا أن نتحدث الا عن بداية جيولوجية ، ونقول إنها لم تنشأ عن رؤية ضيقة ، بل عن نظرة واسعة جداً ارتبطت بغنى الألفاظ اللغوية ، أو في أغلب الأحيان بأهداف بشرية تجاوزت الجيولوجية وجرفتها في دوامة أفق عريض يجول فيه نظر يتوق لمشاهدة الحياة .

حياة الأرض

تساءلنا في مكان آخر عن حياة الأرض وشبابها وموتها وبعثها (٥٨٨) والواقع أن فكرة عظيمة هيمنت على عالم العام ألف ، نفت وجود انقطاع في شتى ممالك الطبيعة ، وأكدت أن الحياة ليست وقفاً على النبات

والحيوان (٥٨٩) . فالأرض تنبت الذهب (٥٩٠) مثلاً . وكذلك المعادن ، وزايدتها أول الشهر في جواهرها وحسن بصيصها وصفائها (٥٩١) . ولم تفتأ الأرض تتغير منذ نشأت . ونرى أنها حية لأنها تكونت في زمن معين . ويذكر الجاحظ في كتاب الحيوان (٥٩٢) ان الصخور كانت لينة في أرض آدم الحديثة ، واثرت فيها أقدام الناس في ذلك الزمان . ويطرح الجاحظ اياه في كتاب التربيع والتدوير (٥٩٣) الاسئلة التي تدور في أذهان أصحاب الفضول العلمي . فهل كانت جميع الأشياء لينة في البدء ؟ ومن أين أتت الجبال والمياه والأودية وما هو ترتيب ظهورها ؟ وفي أي بحر تشكل الطين الذي نراه في أماكن شتى ، في الوهاد وعلى رؤوس الجبال ؟

ولايعد هذا التساؤل شكلياً محضاً . فقد كرّرته الجغرافية العربية في أبحاث أخرى ، في حديثها عن عالمها الخاص ، في نطاق مميز وفريد هو نطاق مملكة الاسلام . . هذا ما ذهب اليه ابن الفقيه في مقطعه التالي عن مصر (٥٩٤) : « أقول انه قد يكون البحر في موضع من المواضع ، ثم ينضب الماء عنه ، حتى يصير أرضاً يابسة . ثم يعود بحراً . والعلة في ذلك أن قرار الأرض يشبه اجسام الحيوانات والنبات ، وان لها نهاية وغاية ، بمنزلة الشباب والهرم ، ينقص ويزيد . فاذا قربته الشمس حيناً طويلاً ، حللته ، فارتفع ، وجفّ ذلك الموضع . فاذا بعدت الشمس عنه ، رطب ذلك الموضع وندي ، واجتمعت فيه المياه من الندى والأمطار . ذكروا أن أرض مصر كانت بحراً ، وكذلك جميع الأرض عليها . فنضب ذلك الماء قليلاً ، فجفت تلك المواضع في مدة من الزمان ، فظهر اليبس ، وغرس فيه الأشجار ، وزرع فيه الزرع » .

اذن يتابع البشر تاريخ الأرض الأزلي، لكن لا تبصر اعينهم منه الا اغرب الجوانب وأخطر المراحل ، أي بايجاز الظاهرات العنيفة أو القصيرة الأمد التي يلحظونها بادراكهم الحسي دفعة واحدة ، وفي غضون جيل واحد ، أو ، في أفضل الاحتمالات ، في أثناء بضعة أجيال تتناقل ذكراها . وفيما عدا هذه الحالات ، يعجزون عن تقدير عمر الأرض وتحديد تناوب أحداثها ، وتتوقف معرفتهما على مشيئة الله وعلمه ، اللذين يتصورهما حدس الفلاسفة تصوراً بعيداً عن واقعهما.

وتدل انخسافات الأرض على حياتها الخفية تحت أقدام البشر . ويذكر أبو دلف مسعر بعضها في خوارزم . فعندما وصل إلى نيسابور ، بلغه أن احدى الكور التي مرّ بها توارت في الأرض . فعاد أدراجه ، فرآها « عائرة على عمق مائة قامة ونيف ، والماء ينحدر عليها من كل صوب » (٥٩٦) .

ولم يبق الا اجتياز خطوة واحدة لربط هذه الظاهرة بزلزلة الأرض. فسجع المقدسي لا يفصل اضطراب الأرض عن اضطراب البشر ، إذ يرى أن اقليم الجبال خسف وزلزلة وجسور سلطان وبلبلة . ويشير إلى الكوارث التي هدمت كنيسة الرها والمسجد الأقصى في بيت المقدس (٥٩٨) ، وسيراف التي يقول عنها : جاءت زلزلة سنة ٦٦ أو ٦٧ هـ ، فقلقلتها ، وحركتها سبعة أيام حتى هرب الناس إلى البحر . وتهدمت أكثر دورها المبنية من خشب الساج والآجر ، وتفطرت. وسألهم المقدسي عن الذي صنعوه حتى رفع الله حلمه عنهم ، فقالوا كثر فينا الزنا ، وفشا فينا الربا . فقال لهم « فهل اعتبرتم بما أرى ، قالوا لا » (٥٩٩) .

مع ذلك، تعد أقوى زلزلة تلك التي ضربت بلاد مصر وكثيراً من بلاد الشام والمغرب ، وهدمت أعالي منارة الاسكندرية : وقد وردت أخبارها على المسعودي ، وهو بفسطاط مصر . فقال بدقة أنها أقامت نحو نصف ساعة زمانية ، وذلك النصف من يوم السبت لثماني عشرة ليلة خلت من شهر رمضان سنة ٣٤٤ هـ . وهو اليوم الخامس من كانون الآخر من شهور السريانيين عام ٩٥٦م (٦٠٠) . ثم ذكر أنه دخل « أكثر المواضع المشهورة بكثرة الزلازل وعظمها » (٦٠١) ، مثل ثغور الشام والأناضول ، وثغور فارس والعراق ، وأنحاء بحر الخزر الجنوبية ، وسواحل الخليج الشمالية ، وأخيراً خراسان وآسية الوسطى . ويبدو أن المسعودي عرف جانباً كبيراً من المنطقة « عبر الاسيوية» على حد وصف علماء الزلازل لها . من جهة أخرى، وصف وصفاً جيداً موجة الهزة ، وتحدث عن زلازل متواترة ، كان مبدأها ، أي مركزها السطحي في اصطلاحنا ، في بلاد الصين ، إلى أن اتصلت ببلاد فرغانة وبلاد خراسان . ودون في عداد المعطيات النتائج الفاجعة على حياة البشر كما حصل في زلزال خراسان : « فهذه البلاد هلك فيها خلق كثير من الناس فمنها ما صار موضعها آجاما ومياها سودا منتنة ، ومنها ما صارت كالرماد لانقلابها في سفوح جبال شاهقة منيعة » . وكان التهديم في زلزلة بلاد مصر قليلاً ، مع ذلك أثر تأثيراً بالغا في نفس المسعودي ، وقال عنه : لم أر أعظم أمراً من هذه الزلزلة ، ولا أطول مكثاً . ذلك أني تبينت تحت الأرض كالشيء العظيم يحاكيها ، ماراً تحتها ، وهازاً ومحركاً لها ، كأنه أعظم منها، وكأنها كالنائية عنه. مع دوي عظيم في الجو » .

ويندر جداً أن تبدي الزلزلة وجهاً ساراً . ويروي قدامة بن جعفر (٦٠٢) ان سنة الزلزلة بخراسان في نواحي مرو وطخارستان ،

كانت سنة ٢٠٣ هـ / ٨١٨ م ، وقد تفجرت منها عين السادرة ، وصارت عيناً كبيرة، وجرى ماؤها في البرية ، وهي مفازة تتصل بمرو وآمل . لكن اذا اسثنينا هذا التفجر السعيد ، نتصور أن الأرض لا تهز إلا شؤماً على البشر . وهي تتحرك آلياً متأثرة بالأبخرة التي تمتصها ، وتضغطها مدة طويلة ، فتتفجر تبعاً لكتلة الغازات ولطبيعة الأرض ، ولا يحصل شيء إلا بمشيئة الله لإظهار غضبه عند اللزوم كما حدث في سيراف (٦٠٣) .

وتتجلى حياة الأرض الداخلية أيضاً في الظاهرات المغناطيسية . فقد ذكرنا من قبل جبال الشرق الأقصى . وابنا أن الفرسان لا ينتعلون دوابهم حديداً عند ساوكها ، ولا يكون في سروجهم حديد ، وركبهم ولجم خيلهم خشب ، كذلك لا مسير لمركب فيه حديد في ماء قريب منها لئلا تجذبه (٦٠٤) . ويتأمل ابن الفقيه (٦٠٥) في الجزيرة ، ويزعم أن فيها جبلاً فيه صدع ، من انتضى سيفه ، أولجه فيه ، ثم قبض على قبيعته بجميع يديه ، اضطرب السيف في يديه ، وارتعد هو ، ولو كان أشد الناس . ولو بقي السيف مائه سنة ، لبقيت تلك القوة قائمة فيه . وهذه القوة عجيبة . ويوضح ابن الفقيه ان الحجر بعينه لا يجذب الحديد، فان حك عليه سكين أو حد به ، جذب الحديد . بتعبير آخر ، لا تحدث الأرض هذه القوة العجيبة ، ولو كانت تحويها أو تنقلها . ولا ينحصر المغناطيس في عنصر واحد في الحقيقة ، فالماء يعرفه أيضاً ، يشهد على ذلك السمك الرعاد الذي يحدثنا عنه ابن الفقيه ذاته . ويقتضي فهم الظاهرات المغناطيسية اطلاعاً يتجاوز الجغرافية ، ويتطلب الالمام بجملة معارف : بل بكل المعارف على الارجح (٦٠٦) .

ولا يشك أحد أبداً بأن الأرض عنصر أساسي في النظام المغناطيسي. فمبدأ « الدخول في الكتلة » واضح من ارتعاد السيف أو انتفاض يد الصياد ، الذي يقول ابن الفقيه عنه بأن « يده ترتعد وتنتفض ما دام الرعاد في شبكته وشصه » . الا أن القوة المغناطيسية لا ترتبط بالأرض وحدها — فنحن نعرف ظاهراتها ونجهل طبيعتها — وتتفق في النهاية مع نظرية العناصر ونظرية الحواس . فالماء بارد كالأرض ، ورطب وليس جافاً ، ويتدخل ليحوي تلك القوة ، مثلما رأينا ، أو ليقضي عليها : ولو سقي المغناطيس أو حك عليه الثوم ، لما جذب الحديد (٦٠٧) ، وإذا غطس في الخل أو العسل عادت إليه جاذبيته . ونقف عند هذا الحد . فالزلزلة تثبت وجود حياة خاصة بالارض . أما المغناطيس فلا علاقة له بها ، أو بالأحرى ، مثلما قلنا ، يتجاوزها ، ويدرجها في الجاذبية الكونية (٦٠٨) بدورتها المجهولة التي لا نهاية لها .

تلازم الأرض والجواهر الأخرى : من البركان إلى المياه الجوفية

يعثر في بلدان دار الاسلام على حالات متنوعة من تلازم الأرض والجواهر الأخرى ، لا يفوت الجغرافيون أن يلحظوها . وينشأ هذا الترافق عن تجاور بسيط يقوم بينها ، كما يحصل في وضع الابخرة في باطن الأرض ، واستطالة قلل الجبال في السماء حتى تكاد تصل إلى الأثير ، وهبوب الرياح على وجه اليابسة أو الماء ، وازدواج المشاهد الطبيعية البرمائية ، وطفو الحجارة فوق الماء أو احتوائها النار ، وكلها حالات أشرنا إليها في سياق أبحاثنا ، ولن نعود إليها (٦٠٩) . مع ذلك ، يستوقف النظر نوع من الحلول الحقيقي أحياناً . فالمسعودي يقول (٦١٠) : « وجوفها — يعني الأرض — أطباق يتخرق فيها الهواء ، ويجول فيها

الماء ، موصلا لها كمواصلة الدم للجسد . فما غلب عليه الهواء من الماء كان عذباً شروباً . وما امتنع الهواء من التمكن منه ، وغلبت عليه أملاح الأرض وسبخها ، صار ملحاً اجاجاً . وإن كون مياه العيون والأنهار في الأرضين كالعروق في البدن . وهكذا نرى ان الحلول يتجلى في هذه الحالة على وجه التخصيص . من خلال الاستعارة الجسدية : في تلازم الأرض والماء . والواقع ان اجتماع الأرض والبيئة والماء الآسن . يرد في النصوص الجغرافية (٦١١) كما يشاء الجغرافيون . وتضفي الأرض أحياناً على الماء صلابتها فيما يبدو . والشاهد على هذه الظاهرة مقطع عند المقدسي (٦١٢) ، يبدو ان القسم الاخير منه يشير إلى الصواعد حيث يقول : « بقاشان ماء يسقي الزروع ، ثم يعود حجارة ، وبقهستان.. كهف يقطر منه ماء ، ثم يعود حجراً » .

ويقلد الهواء (الجو) الأرض في بعض الاحيان النادرة ، ويرسل بعض النيازك الصلبة . فباردبيل حجر كبير ، لو ضربت عليه المرازب ما عملت فيه ، وقع من السماء على مسافة من هذا البلد ، ثم حمل إلى الجامع (٦١٣) . مع ذلك ، تهيمن النار هيمنة محكمة في جميع تلك الحالات التي تتوق فيها الأرض إلى ملازمة سائر الجواهر ، كما يتضح من حالة بخار النوشاذر في جبال البتم (٦١٤) . وفي أراضي القير ومنابع القطران اللزج ، التي يخرج منها دخان يتعالى كثيراً ، لو طار عليه طائر لسقط واحترق (٦١٥) فوراً .

وتسود النار خاصة في براكين متقدة أو لم يمض زمن طويل على خمودها ، فبقيت ذكراها حية في أذهان البشر ، منها براكين أرض الغرباء من المغرب إلى افريقيـــة ، في جبل القبق أو جزائر الزابج (٦١٦)

ويضاف اليها دنباوند (٦١٧) ، وبراكين جزيرة العرب الوسطى والجنوبية (٦١٨) ، وبركان على حدود فارس وخوزستان (٦١٩) ، وآخر في غرب اقليم الجبال (٦٢٠) ، وأخيراً بركان اتنا ، المعروف بـ« البركان » على العلمية، وحده أو مع البراكين المجاورة له ، أي سترومبلي قطعاً ، وربما أيضاً الفيزوف أو إحدى الفوهات في جزيرة فولكانو في ارخبيل ليباري (٦٢١) .

ويعبر لفظ بركان ، فيما يبدو ، اذا التزمنا بعرض الحقيقة ، عن مجمل الظاهرات البركانية . ولا يقصد به جبلاً بركانياً بالذات دون سواه ، انما هو وغيره ، والابخرة والينابيع الحارة والكبريتية ، وما يسترعي الانتباه إلى توقّد جوف الأرض (٦٢٢) . وتشاهد أولاً النار التي يستضاء بنورها ، مستمراً أو متقطعاً ، بحراً أو جواً ، على مسافة عشرين وأربعين فرسخاً ، وأحياناً مائة فرسخ . ويرى لهبها ودخانها أيضاً ، وتقذف من جوفها جمراً من الحجارة ، ويسمع صوتها كالرعد ، وتخرج من اليم جزيرة كاملة ثم تعيدها إلى قعر الماء . ويذوب الثلج في هذا الاتون المستعر ، ويتحول إلى بخار ، في حين ينبعث الماء من أعماق الأرض باندفاع شديد جداً ، حتى يقوم توازن بينه وبين النار . ثم تختلج الأرض وتتقبض بنيتها أو تنبسط ، وتتمثل هذه الظاهرة في «النار الجارية » (٦٢٣) ، وأجيج اللابات أو تناثر غبارها ، والرماد المذرى ، والقير ، والكبريت الساخن بتأثير حرارة جوف الأرض أو قيظ الشمس ، والحجر الأبيض الخفيف الذي يسقط في البحر ، ويطفو على وجه الماء إلى أماكن بعيدة .

وتفوق ظاهرة البركان سائر الظاهرات ، وبها تقيم الأرض حواراً مع الجواهر الثلاثة الاخرى مجتمعة ، أو تتحد بالنار ،أحد تلك العناصر .

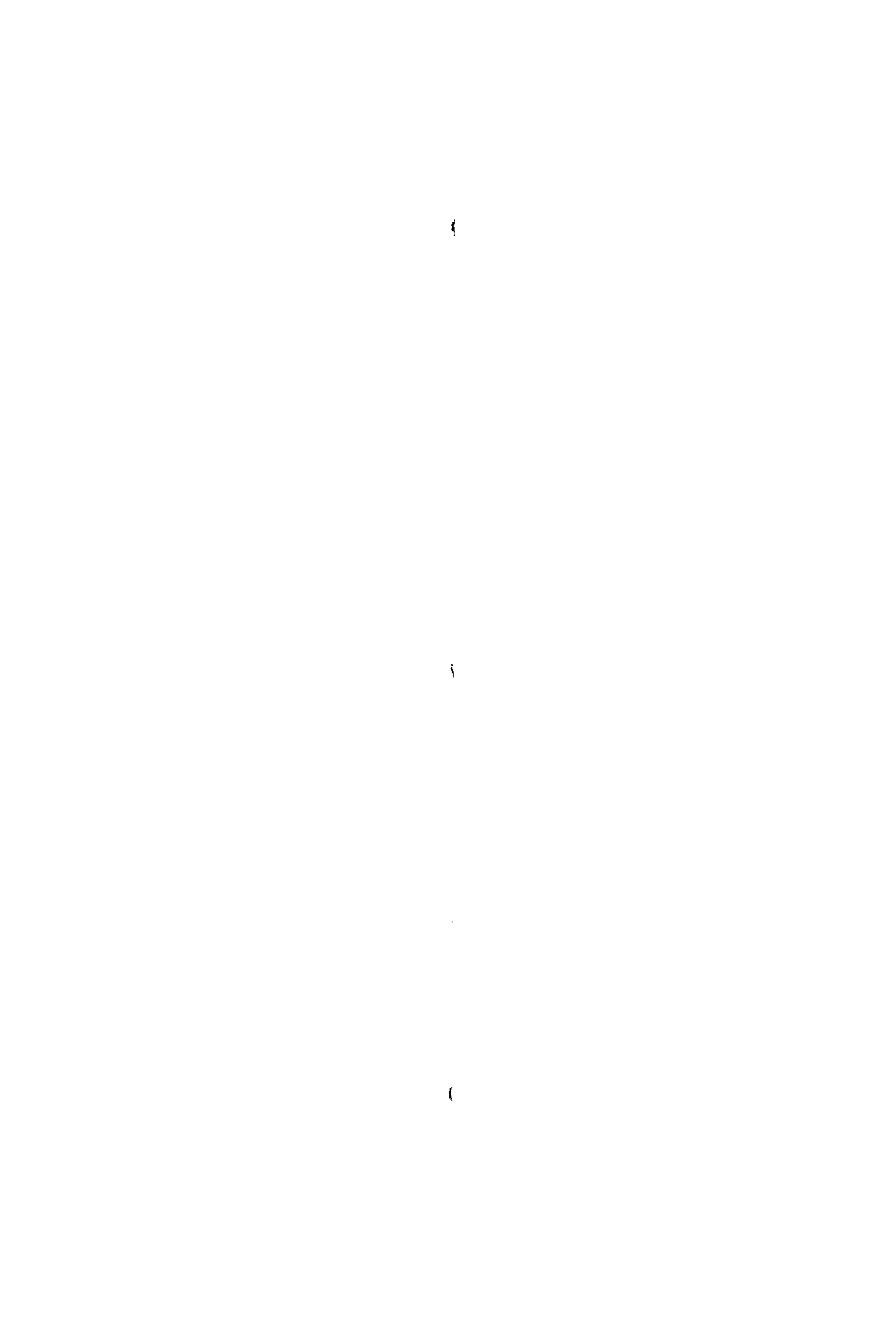
وهذه الحالة استثنائية ، قد لا تدخل في بحث الجغرافية بالمعنى الدقيق ، بل في أدب العجائب . ويعدّ مشهد البركان هامشياً ومحيّراً ، ولا يمثل شكلاً من الأشكال الأرضية الاساسية في العالم ، بل يدل على اقتحام النظام الأرضي من قبـــل مجموعة من القوى ، تفرض نفسها ، ولابد من التعرف على آثارهـــا . ويدرك البشر سيرورات البراكين جيـــداً ، ولا يلمون بسيرورات المغناطيسية ، مثلاً ، بالقدر ذاته . ولا يعتبر أصل البراكين أوضح من أصل المغناطيسية فالبراكين والمغناطيسية والهزات تصل أرض البشر بأرض لا يعرفها إلا باريها وحده . من جهة أخرى ، لا نتناول نحن بالبحث سوى قشرة الأرض . ونأخذ ما يصيبها من تشقق وتشنج وموجات تآلف وتنافر ، فنشعر أن هذه القشرة غطاء بسيط يخفي تحته حياة دفينة ، ترتبط بالظاهرات الكونية وبالتالي لا يسيطر عليها .

ولا ينكشف جوف الأرض إلا في فترات متباعدة . ويعرف الجغرافيون الكهوف والهوايا بلا ريب . ويتحدثون أحياناً عن استكشافها على ضوء المشاعل والأساطير أيضاً . وكانت بداية علم المغاور مترددة عند العرب وفي الغرب . وأذكر مثلاً ما قيل عن أن بحلوان قرب الفسطاط ، « مغاور عجيبة منكرة » يتيه فيها الانسان ، وان فيها طريقاً إلى القلزم أملس كأنما أجرى عليها الماء المالح (٦٢٤) . ثم ان الاسطورة لا تتناول الطبيعة وحدها ، بل تتعداها في أغلب الأحيان ، وتجمع جوف الأرض والتاريخ الديني أو الملكي مع النبي هود ، وهارون ، وموسى ، وسليمان ، والاسكندر ، وأهل الكهف ، ومحمد (٦٢٥) . وأشهر كهف في فارس ، كهف تهب فيه ريح عاتية ، ويقوم فيه تمثال سابور قرب جرن يقطر الماء من سقف الكهف (٦٢٦) .

فالماء هنا وفي الامكنة الاخرى ، وفي جميع المحال . يفرضه جوف الأرض . سواء جرى قديماً (٦٢٧) ، أو تقطر قطرة قطرة (٦٢٨)، وبخاصة الجدول ، وحتى النهر ، اللذين يتفجران زاخرين من باطن الأرض ، ويخرجان من «آبار لا يعرف قرار لها» ، أو من قعر أحواض فسيحة (٦٢٩) . ويأتي في أعلى المراتب نهر الأردن في بانياس (٦٣٠) ، ونبعه يعرف بالفيجة في وادي نهر بردى صعداً عن دمشق (٦٣١)، والخابور ، رافد الفرات (٦٣٢) . وأخيراً نهر دجلة الذي يخرج ماؤه أخضر من كهف الظلمات التي دخلها ذو القرنين ، وحرص مسلمة بن عبد الملك على دخولها، واشعل المشاعل والشموع . فانطفات ورجع (٦٣٣) .

أما الآن ، فقد حان لنا أن نتقصى مع الجغرافيين هذا الماء العجيب، دم الأرض وبهجة البشر ، وان نصفه ونتذوقه .

* * *



الفصل الثاني

الماء على الأرض

يا أرض
يا مفتقة رتقتها الأنهار
غليوم ابوابنير

« اقطع قطعاً ان الطبيعة جمعاء كانت ماءاً في البدء، وان كل شيء نشأ من الماء،وان الماء سوف يقضي على كل شيء » . وسواء كان الماء أصل الأشياء أو نهايتها ، أو الماء الملكي في الكيمياء العربية ، أو المادة الأولية في الحجر الفلسفي ، أو الماء الخالد عندنا ، فهو يبرز على الدوام أمام الناظرين ليفرض نفسه على أصولنا أو على أصول فوضوية في عالم، جبلنا منه ونعيش عليه ، ويحتفظ أحدث العلوم للماء بهذه المكانة السامية (٦٣٤) من وجهات نظر أخرى .

إلا أننا في دار الاسلام. فاحتار أولا من القرآن (٦٣٥) النصوص التي تهمنا :«(وهو الذي مرج البحرين هذا عذب فرات وهذا ملح أجاج وجعل بينهما برزخا وحجراً محجوراً . وهو الذي خلق من الماء بشرا فجعله نسباً وصهرا (. . .) . وجعلنا من الماء كل شيء حي (. .). أمن جعل الأرض قراراً وجعل خلالها أنهاراً وجعل لها رواسي وجعل

بين البحرين حاجزاً ءاله مع الله (.. .) وسخر لكم الفلك لتجري في البحر بامره وسخر لكم الأنهار (. . .) وألقى في الأرض رواسي ان تميد بكم وأنهاراً وسبلا لعلكم تهتدون وعلامات وبالنجم هم يهتدون ».

وتوضح هذه النصوص القرآنية بعض الاتجاهات الكبرى في الجغرافية العربية مثل موضوع الحاجز ، أي البرزخ ، المتعدد أصلاً (٦٣٦) ، الذي توحي به ، على مستوى كرة الأرض ، ويعتبر نوعاً من التوازن العام بين كتلة البحار وكتلة مجاري الماء ، أو مثل حاجز البر يعترض بين أحد الأنهار والبحر ، أو أيضاً عظمة الأنهار الكبرى التي تدفع ، هنا وهناك ، مياهها سالمة بعيداً جداً عن مصباتها . والوضع الفريد في هذه الحالة ، هو وضع دجلة والفرات ، إذ إن هذا « الاسم» (أي الفرات) ليس سوى أحد النعتين الواردين في أحد النصوص القرآنية ليدل على الماء العذب .

وهكذا تمايزت البحار والأنهار ، وهي تندرج بعناية الله ، في مخطط تنظيم الأرض الشامل ، فتنضم إلى الجبال التي تثبت الأرض ، مثلما قلنا ، وإلى النجوم التي توجهها . ويقتضي هذا التنظيم التوسع في بحثه لاعطاء تفاصيل عنه، على غرار ما فعلنا في موضوع الجبال،فتصبح خريطة البحار والمجاري المائية الرئيسة ، عند مصنفي الجغرافية ، ليست إحدى ضرورات الاطلاع ، بل أيضاً فعل تسبيح وعزاء لرؤية الماء الالهي موزعاً بحكمة ، وأخيراً ، علة اتجاه ، لا مادي فحسب ، بل روحي ، وفرصة الانتقال من علامات الطريق ، ولو كانت ارضاً أو ماءاً ، إلى دلائل الوحي : فالاهتداء بالنهر كالاهتداء بالنجم ، مثلما يقال لنا تلميحاً.

ويتميز الماء العذب ، المبحوث في هذا الفصل ، بصفتين : الماء

الاصلي والماء المسخر . ولن نلح على الماء الأصلي الذي يقترن بالطين(٦٣٧) أمّا استعمالات الماء عند البشر،فيمكن تصورها بسهولة : فالاحالات القرآنية إلى الماء العذب تقصد ماء الشرب (٦٣٨) طبعاً ، وحاجات الطهي ، لكنها تشير قليلاً جداً ، فيما يبدو ، في هذا الاطار ، إلى ري النبات ، الذي يقرنه القرآن بالأحرى في الواقع بظاهرة المطر (٦٣٩) ، أي بنوع آخر من الماء العذب ، أو فعلاً ماء السماء ، الذي سنتحدث عنه فيما بعد . ونعود إلى المياه الجارية ، أو التي تنبع من الأرض ، ونقول إن النصوص المقدسة توحي لنا نوعاً ما بوجود استعمال ثاني ، نعني الملاحة نقول « نوعاً ما » ، لأن التسخير يتناول البحر والأنهار ، لكن لم يشر إلى الفلك إلا بالنسبة إلى البحر . وتجري الأمور وكأن الملاحة ، بواسطة التكرار ، مشتركة بين المائين ، العذب والاجاج ، الخاضعين لوضع تسخير واحد فيما يتعلق بالانسان ، في حين لا ترد بجلاء ودقة تامتين ، بشكل الفلك الحسي ، إلا فيما يختص بالبحر .

مهما يكن ، تجر الأمور فعلاً على هـــذا المنوال في النصوص القرآنية فاذا كان البحر يستلزم تلقائياً وجود الملاحة فيه ، حتى لو كانت محفوفة بالأخطار ، فالنهر لا يصلح لها دوماً . ومن هنا الاشارات الواردة ، والحالة هذه ، التي تتراوح بين ذكر الملاحة الكثيفة والملاحة المستحيلة في الأنهار . ويشعر المرء ، مهما جرى ، خلافاً لما في اوربة ذات « الطرق المتحركة » ان الملاحة النهرية تنحصر هنا في بعض الحالات الشهيرة ، مثل النيل وبلاد ما بين النهرين ، أو أنها تتجزأ وتقتصر على بعض أجزاء النهر المحظوظة . أما وظائف النهر الحقيقية ، فتظهر في ميادين أخرى : كتزويد البشر بالماء، المدون بدقة زائدة ، المتنوع ، المفهرس ، المصنف إلى مراتب، أو باختصار ، الذي يعبر بجلاء عن جميع

درجات هذه الهبة العجيبة الممنوحة للبشر ، ثم تظهر في إحياء النبات بترطيب التربة أو بالري أو بالماء المسحوب من سرير النهر ذاته أو من أقنيته الفرعية ، فيصبح النهر على هذا النحو ، في هذه الوظيفة ، كامتداد للمطر القرآني (٦٤٠) ، ويصير عمل البشر كامتداد لهبة الله .

جريان الماء على الأرض

يعدّ جريان الماء على وجه الأرض حقيقة بديهية لوحظت ألف مرة : فالى جانب ماء السماء ، يعرف البشر الماء الذي ينشأ على البرّ ، كالعين والجدول وأحياناً المسرى وحتى النهر . وقد أشرت في نهاية الفصل السابق إلى بعض أعظم هذه الانبجاسات . وهاك مثالين آخرين : ففي مدينة بعلبك ، « عين عجيبة يخرج منها نهر عظيم » (٦٤١) ، وفي بودندوس قرب طرسوس ، « عين عظيمة تخرج من شبه رواق » (٦٤١). على أن مصنفي الجغرافية ، مثلنا نحن ، يريدون كشف سر هذه المياه الخارجة من الأرض ، ثم سر دوامها أو اختفائها الموقت وتبدل غزارتها . ويحل ابن الفقيه القضية بأيسر السبل : « تغور المياه كلها وترجع إلى أماكنها إلا نهر الأردن ونيل مصر والحجرات وعرفات ومنى » (٦٤٣) . ولا يبت بعض المصنفين الآخرين في هذا الأمر بتاً قاطعاً ، بل يتمسكون بالواقع بتواضع ، ومنهم مصنف كتاب حدود العالم ، المجهول الأسم : « الأنهار الطبيعية مياه عظيمة تنشأ من ذوبان الثلوج أو من عيون تخرج من الجبال أو تتشكل على وجه الأرض » (٦٤٤) . وتقدر موسوعة اخوان الصفاء ، الحريصة على البنية الكونية ، ان ربع الأرض المعمور يحوي مائتين وأربعين نهراً . أطوالها عشرون إلىماية أو ألف فرسخ(أي من ١١٥ إلى ٥٨٠ أو ٥٨٠٠ كم تقريباً)، تجري في الاتجاهات الممكنة

حسب الجهات الأصلية المتقابلة . وتبدأ كلها في جبل وتصب في بحر أو بحيرة أو مستنقع ، حيث تفرغ زيادة مياهها التي تروي الزروع والضمياع بين المنبع والمصب . وتتبخر بقايا هذه المياه ، هي والمياه التي تستقبلها ، وتتكاثف غيوماً تسوقها الرياح إلى الجبال، حيث تنهمر السحب مطراً ، ثم تعود هذه الدورة فتتكرر مجدداً (٦٤٥) .

ويجهل المسعودي (٦٤٦) ، فيما يبدو ، هذا التفسير الذي يمكن تعديله ، ويتبنى أربعة تفاسير أخرى . فأولها ، وقد عرفناها من قبل(٦٤٧) وندعوه عضويا ، يجعل العيون والأنهار عروق بدن الأرض . والتفسير الثاني ميكانيكي ، صيغ كما يلي : « حق الماء أن يكون على السطح .فلما اختلفت الأرض ، فكان منها العالي والهابط ، انحاز الماء إلى أعماق الأرض . فاذا انحصرت المياه في أعماق الأرض وقعورها طلبت التنفس عندئذ لغلظ الأرض وضغطها إياها من أسفل ، فتنبثق من ذلك العيون والأنهار » . وتعتمد النظرية الثالثة على مبادىء الكيمياء الأولية : « وربما تتولد في باطن الأرضين من الهواء الكائن هناك ، وان الماء ليس باسطقس وانما هو متولد من عفونات الأرض وبخارها » .

أخيراً يرتبط التفسير الرابع بجغرافية نشوء الكون . ويقول المسعودي: « إن طائفة ذهبت إلى أن الأنهار » مجراها كلها — أعني البحار — واحد ، وهو البحر الأعظم ، وان ذلك بحر عذب ليس هو بحر اقيانوس » ، مما يعطي ، مثلما نرى ، تفسيراً اضافياً إلى موضوع المجمعين المائيين الأصليين اللذين كشف القرآن عن وجودهما ، ثم إلى سبب عودة الأنهار إلى منبعها ، وهو رأي ابن الفقيه ، كما مر معنا : « فاقيانوس » الماء العذب يلعب على هذا النحو دور وعاء ضخم يتصل بجميع أنهار الأرض .

وسواء كان عذباً أو اجاجاً ، فهو يظهر في جميع الأحوال ، بالنسبة إلى نهر واحد في الحد الأدنى . فالنيل ، الذي أشرت إلى سر أصله ، يخرج على هذا النحو من بحر عظيم مظلم ، من تحت كثبان رمل (٦٤٨). ويبقي الاسواني ـ الاخصائي المستنير ، الباب مفتوحاً أمام الآفاق الخرافية لماء لا حدود له : فعند التقاء النيلين الأزرق والأخضر ، « يعرفون عرض النهرين ، ثم يزداد هذا العرض حتى يصبح مسيرة شهر » . وماذا بعد ذلك صعداً ؟ لا يجيب الاسواني عن هذا السؤال ، لكن يمكن تصور الاجابة جيداً بالنسبة إلى هذا النهر الغريب الذي يتضخم وهو يقترب من منابعه (٦٤٩) .

وتجمع خصائص أخرى الأرض والماء في تفسير نشوء العيون والأنهار : وهو اعتقاد قديم يربط نشأة المياه الجارية برحم الكرة الأرضية ذاته . ومبدأ الأنهار المقدسة في بلاد ما بين النهرين بخاصة « بعضو تناسل الآلهة العظيمة » (٦٥٠) . ومن هنا ، في ممارسات الخصب ، الصلة بين الأرض والماء المتفجر ، اذ إن المرأة تقلد الأرض لا العكس (٦٥١)، مثلما يذكرنا أفلاطون . وهذا ينطبق على حمة واقعة في سورية الشمالية ، فيها صورتا رجلين من حجر ، يخرج ماء الحمام من احليل أحدهما ، في حين تزعم النساء أن كل من لا تلد تحك فرجها بأنف الصورة الثانية فيولد لها (٦٥٢) .

أما خروج بعض الأنهار من الجنة ، فليس سوى صيغة عن الاعتقاد الشرقي القديم ، ويوافق هذا الموضوع بدوره تقاليد أخرى (٦٥٢) . فالقبة التي تنبثق منها الأنهار الأربعة الكبرى في العالم ، في رأي المقدسي وابراهيم بن وصيف شاه ، واقعة فعلاً في الجنة ، إلا أن الاوقيانوس ،

أي البحر الأخضر ، يظهر مرة أخرى في المشهد العام . ويروي المسعودي ان قبة من الذهب وأنواع الجوهر تقوم في وسط البحر الأخضر ، وترتكز على أربعة أركان من الياقوت الأخضر والأحمر والأزرق والأصفر ، تقابل أربعة بلدان الحديد والصفر والفضة والذهب التي تقع ، حسب ابراهيم بن وصيف شاه ، بين البحر الأخضر والجنة (٦٥٤) . ويعارض المسعودي ذاته في مكان آخر ، من فضائل الأنهار ، بين تقليدين ، تقليد ما بين النهرين ، الذي أشرنا إليه من قبل . والتقليد المصري الذي يذكرنا ابن خرداذبه وابن الفقيه ان الانهار الأربعة تجري فيه من تحت سرير فرعون في مدينة منف (٦٥٥) .

أخيراً ، بقيت تقاليد التوراة والقرآن . وينسب المقدسي إلى أهل الكتاب الاعتقاد بأنهار الجنة ، ويميز أصلاً جنتين : احداهما ارضية أعطت رمانة بحجم الجمل وضعت يوماً في الفرات الفائض ، والأخرى جنة أزلية (٦٥٦).والواقع أن سفر التكوين يذكر العيون الأربع والأنهار الأربعة : دجلة والفرات وجيحون وسيحون (٦٥٧) . وترد هذه الأنهار بالذات عند الجغرافيين ، وأوحى النهران الأخيران باختيار المزدوجة جيحون وسيحون وهما اما نهران في آسية الوسطى (اوكسوس ، واياكسارت ، اموداريا وسرداريا) أو جيحان وسيحان (بيراموس وساروس ، على تخوم سورية والأناضول) . أما الاسلام ، فيعتمد على القرآن : « فالماء الفرات » الذي يسقاه المؤمنون يأتي ، حسب الحديث الذي يرويه ابن الفقيه ، من الفرات والنيل وجيحون وسيحون، وهما اوكسوس واياكسارت (٦٥٨) .

في النهاية ، لا يجاري نهر النيل ، الذي يرد ذكره دوماً في **هذه** النصوص الفردوسية أو المقدسة ، منفرداً أحياناً ، لكن مقترناً فعلاً في

الغالب ، بالفرات ليشكل مزدوجة النهرين « المؤمنين » ، التي تضم إلى جيحون وسيحون (أو جيحان وسيحان) في سبيل الحصول على الرقم أربعة . في هذه الحالة ، يأخذ نهر دجلة أحياناً محل نهر الفرات أو نهر النيل استثناءاً . وقد تطرأ بعض التغييرات على هذه الأقوال أو تتناولها بعض التعليقات . فالمقدسي يلمح إلى أن الجنة منبع بعض الأنهار الأخرى التي لا تقل أهمية وشهرة عن الأربعة السابقة . ويعطي ابراهيم بن وصيف شاه نهري جنجس ومهران مثالاً على ذلك . ويقارن نهر مهران بنهر النيل تقليدياً ، ويظن أنه يرفده بمياهه التي يطهر كل من يشرب منها . وهذا التباس مع جنجس ، نهر الهند الكبير الآخر . ونهر الفرات طاهر أيضاً ، واسمه وارد في القرآن ، كما قلنا : فهو من أنهار الجنة ، لولا ما يخالطه من الأذى ، ما تداوى به مريض إلا أبرأه الله ، فان عليه ملكاً يذود عنه الادواء (٦٥٩) .

وتمثل النار أو الخطيئة الوجه الآخر الذي يضعف سنده والثقة به أيضاً . فالمقدسي (٦٦٠) ، على غرار الميثولوجية اليونانية مع آشيرون ، كوسيت ، ستيكس ، بيريفليغينون ، يعارض بين أنهار الجنة الأربعة ، وبين أربعة أنهار النار التي استوحيت اسماؤها في الأساس من الأخرويات القرآنية ، وان كان يشك كثيراً في هذه الناحية . والزبداني أوضح هذه الأسماء ، وهو اسم قرية في جبل لبنان الغربي ، ويشير إلى بردى نهر دمشق ، وأيضاً إلى الزبد الذي يرمز إلى الاباطيل : « انزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبداً رابياً ومما يوقدون عليه في النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله كذلك يضرب الله الحق والباطل فاما الزبد فيذهب جفاء واما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض كذلك يضرب الله الامثال » . والاسم الثاني الكر ، وهو نهر يقع في أطراف جبل القبق

الجنوبية ويذكرنا اسمه بأصحاب الرس الذين تبرهم الله تتبيراً ، لكن لا نرى لماذا استبدل اسم وارد في القرآن باسم لم يذكر فيه (٦٦١) . والاسم الثالث سم (٦٦٢) يحيل بداهة إلى لفظ سموم المشتق من جذره ، ويعني سموم في القرآن الريح الحارة . مع الأسف ، لا أجد أثراً لهذا النهر (٦٦٣) على الخرائط . أخيراً (٦٦٤) ، السنجة نهر في حوض الفرات الأعلى ، الشهير بالجسر الذي يجتازها (٦٦٥) . لكن هنا ، على نقيض الحالة السابقة ، أين نضع احالة القرآن ؟ مهما يكن ، يعتبر الخبر الذي يعارض بين الفرات والنيل « المؤمنين » وبين النهرين الكافرين دجلة ووادي برهوت في جزيرة العرب الجنوبية ، أصدق . وهكذا نرى كيف تنتظم الاسطورة : فالفرات يتميز بأنه نهر قديم مقدس ، يقع في بلاد ما بين النهرين ، وحظي بذكر اسمه في القرآن . ويعتبر النيل أيضاً نهراً مقدساً منذ القدم ، وقد نازع نهر دجلة على مكانته في المزدوجة القديمة العراقية ، فانتقل نهر دجلة إلى مزدوجة النهرين الملعونين مع وادي برهوت المشؤوم بسبب كهفه الذي تتردد عليه « أرواح الكفار » ، ويتصل بالنار الداخلية في البراكين ، ويعرف في التقاليد اليونانية الرومانية كأحد أفواه الجحيم (٦٦٦) .

نعرف الأنهار بمجراها الذي نراه بأعيننا ، أياً كان منبعها واتجاهها. مع ذلك ، حتى هنا ، ليست الأمور بسيطة على الدوام ، لأن للأنهار حياتها ، وهي تتغير ، كما يذكرنا المسعودي (٦٦٧) : « فان لمواضع الأنهار شباباً وهرماً ، وحياة وموتاً ، ونشئاً ونشوراً » . ولكل مقام مقال (٦٦٨) : « فقد كانت مصر . . . يركب أرضها ماء النيل وينبسط على بلاد الصعيد إلى أسفل الأرض ، وموضع الفسطاط في وقتنا هذا .

وقد كان بدء ذلك في موضع يعرف بالجنادل بين أسوان والحبشة . . . . إلى أن عرض لذلك موانع من انتقال الماء وجريانه ، وما ينقل من التربة بتياره من موضع إلى موضع ، فيصب من بعض المواضع من بلاد مصر » . وهاك الآن ما يتعلق ببلاد ما بين النهرين : « وقد كان الفرات ، الأكثر من مائه ينتهي إلى بلاد الحيرة ، ونهرها بيّن إلى هذا الوقت ، وهو يعرف بالعتيق (٦٦٩) فيصب في البحر الحبشي ، وكان البحر حينئذ في الموضع المعروف بالنجف في هذا الوقت ، وكانت تقدم هناك سفن الصين والهند ترد إلى ملوك الحيرة » وكتنقل الدجلة العوراء . فصار بينها وبين الدجلة في هذا الوقت مسافة بعيدة ، وصارت تدعى ببطن جوخى ، وذلك من جهة مدينة باذبين من أعمال واسط إلى دور الراسبي إلى نحو بلاد السوس في خوزستان . وكذلك ما حدث من الجانب الشرقي ببغداد من الموضع المعروف ببرقة (٦٧١) الشماسية ، وما نقل الماء بتياره من الجانب الغربي من الضياع التي كانت بين قطربل ومدينة السلام » . ونعترف بأن هذه الملاحظات قيمة ، اذ لابد أن هجرات النهرين ولميهما الكثيف في كل ربيع ، وربما ارتفاع ركيزة سواد العراق في الماضي ، قد أسهمت على نطاق واسع في اعادة تهيئة المشاهد الطبيعية (٦٧٢).

ويعتبر جيحون (اوكسوس ، اموداريا ، نهر بلخ) النهر العظيم المتقلب الآخر . وتختلف آراء المصنفين حول قضية مجراه الاسفل (٦٧٣) العويصة . فاليعقوبي جازم يقول ان خوارزم على آخر نهر بلخ في الموضع الذي يخرج ماء نهر بلخ منه إلى بحر الديلم ، أي بحر قزوين (٦٧٤). ويتشبث ابن رسته وكتاب حدود العالم ببحيرة خوارزم (٦٧٥) .أخيراً ينقسم سائر المصنفين الباقين إلى فريقين : يعبر نص اولهما عن تردده

مثل ابن خرداذبه والمسعودي (٦٧٦) ، ويعرف الفريق الثاني جيداً مصب جيحون في بحيرة خوارزم ، مثل الاصطخري وابن حوقل والمقدسي ، ويشير إلى تبدلاته السابقة ، إما نحو بحر قزوين . لكن صعداً وبعيداً عن خوارزم عبر صحراء قره قوم (٦٧٧) وإما نحو بحيرة خوارزم دوماً لكن إلى الشرق (٦٧٨) . إذن ، اذا استثنينا المصنفين الثلاثة الأخيرين ، نجد كثيراً من الالتباس أو التردد أو الفراغ . تفسرها في الأساس ثقافة كتبية قد تكون جمعت معطيات تعود إلى بطلميوس (٦٧٩) . كما يفسره تشابه أسماء العلم في بعض الانحاء القريبة من بحر قزوين وبحيرة خوارزم : نعني جرجان والجرجانية على التوالي (٦٨٠) .

يكمن وراء هـــذه الشكوك سؤال يحاول أن يكشف سر حياة الأنهار : فما هو مدلول هذه الحياة بالمعنى الصحيح ؟ فاذا كانت جميع الأنهار قد وجدت لتنشأ وتختفي وتعود إلى الظهور . فلا بد أن ترتكز على قاعدة خفية ، على مبدأ مشترك ، يفسر اتجاه مياهها . ويضع ممثلو صورة الأرض والموسوعيون بعض النظريات : وقد سبق وأعطينا رأي اخوان الصفا : فهم يعطون ٢٤٠ نهراً لجميع الأرض ، أي ٦٠ نهراً لكل من الاتجاهات الأربع الممكنة حسب ازواج الجهات الاصلية المتقابلة. وهكذا يقارن ابن خرداذبه أنهار الارجاء الشمالية من دار الاسلام ، التي تجري من المشرق إلى المغرب ، وفي طليعتها جيحون ، بأنهار فارس والعراق التي تجري باتجاه معاكس . ويحذو ابن الفقيه حذوه ، فيقارن بين أودية تهامة وأودية نجد . ويدخل ابن رستة الرياح في هذه السيرورة. ولا يهم اذا هبت الجنوب وعذب الماء الذي يلي النيل لتراكم الأمواج في ذلك الوجه من ماء النيل ، أو اذا هبت الشمال وأمالت أمواج البحر على النيل وملح ماؤه . فحياة جيحون كلها خاضعة لقوة الرياح في مجراه

الأعلى : فمخرجه من بلاد التبت يقبل من المشرق مع الصبا ، وهو ينعطف إلى ناحية الشمال مع الجنوب (٦٨١).

ويتضاءل طموح جميع الذين يريدون اخضاع جميع المعطيات إلى العيان . فأبسط مشاهدة تدل ان الماء يميل إلى الانتشار أفقياً ، فلا بد أن يسيل من الأعلى إلى الأسفل . ويقول ابن الفقيه : « وقالوا كل جبل في الدنيا إلا القليل فماؤه من أسفله ومنابعه سفوحه . الا اروند ، فان ماءه من أعلاه ومنابعه من ذروته . ومن هنا الأصل الغيبي والفردوسي المعطى لهذه الظاهرة . ويعود ابن رستة نفسه إلى الأمور الحسية ، ويفسر بطريقة جيدة جداً لماذا تصل أنهار سواد العراق إلى البحر : بسبب الانحدار فقط ، لأن « البحر مغيض المياه وهو أسفل الأرض » (٦٨٢).

اذن الأمور بسيطة لولا أن النظرية تعود إلى السيطرة في هذه الفكرة الأولية : فلما كانت الجبال واقعة في الشمال والشرق ، مبدئياً ، فلا بد أن يأخذ انحدار سطح الأرض نحو خط الاستواء ونحو الغرب (٦٨٣). ويجب أن تسيل الأنهار ، قلما يكون تلك التي يمكن الحكم على مجراها على مسافة طويلة ، من الشمال إلى الجنوب ، أو من المشرق إلى المغرب. ومن هنا ، عجائب الأنهار « المقلوبة » : وأولها (٦٨٤) النيل الذي يجري إلى الشمال ، ثم مهران الذي يخالف ، فيقارن تقليدياً بنيل مصر (٦٨٥)، ثم آلس في الأناضول (٦٨٦) ، وأخيراً الارنط ، أو آكسيوس ، الذي سماه العرب العاصي (المتمرد *)،ويتوقع القارىء ذكره هنا بلا ريب، ويجر معه في حفرته البنائية الكبرى ، نهر الأردن ، والبحر الميت ، المسمى « البحيرة المقلوبة » ، وحتى بردى ، (٦٨٧) ، نهر دمشق، أما

(*) العاصي كلمة ارامية لا عربية مثلما ترجمها الاصل الفرنسي

بركوب ، نهر آسية الوسطى ، ويعني اسمه « الماء المقلوب » : فقد أطلق عليه هذا الاسم لأنه يجري من الاسفل إلى الأعلى ، أي في الحالة الحاضرة ، من المغرب إلى المشرق (٦٨٨) .

جريان الماء في باطن الأرض

لايقتصر حوار الماء والأرض على ما نراه منه . فأولاً ، تبقى قصة الأنهار في باطن الأرض خافية علينا في منبعها وفي نهايتها . لكن حتى في مظاهر الماء المرئية ، يبدي الماء الذي نراه ونلمسه ونذوقه، أحياناً ، هذا الانتشار الشامل . وقد ذكرت سابقاً الاعتقاد بحركة جميع مياه الأرض في الاوقيانوس الذي يمثل وعاءاً مستطرقاً هائلاً . ويلعب النيل، هنا أيضاً ، دوراً بارزاً ، اذ يكتب ابن الفقيه (٦٨٩) : « نيل مصر سيد الانهار، سخر الله له كل نهر بين المشرق والمغرب . فاذا أراد الله ان يجريه ، أمر كل نهر ان يمده ، فأمدته الانهار بمائها . فاذا فجر الله به الأرض عيوناً ، وانتهى من جريته إلى ما أراد الله ، أوحى الله عز وجل إلى كل ماء ان يرجع إلى عنصره ». ويخلص المسعودي (٦٩٠) إلىالقول : « اذا زاد النيل غاضت له الأنهار والأعين والآبار ، واذا غاض زادت . فزياداتها من غيضه ، وغيضه من زياداتها » .

ولا ريب ان الاعتقاد ذاته يفسر جملة من الظاهرات الغريبة : مثل العيون التي لا تتغير ، والبحيرات الهادئة ، والأنهار المتوازنة بدقة . ونذكر مثالاً عليها الهندمند ، نهر سجستان ، الذي ينصب فيه ألف نهر ، فلا يتبين فيه النقصان ، أو تلك البحيرة الفارسية ، التي لا يتبدل مستواها البتة ، لا في الصيف ولا في الشتاء ، في حين يصب فيها في اليوم الواحد كمية من المياه ، اذا سكبت في أي مكان آخر ، شكلت

فيه بحراً متلاطماً (٦٩١) . وفي فارس أيضاً ، بنهاوند . . . ، موضع . . . فيه حجر يفور منه الماء في كل يوم مرة أو مرتين ، فيخرج ، وله خرير ، فيسقي تلك الأراضي ثم يتراجع . « وهو مطلسم بسبب الماء ألا ّ ينقص والا ّ يزيد . وذلك ان الأكار يجيء وقت الحاجة ومعه المر ، فيقف عند الحجر ، فيسمع في الحجر وقع مثل وقع أبواب الحمامات ، ثم يخرج الماء . فاذا استغني عنه نقص وتراجع » (٦٩٢) . وفي فارس أيضاً . ماذا نقول عن تلك العين الأخرى التي يخرج أيام الربيع منها سمك ثم تخرج منها حية سوداء ، فاذا خرجتا ، غارت إلى حول ؟ (٦٩٣).

وعجيب أمر هذه العين التي نقول عنها ببساطة إنها متقطعة ، وعجيب أن تقضي أسطورة تتناول كتلة ماء ثابتة على أبسط مشاهدة ، هنا أيضاً. ولا بأس أن يعلن المسعودي (٦٩٤) : « فاذا انتهى مصب نهر الأردن إلى البحيرة المنتنة ، خرقها وانتهى إلى وسطها متميزاً عن مائها ، فيغوص في وسطها ، وهو نهر عظيم ، فلا يدري أين غاص من غير أن يزيد في البحيرة ، ولا ينقص منها » . وقد يقال ان هذا الكلام في هذه الحالة ، ينم عن جهل بين ظاهرة التبخر الكثيف ، الذي يجاهد نهر الأردن الضعيف كثيراً ضده . ويذكر قدامة (٦٩٥) في « الاقليم» الرابع ان لبحيرة طبرية رافدين لا رافداً واحداً : هما نهر الأردن الذي يذهب إلى البحر الميت ، ونهر آخر في الشمال يصب في البحر قرب مدينة أنطاكية ، ولا يمكن أن يكون الا نهر الارنط . وهكذا ، لم يبق على قدامة بعد أن استبدل نهر الأ، دن بالارنط الخيالي المخالف في شمالي البحيرة ، إلا أن يجعل البحيرة خزاناً عجيباً لا ينضب ، تتغذى من عين خفية ، يقول انها « لا تسيل » ، ونقول نحن ، لزيادة الدقة ، ان خروجها لا يرى .

وهكذا تفسر الاتصالات الباطنية تلافيف المتاهات المكتشفة . وهي عيون عميقة تحفظ في طياتها أبدان الغرقى دون أن تعيدها أبداً . وتشحن أحواضها المتطابقة على التوالي حسب قوة المياه الواردة اليها (٦٩٦) . وهنالك تلك الأنهار الخفية التي تنتهي إلى رمل ، فتغور ثم تظهر بعيداً جداً في نهاية تجوال . سوف نجهل تفاصيله إلى الأبد ، مع أنه واقعي ، عرف من قصب كتب عليه ، وطرح في موضع مغيض النهر ، وظهر في نهر آخر (٦٩٧) ، أو من ذلك التركي الذي ركب قربة منفوخة ؟ في مدخل نهر تحت رواق كبير تحت أحد الجبال . ثم خرج بعد يومين أو ثلاثة إلى سهل تسكنه الأغوال (٦٩٩) وتعرف هذه الظاهرة في أماكن كثيرة (٦٩٩) . ويغور الهرماس ، نهر نصيبين في شمال الاناضول ، ثم يظهر فيه . وفي جزيرة العرب ، في العروض ، عين يقال لها عين الناقة ويقول أهل الفلج في اشتقاق هذا الاسم ان امرأة مرت بها على ناقة لها ، فتقحمت بها الناقة في جوف العين ،فخرج فقط سوارها بنهر محلّم بهجر البحرين ، ومحلِّم نهر عظيم ، يقال انه في أرض العرب بمنزلة نهر بلخ في أرض العجم . وقد قيل ان نهر جيحون لايغور ، ويصب في في بحر الهند مما يلي كرمان . ومن أنهار الغياهب ، نهر زرين روذ ، الذي يخرج من وادي اصبهان ، ويسقي رساتيقها ، ثم يغور في الرمل ، ثم يظهر في كرمان على ستين أو تسعين فرسخاً (حوالي ٣٥٠ إلى ٥٢٠ كم) من الموضع الذي غار فيه ، فيسقي أرض كرمان ثم يصب في البحر الشرقي . أما الأردن ، ولعل حالته أعقد حالة (٧٠٠)، فيظن ان مياهه تغور في البحر الميت الذي يظل هادئاً رغم كل شيء ، كما رأينا ، ولا يعلم أحد كيف غارت ، ويعتقد أن لها مخرجين . . يميل بعض المصنفين ان اولها الهند والبعض الآخر نهر أبي فطرس ، أي نهر العوجاء

اليوم (الاعور) . ، الذي يتفجر في سهل فلسطين الساحلي ، ويقال لما ان غزارته كغزارة نهر الأردن ، وان لمياهه « ثقل الزئبق» لأن أصلها من البحر الميت .

فهل نسخر من مآثر هذه التيارات الباطنية ؟ لاشك أن البعد شاسع بين جيحون ومشارف الهند، وان الفاصل بين الهند ونهر الأردن محيط فسيح أيضاً . إلا أن سائر النواحي . فيما عدا المسافات ، ان وجدت تحدثنا عن حقائق نعرفها جيداً في أيامنا الحاضرة : كالعيون أو الانبجاسات من الصخور الكلسية في الجزيرة وفلسطين ، أو السفوح الشمالية من جبال فارس ، إلى جنوب شرق اصبهان ، أو من الواجهة الشرقية في جزيرة العرب (٧٠١) . فهنا ، تبقى اسطورة المياه الباطنية ، المتوازنة بفضل جملة حركات داخلية وتبادلات ، مثلما يحصل في عروق الجسم البشري ، قائمة ، ولا تضيف شيئاً إلى موطن الخيال : بل يحتمل بالأحرى أن تكون تلك الاسطورة قد نشأت من المشاهدة المباشرة (العيان) ، أو من تفكير أولي متردد يتساءل عن سر انبثاق هذا الماء من البر ، الذي يشير مع الزمن إلى بدء ظهور علم يؤثر في المرء تلمسه طريقه .

ويفقد الماء أحياناً شكله وحتى مادته في حركاته الباطنية : فيتحجر عند خروجه من الصخر الذي يحبه . لكن لابد له قبل ذلك أن يعود ويتصل بالهواء الذي يجمد فيه العناصر التي آخذها من الأرض . ويعمل الزئبق العمل ذاته ، صنعياً ، في ماء مر ومالح وحمض (٧٠٢) . بالتالي ، يستحجر الماء ، هنا وهناك ، في مجاريه المعمولة من خزف ، أو في كهف : ونقول نحن بمزيد من الدقة (٧٠٣) : يتحول إلى كلس .

وفي معظم الأحيان ، اذا خرج الماء من أماكنه إلى الهواء الطلق ، وسال من مواضع منبعه ، يتعرض إلى هذه الظاهرة . فيستحجر (٧٠٤) ، ويصير أحياناً صفائح حجر (٧٠٥) . ويستحيل تارة جزئياً فقط ، فيصير موميلي أبيض (٧٠٦) وأحياناً كلسا أبيض . أو بورقاً . أو شباً أو نوشاذر ، ومن المعروف جيداً أن هذه المواد ليست سوى مياه تحجرت (٧٠٧) .

وهكذا تنقل هذه المياه المرء إلى تخوم عوالم عديدة : لا عوالم العناصر الثلاثة المنوه بها ، بل عالم الكائنات أيضاً : فقبل أن تسقي المياه الحقول، متى تسنى لها ، تتحول لينتفع بها الانسان . ولا يذكر الاستطباب أو البناء أو العمل الحرفي ، أو التآم الآنية المنصدعة متى ألقيت في العين المحجرة (٧٠٨) ، الا ليستعيد الانسان ، فيما يظن ، مرة أخرى ، المراحل الانتقالية ، أو بالأحرى الاستمرار التام الذي خلقه الله بين العالم وبين البشر الموضوعين عليه . فلا انقطاع بين ممالك الطبيعة . كذلك لا حلّ استمرارٍ بين هذه الطبيعة وبين الكائن المتميز فيها ، بارادة الله، لكي يعتمد عليها ويواصل أعمالها لمصلحته الخاصة ، انما دون أن ينسى مطلقاً انه منها بجسده .

شكوك جغرافية المياه

لنعد الآن إلى وجه الأرض . إلى المياه المنظورة . فهل تبدو لنا حقاً متماثلة في جميع الأماكن ، أو ، على النقيض ، متباينة ، تبعاً لما تفرضه الأرض عليها من أشكال بالذات ؟ لا ينازع أحد هنا بوجود مصطلحات علمية مختصة ، أسوق بعض أمثلة منها ، واضحة جداً : كالغور ، أي « المنخفض الذي تأخذ المياه إليه » والغمر ، أي الأرض المغطاة بالمياه ، والعمق الذي يجمع السهل والماء والأطراف الجبلية (٧٠٩) ، والهور ،

وهو مساحة واسعة مرزغية خالية من القصب (٧١٠) . والحور أو الحور . والحور طريق الماء لم يحفره أحد يجري . . . فيه ماء الامطار ويتراجع ماؤه . . . عند المد وينصب في الجزر . وهذا اللفظ خاص بناحية البصرة (٧١١) . والطربال : وهو بناء عال مثل الدكة ، استنبط بحذائه ماء من جبل شاهق حذاءه (٧١٢) . وسائر الألفاظ التي لم تعد تعرف لشيوعها : كالمستنقع . والقنى ، والحوض . والبئر ، والفوارة (٧١٣)، إضافة إلى البحيرة والعين ، الباردة أو الحارة ، والبئر ، والجدول . وأخيراً النهر .

ولا ريب أنه سيؤخذ علينا أننا نخلط اعتباطاً أنواع المياه وأحواضها الطبيعية مع غيرها مما صنعه الانسان . لكن هل يختلف ما نفعله عما قام به مصنفونا ؟ فالنهر يعتبر مصطلح المياه الجارية العظيم ، ويشمل جميع أشكالها من الجدول إلى أكبر نهر ، وحتى المجاري المستصلحة . بالتالي ، يكاد لا يستطاع مطاقاً التفريق بين النهر والقناة . فاليعقوبي لا يفيدنا البتة ، إذ لا يرى فرقاً بين بردى وفروعه في الغوطة ، إلا بالحجم دون الطبيعة . حين يقول : « ومدينة دمشق ليس لها نظير في جميع أجناد الشام في كثرة أنهارها وعمارتها . ونهرها الأعظم يقال له بردى » ، ويقول ابن حوقل انه يتفرع منه نهر « القناة » . ويلحظ (٧١٤) الخلط ذاته في العراق . حيث تتنازع الأقنية الكبرى والفرات ودجلة على اسم نهر (٧١٥) دوماً . ويكاد المرء أيضاً لا يميز أحياناً المجرى من القناة ، أو النهر . الطبيعي أو الصناعي ، من البلد الذي يرويه : مثل نهر الابلة ، وهو قناة يشتق اسمه من مدينة قريبة من البصرة ، ومثل نهر بلخ ، القريب من بلخ . وجيحون ، وكلاهما يدلان ، اضافة إلى أنفسهما ، على النواحي التي يحولانها إلى جنات أرضية (٧١٦) .

وقطعاً ، قد يلمع هذا النص أو ذاك إلى خبر يوضح تفرع القناة من النهر (٧١٧) . لكن كم يعثر ، متقابل بضع صفات بينة ، على صفات أخرى ، تعد بالعشرات هذه المرة عند المصنف الواحد . تختلط ، في المشهد الواحد من الأراضي المروية والمقننة في جميع الاتجاهات : كالعراق وآسية الوسطى ، بين مجرى الماء الطبيعي وبين جميع ما تفرعه عنه عبقرية البشر (٧١٨) . ينبىء هذا الاختلال في التوازن بنقص النظرية والتصنيف . وقد حاول المسعودي اجراء تصنيف . إلا أنه أيد في الواقع الصورة التي تعطيها النصوص ، اذ قال : « وكل ماء يجري فهو نهر ، وحيث ينبع فهو عين ، وحيث يكون معظم الماء فهو بحر » . لذلك ، يذكر ان اسم البحر واليم المرادف له ، لا يطلق على البحار فقط ، بل على النيل أيضاً دون انهار الدنيا لكبره واستبحاره (٧١٩) . ومرة أخرى ، يستشف من هذا الحديث ، موضوع الاتصال بين جميع مياه العالم ، وهو موضوع ثابت الجذور ومضمن فيه .

ويتميز تصنيف مؤلف كتاب حدود العالم (٧٢٠) بالتنهيج الزائد ، عندما يقول : « والأنهار ضربان ، أولهما طبيعي والآخر صناعي . ففي الصناعي ، يحتفر المجرى ، ويسحب الماء فيه ، لتستفيد منه إحدى المدن أو تسقى به الزروع . ومعظم القنى صغيرة ، لايسع السفن أن تجري فيها . ولبعض المدن عشر أقنية ، وأحياناً أقل أو أكثر ، تستعمل مياهها للشرب وفي الحقول والمراعي . ولا يمكن أبداً تحديد عدد هذه الأقنية ، إذ قد يزيد أو ينقص في كل لحظة . أما الأنهار الطبيعية ، فهي مجاري المياه العظيمة التي تنشأ من ذوبان الثلوج أو من العيون الخارجة من الجبال أو من سطح الأرض ، وتشق طريقها ، تارة ضيقة وطوراً عريضة ، وتستمر في جريانها حتى تصل إلى بحر أو مستنقع . وبعض

هذه الأنهار الطبيعية ليس عريضاً جداً ، فلا تستفيد منه إلا مدينة أو ناحية : مثل نهر بلخ ونهر مرو . وقد تتفرع من النهر الطبيعي أقنية كثيرة يستفاد منها ، في حين يأخذ عمود النهر إلى البحر أو المستنقع ، كالفرات » .

لكن لا يوضح وصف كتاب حدود العالم الفارق الرئيسي بين المجاري الطبيعية والصناعية من ناحية الافادة منها . فأحد الفوارق ، المشوش بعض الشيء ، ينحصر في التكوين : فالنهر ينشأ من عيون أو ثلوج . وقد تتفرع القناة عن النهر ذاته ، أو — الا أن النص لا يورد شيئاً عن هذه النقطة — من وعاء خاص به : عين مثلا أو بئر . وقد يجوز القول انالاساس الأول الحقيقي في تحديد المراتب وفي الاحصاء ، يعتمد على الحجم : فيعتبر القناة بعامة صغيرة وبالتالي لا تصلح للملاحة ، والنهر على نقيضها : هاماً على الأرجح ، وتبقى امكانية الملاحة فيه في الظل ، ربما لأنها تخضع إلى احتمالات فرط القوة أو ضعف العرض (٧٢١). في النهاية ، تنتمي أهم الخصائص إلى ثلاثة ميادين : أولاً ، وهذا هو التفريق الجوهري ، سرير مجاري الماء الطبيعي أو الصناعي ، ثم مصبها، إذ لابد من أن ينتهي النهر في بحر أو مستنقع في حين يفترض ضمنياً ان تنتهي القناة في الاراضي التي تسقيها ، وأخيراً الخريطة ، وهي ثابتة في حالة الانهار ، ومثيرة تعريفاً في حالة الأقنية التي تخضع إلى مشيئة البشر .

اذن ، مهما يكن ، يبدو هذا الوصف مقبولاً ، بعد ادخال بعض التعديلات الخفيفة عليه ، هنا وهناك ، لجعله أدق وأشد تماسكاً . وهو نسيج وحده في الأدب الجغرافي . ونتساءل بخاصة : هل تقيد به بدقة

مصنف كتاب حدود العالم نفسه ، اذا اقتصر الجواب على أنهار العالم ، التي تلي نص الوصف (٧٢٢) ، يلاحظ ذكر عدد كبير من الأنهارالتي ترفد أو تصب في نهر آخر (٧٢٣) ، وثمانية أنهار تنضب في الحقول التي ترويها (٧٢٤) . ونشير أخيراً إلى وضع هام جداً (٧٢٥) هو وضع نهر هرات « الذي ترفده روافد عظيمة تتألف من سيول (٧٢٦) ، تجف أحياناً . فلا حاجة لذكرها » . ومن هنا نخلص إلى أن الوصف أهمل صفة أساسية للأنهار الطبيعية : نعني بالضبط وجود الماء فيها على الدوام.

في النهاية ، يشبه وضع الماء وضع الأرض في هذه النقطة ، التي تعتمد من جهة أولى على مجموعة ألفاظ تقليدية ، ومن جهة ثانية على نقص ، أو على الأصح ، على خفاء ما في علم المياه من مفاهيم لا تدرك ولا تكتب إلا في أماكن متفرقة لتشهد على حقائق بديهية يدحضها أحياناً أخرى اللاهوت أو الاسطورة أو ، على نطاق واسع ، القوة الايحائية لماء جار منعش ، يقضي اسم النهر ، في سحره السامي ، على احتمالات إجراء أي تصنيف آخر ويودي به .

وتتأيد وجهة نظرنا بالعودة إلى النصوص على أساس فئات جغرافية الأنهار . ولنأخذ لنبدأ مفهوم الحوض . فعلى وجه الاجمال ، وفيما عدا بعض الأخطاء في التفصيل . الناشئة عن نقص في معرفة الأرض (٧٢٧) يـُجَارَى النهر جيداً جداً من منبعة إلى مصبه ، من خزان الماء في أعلاه (٧٢٨) إلى البحر أو البحيرة. أمثلة (٧٢٩) : نهر النيل الذي ينبع من جبال واقعة خارج دار الاسلام ، ويجري بجلال وبساطة ، ويتجه رأساً إلى الشمال ، فيولى اهتماماً خاصاً ، كما قلنا ، ونهرا دجـلة والفرات اللذان يتناولهما الوصف افرادياً من أرمينية إلى الجزيرة وحتى العراق ، ثم يجتمعان في

المشهد المشترك لسهل السواد وشبكة الاقنية التي تمزج أحياناً مياه النهرين . وفي آسية الوسطى ، سيحون ثم جيحون الذي يقول عنه كتاب حدود العالم (٧٣٠) ان غزارته أضعف من غزارة رافده الخرناب لكنه فرض اسمه لطول مجراه الاجمالي .

اذن يدرك حوض هذه الأنهار وأنهار كثيرة غيرها . من خلال مجرى ماء ، تستعمل النصوص ، على الأقل في حالة الأنهار الكبرى ، لفظ عمود لتسميه به : ويعني عمود حرفياً الجذع ، الساق ، الركيزة ، وهنا الشريان الرئيسي في الشبكة النهرية (٧٣١) . اذن ، يتعلق الأمر ، كما نرى ، بتنسيق المراتب ، المبني على قوة النهر ، أو ، كما قلنا منذ قليل ، على طوله ، لكن دون أن يقال بدقة ، كما نقول اليوم ، ان هذه الظاهرة ثانوية بالمقارنة بمستلزمات التضاريس ذاتها ، وان النهر ، قبل أن يكون عموداً ، وليد ما يهيأه له العلو لكي يلعب هذا الدور . وندرك نتائج هذا الوضع على مفهوم الحوض بالذات . قطعاً ، يعرف مصنفو الجغرافية — فهل يجهلون ؟ — وجود أنهار « تغيض » في غيرها (٧٣٢) نسميها نحن الروافد . لكن هل يؤول هذا الوضع إلى أن يتناول البحث ، كما هي الحال في الجغرافية الحديثة ، علاقة الحوض بغيره من الأحواض من جهة — تميز خطوط تقسيم المياه الحدود بينه وبين سائر الأحواض ، فتبين هذه العلاقة — وان ينتظم الحوض من جهة ثانية حول المحور الذي يشكله مجرى الماء الرئيسي ؟ في الواقع ، يؤدي الالحاح على العمود في نصوص الجغرافية العربية ، لا إلى ابعاد حدود الحوض إلى ما وراء الروافد وتوسيعه ، وإلى أقصى حد تسمح به التضاريس ، بل إلى تقليص الحوض ضمن الروافد حتى محور الشبكة

الرئيس : فيقتصر نطاق الحوض كله هنا على المجرى الرئيس . ويختص بنهر واحد دون غيره ولا يكون مشاعاً بين عدة أنهار .

من هذه الناحية ، تبدو صورة العمود واضحة بجلاء : فكما تجسد الشجرة كتلتها وحياتها وعمرها بجذعها . وتعتبر الأغصان امتداده والجذور بدايته ، كذلك ، ينظر إلى كل ما يتفرع عن العمود أو يصب فيه ، نظرة واحدة ، ويسمى أحياناً بكلمة : الشعبة . وطبعاً قد تكون الشعبة ذراع النهر على جانبي إحدى الجزر أو في إحدى الدلتات . أو أي قناة متفرعة عن مجراه كما هي الحال بالنسبة إلى النيل ودجلة والفرات وجيحون وهلمند وهرى روذ (نهر هرات) وزرفشان (نهر الصغد) ومرغاب (نهر مرو) وبردى ومتيتجا وغيرها من الأنهار (٧٣٣) . لكن ، قد تكون الشعبة أحياناً أيضاً عكس الفرع ، الطبيعي أو الصناعي . نعني الرافد بلاريب (٧٣٤) . ؛ اذ نقصّر اذا قلنا أن كل فرع ، بالمعنى الذي نفهمه ذراعاً كان أو قناة ، يأخذ من النهر تعريفه وحياته .فالرافد فرع أيضاً . بمعنى أنه يشترك والنهر بهذه الحياة التي يجري للقائها وتستدعيه وتصهره في جسم العمود العظيم .

اذن ينبغي أن ندرك أن الحوض سطح يحدد من خلال مجرى ماء رئيس ، لكن يجب رؤية هذا المجرى الرئيس في وحدته . والواقع أن هذه الوحدة ، لهذا النهر أو ذاك ، الهام أو الثانوي ، تلقى صعوبة لتجسيد ذاتها تحت اسم واحد لا يتغير . وينشأ كل هذا الوضع عن أن عدداً من المجاري المائية يضيف إلى اسمه الخاص أو يستبدله بلفظ نهر مقروناً باسم المدينة أو المنطقة المسقية . ثم يسقط على المشهد الاسم المركب الحاصل على هذا النحو (٧٣٥) . ويصح هذا القول في حالة نهر سيحون

(إياكسارت - سيرداريا) والشاش ، حالياً بلاد طشقند ، وفي حالة نهر جيحون (اوكسوس ، اموداريا) وبلخ (٧٣٦) . وفي حالة نهر هرى روذ وزرفشان . ومرغاب الذين ذكرناهم من قبل ، وفي حالة نهر هلمند وسجستان . وفي حالة نهر طاب وارجان في فارس ، وفي حالة نهر دجيل (كارون) وخوزستان ، أو مصرها اصبهان ، وفي حالة نهر الارنط وانطاكية ، وفي حالة نهر مهران والمنصورة ، مصر السند (٧٣٧) . وفي حالة النيل ذاته اذ يقال نيل مصر (٦٣٨) أحياناً. لنكتف بهذا القدر ولنسائل أنفسنا أولاً : أوليست تسمية مجرى الماء باسم غير اسمه الخاص ، سبب الترددات التي تشوش ، ان حدثت ، ما يمكن أن يحصل من ادراك وحدة النهر المقصود ، أو نتيجتها أو قرينة تدل عليها على أي حال ؟ يلاحظ في الواقع — ويغرينا تردد اسم العلم أحياناً — اننا نصل إلى ثلاث أو أربع تسميات ، وحتى أكثر منها ، بالنسبة إلى هذا أو ذاك من الأنهار . وينطبق هذا الحديث (٧٣٩) على زرين روذ ، زنده روز ، نهر اصبهان (٧٤٠) وعلى نهر مهران(الهندوس) نهر المنصورة ، نهر السند ، مهران السند (٧٤١) ، وعلى نهر جيحون، نهر بلخ ، نهر كالف ، وجيحان أيضاً التباساً مع شبه سميّه على تخوم الشام والاناضول (٧٤٢) وعلى نهر الارنط ، الارند ، العاصي ، المقلوب ، نهر انطاكيه (٧٤٣) ، وعلى نهر كارون في تلك الايام دجيل، دجيل الاهواز ، نهر تستار ، نهر الاهواز ، نهر خوزستان (٧٤٤) ، وعلى نهر هلمند ، هندمند ، هيرمند ، هرمند ، هيلمند ، هيرميذ ، نهر سجستان ، نهر بست (٧٤٥) .

وهكذا ، قد يتأثر بكثرة الاسماء مفهوم مجرى الماء ، مثلما نفهمه اليوم ، منظوراً إليـــه برمته مستمراً من أول مجـــراه إلى آخره . ويضاف

إلى ذاك لتقوية الظاهرة . تدخل أسماء أخرى . تطلق هذه المرة لا على مجمل المجرى ، بل على هذا القطاع أو ذاك منه . فنهر جيحون مثلاً يحمل مجراه الاعلى (٧٤٦) اضافة إلى مـــا نعرفه من أسماء وخاب ، وجرياب ونهر أيغـــان . ويطلق على نهر دجيل في مجراه الأعلى ، أو في أحد أذرعه أو فروعه ، اسم مانان ، المسرقان ، السادره (٧٤٧). ويعرف نهر الصغد ، بنهر بخارى في مجراه الاسفل (٧٤٨) . ويستبدل الفرات اسمه في حالة مماثلة ، باسمي سوره والعلقمي (٧٤٩) . ولا يأخذ مهران اسمه الابعد أن تجتمع الأنهار الثلاثة التي يتألف منها ، ويحمل كل منها اسماً مستقلاً (٧٥٠) . أخيراً ، نلقى وضعاً متشابهاً في الأقنية في العراق بخاصة (٧٥١) .

لكن لا بأس أن يبدل مجرى المـــاء ، الطبيعي أو الصناعي ، اسمه ، والا يهتم بهويته ، وان يضعف حرصه على اسمه حتى يصل به الأمر إلى حد استبداله أحياناً بأسماء أخرى . فيصبح نهر بلخ جيحون ، والدهاس أيضاً ، النازل من جبال باميان (٧٥١) ويصير نهر جيحان ، كما قلنا منذ قليل ، النهر السوري الاناضولي الذي يحمل هذا الاسم أو اسم جيحون ، والكر نهر تخوم جبل القبق الجنوبية ، أو نهرا في فارس (٧٥٣) . ويدل دجيل (دجلة الصغيرة) ، الذي عرفناه من قبل ، في أماكن أخرى ، على قناة في السواد (٧٥٤) ، وعلى رافد — أو قناة أيضاً — كرخه في خوزستان (٧٥٥) ، المسماة أحياناً دجلة أيضاً : دجلة أخرى (٧٥٦) . ويصير النهروان في العراق قناة تأخذ اسمها فيما يبدو ، ومجراها من أحد الأنهار ، ويدرج الكل في اسم المنطقة كلها (٧٥٧) .

وتدفع هذه الترددات التي يمكن تطويل قائمتها إلى الاعتقاد ، في النهاية ، بأن المجاري المائية لا تدرك أبداً كما هي في وحدتها واستمرارها.

وقد قلنا ان هذه الحالة لا تنطبق على معظم الأنهار . مع ذلك ، قد تترتب على شكوك الاسماء أو الخريطة ، نتائج هامة على كل النهر المدروس أو جزء منه . وبالتالي ، على القدرة ، اذا اقتضى الأمر ، على تناوله كمجرى ماء بالمعنى الصحيح . وقد رأينا منذ قليل أن نصوص الجغرافية تعطي أمثلة عن أنهار مجزأة ، وعن مياه مشكوك باسمها ، أو يستعار لها اسم بالتالي من أنهار متلاشية . ويثبت هذه النقطة الأخيرة المقدسي ، الذي يقدم السند ويبين بالاجمال ان هذا النهر يشقه ، يعني نهر مهران (الهندوس) ثم يتحدث في وصفه المدن عن نهر غزير هنا وأنهار عديدة وغزيرة هناك . فهل يقصد نهر مهران الذي ينتشر على هذا النحو ، ويتباعد لوجوده في جميع المحلات ، أم أحد الأنهار التي تشكله أم أيضاً أحد أذرعه ، بدءاً من المهران الصغير (٧٥٨) . ويثبت تلك النقطة أيضاً اليعقوبي (٧٥٩) الذي يذكر ان حماه واقعة على نهر يقال له الارنط ، ويشير بعد سطر واحد إلى أن لحمص نهراً عظيماً ، فلا يعرف نهر العاصي في طريقه .

وترجع جميع أنواع هذا التردد بشأن مجرى الماء وحوضه ، إلى ثلاثة أسباب منها الثغرات بالذات في المعرفة النظرية أو معرفة الأرض . ومنها أيضاً الأشكال الطبيعية ، والمرتفعات العالية التي تعزل على مجرى النهر ، بلداناً يتفاوت انقطاع بعضها عن بعض ، ويعتبر النهر في البدء -وأحياناً حصراً - نهرها . ويعرف بالاسم الذي أطلقوه عليه : والمثال النموذجي حتى أيامنا الحاضرة ، جبال زغروس التي تتخلى فيها الأنهار عن اسمها وتأخذ اسماً جديداً (٧٦٠) من فج عميق إلى فج عميق . أخيراً ، لتلك الترددات جملة أسباب ترتبط بموقف البشر من الماء ، أي امتلاكه ، الذي يرى على ثلاثة مستويات . المستوى الأول منها

الوطنية المحلية والحق الثابت على النهر الذي يفرض عليه اسم المدينة أو البلاد (٧٦١) . والمستوى الثاني ، امتلاك المجتمع كله للنهر في مسعى جماعي اوسع ، يدل عليه اضفاء صيغة عربية اسلامية على الاسماء السابقة ، كما هي الحال بالنسبة إلى نهري العاصي والفرات . أخيراً ، المستوى الثالث ، يحمل اسم القناة ، في حالة الاقنية على الاقل ، طابع الفرد ، وربما خلد ذكر الشخص الذي حفره على حد شرح الاصطخري (٧٦١) .

في النهاية، قد يفسر بالتالي الشك في الاسماء على نطاق واسع ، بالصلة الوثيقة بين الماء والأرض والبشر . وكما هي الحال في الجيولوجية، يتميز علم المياه بوجود بعض نواحي النقص ، على مستوى المعرفة النظرية أو العملية ، إلا أن هذه الثغرات — من يعلم ؟ — قد تكون ثمن (فدية) علم حددته بشكل آخر ، ارادته التي تنزع إلى التعميم الشامل ، وحرصه على أن يتناول العالم كله في ما يتكون منه من علاقات ، لا في عناصر تركيبه عنصراً عنصراً ، ويتذكر أن الانسان عنصر حاسم وجوهري في هذا التنظيم . متى اندرج الماء في هذا المجموع وانصهر فيه ، تصير قيمته في دوره في المجموع أكثر منها في حد ذاته . وهكذا ندرك كيف يصبح أحياناً اسم المـــاء مشكوكاً فيه أكثر من غيره ، في حالة نهر هلمند .

أخيراً نلقي نظرة سريعة ختامية على مفهوم آخر أساسي في جغرافية الأنهار : نعني مفهوم نظام النهر . فقد كتب أبو دلف مسعر مثلاً هذه الأسطر المقنعة جداً عن أحد روافد دجيل الاعلى ، وعليه قنطرة خُرَّازاذ الشهيرة : « أقيم هذا الجسر على وادي جاف عادة . ولا يسيل

فيه الماء إلا في أوقات الفيضانات الناشئة عن الامطار ، بشكل بحر عجاج يغطي وجه الأرض على عرض ألف ذراع ونيف بعمق ١٥٠ ذراعاً ، في حين يقتصر عمق السرير على عشر أذرع » (٧٦٣) . وبدون الفارق بين مستوى الفيضان ومستوى الجفاف ، والشح التام ، ودور الامطار ، وتقدير الغزارة أيضاً ، اذ يعبر لفظ بحر حرفياً ، كما رأينا (٧٦٤)، عن كمية هائلة من الماء . بصرف النظر عن الارقام المعطاة . وهذه التدوينات صحيحة كلها . وليست وحيدة من نوعها ، وستتاح لنا فرصة العثور على غيرها عندما ترسم خريطة الانهار الرئيسية في دار الاسلام . إلا أن الامر يتعلق في الواقع بمشاهدات محلية ، وحتى عارضة ، أخذت هنا وهناك بلا تعيين على الأنهار وحسب الطريق المتبعة ، ولم تجمع في شبكة متماسكة . في نظرية شاملة لنظام المياه ومركباتها وتبدلاتها. ويعيدها الجغرافيون ، والموسوعيون منهم بخاصة ، من هواة المعطيات العامة لصورة الأرض . مثل المسعودي ، إلى بعض الاقوال الجزئية التي تتحول مباشرة إلى أصناف نوعية ، تذوب في خصائص وصف الانهار . « فعمل الأنهار التي تسكب تارة على اليابسة وتنقطع عنها» «وشباب» سريرها و « هرمه » وحتها ، كل هذه العوامل خصائص يكاد كتاب مروج الذهب لا يلمع اليها إلا بسرعة بالغة ، في حاشية أو مقدمة أو تعليق . للوصف الحسي والتفصيل المجسد ، الواحد تلو الآخر ، في بحث الأنهار الكبرى على الأرض (٧٦٥) .

اذن ليس الحوض ومجرى الماء والنظام إلا مفاهيم كامنة ، مثلما قلنا من قبل . فالماء الجاري متباعد بطبيعته ، صعب المنال ، سرّي ، غائض عادة ، يتعذر ادراكه سيما أنه يتحد حتى بعناصر أخرى كالأرض وحتى الهواء ، ونعني به الماء الذي نحاول معرفته ، وهو ماء البشر أولاً :

أي الماء الحيوي الذي يستعملونه ويقدرونه ويفتشون عنه . وفي الواقع ، قد يستغرب ألا نرى الجغرافية العربية البشرية ، بالمعنى الذي حددته مراراً وتكراراً ، في هذا الماء الجوهري ، بالدرجة الأولى ، الماء ذاته الذي سخره الله لخليقته .

المـــاء الضروري

يعثر على الماء في جميع الأماكن أو يكاد . وهذه حقيقة بديهية ، تتجلى لأول وهلة من قراءة النصوص الجغرافية مرة واحدة . ويدل احصاء بسيط للمقاطع التي يرد فيها ذكر الماء ، على أهميته (٧٦٦) . وغالباً ما يخصص له عنوان منفرد في عرض البلدان : فالمقدسي مثلاً يخصص له في اقليم المشرق الواسع ، الذي يرتبط مصيره بوضوح بالأنهار الكبرى في آسية الوسطى وفروعها ، أربع صفحات كاملة(٧٦٧) يضاف إليها طبعاً التدوينات العديدة التي ترد في الوصف التفصيلي(٧٦٨). ويولي الخريطة العناية ذاتها ، ويرسم عليها بدقة الأنهار الهامة باللون الأزرق (٧٦٩) .

والماء ضروري للمسافرين ، كالجغرافيين (٧٧٠) ، وللمؤمنين لوضوئهم (٧٧١) . والماء لازم أولاً وبخاصة في الحياة اليومية . لذلك كتب ابن الفقية : « أحسن الاشياء صفو الهواء وعذوبة الماء وخضرة الكلأ » (٧٧٢) ، وأضاف : « والماء حياة كل شيء » . فالماء للشرب والطهي : ويدل باب الماء في المدينة على انحناء جوهري (٧٧٣) . والماء للحمامات (٧٧٤) . والماء للطواحين التي تدخل عنصراً في المشاهد العجيبة : طواحين على الماء في خوزستان ، وهذه الدواليب العشرة (النواعير) التي تدور على شواطىء بحيرة صنعية في فارس (٧٧٥)،

وأخيراً المياه لملاحة الأنهار . ويقول المقدسي : « كنت يوماً أمشي على الساحل وأتعجب من كثرة المراكب الراسية والسائرة » ، ورأى في الدجلة السفن أبداً شبالا وزقافا ، ولهم في ذلك « رفق» ، والناس في بغداد يذهبون ويجيؤون ويعبرون في السفن ، ونرى لهم جلبة وضوضاء وثلثا طيب بغداد في ذلك الشط (٧٧٦) . ويلمح إلى أن اقليم خوزستان يشق أكثر الأنهار ، يجري في جميعها السفن على غرار مصر التي يقول ابن حوقل : « تركب في السفينة إلى أي موضع وبلدة تريد ، فان طرقاتهم في الماء بالمراكب »، ويضيف المقدسي : « وفي أيام زيادته (الماء) تستبحر مصر حتى لا يمكن الذهاب من هذه الضيعة إلى الأخرى إلا في الزواريق في بعض المواضع » (٧٧٧) .

ولا بد أولاً من ايجاد هذا الماء ، على الاقل ماء الحياة اليومية . فنعم البلدان التي تستقي من نهر يجري دوماً صافياً . وملعونة البلدان التي لديها ، وهذه الحال حول البصرة ، ماء ثلثه ماء بحر ، وثلثه ماء بحر ونهر ممزوج ، وثلثه بلا ذات يحركها المد والجزر على الشواطىء (٧٧٨). وفي حالات كثيرة ، ينبغي التفتيش عن الماء في قعر الآبار ، وبعضها عميق جداً ومكلف ، أو سحبه بقناة تحتفر بمشقة ، اذا أريد حقاً ان تحيا (٧٧٩) المدينة . أو يسعى إليه ويحفر في سرير نهر جاف للحصول عليه (٧٨٠) .

ثم لابد من نقل الماء . ويتم عادة بالقرب والدلاء ، على مسافات بعيدة أحياناً . تتجاوز عشرة كيلومترات ، حتى المزارع التي يسقيها الرجال بأيديهم (٧٨١) . وقد تعتمد مدينة بكاملها ، رغم الجهود المبذولة ، مثلما حصل في البصرة ، على الماء المحمول اليها من مكان بعيد

جداً ، على ظهور الابل أو في السفن (٧٨٢) . ويشاء حسن الحظ أن يتمكن الانسان أن يحدد طريق جريان الماء ويوزعه ويخزنه : فتتوالى في الوصف (٧٨٣) الاقنية والترع والأقنية المتعالية ، والمسنوات والجباب والصهاريج والخزانات ، وحتى الثلاجات أحياناً . أخيراً ، لا يجوز أن نتغاضى ، في المشهد ، عن مخترعات نقل الماء ، حيث يدعم الحيوان جهد الانسان : السحارات ، والنواعير المركبة على الأنهار والآبار ، والاقنية التي تسكب الماء في الحقول أو في الحمامات ، والبقر أو الابل التي تدير الدواليب . ويعثر على الصورة ذاتها في الاندلس وكرمان مروراً بمصر والشام وجزيرة العرب وفارس (٧٨٤) .

بقي أن يصان هذا الماء ، وان تدعم العيون أو الاقنية (٧٨٥) بالبناء ، أو اللجوء إلى شفاعة أحد الاولياء ، مثل النبي دانيال ، الذي اثار تابوته عصبيات محلية ، اذ كان ينقل إلى المواضع يستسقى به ، ثم أخفي في سرير كرخه ذاته (٧٨٦) . ويستسقى أحياناً بالسحر صراحة . فعلى جبل نهاوند طلسمان ، سمكة وثور من ثلج لا يذوبان في شتاء ولا صيف (وهما رمزان بديهيان لقوى جهنمية ومائية) ويقال إنهما للماء ألاّ يقل ، على النقيض ، يحظر طلسم آخر جرى آفة عين الملاحة ، أو طقس صب الناس الماء بعضهم على بعض (٧٨٧) .

أخيراً لا يجوز أن نهمل ممارسات القنقن . ونترك أبسط علامات وجود الماء في الأرض ، القنا والقصب ، ونعتمد مثلاً على النمل : فكلما اشتد سواده وكبر وتثاقل في مشيته ، كان الماء قريباً وطيباً وعذباً . على العكس ، متى سار سيراً حثيثاً وخفيفاً حتى ليصعب امساكه ، كان الماء على عمق لا يقل عن خمسين ذراعاً وثقيلاً واجاجاً . وينقل المسعودي

التقنيات الارقى التالية ، مع أشياء أخرى . وقد وجدها في كتاب الفلاحة لكاسوس (أو قسطس) (٧٨٨) : « ان من اراد أن يعلم قرب الماء وبعده، فليحفر في الأرض قدر ثلاثة أذرع أو أربعة ، ثم يأخذ قدراً من نحاس أو اجانة خزف، فيدهنها بالشحم من داخلها مستويا ، ولتكن القدر واسعة الفم . فاذا غابت الشمس ، فخذ صوفة بيضاء منقوشة مغسولة، وخذ حجراً قدر بيضة . فلف ذلك الصوف عليه مثل الكرة ، ثم اطل جانب الكرة بموم مذاب والصقها في أسفل ذلك القدر الذي قد دهنته بدهن أو شحم ثم القها في أسفل الحفيرة ، فان الصوف يصير معلقاً والموم يمسكه ، ويصير إلى مكان الحجر معلقاً ، ثم أحث على الاناء التراب قدر ذراعين أو ذراع ، ودعه ليلتك كلها . فاذا كان الغد قبل طلوع الشمس ، فاكنس التراب عنه وارفع الاناء ، فان رأيت الماء ملزقاً بالأناء من داخل قطرا كثيراً بعضه قريب من بعض والصوفة ممتلئة ، فان في ذلك المكان ماء، وهو قريب ، وان كان القطر ملتزقاً (٧٨٩) متباعداً بعضه عن بعض والماء في الصوفة قليل ، فان الماء بعيد ، وان لم تر على الاناء قطراً قليلاً ولا كثيراً ولا على الصوفة ماء ، فانه ليس في ذلك الموضع ماء ، فلا تتعنّ في حفره .

وتبذل عناية وانتباه فائقين في الحركة والنظر والوصفة على مستوى هذا الماء الثمين الذي ينبغي ايجاده وتنظيمه، وحفظه . فيقوم حوله توازن، عارض أحياناً ، يفتش عنه ، أو يستقر ، أو يختل في خضم الخصومات، وتقدر قيمته بالمال . والويل للفقير الذي يتحتم عليه أن يكتفي بأي ماء، المالح والكدر ، أو ان يجلبه من بعيد صافياً ويدفع ثمنه : ففي أبنية الفسطاط الشاهقة التي تكون بها الطبقات سبعاً وستاً وخمساً ، وربما سكن

فيها المائتان من الناس ، وصب لمن فيها اربع مائه راوية ماء ، ويدفع دانق لقاء صعود كل طبقة (٧٩٠).

ويعثر في المناطق الجافة في فارس أو آسية الوسطى ، التي شاء حسن الحظ ، بنعمه الله ، فعلاً ، ان يحبوها أنهاراً غزيرة ، على مجتمع يرتكز كله ، إلى أقصى حد ، على توزيع الماء المنظم حسب تقليد منذ قرون عديدة . فالسدود والاقنية ، وشعب الأنهار ، والواح الاغلاق أو التوزيع المفتوح فيها ثقوب معيرة بعناية ، كل ذلك خاضع إلى إدارة يقظة تتخذ القرارات وتراقب وتصوب وتستصلح . وعلى رأس هذه الادارة شخصية مرموقة ، برتبة أمير ، يقال إنه أقوى من أمير الحماية ، تحت يده عشرة آلاف رجل مرتزق ونيف . واختار من الصفحات الطويلة التي تتناول هذا الري الحريص ، الاسطر التالية المأخوذة من عند المقدسي : « وأما نهر المروين ، فيخرج من تحت الغور ، فيمد مرو العليا ، ثم يعطف إلى السفلى ، فاذا صار منه على نحو مرحلة ، لقيه واد عظيم ، قد سد من الجانبين بالحطب عجيب وانحبس الماء حتى ساوى المصب . . . . ولا ترى أحسن ولا أتقن من قسمته . ويحكى عن الذي قسمه انه قال : ما تركت من العدل شيئا إلا وقد استعملته فيه ، إلا ما عجزت عنه . وقد أقيم لوح فيه شق على طوله ، في عرضه شعيره ، ربما علا الماء ، فبلغ طوله في اللوح ستين شعيرة ، فتكون سنة خصبة ، ويستبشر الناس بذلك ، ورفعت المقادير . واذا كانت ست شعيرات ، كانت سنة قحط . وموضع مقياسهم على فرسخ من المدينة ، شبه حوض مستدير . فاذا قدر المتولي لذلك ، انفذ البريد ساعية إلى ديوان النهر خاصة ، ثم ينفذون الرسل إلى جميع المتولين شعب الأنهار ، فيقسمون الماء على ذلك المقدار . وعلى الموضع الذي ذكرنا أولا اربعماية غواص

يراعونه في ليلهم ونهارهم ، وربما احتاجوا دخول الماء في البرد الشديد، فيطلون أنفسهم بالشمع . وعلى كل رجل منهم الخشب وجمع الشوك بشيء معلوم في كل يوم يستعدونه لوقت الحاجة » (٧٩١) .

اذن هذا هو وضع المياه، النادر أو المتقلب في معظم الأحيان ، بعد أن وجدت وصين وأهل . لكن أي ماء على وجه الدقة ؟ فحتى الآن لم نعرفه إلا في أصوله وحواره مع الأرض . والأشكال الطبيعية التي تتخذها تحت بصرنا أو يفرضها عليها عمل الانسان في النهاية ، لم نقومها إلا في غلافها الخارجي . مع ذلك . لا يمثل الماء عنصراً غريباً في جسدنا، بل على النقيض أحد مواده . الجوهرية على الارجح . فنحن ندرجه ونعيد إدراجه على الدوام في لحمنا ودمنا ونطفتنا (٧٩٢) . لذلك تعتبر معرفته حيوية بالنسبة الينا بقدر السيطرة عليه .

تصنيفات مائية جوهرية

يرى المسعودي ، استناداً إلى ارسطو (٧٩٣) ان الماء يتميز بثمانية طعوم ، العذب ، والملح ، والدسم . والحلـو،والمر ، والقابض ، والحريف .بالفعل ، يعتمد هذا التصنيف على المذاق ، كما نلاحظ ، لكنه يدخل أحياناً أيضاً أسساً أخرى : كالكثافة للدسم ، وضمنياً طبيعة الأرض ، على الأقل بالنسبة إلى الملح . ويميز تصنيف آخر ، مبني على تأثيرات المياه في الجسد : الماء العذب ، والبارد ، والاجاج ، والكبريتي ، والبوريقي ، والقاري ، وماء الحديد ، وماء النحاس ، وماء الجص ، وماء الزاج ، وماء البحر ، وماء الطين . وهنا تدخل طبيعة الأرض بقوة . مع الحرارة والمذاق والوسط : أرض وماء (٧٩٤).

على أن التصنيفين السابقين ثانويان . ويظل أهم تصنيف يرتكز على البرزخ القرآني المنوه به في أول هذا الفصل . وكنا قلنا إن له جوانب عديدة منها الأرض : على الأرض : أنهار كبرى يتأخر امتزاج مائها العذب بالأمواج (٧٩٥) ، عين تخرج من قعر البحر يغوص الملاحون في البحر ومعهم قرب (٧٩٦) يملؤونها بالماء العذب . المياه العذبة التي تواجه المياه التي تجعلها طبيعة الأرض اجاجاً (٧٩٧) ، مدن في النيل الأدنى ، يتردد فيها الماء بين النهر والبحر (٧٩٨) . أخيراً تتنافس الأرض والبحر على عنصر يتنازعانه : « فكل ما قارب الساحل جميعاً املاح الا اليسير » على حد قول الهمداني عن جزيرة العرب (٧٩٩) .

اذن كل هذا معروف ومدون . ويتفوق عليه بالأهمية التصنيف الذي يحاول أن يعطي تفسيراً أصلياً للظاهرة الطبيعية . ويلاحظ أيضاً فارق كثافة ، من خلال القدرة على الدعم ، كما أثبت أرسطو ذلك بتجربة البيضة التي يتفاوت غوصها حسب كمية الملح المذاب (٨٠٠). بقي أيضاً أن نعلم من أين يأتي هذا الملح . في هذه التجربة الدائمة التي تجريها الأرض منذ الأزل . فالمسعودي يرجع إلى الاصول ، ويقول : « وذكر ان بعض الأرض لم يسرع إلى بلع الماء ، ومنها ما أسرع إلى بلعه عندما أمرت ، فما أطاع كان ماؤه عذباً اذا احتفر ، وما تأخر عن القبول ، أعقبها الله بماء ملح اذا احتفر وسباخ وملاحات ورمال . وما تخلف من الماء الذي امتنعت الأرض من بلعه انحدر إلى قعور مواضع من الأرض ، فمن ذلك البحار » (٨٠١) . وبذا يصبح الماء طعمان : العذوبة والملوحة ، لأن هذه خاصيتها منذ البداية . ونجري على هذه الملوحة بعض الملاحظات . منها أن الملح ، وسيلة العقاب ، يهب ماء الأرض الآثمة طبيعة فريدة. فالماء الملح واحد على البر أو في البحر

وفي جميع الاماكن في أيامنا الحاضرة . ومنها ان الماء عنصر منفصل يستقر . ولا يتم امتصاصه الا اذا شاءت الأرض ، فلا دخل له بالحدث بالتالي ، ولا يجوز على هذا الأساس ، اعتباره ملعوناً ، أي ، بمزيد من الدقة : ليس سبب اللعنة التي أصابته . ومنها أيضاً أن الملح ، وهو واحدمن العناصر الداخلة في تركيب الأرض ، يتلاشى هنا تماماً أمام الملح الذي يعتبر عامل تحول . ويصبح ، اذا جاز القول ، العنصر الخامس في العالم . ومنها أخيراً أن العقاب يعدل نشوء الكون : فلم يعد الماء العذب والماء الاجاج ، مثلما كانا في البدء ، عنصري توزيع متناسق ومتوازن ، بل حصيلة صدفة ، وآثار ، بالمعنى الصحيح والمجازي ، فوضى تغلب ارادة الأرض .

وينتقل المسعودي في مكان آخر من تاريخ الماء إلىعمله ، فيقول ان ما غلب عليه الهواء من الماء كان عذباً شروباً ، وما امتنع الهواء من التمكن منه غلبت عليه أملاح الأرض وسبخها وصار ملحاً اجاجاً(٨٠٢). فلم يعد ينفض اجتماع العناصر الثلاثة إلا النار . ويلمع ابراهيم بن وصيف شاه إلى دور النار ، عندما يؤكد أن عذوبة الماء وملوحتها يزدادان حسب الاتجاه إلى الشمال أو نحو الشمس (٨٠٣). ويبدو تدخل هذا العنصر واضحاً جداً: فالتبخر يشتد كلما اقتربنا من المناطق الحارة ، ويزيد نسبة الملح في الماء ويعتبر نص المسعودي أعقد ، نظراً لما يغفل ذكره . ويسلم بأن الماء يملح بترشحه في الأرض ويعذب بفعل الهواء . لكن هل يحصل هذا دوماً أم في حالات معينة فقط ؟ فاذا كانت الملوحة احدى ثوابت الأرض ، لابد من قبول ثلاث احتمالات بالنسبة إلى الماء . فهو اما أن يكون عذباً بطبيعته ويحميه عمل الهواء ، فلا يجعله يملح بتماسه بالأرض ، كما يحصل في غياب الهواء . واما أن يكون عذباً بطبيعته

أيضاً ، ويملح بتأثير الأرض . ويصبح عمل الهواء في هذه الحالة . ان حصل ،اصلاحياً فيعيد إليه عذوبته . أخيراً،اما أن يكون الماء وحده،من بين هذه العناصر الثلاثة ، وفي البدء ، محايداً ، فيكتسب طعمين مختلفين محليين حسب ملامسته الأرض وحدها أو الأرض والهواء معاً . ويبدو الهواء في جميع الحالات المفروضة أقوى العناصر الثلاثة وأبرزها ، لأنه يظفر دوماً متى وجد . ولو فرضنا أن ملوحة الأرض عارضة أصلاً ، لتحتم علينا استعراض حالتين اضافة إلى الملوحة المبحوثة من قبل . فاذا كان الماء في أرض غير مالحة ، واتصل بالهواء ، يظل عذباً على أي حال ، بطبيعته أو بعمل الأرض . واذا كان الماء في أرض غير مالحة وانقطع عن الهواء ، يحتمل نظرياً أن يظل محايداً أو عذباً بحكم طبيعته هذه المرة فقط . في النهاية ، بعد هذا العديد من الطروح والفرضيات ، نتساءل ما اذا كان لابد أن نفتش عن أبسط تفسير وأوضحه أيضاً ، مرة أخرى ، في نوايا الخالق ، الذي يتصرف بالماء ، كما يتصرف بكل شيء ، كيفما يشاء : فهذا الموقف تفسير ما لا يفسر ، أو بالأحرى تخلي عن تفسيره ، يتخذ هنا شكل تاريخ التوراة الذي نحال اليه .

ويعارض تصنيف أساسي آخر بين المياه الباردة والحارة . وقد تكون الحارة باردة في البـــدء ، ثم متى هبت الجنوب ، تسخن تلك المياه (٨٠٤) ، أو ان الانسان ، فيما يبدو ، من بعض التطبيقات الاستطبابية ، يحول طبيعة الميـــاه ذاتها اعتباراً من مستوى حرارة معين (٨٠٥) . مع ذلك ، في الاساس ، يظهر الفارق الجوهري في البدء بين المياه الحارة وسائر الامواه ، الباردة عادة ، الزائدة البرودة أحياناً ، والجامدة تقريباً في بعض الحالات (٨٠٦) ، ويجمد بعض الماء في الصيف اذا اشتد الحر وقاظت السموم ، ويكون حاراً في الشتاء (٨٠٧) . واشرت

من قبل (٨٠٨) إلى بعض هذه الظاهرات المتصلة بخاصة بالبراكين. وأكرر هنا هذه التدوينات مع غيرها ، لأعطي الصورة النموذجية العامة عن هذا الماء (٨٠٩). وتخرج العين الحارة من قوى الأرض الحية والخفية، العظيمة والعجيبة . وتتميز أولا بالنار التي تخرج منها ، وقد تقاوم النار الماء وتطغى عليه . وفي الغالب ، يسلق البيض أو الارز في الماء الساخن، الذي تمعط فيه الجلود . ويشق إلى الحمامات منه قناة ، وتعالج به الاورام والجرب والقروح والبواسير ، وجملة عاهات أو أمراض مزمنة ، والمقعد و . . . واستغني عن الطبيب وبئس المصير .

ولا وجه شبه اذن بين هذا الماء والماء الآخر ، أي ماء الحقول أو حاجات الجسم اليومية . وتكاد الحمة ، إذا تبردت ، لا تؤمنها (٨١٠). وفي سائر النواحي ، يمكن القول إن طبيعة الحمة الاستثنائية تؤدي إلى استعمالات نادرة ، يكفي النزر القليل لكي تنقلب إلى تأثيرات مؤذية كالماء القاريّ أو النفطي (٨١١) . وإذا كان ترافق الأرض والماء شائعاً يشاهد كثيراً ، لأنه يجمع عنصرين نادرين أحدهما جاف والآخر رطب ، واذا كان ترافق الهواء والماء عادياً أيضاً ، لأنه يجمع تحت السماء عنصرين رطبين أحدهما حار والآخر بارد ، فان ترافق الماء والنار، على النقيض ، غير مألوف لأنه يجمع عنصرين متضادين أحدهما بارد ورطب والآخر حار وجاف . ونستطيع استخلاص النتائج ذاتها من الخصائص الأولية الأخرى : فالماء ثقيل كالأرض ، وبطيء كالهواء ، في حين النار خفيفة وسريعة في الوقت ذاته (٨١٢) . اذن تعتبر الحمة على وجه العموم دليل ظاهرة شاذة ، وترافق غير متكافىء يعلم الله وحده سره ، هنا أكثر من أي مكان آخر .

أجل ، يسمح هذا السر للانسان ان يفهم ، في الحد الأدنى ،

لماذا يجب عليه ، عندما يطرأ خلل على جسمه المركب من اتحادات أولية تفرضها الطبيعة ، ان يساعده ويعالجه باتحاد غير مألوف بين الماء والنار . ولو اطلع البشر على هذا السر ، لفسروا لماذا يجد العمل اللاطبيعي أحياناً هنا أو هناك ، مثل تسخين الماء الذي نقوم به يومياً في المطبخ أو الحمام، عنصرين مترافقين طبيعياً ، تجمعهما « الزراعة » وحدها : نقول بدقة هنا أو هناك ، في هذا المحل أو ذاك من الكرة ، لكن ليس في كل مكان.

فالتوافق والتنافر والاقتران ، ألفاظ تمثل لا صوراً فحسب ، بل أيضاً انعكاس انتشار الاعتقاد بتوزيع الوظائف العضوي في العالم كله. فالجنسية داخلة في طبيعة الأشياء . تماماً مثلما هي الحال عليه في عالم البشر الصغير . فيقابل المشرق الذكر المغرب الانثى ، ولكل منهما كواكبه ، وتأتي الشمس والقمر في طليعتها (٨١٣) . وتقسم الاحجار إلى ذكر وأنثى(٨١٤) . فلا عجب أن تقسم المياه على هذا النحو . وقد صنفها ابن الفقية حسب وضعها بازاء الجهات الأصلية ، فجعلها صافية في جهة المشرق ، وكدرة وحارة وثقيلة ومتغيرة في الجهات الأخرى (٨١٥) . ويخطو ابن حوقل (٨١٦) خطوة أخرى ، ويقول : « وربما ولدت المرأة القبطية الولدين والثلاثة والأربعة في بطن واحد بحمل واحد ، وليس ذلك بمكان ، ولا في شيء من البلدان ، ولا ذلك بالخصوص . بل ربما جرى في السنة دفعات ، وذلك ان ماءهم على قولهم انيث يريدون ماء النيل ، وفيه خاصية لذلك على قولهم » ثم يقارب ابن حوقل بين النساء القبطيات وبين غنم تركستان وخوارزم حيث تلد الشاة في السنة ستة وسبعة رؤوس من الحملان . والمعز كما تلد الكلبة . ويعلل هذا الوضع ويقول ان اغنامهم : « ترعى نهاراً وتنفش ليلا ، فقواها زيادة ، وما ترعاه صحيح ملائم لها . وهذا يذكره الخراسانيون ان هواءهم يغذو حيوانهم

ويزيد في صحتهم . وينقي ابشارهم ، ويدفع عنهم الأمراض والاعلال صحة مياههم » . فالخصب والصحة يترافقان ، ويحتاجان بالتالي إلى الأرض ذاتها ، قطعاً ، وإلى القمر معها عبر الليل ، وإلى الهواء ، وأخيراً الماء الذي يحتويه العشب ضمنه ويحمله على أوراقه . ويضيف ابن فضلان : اذا صار الماء ثلجاً في الشتاء قوّى الانواع .

بالتالي يبدو أن الماء الانيث هو الماء الذي ينشأ من وضع يجمع التعرض إلى احدى الجهات الأصلية . والأرض والمناخ والقمر . فما هو الماء الذكر ؟ يعارض المقدسي في هذه النقطة بين نهري بلاد ما بين النهرين ، ويكتب : « واما دجلة فانها ماء أنثى . لطيف . جيد للمنفعة . وكان أبو بكر الجصاص يأمر ان يحمل له الماء من فوق نهر الصراة ، قبل أن يلقاه الفرات . . . واما الفرات فانه نهر ذكر فيه صلابة » (٨١٨) . ويطيب للأدب أن يتبسط (٨١٩) في موضوع ماء دجلة ، ويعتبره أحد مواضيعه المفضلة : وكان أحد الرجالات ورد فارس واصبهان ، ومعه من ماء دجلة ماء كان يشربه منه في المواضع التي يجتازها ، فلما شرب من ماء اصبهان آثره على ماء دجلة ، فأمر باراقة كل ما كان معه من ذلك ، واقتصر على هذا الماء لما فيه من العذوبة واللذاذة ، وعمله في هضم الطعام . وهذا في ماء دجلة معدوم . وتتفق هذه الحالة في الواقع مع حالة المياه الموضوعة في جهة المغرب المنوه بها من قبل .

ويبدو أن هذا الحكم السيء على ماء دجلة نسبي جداً ، في هذه الحالة ، املاه انزاله إلى المرتبة الثانية بعد ماء أفضل منه . وبذا نواجه انقلاباً حقيقياً في التقويم التقليدي ، يجعل ماء كان الناس يفضلونه ماءاً رديئاً في حين احتفظ الفرات ، النهر الذكر الذي فيه صلابة ، مثلما رأينا ، باسم الماء العذب (الفرات) الذي عمل منه القرآن علامة عطف

الله على البشر . وهكذا تأتي مقاربة خصائص جنسية الماء ، فيما يبدو ، سيئة وهاربة وضمنية ، وحتى مجهولة أحياناً . أو اذا اردنا ، أن نبرز التضاد الذكر الانثى ، ملاءمته ، إن لم يكن شهرته ، فلا بد أن نسلم بأنه يقتصر على نفسه ، مستقلاً عن الخصائص الثانوية التي نصفه بها خطأ . فيصبح الماء الانيث ، على نقيض الماء الذكر ، ما يفرق به حصراً ، كما عند ابن حوقل (٨٢٠)، من فرط تنشيط خصب النساء ، وبلا أدنى شك ، خصب الأرض المقرونة به مرة أخرى . وهكذا نعود إلى ظهور الاعتقادات القديمة بالماء الأصلي أو السفلي ، المستتر في قعر الأرض والانثى ، الذي يختلف عن ماء السماء العلوي والذكر (٨٢١) . أقول معتقدات قديمة ، بقيت إلى أيامنا الحاضرة ، حتى المذكر والمؤنث ، اللذين نطلقهما على أسماء الأنهار (٨٢٢) .

أخيراً هل يجب أن نتحـدث عن تصنيف على أساس الحـواس ؟ فاذا كان الذوق ، كما سوف نرى ، أحد أسس تقويم المياه ، مرفوقاً أحياناً بحاسة الشم واللمس ، فالمرء يذهل على النقيض لندرة الرؤية . ففيما عدا الخرائط ، التي يبدو فيها النهر باللون الأزرق (٨٢٣) ، لا نجد شيئاً من لوحة التلوين المألوفة في هذا النوع من التصوير . واذكر التضاد في خوزستان بين نهرين ، بخاصة في وقت الفيضان ، الذي يصبغ أحدهما بالأحمر ويبرز اللون الأبيض للنهر الآخر . واللون الأحمر القاني في الزاب الأكبر قرب منابعـه ، وبحيرة زرقـاء في الجزيرة ، لانعكاساتها كانعكاسات الزجـاج الملوّح . والـلـون الأخضر أو كأنه الزنجار ، في بعض العيون ، الفاقع حتى ليمكن صبغ الثياب به أحياناً ، أخيراً بخاصة النيلين ، على الأقل عند الاسواني : أحدهما أبيض ناصع ولبني أخذ لونه من أحد روافده أو من الأراضي التي يجتازها ، والآخر أخضر

غامق . انما صافي بآن واحد حتى لترى الاسماك في قعره ، ويحافظ النيلان على مياههما منفصلتين على مسيرة يوم بعد التقائهما (٨٢٤). اذن تسجيلات متفرقة وسريعة . ولا يسع المرء حقاً أن يصنع مشهداً من ألوان الماء . وفي معظم الأحيان ، يتوارى الماء الجميل وراء الماء النافع ، ويخفي الماء الجاري الوان الحياة خلف الحياة ذاتها . فسحر الماء هو وجوده .

سحر الماء الجاري

لا شيء يؤثر ، كما قلنا ، مثل العين في المفازة (٨٢٥) . ويكفي ذكر اسمها وحده ، بلا اشارة إلى أشكالها : بئر ، عين ، حوض ، أو اماكنها ، لكي نقطع سلسلة طويلة من الخراب والرمل والعطش ، ولعرض الحياة أمام ناظرينا اللذين يصبحان ناظري المسافر ذاته (٨٢٣). فاليعقوبي يشير إلى أن السلوك إلى الواحات المصرية في مفازة وجبال خشنة ست «رحلات»، ويعبر عن المفاجأة المذهلة وظهور المزارع والعيون المطردة والمياه الجارية ، والنخل وأصناف الشجر والكروم ومزدرع الارز — ومن يدري ماذا أيضاً ؟ — في حين يناقضه ابن خرداذبه ويستشهد بأحد الشعراء،ويتحدث عن برك ماءأقل مايوجد فيها الماء :

هــذا أحــق منــك بالتــرك
الذئــب يعــوي والغــراب يبــكي (٨٢٧)

لكن لن يفقد الماء مكانته اذا ما غادر المفازة ، ويرتبط ظهوره، حتى في الأماكن الصحراوية ، بالسحر ، ويؤدي بما يثيره من غبطة لدى البشر . واعجاب لدى الكاتب،إلى العديد من الأنشطة والمشاهد .

ففوارات المدن ، وخنادق القلاع ، والجنان العظيمة التي تغطي خضرتها ارجاء واسعة بتمامها . وشبكات الأنهار والأقنية . والطواحين والملاحة النهرية والآبار ، والبحيرات والحياض ، والعيون ، كل هذه المظاهر تعتبر أشكالاً ناشئة عن تفجر المياه ، وأسباباً لوجودها المستمر في النصوص الجغرافية ، سواء أغفل اطلاق أسماء عليها ، أم وردت هنا وهنالك مرتبطة بأمكنة محددة جيداً وبأسماء خاصة بها (٨٢٨) . وأكتفي هنا بذكر اثنين من مصنفي الجغرافية فقط ، فالاحالات بليغة بحد ذاتها (٨٢٩).

أما التجربة العكسية، فمضار الماء، وفي طليعتها تقلبها واندفاعاتها العابرة . فهنا ينقطع النهر ، أو تجف البئر أو البحيرة (٨٣٠) ، وهنا يهجر النهر مجراه ، ويفيض ، ولابد من رفع خشب فيه على قدر زيادة الماء ، وماء غزير يطوف بالمدينة ويهدد البشر بالغرق (٨٣١) . من ناحية أخرى ، إذا كان الماء بعامة وارداً في عداد فضائل البلدان (٨٣٢) بخاصة ما كان منها ينتهي اسمه بألف ونون (٨٣٣) ، فان وجوده يدفع عادة إلى التطرّف : كالشغب والخروج والزنا واللواطة (٨٣٤) .

مع ذلك ، لا توازي النواحي السابقة منافع الماء. والبرهان التحفظ بشأن طبيعة احدى المدن ، لولا قلة مائها نوعاً أو كماً: مثل بخارى أو الرملة في فلسطين ، وحتى مكة ، رغم فضائلها السامية(٨٣٥). ولاشيء أشجى ، فيما أظن ، من مشهد هذا البلد في الجزيرة : « فالمكان يعرف بالاوسل : نزه ، كثير الشجر، والتمر والخضر والفواكه والكروم . . . .(أما اليوم) فهو كالبور مع شرف حال هذا الأوسل ومكانه من الريع إذا زرع وفي أعاليه ساقية تسقي شيئاً من الأرض إذا زرعت بماء تافه ترب » (٨٣٦) .

ويتضح بجلاء تام من المشاهد الموصوفة كاملة أو في خطوطها الرئيسة ، ان عمل الانسان في الطبيعة حاسم جداً في إيجاد الروعة الحقيقية في أحد البلدان . ولا نقصد الطبيعة الموحشة الجذابة ، مثلما قد نقول ، بل تلك الأماكن الفردوسية وارياف دار الاسلام المشار إليها من قبل في الفصل السابق . ولنعد إليها . ونلح هذه المرة على الماء الجاري . فمتى استصلح يكثر وتحوله القنى إلى شرايين أرض . وعجيب أمر هذه الأراضي المروية على نطاق واسع ، التي تتغطى كلها بشبكة ري تسقيها ، وتتجاوز امكاناتها حاجات السكان : مثل مصر وغوطة دمشق والصغد وفرغانة وخوزستان والخابور الأعلى بعيونه ، وعدتها ثلاثماية ، والبصرة التي بلغت عدتها مائة ألف نهر وغيرها (٨٣٧) .

وتعتبر المدينة قمة البناء الاجتماعي ، وتقع في وسط شبكة الماء التي يسيطر عليها الانسان ويشقها . ويقال لنا بأن الماء متوفر في جميع الأماكن : في القصور والدور والحمامات والخانات والجوامع والأسواق والمحال العامة ، ويوزع على الفوارات ، ويقدم ثلجاً إلى المارة (٨٣٨) . وفي جامع دمشق فيض حياة ولذة عيش تنبعث منها صوره ، وهو يغسل حتى علو ذراع . ويقال « ليس ببيت المقدس أمكن من الماء والآذان» ، فيصبح حظها أفضل من حظ مكة من هذه الناحية . ومدن الديلم التي تجرف ثلوجها بالأنهار المحولة اليها ، وأسواق فاس التي تنظف يومياً وترش بالماء الذي يسحب من النهر (٨٣٩) .

ويمتد البصر أحياناً ، ويحدق بمشهد واسع من الأرض والماء ، كما هي الحال في مدينة الاهواز في خوزستان ، التي يقول عنها المقدسي (٨٤٠) « والجانب العراقي جزيرة . . . بينهما (أي الجانب الفارسي والجانب

العراقي) قنطرة هندروان من الآجر . عليها مسجد يشرف على النهر حسن . وقد كان عضد الدولة هدمها وبناها مع المسجد بناءاً عجيباً لتضاف اليه . فأبى الناس أن يسموها الا قنطرة هندروان . وعلى هذا النهر دواليب عدة يديرها الماء ، تسمى النواعير . ثم يجري الماء في قنى متعالية إلى حياض في البلد . وبعض يجري إلى البساتين ، ويمد العمود (أي عمود النهر) من خلف الجزيرة ، نحو صيحة ، إلى (٨٤١) شاذروان (٨٤٢) ، قد بني من الصخر عجيب ، يتبخر الماء عنده . وثم فوارات وعجائب . والشاذروان يرد الماء ، ويفرقة ثلاثة أنهار ، تمد إلى ضياعهم ، وتسقي مزارعهم وهم يقولون : لولا الشاذروان ما عمرت الأهواز ، ولا انتفع بأنهارها . وفي الشاذروان ابواب (٨٤٣) تفتح اذا كثر الماء ، لولاها لغرقت الأهواز . وتسمع للماء المنحدر صوتاً يمنع من النوم أكثر السنة . وزيادته تكون في الشتاء . لأنه من الأمطار . لا من الثلوج . ونهر المشرقان يشق في أسفل البلد ، إلا أنه يجف عامة السنة . ويتبخر الماء بموضع يسمونه الدورق . والأهواز بهذه الأنهار طيبة ، والسفن تذهب وتجيء وتعبر مثل بغداد . وتفترق الأنهار في أعلى البلد ، وتجتمع بأسفله في موضع يقال له كارشتان (٨٤٤) . ومن ثم تركب السفن إلى البصرة . ولهم طواحين على الماء عجيبه » .

ويذهب ابن حوقل في التدقيق إلى حد أبعد أيضاً في سمرقند ، التي يمجدها في نثر يحاول تنميقه أن يعكس تنميق المشهد الطبيعي (٨٤٥) « وعلوته (أي القهندز) فرأيت أحسن منظر عاينه مبصر ويمتع به ناظر : شجر أخضر ، وقصور تزهر ، وأنهار تطرد ، وعمارة تتقد ، لا يقع الطرف منه على مكان ، الا ملأه ، وعلى باغ (٨٤٦) إلا استملحه واستصباه (٨٤٧) ، قد فصلت (٨٤٨) ميادينها (٨٤٩) ، وتناهت

تحاسينها . وقصّصت (٨٥٠) به أشجار السرو . فجعل منها طرائف الحيوان من الافيلة والابل والبقر والوحوش المقبل بعضها على بعض كالمتناجية ، والمطالب (٨٥١) بعضها لبعض كالمتقابلة المتعاقبة . فيا له منظراً ما أتلفه للاموال ، واخذه بمجامع قلوب الرجال . هذا إلى أنهار تطرد ،وبرك مسجورة، لا تزال ترتعد ظريفة المغاني (٨٥٢) وقصور (٨٥٣) ومستشرفات (٨٥٤) سامقة المباني ، قد رصفت . فهي مساكن جليلة ومجالس (٨٥٥) نفيسة،وأحوال تدل على ملوك جلة » (٨٥٦).

وتصبح هذه المياه الجارية ، المتنافس على تعظيمها . ان جاز لنا هذا القول، موضوعاً في ثقافة العصر العامة . وتخصها جغرافية الأدب عند ابن الفقيه (٨٥٧) ببحث طويل عنوانه « حديث المياه ومدح الماء البارد » (٨٥٨)، ليس سوى نشيد حمد للمياه الجارية . فلا شيء ينقصه: القرآن ، اجازة الرسول ، الحكمة القديمة ، الخصائص ، عناصر المياه وفضائلها ، لا ئحة البلدان التي تجملها ، نوادر ، صور بيانية يرمز فيها الماء إلى الجمال والشرف ، وفي النهاية وبخاصة ، الشعر — نحو ٧٠ بيتاً — أختار منه ما يلي :

والماء يجري من متون الصفا
على الخزامى والرياحين

تشمها عند هبوب الصبا
أطيب من نفحة نسرين (٨٥٩)

وهذه الابيات أيضاً :

قالوا ترى النيل في مصر فتألفه
إذا ترامى على آذيه الزبدُ

فقلت أحسن من نيل بمصركم
ماء العيون على الرضراض يطردُ

في جانبيه رياض الزهر زينها
نسيم نوارها والطائر الغردُ

ترى الخزامى يناغي الأقحوان بها
عند الغدوّ كما ناغى أبا ولدُ (٨٦٠)

وهذه أخيراً ، كنموذجين عن موضوع واحد :

١ – ألقى الربيع على ارونِدنا خلعا
خضرا وخلعته البيضاء قد نزعَا

كساه ثوباً كثير الوشي زّينه
حدائق نصّع من فاقع لمعَا

ملاءة نسجتها ديمة فلها
بدائع جمّة قد فاقت البدعَا

لها رقائق حسن ليس يفهمها
ماذا جواهرها إلا الذي صنعَا

صفر وخضر وحمر ليس يشبه ذا
هذا ولا ذاك هذا عندما طلعَا

للماء فيه خرير رجع نغمته
في الروض ترجيع نشوان اذا سجعَا

تـــرى حـــدائقــــا كـالبيـــض لامــعـــة
بـــين الاقـــاحي فضـــاءاً فـي الريـاض معـَـا

إذا بـكـــت مـــزنـــة مـــن فـوقهـــا ضحكـت
شـــقـائـــق أخـــرجـــت من بطـنهـــا خلعـَـــا

فـــاو رأيـــت اذا مـــا الشـــمس صبحهـــا
رأيـــت مـــا لـــم يـــرى خلـــق ولا سـمعـَــا

طـــوداً منيفـــاً عـليـــه شـــملـــة نســـجـت
خضـــراء فارتفعـــت فيـــه كـمـــا ارتفعـَـا

إذا الشـــمـــال عـليـــه جـــرّ اذيـلـــــه
حســبتــه ســـوق عطـــر بينهـــا وضـعـَـا

فـــانظـــر إلـــى بطـــن اورنـــد البهـــيّ تـــرى
بـــابـــا إليـــه مـــن الفـــردوس قـــد شـرعـَـا

واســـمـع اذا قـــرقـــرت قمريـــة طـــربـــا
وهـــاج ورشـــانـــه فـــي ســـفحـــه ودعـَـا

والثـــاغيـــات بهـــا تـــدعـــو هـوالعهـــا
فكـــل ثاغيـــة قـــد ارقـــدت هـلـعـَـا

مـــن لـــم يكـــن فـــي ذرى اورنـــد معتكفـــاً
فـــذاك عـــن صحبـــة اللـذات قـد خدعـَـا (٨٦١)

٢ ـــ اودى الشـــتـــاء وهاج كـــل مغـــرِّد
وبـــدت معـــالـــم للربيـــع الأحمـــدِ

عكفت على اروند عير سحابة
سوداء مظلمة كلون الإثمد
تبكي بمدمعها ويضحك ثغرها
عن ساطع كالكوكب المتوقّد
هملت بما حملت فألبست الثرى
من نسجها حللا وان لم تعقد
من كل أخضر كالحرير وفاقع
نضر وأحمر ساطع متوقّد
شملت عصابة نوره لهم الثرى
فتعممت منها هضاب الفدفد
صارت عيوناً الثرى لما بكت
فيها السحاب بأعين لم تجمد
وكأنها قمر وقد طلعت . . . . .
شمس الضحى من جوهر متبدد
حسنت فحسّنت الثرى بمحاسن
حسرت مساوي الشتاء الأنكد
شربت من الوسمي أول صوبه
ومن الزلال البارد المتطرد
وكأنما لبس البقاع معصفرا
منها وشح صدره بموّرد (٨٦٢)

نفت الصبا عنه القذى بنسيمها
فكأنه لمعان متن مهند

تعيد هذه الأبيات إلى ذاكرة قارئها ، متى نقلت إلى اللغة الفرنسية ، تكلّف شارل أورليان ، وتصنّع القس ديليل في بعض قصائده الريفية . ولا تدفع جودتها إلى الاهتمام بها ، بل الرغبة في روايتها . وتعدّ نوعاً من السجع لا شعراً . وهذا أقصى ما يمكن عمله في وصف المياه الجارية . وقد تجاوزت جغرافية الأدب ما ذهب إليه نثر مصنفات المسالك والممالك فتوخى ابن الفقيه استنفاد جميع امكانات اللغة في سبيل تعظيم إحدى العجائب .

وتستعرض مواضيع شتى . لكنها تركّز على الماء ، بجلاء تام ؛ وتقصد ماء العيون ، الذي يتحدث عنه متن النص ، ويشير إليه عنوانه. وربما أتى ذريعة لادخال قصيدتين عن جبل اروند في سياق الكلام . وحتى لو لم يسمّ الماء صراحة إلا مرة واحدة في كل منهما ، فالمشهد ينتظم حول خريره عند خروجه من منبعه . وهذا المشهد مقدس لأن الله وحده سيد الطبيعة ، ويحيط علماً بها ، ولأن الطبيعة ذاتها صورة عن الجنة . ولا يسع الانسان إلا أن يعجب بها ، ويصفها ، ويذكر الله باريها ومبدع الجنة ، ويحمده ثم ان المشهد اياه جبلي ، يقترن فيه موضوع الأراضي الشاهقة الماطرة والمغذية ، مثلما جاء في الفصل السابق ، . بموضوع وطن يتراءى بين السطور ، لأن جبل اروند جبل أمّ يقع في بلاد همذان مسقط رأس ابن الفقيه وموطن صاحبي القصيدتين (٨٦٣).

وتبدو علاقات عناصر الطبيعة أدق ، فيتجلى دور النار ، على سبيل الاستعارة فقط ، في دخولها في نطاق الألوان . لكنها تمر في الهواء

وتقترن به ، وتسقط الصواعق ، وتحول الماء إلى سحاب بعد تحريره من الجو . أما الهواء ، فيتبدى سحاباً ورياحاً ، ويحمل السحاب الماء وقد يتصل بالنار . وربما هبت الريح شرقية جافة ، ومرت على وجه الأرض ، وذرّتها غباراً ، أو أتت من جهة الشمال ، وجاءت من جبل اروند الرطب ، فاعتبرت ريح السحاب ، وبالتالي المطر (٨٦٤) . وتتعدد صلات الهواء بعناصر النار والماء والأرض ، وتتنوع خلافاً لوضع النار ، التي لها علاقة بالهواء والماء دون سواهما . أما الأرض فتشبه عنصر النار بعلاقتها المزدوجة بالهواء عندما تصير غباراً ، أو عندما تستقل السحاب والرياح في قمة جبل اروند . ولها صلة خاصة بالماء أيضاً . أما عنصر الماء فيسعه أن يماس العناصر الثلاثة الأخرى ، مثلما يفعل الهواء . فالسحاب يصله بالهواء ، والبرق بالنار متى لمع في السحاب ، ويلامس هو بالذات الأرض ، عندما يتلقاه سطحها أو يغور في جوفها.

وهكذا يبدو أن ما أريد له أن يكون اشارة إلى الماء الجاري في البدء ، يدفع إلى التنويه بالكون اجمع ، بعناصره التامة المتشابكة . فالمقصود بالماء الجاري في القصيدتين الماء الذي تمتلكه الأرض ، لأنه يأتي منها ، ثم ماء المطر ، الذي يهطل من أعالي السماء والهواء بمساعدة النار . وهذا التمييز مصطنع أصلاً ، لأن هذا الماء لا يتبدل أبداً : فهو ينشأ في الهواء والنار ، ويسيح على وجه الأرض ، أو ينفذ إلى اعماقها ، ليتفجر عيوناً فيما بعد ، ويجري من جديد (٨٦٥) ويعدّ التضاد الوحيد الصحيح . ذلك الذي يميز في الحقيقة ما يجري من ماء بفعل عجيب في الربيع ، وما لم يعد يجري أو ما لم يجر بعد ، اما لأنه جفّ بسبب جفاف الصيف ، وهو مضمر بداهة ، واما لأن قسوة الشتاء شلّت حركته وحوّلته إلى

غطاء من ثلج أبيض . وتوحي بجميع هذه الأمور ، بالتضاد ، رؤية سحاب لا يتوقف ، وهطول أمطار متواصلة ودائمة في الربيع (٨٦٦) .

مع ذلك ، مهما كان التمييز مصطنعاً ، على نحو ما مرّ معنا ، لابد من إبقاء التفريق بين الماء الذي يجري مباشرة متى هطل ، والماء الذي تمتصه الأرض ويبزغ عيوناً تترقرق في وقت لاحق . فهذا التمييز لا يتناول شكل هذا الماء وتاريخه ، بل طبيعته بالذات ، التي تتبدل ، وإن كانت واحدة في البدء ، حسب تدخل العيون أو عدمه . فقد يلامس المطر وجه الأرض بسيحه عليه ، وان كان ناشئاً عن الهواء والنار ، إلا أن ماء العيون وحده ، دون سائر المياه ، يجمع فعلاً في ذاته ، مادة العناصر الثلاثة ، لأنه يضيف إلى هواء ونـــار أصله ، طبيعة الأرض الحقيقية التامة ، التي يسعى وراءها عندما يغور في أعماق اليابسة . فالهواء يغلّف هذا الماء ، والنار تخترقه ، وهو ينفذ إلى جوف الأرض ، وبذا يقع خلافاً للمياه الأخرى ، على مفترق الكون . ومهما كان الحديث الصريح عنه ضئيلاً في القصيدتين — ولو لم يسمّ حرفياً عيناً في القصيدة الأولى — فهو يعدّ فعلاً مركز دائرة دقيقاً لكن أساسياً ، ونقطة حيوية ينتظم البناء حولها . لذلك نكرر ونقول إن ابن الفقيه أدرج القصيدتين في عداد النصوص التي تتغنى بالماء عبر السحاب الذي ينشأ فيه ، والأرض التي تعيده إلى الوجود .

وتؤخذ مجموعة ألوان الحياة من بعض الألوان الأساسية : نعني الأخضر ، والأحمر ، القانيء أو الزهري ، والأصفر الفاقع النضر (٨٦٧) والمأخوذ أحياناً من بعض الزهور ، كالزعفران والبابونج (٨٦٨) . ويعتبر توزع الألوان ونضارتها أهم منها بالذات . ويؤكد النص ،

في الحرير وتوشيته ، على بريق يعتمد على تقوية درجات الألوان المتجاورة ، وغير المختلطة (٨٦٩) التي يتناقض ترتيبها مع ترتيب جوهري الأفق المتبددين اللذين يحجبان الشمس عند شروقها (٨٧٠). ويتجمل كـــل ذلك بموضوع الوميض الدائم : فيتقابـــل بياض غطاء الشتاء وسواد الغيوم ، مع بهاء الشمس وخاصة الماء ، الذي يحدث انعكاسه في العين قمرا في وضح النهار ، ويثير ما يشبه جواباً على لمعان البرق ، وبريق السيوف في الريف أو الغبار ، وهذه النار التي تحرق جميع الألوان .

ويعد المشهد على نحو ما أشرنا إليه ، غزلاً رعوياً ، يعكس صورة الجنة : فليس فيه حيوان نبيل ، كالأسد أو العقاب مثلاً ، بل طيور فقط ، أو حيوانات مسالمة يلهم تصرفها الحب : كالشاء واليمام . ويرمز إلى الامان (٨٧١) والجمـــال والحرية ، بموضوع الثياب ، كما هو (٨٧٢) ، أو معبراً عنه بالمعطف ، أو الحجاب ، أو الثوب ، أو العمامة ، أو المنديل (٨٧٣) ، أو التاج : وهذه ثياب مطمئنة بالفعل ، على نقيض الثياب الباردة في الشتاء . وهي مزيّنة من جهة أخرى ، بالألوان الربيعية الفخمة ، وتعتبر حللاً لم تعقد (٨٧٤) وواسعة اتساع الجبل اللامحدود . ويغمر الفرح جميع الأشياء . فبعد عناء الشتاء القاسي ، تأتي مباهج الربيع الطيب والعيد واللذة . فالحياة التي يحف بها الماء ، تعد في أساسها بسمة سامية لبلد متيقظ : فوراء الرعب الناشيء عن البرق ، يكمن افترار السحاب الذي يتبدد ليكشفه ، ويصلح بشير بعث الماء في جميع الأماكن تقريباً ، كالحركة . وتدرك الصورة التامة في ضوء العالم الوليد ، في فجر اليوم وفجر العام مع الربيع ، أخيراً في فجر هذا الربيع ذاته بتباشير أمطاره .

ولا ينقص هذا المشهد سوى كائن واحد هو الانسان . والواقع أن هذا المخلوق موجود في جميع الأماكن في هذه الطبيعة التي يظن أنها عذراء . ولا يعبّر عن وجوده بالصوت الذي يتحاور مع خرير الجدول، بل بنشاط يديه بالذات . بالفعل لا يكفي أن تعيره الأرض ألأثمد (٨١٥) لزينته ، والسيف لحيوية صباه الملتهبة . ويشبه البستان البري حديقة الانسان : فالألوان ، كما قلنا ، مركبة وموزعة ومنسجمة ، وتنتشر العطور في سوق زهور شاسعة . ويطلق اسم حديقة أو روضة على البستان الذي يغني فيه أحد الأشخاص ويطبعه الانسان بطابعه ، ويطلق أيضاً على البستان الآخر الطبيعي المنقول عنه (٨٧٦) . وهكذا نعود إلى أرياف دار الاسلام بالاتحاد الوثيق بين الطبيعة والانسان ، هذا الاتحاد الذي يجعلهما هذه المرة خاضعين للمياه الجارية .

المياه الجارية : تصنيفها على ثلاثة مستويات

تحدثنا عن تصنيفات جوهرية للمياه الجارية ، وأشرنا إلى بعض سماتها ، فاستعرضنا المياه العذبة والمياه المالحة على درجات في البحر والبر ، والماء الذكر والماء الأنثى ، والمياه الحارة والساخنة . وبقي علينا أن نتناول الآن ، لا المياه التي يستعملها البشر في حاجاتهم الخارجية . كما في الملاحة أو الغسيل أو الري أو ادارة الطواحين ، بل المياه التي يتغذون بها ، أي المياه الحيوية ، بمعناها الشامل . وتجري فئة من الجغرافيين . تصنيفات في هذا المجال . فابن رسته مثلاً يلمّح تلميحاً عابراً إلى أن أهالي صنعاء يفضلون مياه المطر على مياه العيون ، وإلى أن مياه الآبار أفضل من مياه نهر دجلة ، التي يشيد جميع الناس بفضائلها. فقد : «قالوا وأفضل المياه ماء السما» الذي يؤخذ في ثوب نظيف ، ثم ما وقع منه على

جبل فيجتمع على صخرة ، ثم ماء الأنهار العظام . ثم الماء المستنقع في الصحارى اذا لم يكن عشب فيه . ثم ماء القناة . ثم ماء الحوض الكبير العمق ، ثم ماء العيون وما كان مجراه على الصخور » (٨٧٩) .

ويستخلص من هذا الكلام في الحد الأدنى مبدأ أساسي ، يقضي بأن جودة الماء تتناسب عكساً مع ملامستها الأرض . اذ لدينا ماء الهواء أي ماء المطر من جهة ، ومن جهة ثانية الماء الذي تكدّر بمادة الأرض ، اما لأنه يغور فيها ثم يخرج عيوناً ، واما لأنه يجري على الصخور ويحتها ، ويأتي مباشرة بعد ماء المطر ، الماء الذي يستقر على الصخور ، فيلامس بالتالي أرضاً قاسية لا يتسرب إليها ولا ينتزع من مادّتها إلا النذر اليسير . ولا ريب أن حجم مياه الأنهار العظيمة يعوّض عن الكدرة ، ويسمح قلما يكون بالحصول على ماء بعيد عن التربة إلى الحد الأقصى . ويشبه وضع الأحواض وضع الانهار ، في حين تعوّض الاقنية عن نقص عمقها بعازل صنعي من الآجر ، يحول دون تماسّها والأرض . الحقيقية (٨٨٠) . أما مناقع الماء في الصحراء ، فعمقها ضعيف بداهة ، ويكاد ماؤها الهادىء يحرمها من حوزة عناصر التربة ، شريطة ألا تنتقل هذه العناصر اليها عن طريق النبات المنتشر بكثرة في مثل هذه الأماكن .

ويؤيد هذا التصنيف ما سبق وقلناه عن مياه العيون ، التي تعدّ أوثق المياه صلة بالأرض . ويحتّم عليها ، خلافاً للاتجاه العام في الحقيقة ، أن تتدنى جودتها نتيجة هذا الاتصال ، كما لو أن قيمة المياه تتناقص متى هبطت على مدارج العالم من أعلى السماء إلى أعماق الأرض . ويحتج ابن الفقيه في هذا السياق من التفكير بأقوال غيره (٨٨١) ،

ويعرض هذا التصنيف على أنه واحد من تصنيفات عديدة أخرى (٨٨٢)، منها التصنيف التالي المنسوب إلى بقراط : « الذي كان يقول : المياه التي تنبع من مواضع مشرفة ومن تلاع وروابي ، أفضل المياه وأصحّها وهي عذبة وبلدانها أصحّ البلاد ، ولا تحتاج إلى كثرة مزج الشراب، ولا سيما الشرقي والصيفي لأنها تكون برّاقة طيبة الريح اضطراراً ».

ويسترعي الانتباه هنا موضوع الماء الشرقي والصيفي ، أكثر من عذوبته وصفائه وطيبه . فهو يعيد إلى الذاكرة تصنيفاً سابقاً ، ورد مباشرة قبل نص ابن الفقيه . وبني على الجهات الأصلية (٨٨٣) . وقيل فيه : كل مدينة موضوعة في جهة المشرق أشد اعتدالاً وأقل اسقاماً ، لأن الشمس تصفّي تلك المياه التي تجري فيها . والمدن الموضوعة بازاء المغرب ، تكثر أمراض أهلها لأن مياههم كدرة متغيرة وهواءهم غليظ . أما المدن الموضوعة على جهة الجنوب ، فتكون مياهها حارة كدرة متغيرة مالحة ، فمن ذلك تسخن في الصيف ، وتبرد في الشتاء ، وتكون ابدان أهلها رطبة لينة لما يتحلب إلى البدن من الرطوبات في رؤوسهم ، وتكثر نساؤهم الاسقاط بسبب الرطوبات .أخيراً المدن الموضوعة في جهة الشمال وعلى ازائه مياهها يابسة ، رطبة ، ثقيلة ، وأهلها أقوياء . أشداء،عراض الصدور ، دقاق السوق ، رؤوسهم صحيحة يابسة ، وأعمارهم طويلة ، وأخلاقهم وحشة ، ويقل حمل نسائهم ، ولكنهن لا يسقطن لبرد الماء ويبسه ، ويلدن بشدة وصعوبة ليبسهن . وانما دقت أرجلهم لارتفاع الحرارة عنها إلى فوق (٨٨٤).

وتعد أمثال هذه الاقوال خطرات علمية ، ترتكز على حركات العناصر الأربعة . فالماء يخضع لقوة الأرض التي تجذبه إلى الاسفل ،

أو لقوى الهواء التي ترفعه إلى الأعلى ، سواء تأثر بتطهير النار أم لم يتأثر ، لكنه يتفوق في الغرب على سائر العناصر (٨٨٥) . وتختلف اللوحة عامة في واقع الاشياء المنظورة . وتدخل تدوينات المصنفين عاملاً أو عدة عوامل يصل عددها الاجمالي إلى تسعة . تؤخذ من المراحل الأربع المتعاقبة في التفتيش عن المياه ،ومن تقويمها الخارجي ثم الداخلي ، ومن الحكم الشامل على صفاتها . ففي المرحلة الأولى ، يتدخل عامل السهولة أو الصعوبة . ويسهل على الباحث أن يقابل الماء السطحي بماء أقنية سامراء الشحيحة لضعف عمقها ، والضعيفة العمق لشقها في صخور قاسية جداً ، لا يجدي فيها استعمال الفأس ، وبالمياه التي يجب اكتشافها في جوف الأرض ، وبمياه الآبار العميقة . ولن نقول شيئاً عن الماء الذي يصل إلى الانسان ، ويقدم له عفوياً (٨٨٦) . وتعتبر كمية المياه ، على حد تصورنا ، قرينة متواترة ، تؤدي أحياناً إلى تسجيل تدوين أدقّ . وينطبق هذا الحديث على « ندرة الآبار » في إحدى قرى جزيرة العرب أو افريقية الشمالية التي تعتمد على ماء السماء وحده (٨٨٧) . وأطرف من ذلك على الارجح ، الاشارة إلى ماء متوفر ودائم يمكن الركون اليه في جميع الفصول (٨٨٨) .

ويراعي التقويم الخارجي حاسة الشم مراعاة ثانوية جداً في الحقيقة ، فيعارض نوعاً من الماء ذكر من قبل ، طيّب الرائحة — المقصود نوع من الماء ليس له رائحة كريهة — بنوع آخر منتن بوضوح (٨٨٩) . والبصر أهم من الشم بكثير ، لأنه يحدد مباشرة الماء الصافي ، القليل الترسيب ، الخالي من الكدر إلى حد يمكّن المرء من رؤية قعر ينابيعه. وافتخار الكوفيين والبصريين مشهور ، وفيه الكوفة الفرات ، وللبصرة ماء يتنازعه البحر ودجلة العوراء ، ويزعمون انه « واحد » وشهير جداً ،

إلا أنه مركّب قريب من ماء دجلة وروافده والأقنية والفرات ذاته (٨٩٠) .

أما التقويم الداخلي ، فينصب على الحرارة أولاً . ويصرف النظر عن الماء الحار ، لكنه يميز بين الماء البارد وبين ماء أقل برودة منه . ويخص الماء البارد بالاطراء التام والعناية الشاملة . وقد تحدثنا من قبل عن المثالج (٨٩١) . أما الماء الاقل برودة ، فمبهم جداً ، ويبدو وكأنه يشكل فئة متوسطة بين الماء البارد وبين الماء الجار ، الحارق في معظم الأحيان ، ولا تذكره النصوص الجغرافية عادة ، واذا ذكرته اقترن بتعليقات بغيضة إلى أقصى حد . وسنعود إليه فيما بعد في كلامنا عن المقدسي . ويعدّ الوضع المثالي وضع الماء الذي يعين أبو مسعر صفاته ، أي الماء البارد في الصيف ، الدافىء والحامي في الشتاء (٨٩٢) .

واذا خطا التقويم الداخلي خطوة أخرى ، تجاوز حاسة اللمس ، ووصل إلى الذوق . وهذا التصنيف مختصر أصلاً ، وهذه الحاسة من أضعف الحواس ، كما هو معروف ، اذا ما قورنت بحاسة الشم . ويميز التوزيع الأساسي الماء العذب والمالح ، أو الاجاج ، المشحون بالبلورات ، المرّ المذاق حتى ليتحتم أحياناً ابتلاع بعض البصل (٨٩٣) لازالة حمازته ، أو العفص أيضاً (٨٩٤) . وما كنا لنؤكد على هذه النقطة ، لولا ضرورة الاشارة إلى ظاهرتين هامتين : اولاهما أن الماء على حد ما يقال لنا ، قد يتخذ مذاقات يتناسب عددها مع مذاقات الأرض (٨٩٥) ، ومنها الملوحة ، مما يدل على صفة أساسية في اتحاد هذين العنصرين . ثم يحسن التنويه بأن هذا التصنيف ، وان كان بدائياً يقتصر عملياً على مقابلة العذب بالمالح ، يحتمل درجات من التمييز ضمن هذا التضاد بالذات : فتارة يتحدث الجغرافيون عن ماء عذب جداً أو في منتهى العذوبة ،

له طعم العسل أو الخمرة المعتقة ، وطوراً يتكلمون عن مالا يستساغ شربه لشدة ملوحته (٨٩٦) . وحتى لو صرفنا النظر عن درجات العذوبة أو الملوحة ، يبقى تقويم الماء بمذاقه إحدى الصفات الكبرى في وصفه(٨٩٧). اذن ، على وجه الاجمال ، تسهم كثرة التصنيفات بحد ذاتها . في جعل عنصر الماء عنصراً مستقلاً فريداً في درجات تذوق البشر أغذيتهم ، وتحبوه أحياناً ضروباً من الطعم الدقيق . يزيد تنوعها عما يندرج في سياق تقدير مكثّف . فهل يجوز لنا أن نذهب إلى حد القول بأن الانسان قد يحاكي الاجناس الأخرى ، ويضيف أحياناً إلى المذاقات الاساسية أي العذوبة ، والملوحة ،والحموضة ، والحرارة ، مذاقاً خامساً ، يتمثل في طعم الماء بالذات (٨٩٨) ؟ قطعاً كلا . لكن يلاحظ في الحد الأدنى أن أهمية الماء في المنطقة الجافة والشهرة التي يتمتع بها . متى اقترنت المتعة به بوفرته في الأماكن المميزة ، تؤديان إلى ولوع الانسان الذي يعيش منه ، بشربه وتقويمه .

ويعد ابتلاع الماء المرحلة الأخيرة في تقويمه الداخلي . ويتعارض فيه الماء الخفيف المريء ، والماء غير المريء ، وتكثر الدرجات الوسطى بينهما والتدقيقات أيضاً . وتعلل عذوبة ماء جيحون وخفته القصويان — أو تثبتان ؟ — بكونه يتسخن أو يتبرد في فترة زمنية قصيرة جداً (٨٩٩). ويسوقنا هذا القول إلى نطاق الحكم الاجمالي على الماء . فاذا قصد تقويم مذاقه ، قيل إنه ممتاز ، أو لذيذ ، أو طيب ، أو شروب ، أو رديء ، أو كريه ، أو لا يشرب (٩٠٠) . واذا أريد وصف آثاره في الجسم ، قيل إنه صحي ومريء ، أو غير صحي ، ومنتن أو خطر أو فاسد (٩٠١). ويسترعي الانتباه نعت « مريء » من بين النعوت الموصوف بها الماء .

فقد اشتق من جذر يشير إلى الغذاء الصحي لخفته وسهولة هضمه . ويتعذر تماماً إزالة الالتباس المحتمل بينه وبين جذر مجانس له ، يشتق منه لفظ « المرء » ولفظ « المريء » . بمعنى صاحب المروءة بالتالي يقصد بهذا الماء ماء يستساغ إلى حد كبير ، ويحبو الجسم صحة وقوة تتجسد في الرجل الرجل على أكمل وجه . وبذا يستشف من هذا اللفظ الأفكار القديمة ، المشار إليها من قبل ، المتعلقة بجنس المياه وقدرتها على التوليد .

وقد تحدثنا عن أربع مراحل في تقويم المياه . ولابأس بالاحتفاظ بهذا التقسيم على حاله . ويمكن في الحقيقة تفضيل توزيع آخر ، يتلاقى مع الأول أصلاً في النواحي الاساسية ، لكنه يدمج المرحلتين الثانية والثالثة في مرحلة واحدة . فالموضوع يتناول الحكم على وجود الماء . فهل وجوده عفوي أم تكتشفه جهود البشر ؟ وهل يعدّ مخفياً في جميع الحالات ، ولا يظهر إلا صدفة تارة هنا وطوراً هناك ؟ وإذا كان وجوده محققاً ، هل تبقى كميته ثابتة أم تتغير ؟ وما هي نسب تغييرها ؟ ينتقل البحث بعد ذلك إلى تقويم الماء بالحواس ، فيبدأ بالحواس الخارجية كالشم وخاصة البصر ، ثم يصل إلى الحواس الداخلية كالحرارة والذوق وإحساسات التقلص الاستداري المتصل بالهضم . ومتى اختبر الماء اختباراً حقيقياً ، يحكم على وجوده بالذات ، حسب تقبل الجسم له مباشرة وبعمق . وهكذا يصبح القياس والاختبار والحكم على الماء المراحل الثلاث في عملية أساسية حيوية ، يسميها المقدسي وزن الماء ، بالمعنى الأصلي والمجازي .

يناط بالجغرافي « وزن الماء وتذوق الهواء » (٩٠٢). ويقتفي في عمله اثر الملوك الذين قام منهم قباذ ، ملك الساسانيين ، بتحديد أفضل مناطق امبراطوريته (٩٠٣) . ويذهب طموح الجغرافي إلى أبعد من ذلك ، فيتوخى وصف دار الاسلام بأجمعها ، والوصول إلى علم مياه حقيقي ، ويريد الاعتماد على أسس صحيحة (٩٠٤) : « فان قال قائل : من أين علمت خفة المياه وثقلها ، قيل له بأربعة أشياء . احداهن ان كل ماء يبرد سريعاً ، فهو خفيف . وما رأيت أسرع برودة من ماء تيماء وأريحا وهما أخف مياه الاسلام . فمن هذا استنبطت هذا الوجه ثم صح لي بكثرة التجارب . والثانية ان الماء الخفيف يبطؤ تحلّبه (٩٠٥) ، ومن شرب ماء ثقيلاً أسرع بوله . والثالثة الماء الخفيف يشهّي الطعام ويهضمه. والرابعة اذا أردت أن تعرف ماء بلد ، فاذهب إلى البزازين والعطارين (٩٠٦) ، فتصفّح وجوههم ، فان رأيت فيها الماء ، فاعلم خفته على قدر ما ترى من نضارتهم ، وان رأيتها كوجوه الموتى ، ورأيتهم مطأطيء الرؤوس ، فعجّل الخروج منها » .

ويخلط هذا النص قرائن معرفة بسيطة وقرائن أخرى تسعى الى تفسير ظاهرة خفة الماء ، أو على الأقل ، التسمية المختارة لهذا الظرف بالذات. ويستدل على خفة الماء ببعض العلامات ، إلا أن الخفة تبقى غير مشروحة ، وتعلل بطء التغلغل في الاجسام ، وسرعة الهضم ، وحيوية الكائنات ، وأخيراً الرقة حيال هجوم البرد والحر أيضاً ، على حد قول ابن حوقل (٩٠٧)

وتعطى في مكان آخر أسباب ، واضحة تماماً أصلاً ، عن رداءة الماء والكدر والحرارة . ويتعلق الموضوع باختلاف البصريين والكوفيين.

فالمقدسي يقول (٩٠٨) : « واما الماء الملاصق لها . فغير حلو ولا طيب . ويقال فيه ثلثه ماء البحر . وثلثه ماء الجزر (٩٠٩) ، وثلثه ماء الحجر لأن الماء اذا جزر شمّرت شطوطاً الأنهار . فبلذ الناس عليها ، ثم يقبل المد ، فيحمل تلك البلاذات . واذا هبت الجنوب سخن الماء » .

بالتالي . لا يقصد بوزن الماء معرفة جوهره بالذات — الذي يعلمه الله وحده — بل صفاته . بتعبير آخر ، يعني وزنه الحكم على خصائصه وآثاره . فهذه المعرفة خارجية ، لأن الماء يدخل جسم الانسان ، وليس العكس . مع ذلك ، يريها الجغرافيون معرفة رصينة ومفصلة ، لأنها تتناول عنصراً حيوياً . ولا يحيد المقدسي في هذه الناحية عن نهج معاصرية : فتقويمه الماء يتبع الطريقة التي بيناها من قبل . إلا أنه يبذّ غيره بشعوره بمسؤولية الاخباري والعالم . فهو اخباري لا يفوته ان كتابه موجّه إلى المنظّرين أو محبي الاطلاع ، وإلى الرحالة أيضاً(٩١١) لذلك يستعمل لفظ « مختلفة » ويبرزه وينعت به مياه جزيرة العرب مثلاً عند وصفه اياها ، كما لو أنه يريد لفت الانتباه إلى مفاجآت الطريق (٩١٢) ، ويتجلى عنده غنى الألفاظ والدقة ، عند الضرورة ، في التدوينات التي ترمي إلى سرد معلومات عن اختصاصه ، وإلى تقديم أفضل وصف علمي وأدقه على حد سواء .

وتأتي أولاً قرائن الوفرة والسهولة والدوام . فيكثر ظهور الماء الجاري نتيجة استعمال هذه الألفاظ البسيطة (٩١٣)أو تتوضح تبدلاته . وقد ينكر وجوده ، أو يبين تدريجه (٩١٤) ، أو يشاد به بتعابير « جريان حاد » ، « شديد الجري » ، « منحدر » (٩١٥) ، أو بتعابير مترجمة ، كأن يسمى أحد رستاتيق خراسان « ثاك — اب » ، ومعناه

بالفارسية « المياه الجارية » (٩١٦) : وتستعمل الالفاظ الدالة على الوفرة في جميع الأماكن تقريباً ، مثل « واسع » ، و « كثير » ، و « غزير» خاصة (٩١٧) . هنا أيضاً يرد في سياق الكلام ، النفي (٩١٨) والمقارنة (٩١٩) ، والتدريج ، وتؤدي الفكرة ببعض الألفاظ أو التعابير ، كأن يقال : ماء قليل (٩٢٠) ، أو ضيق (٩٢١) أو ضعيف (٩٢٢)، أو صهاريج متروكة ، أو آبار معطلة (٩٢٣) أو ماء ثمين حتى أنه يخزن في جباب مقفلة أو صهاريج مغلقة (٩٢٤) . أو مدينة ظمئة (٩٢٥) أو أنهار تنقطع في الحقيقة ، أو تتشعب أو تشكل بقية نهر (٩٢٦) ،وقد يقال عـــلى النقيض : عميقة أو واســعة للآبـــار أو المياه (٩٢٧) أو يقال تتفجر العيون أنهاراً (٩٢٨) .

وتؤول الاحساسات الخارجية بأجمعها تقريباً إلى البصر عند المقدسي كما هي الحال عندسائر الجغرافيين . وتذكر حاسة الشم عرضاً متى أشير إلى الماء الكريه (٩٢٩) . ولم يسجل السمع خرير الماء ، بل يدوّن الوجبة العظيمة في الاهواز أو جيرفت في ولاية كرمان ، الناشئة عن شدة جرية نهر جيرفت وخريره وجرّه الصخور (٩٣٠) . ويلحظ البصر صفاء الماء ، ونظافته وخفته وعذوبته . وتارة يدرك درجاتها أو ينكر وجودها ، وطوراً يشيد بها فيقول ان الدرهم يطرح في الماء ، فلا يخفى في أسفله . كذلك يرى الاقذار والكدر والمواد العالقة فيه . ويروي المقدسي ان ماء النيل يكدر أيام زيادته ، فيلقون فيه نوى المشمش المرصوص ليصفو (٩٣١) . ويورد تأويل بعض الألفاظ الاجنبية أحياناً (٩٣٢) كما في عين سرو الشيّر ،ومعناها بالفارسية حليب الملائكة ، ويقول : « إن ماء بخارى كدر ويطرح فيه بلاذات كثيرة في البلد . ويقال ان أصل اسم بخارا « كوه خوران » (٩٣٣) وطرحت الهاء

والواو للتخفيف ، فصارت كخارا (٩٣٤) ثم أبدلوا من الكاف باء ليوهموا على الناس (٩٣٥) ، فصارت بخارا . وسمعت بعض الأدباء ينشد :

إن باء بخارا باء زائدة والألف الوسطى بلا فائدة فلم يبق إلا خرا»

ويحاول الناظم ، أن يستخدم لفظ خرا ، ليذكر بهذا الاسم الفارسي أو العربي للغائط والوحل (٩٣٦) . والماء المثالي ، من حيث حرارته ، هو الماء البارد في جميع الأماكن . وحتى الشديد البرودة ، أو الجامد في الطبيعة ، وان كان لا ينقص منه الكثير. فماء نهر الأردن مثلاً يوصف بشدة البرودة ، ويخرج من تحت جبل الثلج ، ويقال بعد سطرين أنه رديء في مدينة بانياس . وخير الأمور الوسط . فنعم البلاد التي يدوم برد مائها ، كما في فلسطين ، ويخالف ماء نيل مصر الذي يبرد «أيام البرد » نحو شهرين ، وماء اقليم المشرق ، حيث « شربهم الجليد »(٩٣٧). في جميع الأحوال ، نتمنى على الله أن يقينا من المياه الساخنة ، التي تغلي في الصيف في خوزستان ، وتصفّر وجوه الخوزيين ، أو تصبح وبيئة ، لتأثير ريح الجنوب فيها ، أو لجريها على مزارع الأرز (٩٣٨) . فالماء الغالي والماء الحميم ، مفهومان يندرجان في ألفاظ تشتق من جذر حمّ ، ويعني الماء الحار أو العين المعدنية (الحمة) ، ويقترنان بتصورات جهنمية في الواقع (٩٣٩) .

ولا يفاجأ المرء بشيء من حيث الذوق الذي يميز عدة مياه أيضاً. ويأتي في طليعتها الماء الحلو الصرف . ويشاد به دوماً ، ويوسم ، ولا يسمى حلواً إلا اذا استحقت نكهته هذه الصفة عذب (٩٤٠) . ويجيء بعده الماء العذب بلا أي إيضاح ، ولعله ماء كل يوم ، إذا تأمنت

حلاوته (٩٤١) . ويعبّر الماء العذيبي عن ماء احتياطي ، شبه عذب ، أي ماء لا يستساغ حسب الحالات (٩٤٢) . ويشار أخيراً إلى الماء المالح المنفّر دوماً ، الذي تكاد النصوص الجغرافية (٩٤٣) لا تعلق عليه . ويؤدي تأثير الماء في الجسم بعدة صفات ، منها الماء الخفيف والثقيل ، وهما معروفان ونكررهما الآن (٩٤٤) . ويليهما الماء الخشن ، الذي تتفاقم خشونته من جراء الملوحة أو المرارة أو الصلابة . وعكسه الماء اللطيف (٩٤٥) . ويعاد الحديث عن غنى الألفاظ ، ويسهب فيه ، في الحكم على قيمة الماء النهائية : فيقال ماء جيد ، بلا ريب ، ولذيذ ، ونقي ، وصحيح ، وممتاز ، وجميل أو بديع (٩٤٦) . ويقال أيضاً ماء معتدل ، أو رديء ، أو اشر ، أو آسن ، أو فاسد أو كريه أو قاتل (٩٤٧) . أخيراً تعدد بعض الصفات الغريبة جداً ، فمن عجائب إحدى الولايات ، عين قد يقضي نحبه من يشرب منها ، ومخرىء ، وهو ماء مالح يطلق الناس سواء شربوا منه أو خبزوا أو طبخوا ، وماء جرجان يقتل الغرباء (٩٤٨) . وماء شهرستان آكران ، حسب المقدسي ، الذي ركّب هذا النعت بالفارسية من « آك » أي كارثة أو موت ، ومن « ران » أي دافع أو جالب (٩٤٩) .

ولا ريب أن معرفة الماء ذاتية وايحائية في النهاية ، فيما يبدو . ويستقيها الرحالة من تجربته ، ومن ذكريات افتتانه وخشيته وحتى انزعاجه ، لكنه يدرك انه سيحرم إلى الأبد من رؤيا جوهر الماء ، أو اكتشافه . و تعدّ الدقة في الايحاء ، ووفرة الألفاظ ، وفقه اللغة ، ولو تناول كلاماً فارسياً أو أتى تافهاً ، نتيجة الاقرار بالعجز مبدئياً عن إدراك أعماق واقع الأشياء . مع ذلك ، يسعى المقدسي ككاتب إلى استكشاف حقل المعرفة المتبقي له على الوجه الأكمل . ويفكّر في

التجربة الحسية سواء كانت تجربته كرحالة أو تجربة زميله الرحالة الذي يتوجه إليه ، ولا يغرب عن باله جمهور آخر ، من المثقفين أو حتى العلماء ، ويعرض ما يعتقد أنه علم : « فوزن الماء » ليس تقويماً بسيطاً لهذا العنصر ، يصدر عن الحواس ، ويعرّف بالماء تدريجياً ، ويحدد مراتبها وخصائصها الكمية أو النوعية ، بل « قياساً » (٩٥٠) بالقدر ذاته ، له قواعده ، وجداوله ، ومصطلحاته . لذلك يرى المقدسي فيه ، في مطلع مصنفه (٩٥١) أحد « اركان » بناء علم جديد يريد أن يؤسسه ، ونسميه نحن جغرافية . وأضيف : وكالعادة ، وخاصة هنا ، توضح معرفة الماء الحيوي بجلاء غاية المقدسي السابقة ، نعني تأسيس جغرافية بشرية .

بعض خصائص الماء الفرعية

الماء غذاء قبل كل شيء ، سواء تفاوتت جودة مذاقه ، أو اختلف ثقله . وما تبقى ثانوي ، تدويناته عرضية . وغالباً ما تعوز الدقة التفريق بين الماء العذب ، بارداً كان أم لا ، وبين المياه المعدنية الحارة ، التي تسترعي الانتباه إلى أقصى حد بفوائدها الطبية . ولن نهتم هنا إلا بالمياه التي لم يحدد صراحة أنها تأتي من الحمات ، مرجئين دراسة المياه الحارة إلى كتاب آخر يبحث في أنشطة البشر .

وقد تحدثت منذ لحظة عن اعتبار الماء غذاء ، إلا أن الماء البارد ، بحد ذاته ، يضيف إلى ذلك تنظيم الجسم . فابن الفقيه يقول عنه (٩٥٢) : « والماء البارد مزاج الروح وصفاء النفس وقوام الابدان من الناس والحيوان ، بمجانسته لها . ومغازلته اياها ، ومن فضيلته ان كل شراب ، وان رقّ وصفا وعذب وحلا ، فليس بعوض منه ولا مغن عنه ، بل

يطيب بمزاجه ، ويعذب بمخالطته ، حتى يجري في العروق بلطافته ، وينساب في المفاصل برقته مع خاصته في ري الظمأ ، واطفائه ضرام نار الحشا » .

اذن ، للماء الصافي بحد ذاته خواص تنتقل إلى بعض الأشربة متى مزجت به . كذلك ، يعطى المزج الماء خاصة جديدة أحياناً ، فيصبح منظماً ودواء شافياً ، كما يحصل ، متى أضيف اليه العسل (٩٥٣) . ويفصل المسعودي (٩٥٤) هذه الناحية تفصيلاً مسهباً ، ويقول : « قال من سلف : في قوى الماء أقاويل مختلفة : فمن ذلك ، ان العذب مغذّ . وان كان سخناً : فان استعمل من داخل أو من خارج ، بقدر الحاجة اليه ، فانه ينقّي الجسد ، وان استعمل أكثر مما يحتاج إليه ، فانه يرخي الأعضاء ويضعفها ، وان الماء البارد يشد الأعضاء ، ويقطع العطش ، وان الزيادة منه ،تخدر الجسد وتميته ، وان الماء الاجاج ينفع من سُدَدِ الكبد والطحال ، وان الماء الكبريتي ينفع الجراح والقروح العتيقة والحكة ، والبورقي نافع للحكة والجرب ، واما القاريّ ، فانه نافع من أوجاع الصلب والعصب ، وماء الحديد نافع من الاسترخاء في الاحشاء وما بطن من الأوعية ، وماء النحاس نافع من الرطوبة والبلة الكائنة في الجسد والرأس ، وماء الجص يشنج المعدة ويقبضها ويكرشها ، وماء الزاج يحبس الدم ، وماء البحر نافع من البرص ، وقد ذكر جماعة أنه ينفع من الاخلاط الفاسدة ، اذا شرب منه اليسير مع دهن اللوز ، وله في البصر أتعاب فظيع ، وان اصح المياه للأجساد الأبيض البراق الذي يخرج من جبال الطين من مشرق الشمس نحو مغربها ، القابل بسرعة ما يرد إليه من الحر والبرد » .

مع ذلك يختم المسعودي كلامه بهذه الألفاظ : « وللناس فيما ذكرنا كلام كثير في أنواع المياه وأوصافها ومنافعها ومضارها . وليس كتابنا هذا موضعاً له ، وانما تغلغل بنا الكلام إلى ذكرها وتشعب بنا القول إلى وصفها » . لنعد اذن إلى الجغرافيين الرحالة ، بعيداً عن الاهتمامات الموسوعية وحتى — العلمية لأن موسوعة المسعودي تكاد تمتنع عن الخوض فيها — ولنختبر مع المقدسي الماء الذي نعثر عليه في طريقنا . ويقال لنا ، بلا تدقيق اضافي ، ان بدشت بارين عينا يستشفى بمائها من العلل (٩٥٥) ، وان بقاهستان ماءاً من شرب منه وبحلقه علقة ماتت في الوقت (٩٥٦) . خلافاً لذلك ، قد يقضي نحبه من يشرب من بعض الماء ، كما رأينا ، أو يتعرض إلى مزعجات جمة ، خطيرة أحياناً ، خاصة بالنسبة إلى الغرباء الذين لم يكتسبوا مناعة ضد مضارها ، كالاسهال والامساك (الحصر) ، وثقل البطن ، والاورام ، وسقوط أصابع الأرجل (٩٥٧) . ويتعصّب من يشرب بعض المياه أو يدفع إلى الزنا واللواط (٩٥٨) لأن الماء يؤثر في خلق البشر واخلاقهم وذكائهم ، كما هو شائع بين الناس . على نقيض ذلك ، يزيد شرب بعضه المهارة اليدوية ، والذكاء ، والنفع عامة ، حتى إن بعض العيون لا تخرج شيئاً من مائها لرجل يقصدها بعد أن قتل نفساً بغير حق » (٩٥٩).

ولابد من الالحاح على أن هذه الأمور لاتبحث بحثاً منهجياً . فماء الشرب شروب ، وبالتالي ينظم البدن تنظيماً عادياً . ومتى ابتعد عن مجال الحياة اليومية ، ليحدث خللاً في الجسم ، أو ليعيد اليه توازنه المفقود ، أي عندما يصبح ضاراً ، أو على العكس نافعاً ، اقترب من الماء الساخن بحد ذاته أو المسخن ، الذي أشرنا إلى وضعه الغريب (٩٦٠) . ويقال إن بحيرة صغر تشفي من احتقن بمائها من علل كثيرة . لكن هل ماؤها

عادي ؟ كلا ، إنه مالح جداً ، ومنتن » وثقيل - حتى ليصعب الخوض فيه ، ويذكر أصحاب العلل والمرضى الذين يقصدونه ، بأقرانهم ممن يرتادون مياه طبرية الحارة (٩٦١) . ويشار أيضاً إلى أن الامثلة النادرة ، الواردة من قبل ، عن خواص بعض المياه غير المتوقعة ، تعرض في الواقع على أنها عجائب ، وتدرج في الوصف على هذا الاساس، وتدخل في عداد عجائب البلدان او الولايات (٩٦٢) . في النهاية ، تتضافر جميع الأقوال ، من الاستطراد الموسوعي إلى تعجب الرحالة من الماء النادر ، لتجعل ماء الشرب شاذاً . متى خرج عن نطاق الاستعمال اليومي :

مبادىء رسم خريطة مياه

يتحتم علينا الآن ، مثلما يقتضي العلم الصحيح ، ان نرسم خريطة لجميع تلك المياه . لكن أي خريطة ؟ فتارة ، نلقى خريطة لم تتغير قط — أو تغيرت قليلا جدا — منذ ظهور الانسان على الأرض ، فيما عدا استبدال بعض الأسماء هنا وهناك . كاسم أوكسوس أو اموداريا بجيحون مثلاً . وطوراً ، يختفي المخطط العام القديم وراء مخطط جديد يقدمه الجغرافيون . فما هو وضع واقع هذه التباينات ، وما هو مدى سعتها وتواترها ؟ آن لنا ان نعرف ذلك من استعراض أنهار دار الاسلام.

ونرسم أولاً خريطة الاماكن الخالية من المياه ، لأن ما يفرض نفسه في البدء هو البلدان المحرومة من المياه ، أو ، لنقل ، من كمية معينة منها . فجزيرة العرب لا تمتلك لا أنهاراً ولا بحيرات . ولا يحوي شمال شرق دار الاسلام أنهاراً صالحة للملاحة سوى جيحون (اموداريا) وسيحون (سيرداريا) . وليس في كرمان أنهار غزيرة . فاذا وصفنا

وضع المياه بأمثال هذه الجمل . استطعنا أن نحدد على الخريطة بقاع واضحة ، أفضل ما فيها ماء دفين في جوف الأرض ، والأمثلة عليها صحارى جزيرة العرب والهلال الخصيب وفارس وتخومها وآسية الوسطى (٩٦٣) ، وبواديها جميعاً .

والتدوين ملائم جداً ، سواء أخذ من دفتر السفر أم من مفكرته. وهو في جميع الأحوال أفضل بكثير جداً من نظرية اخوان الصفا الخالصة ، التي أشرنا إليها من قبل . فقد خصت جميع أراضي المعمورة بـ ٢٤٠ مجرى ماء،ووزعتها على أقاليمها واحداً واحداً، حسب عرف بطلميوس . لكن رقم التوزيع الاجمالي لم يشر إلا إلى١٧٨ نهراً (٩٦٤). فلابأس . إنما أين يقع أكبر عدد من الأنهار ؟ يجيب اخوان الصفا : في الشمال ، في الاقليم السابع ، أقصى الاقاليم من الجهة الشمالية ، بأنهاره الأربعين . ويليه الاقليم السادس ، ويأتي بعده مباشرة بدرجة العرض وبأنهاره الـ ٣٢ ، مما يعبر على الأرجح عن اشتراكه في بوادي آسية الوسطى الكبرى . ليكن . إلا ان الاقليم الأول ، شبه الاستوائي ، يضم ثلاثين نهراً ، ولا يبدو أنه اقليم صحاري جزيرة العرب الجنوبية ؛ كذلك يحوي الاقليم الثالث ٢٢ نهراً ، وكأنه لا يشمل جزيرة العرب ومفاوز فارس الشاسعة . ونوقف عند هذا الحد تمحيص هذه الاحصاءات الأولية : فلوحة اخوان الصفا لا تتوخى أن تقدم معطيات مرقومة ، بل ان تثبت بأرقام الأنهار والجبال والمدن تفوق البلدان الوسطى في المعمورة ، خاصة تفوق بابل التي خلفها العراق وورثها . وقد شرحت هذه الناحية في مكان آخر (٩٦٥) ولن أعود إليها .

لكن لنرجع إلى الجغرافيين الميدانيين ، وإلى ابن حوقل والمقدسي في طليعتهم . فاين تقع في رأيهم المجامع المائية والمياه الجارية الدائمة في

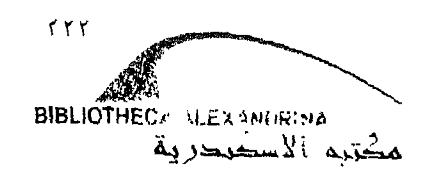
دار الاسلام ؟ لاشك أنهم يسمون بعضها في شتى أنحاء هذه الدار الفسيحة . وحتى في مغربها القصي ، اي الأندلس . مع ذلك ، تبدو الجغرافية العربية في هذه الناحية وفي نواحي كثيرة غيرها . جغرافية أهل المشرق في الفترة التي حددنا لانفسنا . ويبدأ من مصر تقصي الأنهار ووصفها ومقارنتها ، ثم يتجه نحو الشرق . ولا أتحدث عن الشواهد الوافرة الواردة في النصوص ، بل اسوق اثباتاً واحداً : فلوحة أنهار دار الاسلام عند المقدسي ، بأنهارها السبعة والعشرين ، المثبتة في صدر كتابه (٩٦٦) لا تتضمن ولو نهرا واحداً من أنهار المغرب . ولا يشار إلى هذا المغرب ، مثلما يقال لنا ، بأنهاره « الصغيرة » «الريفية»، إلا في وصف بلدان دار الاسلام . وليس على مستوى استعراض العالم أجمع (٩٦٧) . وتتخذ مواقف مماثلة عند الموسوعي المسعودي (٩٦٨). وعند ابن الفقيه أحد ممثلي جغرافية الأدب (٩٦٩) ، وعند وصف الأرض الكلية في صورة الأرض : فكتاب حدود العالم ، ونكتفي به (٩٧٠) لا يتحدث إلا عن نهر واحد في مغرب دار الاسلام ، هو نهر تاجه ، من أصل عشرات أنهار محددة ومسماة . وخصّ المغرب ذاته ببضعة أسطر باعتباره بلد أنهار ضعيفة ، تكاد مياهها لا تكفي لشرب الناس وري الحقول .

فما هي اذن هذه الأنهار « الشهيرة » ، التي رسمت وحدها باللون الأزرق على خريطة المقدسي (٩٧١) ؟ أنهار هامة ، وهذه ناحية واضحة. ويأخذ المقدسي على الجيهاني ، وهو أحد أسلافه ، اكثاره من التفاصيل، وإطالة كتابه ، وتفويته النقاط الجوهرية . اما الانهار الفائقة الاهمية في دار الاسلام ، فالشهير منها اثنا عشر ، تجري فيها السفن ، وهي الفرات والنيل ودجلة ، وجيحون (اوكسوس ، اموداريا) ، ونهر الشاش (اياكسارت ،

سيحون ، سيرداريا) ، ومهران (الهندوس) ، ونهرا الأهواز (دجيل ، كارون) ، ونهر الرس (اراكس ، في ارمينية واذربيجان) ، ونهر الملك (سمور ، يصب في بحر الخزر بين دربند وباكو) وسيحان (ساروس) ، وجيحان (بيرانوس) وبردان (كيدنوس)، وهذه الأنهار الثلاثة الأخيرة منطقة أنهار (انطرسوس) .

و « دونها » خمسة عشر نهراً أخرى تليها بالأهمية ، لكنها مذكورة هنا في نظرة شاملة وعامة عن المياه في البلدان المسلمة : وهي : نهر مرو (مرغاب) ، ونهـر هرات (هري روذ) ، ونهر سجستان (هلمند) ونهر بلخ (دهاس) ، ونهر الصغد (زرفشان) ، وطيفوري (اوجرجان ، في أيامنا : روذ — اي — جرجان) في الزاوية الجنوبية الشرقية من بحر قزوين (٩٧٣) ، وزندرود ، ونهر العباس (الذي يبدو أنه ذراع من دجلة عنـد مصبه) (٩٧٤) ، وبردى ، ونهر الاردن ، والمقلوب (العاصي الاعلى) ، ونهر انطاكية (العاصي الاسفل) (٩٧٥) ، ونهر ارجان (طاب) ، ونهر شيرين (في شمال غرب فارس)، ونهر سمندر (الارجح نهر سولاك الحالي) (٩٧٣)

ولا يجدي ابراز هذه اللوحة أو خلفيتها الفكرية . فنهر دجلة مكرر ، ويذكر بعموده وبأحد أذرعه ، كذلك العاصي سمّى « المقلوب» حسب جريانه ، وحسب اتجاهه الصحيح ، بعد انعطافه قرب انطاكية صعدا(٩٧٦) أما سيحان وجيحان ، فهما سيلان في الحقيقة (٩٧٧) ، ولم يدرجا في هذه المرتبة الرفيعة إلا لتشابه اسميهما باسمي سيحون وجيحون في الكلام عن أنهار الجنة السابق . ويبدو أن سيحان وجيحان يشكلان في الأذهان ، كنهرين في منطقة انطرسوس (٩٧٨) ، ثلاثية أنهار متجانسة



جداً مع جارهما نهر بردان ، الذي ضم والحالة هذه ، إلى فئتهما ، ما لم يكن قد أدرج ليقابل نهر بردى الشبيه باسمه ، وهو نهر دمشق الشهير ، وصغره معروف جداً ، فلا يجوز رفعه إلى مستوى الأنهار الكبرى . وهنـــالك شكوك أخرى : ففي وصف الأنهار الشهيرة اللاحق (٩٧٩) العام جداً ، استبدل نهر الاهواز « بأنهار الاهواز »، وهو تعبير يلمّح إلى مجمل شبكة الماء المعقدة جداً في خوزستان . كذلك استبدل نهر شيرين « بأنهار فارس » ، ويظهر الكر إلى جانب الرس والملك ، ويفضي مثلهما إلى بحيرة الخزر الغربية . ويتفرع نهر ارجان، ويعطى نهر طاب ، الذي يبدو أنه مجراه الاسفل (٩٨٠) . وتضيع أنهار سمندر والعباس والصغد ، في حين يذكر نهر الري (٩٨١) .

مع ذلك ، لا تستبعد هذه الحيرة وجود دقة في نواحي كثيرة . وتتجلى السمة الشرقية بارزة في هذه اللوحة . فأحد الأنهار السبعة والعشرين مصري ، وثلاثة منها عراقية ، وثلاثة في المناطق الشمالية من دار الاسلام (ارمينية ، جبل القبق ، الشواطىء الغربية من بحر الخزر)، وثمانية في بلاد الشام (٩٨٢) ، والباقي أي ١٣ نهراً في فارس وبلدان أقصى شرق دار الاسلام. ولا يذكر المقدسي أنهار المغرب ، فيما وراء مصر ، ويحدد الأنهار العظمى الاثني عشر ، اعتماداً على شهرتها وعلى غزارتها الكافية لحمل السفن . ويلاحظ في مجال الملاحة ، ان دار الاسلام لا تمتلك في الواقع إلا أنهاراً قليلة صالحـــة لها في رقعتها الواسعة جداً ، مما يدل ، مثلما قلنا في مطلع هذا الفصل ، على وجود اسطول نهري محلي جداً ، حتى لو جارينا المقدسي إلى النهاية ، وصرفنا النظر مثلاً عن كون أنهار بردان وسيحان وجيحان وسسور والرس ، لا تصلح للملاحة ، في أفضل الاحتمالات ، إلا في جزء ، تافه أحياناً ، من

مجاريها (٩٨٣) . ويحق لنا أن نتساءل عن امكانات الأنهار الخمسة عشر « الدون » في مجال الملاحة (٩٨٤) . فلا يبقى لها إلا شهرة تقل عن شهرة المجموعة الأولى ، لكنها تظل كافية لكي تعدّ أنهاراً على مستوى دار الاسلام ، لا على المستوى المتواضع لهذه الولاية أو تلك.

خريطة المياه : وضع المغرب العارض

لا ترد أنهار في مغرب دار الاسلام ، في تصوّر العالم الشامل ، كما قلنا من قبل . وإذا اعتمدنا صورة الأرض في كتاب حدود العالم ، أو صفحات المدخل العام عند المقدسي ، تخيلنا الاندلس والمغرب خاليين أو شبه خاليين من ماء ، لا يعود إلى الظهور إلا في وصف بعض الاماكن المتباعدة . ولهذا الوضع استثناء واحد : فالرازي ، المشرقي الاصل ، المقيم في الأندلس ، (٩٨٥) يتحتم عليه أن يولي أنهار موطنه الجديد وجباله ، عناية خاصة في جغرافيته .

فلولاه ماذا كنا نعرف عن أنهار الاندلس ؟ نعرف أن نهر تاجه ، «نهر عظيم»، يشق مدينة طليطلة، وتقوم عليه مدينة طلبيرة ، لكنه يختلف عن تاجه المعهود ، لأنه يخرج من بلاد الجلالقة في الشمال الغربي ، ويصب في بحر الروم حسب المسعودي . ويصحح ابن حوقل خطأ المسعودي ، لكنه يجعل « وادي تاجو » يصير إلى واد ينتهي إلى البحر المحيط في شنترة . فيلتبس عنده مع أحد روافده في تلك المنطقة ، يسمى زيزيري أو سريّا (٩٨٦) . ويغفل أحياناً اسم النهر ، فيضيع في المشهد الطبيعي (٩٨٧) ، أو يعطى اسم المدينة التي يمر فيها ، مثل قرطبة والوادي الكبير ، ومارد ووادي آنه (٩٨٨) . ويتصف اليعقوبي بالدقة والصحة

أحياناً ، لكن ليس دائماً ، اذ يضع سرقسطة وطرطوشة على الابره . إلا أنه ينقل طليطلة من ضفة تاجو إلى ضفة الدوير (٩٨٩).

ويذهب الرازي وحده إلى أبعد من ذلك (٩٩٠) . فيذكر من الأنهار الصابة في البحر المتوسط نهر الابره ورافده جلّيق وشقوره أو نهر تدمير ، أي نهر منطقة مرسية (٩٩١) . ومن الانهار المنتهية إلى البحر المحيط : المينوه ، والدويره ، وتاجه ، مع خليجه العميق بين لشبونه والمعدن ، ووادي آنه ويغور في قسم من مجراه ، أخيراً « نهر قرطبة» وروافده : سنجيل ، ووادي شوش ، والوادي الاحمر ، ووادي بلّون (٩٩٢) . اذن يعطى على وجه الاجمال ، لوحة مرضية عن أنهار الاندلس الرئيسة ، ونكرر ان هذه اللوحة تضيع في نصوص أخرى تمثل الأنهار فيها حطاماً في حقل بلد كبير يعرف الشيء القليل عنه . ويعدّ وضع جزيرة صقلية أسوأ من وضع الاندلس . ويبدو أن ابن حوقل يعرفها جيداً . لكنه يركّز على بلرم ، مينائها الكبير ، ولا يذكر سوى نهرين فيها ، هما وادي عباس ، وهو عظيم ، عليه طواحين كثيرة ، ثم نهر روطه الكبير أيضاً . والحقيقة أن هذين النهرين جدولان بسيطان ، فيما يبدو ، اختيرا من بين سائر جداول بلرم ، وجميعها غير مسماة ، أو معروفة بأسماء عيونها (٩٩٣) . وفيما عدا ذلك ، فصقلية اندلس ثانوية ، يذكر المقدسي من مدنها الواقعة على أحد الانهار : اطرابنش في الغرب ولنتيني في الشرق (٩٩٤).

أما أنهار المغرب ، فعرضها أفضل ، لاعتناء ابن حوقل بها . لكنه غالباً ما يهمل ، هنا أيضاً ، اسم النهر الذي يعدّ جزءاً من مشهد طبيعي خصب ، يمتد حول احدى المدن بالذات . (٩٩٥) . وقد يشترك النهر

والمدينة بالتسمية ، أو ينفرد النهر باسم يعرف به . وتتعاقب الأنهار من المغرب الأقصى إلى تونس على التوالي . فالزيز ، وهو نهر سجلماسة، يقع على التخوم الصحراوية الشمالية القريبة من جبال الاطلس ، ويزيد في الصيف كزيادة النيل (٩٩٦) . ولا يتميز مصب نهر سله ، أو بورقرق ، دوماً عن مصب سبو ، الكثير الروافد ، ومنها ايناون . وقد يشتبه نهر سبو مع أحد هذه الروافد ، مثل « نهر فاس » الشهير ، الذي يقال « إنه أعظم من جميع أنهار الأرض » . ولا يزيد مستواه ولا ينقص ، وعليه ثلاثة آلاف رحى ، وعلى حافتيه مزارع وضياع وقرى (٩٩٧). ويجري في جهة الشمال سفدد (أو تُشُمُّس) أي نهر لوكس ، وتمّده شعبتان بكلتيهما ماء كثير ، فهو غزير يحمل أهل بصرة صنهاجة المغربية تجاراتهم في مراكبه، ثم يخرجون إلى البحر المحيط ، ويعودون إلى البحر الغربي ، فيسيرون منه حيث شاؤوا (٩٩٨) . ويتلقى وادي ملوية وادي مسون ، ويقع إلى وادي صاع (زا) ، ويصبان جميعاً في البحر ما بين جرارة أبي العيش ومليلة (٩٩٩) . ويشار إلى تفنا(١٠٠٠) ووادي الصفاصف ، أي وادي افكان إلى غرب جنوب غرب معسكر (١٠٠١) . أما وادي شلف ، فأهم منها إلى حد كبير ،ويسقي بساتين واسعة واجنة وكروما ، ويفيض كما يفيض نيل مصر (١٠٠٢). ثم يذكر الوادي المالح ، والارجح انه يصب في شط الحضنة (١٠٠٣)؛ ووادي سهر (القصب) في المسيلة . وفيه ماء عظيم . وينبسط على وجه الأرض ، وليس بعميق ، ويجنى من أراضيه غلات كثيرة وعليه كروم (١٠٠٤) . ونهر قرنة ، الذي تسمى مدينة قرنة به ، على حد قول المقدسي ، في شمال غرب تونس . ولعله المليغ أو المجردة أو أحد روافدهما (١٠٠٥) . أخيراً وادي السراويل في قبلة مدينة القيروان

وفيه ماء مالح ، لأنه في سباخ ، وقد يكون الزرود (١٠٠٦) . ولا يذكر شيء من الأنهار بعد وادي السراويل باتجاه مصر ، وتصبح الاودية أسماء أماكن حقيقية ، لا يعلم أحد ان كان الماء قد جرى فيها في يوم من الايام . وهي أشكال أرض أو تضاريس في النصوص الجغرافية ، ولا شيء سوى ذلك . وربما كانت في الماضي البعيد أسرة أنهار جفّ ماؤها ، وحل محله رمل حقيقي أو اسطوري (١٠٠٧).

ولا غرابة في هذا الصمت المطبق في الحقيقة . فالماء لا يشاهد باتجاه الشرق بعد قابس ، وهي آخر المدن التي يبدو الماء فيها نهراً (١٠٠٨). ولا يعرف منه في هذه المنطقة الجافة الواسعة ، الواقعة بين طرابلس الغرب ومصر ، سوى ماء المطر ، الذي يجمع فوراً في الصهاريج ، أو يعثر عليه في الآبار (١٠٠٩) . أما سائر المغرب فقد باركته السماء إلى أقصى حد، لكن هل يسع الباحث الا يغالي ويتحدث عن لوحة مياه جارية فيه ؟ ان ابن حوقل واليعقوبي ، اوسع الجغرافيين اطلاعاً على هذه الشبكة المائية. لكنهم لا يتبسطان في الكلام عنها ، ولا يقدمان معلومات كاملة عنها. ويلوذ باقي الجغرافيين بالصمت التام ، فلا يرد شيء عندهم لا عن أنهار المغرب ولا عن جفاق ليبية .

ولم يعد أحد يذهل لنقص الاطلاع على شؤون مغرب دار الاسلام عند جغرافيي مشرقها ، بل يتعجب في النهاية ، والحق يقال ، ان يثير هذا الموضوع اليعقوبي وخاصة ابن حوقل الذي يعتبر المغرب « كم ثوب » (١٠١٠) دار الاسلام . ويعتبر اليعقوبي مسألة المغرب قضية شبه عائلية ، لأن هذه البلاد التي يهتم بها ، هي بلاد ادارسة فاس ، الذين انقذ جده الثالث مؤسس سلالتهم (١٠١١) . ويلاحظ ان ابن حوقل

يتحدث عن الأنهار في نطاق طرق معينة (١٠١٢) ، يجعلها نقاط ارتكاز لها أو توقف عليها ، اعتنى بتفصيلها عناية جيدة . لكن لمن يرسم تلك الطرق ؟ قطعاً للتجار . وهذا النوع من الاهتمامات معروف . ويوجه الانظار إلى سجلماسة ، وبعدها إلى أودغست وافريقية الذهب . إلا أن المغرب ميدان نزاع مغلق ؛ يتخاصم فيه امويو الاندلس وفاطميو مصر. وتدخل تلك الطرق وتحديد نقاط الماء عليها ، وبيان ثروات البلاد المسافر اليها أو تنظيم قبائل البربر ، في إطار جغرافية تؤيد الفاطميين ، يبدوابن حوقل واحداً من أفضل ممثليها (١٠١٣).فهل قامصدفة بتدوين أنهار الجزائر لأنها معالم طرق ، وخاصة بتدوين أنهار المغرب الأقصى لأنه يقابل الاندلس الاموية ، ويسيطر على بعض النقاط الحساسة الرئيسة على طرق الذهب عبر الصحراء ؟ في جميع الأحوال ، يعد تدوينها أفضل من التدوين المتعلق بتونس التابعة لسلطة الفاطميين . وقد قلنا من قبل ان معرفة الجغرافية عن المغرب ناقصة . ونقصد جهل بعض الجغرافيين الصارخ لها من جهة ، وتشويهها غالباً ونزوعها إلى جعل الأنهار وغيرها عناصر في استراتيجية السلطة .

مصر والنيل

انتهت الريب المغربية . وآن اوان الحديث عن مصر ، البلاد القديمة الشهيرة ، التي اثارت حماس الجغرافيين (١٠١٤) ، الذين عرفوها جيداً ، ودأبوا يكملون معطيات اللحمة الكلاسيكية في كل وصف لها (١٠١٥) ، ويصححونها معتمدين على مشاهداتهم الشخصية .

وتأتي في طليعة هذه المعطيات ، كما قلنا من قبل ، المعادلة بين مصر والنيل ، وتشابك الأرض والماء ، واسهام النيل في جميع مظاهر

الثروة ، وتسميته بحراً دون انهار الدنيا لكبره واستبحاره . واتجاهه في جريانه من الجنوب إلى الشمال ، خلافاً لميل الكرة الطبيعي . وأخيراً خروجه من الجنة التي يجري فيها عسلاً . اذن النيل سيد مصر الذي حوّل أرضها القديمة إلى « معدن ذهب » . بالتالي يعد إحدى عجائبها.

والواقع ان النيل عجيب في نواحي عديدة ، أولها تاريخه الذي يتضح بتقليد خاص. ويخلّف بعض الآثار . فهذا التقليد الخاص ، سنّة النيل التي الغاها الاسلام ، وكانت تزعم انه لا يجري إلا بها . وتقضي بالقاء جارية بكر فيه لكي يأتي فيضانه غزيراً (١٠١٦) . اما الآثار ، فتتمثل في خرائب سور مزدوج ظن أنه أقيم على ضفتي النيل ؛ وسمي « حائط العجوز » ولم يكن في الحقيقة سوراً ، بل مراكز مراقبة صغيرة متفرقة ، بنيت في الماضي في الاودية الصابة فيه ، وبقيت اطلالها ، وجعلتها الاخبار آثار تحصين متقن ومستمر ، شيد لمجابهة أهل صعيد مصر أو لدرء خطر السباع الخارجةمن النيل وغيرها من الوحوش(١٠١٧).

ومن عجائب مصر أيضاً الحيوانات . ولابأس ان يعدّ النيل من أغنى أنهار الدنيا بالاسماك . وإليه تأوي دواب ، لا تعيش إلا في مائه أو على ضفافه ، نذكر منها – وسوف نعود إليها – الرعادة ، وفرس الماء ، وخاصة التمساح الذي يجزم الجغرافيون انه خاص بالنيل ، لا لأنهم يجهلون وجوده في أماكن أخرى ، مثل سواحل الهند أو افريقية الشرقية ، بل لأنه يطيب فعلاً له ، فيما يبدو ، أن يعيش في مصر ، ويكثر فيها ، ويترافق مع طائر يخلل اسنانه ، وينبهه إلى الاخطار التي تتهدده . أخيراً يعد التمساح ، عند الاقتضاء ، برهاناً اضافياً على اتصال النيل ومهران ، وقد اشرنا اليه من قبل ، لأن جميع تماسيح النيل أتت إليه من نهر مهران في المشرق (١٠١٨) .

والعجيبة الاخيرة فيضان النيل . وهذه ظاهرة خارقة حقاً . ويرحّب بها الناس ، ويدوّنها الجغرافيون على هذا الاساس ، بل يعدونها معياراً لأنهار أخرى . مثل مهران وزيز ، وشلف ، كما قلنا ، أو أيضاً نهر الشاش (سيحون) (١٠١٩) . هنا كذلك ، المعادلة شبه تامة بين مصر والنيل ، اذ ليس بأرض مصر ، فيما يقال ، مدينة يجري فيها الماء من غير حاجة إلى زيادة النيل الا الفيّوم (١٠٢٠) . ويعرف المصريون جيداً زمن ارتفاع مياهه الذي يدوم من « امتداد الحر إلى الخريف » ، على حد قول ابن حوقل ، الذي يحدده بدقة في مكان آخر ، كما يفعل المسعودي أو المقدسي ، معتمدين جميعاً على تقويم قبطي قديم (١٠٢١) . ويبتدىء نيل مصر بالزيادة في شهر بؤونة – وهو حزيران – عندما تحل الشمس في كوكبيّ التوأمين والسرطان ، ويستمر ماؤه في الزيادة في الشهرين التاليين (ابيب وخاصة مسرى) ، وأحياناً حتى نهاية شهر أيلول (توت). فاذا كان يوم عيد الصليب في ١٤ ايلول ، « وقت انتهاء حلاوة العنب » اطلق الماء الطيب في جميع نواحي مصر من ترعها ، وقد سدّ أهل الجرف أفواه أنهارهم حتى لا يخرج الماء منها . وحين طلوع الفجر بالسماك الاعزل ، وهو لثمان تخلو من شهر بابه (تشرين الأول) ، يتكامل ري الأرض ، ويقرب وقت انحسار الماء .

وقد ورثت دار الاسلام تقليداً من أقدم تقاليد الدنيا عن فيضان النيل ، وتعبّر عن اهتمامها بهذا النهر ، بما قيل من زمن بعيد عن الأراضي وعن المقاييس الموضوعة لمعرفة زيادة النيل ، وعن تقدير المحاصيل استناداً إليها ، مما يدل على مخاوف المصريين منذ عهد عريق في القدم ، من اندفاعات النيل ومن جفافه أيضاً (١٠٢٢) . ولمقاييس زيادة النيل أماكن ثابتة أحدها بسردوس . « والمقياس بركة وسطها عمود طويل،

فيه علامات الاذرع والاصابع (١٠٢٣) . فما فائدة هذه المقاييس ؟ أولاً تصحح التخمينات التقريبية التي يرددها المصنفون الجغرافيون . فهنا يقال ان أكثر ما يركب نيل مصر الأرض . وينبسط عليها من جانبيه نحو فرسخين سيحا وفي الخلجان . أي أقل من اثني عشر كم . لكن على أي مستوى (١٠٢٤) ؟ ويروى أيضاً أن النيل عند امتداده ، يكون أكبر من دجلة والفرات اذا اجتمعا ، لكن أقل من سيحون(١٠٢٥). ولا بد من التدقيق في هذه الاقوال التقريبية . والاعتماد على مقاييس الزيادة لتحقيق هذه الغاية . وتتفق جميع التقديرات على ما يلي : فأقل ما يبقى في قاع المقياس من الماء ثلاث أذرع . واذا انتهت الزيادة إلى ست عشرة ذراعاً ، استبشر الناس ، وكانت « سنة مقبلة» . وأتم الزيادات كلها ، العامة النفع للبلد كله ، سبع عشرة ذراعاً ، وفي ذلك كفايتها وري جميع أراضيها . فان جاوزها الماء كان خصب وسعة. واذا بلغ ثماني عشرة ذراعاً ، استبحر بمصر ، وتضررت بعض الضياع وكانت العاقبة في انصرافه حدوث وباء . واذا تعداها ، وهذه ظاهرة نادرة جداً لحسن الحظ ، حلّت بمصر الكوارث . مع ذلك تقل هذه الأضرار عما يحصل لو قلت المياه : فالاذرع التي يستسقى عليهابمصر ، ذراعان تسميان منكراً ونكيراً . اشارة إلى اسمي ملكي الموت ، وهما الثالثة عشرة والرابعة عشرة . ولا ينادي المنادي على زيادة النيل إلا بعد ان يبلغ اثنتي عشرة ذراعاً ، إلا ما يرفع إلى السلطان (١٠٢٦) .

ولا يترقب الفلاح وحده أنباء زيادة النيل . فالخراج يترصدها كظله ، ويتناسب استيفاؤه معها . ويقال ان ليس كهذه الحال تجري أحوال الخراجات بسائر أصقاع الأرض . لأن الخصب لا يعوّل على الأمطار ، لأن مصر لا تمطر إلا المطر اليسير . بل على مياه النيل (١٠٢٧).

ويورد ابن حوقل ، دون سائر الجغرافيين ، اوسع التفاصيل عن هذه الناحية (١٠٢٨) ، ويستعرض مراحل استيفاء الخراج ، شهراً فشهراً. ويرفقها ببيان أعمال الأرض الجارية . ويتزامن عنده تحديد الوقت وامتداد الماء ونمو النبات وكدح البشر في حقولهم . وتتكرر هذه الظواهر المربكة ، وهذا الاحصاء المجهد الدقيق الذي يهم إلى أقصى حد تاريخ الزراعة في مصر والشرق الأدنى في القرون الوسطى (١٠٢٩) ، ويبرز فيها فيضان النيل الذي يرى فيه الفلاح بشير خير أو نذير قحط أو مدعاة لا مبالاة ويعتبره الخراج الذي يقيس امتداد المياه وزيادتها ، دليلاً قاطعاً على جودة محصول الأرض المغمورة ، ومعياراً حاسماً لها.

ويحدق الكاتب بأرض مصر ونهرها ، ويطمئن لهما ، ويشعر بالثقة في وصف حوارهما ، وتهن عزيمته عند تعليله ابان زيادة المياه ، التي يستغربها كثيراً . لأن ظاهرتها تترافق مع التضاد الصارخ بين النيل الممتلىء السائد وبين مصر الشحيحة الامطار مثلما قلنا . اذن ينبغي ان تمطر السماء صعداً ، بعيداً جداً ، في شتاء نصف الكرة الجنوبي ، أي ما يقابل صيف النصف الشمالي ، في رأي المسعودي . ويتحدث مصنفون آخرون ، وهم مصيبون ، عن أمطار صيفية في مناطق أعالي النيل أو يعتبرون زيادته ونقصانه من عيون في شاطئه يراها من سافر ولحق بأعاليه، أو يحتجون بمبدأ التوازن العام بين النيل وبين سائر أنهار العالم والأعين والآبار ، أو بما يظهر من تأثير القمر في بحر النيل : أي بالمد السنوي عملياً . ولا يتضح تماماً في ذهن الاسواني ما اذا كانت زيادة النيل ، الناشئة « عن الامطار يضاف اليها فيض الانهار ذاتها » ، تتبدل من مكان إلى آخر ، ويتغير زمانها وشدتها ، أو اذا كانت تحصل في جميع المناطق بآن واحد (١٠٣٠).

وتتدخل الرياح أحياناً في زيادة النيل . ولا غرابة في ذلك :

ما النيل أصبح زاخراً بمدوده
وجرت له ريح الصبا فجرى لها

وإذا هبت ريح الشمال ، تراكضت أمواج البحر ، ودفعت ماء النيل . فاذا هبت الجنوب ، ردّت ماء البحر ، وغلب عليها النيل ، ما لم يعيّن النيل نفسه حركة الهواء من الجنوب بجريه وأبخرته . إلا ان ريح الشمال ، اذا كثرت واتصلت بماء النيل ، حبسته فيفيض من جراء هذا السد الخفي المحسوس (١٠٣١) . ويجوز أن تكون حركة الهواء والأرض والماء « لعلل استأثر الله بعلمها ، ولم يظهر أحداً من خلقه عليها ، لما هو اعلم به من عمارة البلاد وصلاح العباد » (١٠٣٢) . كذلك بشأن الزمن . فنحن لم نعد نعيه ، ويعلمه الله وحده . ويقول المسعودي : خفي على أهل مصر ، ولا تذكر تقاليدهم ، متى استقر أجدادهم في البلاد ، وسيطروا على النيل ، واعمروا الأرض ، في الأزمنة القديمة . عندما كانت زيادة النيل تبدأ عند موضع الجنادل الأولى . ثم عملت الأجيال المتوالية ، فأحكمت الجسور ، وبنت القناطر ، ونقّت الخلجان ، فقام توازن تام بين الأرض والنيل . وكان الماء اذا بلغ في زيادته تسع أذرع دخل بعض الخلجان ، واذا بلغ ست عشرة ، روى أرض مصر كلها ، عامرها وغامرها (١٠٣٣) .

أما الواقع الراهن ، وهو معروف وحده ، فمشهد تحدده بانتظام زيادة النيل لسنة كاملة ، وتحولّه في غضون بضعة أسابيع . وينساب النيل بين أبنية مصر القديمة ، أي معابدها ومسلاتها ، وأهرامها ، ويمر بمدنها . الواحدة تلو الأخرى ، ويتوزع على أريافها الهادئة بأقنيتها ، ونواعيرها

وسدودها ، ويسقي ضياعها وأراضيها ونباتها وحيوانها . واذكر من بين أشياء كثيرة ، النخيل ، وهو وافر جداً ، وبساتين الاشجار والخضار ، والحبوب ، والرز ، والكتان ، وقصب السكر ، والكروم ، والقصب ، والموز . والزيتون . والفلفل والسنط والجميز ، والبلسم (١٠٣٤) ، ثم الخيول . والقطعان ، والحمير ، والابقار ، والبغال ، والابل ، والاغنام ، والبط وحتى الخنازير (١٠٣٥) . واذا تناهى مد النيل ، يغشى الأرض فتغمر الطرقات ، وترى « ضياعه على الروابي والتلال مثل الكواكب » ، قد أحاطت بها المياه من كل جانب ، فلا سبيل لبعض البلاد إلى بعض الا في الزوارق (١٠٣٦) » .

وعندئذ يعمّ سحر الألوان وشذا العطور . وينبىء بهما النيل الذي يبدأ مخضراً ، ثم محمراً ، ثم مكدراً ، ثم يتدافع بأمواجه ويترامى بسيوله . ذلك أنه يجعل الدهر أربعة فصول بأربعة ألوان . فعندما يطبق على الأرض ، تصير كأنها فضة بيضاء ، ثم ينضب عنها فتصير مسكة سوداء ، ثم تزرع فيصير زرعها زبرجدة خضراء ، ثم يستحصد زرعها ويصفر فتصير ذهبة صفراء (١٠٣٧) . إلا أن هذا الكلام القليل المنقول من كتاب التنبيه والاشراف ، لا يكفي ليدل . ففي مروج الذهب توسع ، يتناول الأشهر القبطية ، ويتسامى بها ، ويشدد عليها ، على غرار تقويم الثورة الفرنسية ، ويجعلها أشبه بحلي يزدان بها العالم (١٠٣٨). وقد جـــاء فيه : « وصف بعض الحكماء مصر فقال : ثلاثة أشهر لؤلؤة بيضاء ، وثلاثة أشهر مسكة سوداء ، وثلاثة أشهر زمردة خضراء وثلاثة أشهر سبيكة ذهب حمـــراء . فاما اللؤلؤة البيضاء فان مصر في شهر ابيب — وهو تموز ، ومسرى ، وهو شهر آب ، وتوت ، وهو أيلول (١٠٣٩) ، يركبها الماء ، فترى الدنيا بيضاء ، وضياعها على

روابي وتلال مثل الكواكب ، قد أحاطت المياه بها من كل وجه فلا سبيل لبعض البلاد إلى بعض إلا في الزوارق . واما المسكة السوداء ، فان في شهر بابه ، وهو تشرين الأول ، وهاتور ، وهو تشرين الثاني ، وكيهك ، وهو كانون الأول (١٠٤٠) ينكشف الماء عنها ، وينضب عن أرضها ، فتصير أرضاً سوداء ، وفيها تقع الزراعات ، وللأرض روائح طيبة تشبه روائح المسك . واما الزمردة الخضراء ، فالأرض في شهر طوبه ، وهو كانون الثاني ، وامشير ، وهو شباط ، وبرمهات ، وهو آذار (١٠٤١) ، تلمع ويكثر عشبها ونباتها ، فتصير كالزمردة الخضراء . وأما السبيكة الحمراء ، فان في شهر برمودة ، وهو نيسان ، وبشنش ، وهو أيار ، وبؤونة ، وهو حزيران (١٠٤٢) ، يبيض الزرع ، ويتورد العشب ، فهو كسبيكة الذهب منظراً ومنفعة » .

وهنا ، تبلغ رؤية اقتران النهر بالأرض أوجها . مع ذلك ، لا يضنى هذا العمل النيل . فهو رب مصر وسيدها ، يمر فيها ، ويخصبها ، ويكفي نفسه بنفسه . ومصر تهيء باتصالها به ، وليس العكس . مهما يكن ، يخص وصف النيل النهر وحده بجانب كبير من نصه . ولن نعود إلى أصل النيل ، الذي تحدثنا عنه من قبل (١٠٤٣) ، ولا يهمنا إلا نيل دار الاسلام . فهو يبدأ بدقة تامة عند أسوان ، على تخوم العالمين المصري والنوبي ، المتمثلة في جبال منيعة . فالى هذه الحدود ، في ناحية جزيرة بلاق (١٠٤٤) (فيله باليونانية) ، تنتهي سفن المصريين النهرية ، وتتوقف عند الجنادل الأولى ، التي تعد ثغرة هائلة مفتوحة في الجبال . لكنها ثغرة خشنة ، لم ينجز الماءعمله فيها ، فخلّف في وسط النهر أحجاراً عظاماً ، لا تقدر المراكب ان تسير بينها ، فيحمل متاعها في البر (١٠٤٥) . وعلى النيل أيضاً مضيقان بين جبلين يثيران صعوبات

خفيفة . يسمى الأول منهما الخنس ، ويقع بين أسوان واتفو . يرجح انه ممر جبل السلسلة (١٠٤٦) . ويقع الثاني صببا بين اسنى وارمنت ، ولعله على مستوى « الجبلين » في الوقت الحاضر (١٠٤٧) . ثم يلي تلميح مبهم جداً إلى رسم النيل منعطفاً كبيراً بين الأقصر ونجع حمادى (١٠٤٨) وهذا كل ما يقال حتى مستوى الفيوم .

فهنا يقع سد اللاهون وخليجه ، ويقال ان يوسف احتفره ، وهو يأخذ من النيل (١٠٤٩) ونشير عرضاً إلى أن المصنفين الجغرافيين يتعمدون الغموض . فمن يطالع مصنفاتهم ، لا يخامره الشك في ان الخليج المقصود ، اي المنهى ، ويسمى اليوم بحر يوسف ، يتفرع عن النيل ، لا عند هذا المستوى بل بعد مئتي كم صعداً قرب ديروط (١٠٥٠) في جميع الاحوال ، يبدو ان ري الفيوم يتم على مرحلتين . فلم يكن النيل يبلغ الفيوم ، فشكا أهله ذلك إلى يوسف . فبنى وسط المنهى سداً عظيماً ، وجعل في أسفله منافس في قنى زجاج ، فردّ السد الماء ، فارتفع حتى حاذى أرض الفيوم ، ووزنه ليدوم لهم دخول ماء ثابت ومتساو في خليج المنهى . وسر أهل الفيوم بعمل يوسف : فالماء حين زيادته ينهال من فوق السد ، وربما خلّفوا المراكب مع الجرية ، فانحدرت سالمة ، وربما عطفت ، فانقلبت (١٠٥١) . مع ذلك ، لم يكن بناء السد كافياً فيما يبدو . فعلى حد قول المسعودي (١٠٥٢) كان الماء يأتي إلى الفيوم من المنهى أيام جري النيل فقط ، ولم يكن حجر اللاهون قد بني بعد ، فقرر يوسف أن يبني (١٠٥٣) المنافس والسدود المتدرجة التي يشير صاحب مروج الذهب إلى عجائب بنائها وخلودها ، بعد سترابون.

وهكذا ، ارتد شح الطبيعة الأصلي عليها . وصارت الفيوم ، بعد

ضبط توزيع المياه بالسد ، البلد الوحيد في مصر الذي يتلقى ماء النيل يوماً بعد يوم ، كما سبق وقلنا . ويتجاوز الخليج قرية اللاهون ، بحجاره المنضدة في سريره ، ويذهب إلى مدينة الفيوم ليسقيها . وكان سور يحيط بناحية الفيوم في قديم الايام ، ويعرف بـ « حائط العجوز » ، ولا تزال أبراجه بينة من جانب البرية . وناحية الفيوم كثيرة الخيرات والفواكه . وأكثر غلاتها الارز ، ولا تعدم من أصناف الحبوب شيئاً . وبها طرز مشهورة للسلطان ، تعمل فيها الستور والشرع والخيام والبسط والحلل المقصبة . وتنتهي بقية المياه ، بعد الفيوم ، على حد قول ابن حوقل ، إلى بحيرة اقني وتنهمت ، وتمتد مسيرة يومين في وسط جبال رمل أصفر . وبها من الطير في الشتاء ، ما ليس بمكان ما يدانيه ولا يقاربه . وكانت تسمى قديماً بحيرة ماوريس ، وهي اليوم بركة قارون (١٠٥٤) .

ثم نأتي إلى مدينة الفسطاط العظيمة التي يعرض النيل عندها كثيراً . وينهي ، باتصاله بجبل المقطم ، كل حوار مع الجبال ، وقد اتخذ مقياس لمعرفة زيادة النيل في جزيرة الروضة (وتدعى جزيرة الصناعة) ، بين الفسطاط والجيزة . والمعبر اليها من الفسطاط على جسر ، ثم منها على جسر آخر إلى الجيزة ، وحركة السفن والمراكب دائمة بينها ، وفيها دور عالية بها طبقات ، وحولها بساتين ونخيل وقصور (١٠٥٥) . وتعد الفسطاط بداية الدلتا والحوف والريف : فالحوف ما كان من النيل أسفل الفسطاط ، وما كان من النيل جنوبيه يعرف بالريف (١٠٥٦).

وتتلخص أوضاع الدلتا ببضع كلمات : أذرع النيل ، خلجانه ، سدوده . ولا ريب أن هذا المشهد يتراءى صعداً ، وقد رأيناه في الفيوم . إلا أن المياه تتوزع في أراضي الدلتا إلى أقصى حد بدءاً من الفسطاط .

ويتميز (١٠٥٧) عمود النيل عن الشعبة الثانوية التي تعزل الروضة عن ضفة النيل الشرقية ، الواقعة عليها الجيزة ، وتسمى خليجاً . إلا أن اسم الخليج يطلق أيضاً على ذراع النيل القديم ،الذاهب إلى بحر القلزم ، الذي رممه حكام مصر عدة مرات ، وسموه خليج أمير المؤمنين ، ولا يزال سده يلعب دوراً رئيساً أثناء زيادة النيل (١٠٥٨).

ويتراءى للقارىء أن الالتباسات أخذت تظهر من جراء لامبالاة أساسية ، تبدت عند المصنفين الذين لم يميزوا مجاري المياه الطبيعية عن مجاري المياه الصنعية (١٠٥٩) ، مثلما ابنا من قبل . بالفعل ، لا يسهل دوماً الوصول إلى رؤية واضحة لتداخل أذرع النيل وخلجانه ، صبباً ، بعد الفسطاط ، لاسيما أن اسماءها في هذه الشبكة المائية وطوبوغرافيتها بالذات تبدلت في الغالب (١٠٦٠) . ففيما يختص بالترع ، عدد المقدسي أربع أمهات (١٠٦١) ، أسماؤها بلقينة ، وذات الساحل ، ثم الترعة التي تحدثنا عنها سابقاً ، وتقع عند عين شمس (هيليوبوليس) وهنا ينفتح خليج أمير المؤمنين الذي تضيع مياهه في النواحي الشمالية من السويس الحالية (١٠٦٢) ، وأخيراً ترعة سردوس (١٠٦٣) ، وهي أهمها وابعدها صبباً ، وتكثر فيها التماسيح مع الأسف . ومن أمثالهم «احذر سردوس ولو كان الماء في قابوس » ، ويستطرد المقدسي ،فيقول : « وكنت يوماً في سفينة عند سردوس ، فحككت ، فقلت : أبالارض حككت ؟ قيل : لا ، ولكن بظهر تمساح » (١٠٦٤) . أما الشعب والخلجانات الكبرى ، المختلطة في الوصف (١٠٦٥) فكان عددهاسبعة في مصر ، وهو رقم رفيع الشأن ، يضاف إلى قائمة ، أصبحت طويلة من عجائب مصر وفضائلها (١٠٦٦) . إلا أن الواقع يفرض بدوره اختيار شعبتي النيل اللتين تتباعدان بعد الفسطاط بمسافة قليلة ، صبباً ،

وتذهب احداهما إلى دمياط ، والأخرى إلى الرشيد . وتستطيع السفن القادمة من عرض البحر أن تصعد ، هنا وفي أماكن أخرى ، في المصب المسمى اشطوم ، وهو لفظ يوناني محرف (ستوما) (١٠٦٧) ومعناه فوهة النهر .

وتبرز نواحي أساسية في وصف دليا النيل (١٠٦٨) : مثل المدن بالتأكيد ، وفي طليعتها الاسكندرية والخلجان التي تصل بلدها بالنيل ، ثم البحيرات الكبرى القائمة بين طرف الريف وبحر الروم : كمريوط (ماريوتيس) (١٠٦٩) ، وبحيرة البرلس أو البشمور ، الكثيرة الصيد والسمك (١٠٧٠) في الغرب ، وبحيرة تنيس (١٠٧١) الشهيرة في الشرق ، ويجعلها كتاب حدود العالم مصرف نيل بسيط إلى أقصى حد (١٠٧٢) . ويشرح بعض الجغرافيين برزانة فائقة جري النيل في الشعبة الشرقية نحو دمياط ونحو بحيرة تنيس المتصلة بالبحر الرومي(١٠٧٣). فالمسعودي يعود إلى الماضي السحيق الذي كان البحر فيه بعيداً عن تنيس ودمياط ، وكانت فيه بحيرة تنيس أرضاً لم يكن بمصر مثلها استواء وطيب تربة . أما ابن حوقل والمقدسي ، فيكتفيان بالحديث عما يشاهدانه من مدن أشبه بالجزر ، محاطة بالماء من جميع جهاتها . ومنها مدينة تنيس ، التي أعطت اسمها للبحيرة . وبحيرة تنيس قليلة العمق وفيها سمك الدلفين ، صديق الانسان ، وحسب هبوب الرياح ، يكون ماؤها عذباً اذا امتد النيل في الصيف ، ومالحاً متى جزر النيل في الشتاء وقلب ماء البحر عليها . ولتنيس شهرة عالمية بالنسيج الفاخر ، ويعمل بها رفيع الكتان والثياب والحلل ، وهي إحدى مفترقات التجارة الدولية ، وتعدّ « جبل الذهب » ، وتسمى « بغداد الصغيرة» على الرغم من نقص مياه الشرب فيها وقذارة شوارعها .

اذن ، يكتنف النيل مصر حتى النهاية ، إلى بحر الروم ويتحداه . وتقترن الاشارة إلى هذا الماء بذكر الأرض . والماء ماء الري بلا ريب ، لكنه ماء الشرب أولاً ، ويؤخذ من العيون النادرة فيما يبدو في هذه البلاد المحرومة من المطر أو تكاد (١٠٧٤) . ويسحب أيضاً من آبار تزداد ملوحتها مع الابتعاد عن النيل (١٠٧٥) . أخيراً يستقى خاصة وفي جميع الأماكن من النهر أو من فروعه . ويلخص اليعقوبي (١٠٧٦)مصر والتدوينات الممكن جمعها من هنا أو هناك ، ويقول : « وشرب مصر وجميع قراها ماء النيل صيفاً وشتاء » وهذا الماء متفاوت الحلاوة ، كما أبنا ، حسب التربة ، أو حسب نسبة القوى بينه وبين ماء البحر . وهو: بارد هنا ، خاصة في الشتاء (١٠٧٧) ، أو حار كما في الفيوم ، حيث يجري على حقول الأرز (١٠٧٨)، وصاف أو على العكس كدر ، لاسيما متى زاد النيل ، وعندئذ تلقى فيه نوى مشمش مرضوضة ليصفو(١٠٧٩)، أو مخصب للتربة في جميع الاحوال ، وللنساء أيضاً (١٠٨٠) . ويستهلك ماء النيل وحده أو ممزوجاً بالمشروبات الروحية ، كالخمر وخاصة شراب العسل ، الذي يتخذ في زمان مدود النيل ، ويعمل من ذلك الماء الخاثر الكدر ، ولو عمل من الصافي لم يخرج على صفاء هذا ولا جودته (١٠٨١) :

فالماء يحجز ، ويوزع ، ويشرب ، ويتذوق ، ويدرس ، ويقوّم ، ويشاد به ، ويحتفل . فاذا كان عيد الصليب في ١٤ أيلول ، أي بعد يوم واحد من التاريخ الحقيقي ، وقبل أربعة أيام من الاعتدال الخريفي ، وقت انتهاء حلاوة العنب ، يخرج السلطان إلى عين شمس ، ويأمر بفتح ترعة سد أمير المؤمنين في عين شمس (١٠٨٢) . وتطغى عبادة النيل

وعبادة مائه على احتفال عيد تعميد المسيح في ليلة الغطاس ، التي يشترك المسلمون والاقباط باحيائها وافراحها .

ويقول عنها المسعودي ما يلي (١٠٨٣) : « ليلة الغطاس بمصر شأن عظيم عند المصريين لا ينام الناس فيها وهي ليلــة إحدى عشرة تمضي من طوبة وستة من كانون الثاني » (١٠٨٤) .

ولقد حضرت سنة ثلاثين وثلثماية (١٠٨٥) ليلــة الغطاس بمصر ، والأخشيد محمد بن طغج في داره المعروفة بالمختارة في الجزيرة الراكبة للنيل ، والنيل يطيف بها . وقد أمر فاسرج من جانب الجزيرة وجانب الفسطاط ألفي مشعل ، غير ما أسرج أهل مصر من المشاعل والشمع . وقد حضر النيل في تلك الليلة مئات آلاف من الناس المسلمين والنصارى، منهم في الزوارق ، ومنهم في الدور الدانية من النيل ، ومنهم على الشطوط ، لا يتناكرون الحضور ، ويحضرون كل ما يمكنهم إظهاره من المآكل والمشارب والملابس وآلات الذهب والفضــة والجواهر والملاهي والعزف والقصف (١٠٨٧) . وهي أحسن ليلة تكون في مصر ، وأشملها سروراً ، ولا تغلق فيها الدروب ، ويغطس أكثرهم في النيل، ويزعمون ان ذلك امان من المرض ومبرىء للداء ».

مجاري الماء الوسطى في جزيرة العرب والشام

تفرض الصحراء وجودها بعد عظمة المياه المصرية ، إلى شرق النيل مباشرة ، وتستبعد الأنهار والبحيرات عن الخريطة (١٠٨٨). فهنا يبدأ نطاق الأودية ،وجزيرة عرب الأودية الجافة ، بمجاريها الاستثنائية ، التي اختفت إلى الابد ، أو في أفضل الاحتمالات ، غارت ولم يعد يعثر عليها إلا في آبار في أماكن متباعدة . بالتالي ، لا تعدّ الأودية أنهاراً ،

بل أشكال تضاريس ، مغفلة الاسماء أو أماكن بسيطة أو منازل على الطرق (١٠٨٩) . وحتى لو اتسع الوادي ، وتحوّل إلى رقعة أرض حقيقية مثل وادي القرى الذي يمثل منخفضاً فسيحاً يمتد من خليج العقبة إلى المدينة ، فتسميته لا تنطوي البتة على إشارة إلى نهر مياهه دائمة وجارية (١٠٩٠) .

فأين يعثر في النهاية على هذا النهر الجاري ، ولو لبضعة أيام في السنة؟ في الاماكن الطبيعية المقدسة ، البائدة أو المزيفة . أما في الأماكن المقدسة المسلمة ، أي المدينة ومكة ، فتفيد هذه السيول الطارئة والعارمة — هي هذا النوع من السيول فقط — في وصف الطوبغرافية بدقة قبل أي شيء آخر (١٠٩١).ويتحدث الجغرافيون عن تاريخ جزيرة العرب الجنوبية، الذي لم تحتفظ الأرض والبشر إلا ببعض آثاره . ويلخص الاصطخري وابن حوقل الوضع تلخيصاً جيداً : فمجمع الماء الذي كان بأرض اليمن، في ديار سبأ ، انما كان موضع مسيل ماء ، فبني على وجهه سدّ وكانت تجتمع فيه مياه كثيرة يستعملونها في القرى والمزارع ، حتى كفروا النعمة بعد أن كان الله جعل لهم عمارات قرى متصلة إلى الشام ، فسلط الله على ذلك المكان آفة ، فبطل ذلك الماء ، ولم يبق من عمرانهم القديم الذي أقيم بعناية تامة في الماضي سوى بقايا أساسات بسيطة ، وبعض آبار تكاد لا ترى بعد عودة الوسط الأصلي إلى سابق عهده ، بعيونه وجداوله العادية (١٠٩٢) فقد استعانت جزيرة العرب بيد الله ، وحكمت بالعدل على النهر المبني عليه سد ، وعلى البحيرة التي صنعها البشر وراءه وقد تحدثت من قبل في سياق الكلام عن عين الناقة ، عن نهر محلّم بهجر البحرين ، ومحلّم نهر عظيم يقال إنه في أرض العرب بمنزلة نهر بلخ في أرض العجم .

وهذه الأقوال تعظيم بلا ريب لعيون فائقة الغزارة وجميلة جداً . ظنّ مدة طويلة أنها ينابيع تتفجر من نهر الفرات . لكن هل عين الناقة نهر حقاً (١٠٩٣) . ونلقى رؤية واسعة مماثلة في مصنف كتاب حدود العالم : فهو لا يسمي إلا نهراً واحداً في جزيرة العرب ، هو وادي بيهان ، ويضخّمه ، ويجعله ينزل من جبـــال اليمن ، ويجتاز حضرموت ، و« رمال » الاحقاف ، قبل أن يصب في بحر الهند . ووادي بيهان هذا مع الأسف اسم بلد واسم مدينة أيضاً ، وفيه آبار كثيرة تحفظ مياه أمطار أحياناً غزيرة ، لكنها طارئة ، قد تمر سنون قبل ان تهطل قطرة منها. ولو فرضنا صحة وجود هذا النهر ، وبهذا الاسم بالذات ، فهو يجري في الاتجاه المعاكس ، نحو صحراء رملية ، يضيع فيها بالتأكيد (١٠٩٤) وينزل بالتأكيد من جبال اليمن لكنه يذهب نحو الشمال . أخيراً نتساءل ان كان وادي صنعاء في اليمن الذي تجري فيه السيول أيام المطر ، ويسمى السرار ، نهراً بعرض دجلة أو أقل منها (١٠٩٥) .

اذن يبذل بعض المصنفين النادرين قصارى جهدهم في سبيل إقناع الناس بوجود نهر واحد في الحد الأدنى في جزيرة العرب ، يضاهي أنهار العالم . مع ذلك فشلوا في محو الصورة الحقيقية ، الناشئة عن معرفة الطرق منزلة منزلة أو عن وصف تلك الاصقاع : فجزيرة العرب أرض مياه خفية ، غائرة أو مدفونة ، تشاهد في الطبيعة عيوناً أو سيولا موقته في أفضل الاحتمالات ، أو يجدّ البشر في التنقيب عنها ليحصلوا عليها . بالتالي تمثل الآبار (١٠٩٦) المشهد المائي في هذه الجزيرة لا الأنهار .

بقي علينا أن نشرح اصرار بعض المصنفين على تخصيص جزيرة العرب ببعض الأنهار . فلعلهم حرصوا على التنهيج ، وعلى ذكر أسماء

جميع البلدان على خريطه أنهار العالم العامة ، كما هي الحال في كتاب حدود العالم ؟ وهذا صحيح في الكتاب ذاته بالنسبة إلى كل مغرب دار الاسلام (١٠٩٧) وقد يقصدون ألا يحرموا أنبل بلد في الدنيا من الدليل السامي على نعمته تعالى ؟ في هذه الحالة ، لابد من اعادة إدراج هذه الفكرة في النظرة الاجمالية الخاصة بالنصوص ، وفي الدور الشامل لتاريخ العالم . لايستخلص ، في اطار هذا التفكير . ان بعض الجغرافيين تجاهلوا دروس الماضي وأخطأوا في تحديد الزمن . فخلطوا العصور القديمة بعصرهم . ولم يدركوا أن جوهر نعمة الله الثابتة تبدل بين الحقبتين. فقد كانت النعمة طبيعية تتمثل في الماء عندما كانت جزيرة العرب تسيطر على أنهارها ، ثم صارت روحية بعد كارثة عقاب ونتائجها ، وظهرت، لا ماءاً جارياً ، بل وحياً تمثل في الايمان الصحيح . من هذه الزاوية بالذات ، البئر حفرة ماء محفوظ بعناية ومحصور ، تعدّ تذكيراً ورمزاً بائداً في تاريخ قديم مضت أيامه ، كان يحكي قصة النعم الأولى. وعلى النقيض ، يجري تاريخ الخلاص الجديد في العالم من جزيرة العرب التي صارت الينبوع الحي الابدي، نهراً عظيماً أميناً من الثقة المهتدى إليها . وبئر زمزم رمز آخر : فالمياه تغور قبل يوم القيامة ، إلا بئر زمزم ونهر الأردن ، وماؤها دواء لكل مبتلي ، والتضلع من مائها براءة من النفاق (١٠٩٨) ، ويتحول مديح مائها إلى صلاة (١٠٩٩). ٥ .

ولابد من الانتقال إلى الشمال لايجاد المياه الجارية . ونفاجأ في الشام باغفال الانهار الساحلية في لبنان . ولا أثر لأودية الفجاج القصيرة العميقة ، ولا لتفجر العيـون الكلسية الغزيرة ، وتحتفظ الجبـال بأسرارها (١١٠٠) ويجهلها الجغرافيون . ويعثر على بعض التدوينات مبعثرة هنا وهناك ، يظنّ أحياناً أنها مترددة أو مشكوك فيها . منها وادي

عارا ، حاليا السعير ، في جهات الرملة (١١٠١) الشمالية الشرقية . وواد لم يسمّ يضغط جبلاه نابلس (١١٠٢). ونهر بين الذي عند البلقاء وعمان ، يبدو أنه تابع لحوض نهر الأردن في ضفته اليسرى إلى شمال شرق عمّان (١١٠٣) ونهر الشراة ، وهو على الارجح وادي الحسا الذي يصبّ في بحيرة صغر ، ويأتي من المناطق الجنوبية الشرقية . ووادي بطنان ، المضاف إلى حمص ثم إلى حلب (١١٠٤) ، وعلينا ان ندرك أن هذا الاسم المبهم الغامض يدل على منابع نهر الذهب ، الذي يغيض في بحيرة الجبول بين حلب والفرات (١١٠٥) . أخيراً واديان يتعلقان بتاريخ التوراة أو الاخرويات ، هما وادي كنعان وخاصة وادي يوشافاط أو قدرون ، المسمى وادي جهنم ، الذي سيكون فيه يوم القيامة (١١٠٦) . ووصف القويق أفضل من وصف سواه ، فهو يدخل إلى حلب ، إلى دار سيف الدولة في شباك حديد ، على حد ما قيل ، ماؤه صاف ، ويغيض في المرج الاحمر ، أي مستنقعات المطخ حالياً (١١٠٧) .

في جميع الاحوال لم نتطرق حتى الآن إلى الناحية الاساسية . فهي تكمن أولاً في إحدى المناطق الحساسة من تخوم الاناضول ، تتصل بذكرى عظيمة ومرة تتعلق بالحروب مع بيزنطية (الروم) . وقد مرت معنا من قبل مثلثة أنهار بردان – سيحان–جيحان (١١٠٨) ، وخروج النهرين الاخيرين من الجنة واعتبارهما من الأنهار الشهيرة على الأرض ، واكتساب بردان نصيبه من الشهرة لذكره معهما . ويرتبط كل من الأنهار الثلاثة باحدى المدن الآتية على التوالي طرسوس واضنة والمصيصة. وهذه الأنهار شبه غامضة ، تأتي من ارض عدوّة ، عبر منطقة الأبواب الوعرة (١١٠٩) ، وتصب في دار الاسلام التي أصبحت مسرح صراعات ، وفتح بيزنطي في نهاية القرن ٤ هـ / ١٠ م . أيعلل اضطراب

الوضع إلى حد عظيم : غموض التلميح ، وتوزيع المدن الثلاث الخاطىء أحياناً ، والتباس الأنهار ، والمسافات المغلوطة ؛ وماذا نقول عن نهر بردان الغريب ، الذي يبدو عند المسعودي ان مخرجه من عيون تحت عقبة الاكواخ من جبل ترابي أحمر ، ثم ينقسم إلى قسمين ، يمضي احدهما إلى هرقلة في هضبة الاناضول ، ويصير القسم الثاني إلى طرسوس باتجاه معاكس . ويصب فيه نهر يعرف بالفاتر ، غزير الماء ، وانما سمي الفاتر بالضد لشدة برودته . ويشق بردان طرسوس ، وينتهي في البحر الرومي قربها . مهما يكن ، يرسم ابن حوقل لوحة الحرب الحديثة ، ويعارض الازدهار الغابر الذي يتمثل في الجسور الحجرية الفخمة أو الارياف الزاهية العامرة بالماء ، بالخراب الشامل في عصره ، وانعدام الحياة .وكان يطيب للمصنفين أن يتغنوا بأصل هذا النهر المقدس ومكانته السامية في المواقع الامامية من ثغور مفتوحة انفتاحاً واسعاً على عدو ميؤوس من وضعه ، ثم صار الناظر التعيس الذي يتأمله ، لا يبالي بمائه ، بعد أن دار دولاب الزمن دورته .

بقي نظام مائي آخر ، وهو الأول في بلاد الشام من ناحية الأهمية . وتكتنف معرفته الشكوك . لذلك لا يسعنا إلا أن نجمع في منظور واحد، الارنط ، والمنخفض الكبير للبقاع والاردن والبحيرة الميتة ، وأخيراً بردى دمشق (١١١١). ويستغرب في سياق هذا البحث ، لا الشطط في بعض المعطيات ، بل اقترانها بوقائع حسية ، عند أحد المصنفين بالذات ، أصله من بلاد الشام كالمقدسي . ولنتعرف على نهر الارنط أولاً . فالرياح الجنوبية تدفعه من جبال منطقة دمشق ، إلى حمص ، وحماه ، وشيزر ، فانطاكية ، فبحر الروم . ويجري من الجنوب إلى الشمال ، خلافاً

لسائر الأنهار ، فسمي العاصي؟أو المقلوب . وهو نهر هام ، يشرب ماؤه في أماكن كثيرة . ويدقق المسعودي ، ويقول الارنط نهر حمص وحماه ، وشيزر ، وانطاكية ، الخارج من القرية المعروفة باللبوة بين حمص ودمشق ، ويشير هذا الكلام إلى بعض منابع العاصي الكبيرة ، التي يتألف منها هذا النهر (١١١١) . ويشق بحيرة قدس (بحيرة حمص حالياً) ، وبحيرة فامية ، أي سهل الغاب المرزغي (١١١٢) . ويصب إليه بالقرب من أنطاكية نهر الرقيا (أو اليغرة) الخارج من بحيرة جندارس ، وهو نهر عفرين الذي يرفد العاصي هو والنهر الاسود(قره صو) عبر منخفض العمق ، الواقع إلى شمال شرق هذه المدينة (١١١٣). وله رافد آخر ، يذكره ابن سيرابيون ، هو نهر الرستن المعروف الموقع صعداً بعد حمص .

وننتقل إلى نهر بردى ، الذي ينشأ في الجبال المشرفة على دمشق . فهو يروي واحة الغوطة بتفرعاته ، قبل أن يسكب فائض مائه في بحيرة دمشق . ويدقق ابن حوقل ، ويقول : مخرج ماء الغوطة من الفيجة ، مع ما يأتي اليه من عين بردى من جبل سنير . ثم يجري في شعب تتفجر فيه العيون ، فيأخذ منه نهر عظيم ، ينبسط منه نهر المزة ونهر القناة . ثم ينقل من هذا الماء عمود النهر المسمى بردى ، وعليه قنطرة في وسط مدينة دمشق ، لا يعبره الراكب ، لغزر مائه وكثرته . فيفضي إلى قرى الغوطة ، ويجري الماء في عامة دورهم وسككهم وحماماتهم .

ويتحدد الغور ويدرك ادراكاً جيداً جداً على الوجه التالي ، فهو منخفض كبير ينحصر بين سلسلتين من الجبال ، وتتجمع فيه مياه تلك المنطقة . ويعتبر حفرة وسطى وحيدة ، أو عدة حفر متصلة

(اغوار) بحفرته الرئيسة . ويلخص المقدسي المحور المائي في هذا النظام تلخيصاً كاملاً ، ويقول : ونهر الأردن ينحدر من خلف بانياس ، فيتبحّر ، ثم ينحدر في الأغوار ، إلى البحيرة المقلوبة » . ولنستعرض هذه المعطيات . فبجوار بانياس ، يخرج هذا النهر الشديد البرودة من تحت جبل الثلج (حرمون) . والحولة بحيرة واقعة قرب قدس ، ولا يجوز الخلط بينها وبين بحيرة حوض الارنط ، وتختفي شطوطها تحت الحلفاء،ويكثر فيها السمك البني المنقول إليها من واسط في العراق(١١١٤) وبحيرة طبرية فاتنة ، مجمع مائها تام الاستدارة ، ومحاط بالجبال ، وكثير الاسماك ، وحال جداً ، وبلدها غني ، به قرى عديدة ومدينة طبرية بحماماتها الشهيرة وعيونها الحارة . ويبدأ بعدها مباشرة وادي نهر الأردن الحقيقي ، الشهير بنخيله . ولا أثر فيه للروافد . ويستقطب نهر الأردن الانظار ، ويشد إليه المدن البعيدة عنه ، الواقعة في الأودية الملاصقة له ، مثل بيسان على نهر جالوت الذي يكاد لا يرى (١١١٥) . أخيراً نذكر البحيرة الميتة ، المسماة المنتنة أو المقلوبة أو بحيرة أريحا ، أو بحيرة صغر (١١١٦) وماؤها ثابت كالزئبق ، ليس فيه موج ، ولا يغرق ، ولا شيء فيه من الحيوان . ففي هذه الأماكن الكئيبة ، التي تذكر بعقاب قوم لوط ، لا تجود الطبيعة إلا بالملح ، وقار البحيرة ، والحجر اليهودي الذي يستعمله أهل الطب لمن به وجع الحصاة في المثانة ، والماء الذي يعد الاغتسال به ترياقاً . ويجتمع ذوو العاهات والامراض على شواطئه في آخر شهر آب من كل عام .

ولننتقل الآن إلى ثبت الشكوك . فأولا يقال ان نهر الاردن ، إذا انتهى وصب في البحيرة المنتنة ، خرقها ، ووصل إلى وسطها ، وبقى ماؤه متميزاً عن مائها ، ثم يغوص في قعرها ، ويزعم البعض أنه يخرج

نهراً ساحلياً في فلسطين ، أو — ولم لا — في الهند (١١١٨) . ولا يمثل نهر الأردن كل النظام المائي في المنطقة . فالخوارزمي ، وهو صاحب العمل ، يذكر نهرين خارجين من بحيرة طبرية ، يذهب احدهما إلى البحيرة المنتنة والآخر إلى حرمون ، فبحر الروم . فهل نتعرف على نهر الاردن اذا قصرنا مجراه، وجعلناه يشمل ما كان منه قبل بحيرة طبرية صعداً (١١١٩) ، ثم على نهر الارند أو الارنط ، اذا تغاضينا عن منشأه الغريب ؟ هذا هو فيما يبدو رأي قدامه وابن سيرابيون الذي يحدد بدقة مصب الارند غرب انطاكية ، لكنه يسميه نهر الاردن، على التخصيص ، ويقول عنه الخوارزمي انه يسقي حمص ، وحماه، وانطاكية ، إلا أنه يشكل نهراً ثالثاً ينشأ في جبال لبنان (١١٢٠) . أما بردى فيرى البعض أنه يخرج من جبل الثلج بالذات (حرمون) الذي يقترن بجبل سنير (١١٢١) ، فيصل الجبل والنهر إلى دمشق . ويجيء المقدسي بأعقد شرح ، فيزعم أن لبردى فرعين أو ثلاثة فروع ، طبيعية أو صنعية ، يروي أحدها دمشق والغوطة ، ويذهب الثاني إلى نهر الاردن ، وينضم الاخير إلى نهر الارنط .

فمن أين أتت هذه الالتباسات في بلد معروف ، يلمّ به الجغرافيون الميدانيون الرحالة المشرقيون وخاصة المقدسي الفلسطيني الاصل ؟ نحتج أولاً بالتسمية : فيكفي تقديم أو تأخير حرف واحد في لفظي الأردن أو الارند ليحل أحد النهرين محل الآخر (١١٢٢) . وقدس اسم يطلق على بحيرتين ، تخص كل منهما أحد النهرين السابقين . ولفظ مقلوب ، الذي يعني نهر الارنط ، يطلق أحياناً على البحيرة المنتنة : المقلوبة . وكلاهما يذكر بقوم لوط (١١٢٣) . لذلك يبدو أن النهر يستقطب إلى نظامه البحيرة المقلوبة والنهر المقلوب بسهولة يعززها شعور المرء بأن

ثلم البقاع والغور يمثل بلداً واحداً ، على الرغم من العتبة الفاصلة بينهما. يضاف إلى هذه الشكوك شكوك التضاريس . فقد أشير من قبل إلى الضباب الذي يمكن أن يكتنف الجبل هنا ، خاصة في منطقة جبل الثلج ، وإلى التقصير في تمييز لبنان الغربية عن جباله الشرقية (١١٢٤) . ولم يتوضح خط تقسيم المياه في أرجاء بعلبك في العتبة التي تحدثت عنها منذ قليل باختصار الخط المزدوج الفاصل أولاً بين حوض الارنط والليطاني(١١٢٥) ثم بين الليطاني والاردن : فهل يعكس نص الخوارزمي هذه الرؤية الغامضة التي تتناول الأنهار الثلاثة ؟ ويعدّ الارنط الأعلى معقداً جداً أصلاً ، إذ يتكوّن من عيون عديدة مترددة ، لا تكاد تتشكل حتى تغور في الأرض متوارية ، ثم يعود إلى الظهور صبباً مع عيون أخرى (١١٢٦) . أخيراً ، لا يجوز أن ننسى ، خاصة بالنسبة إلى نهر الأردن والبحيرة الميتة في الحد الادنى ، ذكريات التوراة والاقوال الأخروية (١١٢٧) التي قد تدفع المصنفين إلى سرد خرافات كثيرة (١١٢٨) تتعلق بتصرف هذه المياه .

وتسهم جميع هذه الامور في خلق مشهد خفي ومشوش يتألف من بحيرات متطابقة (١١٢٩) ، ومن أنهار متباينة في اتجاه الجريان مثل الارنط والأردن ومثل بردى الذي يتحاشاهما ويذهب لا إلى بحر الروم ، بل إلى الصحراء (١١٣٠) ، ومن مياه لا تختلط بعضها ببعض ، ومن أنهار تغور لتظهر في طرف العالم الآخر ، وتنشأ مكتملة من جوف الأرض ، وتسحب مياهها من احتياطي أحواض باطنية ، لا تنضب (١١٣١) كما سوف نرى في نهاية العالم . وهذا يعني باختصار ان تلك الأمور تسهم بخلق بلد يظل فيه سير الماء (١١٣٣) بعيداً عن النطاق المكاني المعهود وعن النطاق الزمني البشري المألوف .

الجزيرة وخوزستان : مشاهد أرض وماء

ننتقل من اقليم الشام إلى بلدي الفرات ودجلة . وهما فعلاً بلدان، إذ يبدأ اقليم الجزيرة أو اقور على بعد ١٥٠ كم إلى ٢٠٠ كم صعداً إلى شمال بغداد ، في حين يشمل اقليم العراق بغداد وما إلى جنوبها من أرض منخفضة عنها . ولهذين البلدين وسطان طبيعيان متباينان ، حتى لو تشابها ببعض الصفات المشتركة بينهما من خلال نهريهما . فالعراق يمثل الحوار بين الفرات ودجلة بعد أن تخليا عن انفصالهما (١١٣٣) ، ووحدتهما شبكة من الاقنية والسباخ ، واستحال تفريق مجرييهما الادنيين الاقصيين ، سواء على الأرض أم على الخريطة ، عن الشبكة المائية في خوزستان ، التي تتوزع حـول نهر الدجيل ، أي دجلة الصغيرة .

وسوف نبدأ من النهاية ، خلافاً لكل عادة ، ونتناول الوسط البرمائي الناشيء على جوانب نهري دجلة والفرات وفروعهما المتداخلة العديدة (١١٣٤) . فقد استطاع ابن سيرابيون ، بما طبّقه من تقنية، وما بذله من دأب في وصف الشبكة المائية، الطبيعية أو المنشأة ، أن يعرض نظرة شاملة منها ، حقيقية وغريبة ، اذ قال ما معناه : لم يعد دجلة والفرات سوى شريانين في شبكة متشعبة إلى أقصى حد ، لا يعني فيها لفظ نهر أحد النهرين الكبيرين ، اللذين يسميان باسم علمهما فقط، بل إحدى الاقنية ، كبيرة كانت أم صغيرة ، التي تسير فيها المراكب . وتتوزع في كل الأماكن في جميع الأحوال . لذلك يتكون هذا الوسط من مجاري ماء عديدة ، محجوزة ، وموجهة ، ومتفرعة ، ومن كثير من القرى والضياع ، والقواديس ، والقناطر ، وجسور المراكب.

ويدخل في تكوينه عنصر التاريخ أيضاً ، لأن الأسماء فيه قديمة ، تعود في الغالب إلى عصور ما قبل الاسلام .

ويقع نهر الفرات في الغرب ، ويشتهر بقناة كبيرة ، مسحوبة منه في أعلى الكوفة ، تذهب شعبة أولى منها إلى الكوفة واريافها ، وشعبة ثانية إلى الأرض المحصورة بين دجلة والفرات ، وتنتهي هاتان الشعبتان في بطائح العراق . ويقع نهر دجلة في الشرق وتشق منه أقنية تعاد إليه بعد أن تتوزع فروعها ، وتسقي المزارع ، وتتلقى أيضاً مياه أنهار سفوح جبال فارس . ويميز ابن سيرابيون هنا ثلاث شبكات رئيسية : هي نهر الاسحاقي ، ونهر القاطول ، والكسراوي (نسبة إلى كسرى) الذي تبدل اسمه فيما بعد وأصبح تامرّا ، وينضاف إليه الخالص والنهروان ومصرفه نهر بين، ويأسر نهر ديالا (١١٣٥) ، أخيراً تصب في مكان واحد من دجلة ، ثلاثة قواطيل (جمع قاطول) ، هي اليهودي ، والمأموني ، وأبو الجند ، وتنتهي جميعها في قاطول كسرى (١١٣٦) . وتوزع أربعة أقنية جديدة مياه نهر دجلة على البطيحة بعد منطقة واسط باتجاه المصب : وهي بان ، وقريش ، والسيب وبردودى .

وهنا نصل إلى شبكة الفروع الكثيفة التي تضم مياه الفرات إلى مياه دجلة . فنلقى ستة أسماء كبرى : هي الدجيل ، ونهر عيسى ، ونهر صرصر ، ونهر الملك ، ونهر كوثى ، ونهر الصراط ، الذي سمي فيما بعد نهر النيل ، وسابس (١١٣٧) . وترمز بغداد إلى تداخل الأرض والماء ، ويخص ابن سيرابيون أقنيتها بعدة صفحات كاملة من مصنفه.

وإذا ثابرنا على الاتجاه إلى الجنوب ، لاحظنا تلاشي الأقنية ودجلة والفرات ، واختلاطها كلها في البطيحة التي تطغى على الأرض ،

وتتناوب فيها غياض القصب الفسيحة والاهوار (١١٣٨) . وقد عدّ ابن سيرابيون أربعة أهوار وسماها ، ويصب الهور الأخير في قناة أبي الأسد التي تجمع مياهه وتصرفها . وهنا يبدأ القسم الاخير من هذا الحوض الذي يخترقه عمود وحيد هو دجلة العوراء (١١٣٩) ، أي شط العرب. ثم تعود الاقنية إلى الظهور صبباً في بقعة منخفضة يجتاحها مد البحر وجزره ، ويبلغ عددها ثلاثاً فقط في الضفة اليسرى ، وما يزيد عنها في الضفة اليمنى ، لارواء مدينة البصرة الكبيرة ونواحيها أي تسع قنوات تماماً ، أشهرها المعقل والابلة (١١٤٠) والأمير .

هذه خلاصة في غاية الايجاز والبساطة عن خريطة المياه في العراق . ولا يعني جميع المصنفين بعرضها على المنوال ذاته أو دون أن يخلو عرضهم من بعض الشكوك . وينطبق هذا الكلام على ابن سيرابيون ذاته . ولن أتطرق الآن إلى هجرة النهرين الكبيرين ولا إلى أسرار بحيرة البطيحة الفسيحة المرزغية . فسوف أتناول هاتين الناحيتين فيما بعد ، بل أشير إلى أن وضوح رؤية شبكة المياه الكاملة يتفاوت في أذهان بعض مصنفي الجغرافية ، إما لنقص في معارفهم ، أولتخاذلهم أمام الصعاب البادية لهم ، أو لفرط اهتمامهم الشخصي بأحد أقسام الشبكة واهمال الباقي .

في جميع الأحوال يبقى المشهد واحداً . فالمياه أهم شيء ، وهي وافرة في جميع الاماكن ، كما قلنا ، وفي الاقنية بالذات . ولاشك أن التمييز بين نهر طبيعي وبين مجرى ماء مشقوق ، زال تماماً في العراق خلافاً لسائر أنحاء الدنيا : فالقناة عندهم فرع أو رافد ، وأحياناً فروع وروافد معاً،ويتحول النهر المأسور نفسه إلى قناة (١١٤١) . والعراق اقليم أخضر ، تتمايز أريافه القاتمة ، بل السوداء (السواد) عن بواديه الفاتحة ،

وتبذها بكرومها . ومشاجرها . وحبوبها وحقول سمسمها ، أو بُقلها أو برسيمها . وبايجاز ، بمجموعة من الزروع المتنوعة إلى أقصى حد ، يحبوها النخيل وحدة لا تنفصم عراها ، بوجوده في جميع الانحاء وروعته في هدوء غطاء سعفه (١١٤٢) . ويعد هذا المشهد أزلياً ، لأن آثار المدائن (كتيزيفون) او بابل تذكر بزوال الناس ، وتشرف على مستواة من الأرض (١١٤٣) ، تمتد على مرمى النظر ، ويكتنفها أطياف ابراهيم ونمرود وملوك آل ساسان والخلفاء (١١٤٤) . وقد ولّى ذلك الزمن ، ويتعارض بسهولة مع زمن ثابت يتجسد فيه دجلة والفرات ، اللذان يعتبران مصدري حياة حتى في أصغر ساقية لهما . منذ أقدم العصور ، ويرددان على مسامع العالم أمجاد العراق لأن ماء أحدهما سائغ وماء الآخر من الجنة . ويقــول المسعودي : عن أهل العراق : « فاجتمعت فيهم محاسن جميع الأقطار ، كما اعتدلوا في الجبلة ، وكيف لا يكونون كذلك ، وهم أرباب الوافدين ، وأصحـاب الرافدين (١١٤٥) من دجلة والفرات » .

فالنهر في خدمة الانسان ، ويصلح هذا القول شعاراً للعراق . وقد نازعت قوى عديدة نهري دجلة والفرات ، واعترضت بسط نفوذهما ، إلا أن أشدها تصميماً ودأباً هي تلك التي احتفرت هذه الأقنية ، وأشادت تلك الحواجز ، وبنت تلك الحبوس . وجاءت السيطرة على الأرض تامة أحياناً .وبغداد مثال على ذلك الكمال . فقد أشرت من قبل إلىان ابن سيرابون ذكر مدينة قسمتها تفرعات دجلة إلى مربعات . ولا ينفرد هذا المصنف بهذا القول : فاليعقوبي يتحدث عن عاصمة العباسيين ، ويذكر جنباً إلى جنب الاحياء والشوارع والمياه (١١٤٦) ، ويضع فوق رؤية هذه الشبكة ، رؤية أوسع ألى أقصى حد ، هي رؤية بغداد وأقنيتها

العديدة التي أصبحت مركز النظام المائي ، الذي يصل العراق بالعالم أجمع بواسطة دجلة والفرات . وموقع بغداد المنصور الاصلي ، هو بالمعنى الصحيح موقع مدينة بنيت على الماء . وذكر الخليفة المدينة التي سوف يشرف على تأسيسها ، وقال : « والا جزيرة (١١٤٧) بين دجلة والفرات ، دجلة شرقيها والفرات غربيها ، مشرعة للدنيا ، كل ما يأتي في دجلة من واسط والبصرة والابلّة والأهواز (١١٤٨) وفارس وعمان واليمامة (١١٤٩) والبحرين وما يتصل بذلك ، فاليها ترقى وبها ترسي . وكذلك ما يأتي من الموصل وديار ربيعة (١١٥٠) وآذربيجان وارمينية ، مما يحمل في السفن في دجلة ، وما يأتي من ديار مضر (١١٥١) والرقة (١١٥٢) والشام والثغور (١١٥٣) ، ومصر والمغرب ، مما يحمل في السفن في الفرات فيها يحط وينزل ، ومدرجة أهل الجبل واصبهان وكور خراسان » . وهذا النص نموذجي ينقلنا من موضع المدينة إلى موقعها ، كما قد يتصور الجغرافي ، وكل ذلك من خلال بحث الماء تدعمه الأرض عند الحاجة (١١٥٤)

وتعدّ الملاحة والاعمال المائية أدلة حسية على انتصار الانسان في جميع الاماكن . من ذلك الالتقاء بالسفن القادمة من عرض البحر تسير في مجاري المياه العريضة من جانب البصرة ، ومشاهدة المراكب العادية في بعض المجاري الاخرى كنهر دجلة والفرات والاقنية الكبرى مثل نهر عيسى ، أو القوارب في شبكة الاقنية الريفية ، أو موانىء المرور عند تفريغ احدى القنوات من النهر ، وتقسيم الحمولة عند السدود ، ومواكبة السفن الكبيرة بزوارق أصغر منها تنقل بعض حمولتها لتمكنها من العبور في البطيحة ، وايقاف الملاحة النهرية في الليل ، بجسر من السفن يسمى مأصر ، بأن تشد سفينتان من أحد جانبي دجلة وسفينتان من

الجانب الآخر ، وتشد السفن على شطين ، ثم تؤخذ قلوس على عرض دجلة يشد رأسها إلى السفن لئلا تجوز السفن بالليل (١١٥٥) . وتعد كل هذه المشاهد لوحات واقعية ، تتكون طبيعة العراق منها ومن منظر الحقول .

وفشلت مقاومة البشر الماء في بعض الأحيان ، على الاقل في إحدى مناطق الماء المستنقع الواسعة (البطيحة) التي نشأت من فرط غزارة دجلة والفرات بين بغداد والبحر . ويشاهد سريران قديمان لهذين النهرين في ناحية الحيرة وإلى شرق واسط . وتثبت اسطورة خابيج كان يبلغ الحيرة في قديم الدهر (١١٥٦) (او ذكرى الايام الغابرة الموغلة في القدم الباقية في ذهن المجتمع) تبدل الوسط النهري . وقد تكونت فيه البطيحة . ويحتمل، في رأي الاصطخري وابن حوقل وحدهما ، ان تكون المياه قد تراجعت ، لما بنيت البصرة وشقت أنهارها وكثرت واستغلق بعضها على بعض في مجاريها ، ثم غلبت على ماسفل من أرضها ، فصارت بطائح وآجاما . (١١٥٧) والتعليل التالي أقرب إلى الحقيقة : فسبب البطائح المبطحة في أرض السواد ان ماء دجلة كان منصباً إلى دجلة المعروفة بالعوراء التي في أسفل البصرة في مسافة مستقيمة المسالك محفوظة الجوانب ، فلما كان ملك الساسانيين في عهد قباذ فيروز ، انبثق في أسفل كسكر بثق عظيم ، فاغفل امره حتى غلب ماؤه وغرّق كثيراً من أرضين عامرة كانت تليه وتقرب منه، فلما وَلّى كسرى انو شروان ابنه (٥٩٠ — ٦٢٨) (١١٥٨) ، أمر بذلك الماء فزحم بالمسنيات حتى عاد بعض تلك الأرضين إلى العمارة . ثم لما كانت سنة ٦ من الهجرة، زاد الفرات زيادة عظيمة ، ودجلة أيضاً ، لم ير مثلها ، وانبثقت بثوق كبار ، فجهد ابرويز ان يسكرها بسكور ، وشغلت الفرس بالحرب،

فكانت البثوق تتفجر ، ولا يلتفت اليها . ويعجز الدهاقين عن سدها ، فعظم ماؤها واتسعت البطيحة . ثم تمكن الخلفاء من الحد من امتدادها دون ازالتها ، وأصبحت مساحتها تتراوح حسب المصنفين بين ثلاثين فرسخاً في ثلاثين ، وبين خمسين فرسخاً في خمسين (حوالي ٣٢٠٠ كم٢ ٩٠٠٠٠ كم٢ تقريباً ((١١٥٩) .

والبطيحة رقعة واسعة وحائدة في بلاد العراق ، تمتد بين السماء والأرض ، بين مياه جارية غزيرة ، وجزر ، ومقاصب كثيفة نادراً ما تخترقها أشباه ازقة تسلكها الزواريق ، والمواحل ، والأماكن الجافة ، يضاف إليها الاقنية والسدود ، وضياع أيضاً تقوم على تلال تكاد لا تعلو عن مستوى السطح الغامض ، وترى منها آثار المجتمعات البشرية القديمة في قعر الماء اذا كان راكداً وصافياً . وتسير المراكب في هذه المياه الضحلة بالمرادي لقرب قعرها . والعيش في البطائح جحيم من بعض النواحي . فقد صارت بعض أقسامها صحارى ومفاوز تصيب فيها سموم شديدة المارة في الصيف . والحر والرطوبة لا يطاقان فيها . والبق كثير حتى اتخذت مواضع من قصب أشباه الدكاكين ، عليها أكواخ يكتنون بها منه ، وفي كل كوخ خمسة مسالح . واستطاع السكان أن يعيشوا فيها حياة حرمان وشظف.اوهم يتكلمون لغة قبيحة لكنها تتلاءم مع الشروط الطبيعية ويتمسكون باستقلالهم ويتألفون من الزط ، أو بالأحرى من بقايا المهجرين منهم من الهند (السند) ومن أقوام أخرى اختلطت بهم . وبعض هذه الدهماء فلاحون وبعضها ملاحون ، ويتعلق كلهم بمواقعهم الحرجة لأنها أمينة (١١٦٠) .

وفي أسفل الحدور ، تجابه دجلة والفرات عناصر طبيعية هذه المرة ،

بعد اتحادهما وتكوينهما دجلة العوراء (١١٦١) . والواقع أن الرياح لا تؤثر في مياهها المشتركة بقوتها المعهودة (١١٦٢) . مثلما يفعل البحر. ويعد المد والجزر رمزي حوار صاخب يسهله غياب الارتفاع الذي يجعل من هذه المنطقة « البلاد المنخفضة » (يقصد هولندة) في دار الاسلام . ويبلغ المد حدود البطائح ، ويغمر ماؤه الاقنية وحقول النخيل، ويسقي البساتين ، ويدير الارحية ، ويزيد ملوحة مياه الأنهار (١١٦٣). وعند مصب دجلة العوراء (في الموضع المعروف بالجرارة) ، يحدث تصادم بين مياه النهر والبحر على الرقوق ، دردورا خطراً إلى أقصى حد . نصبت قربه صبوّة بحرية اتخذت من ثلاث خشبات كالكرسي عليها اناس يوقدون النار في الليل (١١٦٤) ليهتدى بها ، في حين يقع خور عظيم جسيم الضرر دائم الغرر ، على ركن الابلة في دجلة بين يدي نهرها ، وكانت أكثر السفن تسلم من سائر الاماكن في البحر حتى ترده. فيبتلعها وتغرق فيه بعد أن تدور على وجه الماء أياماً ، وكان يعرف بكرداب الابله ، ثم اوسقت مراكب بالحجارة العظام وبلّعت ذلك المكان فابتلعها وانسدّ وزال الضرر (١١٦٥) .

وتقع مدينة عبادان (١١٦٦) في « الجزيرة » بين دجلة العراق الكبيرة وبين نهر الدجيل الصغير (نهر خوزستان) ، وتصل سواد العراق بخوزستان . ويتشابه نظاما المياه في هاتين المنطقتين من عدة نواحي(١١٦٧) اولاها تماثل الاسماء : دجلة ودجيل ، ودجلة للدلالة على نهر الكرخة أو أحد فروعه (١١٦٨) . والواقع أن الانتقال من هذا النظام إلى ذلك، يتم بمجموعة أقنية تابعة للبصرة (١١٦٩) على حد ما يقال لنا . فهنا تصب مجاري ماء هامة جداً على تخوم العراق وفارس ، وهي معروفة بدقة حتى ليصعب على الأنهار الكبرى القريبة منها أن تزيلها عن الخارطة فعلاً أو

مجازاً (١١٧٠). والدجيل أول هذه الأنهار ، ويسمى أيضاً دجيل الأهواز أو نهر الاهواز أو نهر خوزستان ، وهو قارون حالياً (١١٧١). وينبع من جبال أصبهان ، واسمه فيها مانان ، ويسقي مدن تسترو عسكر مكرم والاهواز حاضرة البلاد ، قبل أن يواصل جريانه إلى البحر . ويحمل المسرقان (١١٧٢) من الدجيل بين تستر وعسكر مكرم ويوازيه . وبسوق الاربعاء ، على شعبة من الدجيل أيضاً ، قنطرة كبيرة من خشب تجري تحتها السفن . وبين جانبي عسكر مكرم جسر كبير نحو عشرين سفينة. وبين الجانب العراقي والجانب الفارسي من الاهواز ، قنطرة هندوان ، وهي من الآجر . وقد بنى الملك الساساني سابور سد الشاذروان العظيم على نهر تستر . أخيراً أشرنا من قبل إلى عظمة بحيرة الأهواز (١١٧٣) فيتلقى نهر الدجيل روافد على ضفته اليمنى فقط : منها نهر جندي سابور ، وهو نهر دزفول ، الذي يمر تحت جسر الروم الشهير (او جسر الروز ، أو جسر الزاب) (١١٧٤) . وبعده نهر السوس أو نهر الكرخة ، وينبع إلى جنوب همذان ، ويسميه اليعقوبي الهندوان . ويشتهر في قصبة السوس قبر دانيال الكائن في نهر خلف المدينة (١١٧٥). وهو لا يدري لكنه ينزل في المـــاء وله قصة وتجتمع كل تلك الأنهار بعد الاهواز في نهر الدجيل ، فيغزر ، وتسحب منه أقنية تسقي الريف المجاور ، لاسيما نهر السدرة (نهر لوتس) الذي يعود فيصب فيه عند حصن المهدي (١١٧٦) ، في حين يمكن الوصول بأقنية أخرى إلى دجلة أو إلى حوض نهر طاب الذي يفصل خوزستان عن فارس (١١٧٧).

وهكذا تحتل خوزستان موقعاً متوسطاً . مع ذلك ، لا يجوز أن نغتر بهذا الوضع . فالعراق يتفوق فيها على فارس . ويسع الباحث أن يسائل المجتمع البشري (١١٧٨) ، إلا أن هذه الناحية خارجة عن موضوع

الدراسة الحالية التي يقتصر الحديث فيها على الأرض والماء . فماذا يشاهد منهما ؟ اذا جاء المرء من البحر واتجه نحو مصب نهر الدجيل ، فاجأه نهر غزير يجابه المد والجزر ، رؤى درادير مماثلة لدرادير نهر دجلة(١١٧٩) القريبة منه . ويرتفع الماء أثناء المد ويصعد في الأودية ، فيسهّل الملاحة ، ويسقي الزروع ، ويغمر الاقنية والحقول ، ويحمل السفن العظام إلى داخل البر ، فتذهب وتجيء وتعبر وتنشط وتبهج الانظار كما هي الحال في بغداد (١١٨٠) . وتكثر المياه في الدجيل ، ويصير له عرض يقارب الفرسخ (عدة كيلومترات) ، فتتصبب على هذه الجبهة الأرضية الواسعة ، وتفرّضها ، فيبدو الساحل وكأنه أصبح شريطاً رقيقاً جداً من الأرض ولسانا ناتئـــاً في وسع النهر . ونقر بأن شكل الأرض يماثل شكلها في العراق . فعلى شاطىء دجلة ينفذ إلى البحر شريط ضيق تنزع الأنهار إلى احتلال ما يتسنى لها من حيّز بره (١١٨١) .

فعلى هذا النحو ، أصبحت صورة المشهد الطبيعي في خوزستان واضحة في الذهن ، وتمتد بلا انقطاع فوق الماء من البلدين المجاورين لها ، أي فارس والعراق . وتظهر جهود البشر في جميع أنحائها ، وتنتشر فيها الاقنية والسدود وأبواب الماء ، وتعد السفن أو الزوراق وسائل النقل المفضلة فيها ، وتشقها مجاري المياه الطبيعية أو المفتوحة ، وتتكاثف مزارعها وتتنوع ، وتتوزع حقول النخيل في جميع جهاتها ، وبعض تربها متسبخة أحياناً (١١٨٢) . وتتشابه المناظر بين نهري دجلة والدجيل حتى إنها ترفع قعر أنهار خوزستان مع ان « عمقها عدة أمتار في طميها » ، وتخفض علو الجبال التي تتاخم في الشمال جبال زاغروس القريبة جداً منها . وعندما يتحدث الاصطخري عن خوزستان ، ويقول إنها باجمعها

« في مستواة من الأرض سهلة ذات مياه جارية » ، لا يوحي بوجود تضاريس أغلظ من تضاريس سهل الجزيرة . ولا يشير إلى الصعاب التي اعترضت الري فيها منذ عهد آل ساسان بدءاً من سد تستر (١١٨٣) فالمياه تهيمن على المشهد ، وقد وحدت هذه البلاد في رأي الجغرافيين : وضمتها إلى جارتها العراق التي تتشابه وإياها بكثير من الصفات . على المستوى البشري هذه المرة .

خزان مياه ارمينية

يسمى العراق الشمالي ، لجهة الجبال ، بلاد ما بين النهرين العليا ، وبلاد اقور (١١٨٤) . و « الجزيرة » الكبرى المحصورة بين نهري دجلة والفرات (١١٨٥) . وتزول صفات الطبيعة الجنوبية فيه . وتدل بعض فروع الفرات أو فروع روافده . على الأراضي المنخفضة فيه ، مثل نهر سعيد من جهة ضفته اليمنى . ومن جهة الضفة اليسرى . الثرثار بالذات ، الذي يأخذ قسماً من مياه وادي هرماس الصاب في الخابور . ثم يمر في خرائب هترة ، وينزل إلى مستوى مدينة تكريت القائمة على دجلة التي تعين عليها الحدود بين العراق والجزيرة (١١٨٦) فيما عدا ذلك ، يحدد كل من الفرات ودجلة الاعليان (١١٨٧) حوضه الواضح على الخريطة وفي التقسيم الاداري (١١٨٨) . ولا يتبادلان المياه ، اذا استثنينا وادي الثرثار . ولكل منهما مجراه الخاص وروافده المستقلة. وإذا اشتركا ببعض الميزات . بغزارتهما او باصلهما مثلاً ، فلا يشكل اقترابهما بلادا . على نحو مايفعلان في العراق ، بل تباعدهما وجريهما على طرفي الجزيرة التي يقعان على تخومها ويحصرانها.

وينشأ الفرات ودجلة في كتلة جبلية هائلة واحدة ، تمتد من

الأناضول الشرقية إلى مشارف بلاد فارس الشمالية الغربية ، ونحن نسمي هذه الكتلة ، تيسيراً للقارىء ، ارمينية (١١٨٩)مثلما يفعل الجغرافيون . وارمينية هذه خزان مياه حقيقي ، مثلما يستدل من عدد الأنهار النازلة منها والصابة في دجلة والفرات . إلا أنها خزان كان معظمه في القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي خارج حدود دار الاسلام . وكانت جبال ارمينية ثغوراً متحركة ، اندفعت فيها بيزنطية اندفاعاً قوياً ، وتجاوزتها في ذلك العصر . ويظهر ألم ابن حوقل في نصوصه ، التي تنبعث منها انات الحزن على ما صاب دار الاسلام من نوائب في تلك الايام (١١٩٠). وينبع نهر الفرات من قاليقلا في ناحية ارضروم الحالية. وللمصنفين المام بمجراه الأعلى يتفاوت اتساعه من جغرافي إلى آخر ، لكنهم يخطؤون أحياناً في اتجاهاته مع أنهم يعرفون جيداً انعطافاته الكثيرة حتى مدينة سميساط ، ويعرفون تقوّسه العظيم على اقليم اقور وبادية الشام (١١٩١) . ويقولون ان الفرات يمر قرب ملطية ، وسميساط التي تمثل صعداً أقصى ما يمكن أن تصل إليه المراكب النهرية ، ويصير إلى جسر منبج ، ويعطف حتى يأتي بالس غرباً ، وبين الرقة وبالس أرض صفين ، التي تحوي قبور بعض محاربي تلك المعركة (١١٩٢) . ويجتاز الفرات الرقة حيث يدير بعض مطاحن العروب قبل أن يدخل العراق.

وتضاف الاسطورة والرعب إلى تاريخ البشر في الحديث عن نهر دجلة . وتخرج دجلة بالذات ماءاً أخضر من تحت كهف الظلمات ، الذي دخله ذو القرنين وحده ، وحرص مسلمة بن عبد الملك في دخوله ، وهو أحد أوائل الفاتحين العرب ، وأعدّ المشاعل والشموع ، فانطفأت ، ورجع (١١٩٣) . وخروج دجلة من أنحاء آمد الشمالية ، وجريانها من بلاد آمد من ديار بكر ، من أعين ببلاد خلاط من ارمينية ، على

حد قول المسعودي . ومدينة آمد على جبل غربي دجلة ، يطل على هذا النهر ، وعليها سور أسود وجامع من الحجارة السوداء أيضاً . ويسقي جزيرة ابن عمر ، وهي مدينة صغيرة ، سميت جزيرة لاحاطة منطعف دجلة بها . وتجارتها نشيطة جداً ، ويقول ابن حوقل ان المراكب تصل منها إلى الموصل مشحونة بالعسل ، والجبن ، والجوز ، واللوز ، والبندق ، والزبيب ، والتين . وفي الموصل ، مصر الجزيرة ، يسترعى الانتباه مشهد آخر فيهـــا ، في وسط دجلة ، مطاحن تعرف بالعروب ، من الخشب والحديد ، قائمة في وسط ماء شديد الجري ، موثقة بالسلاسل الحديد . في كل عربة منها أربعة أحجار ، يقل نظيرها في كثير من الأرض . ومدينة تكريت على غربي دجلة ، على أبواب العراق ، وأكثر أهلها نصارى ، وبها من البيع والاديرة القديمة التي تقارب عهد عيسى وأيام الحواريين ، وتجمع سائر فرق النصارى (١١٩٤) .

وتعدّ كثرة روافد الفرات ودجلة إحدى الصفات البارزة في وصفهما . فلكل منهما روافده الخاصة ، مثلما قلنا سابقاً . ويختلف خزان الماء الأعلى تماماً عن الانحاء السفلى ، التي يحرم هذان النهران فيها من الروافد أو يكادان ، ويتآخيان بحكم الطبيعة او بارادة البشر . وتختلف الجزيرة العليا أو السفلى أيضاً عن مصر ، بلاد النهر الوحيد، الذي يتصرف كما يشاء اذ لا قرين له ، خاصة في دلتاه ، التي تتعدد فيها اذرعه وخلجانه ، وتجعله معقداً إلى حد كبير . ويظن أن الفارق يتلاشى صعداً ، حيث تتعدد أنهار النيل . ولا بد من التحفظ أيضاً ، والقول ان معرفة النوبة وما وراءها سيئة ، ولم تخضع لدار الاسلام حتى ذلك التاريخ في حين بقيت جبال الجزيرة وارمينية ، حتى بعد خسارتها،

جزءاً من آفاق دار الاسلام . بسبب ذكرى الفتوح الغابرة ، وتقلبات حروب الروم ، وتكفي المسالك أو لوحة الثغور لتعيدها إلى خلدنا (١١٩٥) .

اذن (١١٩٦) ، يعد نهر المديب ، ذو القار حالياً (١١٩٧) ، أول رافد لدجلة من جهة الضفة اليسرى ، وقرب منابعه . ويليه ، من جهة الضفة اليسرى أيضاً ، على التوالي : نهر الرمس أو نهر الصلب ، وبعد آمد : الانبار (١١٩٨) ، ساتيدما (بتمان) (١١٩٩) ، نهر سريط (غرزان) ، ثم ، عندما تنعطف دجلة إلى الجنوب الشرقي ، الرزم(أو زرم ، أو رزب أو زرب) ، وهو بهتان ، ويصرف مياه أنحاء بحيرة خلاط الجنوبية وتبدأ عند مرفده ملاحة المراكب النهرية فيه (١٢٠٠). ونستمر في مجاراة الضفة اليسرى ، فنجد باسنفا قبل جزيرة ابن عمر صعداً (١٢٠١) ، وبعدها صببا ، دوشا (١٢٠٢) . ثم يأتي أحد أشهر روافد الفرات ، نعني الخابور ، وهو الخابور الصغير على وجه الدقة ، ولا يجوز الخلط بينه وبين خابور الفرات (١٢٠٣) . وننتقل الآن إلى الضفة اليمنى فنلقى السفان (أبو مريا ، وادي المر) (١٢٠٤) من المنطقة الواقعة بين الموصل ونصيبين . وفي الموصل ذاتها ، نهر زبيد ، يقابله نهر خوصرة ، الذي تقع خرائب نينوى (١٢٠٥) على جانب منه . وبعد الموصل ، صببا ، يأتي رافدان شهيران ، هما الزاب الأعلى (أو الأكبر أو الكبير) ، والزاب الأسفل (أو الأصغر أو الصغير) . والزاب الكبير يبدأ من عين في رأس جبل ، وينحدر منها وهو شديد الحمرة ، ويجري في جبال وأودية وحزونة ويصفو من حمرته . ويروي الزاب الصغير مدينة البوازيج التي يسكنها قوم خوارج ، الغالب عليهم ايواء اللصوص وفعل القبائح وشرى السرقات . والزابان نهران عظيمان كبيران اذا جمعا

كنصف دجلة وأكثر (١٢٠٦) . أخيراً ، يشاهد الثرثار على يمين دجلة ، قبل أن ندخل أرض العراق بالمعنى القديم .

أما الفرات (١٠٢٧) . فنعرف الآن ان اصله نهران لا نهر واحد. فالنهر الشمالي احتفظ باسمه مع اسم قره صو ، المخصص لواديه الأعلى الأقصى . ويرى فيه الجغرافيون الفرات الحقيقي ، الذي يبدأ من بلاد قاليقلا وهي ارضروم الحاليـة . ويتبقى من جهة ضفته الغربية ، نهر لوقية ، أي ارمودان . ثم نهر ابيريق (كلّي الخارج من بلد دفريجي) ، مع رافده زمره . ثم ينعطف إلى الجنوب الشرقي ، ليتلقى نهر انجا (انجو في ناحية عرب كير) ، وخنصمة ارستاس (ارسنياس ، مراد صو)من الضفة اليسرى ، وهو الشعبة الثانية من الفرات ، وينشأ من جبال شمال بحيرة خلاط (١٢٠٨) ، ويسقي عدة مدن ، منها شمشاط أي ارارساموساتا القديمة (١٢٠٩) التي يصب فيه بجوارها نهرا الذيب (بيرى) (١٢١٠) وسلقيط (سونجوت) .

ويتم تكوين نهر الفرات بعد هذين الرافدين ، فيتجه نحو مدينة ملطية ، حيث يصب فيه عن يمينه نهر جرجاريه (كورو أو حكيمحان) الذي تنتهي إليه مياه نهري الغوث وقباقب (تهمه) الشهير بقنطرته الكبيرة وبروافده العديدة التي يسترعي الانتباه اثنان منها ، هما قراقيس(سلطان صو) وهو نهر قلعة زبطرة المنيعة ، ثم زرنوق ، الذي تسحب منه قناة تذهب إلى ملطية (١٢١١) . ويتلقى الفرات فيما بعد من ضفته اليسرى ، نهر هنزيت (بويوك) الذي يحمل اسم هنزيتين (١٢١٢) القديم ، ثم من الضفة الأخرى ، رافدا أشهر إلى أقصى حد ، يدعى سنجة (جوك صو) ، من نواحي سميساط ، عليه قنطرة تعدّ إحدى عجائب العالم

الأربع مع منارة الاسكندرية وكنيسة الرها وجامع دمشق (١٢١٣).
ثم يصب فيه من جهة الضفة اليسرى ، نهر كيسوم — وهي قلعة تشرف
على البلد — وهو بلا ريب نهر عريانا (١٢١٤) . وبعد ذلك بكثير جداً،
يتلقى على مقربة من الرقة ، رافدين هامين جداً ، هما البليخ ، الناشيء
في منطقة حران (١٢١٥) ، والخابور العظيم الذي يرفده وادي الهرماس،
وينزلان من رأس العين ونصيبين ، وينبعان من مئات العيون ، المتفجرة
في أرض تعدّ من أجلّ بقاع الاسلام ازدهاراً ، وأقدم أنحاء العالم،
إذ ان الهرماس عليه قناطر حجارة قديمة رومية (١٢١٦) . ثم يتراءى
العراق بعدهما مثلما قلنا في الحديث عن دجلة شرقاً . ويعطي الفرات ،
هو ونهر سعيد ، صورة عن التفرعات الكبرى المتشعبة من ناحية المصب،
ولا يتلقى الفرات روافد بعدهما (١٢١٦) .

في النهاية ، يمكن تلخيص جريان دجلة والفرات ، بجوارهما مع
الأراضي التي يجتازانها . ففي أقصى أعاليهما ، صعدا ، يجتازان
بلادهما، ويقطّعانها ، هما وروافدهما ، في اودية يساوي عددها عدد
النهرين مع روافدهما . وفي مجراهما الأوسط ، يحصران بلاد ما بين
النهرين العليا التي أطلق عليها اسم « الجزيرة » . أخيراً ، يتلاشيان في
المجرى الأسفل . فيقدم النهران خدمات أو يرتبطان بصلات وثيقة ،
في إطار توزيع ثنائي حتمي ، له حدود مختلفة : ففي حين يدل ظهور
السفن النهرية هنا وهناك على الانتقال من المجرى الأعلى إلى المجرى
الأوسط ، تنعكس صورة الصلات بين دجلة والفرات ، متى تمّ
الانتقال من المجرى الأوسط إلى المجرى الاسفل ، فيتحدان بعد ان كانا
متباعدين ، في شبكة من الاقنية العراقية وفي البطيحة الكبرى . وتذهب
الأراضي المنخفضة إلى حد دمج النهرين في مجرى واحد ، وتزداد الصفات

المشتركة بينهما ، لكنها لا تحتكرهما . وسواء اتصلا أم انفصلا ،فهما توأمان منذ نشأتهما ، بمياه الشرب التي يوزعانها على جميع الاماكن ، وبعدد روافدهما ، وحتى باسم بعض هذه الروافد ، وأخيراً ، يكون مجراهما ومجاري معظم الأنهار الصابة فيهما — على الضفة اليسرى لكليهما — تنزل من منطقة واحدة ، أقصد الكتلة الجبلية التي جمعتها تحت اسم ارمينية . وليس العراق سوى مخلب نهائي فرضته الطبيعة والأعمال البشرية على أخوة تقررت بين النهرين صعدا في أعاليهما .

ولا تستنفد دجلة والفرات موارد خزان ارمينية المائي . فبعض الأنهار الأخرى تنحدر على السفوح الاخرى من هذه الأراضي العالية. وتذهب إلى بحر بنطس ، خارج حدود دار الاسلام ، وإلى بحر الخزر أيضاً (١٢١٨) . ويعدّ الرسّ أعظم أنهار ارمينية . وينشأ قريباً جداً من مخرج نهر الفرات ، في جبال قاليقلا ذاتها ، إلا أنه يدير ظهره إلى الفرات ، ويتجه إلى الشرق ، ويجتاز دبيل وأرّان ، حيث يتلقى أحد الروافد (١٢١٩) . ويصب في بحر الخزر ، لكنه ينقسم إلى ذراعين ، يذهب أحدهما إلى البحر مباشرة ، ويتحد الآخر بنهر مجاور كبير ، يدعى الكر (كور ، كوره) . ومبدأ الكر من كتل جبلية تقع إلى شمال شرق قاليقلا ، ثم ينحدر إلى الثلم الطويل ، الذي يفصل جبال ارمينية عن جبل القبق الذي ينزله الجغرافيون منه أحياناً (١٢٢٠) . ويسقي مدينة تفليس، وهي ثغر جليل ، وبها حمامات كحمامات طبرية ، ماؤها ساخن من غير نار ، ثم مدينة برذعة ، أمّ ارّان . ويقترب مجراه ، صببا ، من مجرى الرس ، ويحددان أرضاً تنحصر بينهما ، وتقع حول مدينة بيلقان .

ويضيف المقدسي إلى الرس والكر ، نهراً ثالثاً خاصاً بجبل القبق قطعاً ، يدعى نهر الملك (سمور)، ويصب في بحر الخزر إلى جنوب دربند (باب الابواب) (١٢٢١) . لكن لن ننخدع . فالرس والكر، الوثيقا الصلة ، يلخصان على هذا السفح مياه ارمينية ويعدان رمز هذه البلاد . ولا ريب أنهما يجريان على تخوم دار الاسلام ، أو على أراضي تنازع عليها بيزنطية ، في حين يسيطر النصارى في الغالب في الاماكن الأخرى ، إلا أن هذه المناطق ، الحادة الانحدارات ، الوعرة المسالك ، غنية . وقد أشرنا من قبل إلى بهائها (١٢٢٢) . وتعج جميع المحلات بالمياه العذبة الحالية ، الجارية . ويحمل نهر الرس والكر ، الهادئان المهيبان ، السفن . ويديران المطاحن العروب ، ويجريان بين الفوّة ، التي يجنى منها أرباح طائلة . والعجيبة الاخيرة : ان في نهري الرس والكر أنواعاً من السمك اللذيذ كثيرة ، يأتي على رأسها البرستوج الذي يجيء من أقاصي البحار في كل سنة في وقت معلوم يستعذب الماء ، والسورماهي الذي يحمل منه إلى اردبيل والري والعراق ، ويستهدى من أهلها وتجارها مطيبه ولذته وكثرة دسمه ، ورطوبة لحمه . وينقص هذه اللوحة دعم التاريخ ، أقصد التاريخ المقدس . وهاكه : فمجمع الرس والكر مجمع البحرين ، ويقال ان موسى بلغهما (١٢٢٣) . ويشير اسم الرس إلى أصحاب الرس ، الذين ورد ذكر عقابهم في القرآن : فاذا تأمله المتمكن منه رأى عليه آثار مدن ، يقول ابن حوقل إنها آثار ألف مدينة هي الآن تحت جبل الحارث والحويرث (١٢٢٤).

بلدان فارس : المفازة والبحر يتجاذبان الأنهار

لنترك الآن جبال ارمينية واذربيجان. ونتجه إلى الجنوب الشرقي ففيه ثلاثة خزانات مياه ، تتمثل في حواجز الخزر الجبلية الجنوبية ، وجبال المحروس ، ومجموعة خراسان وافغانستان . وتنتهي مياهها إلى بحر الخزر أو إلى الخليج أو إلى بحر الهند . وتجتذب هضبة فارس أي مفازتها الكبرى المياه النازلة من المرتفعات المشرفة عليها ، فتخيض فيها ، وتحوّلها إلى خزان معكوس تضيع فيه .

ونبدأ بالشمال (١٢٢٥) ، بسواحل بحر الخزر الجنوبية ، الغنية بالمياه الجارية . ويتعاقب من الغرب إلى الشرق ، اسفيد — روذ (اسبيد— روذ ، سبيد — روذ) أي « النهر الأبيض » (١٢٢٦) ، الذي يصب فيه رافد « ملكي » ، دعي « شاه — روذ » لصفاء مياهه ، ثم الهرهز (هرازبي) ، وبافل (بابل) ، وتيزهين — روذ (طبري — روذ ، تيجين) ، وخاصة نهر طيفوري أو نهر جرجان ، الذي يجري في الزاوية الجنوبية الشرقية من بحر الخزر ، ويمر بجرجان ، ويحصل أحياناً التباس بينه وبين نهر اتريك الاعلى . ويخرج نهر جرجان من شرقي سلسلة جبلية تلتقي بجبال خراسان ، ويصب في بحر طبرستان (الخزر) على جانبي فرضة ابسكون . ولا يستطيع أي من هذه الأنهار أن يحمل السفن (١٢٢٨) لكنها كلها تخصب الارياف بأقنيتها . وينطبق هذا القول على وضع الجانب الآخر من الحاجز الجبلي ، على واحات قزوين والري ، اذ تتوزع شبكة أقنية وآبار ارتوازية (١٢٣٠) حول الوادي الكبير وسيرم بالنسبة إلى الواحـــات الأولى ، وسورني (سرقنى) (١٢٢٩) وجيلاني بالنسبة إلى الواحات الاخيرة . لكن تعمل المؤثرات القارية عملها هنا ، فتجف الأنهار أحياناً.

وتتوزع المياه توزيعاً مماثلاً في اتجاه الجنوب ، على طول جبال زغروس (١٢٣١) . وتتوالى مجموعة من مدن الواحات عند حضيضها ، من همذان إلى الكرج ، وقم واصبهان ، وتثبت اثباتاً كافياً ضخامة مخزون المياه فيهما . وعلى وجه التخصيص ، تبدو أصبهان بقعة رائعة خضراء وغنية ، في الهضبة العليا الجافة ، يسقيها زندروذ (زرين — روذ) الشبيه بدجيل ، الذي ينشأ في أرض أصبهان بالذات ، ويذهب إلى خوزستان . ويسمى « نهر اصبهان » ، ويسقيها ويسقي رساتيقها ، بشبكة ري وتوزيع مياه موروثة عن فارس القديمة . ورغم تفريط زرين روذ بالعطاء ، يبقى غزيراً جداً ، حتى يقال انه يغور في رمل بآخر رساتيق اصبهان ، ثم يخرج بكرمان (١٢٣٢) . وبعيد طرف السلسلة الجبلية الشرقي ، تحيد المياه عن هضاب فارس ، وتتجه اما إلى البحيرات أو إلى السفح الذي بازاء الخليج . وتكتمل صورة البلاد المروية على نطاق واسع بعرض البحيرات . لكن لن نتحدث إلا عن بعض الأنهار من الأسماء الخمسة عشر الواردة عند ابن حوقل والمقدسي ، ومن الشبكة الكثيفة ، الغامضة أحياناً (١٢٣٣) . وأعظم هذه الأنهار نهر طاب ، الواقع على حدود خوزستان المجاورة ، الكثير القناطر ومنها قنطرة سكّان القليلة النظير . ثم نهر سكّان (منذ) ، وليس في أودية أنهار فارس واد أكثر عمارة منه . ثم نهر الكر ، ويحمل اسم نهر الكر العظيم شبه القبقي ، وقد أصبح إحدى عجائب فارس ، بعد أن سكره عضد الدولة بحائط عظيم ، جعل أساسه بالرصاص ، فتبحّر الماء وارتفع ، فوضع عليه من الجانبين عشرة دواليب ، تحت كل دولاب رحى ، وجرّ الماء بقنى ، وسقى ثلاثمائة قرية . أخيراً يتبدّل اتجاه المياه مجدداً ، في أقصى الشرق ، وتنحدر إلى الأراضي الداخلية : فديو روذ (هرى

روذ) أو نهر جيرفت ، شديد الجري وسريعه . وله وجبة ، ويمر على الصخور ، ولا يستطيع أحد أن ينزله إلا متواقياً على رجليه من حجارة سريره ، وفيه ماء يدير خمسين رحى بالتقدير ، وهو يغوص في الأراضي القائظة التي بعث الحياة فيها (١٢٣٤) .

ونستمر بالاتجاه إلى الشرق ، حتى نصل إلى الكتل الجبلية في خراسان وافغانستان ، وبعدها إلى هضبة البامير التي تعدّ محور نظام توزيع مياه: اولا بين نهر جيحون (اموداريا) الذي سوف نتكلم عنه فيما بعد ، وبين نهر مهران(الهندوس) (١٢٣٥) . وقد عرفنا نهر مهران من قبل ، فهو نهر نبيل ، عذب جداً ، زعم عمرو بن بحر الجاحظ ، انه من النيل ، ولا يخالفه بالزيادة ولا بوجود التماسيح فيه ، ولا بكونه من أنهار الجنة . ويقترن أيضاً بنهر جنجس ، وهو من أنهار الجنة أيضاً ، إلا أن قداسته تنتقل إلى نهر مهران ، إذ لا يجوز الشرب منه قبل التطهر . ونترك الأساطير ، ونتناول الواقع أو ما هو معروف منه . فجيحون ومهران يخرجان من مرتفعات شمالية تنزل منها ثلاثة أنهار تتحد ، على ما جاء في كتاب حدود العالم ، وتشكل نهر مهران ، أولها نهر يصرّف مياه مناطق كابل وبنجهير (١٢٣٦) ، وثانيهما يسمى سندروذ ، ويقابل مهران الأعلى والأوسط ، وثالثهما هيفان أو ستلج . وعندئذ يسمّى «مهران الذهب » (١٢٣٧) ، ويصبح أعظم من دجلة . ويجتاز البوادي أحياناً ، لكنه يعد في الغالب عماد بلاد واسعة ، ويسقي مدنها وقراها ، ويروي أريافها بشبكة أقنية تلتقي بأنهار أخرى ، فيضيع مجراه بينها . وسواء كبر أو صغر ، جاء في المرتبة الأولى أو الثانية ، فهو موزّع في جميع الاماكن ، وحتى في جهات لا يتوقع انسان وجوده فيها ، مثل وادي نربدا (أو نرمدا) ، فيما وراء شبه جزيرة جوزرات (١٢٣٨).

وفي أقصى صببه ، قبل انتهائه إل البحر ، يتبحر في بطائح فسيحة . تشبه بطيحة العراق ، عليها طوائف من السند يعرفون بالزط ، فمن قارب منهم الماء ، فهم باخصاص، وطعامهم السمك وطير الماء ، ومن بعد من الزط عن الشط في البوادي لا يخرج من مخبأه ، إلا لينخرط في جيش المنصورة ، قصبة السند الاسفل، أو ليمتهن القرصنة في البحر المجاور .

وتختار بعض الأنهار سفح الجبل الآخر ، على مستوى العروض ذاتها ، وتنحدر باتجاه سجستان وبحيرة زره الكبرى ، التي تتلقى مياههم على مقربة من مدينة زرنج العظمى . وهذه الانهار هي نهر فره، والحوش (نهر نيشلك) وخاصة نهر هيل مند ورافده خرد روى (١٢٣٩). ونلقى مرة أخرى اللوحة المعهودة ، نعني لوحة الماء باعث الحياة في الواحات ، إنها هنا بقوة فريدة : ويحتاج النهر إلى قناطر ، مصنوعة من مراكب أو مبنية بحجارة ، ويحمل السفن على الاقل في فترة ارتفاع مستوى الماء ، ويخرج أحياناً من سريره ، لكنه يحيي بلاداً لولاه لقضت عليها الرياح الرملية ، وتبدو جريته هادئة جداً ، حتى ان بعض الجغرافيين ظنوا ، خلافاً للواقع ، ان مستواه ثابت ، لأن روافده الكثيرة تعوّض بدقة تامة عن فقدانه الماء في فروعه الوافرة العدد .

ولا تستنفذ سجستان جميع موارد خزان ماء افغانستان ، الذي يتحدث الجغرافيون (١٢٤٠) ، بحق ، عن وجود ثلاث شبكات مائية أخرى خاصة به . ففي الشمال ، يقع خزان يغذي نهر بلخ أو دهاس، ومعناه يدير عشر ارحية (١٢٤١) . ونحن هنا في الواقع في حوض نهر جيحون ، الذي يطلق عليه أحياناً اسم نهر بلخ ، مع ان هذه المدينة بعيدة

عنه بعض الشيء . ويعدّ دهاس نهراً مستقلاً ، لأنه لا ينصبّ في جيحون ، بل يعتبر رافداً نظرياً له . وهو ينهلك تماماً في هذه المدينة ، التي تغمر مياهه شوارعها ، وتسقي رساتيقها بزروعها الرائعة وبساتينها وكرومها . وهذه هي الناحية الهامة على الدوام في الواقع ، نعني وجود الماء في الأرض . فرؤية الجغرافي تتغاضى عن النهر الأسفل ، على الخريطة وفي الوصف ، وتعتبره وضعاً طارئاً تماماً ، ويخلطون بين النهر الأعلى وبين حوض رافد آخر لنهر جيحون ، يعجز أيضاً عن الوصول إليه : نقصد القنادز (١٢٤٢) .

ويعد نهر مرغاب أشهر من نهر الدهاس ، ويسمى نهر مرو أو نهر المروين ، أي مرو الروذ ومرو الشاهجان (١٢٤٣) . ويستنفد المرغاب مياهه في الأرياف ، بعد أن يوزعها في فروعه التي ذكر المقدسي أربعة منها ، ثم عدل عن تسمية المتبقى منها ، لكي لا يرهق القارىء: وقد وضحنا من قبل (١٢٤٤) تعقيد هذا الري وأنظمته . ويعدّ نهراً مباركاً ، إلا عندما يندفع ويكسر سدوده ، فيثبت نزعته إلى الخروج من مجراه ، التي يرى المقدسي أنها ستلازمه إلى الأبد .

ويعتبر نهر هرات أو هرى روذ (١٢٤٥) آخر الأنهار الكبرى في بوادي خراسان . وهو الوحيد الذي لا يجفّ في الصيف ، إلا أنه يستنفد مياهه في نهاية مجراه ، على مقربة من سرخس ، التي لا تتلقى ، في أفضل الاحتمالات ، إلا فيض مائه بعد سقيه واحة هرات . هنا أيضاً، تعطى لوحة شبكة تفرعات ، يعدد الجغرافيون أسماءها في رساتيقها. وتتمّم هذا الوصف في الجهة الشمالية الغربية ، في جبال خراسان : ففيها بلد نسا بعيونه التي يجري ماؤها إلى الدور ، ثم أبي ورد ، وفيه ماء

قويق ـ الذي يحمل اسم قويق حلب (١٢٤٦) . ، ثم واحة نيسابور (١٢٤٧) ونهر سغاروذ (او سغاور) الذي يدير سبعين رحى . يشرف عليها مراقبو الري . مع ذلك ، يتعلق الوضع باجتماع شبكات أقنية ، واصلا لم يعد الماء ، حتى الغزير (١٢٤٨) ، سوى الماء الذي ينقّب عنه في الأرض. وفي جميع خراسان ، تنزع المؤشرات إلى اثبات زوال النهر الحقيقي. ولن تلبث الآبار أن تسيطر في قوهستان (١٢٤٩) القريبة جداً من الصحارى المحرقة في مفازة فارس .

الأنهار الكبرى الثلاثة في آسية الوسطى

تعود المياه إلى السيطرة على الوسط في أقصى شمال شرق دار الاسلام وتخترقه أنهار تتناسب أهميتها مع سعة البادية ، وتسخر منها ، وتبعد وحشتها عن ضفافها . وتتنافس بهذه الأنهار وروافدها وأقنيتها وفروعها مع البلدان والمزارع والمدن أو القرى ، في اللوحات المعروضة في نصوص الجغرافية العربية . وقد تناولت دراسة الاسماء التاريخية هـذه الأوصاف (١٢٥٠) منذ زمن بعيد ، ولن نعود اليها في بحثنا لا في العراق ولا في دلتا نهر النيل . لكننا ننتهز الفرصة ، ونشيد بالعمل الجبار الذي انجز حتى الآن رغم الصعوبات الجمة التي تمثلت في وفرة التدوينات ، وتبديل أنظمة الري ، وتغيير الاسماء ، وهجرة الأنهار أحياناً . ونتساءل عن أسباب هذا الفيض من الأوصاف والأسماء . ونعيده إلى ذهول المصنف عند رؤية الأراضي المستثمرة ، المقسمة إلى مزارع لا تحصى ، وعند مشاهدة المياه موزعة على شبكات ري منذ لحظة العثور عليها .وهذه اللوحة رائعة جداً ، فيما يبدو ، اذ لولا وجود المياه ، لهيمنت البادية ، وهذا ما قلناه سابقاً . ومن هنا نشأ فرط التدوين على الارجح : فكلما

زادت قيمة المياه ، زاد استرعاؤها الانتباه ، وكثر تسجيل ما يتعلق بها . إلا أن للتاريخ والجغرافية أسبابهما . فالمصنفون كانوا يعتقدون في النصف الثاني من القرن ٤هـ / ١٠ م ، وأساس الوصف جاء على لسانهم ، انتلك البلدان التي كانت تشكل قلب الممتلكات السامانية ، تعتبر نموذج حضارة ناجحة ومستنيرة (١٢٥١) . ونعلم نحن ان أدب المسالك والممالك ، شرقي في وحيه وفي موضوعه على نطاق واسع ، فتنزع في النهاية إلى محاباة شرق المشرق . وتشهد الارقام على صحة هذا القول : اذ تكاد الانهار والاقنية في شمال شرق دار الاسلام تحتكر ثلث الاسماء الواردة عند ابن حوقل والمقدسي (١٢٥٢) .

وتشمل مياه البادية ثلاثة أنهار عظيمة ، يذهب نهران عملاقان منها إلى بحيرة خوارزم ، هما نهر سيحون أو نهر الشاش (اياكسارت ، سيرداريا) في الشمال ، ونهر جيحون (اوكسوس ، آمورداريا) في الجنوب (١٢٥٣) . ويسمى نهر الصغد نهر زرفشان ، وهو أصغر من النهرين الأولين ، وينتهي في سبخة (١٢٥٤) .

ويقع حوض سيحون (١٢٥٥) في ثغور ، ترسخت معرفتها تدريجياً . ويجهله بعض الجغرافيين الاوائل أحياناً ، او لا يميزونه جيداً عن قرينه جيحون في الجنوب . ويطرح المسعودي نظرية تجعله فرعاً من نهر دنبه . وازدادت الأمور وضوحاً فيما بعد في القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي ، لحسن الحظ . فهذا النهر يخترق أرض الأتراك ، المسلمين أو الوثنيين ، الهادئين أو المضطربين ، وتمتد أرض الترك من جبال قبائل القرلق إلى بوادي قبائل الغز . ويحمل سيحون الأعلى في فرغانة اسم مدينة اوزكند . وتكثر روافده في هذه الأنحاء الجبلية ،ويعتبر

أهمها رافد نارين (ختلام . خيلم ، أو جدغل) . ثم تأتي واحة الشاش الكبرى . أي منطقة طشقند الحالية ، مع نهرين في الضفة اليمنى : هما نهر إيلاق الذي يسمى باسم قصبة ايلاق ، ويصاقب نهر نارين ، ثم نهر برك (١٢٥٦) أخيراً تسود البادية القفرة من مدينة فاراب ونهرها حتى بحيرة خوارزم .

وغزارة سيحون إحدى ميزاته الرئيسة . ففيضانه يغطي أراضي واسعة جداً على ضفتيه ، تعادل خمسة عشر مثلا مما يغطيه نهر النيل ، على حد قول المسعودي ، وتصبح الملاحة وسيلة الانتقال بين الضيع المعزولة على التلال ، كما هي الحال في مصر . ويقدر صبيبه بثلثي صبيب نهر جيحون . لذلك تستطيع السفن الكبيرة أن تجري فيه حتى بحيرة خوارزم ، وان تصعد منها إليه . إلا أن غزارته تتفاوت من مكان إلى آخر في حوضه. فقسمه الاعلى أو نهر اوزكند جدول بين سائر الجداول ، ثم يتعارض وضعه في مجراه الادنى ، اذ يتلقى نهائياً غزارة مجاري مياه الجبل ، ويجمعها في نهر وحيد ، يسمى نهر الشاش أو سيحون ، على حد قول كتاب حدود العالم . أما صعداً ، باتجاه فرغانة خاصة ، فتتراءى البرية في الآفاق البعيدة ، بعد المروج والمراعي التي تلي المزارع . ويشاهد سحر الأراضي المروية التي تخفي أشجارها الملتفة المنازل والمدن ذات الأنهار. وأما صبباً ، فتضعف غزارة سيحون ، ويقتصر عمله على ايقاف توسع البادية ، اذ « يظن انه فارق الحياة » على حد قول المقدسي ، اشارة إلى الحوار الصامت بين الأرض والنهر الرائع . مع ذلك ، لا جدوى من سير السفن فيه .

ويشار إلى شبكة مائية ضئيلة الاهمية ، تقع إلى جنوب نهر سيحون، وتسقي الأراضي الواقعة بين بلاد الصغد ونهر جيحون (١٢٥٧) ، إذ

تهبط من الجبال المجاورة أنهار كثيرة ، منها نهر القصارين (١٢٥٨) واسروذ ، اللذان يرويان حقول ناحية كش ، ثم يتحـــدان غرباً ، ويرويان مدينة نسف ورستاقها ، قبل أن ينتهيا في مستنقع ، ان بقي شيء من مائهما . ولا علاقة لالخصب الحقيقي في هذه الأنحاء بخصب بلاد الصغد الواقعة إلى شمالها مباشرة ، باتجاه نهر سيحون . فهذا البلد ، أي نواحي أشروسنه والسغد بالمعنى الصحيح ، يحوي عدة مدن هامة ، أعظمها مدينتا سمرقند وبخارى اللتان تمتلكان مزارع غنية إلى أقصى حد ، وبهما مياه « موزع الذهب » أي نهر زرفشان ، المعروف في النصوص الجغرافية باسم نهر الصغد أو نهر بخارى (١٢٥٩) . ويلخص كتاب حدود العالم شبكة الماء ، ويقول : تؤلف أربعة أنهار تنزل من جبال البتم الأوسط بحيرة يسحب ماءها نهر زرفشان وتسقي أشروسنه وبلاد الصغد ، ثم تقع مياهه أو ما تبقى منها بعد الري ، في مستنقع قريب من بيكند أو قره ـ كول الحالية . ويغني الاصطخري والمقدسي وابن حوقل خاصة ، هذه النظرة الشاملة ، بتفاصيل العجائب الناشئة عن الماء ، وبوصف روعتها . فصعداً ، تسيطر الطبيعة بالجداول والافلاج الجبلية ، التي تؤلف ، عند ذوبان الثلوج ، نهراً عمقه « ثلاث قامات » ، غزيراً جداً حتى انه يحمل الخشب عوماً إلى سمرقند ، ويهدد أحياناً الجسور أو السدود. وعلى النقيض ،يفرض الانسان طابعه من اشروسنه ، ويتدخل باقامة أول سد على المياه . وتتوزع حول المدينتين العظيمتين ، سمرقند وبخارى ، شبكة أقنية متقنة جداً ، تقوم بأربع وظائف : فتجري في أوسع أقنيتها سفن كبيرة ، بحمولتها الثقيلة أحياناً ، وتسقي بشبكة أقنية تتفرع إلى أقصى حد حتى تصل إلى أصغر قطع الأرض في الأرياف ، وتوفر ماء الشرب لأهل المدينة التي تعتبر مركز الشبكة ورمزها الكامل ،

وتدير الارحية أحياناً وفي بعض الاماكن . وعلى هذا الماء وال جليل بسمرقند ، وقوم مثبتون منزلون لسد بثوقه ومجاري أنهاره وسكوره ، وقد أزيل عنهم الخراج ، وجعل مكانه اصلاح تلك السكور . وأوصاف ابن حوقل دقيقة ، تذكر جميع أسماء الاقتنة ، وتسجيلها صحيحة حول سمرقند وبخارى ويبرز ما ورثته دار الاسلام ووسعته من مشهد معروف جداً ، في اوصاف ابن حوقل الدقيقة ، وتدوينه الامين لجميع أسماء الاقنية حول سمرقند وبخارى : فالماء ينتشر بكثرة ، في الهواء الطلق أو تحت الأرض ، أو يحجز في بعض الاماكن وراء السدود ، أو يجري في الاقنية أو في منخفض أو مجاري مرصوصة أحياناً ، رائعة وصافية، وبها تبر أيضاً ، أو على النقيض ، كدرة عكرتها أقذار المدينة الكبيرة . أما الأرض ، فتخفيها نعمة الماء تحت خضرة ، لا تنقطع إلا ليتخللها ضيع وقلاع يشاهد منها « اروع بلدان الله » (١٢٦٠) .

وتتكرر اللوحة في وصف جيحون (١٢٦١) ، آخر الأنهار الثلاثة، وأعظمها اذ يجتاز الجبال والواحات والبوادي . وهو نهر مشهور ، وان ضعف الالمام به أحياناً ، وأصله من الجنة ، وله تقلبات وأسرار : فالبعض يظن أنه يجري باتجاه الصين ، ويرى آخرون انه يعود إلى الظهور في كرمان ، ويعتقد غيرهم أنه يتصل بنهر مهران أو بنهر دنبه (١٢٦٢) ، كما هي حال سيحون ، ويظن أن ذلك ناجم عن تأثير الرياح الشرقية . وتذهل غزارته الآن على وجه التخصيص ، مثلما فعلت في الماضي البعيد . وتجعله قوة مياهه نهراً فاصلاً ممتازاً ، وحداً أساسياً في الجغرافية . بأوسع معاني هذا اللفظ . ويطلق على البلدان الواقعة على ضفته اليمنى اسم ما وراء النهر ، أو اسم « الجزيرة الخارجية» مثلما تصور بوريس فيان (١٢٦٣) . في جميع الاحوال ، ما وراء

النهر عالم آخر ، هيهات ان يزيل الفتح الاسلامي الذي جاء بعد فتح الاسكندر (١٢٦٤) ذكراه من أذهان الناس . فهو عالم البوادي الفسيحة والجبال المنيعة . وأرض البرد . وتتجول فيه أقوام مختلفة من أتراك وهون . باختصار يشير اسم ما وراء النهر إلى بلاد الغيب ، بل إلى نهاية الأرض التي تحميها طلسمات الحكيم بليناس التياني (١٢٦٥) ، وتشكل حدوداً تتميز بالسحر والتفكير الخاص ، وحتى باقتصاد فريد اذا شاء المرء أن يستذكر الحياة اليومية . وكل من أراد من التجار ، لاسيما تجار الرقيق ، أن يعبر نهر جيحون ، ويخرج منها ، يتحتم عليه أن يحصل على جواز من السلطان ، وان يدفع ضرائب ورسوماً معينة (١٢٦٦).

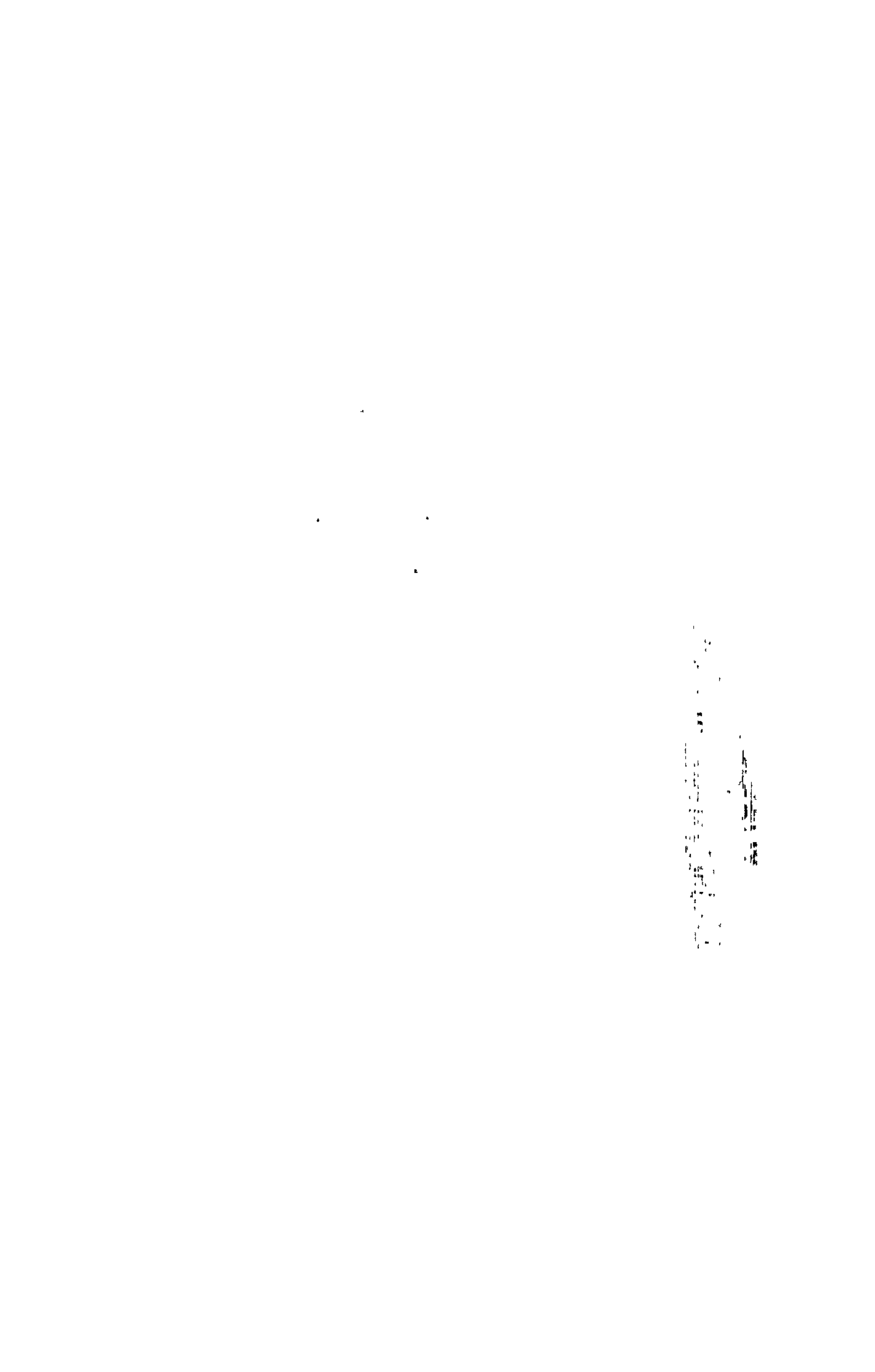
مع ذلك تقدمت معرفة اقليم ما وراء النهر ، وتمت بسرعة فاقت سرعة معرفة نهر سيحون . وتحددت منابع نهر جيحون تحديداً جيداً على وجه الاجمال . فقيل انه يخرج هو ونهر مهران من جبال واحدة ، تقع في بقعة تتفرع فيها جبال هندوكوتش عن هضبة البامير . وتنزل روافده الكبرى من أعالي الجبال ، وتقع فيه من جهة الضفة الغربية . ويتلقى فيها نهر جيحون الأعلى أو جرياب أو الوخاب أي نهر بنج (بياندزه) حالياً ، على التوالي انديجاراغ ، وفارغر ، وهلبك (اخشوا) ، وبلبان ، ثم مجرى ماء غزيراً جداً حتى أنه يعد النهر الثاني في تكوين نهر جيحون ، وهو الوخشاب (الفخش) الذي يأتي من تخوم البامير الشمالية . أخيراً يرفده نهر القواديان والصغانيان (١٢٦٧) الهابطان من جبال البتم مثل نهر زرفشان(نهر الصغد) . ولا يقع في نهر جيحون من جهة الضفة اليسرى إلا نهر ضرغام (نهر بدخشان) ونهر ختلاب ، مع أن روافد سفوح جبال هندوكوتش الشمالية روافد نظرية أحياناً ، تجف بالري قبل أن تصل إلى جيحون (١٢٦٨) . وأطلق اسم بلخ على جيحون فقيل نهر بلخ ، وان

كانت هذه المدينة ، كما قلنا من قبل ، لا تقع على هذا النهر بالذات ، وتعين انتهاء المنطقة الجبلية ، وبالتالي انتهاء الروافد . وتمتد البادية من عند نهر كالف على التخصيص (١٢٦٩) وتنتشر فيها واحات متباعدة ، تحييها أقنية مسحوبة من نهر جيحون . وتعد خوارزم أعظم تلك الواحات وأوسعها . وآخر مظهر حياة هام قبل الوصول إلى المفاوز الواصلة حتى بحيرة خوارزم .

وتتعارض لوحة جيحون بعد تشكله على النحو المذكور ، وبعد تحوله إلى نهر البادية الوحيد ، تعارضاً تاماً مع مشهد حوضه الأعلى الواقع في قلب الجبال ، بما تعترضه من عقبات هائلة أحياناً ، وما له من روافد تتدفق في الفجاج العميقة ، وما على ضفافه من خيرات يظن أنها انبعثت من العدم ، كالأشجار والمزارع والحبوب أو الكرمة ، اضافة إلى ما يحمله نهر وخشاب من التبر (١٢٧٠) . مع ذلك ، يتراءى وراء جيحون الأعلى والأدنى ، في الجبل والسهل ، نهر جيحون الواحد الذي يعد من أكبر أنهار العالم . ويقال انه يأتي من الجنة ، ويعيد خلق الجنة على الأرض (١٢٧١) ، ويشق بلداناً رائعة الجمال من أبدع ما في هذه الدنيا. وتعد مياهه من أعذب مياه العالم ، وتكثر فيه الأسماك (١٢٧٢) ، وتجري فيه السفن ، وفي بعض أقنيته أيضاً . أخيراً تتجلى عظمته وقوته بوضوح تام من خلال تحديد معابره التي يمكن اجتيازه منها ، وتسمح له غزارته أن يتشعب إلى فروع كثيرة في خوارزم وفي أماكن عديدة من مجراه الأعلى . ويبلغ عرضه على مقربة من بحيرة خوارزم حوالي فرسخين(أي حوالي ١١ كم). وقد استطاع فيضانه ان يزيل مدينة كاث بأجمعها من الوجود . وربما جمد وادي جيحون في الشتاء ، فيصير منظره ساحراً ،

ويبتدىء جموده من ناحية خوارزم حتى يعلو إلى حيث ينتهي الجمد. وعندئذ تعبر عليه القوافل ببغالها وجمالها ، بأثقالها وأحمالها (١٢٧٣) . ونشير في الختام إلى أن غزارة نهر جيحون جبته مركزاً فريداً على خريطة الكرة . فهو نهر الثغور الفارسية التركية (١٢٧٤) ، ثم صار نهر دار الاسلام ، دون أن تغرب الحدود التي يرسمها عن بال أحد من الناس. فهو معلم يتناسب مع عظمة عالم جديد يبدأ عند ضفته الشمالية ؛ وصار اسلامياً ، لكنه بقي عالمياً . ويثبت هو وبعض الأنهار الكبرى في العالم ، كالنيل ودجلة والفرات ، ان دار الاسلام اختصت بتاريخ وجغرافية شاملين وعالميين .

* * *



الفصل الثالث

مجامع المياه

من أغلق أبواب البحر ؟

سفر أيوب

نعرف الآن جيداً عمل الماء على الأرض التي وهبها الله للبشر ،سواء كان الماء في الأنهار أو القنى أو العيون أو الحياض.وندرك أنه عنصر جوهري في تركيب الكون ، يمثل أولاً حركة تتكرر دوماً على الوجه التالي : مطراً ، فسيحاً ، فغوراً ، فانبجاساً ، فتبخراً ثم مطراً من جديد وحتى لو توقفت هذه الدورة العظيمة أحياناً . واحتجز انقطاعها الماء في أعماق الأرض ، قبل أن تعيده إلى الهواء الطلق ، فان فيه على الدوام حياة تنتقل إلى بني البشر منه . ويشير كل من يتحدث عن غذاء الانسان إلى الماء العذب ضمناً ، فيما عدا بعض الاستثناءات النادرة جداً . لكن ما حال الماء الآخر الذي يبقى في مكانه وسط الأراضي البارزة ، أو يشكل حدوداً لها ، هذا الماء المليء بالملح هذه المرة في معظم الاحيان؟ فالبحر والبحيرة يشتركان في صورة واحدة ، تبدي لنا سطحاً هادئاً، متفاوت الملوحة ، من ماء لا يشرب ، يقابله سطح مضطرب من الماء الجاري العذب .

ويتوقع المرء تقديم الاعتراض التالي : ثمة — وهذه حالة شائعة كثيراً في الشرق بحيرات ماء عذب ، مثل بحيرة طبرية ، التي تتوازى تماماً مع البحر الميت القريب منها فالحق يقال إن الملح خلافاً لبقاء كتلة الماء في مكانها ، لا يعتبر قرينة حاسمة تفرق بين الماء الجاري ومجمع الماء . وهكذا تصبح البحيرة حالة وسطى بين النهر والبحر ، فلعلنا نصل إلى البحر الحقيقي عندما نجتاز مياهها .

البحيرة والبحر

لأول وهلة ، تبدو الأمور بسيطة . فليست البحيرة أبداً سوى بحر صغير ، إذا اعتمدنا على لفظ بحر وتصغيره بحيرة . لكن كيف نقدر مساحة البحيرة ، سيما ان البحر ، كما نعلم ، يؤخذ حتماً بمعنى عام جداً ، وكأنه يشير إلى مساحة كبيرة واسعة جداً من الماء المالح أو العذب على حد سواء ، إذ إن نهراً واحداً في الحد الأدنى ، وهو النيل ، استحق هذه التسمية (١٢٧٥) ؟ لننظر إلى الخريطة . يطلق على بحيرة آرال ، في معظم الاحيان ، اسم « بحيرة خوارزم » ، في حين يدعى بحر قزوين بحر الخزر أو بحر جرجان أو بحر طبرستان . وقد يستبدل أحد لفظي بحر أو بحيرة بالآخر أحياناً (١٢٧٦) حتى بالنسبة إلى بحيرة اورمية الأصغر كثيراً جداً (١٢٧٧) والواقعة في اذربيجان . فهل يجيء التمييز أفضل على أساس الملح ؟ لكن البحر الميت أو بحر لوط يدعى أيضاً البحيرة العفنة ، أو العكس بالعكس . وهكذا أصبحت تتوفر لدينا أمثلة كافية لكي ندرك من جهة ثانية اعتماداً عليها ، اننا لن نتوصل إلى نتيجة من التفريق بين بحر مفتوح وبحيرة مغلقة . فجميع الظواهر تتضافر لتدحض هذا التمييز وغيره : ثم ألا يجعل كتاب حدود العالم البحر

أو البحيرة ، والمستنقع على وجه أدق ، مصب الأنهار الطبيعي ، مما يؤول إلى إعطاء البحيرة والبحر تعريفاً واحداً (١٢٧٨) يرتكز إلى انتهاء مجرى الماء فيهما ؟

في جميع الأحوال ، لدينا ناحية ثابتة : تسمى البحيرة بحراً أحياناً. لكن لا يسمى البحر بحيرة أبداً ، أو لنقل بالأحرى ، ما دمنا لا نعرف حتى الآن حقيقة البحر ، ان احداً لم يستعمل قط لفظ بحيرة ليدل على البحر المتوسط (بحر الغرب ، بحر الروم) أو على المحيط الهندي (البحر الشرقي) مع فرعيه البحر الأحمر (المسمى بحر القلزم) والخليج العربي الفارسي (بحر فارس) (١٢٧٩) . بالتالي ، يسعنا أن نعيد التمييز ، الذي رفضناه من قبل ، بين بحر مفتوح وبحر مغلق (١٢٨٠) ، شريطة أن ننص عليه كما يلي : يجوز تسمية البحيرة بحيرة أو بحراً ، اما البحر المفتوح ، فلا يصح أن يطلق عليه اسم بحيرة ، أي بايجاز : تقتصر تسمية البحر على البحر المفتوح حصراً (١٢٨١) .

إذا عدنا مرة أخرى إلى الخريطة ، اضطررنا ان نتساءل عن احتمال وجود أساس تمييز آخر: نعني الامتلاك . قد يقال بطيبة خاطر إن البحر الحقيقي يمكن أن يقتسم مع الامم الاخرى في حالة البحار الشرقية والغربية ، ومع المجهول في حالة الاقيانوس (البحر المحيط) . خلافاً لذلك ، تمتلك دار الاسلام البحيرات . إلا أن هذا التمييز لا يصح هنا أيضاً . فمن جهة أولى ، يطلق أحياناً اسم بحر على بحيرة تمتلكها كلها دار الاسلام كالبحر الميت . من جهة أخرى ، يسمى بحر قزوين أحياناً، كما قلنا ، بحيرة ، دون أن تمتلكه كله دار الاسلام . بالتالي ، لابد أن نعترف أن قرينة الملكية ، أو الاشتراك بها ، الواضحة في حالة البحار

المفتوحة . تتشوش كثيرا عندما تطبق على البحار المغلقة ، من جراء تداخلها مع مفاهيم أخرى بينة أو كامنة : فالبحر الميت ، المغلق ، غير المشترك بين دار الاسلام وغيرها ، المحدود المساحة يجمع كل صفات البحيرة ، إلا أن ملوحته ، والملوحة ميزة أساسية للبحار ، تدفع إلى تسميته بحراً . خلافاً لذلك ، يعتبر بحر قزوين ، المشترك بين دار الاسلام وسواها ، الواسع والمالح (١٢٨٢) ، بحراً مبدئياً . مع أنه كتلة ماء مغلقة ، وهذه إحدى صفات البحيرات ، التي تدفع إلى تسميته بحيرة أحياناً .

لكن هل يعني هذا الوضع وجوب التخلي عن محاولة توضيح الأمور ؟ ثم كيف يثق المرء بأنه يحصل على نتيجة لحوالي العام ألف تفوق ما حصل عليه العلماء في أيامنا الحاضرة ، التي لم يبلغ فيها التمييز بين بحر ومحيط وبحيرة حد الكمال دوماً ؟ في الواقع ، لو استعرضنا جميع معطيات الجغرافيين العرب ، ولاحظنا أن معايير الملوحة والاتساع والامتلاك لا تصح دائماً (١٢٨٣) ، لامكننا مع ذلك أن نميز بين البحار الحقيقية ، التي تحمل باستمرار وحصراً اسم بحر ، وبين البحار المبهمة والبحيرات. عندئذ نعود إلى الصيغة السابقة ، بنص معدل قليلاً ، ونخلص إلى القول بأن الشرط الضروري والكافي لكي يطلق على البحر اسم بحر هو أن يكون مفتوحاً .

هذه هي القاعدة الوحيدة الدقيقة الممكن استخلاصها من أسماءالبحار في الجغرافية العربية ، وربما أيضاً في جغرافيتنا نحن. اما في سائر النواحي ، فندرك جيداً ان لفظ البحر ، بمعناه الواسع ، يمكن اطلاقه على شتى المجامع المائية ، اذا ما أخذنا بقرائن أخرى تعوزها الدقة . وقد نوفق في

الاستهزاء من هذه الشكوك . مع ذلك، ألا يسهل العثور على البحر الحقيقي ، إذا اعتمدنا على الصورة البسيطة والواضحة ، التي يحملها كل منا في مخيلته ، عوضاً عن التفتيش عنها عند علماء من جميع العصور ؟ فالاصطلاحات العربية ، التي تعرف البحر بأنه كتلة مائية واسعة ،تتفق في النهاية مع مصطلحاتنا : فلا ريب أن البحر ماء ماد وواسع حتى ليظن بأنه لا يتحرك ، ولا يتحرك فعلاً أحياناً على عكس النهر ، وهو الماء الذي يعتبره الانسان الواقف على الشاطىء ، أكثر من انقطاع في الأرض الثابتة ، يشعر غريزياً باستحالة عبوره : انه عنصر يجتاح الأرض هذه المرة ، ويدفعها بعيداً باتجاه الافق ، كما هي الحال في وضع النيل ، أو يخفيها وراء الافق في أغلب الاحيان أيضاً .

أصـل البحـار

من أين يأتي هذا الماء الهائل المتجمع ؟ تحدثنا في الفصل السابق عن البرزخ الذي وضعه الله بين الكتلتين المائيتين العذبة والمالحة ، وتحدثنا أيضاً ، من زاوية ثانية ، عن ماء ملح أعقب الله به بعض الأرض الذي تأخر عن قبول أمره بابتلاع الماء وانحدر إلى قعور مواضع الأرض بعد الطوفان (١٢٨٤) . ويكرر المسعودي (١٢٨٥) أصل نشوء الماء الكوني، مرفقاً بتفاسير أخرى داخلة في الفيزياء ؛ فيقول : « وذهبت طائفة منهم (اي المتقدمين من أوائل اليونانيين والحكماء) إلى ان البحر بقية الرطوبة الأولى التي جفف أكثرها (١٢٨٦) جوهر النار ، وما بقي منها استحال لاحتراقه . ومنهم من قال : ان الرطوبة الأولى المجتمعة، لما احترقت بدوران الشمس وانعصر الصفو منها ، استحال الباقي إلى ملوحة ومرارة. ومنهم من رأى ان البحر هو ما بقي مما صفّته الأرض

من الرطوبة المائية لغلظ جسمها ، كما يعرض في الماء العذب اذا مزج بالرماد ، فانه اذا صفا من الرماد وجد مالحاً بعد أن كان عذباًولنبق في مجال الفيزياء ، لكن هذه المرة ، في نطاق الزمن المستمر الذي ينقضي دوماً تحت بصرنا : وذهبآخرون إلى ان الماء عذبه ومالحه ، كانا ممتزجين ، فالشمس ترفع لطيفه وعذبه ، لخفته . وبعضهم قال : ترفعه الشمس لتغذي به ، وقال بعضهم : بل يعود بالاستحالة ماءاً اذا صار بارتفاعة إلى الموضع الذي يحصره البرد فيه، ويكيّفه . ومنهم من ذكر أن الماء الذي هو اسطقس (١٢٨٧) ، ما كا . منه عن الهواء ، وما يعرض منه من البرد ، يكون حلواً ، وما كان معه في الأرض لما يناله من الاحتراق والحرارة يكون مراً . ومن أهل البحث من قال : ان جميع الماء الذي يفيض إلى البحر من جميع ظهور الأرض وبطونها ، اذا صار إلى تلك الحفرة العظيمة فهو مضاض من مضاض ، والأرض تقذف إليه ما فيها من ملوحة ، والذي في الماء من أجزاء النار التي تخرج إليه من بطون الأرض ومن أجزاء النيران المختلطة ، يرفعان لطائف الماء بارتفاعهما وتبخرهما ،فاذا رفعا، للطائف صار منها ما يشبه المطر ،وكان ذلك دأبهما وعادتهما ، ثم يعود ذلك الماء مالحاً ، لأن الأرض اذا كانت تعطيه الملوحة ، والنيران تخرج منها(١٢٨٨)العذوبة واللطافة ، كان واجباً أن يعود إلى الملوحة ، وكذلك يكون ماء البحر على كيل واحد ووزن واحد،لأن الحر يرفع اللطيف فيصير طلا وماءاً،ثم تعود تلك الاندية سيولاً،وتطلب الحدود والقرار، فتطلب الجدول والغيران ، وتجري في أعماق الأرض حتى يصير إلى ذلك الهور (١٢٨٩) فليس يضيع من ذلك الماء شيء،ولا يبطل منه شيء،والاعيان قائمة كمنجنون غرف من نهر (١٢٩٠) وصب لى حفرة تفيض إلى ذلك النهر » .

أخيراً ، تلي تفسيرات شبه بيولوجية ، تجمع الكون والعالم الصغير :
« ومنهم من رأى أن البحار عرق تعرقه الأرض لما ينالها من احتراق الشمس لاتصال دورها . (. . .) . وقد شبه ذلك قوم بأعضاء الحيوان اذا اغتذت وعملت الحرارة في غذائه ، فاجتذبت منه ماءاً عذباً إلى الأعضاء المغتذية به ، وخلت ما ثقل منه ، وهو المالح والمر ، فمن ذلك البول والعرق ، وهذه فضول الأغذية لا عذب فيها ، ولما كانت عن رطوبات عذبة احالتها الحرارة إلى المرارة والملوحة ، وان الحرارة لو زادت أكثر من مقدارها لصار الفضل مراً زائداً على ما يوجد من العرق والبول ، لوجود كل محترق مراً » .

وتتمايز نماذج التفاسير الثلاثة التي يعرضها المسعودي : بالعلاقة بين الجغرافية والتاريخ بالدرجة الأولى . فالتفسير الأول يرتبط بالزمن الغابر كلياً، أي زمن النشوء الكوني ، فيؤول إلى تعيين مدة تحدد تحديداً نهائياً ، في حين يندرج التفسيران المتبقيان في الزمن المعاش الذي يستمر يو اً يوماً . ويشمل التفسير الذي يقول بعودة المياه إلى مكامنها الاصلية، من ناحية ، نظامين ، حسب ادخال عمل حرارة الأرض الباطنية أو اهماله . فاذا لم تعمل الحرارة عملها ، اعتبرت الأرض مصفاة هائلة، فعالة كانت أم غير فعالة . ففي الحالة الأولى ، تنشأ المياه الجارية . وفي الحالة الثانية ، تتحدى المياه الثقيلة جداً ، المصفاة الطبيعية ، فتتكون بالتالي الأنهار والعيون من جهة ، والبحار من جهة أخرى . واذا عملت حرارة الكرة الباطنية عملها ، يحتمل أن ينجم عن هذه الحالة وضعان متباينان يلخصان في فرضيتين . ففي الفرضية الأولى ، يعتبر الماء ، وهذا في اصطلاح الكيمياء الحديثة ، مزيجاً من عنصرين ، ويتجلى عمل الحرارة في ظهور آثار مختلفة تبخر أحد العنصرين وتحول الآخر(١٢٩١).

ويشكل الماء في الفرضية الثانية اتحاداً جوهرياً بين عناصر صافية أو مشوبة ، بعضها يتبخر وبعضها لا يتبخر . ففي الحالة الأولى ، ينتج الملح عن استحالة الماء العذب ، وفي الحالة الثانية ، يوضع مع الماء العذب من البداية ، ويقتصر عمل الحرارة على الكشف عنه .

ويؤدي الاعتماد على الزمن الكوني إلى إغفال مستقبل الماء العذب ، ويسوغ تحديد مستقبل البحر وحده تحديداً نهائياً ، يجعله لا يتحول ولا يتحرك كالبحر ذاته . بالتالي ، كان لابد ، في هذا المنظور الثابت ، أن تثير المياه الجارية معضلة ، يقتضي حلها ادخال الزمن المستمر أي الدهر الازلي ، نعني زمن البشر وزمن الأنهار ، في محاولة تفسير أخرى . ويعرض علينا نظامان ، أحدهما بيولوجي ، كما قلنا ، يستدعي تعليقاً محدوداً فقط . فلا نبرز سوى معادلات لطيف وخفيف ، ومر (مالح) وثقيل ، تسمح بادراج الماء في دورة الاجتذاب بالحرارة الجرمية أو الشمسية : وتفلت المخلفات الثقيلة أي البول والعرق وماء البحر ، من هذا الاجتذاب ، في حين تتغذى الشمس من العناصر اللطيفة الموجودة في الماء ، على غرار مايحدث في جسم الانسان ، لأنها وحدها خفيفة ، يسعها أن ترتفع إليها .

وتتضح بجلاء تام صورتا ارتفاع الماء العذب إلى الشمس واغتذاء هذا النجم ، في الفرضية الأخرى ، التي تتضمن تفاصيل جمة ، وتبدو عويصة أيضاً . فهي تنطوي أصلاً على أشياء كثيرة ، في طليعتها العودة البسيطة إلى الفكرة المثارة من قبل في الزمن الكوني ، نعني فكرة الماء الذي تصوروه اتحاداً ، انما في منظور الزمن المستمر . وتعدل نظرية أخرى ، فيما يبدو ، تدخل بوضوح دورة التبخر والتكاثف ، نظرية

اغتذاء الشمس ، التي تترك قضية مصير المياه الجارية معلقة . ان كل الأمور واضحة حتى الآن. لكن تنشأ الصعاب عندما يحاول المرء أن يدقق بعض الشيء في جميع هذه النواحي . النقطة الأولى : يأتي الملح من الأرض ، فتعلل به ملوحة المياه الجارية الواصلة إلى البحر ، التي تملح بفضل اجتذاب لعله يرتبط بثباتها في مكانها ، من الملح الذي تقذفه الأرض . لكن يبدو أن المياه الجارية لا تنتظر مرحلة وصولها إلى البحر لتتملح . فهي تتلقى الملح متى وصلت إلى الأرض ، في حين يخرج منها عمل النيران الاضافي العذوبة واللطافة . لكن كيف تفسر عذوبة ماء الأنهار في هذه الحالة ، من ناحية ثانية ، يختلط موضوع الماء العذب الذي يرتفع إلى الشمس بموضوع آخر ، يناقضه ويجعله حصيلة عمل الهواء والبرد . أخيراً ، كيف يعرف البحر حقيقة ؟ يقال لنا بأنه خزان هور (١٢٩٢) ، انما هور لا تغذيه مجاري الماء وحدها : ففي باطن الأرض وأعماقها ، تتوفر حركة ماء أخرى ، تعتمد على المفهوم الضمني لمحيط الماء العذب الذي يوازي محيط الماء المالح ، ويشبه وعاءاً مستطرقاً على مستوى العالم ، يؤمن التوازن العام في جميع أنهار الأرض وعيونها وجداولها (١٢٩٣).

مرة أخرى ، لم ننل ما نتوقع من التأملات العلمية ، المستوحاة ، في هذه الحالة ، مباشرة أو بصورة غير مباشرة ، من ارسطو . مع ذلك ، حذار من السخر منها . فهي تحاول على الاقل أن تفهم مكانة البحر الصحيحة في دورة مياه الماء : فمصنفو الجغرافية يعرفون أن الغيوم والأمطار والأنهار ومجامع الماء المالح داخلة جميعها في كتلة واحدة وتنحصر الأمور المتبقية في ناحيتين خافيتين : اولاهما كتلة البحار الهائلة التي لا تتناسب كما نرى مع جميع الماء الذي تتسنى رؤيته في مكان آخر

على وجه الأرض أو في السماء ، ثم الملح ، هذه المادة الغريبة التي تتكون من أرض وماء أو تؤلف — من يعلم ؟ — عنصراً بحد ذاته ، يثير ظهوره مشكلة هائلة في فيزياء تلك الأيام . فجهد العالم يستجيب لأمر تلقاه كل مؤمن بأن يعمل التفكير في بناء العالم المثالي . لكن هناك حالات — يدل عليها الرجوع إلى نشوء الكون— ينصب فيها ذكاء الانسان ، لكي يؤدي واجبه تماماً ، في حالة البحر مثلاً ، على واجب آخر ، يقضي بأن يعيد إلى الله لغزه سليماً .

خريطـة البحـــار

أولاً ، يجمع مصنفو الجغرافية على أن الاقيانوس أو المحيط يستدير بالعالم كالحلقة ، وتتصل به جميع البحار المفتوحة . والإشكال ، على حد قول المقدسي ، هو أن نعرف هل تقلب في المحيط أو تخرج منه . ويميل الاصطخري وابن حوقل إلى الفرضية الثانية ، التي تجعل بحر الروم والبحر المسمى بحر فارس « خليجين » متقابلين يأخذان من البحر المحيط . ويعلن المقدسي صراحة عن تردده الناشيء عن قراءة بعض الكتب ، لكنه يميل في النهاية إلى الحل الآخر ، فيقول ان البحار بالضبط أنهار تجتمع وتصب في المحيط ، بعد أن تضطر ، على غرار مجاري الماء المماثلة لها ، ان تنحدر نحو الجنوب ، حيث علو الأرض أنخفض ، وحتى إلى ما هو أبعد أيضاً ، حيث يغور البر تحت الموج (١٢٩٤).

لن أتحدث عن الاقيانوس ذاته من جديد ، لأنه يعود إلى الأرض ، كلها ، وقد تناولته من قبل على هذا الأساس (١٢٩٥) . لكن أشير فقط (١٢٩٦) إلى انه البحر المحيط ، بحر الظلمات ، والأخضر على الدوام ، الذي لا حيوان فيه ، حتى ليخال المرء أن التمييز الكبير على اليابسة

بين العامر والغامر (١٢٩٧) . يتكرر هنا في منظور اوسط . يشمل الأرض كلها والحياة التي تنتصر عليها ، وتتحول إلى نقيض نطاق الموت الشاسع ، السائل والملح . ولعل الحياة الوحيدة في الاقيانوس هي حياة الأهوال : فالأسماك هنا طولها « عدة ايام » ، وابليس يتململ في سجنه في جزيرة ساه ، وفيه قبر سليمان . سيد الجن ، يذكر بوجودهم في هذا المشهد الذي لا يصل إليه البشر .

ويبقى الاقيانوس على حدة ، سواء كان منبع البحار أو مصبها ، ولم يدخله المقدسي في جملتها (١٢٩٨) . لكن كم عدد البحار ؟ فالجدل محتدم بشأنها ، ويقال ان العدد يتراوح بين اثنين وسبعة ، بما فيه الاقيانوس (١٢٩٩) . ويوجز كتاب حدود العالم وضع بحار الكرة ويجعلها سبعة : هي البحر الأخضر المسمى المحيط الشرقي ، والمحيط الغربي ، والبحر الاعظم الذي يتاخم المحيط الشرقي ويشمل إجمالاً بحر الهند وخلجانه الخمسة : اي خليج بربرة (عدن) ، وخليج العرب أو القلزم او ايلة (البحر الاحمر) ، وخليج العراق (الخليج العربي الفارسي) ، وبحر فارس (بحر عمان اليوم ، إلى شرق مضيق هرمز). وخليج الهند (القسم الشرقي من بحر عمان أو البحر العربي بالانكليزية). ثم يأتي بحر الروم (المتوسط) وبحر الخزر (قزوين) ، وبحر الجرز أو بنطس (البحر الأسود) الذي يتصل ببحر الروم ، وأخيراً بحر خوارزم (آرال) . خلافاً له ، يناقش المقدسي (١٣٠٠) العدد مع شخص وهمي يعترض عليه ، ويورد أدلة قرآنية ، ويخلص صراحة بعد امعان الفكر إلى ان ليس هنالك إلا بحران .

لنقف لحظة عند هذا النقاش لنوجز فحواه . فالقرآن مصدر الرقمين

المنوه بهما . إذ قال تعالى : «(والبحر يمده من بعده سبعة ابحر)» ، الآيـــة . ، وقال أيضاً : «(مرج البحرين يلتقيان)» ، الآية (١٣٠١) . فماذا أراد الله : يجيب المقدسي بأسلوبه الخاص ، من وجه أول ، ان الألف واللام في لفظ « البحرين » للتعريف . ثم ان الله خاطب العرب بما يعرفونه ويعاينونه . فذكر « البحر » ، مفرداً في الآية الأولى ، أي بحر العرب ، الذي يدور على ديارهم ، و « البحرين » في الآية الثانية ، أي بحر الروم والبحر المسمى الشرقي ، اللذين يلتقيان تقريباً (١٣٠٢) عند برزخ السويس . اما البحار السبعة، فيجوز ان يكون اراد بها سبعة من جماعة (١٣٠٣) . ولم يقل تعالى ان البحار سبعة وانما ذكر بحر العرب مفرداً ، وقال ولو أن سبعة مثله جعلت أيضاً مداداً . فيصبح عدد البحار ثمانية ، باضافة سبعة ، دارت أم لم تدر على ديار العرب الذين كانت أسفارهم فيها ، وهي ، عدا بحر الحجاز ، بحر القلزم (منطقة السويس) وبحر اليمن ، وبحر عمان ، وبحر مكران ، وبحر كرمان (بين الهند وفارس) ، وبحر هجر (حوالي البحرين) .

ولا يلبث الشخص المخالف أن ينتقل من جزيرة العرب إلى العالم عامة ، فيظهر في النقاش البحر الميت (البحيرة المقلوبة) والبحر الخوارزمي ، والبحر الخزري (بحيرة طبرستان) والبحر القسطنطيني وبحر الهند وبحر الزنج (السواحل الافريقية من المحيط الهندي) وأخيراً البحر الشرقي . اما بالنسبة إلى البحار الثلاثة الاخيرة ، فواضح انه يمكن وان كان المقدسي لا يذكر شيئاً عن هذه الناحية ، اما ان نلحقها بالاقيانوس ، المستبعد لوضعه الخاص كبحر محيط ، واما جمعها ثلاثتها تحت اسم البحر الشرقي ، الذي يدل على أحد البحرين الاكيدين اللذين يعرفهما العرب

ويسافرون فيهما . ويرفض بحر القسطنطينية ، وهو بحر ايجه بلا ريب ، باعتباره خليجاً من الرومي . اما البحار الثلاثة المتبقية ، فهي بحيرات ببساطة كلية ، لأن من جعل هذه من جملة البحار ، لزمه منطقياً ان يجعل بحيرات فارس والرحاب وتركستان بحاراً أيضاً . وخلاصة القول ان البحرين الحقيقيين ، اللذين حددهما القرآن باداة التعريف (١٣٠٤) وتعريفهما ، هما بحر الروم والقسم الغربي من بحر الهند .

وهنالك رقم هام ، هو رقم خمسة أبحر موروث عن بطلميوس (١٣٠٥) . والبحور خمسة عند ابن رستة ، وهي بحر الهند وفارس والصين ، وبحر الروم وافريقية والشام ، وبحر اقيانوس ، وبحر نيطس ، وبحر طبرستان وجرجان . اما ابن الفقيه (١٣٠٦) ، فيعدد أربعة بحار ، هي البحر الكبير ، والبحر المغربي الدبوري الرومي ، والبحر الثالث الخراساني الخزري ، والرابع ما بين رومية وخوارزم وفيه جزيرة توليه (١٣٠٧) . ويتردد المسعودي (١٣٠٨) بين خمسة وستة وسبعة ، ويتوقف لحظة عند الستة ، فيذكر بحر مانطش ، ثم يؤكد أن جميع هذه البحار متصلة ، وتؤلف بحراً واحداً هو الاقيانوس . اما اخوان الصفا ، فيذهبون في البدء إلى ان عدد البحار سبعة ، ويتوصلون إلى هذا الرقم باتباع تقليد ابن الفقيه ذاته (بحره الرابع يسمى بحر الصقالبة)، وينقسم البحر الشرقي إلى أربعة بحار هي بحر القلزم وبحر فارس وبحر الهند وبحر الصين . لكنهم يترددون هم أيضاً . ويعودون فيما بعد إلى الرقم اربعة ، فيستبدلون بحر الصقالبة ببحر ياجوج وماجوج ، ويحذفون بحر الخزر ، ويقسمون البحر الشرقي ، في غربه وشرقه ، إلى بحري الزنج وزابج ، أي بحر افريقية الشرقية وبحر جزر السوند (١٣٠٩) .

ونتساءل مرة أخرى : ما هو العدد الصحيح ؟ الله أعلم ، بلا أدنى ريب . فيما عدا ذلك ، يصطدم التقليد الكتبي ، البطلميوسي او سواه ، بظاهرة اتساع البحر ، لأنه يمتد ، لا على مستوى أحد البلدان ، بل على مستوى الكرة ، المستديرة الشكل مثله ، التي يغطي خمسيها ، ولا يعد المرء خمس عشرة ليلة من أي موضع شاء ، الا يصل إلى البحر ان شاء في شرق اليابسة (١٣١٠) وان شاء في غربها . طبعاً ، يحار العلم حيال هذه العظمة ، ولا بد له ، لكي لا يضيع ، ان يعود إلى الآفاق القريبة. فيصير بحر البشر في النهاية البحر الذي يطلق عليه اسم البلدان الواقعة على سواحله (١٣١١) ، بخاصة اذا كانت مواطنهم أو على الاقل يعرفونها ويرتادونها كثيراً . فبحر دار الاسلام الأول ، بلا منازع ، بشتى أسمائه ، هو القسم الغربي من بحر الهند ، من مشارف باكستان الحالية إلى افريقية الشرقية ، مع امتداديه بحر القلزم والخليج . وبحرها الثاني هو بحر الروم ، الذي يجب تحديده من هذه الناحية ، تحديداً غريباً : فينبغي اعتباره أولاً ، بالمعنى الضيق ، واستبعاد ملحقاته أي بحر ايجه والمضايق والبحر الاسود وبحر آزوف ، الخارجة عن سلطة دار الاسلام ، ويتحتم بعد ذلك تقسيم الحوضة الباقية ذاتها مناصفة باتجاه شرقي غربي : فيصير هنا بحر دار الاسلام بحر الروم الجنوبي ، في حين يخرج بحر الروم الشمالي عن تبعيتها وتجهله (١٣١٢).

ونبدأ ببحر دار الاسلام هذا . فأولاً ، ما اسمه ؟ سمي بحر الشام ، (أو بحر الشأم أو البحر الشأمي) ، أو البحر الغربي (١٣١٣) ، أوبحرمصر ، أو بحر الروم ومصر ، وفي أغلب الاحيان البحر الرومي : وهذا يعني أن آخرين يمتلكونه أو على الأقل ان دار الاسلام لا تمتلكه كله . ويخرج من الاقيانوس ، المسمى هنا بحر اصنـــام النحاس ، ويوسع أحياناً إلى ما

وراء سواحل الأندلس والمغرب ، فيعتبر البحر القريب من هذه الشواطىء أحد خلجان بحر الروم . مع ذلك ، وعلى وجه العموم ، يعتبر الجغرافيون العرب (١٣١٦) كما نعتبر نحن ، ان بحر الروم يبدأ من مضيق جبل طارق . فما هي هيئته بعدذلك ؟ يدرك المقدسي جيداً جداً أنه يخرج من المحيط عريضاً مباشرة ، ثم ينخرط ويضيق عند صقيلية ، أخيراً يعود فيعظم إلى تخوم الشام . اما الاصطخري وابن حوقل ، فيميزان أحيانـاً بين البحر المغربي في الغرب وبين بحـر الـروم في الشرق (١٣١٧) . ويتصور مصنفون آخرون شكلاً أقل تقطعاً وأكثر انتظاماً (١٣١٨) ، يتوزع حول محور تناظر ، وينطلقون من هيئةمضيق جبل طارق الذي يشبـه بعنـق دبّـاء أو رأس مخروط أو رأس صنوبرة (١٣١٩) . مهما يكن ، يدرك امتداده جيداً من جبل طارق إلى بحر آزوف ، على الاقل عند بعض الجغرافيين . ويضخم هذا الامتداد أحياناً : فابن الفقيه يختار نقطة ارتكاز شرقية ويقول : وبحر الروم من انطاكية إلى القسطنطينية ، ثم يدور آخذاً من ناحية الدبور حتى يخرج خلف الباب والابواب من ناحية الخزر . . . حتى يبلغ الاندلس ... إلى جزائر السعادة ، في الاقيانوس (١٣٢٠) . مع ذلك ، يشك في صحة الابعاد أكثر من أي شيء آخر : فطول بحر الروم ضوعف في الحد الأدنى واربى ، فحوّل بحـــر الروم إلى بحر كبير جداً (١٣٢١) . وتبقى رغم هذه الشكوك ، صورة مجمع ماء مغلق متصور بين مضيق جبل طارق والقسطنطينية : ويقول ابن حوقل بشيء من الشك بالنسبة إلى الشمال ، لو ان امرءاً سار من بلاد الاندلس (من سبتة وطنجة) مؤملاً ان يعود إليها ، لدار على جميع بحر الروم ، من حيث لا يمنعه مانع إلا نهر يلقى اليه أو يفرغ فيه أو خليج القسطنطينية وجبل

طارق (١٣٢٢) ، ويمر ببلاد الاسلام وبعض بلد الروم ، واثيناس ، وقلورية ، وانكبرذه ، وافرنجه .

ولنستعرض الآن المشاهد بمزيد من التفاصيل من الغرب إلى الشرق. فعند مضيق جبل طارق ، أو المضيق باختصار ، الواقع بين رأس اشبرتال ورأس الاغر ، المسميين جبلين ، اذا عاين المرء أحد البرين تراءى له الآخر . لكن لعل المشهد الحقيقي هو مشهد التاريخ الاسطوري، عندما كان بين الأندلس وبين الخضراء ، قنطرة مبنية بالحجارة والطوب، وكان ماء البحر يمر تحت تلك القنطرة متقطعاً خلجاناً صغاراً تجري تحت قناطرها ، وما عقد من الطاقات تحتها على صخور صم ، وقد عقد من كل حجر إلى حجر طاقة ، ثم لم يزل البحر يزيد ماؤه حتى علا القنطرة ، فغارت فيه ، وربما بدا موضعها لاهل المراكب تحت الماء ، فيقولون هذه هي القنطرة (١٣٢٣) . وهنالك ذكريات أخرى : منارة النحاس والحجارة التي بناها هرقل الجبار على أعلاها الكتابة والتماثيل مشيرة بأيديها ان لا طريق ورائي ، وكأنها تقول هنا نهاية عالم البشر (١٣١٤) .

وتتشوش الطوبوغرافية بعد ذلك ، على الاقل من جهة الشمال . ولا ريب أن موضع شبه جزيرة ايطالية معروف في بحر الروم ، انما من بعيد جداً : فقد قيل لنا بأن خليجاً يخرج من بحر الروم إلى أرض نربونه (طوله مائتا ميل) وان خليجاً آخر ، طويلاً جداً (٥٠٠ميل)، يسمى ادرس أو اذريس ، لا يفرق أحياناً بينه وبين مضيق مسينه ، يتجه إلى ناحية الشمال قريب من الرومية (١٣٢٥) ، ثم يسترعي الانتباه إلى برزخ السويس ، الذي جاء ذكره في القرآن ، مثلما قلنا . ويفصل

بحر الروم عن البحر الشرقي . وقد أشير إلى محاولات قديمة لوصل بحر الروم ببحر القلزم ، وذكر ان طريقاً حفرت بينهما ، وان خليجاً آخر سهل نقل احمال مراكب أحد البحرين إلى الآخر ، وان بعض المسؤولين فكروا بوصلهما بالنيل . وباءت جميع تلك المشاريع بالفشل في النهاية ، لارتفاع القلزم وانخفاض بحر الروم (١٣٢٦) ، وان الله قد جعل ذلك حاجزاً .

أما في الشمال ، فلا يفرق جيداً بين خليج القسطنطينية (بحر إيجه) وبين المشارف الخرافية نوعاً ما للقسطنطينية ومنطقة المضايق التي لا تنفصل عن ذكرى محاولات الفتح الأولى وعن حلم الفتح المستمر اليائس . فهنا يبدأ بحر جديد ، لا تغامر سفن دار الاسلام بولوجه ، وهو بحر الروم الذي تحدثنا عنه من قبل (١٣٢٧) . ونبرز فقط أن بعد المدينة المنيعة وبعد البوسفور ، يقع بحر بنطس(أو بحر ارمينية البحر الاسود أو بحر البونت) ، ثم البحر الملحق به أي بحر مايطس أو بالوس مايوطس (بحر آزوف) الذي يفصله عنه خليج بنطس (قناة البونت أو مضيق كرتش) وأنهاره ، أي دنابه (الدانوب) وتنايس (الدون) (١٣٢٨) . والقضية الكبرى هي ان نعرف ما اذا كان بحر مايطس هو الطرف الأقصى لشبكة بحر الروم من هذه الجهة ، أو انه ينفتح بدوره على آفاق أخرى . ويقال إن هذا البحر (مايطس) عظيم (١٣٢٩) ، فتلتهب المخيلة وتجعل بحر بنطس يجيء من بحر الخزر . ويدحض المسعودي هذا الرأي في النهاية ويشرح انه ناشيء عن أن نهر الخزر (الفولغا) يتشعب إلى فرعين يذهب كل منهما إلى أحد البحرين (١٣٣٠) . ونذكر مصباً آخر غريباً جداً : اذ يقال ان بحر مايطس في طرف العمارة من الشمال وتحت القطب الشمالي ، ويقرب منها مدينة تولية (١٣٣١) ، ولم يبق

إلا خطوة لكي تتصل عند هذه العروض الخيالية ، ببحر اقيانوس الذي يطوف من هذه الناحية بالبرور البارزة (١٣٣٢) .

وسواء اكتنفت الاسرار بحر الروم أم لم تكتنفه ، فانه محصور بين الجبال ، بخاصة في طرفيه عند جبل طارق وامبراطورية الروم (١٣٣٣). ويختلف عن البحر الشرقي ، بحر السهوب ، بسواحله العامرة والمزروعة (١٣٣٤) . مع ذلك لابد ان نذكر ان الروم أسياد هذا البحر وأسياد جزره وسواحله التي يهاجمونها الفينة بعد الفينة ، على الأقل في شرقها (١٣٣٥) : « وقد ألح الروم في هذا الوقت على سواحل الشام بالغارة ونواحي مصر ، فهم يختطفون مراكبهم من كل اوب ، ويأخذونها من كل جهة ، ولا غياث ولا ناصر . ومن للمسلمين بناظر : والملك فيهم هامل شاغر ، والملك جماع مناع ، والعالم يسرق ولا يشبع ، ويفتي بالباطل على ما يبلع ، ولا يخاف معاداً ولا مرجعاً ، والفقيه ذئب ادرع ، في كل بليـة يشرع ، وبكل ريح يسري ويقلع ، والتاجر فاجر مسقع ، لا يعاف حراماً ولا مطمعاً ، والديار والأعشار بيد الأعداء متسلمة ، والاملاك مغتصبة مصطلمة ، والأرض من أربابها إلى الله تعالى متظلمة » .

لنقطع برزخ السويس ، لنصل إلى البحر الكبير ، وهذا البحر هو البحر الشرقي أو البحر الحبشي ، أو بحر الهند . وتوقع تسمية بحر الهند في الالتباس ، لأنها تدل أيضاً ، بوجه أدق ، على قسم من بحر الهند يمتد إلى شرق مضيق هرموز (١٣٣٧). مهما يكن ، من خلال الفاصل بين سواحل فارس وسواحل الهند ، ورغم تضادهما في شؤون الملاحة ، نجد أننا نتصور وحدة المجمع المائي البحري الشاسع ، او « الماء الواحد

المتصل » من دار الاسلام إلى افريقية وإلى الصين . وأبعد منها ، إلى الاقيانوس (١٣٣٨) . في النهاية ، يقسم هذا المجمع المائي ، حسب البلدان المحاذية له ، التي تعطي اسمها إلى البحار الثانوية التالية : خليج ايله ، بحر القلزم أو بحر جدة ومصر (البحر الاحمر) (١٣٣٩) ، الخليج البربري أو بحر عدن (١٣٤٠) ، بحر الزنج (سواحل افريقية الشرقية)، الخليج الفارسي أو بحر فارس (الخليج العربي الفارسي) (١٣٤١)، بحر الهند أو الخليج الأخضر (١٣٤٢) . ونعود إلى بحـــر الهند لنقول انه البحر الذي أشرنا إلى الشك في حدوده ، وينازعه أحياناً بحر فارس على حيزه الذي يمتد بعيداً إلى الشرق إلى قرب سرنديب (١٣٤٣) . من جهة أخرى ، بعد سواحل مهران ، أذن خارج تبعية دار الاسلام ، تطلق أسماء أخرى على هذا البحر الشاسع : بحر لاوري ، بحر هركند ، بحر كلاه ، بحر كردنج ، بحر الصنف ، وأخيراً بحر الصين الذي يدعي أيضاً بحر صنخاي (١٣٤٤).

ويرى الجغرافيون العرب أن يقسموا البحر الشرقي انطلاقاً من جزيرة العرب . لأنه يحصرها بين خليجين من خلجانه ، ومن هنا اطلاق اسم الجزيرة (١٣٤٥) عليهـــا . بالمقابل ، وصـــفه المصورون وشبهوه بطيلسان أو طير ، منقاره بالقازم وعنقه بالعراق، وذنبه بين الحبشة والصين (١٣٤٦) . مهما يكن ، توحي رحله بحرية فيه حول جزيرة العرب بأشهر الاماكن فيه . ففي أعلى بحر القلزم ، يقع موضع جبيلان ، « لجة القلزم » وفيها تسير المراكب في العراض لترجع من البر الغامر إلى البر العامر ، ثم رأس شبه جزيرة ومضايق تيران (فاران): وهو موضع تهب منه الرياح من كمي شعبتي بحر القلزم (شعبة القلزم وشعبة ايله) المتقابلتين ، فتتلف السفن أو تضطرها ان تقيم في مكانها مدة

طويلة إلى وقت الفرج . وترتبط هذه الاماكن بذكريات تاريخية :
فتاران هو الموضع الذي غرق فيه فرعون اثناء لحاقه بني اسرائيل (١٣٤٧).
يلي اليم الحقيقي ، المتطاول كالوادي الذي تنتشر فيه جبال تظهر جزراً
وعرية ، تضطر البحارة إلى أخذ الاحتياطات وإلى اليقظة المستمرة (١٣٤٨)
ويسمح المندم (باب المندب) ، أو الدوارج (١٣٤٩) بالانتقال إلى عرض
البحر . الذي يتلجج ، فترى فيه الأمواج كالجبال الراسيات . لكن هل
صحيح ان هذا الاقيانوس ، البحر المظلم ، الذي تقوم على مشارفه
جزيرة اسقوطرة الرهيبة كأنها صومعة ، وهي سد البوارج ، ومنهم
تخاف المراكب ولم تزل في هلع حتى جاوزتها (١٣٥٠) . ولا شيء
اوضح من التضاد بين هذه الباحة التي تتلاطم أمواجها على سواحل
جزيرة العرب الجنوبية وبين « اللسانين » (١٣٥١) اللذين يصلان إلى
شواطئها الاخرى ، وهما معروفان تماماً ، ويستطلعان يومياً ومألوفان ،
لأن بحر فارس يقابل بدقة ، من نواحي كثيرة ، قرينه في الغرب :
فله صعاب مماثلة من جراء تيساراته أو عريه ، بخاصة على مقربة من
العراق (١٣٥٢) . وله معارج ، يدخل في البر ويدخل البر فيه (١٣٥٣).
أما الاماكن الشهيرة هنا ، فخليج هرموز الذي يعرف بالخبر ، والخليج
الذي تقع في أضعافه فرضتها (١٣٥٤) ، ثم الجبال المنيعة وفيها قلعة
ابن عمارة التي تراقب مرور السفن (١٣٥٥) وتستوفي منها العشور .
وأخيراً مغاصات اللؤلؤ (١٣٥٦) ومخاطر الملاحة التي أشرنا اليها .

ويتميز المشهد العام ببحر ماؤه غاية في الصفا (١٣٥٧) ينتهي إلى مفاوز
خالية وبرية مقفرة (١٣٥٨)، وله معارج متلسنة وشعب عدة(١٣٥٩) .
وليس لبحر الروم هذه الخصائص ، كما قلنا ، بل يمتد مستطيلاً بين
شواطىء عامرة ومزروعة . ثم ان اللؤلؤ يخرج من البحر الصيني

والمرجان من الرومي (١٣٦٠) . ولهذا البحر مد وجزر ليس لبحر الروم مثله من الجانب الآخر البرزخ السويس (١٣٦١) . وهو مفصل وفيه ملاحة كثيفة (١٣٦٢) رغم عوائقها .

وبحر الخزر مجمع ماء مغلق . وقد أشرنا من قبل إلى الرفض النهائي لنظرية اتصال بحر مايطس به . ولا يطرح المقدسي موضوع أصلاً ، وهو الجغرافي الرحالة (١٣٦٣) ويؤثر القطب الشمالي في المخيلة تأثيراً عظيماً أحياناً حتى ليظن ان بحر الخزر يأخذ إلى الاقيانوس خلافاً لما قيل عن بحر مايطس (١٣٦٤) . وفيما عدا ذلك ، سواء اعتبر بحراً أو بحيرة ، فاسمه يشتق من أسماء البلدان او الاقوام او المدن القائمة على سواحله : في الشمال : الخزر ، في الغرب : باب الابواب (دربند) ، في الجنوب : جيلان ، ديلم ، طبرستان وجرجان وأخيراً الاعاجم(١٣٦٥) ومن الناس من يسميه أيضاً البحر الخراساني ، رغم بعد خراسان ، لاتصاله ببلاد خوارزم من ارض خراسان ، على حد قول المسعودي لتبرير هذه التسمية ، دون اعطاء تفاصيل أخرى تبين كيف تقع خراسان على بحر الخزر (١٣٦٦) ولا قيمة لهذا التفسير ، لأن بعد خوارزم عن بحر الخزر لا يقل عن بعد خراسان عنه ، ثم ان خوارزم اعطت اسمها إلى بحر آرال . ولن نضيف شيئاً سوى اننا نخشى أن يحصل التباس بين البحرين (١٣٦٧) ، وان يسهله على الارجح تعرجات نهر **جيحون** (اموداريا) في مجراه الاسفل (١٣٦٨).

ويسعنا اعتماداً على النصوص الجغرافية ، ودون أن نعرف الواقع الذي تبقى تلك النصوص أمينة له (١٣٦٩) ، ان نميز بحري خزر في هذا الاتجاه أو ذاك : ففي الشمال ، يمتد بحر خزر المفازة الغزية ، وفي

الجنوب . بحر خزر تتكسر أمواجه على الحاجز الجبلي . ويحتكر المشهد الساحلي كله بما فيه من ذباب هنا وهناك . واذا رسمنا الآن قطراً يذهب تقريباً من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي ، نحصل عن اليسار على الخريطة ، على عمارة وزروع وقرى وهذا بحر قزوين دار الاسلام ، ونحصل عن اليمين على بحر خزر المفاوز . التي يسكنها خزر نهر اتل وطائفة من الأتراك الغزية ، الناشب خوف بينهم وبين الغزية . مع ذلك ، يشكل بحر الخزر ماءاً واحداً ، يتميز بخصائص فريدة . ففي حوضته الواسعة ، التي يتبدل عمقها تبدلاً هائلاً ، تصب أنهار عظام هي اتل والكر الذي ينضم اليه نهر (اراكس) ، يضاف اليها أنهار نازلة من الجبال الجنوبية . وقد نتوقع بالتالي ان يكون بحيرة كسائر البحيرات إلا أن التربة السيئة تجعل مياهه مالحة . وهو بحر مظلم تهيجه الرياح ، وقعره طين ، لا مد فيه ولا جزر ، ومياهه ملمعة (١٣٧٠) وأحياناً وحشة والسفر فيها صعب . لذلك الملاحة فيها نشيطة جداً ، خاصة انطلاقاً من فرضة ابسسكون الجنوبية ، وهي خطرة تتم بمراكب كبيرة مقيّرة ومسمرة معاً . وجملة القول إنه بحر لا يرحب بالبشر ، وليس فيه جزر مسكونة فيها عمارة ، وما فيه من جزائر ، فيه دواب وحش فقط ، ويرتفع منه القوة ويخرج اليها من البر (١٣٧١) ولا ينتفع منه بشيء سوى السمك ، ثروته الحقيقية المضمونة والدائمة ، نعني انه لا يستفاد منه ومن سواحله ما يستفاد منه في أماكن أخرى : أي اللؤلؤ والمرجان والعنبر . ثم إن نوعاً من أسماكه ، نعني التنين الشهير ، رهيب ، وسنعود إليه فيما بعد (١٣٧٢) .

لننه رحلتنا البحرية بسرعة بالحديث عن بحر آرال ، المسمى بحر خوارزم أو بحر كردر أو بحر جيحون (١٣٧٣) . فهو مغلق تماماً ،

ويعتبر بحيرة لا بحراً ثم إنه يطلق عليه اسم بحيرة دوماً تقريباً (١٣٧٤)، إنما بحيرة هائلة ، تغذيها مياه نهري آسية الوسطى العظيمين، جيحون (اموداريا) ، وسيحون (سرداريا) . ويقع في وسط سهوب ، ترعى فيها قطعان الغز البدو.فليس له سواحل مزروعة إلا في ناحية الجنوب، وفي أعلى مصب جيحون أيضاً ، حيث تقع واحة خوارزم . والسر العظيم هنا ، ليس البرد الذي يستمر حتى الصيف ، مع الكتل الجليدية في أدغال القصب ، بل الملوحة وكمية الماء الثابتة رغم صبيب نهرين هائلين بالنسبة إلى أبعاد البحيرة ، حتى لو كانت هذه الابعاد كبيرة، كما قلنا ، ومن هنا الرجوع إلى فرضية اتصال باطني هذه المرة ، ببحر الخزر .

البحيرات : محاولات تصنيف وخريطة ومشهد

ما هي البحيرة ؟ رأينا من قبل الشكوك المتعلقة بتعريفها . لنقل إجمالاً إن مجمع الماء ، مالحاً كان أم عذباً ، يعتبر بحيرة عندما يتحقق فيه شرطان ، كل شرط منهما لازم وحده لكن غير كاف . الشرط الأول انغلاق المجمع تماماً ، أو على الاصح ، انعدام اتصاله بمجامع الماء الأخرى إلا اذا كانت روافد . الشرط الثاني المساحة الواسعة التي تكفي لتكوين بحيرة حقيقية ، تحدد بطريقة يمتنع معها ادخالها في عداد البحار ، مثلما حدث بالنسبة إلى بحر قزوين .

وقد ورد في كتاب حدود العالم (١٣٧٥) نص فريد ، وحيد من نوعه ، حاول فيه المؤلف أن يصنف البحيرات ، ويعرضها عرضاً منهجاً . فميز أولاً البحيرات المالحة،وعددها احدى عشرة بدقة،عن البحيرات العذبة التي لا حصر لعددها لكثرتها ، ثم قسم البحيرات

العذبة إلى فئتين : فئة البحيرات العذبة الشهيرة جدا التي يسمي سبعاً منها (١٣٧٦) والبطائح ، المعروف منهـــا تسع فقط . وفئة البحيرات العذبة الصغيرة ، الأقل شهرة ، التي توصف أو تذكر عند وصف هذا البلد أو ذاك ، ولا يعرف عددها الاجمالي ، وتجف أحياناً . اما فيما يتعلق بمساحة البحيرة ، فان كتاب حدود العالم يعطينا أساساً يمكننا من اعتبار البحيرة صغيرة متى كان طولها فرسخاً واحداً ، أي ما يقرب من ستة كيلو مترات ، وعرضها نصف فرسخ أي ما يقرب من ثلاثة كيلومترات. ويوحي لنا باقتراح آخر تعبير خاص بهذه البحيرات الصغيرة ذاتها ، لم يؤخذ به في العرض العام ، لأنها ، كما يقال ، « ليست شهيرة ولا قديمة » : وهكذا يحتمل أن يكون المؤلف قد اراد دعوتنا إلى استبعاد فئة مجامع الماء الواقعة وراء السدود (١٣٧٧) .أخيراً ، نشير إلى كثرة الاسماك في جميع بحيرات وبطائح المياه العذبة ، وهذه خاصة مشتركة بينها جميعاً.

ولابد من إيضاح التفريق بين البحيرة والبطيحة وقد قلنا ان النص المعتمد عليه لا يدقق في أسس اجرائه ،ونحن نعلم أن ماء البطائح عذب دائماً خلافاً لماء البحيرات . ولا شيء يميز هاتين الفئتين من النواحي الأخرى : اذن لدينا في الحالتين مجامع طبيعية ، كبيرة أو صغيرة ، دائمة (وغنية بالسمك بالتالي) أو موقتة ، شهيرة أو غير معروفة . وكنا سنقف عند هذا الحد ، لولا أن النص الفارسي في كتاب حدود العالم ، لم يستعمل ، ليدل على الغيضة ، لفظ بطيحة العربي ، الذي يطلق بخاصة على غياض سواد العراق (بطائح السواد) ،الشهيرة والواسعة . فاذا صح ، كما يخطر ببالنا ، انها اعتبرت ضمنياً نموذجاً ، فان الفرق بينها وبين البحيرة يتضح تماماً (١٣٧٨) . ففي البطيحة تتناوب المياه واجمات القصب التي تشق السفن طريقها بينها لتستمر في جريها .

بالتالي . فيما عدا السواحل (١٣٧٩) على الأصح . تتميز البحيرة عن البطيحة بأن سطحها خال من القصب والنباتات المائية الاخرى . لكن يدل وجود النبات في وسط مجمع الماء دلالة واضحة على خاصة ثابتة للبطيحة : نعني ضعف عمقها العام . وقد قيل في الحديث عن البطيحة بأن السفن كانت تخفف حملها لتجري في هذه المياه الرقيقة . فهنا لا يصاغ الفرق بين البحيرة والبطيحة بتضاد بسيط خالص : فبعض البحيرات الصغيرة ضعيفة العمق أيضاً اذ يقال ان بعض البحيرات الصغيرة تجف أحياناً . اذن نقول يجوز أن تكون البحيرة عميقة أو رقيقة ، انما البطيحة لن تكون أبداً عميقة . وعلى وجه الاجمال ، نقول في الختام : البطيحة نوع من البحيرات ماؤها دوماً عذب ودوماً ضعيف العمق ، ولا يخلو سطحها من النباتات .

فما هي هذه البحيرات في دار الاسلام ؟ نعتمد مرة أخرى على مصنفات الجغرافيين العرب الذين يتناولون دار الاسلام بخاصة ،أكثر مما نعود إلى كتاب حدود العالم ، الحريص على وصف العالم بالإجمال (١٣٨٠) ، لاسيما الى ابن حوقل والمقدسي . وتميز الخريطة عندهم ثلاثة بلدان ، في طليعتها البلدان التي تندر فيها البحيرات أو لا تعرف أصلاً . وينطبق هذا الكلام على أرجاء كاملة من دار الاسلام: في جزيرة العرب ومفازة فارس الكبرى طبعاً (١٣٨١) . أما في المغرب ، فلا أورد هنا إلا بحيرتين تتصلان بالبحر : هما بحيرة بنزرد ، وفي الغرب المغربي بحيرة آريغ التي يركب فيها أهل البصرة ويشحنون(١٣٨٢) فهل نعتقد أن المشهد يتغير في مصر ؟ في الواقع ، كما رأينا في الفصل السابق (١٣٨٣) ، لا يسعنا في بحثنا أن نفصل بحيرات الفيوم والدلتا عن وصف النيل ، لأنها من صميم النيل ، بأحد أشكاله ، المنبسطة ، المتهادية،

وباشارة اضافيـــة ، ان لزمت ، بزيادة عرض النهر . وبما أن النيل يتصل اتصالاً وثيقاً بنهر مهران ، نجد في أقصى مشرق دار الاسلام، بطائح مياهها من مياه مكران وعليها الزط (١٣٨٤) . ويسعنا أن نكرر القول فيما يختص ببطائح العراق (١٣٨٥) ، في سياق كلامنا عن الزط. فالعراق ليس بلاد بحيرات ، لا هو ولا مصر أو السند ، ولا أيضاً الجزيرة التي يشير ابن حوقل إلى وجود جزيرة صغيرة فيها ، بديعة فعلاً ، واقعة على يسار نهر الفرات (١٣٨٦) ، تدعى المنخرق . وليس حظ بلاد السغد بأفضل من غيرها ، والبحيرتان فيها نهريتان : ويسقي ماء نهر زرفشان (نهر السغد) بلد سمرقند ، وينشأ من جبال البتم(الأوسط) من بحيرة جن أو دروازجه (١٣٨٧) ، ويغيض في آفازاي بيكند ،وهو بطيحة ماء عذب في مفازة بخارى (١٣٨٨) .

وفي جميع الأحوال ، لا يسع البحيرة ، سواء كانت غير موجودة أو نادرة أو ضائعة في الشبكة المائية ، ان تتطلع إلى تبوء مكانة فريدة بين خصائص أي بلد بارز : فبطائح العراق ذاتها ، المعروفة كظاهرة غريبة ، ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالنهرين الكبيرين اللذين لولاهما لما وجدت لكن ينعكس الوضع متى تعاظمت مساحة البحيرة وكان لها ظروفها الخاصة . وينطبق هذا القول على الشام ، حيث تعتبر بحيرة طبرية والبحر الميت ، رغم وجود نهر الأردن ، كما في الفصل السابق ، مجمعين مائيين منفردين ومتمايزين (١٣٨٩) . ويزداد الوضوح فيحالة سجستان (١٣٩٠)، اذ ليس لديه سوى بحيرة واحدة (زره) هائلة . ولا شك ان وجودها وحجمها أيضاً مرتبطان بنظام الأنهار التي تتلقاها والواقع أن لها عدة أنهار (١٣٩١) تغيض فيها وتتحول ، مما يدفع إلى

اعتبارها ليس مغيضاً فحسب ، بل مجمع ماء خاصاً قائماً بذاته : يرتفع منها سمك كثير وقصب (١٣٩٢)،وحواليها كلها قرى وعمارات. والتضاد من الناحية الأخرى بين الماء العذب والمفازة الوحشة . وحتى اتساع البوادي أخيراً (١٣٩٣) . كل هذه خصائص ترسم صورة أصيلة لبحيرة زره (١٣٩٤) ، ومن خلالها منظر أساسي لمشهد من الأرياف .

لنأخذ الآن نحو ارمينية واذربيجان . ففي ارمينية بحيرة وان . المسماة عند مصنفي الجغرافية: بحيرة خلاط أو بحيرة ارجيش . باسم المدينتين الواقعتين على شواطئها (١٣٩٥) ، التي يخرج منها سمك صغار يملح ويحمل إلى أصقاع الشام وفي أطرافها ملح البورق ، وفي جبل في جنوبها مقالع الزرنيخ . ويكون طولها بضعة عشرة فراسخ ، على حد قول ابن حوقل ، أي بضعة ٥٧ كم (١٣٩٦) . وأشهر منها أيضاً بحيرة ارمية في اذربيجان ، وتعرف أيضاً ببحيرة كبوذان أو تلا أو بحيرة الشراة أو أيضاً بحيرة الشاها نسبة إلى إحدى اشباه الجزر (١٣٩٧) . وهذه البحيرة كبيرة أيضاً . فمن أبعادها الحقيقية البالغة ١٣٠ كم طولاً و ٤٠ كم وسطياً عرضاً ، جعـــل طولها أربعة أيام بسير الدواب أو ٥٠ فرسخاً (حوالي ١٩٠ كم) من الشمال إلى الجنوب ، وجعل عرضها من الغرب إلى الشرق ٢٠ أو ٣٠ فرسخاً (أي ١٥٠ – ١٧١ كم). وتتوزع اللوحة بين خصائص البحيرة الملائمة وغير الملائمة . فمن جهة، حواليها من جميع جهاتها عامر ،على ما استدارت ،قرى ورساتيق ، وفي وسطها جبال مسكونة مأهولة . وسكانها أصحاب المراكب ونواتيها المختلفون بالأمتعة والركاب بين شطيها . لكن ثمن مدة الحياة باهظ . ففيها أمواج عظام في الشتاء وعواصف وغرق يضيف مصائب كباراً إلى

شظف عيشهم . وأهل الجزر في بحيرة ارمية يحييون مأساة أفظع ، اذ يضطرون ان يربطوا ارجل الصبيان بالسلاسل والحبال كي لا يتدحرجوا إلى البحيرة (١٣٩٨) . أخيراً لا يتكون ذو روح فيها أيضاً ، فيما عدا الديدان والقنادس (١٣٩٩) .

بقي علينا أن نتحدث عن بلدان البحيرات بالمعنى الصحيح . ونقصد هنا العدد لا الحجم : لا بحيرة واحدة أو بحيرتين كبيرتين ، بل عدداً كبيراً ، لا يحصى أحياناً ، يطبع البلد بسمة طريفة . ولا حاجة إلى تسمية تلك البلدان: فيقال بأن الحاجز الجبلي كله في جنوب بحر الخزر مليء بمجامع الماء دون ان يعين اسم واحد منها (١٤٠٠). ولعل من يعترض ويقول : يتحدث كتاب حدود العالم عن البحيرات في هذه الحالة ، في حين لا يشير ابن حوقل الذي يكرر الاصطخري إلا إلى الغياض . لكن هناك اقليماً كـــاملاً ، لا يجوز فيـــه شك ، نعني فارس (١٤٠١) . وتتوالى فيه البحيرات حسب الكور أو المناطق الكردية ، اذن فيه خمس بحيرات (١٤٠٢) : هي بحيرة دشت ارزن ، وبحيرة كازرون (أو أيضاً بون ، توز ، مور أو موز) ، وبحيرة جنكان ، وبحيرة البختكان ، وبحيرة الباسفوية (أو الجوبانان) . والبحيرة الأخيرة ليست في الواقع سوى قسم من البحيرة التي قبلها الأكبر منها بكثير (١٤٠٣) . وبحيرة دشت ارزن وحدها عذبة . وتحيط القرى والعمارات بها جميعاً ، وان كانت الوحوش ترتاد شواطئها أحياناً . وكل بحيرة مركز كورة تكفي نفسها بمواردها : فهنا البرديّ والحلفاء ، اللذان يصنعان ويصدران ، وهناك الملح والسمك في جميعها تقريباً ، يستهلك محلياً أو يصدر أيضاً. أخيراً هنالك بعض الخصائص الفريدة : فنهر الكر يصب في بحيرة بختكان (١٤٠٤) ، وبحيرة دشت ارزن تتبدل كثيراً : فربما امتلات

ففاضت ، وربما جفت ، وشواطىء كازرون متعرجة كثيراً . وفي أطراف الباسفوية آجام كثيرة ، وعليها دير الباسفوية النصراني .

فهل يتسنى أن نشكل مشهداً بحيرياً من جميع الخصائص المتفرقة؟ فأولاً تنقصنا بعض النواحي : فلم يقل لنا شيء عن الألوان — ونكتفي بهذه الناحية — إلا بالنسبة إلى بحيرة المنخرق ، التي فيها ماء أزرق(١٤٠٥) كالزجاج الملوح . وتكمن الصعوبة في المعطيات المتناقضة في معظم الأحيان . فالبون شاسع مثلاً بين البحيرات القليلة العمق التي تجف وبين بحيرة المنخرق التي لا يعرف قعرها فيما يبدو لأنها اعتبرت بمائتي ذراع حبال بمثقلات ، فلم يوجد لها قرار. وماذا عن بيئتها ؟ وقد تيسر لنا معارضة البحيرات المحاطة بالجبال ، كبحيرة طبرية أو ارمية بالبطائح الواقعة في وسط الأراضي المنبسطة ، أو وحشة المفاوز بالقرى والعمارات التي تحيط بها ، والضيق في إحدى البحيرات وبلدها هنا بالبهجة والسلام والثروة هناك . ويتراءى التردد ذاته بالنسبة إلى المياه : فالعذوبة تنازع الملوحة ، ووفرة السمك أو الطيور (١٤٠٦) تنازع كل كائن حي ، كما في البحر الميت . أخيراً ما هي النواحي المشتركة بين الماء الحر في بحيرة كبيرة شهيرة وبين البحيرة الصغيرة المجهولة الاسم المليئة باكمات القصب ؟ لنوقف هنا هذه اللائحة من التضادات . فهي تكفي لتبين لنا من خلال صعوبة اكتشاف صورة متجانسة للبحيرة ، سبب هذه الشكوك: فالبحيرة عالم وسيط . فالماء الذي لا يجري ، المالح أحياناً والعذب أحياناً ، وهو في النهاية ليس من النهر ولا من البحر . ربما حصل على خصائصه غير الأكيدة من وضعه ذاته : فالبحر ماء وضع نهائياً على اليابسة ، خلافاً للنهر ، الذي يمر عليها مروراً ، وخلافاً للبحر الثابت بقرار النهي ، لكن خارج البر . فهذه البحيرة اذن احدى صورتين محتملتين للقاء

خاص بين العنصرين ، أما الصورة العكسية فهي الجزيرة أي البر المستقر في الماء . ومتى حققت البحيرة ذاتها وانتشرت فيها الجزر ، نتصور المشهد الغريب الذي يمكن أن يرتسم تحت البصر المحايد ظاهرياً . لكن المتميز في أعماقه ، للمسافر الذي يسألها .

العودة إلى البحر : عالم آخر

نعرف جيداً تضاريس قعر البحر ، ونعلم أن الجزيرة أو القاع الضعيف العمق شكلان متفاوتا البروز منها . لكن شتان بين القول بأن البر يستمر وحده تحت الماء (١٤٠٧) وبين قول ابن حوقل (١٤٠٨) عن بحر القلزم : « وهو ، وان كان بحراً ذا أودية ، ففيه جبال كثيرة قد علا الماء عليها » فهذه الجملة تعبر بمصطلحات البر عن مشهد يشبه مشهده لكنه خاص بالبحر ، وقلمــا يتوقع الانسان ، خلافاً لما يحصل له بشأن البر ، ان يرد فيه ذكر الجبل ، وهو أحد العنصرين ، المحدب والمقعر ، الداخلين في تركيب التضاريس . ويزداد وضوح الفكرة(١٤٠٩) في كتاب عجائب الهند ، الذي جاء فيه : « ان السلحفاة لها أيام في كل عام تطفو فيها على وجه الماء على سبيل الاستراحة من طول مقامها في كهوف الجبال . وفي البحر غابات وشعارى وأشجار هايلة ، أهول وأعظم من شجرنا فوق الأرض » . وجاء أيضاً فيه (١٤١٠) في سياق الحديث عن دواب البحر : « واخلاقها تختلف باختلاف مواضعها المسلوكة المعهودة بعبور السفار والصيادين وقرب السواحل المعمورة والبحار والمنطقة المهجورة ، والبعد من السواحل المعمورة وعمق البحار وعدم البر والجزاير والسواحل ، وهو عالم آخر . »

ويلي هذا الاستشهاد مباشرة ، دعاء إلى الله يجعل البحر أخفى ممالك الخليقة وأعصاها على بصائر البشر . أجل،الملك لله هنا وفي جميع الاماكن . لكن تكتنف الأسرار البحر ومقدرة الباري فيه . لنقرأ مرة أخرى ما ورد في « عجائب الهند » ، كتاب البحريين (١٤١١) الرائع . بمعنى هذا اللفظ على أدق وجوهه : « فلما كان الليل ، فتح الله ، سبحانه ، أبواب السماء بريح سوداء ملأت ما بين السماء والأرض ، ورفعت أمواج البحر إلى السحاب وحطتها إلى التراب ، وطمرت من السفن في البلاد والسواحل وفي وسط البحر ، وقل من سلم منها ومركب القوم قد ألهمهم الله أن خففوا وطرحوا ما عليه من ثقل وغيره ، وكان كلما جاش البحر عليه ، خف وعلا على الأمواج ، وطفا على البحر ، وهم يقرعون ويدعون ويبتهلون ، ولا يأكلون ولا يشربون ثلثة أيام بلياليها . فلما كان اليوم الرابع ، أمر الله عز وجل الرياح ، فسكنت، والبحار ، فهدأت ، واذهب الله ذلك كما عرف من عوايد قدرته سبحانه » .

فعالم البحر عجيب ومنعزل ومجهول . ويشعر المرء دائماً غريزياً ان نباته وحيوانه ، كما سوف نرى ، عجيبان بعض الشيء : فالعنبر واللؤلؤ والمرجان ، والأسماك الهائلة،أو التنانين ، تنتمي إلى وسط غريب، يخضع فيه دواب البحر إلى شريعة لا ترحم ، تدفعهم إلى « أكل بعضهم بعضا » . ويستعمل الجاحظ صيغة تماثل صيغة أخبار الصين والهند ، ويعرض الموضوع على الوجه التالي : « فان كان انما استبصر في ذمه في قتل السمك ، فالسمك أحق بأن يكون من خلق الشيطان ، لأن السمك يأكل بعضه بعضا ، والذكر يتبع الانثى في زمان طرح البيض ، فكلما قذفت به التهمه ، وان غرق انسان في الماء ، بحراً كان أو وادياً ، أو

بعض ذوات الأربع — فالسمك أسرع إلى أكله من الضباع والنسور إلى الجيف » (١٤١٢) .

ودخل الموضوع في عداد معارف الأدب بفضل الجاحظ . وقد يقول معترض أنه يجمع أسماك الماء العذب وأسماك البحر في فئة واحدة ، ويخضعها إلى شريعة غاب مائية واحدة . لكن لا بد أن نفكر هنا ان ان هذه الشريعة ، التي تقتصر على الأنهار والبحيرات في البر ، تصبح عامة ومطلقة في البحر ، وبالتالي ان البحر في الكون يتمخض عن انقطاع يحصل فيه . يميل الخليقة كلها نحو الغريب ، ويحولها إلى حيز جهنمي يأكل فيه الحيوان صغاره . طبعاً ، يبدع ابليس شيئاً ، وقد رأينا أن الجاحظ يطرح فرضيات : فالشر والهول هنا ، كما في كتاب الحيوان كله ، قضيتان تطرحان أمام العقل البشري ، ويعلم الله وحده حلهما لأنه الخالق الوحيد . مع ذلك ، يجوز ان يطرح الانسان طرحاً ، ولو بقصد رفضه في النهاية ، يجعل ابليس ينزلق تحت الماء ويسيطر على البحر سيطرة تامة بواسطة الاسماك ، ولو كان لم يعد على الأرض سوى رائد أنهار .

وسواء سيطر إبليس أم لم يسيطر ، فهذا العالم له حياة خاصة به. والبرهان انه يتحرك . فهنا أو هناك ، قوّت الامواج سيطرتها على البر : فقد ركب ماء البحر قنطرة جبل طارق ، وانتقلت منارة الاسكندرية من وسط لسانها إلى طرفه ، وحلت بحيرة محل المزارع بعد اجتياح البحر لها ؛ أخيراً كانت قبرص موصولة بأرض الروم وبسواحل مصر وفلسطين ثم صارت جزيرة (١٤١٣) . ولا يستشف أي شعور بالقلق من خلال هذه الاشارات إلى التاريخ القديم الذي احتجز فيه البحر . فالموضوع

يتعلق هنا بأدوار في حياة العالم ، ولا شيء يمنع أن ينعكس الاتجاه في المستقبل ، كمـــا حدث على الأقل في الخليج الذي كان يحتل السواد في العراق (١٤١٤) . ويفسر المسعودي (١٤١٥) هذه الظاهرة بقوله : « ذكر صاحب المنطق (١٤١٦) ان البحار تنتقل على مرور السنين وطويل الدهر حتى تصير في مواضع مختلفة ، وان جملة البحار متحركة ، إلا أن تلك الحركة إذا أضيفت إلى جملة مياهها وسعة سطوحها وبعـــد قعورها صارت كأنها ساكنة ، وليست مواضع الأرض الرطبة أبداً رطبة ، ولا مواضع الأرض اليابسة أبداً يابسة ، لكنها تتغير وتستحيل لصب الأنهار اليها ، وانقطاعها عنها . ولهذه العلة يستحيل موضع البحر وموضع البر . فليس موضع البر أبداً براً ، ولا موضع البحر أبداً بحراً ، بل قد يكون براً حيث كان مرة بحراً ، ويكون بحراً حيث كان مرة براً ، وعلة ذلك الأنهار وجريها . فان لمواضع الأنهار شباباً وهرماً ، وحياة وموتاً ونشئاً ونشوراً ، كما يكون ذلك في الحيوان والنبات ، غير أن الشباب والكبر في الحيوان والنبات لا يكون جزءاً بعد جزء ، لكن تشيب وتكبر أجزاؤها كلها معاً ، وكذلك تهرم وتموت في وقت واحد . فاما الأرض فانها تهرم وتكبر جزءاً بعد جزء ، وذلك بدوران الشمس» .

عرفنا من قبل هذه النظرية عن حياة البر والأنهار (١٤١٧) . فهي تربط البحر بفيزياء الكرة كلها في البحث الذي يهمنا . ويسيطر البر على الظاهرة ، وتؤثر حياته ، بلداً بلداً ، وفق دورة تتجدد ازلياً ، في سرير الأنهار . وبالتالي في حجم المياه التي تصبها في البحر ، وبالتالي في حدود البر . وهل نذهب ، خلافاً لما ألمحنا إليه من قبل ، إلى حد القول إن البحر لا يمتلك إلا الحيز الذي يتخلى عنه البر ويرسمه له؟والحق يقال ان التغييرات المبينة لا تتناول إلا الشواطىء ، ثم إذا كانت الآلية تصل إلى تعديل وجود

البحار وخريطتها العامة ؛ بسبب كميات مفرطة فيها ، ما هو مصير نظام الخليقة ذاته الذي منح الله وحده فيه إلى الأبد البحار وفي طليعتها البحرين العظيمين ، مكاناً محدداً ، أما الوجه الآخر ، فيتلخص بما يلي : اذا اختل التوازن يوماً ما لمصلحة البر أو الماء افرادياً ، فسوف يقضى على عالمنا : ركام أو طوفان في الماضي ، والقيامة في المستقبل (١٤١٨) .

البحر اذن جزء من الكرة ، اما البر ، نعني البر الصلد ، فلا دخل له بالبحر . ويتماسّان على تخومهما فقط ، ويتصلان من خلال الأنهار التي تدخل في نطاق البر ، بحيزها ، لكن في نطاق البحر بمائها وفقدان الملوحة بعد هذا الايضاح ، يبقى كل من البر والبحر في مواقعه وفي نطاقه في النهاية ، ويذوب النهر ذاته بعد وصوله إلى البحر ، مثلما يصبح الجبل المغمور جبل البحر ، وكما يتغير النبات والحيوان جذرياً بعد الانتقال من البر إلى الماء .

البحر المضطرب

مهما يكن ، في الحوار الجاري على الشواطىء ، لا يتقدم البر ، لكن لا يتراجع البحر ، والعكس بالعكس . اذن البحر وحده يتحرك ، كما كان يقال . ولا يجوز ان يغرنا ثباته العام على مستوى الكرة ، وقد لاحظه المسعودي جيداً ، وتتم الحركة من الاسفل إلى الأعلى أولاً : فيرى انخفاض الموج لا حركته الظاهرية التي تجعله يركض ويتكسر . هذه هي اذن جبال البحر الحقيقية وأوديته ، تارة تتكسر بعضها على بعض وينقدح منها النار ، فيخيل لراكب البحر أنه يسير في بحر نار . وطوراً تصبح خباً هائلاً « أعمى » و « مجنوناً » ترتفع أمواجه إلى السماء ، فتكشف قعر البحر ، دون أن يظهر من ذلك زبد (١٤١٩) .

ويضطرب البحر بلا كلل . لأن الرياح في عرضه لا تستقر في مكان . ويكثر ذكرها في مقاطع عديدة من كتاب عجائب الهند ،تبعاً لسيطرتها التامة على المياه (١٤٢٠) ثم إن « كل بحر تهيج فيه ريح تثيره ، وتهيجه حتى يغلي كغليان القدور ، فيقذف ما فيه إلى الجزائر التي فيه ، ويكسر المراكب ، ويقذف السمك الميت الكبار والعظام ، وربما قذف الصخور والجبال كما يقذف القوس السهم » (١٤٢١) . ويستلهم المسعودي (١٤٢٢) من هذا النص المأخوذ من أخبار الصين والهند ، وينهّج موضوع مزدوجة البحر والريح في سياق بحثه عن أقسام بحر الهند : « فمنها مـــا ريحه من قعر البحر يظهـــر ، فتغليه ويعظم موجه كالقدر تفور مما يلحقها من مواد حرارة النار ، ومنها ماريحه والآفة فيه من قعره والنسيم ،ومنها ما يكون مهبه من النسيم دون ما يظهر من قعره ، وما وصفناه مما يظهر من قعره من الرياح ، فلذلك تنفسات من الأرض تظهر إلى قعره ، ثم تظهر في سطحه ، والله عز وجل أعلم بكيفية ذلك » .

وسواء تنفست الأرض أم لم تتنفس . وسواء عملت عصافة هائلة في قعور البحار أم لم تعمل ، نرى أن الرياح والعواصف تترافقان . أما أماكنهما المختارة . فعلى مقربـــة من السواحل حيث يوجههما شكل الشاطىء المجاور أو مضيق بين الشاطىء وإحدى الجزر . ويعرف البحارة جيداً هذه المخاطر في بحر القلزم أو في إحدى نواحي الجزر (١٤٢٣) وتتمتع الرياح بحريتها في باحة البحر ، وتهب على هواها ، وقد تفاجىء العاصفة السفينة في أي مكان كان ارادت . وتتخذ في البدء شكل زوبعة : « وربما رؤى في هذا البحر سحاب أبيض ، يظل المراكب ، فيشرع منه لسان طويل رقيق ، حتى يلصق ذلك اللسان بماء البحر . فيغلي له ماء

البحر : مثل الزوبعة . فاذا أدركت الزوبعة المركب بتلعته . ثم يرتفع ذلك السحاب ، فيمطر مطراً فيه قذى البحر ، فلا أدري أيستقي السحاب من البحر أم كيف هذا (١٤٢٤) » .

وعلى وجه التخصيص ، يعرف نظام الرياح والعواصف معرفة جيدة ، في بحري فارس والهند . والنص الأساسي مأخوذ من الفلكي أبي معشر ، نقله ابن رسته وابن الفقيه والمسعودي (١٤٢٥) . ويشار إلى أن بحر فارس والهند هما في الجملة بحر واحد ، إلا أنهما متضادان بحالاتهما لأن « بحر فارس تكثر أمواجه ، وتشتد ، ويصعب مركبه ، عند لين بحر الهند ، وسهولة مركبه ، وقلة أمواجه . ويسهل مركبه عند ارتجاج بحر الهند وتقاذف مياهه واضطراب أمواجه وظلمته وصعوبة مركبه. وأول ما تبتدىء صعوبة بحر فارس، عند دخول الشمس السنبلة (العذراء) ، وقرب الاستواء الخريفي . فلا يزال في كل يوم تكثر أمواجه وتتقاذف ، ويصعب ظهره إلى أن تصير الشمس إلى الحوت . وأشد ما يكون صعوبة ظهره وكثرة أمواجه وشدته في آخر زمان الخريف عند كون الشمس في القوس . فاذا كان قرب الاستواء الربيعي يبتدىء في قلة الأمواج ولين الظهر وسهولة المركب إلى أن تعود الشمس إلى السنبلة . والين ما يكون ظهراً ، وأسهله مركباً ، في آخر زمان الربيع ، وهو عند كون الشمس في الجوزاء . وأما بحر الهند ، فاذا صارت الشمس في السنبلة ، تقل ظلمته ، وتنقص أمواجه ، ويلين ظهره ، ويسهل مركبه إلى أن تصير الشمس إلى الحوت . والين ما يكون ظهراً عند كون الشمس في القوس .إلا أن يكون بحر فارس قد يركب في كل أوقات السنة . فاما بحر الهند ، فانه لا يركبه الناس عند هيجانه وظلمته وصعوبة مركبه. ولاختلاف حالهما وهيجان كل واحد منهما في وقت

خلاف وقت صاحبه . يسميان بطبيعة المرتين في الوقت الذي يهيجان فيه . فبحر فارس يسمى بطبيعة المرة السوداء لابتداء هيجانه في أول زمان الخريف ، وصعوبته وشدته في آخر هذا الزمان ، وبقائه على حاله تلك إلى آخر زمان الشتاء . وبحر الهند يسمى بطبيعة المرة الصفراء لابتداء هيجانه في أول زمان الربيع ، وشدة قوته في آخر الزمان . ودوامه على حاله إلى آخر زمان الصيف . . . . وأما البحر الشامي ، فانه اذا صارت الشمس في أول العقرب إلى أن تصير في أول الحوت في هذه الأربعة الأشهر ، لا يستطيع الناس ركوبه ، وذلك لأن الشمس تتباعد عنه وتحدث فيه الرياح العاصفة ، وذلك في ناحية الشمال منه » .

يلاحظ بوضوح التناوب الدقيق في حركة البحرين ، التي يمكن تلخيصها على الوجه التالي :

— قرب الاستواء الخريفي ، السنبلة (١٤ آب — ٢٤ أيلول) : بدء الاضطراب في بحر فارس / بدء الهدوء في بحر الهند .

— آخر الخريف ، القوس (٢٢ تشرين الأول — ٢٢ كانون الأول) : ذروة الاضطراب في بحر فارس / ذروة الهدوء في بحر الهند.

— قرب الاستواء الربيعي ، الحوت (١٠ شباط — ٢١ آذار) : بدء الهدوء في بجر فارس / بدء الاضطراب في بحر الهند.

— آخر الربيع ، الجوزاء (التوأمان) (٢٢ أيار — ٢٢ حزيران) : ذروة الهدوء في بحر فارس ، ذروة الاضطراب في بحر الهند .

وتتميز الأطوار الأربعة في حياة البحرين لا بالأزمنة ، مأخوذة اجمالاً ، بل بأواخرها : أي نهاية الصيف ونهاية الشتاء بدء الحركة ،

ثم نهاية الخريف ونهاية الربيع لذروتها . ويسمح تدخل الأزمنة (١٤٢٦) ، في ذهنية فيزياء الزمن ، باعطاء البحر ، الكائن الحي ، احدى الطبائع الأساسية الأربع ، حسب الأزواج التالية : الربيع وطبيعة الدم ، الصيف وسلطان المرة الصفراء ، الخريف وسلطان المرة السوداء ، والشتاء سلطان البلغم (١٤٢٧) . مع ذلك ، لا يجري الاختيار بالنسبة إلى البحرين بالطريقة ذاتها تماماً : ففي حالة بحر فارس يؤخذ ، حسب ما هو مألوف الفصل الذي يبلغ النشاط فيه ذروته ، بتعبير آخر نهاية الخريف ، وتنسب إليه طبيعة هذا الزمن أي المرة السوداء . ونتوقع ، على أساس المبدأ ذاته ، أن ينسب إلى بحر الهند الدم ، طبيعة زمن الربيع . انما اختيرت المرة الصفراء التي تحيلنا إلى الصيف ، الزمن الذي لا يزال بحر الهند هائجاً فيه ، لكنه يدخل في طور يقوده إلى الهدوء . فمن أين جاء هذا الاختلاف في وجهات النظر ؟ بداهة ، ولقاء هذا التفاوت البسيط ، لدمج البحرين تحت اشارة واحدة ، المرة السوداء أو الصفراء ، التي ترمز ، عبر الاختلاف ، إلى وحدة ، المحنا اليها منذ البداية .

وقد تلعب هذه الوحدة في النهاية لصالح بحر فارس أصلاً . بالفعل ، الفرق ظاهر بين القول إن البحرين متضادان أو ان بحر الهند يوصف بألفاظ متناقضة للالفاظ التي يوصف بها بحرفارس الذي يعتبر أساسه وقد اختيرت وجهة النظر الثانية ، مثلما يثبت من مكانة بحر فارس وطول بحثه عند المصنفين الثلاثة . بعد أن اعتبر منطلقاً للعرض وأساساً له. وهذا أيضاً : اذا كان تصرف بحر الهند مألوفاً أكثر في نظر الفيزياء لأن نشاطه يتجدد ، كما هي الحالة بالنسبة إلى كل منا ، متى اقترب الربيع ، فان تصرف بحر فارس مألوف أكثر في نظر البشر ، لأن نشاطه متفق مع الزمن السيء : فهنا يختار البحر ، لإحداث الصعاب في سبيلنا ،

الزمن المتوقع ، الزمن ذاته السائد على الأرض (١٤٢٨) . وربما يقال لنا ان بحر فارس لا يضيف إلى هذه الصعاب مفاجئة الفصل المعاكس . لذلك يعلن في النهاية أن بحر فارس يركب في سائر السنة ، في حين تكثر العواصف في بحر الهند ، خلسة ، بسبب المفاجأة وجميع قوى الربيع الحية.

ولا يهمنا الواقع كثيراً ، نعني واقع الموسميات ، التي نستشفها ، بصحة متفاوتة من خلال هذه النصوص ، ولا التمييز المصطنع بين البحرين ، كما لو أن الملاحة تنقطع في بحر الهند على الموسميات الصيفية ، في حين نعلم بدقة ان بحارة هذه المناطق يعرفون ويألفون نظام الرياح (١٤٢٩) منذ مدة طويلة . وما يهمنا أن العاصفة تفترض وجود ريح ومطر ، وتعتبر ظاهرة زمن سيء ، أي شتاء ، كما هي الحال على البر . واذا كان بحر فارس بحراً جيداً، فمرد ذلك إلى أنه ينتمي إلى عالم البر ، بحكم قربه منه — وحتى بحكم انغلاقه على نطاق واسع بشكل خليج — في حين ينتمي بحر الهند ، على النقيض ورغم اتصال مجمع الما» ، إلى هذا العالم الآخر ، المشار إليه من قبل ، الذي ينقلب فيه كل شيء ، ولا تنطبق عليه جميع قوانين البر .

وتتميز العاصفة بخمس سمات خارجية ، هي : كثرة الأمواج واضطرابها ، وظلمة السماء (١٤٣٠) ، وهبوب الرياح ، ومخاطر الملاحة . إلا أن الريح ، سيدة الموقف على المياه ، تخضع إلى الشمس ، مثلما نرى في بحر الروم : فبين دخول الشمس برج العقرب ودخولها برج الحوت ، أي من آخر تشرين الأول إلى مطلع شباط ، أو بصورة رئيسية في الشتاء هنا أيضاً ، كما هي الحال في بحر فارس ، يتناسب هبوب الرياح مع بعد الشمس من الأرض (١٤٣١) . ويعيد

المسعودي (١٤٣٢) الفكرة ذاتها ، لكن فيما يتعلق ببحري فارس والهند. ويفسر تناوب أحوالهما ، كما يقال لنا ، بقرب الشمس أو بعدها ، والشمس ذاتها تتحكم بالأزمنة ، في فصل الصيف في بحر فارس وفي فصل الشتاء في بحر الهند ، والعكس بالعكس .

وهكذا ، متى انعكست الفصول ، يتصرف بحر الهند تصرف بحر فارس ، اذ ان العواصف فيه في ما يمكن أن يدعى الشتاء الهندي(١٤٣٣) : وهذه إشارة اضافية إلى حيوية اقتران العاصفة والفصل السيء ، انما مع قلب المنظور المشار إليه من قبل ، اذ ان بحر الهند يرجع إلى نطاق المألوف . ويمكن توجيه طعن واحد اليه ، والحالة هذه ، هو ليس الجمع بين العاصفة والايام الجميلة فقط ، بل أيضاً الانتماء إلى عالم تنعكس فيه الأزمنة بالنسبة إلى الشخص القادم من جهة الغرب . بقي ان نقول ان الوضع يحكم عليه دوماً بالمقارنة ببحر فارس ، وان الأزمنة الصحيحة هي أزمنته (بحر فارس) ، وانه اذا كان بحر الهند يتصرف في النهاية مثل بحر فارس ، فيؤخذ عليه أن تصرفه بالنسبة إلى البحريين ، لا يتم في الزمن السيء ذاته ، بل في زمن لا يتوقعه أحد.

وتؤثر العاصفة كثيراً في المخيلة ، حتى إنها تعتبر مكان وجود قوى غريبة وأشخاص سود . والدليل على ذلك النور الباهر الذي يصفه المسعودي (١٤٣٤) على الوجه التالي : « ربما شاهد المعافى منهم في أعلى الدقل — ويسميــه أربا ب المراكب في بحــر الصين وغيره من البحــر الحبشي (١٤٣٥) الدولي ، ويسمية الرجال في البحر الرومي ، الصاري— شيئاً على صورة الطائر يتوقد نوراً لا يستطيع الناظر منهم على ملء بصره منه ، ولا ادراكه كيف هو ، فاذا استقر على أعلى الدقل ، يرون البحر

يهدأ والأمواج تصغر والخب يسكن ، ثم إن ذلك النور يفقد ، فلا يدري كيف أقبل ولا كيف ذهب فذلك علامة الخلاص » .

وتحمل هذه العاصفة ، التي تنتهي بالنور الباهر ، في بحر الصين ، اسم الخب ، وكما يظهر طائر النور في نهايتها ، تظهر تباشيرها على النحو الآتي : « وذلك ان البحر اذا عظم خبه وكثر موجه ، ظهرت أشخاص سود طول الواحد منهم الخمسة أشبار أو الأربعة ، كأنهم أولاد الاحابيش الصغار ، شكلاً واحداً وقداً واحداً ، فيصعدون على المراكب ، ويكثر منهم الصعود من غير ضرر ، فاذا شاهد الناس ذلك تيقنوا الشدة ، فان ظهورهم علامة الخب ، فيستعدون لذلك (١٤٣٦) » .

وهنالك علامة أخرى لهيجان البحر : هي السمك المسمى البرستوج ، وهو الذي يكثر بالبصرة (١٤٣٧) . مع ذلك ، لا شيء ارهب من التنين (١٤٣٨) . ولا تعرف التنانين إلا في المياه العميقة في بحر اقيانوس ، وبحر الاعاجم لاسيما حوضته الشرقية ، قرب الجبل الأقرع ، حيث معظم ماء البحر وأكثره ، وأخيراً في بحر قزوين . وفي الأصل ، كان يقصد به ظاهرة الزوبعة ، المشار اليها من قبل (١٤٣٩) : فهو ريح سوداء تكون في قعر البحر ، فتظهر إلى النسيم وهو الجو . إلا أن الخيال يعبث في رؤية الزوبعة وعمود الماء والبخار ، على حد قول المقدسي ، فأراد أن يجعل منها حيواناً اسطورياً وتوهم بعض الناس أن التنانين حيات سوداء ، تحملها الامطار إلى البحر ، فتزدهر فيه مما تفترسه ، ومن هنا ضخامتها وتعميرها طويلاً حيث يبلغ عمرها ٥٠٠ سنة ، وهو سيد جميع دواب البحر المطلق . ومنهم من رأى أن التنانين دواب تتكون من قعر البحر ، فتعظم ، فتؤذي دواب البحر ، فيبعث الله الملائكة والسحاب الذي يعمل فيها كالمغنطيس ، فيخرجونها من بينها . ويتردد التنين ، ثم

يخرج ، ويرتفع رأسه في السحاب ، ولم تعد الزوبعة المخربة في هذا الكابوس سوى ضربات ذنب التنين المضطرب . وبلغ عدد السحائب اللازمة لاكتشاف التنين ،على حد قول ابن الفقيه ، سبعاً ، بعدد رؤوس التنين على حد قول الفرس (١٤٤٠).

وليست العاصفة حركة البحر الوحيدة . ولا يحتاج البحر للريح ليعبر عن الحياة التي تختلج فيه : فله دردوراته الخطرة جداً ، وفي بعض أنحائه أرقاق أو أعرية هنا ، وفي بعضها الآخر صدمات المد والجزر وماء أحد الأنهار الكبار . ويعرف البحريون بعضها جيداً ، بخاصة في بحر فارس . وقد زين أخطرها بأسماء بليغة (١٤٤١) مثل فلك الأسد ، والذئب وبعض اعرية مضيق هرموز ، حيث يضم البحر ، العميق جداً ، إلى دردور الامواج الهائلة ، أبا حمير (١٤٤٢) وكسير وعوير (١٤٤٣) التي دخلت في أحد الامثال السائرة بين الناس : كسير وعوير وثالث ليس فيه خير (١٤٤٤) .

وتنتشر أحياناً حركة البحر ، فتتحول الزوبعة إلى تيار ، ويصير البحر عندئذ أشبه بنهر هائل (١٤٤٥) . وهكذا تبدو حركات مضايق بحر الروم ، « ويحس بجريان الماء ويعلم بحركته » : فمن جهة اولى ، مضيق جبل طارق ، الذي « يخرج الماء من بحر اوقيانوس ويصب إلى البحر الرومي فيه ، وفي هذا الخليج مواضع تعلو أمواجها ، ويعلو الماء من غير ريح » وفي الطرف الآخر البوسفور (خليج القسطنطينية) ، الذي يذهب الماء فيه ويجيء . وفي بحر القلزم ، يتحرك البحر بجوار السويس ، وفيه غرق فرعون (١٤٤٦) . وقد عرفنا من قبل هذه الظاهرة : فلا بد أن نرى من خلال ثبات البحر الظاهري ، الحركة التي تحملها إلى الاقيانوس (١٤٤٧) .

أخيراً ، هناك الحركة القصوى ، المرئية تماماً ، الخاصة بالبحر ، التي توحي بصفحات طوال : أعني حركة المد والجزر (١٤٤٧) . إنها خاصة بالبحر ، لاسيما البحر الشرقي والاقيانوس . أما بحر الروم وما يتفرع عنه من بحار ، أو بحر الخزر ، فالمد والجزر فيها ضعيفا السعة ، باستثناء جزيرة جربة ، التي بينها وبين البحر نحو ميل تخرج مواشيهم عدوا حين يجزر الماء وينضب ، فترعى ، ثم تروح عشيا قبل المد . مع ذلك المد ابين على سواحل المحيط من الأندلس حيث يبلغ ارتفاع المد عشر أذرع ، وفي سواد العراق ، وفي الخوزستان ، حيث يصعد المد ، كما رأينا في الفصل السابق ، في الأنهار والأقنية ، فيسقي الحقول ويدير الارحية ، في حين يسمح بتجاوز الارقاق ، وفي الصين في الخلجان الكبرى ، وأخيراً في الهند حيث يشيع اللجوء اليها من قبل المقدمين على الانتحار الذين ينتظرونه على الشاطىء .

ووقت حدوث المد والجزر مصدر اهتمامات أخرى . ويشار إلى انتظامهما ذاته طبعاً . والحقيقة أن الحركات متعددة ، اولاها ، وهي معروفة أكثر من سواها ، وفيها مد وجزر مرتين في اليوم والليلة ، أي كل ٢٤ ساعة (١٤٤٩) . لكن هناك دورات زمنيـــة أخرى ، نصف شهرية ، في وسط الشهر وأطرافه (١٤٥٠) ، وسنوية حسب ابن خرداذبه (١٤٥١) « لا يكون (المد والجزر) في البحر الأعظم (اوقيانوس) إلا مرتين في السنة ، مرة في شهور الصيف شرقاً بالشمال ستة أشهر ، فاذا كان ذلك طما الماء في مشارق البحر بالصين وانحسر عن مغارب البحر ، ومرة يمد في شهور الشتاء غرباً بالجنوب ، ستة أشهر ،

فاذا كان ذلك طما الماء في مغارب البحر وانحسر في الصين » . وهكذا يفسر مرة أخرى ، لكن هنا حسب المد والجزر ، التصرف المتعاكس لبحري فارس والهند (١٤٥٢) الذي ورد في أخبار الصين والهند على الوجه التالي : عند طلوع القمر : مد في بحر الهند وجزر في بحر فارس، القمر في وسط السماء : جزر في بحر الهند ، ومد في بحر فارس ، عند مغيب القمر : مد في بحر الهند ، وجزر في بحر فارس ، اذا توسط القمر في وسط السماء : جزر في بحر الهند ومد في بحر فارس (١٤٥٣).

اذن التسجيلات صحيحة عن المد والجزر اليومي وعن دورته وتبدلات ميقاته وسعته حسب البحار والشواطىء . بالتقابل ، متى تعدينا الميقات اليومي ، يظهر الالتباس بين الظاهرة العامة والسمات الأظهر التي تتعرض لها خلال الشهر أو السنة ، وتصبح كما رأينا مداً وجزراً يضافان إلى المد والجزر الاولين (١٤٥٤) . وكيف نعرف الحقيقة عندما نجهل أصل هذه الحركات ؟ فهنالك القمر ، وأحياناً قمران : أي كوكبان موضوعان تحت القمر الذي نشاهده ، وموكل اليهما إحداث المد والجزر بخاصة (١٤٥٥) . مهما يكن ، عند زيادة نور القمر أو القمرين أو نقصانه ، ينشأ المد والجزر (١٤٥٦) . ويفضل القمر على الشمس في هذه الحالة ، لأن اثره في البحر يذكر طبيعياً بأثره في الأمراض وحيض النساء ومخاض الكائنات الحية ، والزيادة في شعر الحيوان وأدمغته والالبان والبيض وزيادة المعادن في جواهرها ومن بصيصها وصفاتها ولسع حشرات الأرض وأفعال سائر السباع ، وكثرة السمك ونمو البقول والفواكه والرياحين وسائر النبات .

وهكذا ترتبط زيادة البحر بالقمر . لكن لابد أن نعرف اذا كان ذلك من أفعال القمر وحده أو من أفعال كوكب آخر معه . ويعود

المسعودي إلى طغيان الماء العام في مشارق الأرض مرتين في السنة . ويوضحه بادخال الشمس التي تحرك الهواء ، فيتحرك البحر . وقد يضاف إلى ذلك فعل بعض الكواكب السيارة . مع ذلك ندرك أن الطرح الرئيس ، المذكور قبل غيره هو فرضية تأثير القمر وحده . اذن يعود المسعودي إلى فرضية القدر ، لكنه لا يقصد هذه المرة تشبيهاً بسيطاً يؤدي، مثلما نذكر ، إلى غليان الابخرة التي تتولد في بطن الأرض . وتنطلق عبر الاعماق البحرية ، بل يدعو إلى قبول تماثل تام بين البحر والقدر : فيعتبر البحر فعلاً قدراً لا صدع في قعرها . فمتى سخن الماء فيها (١٤٥٧) يرتفع وتتضاعف كميته ، ومتى امتلأ القمر حمي الجو حمياً شديداً. وظهرت زيادة الماء .

ويتوقع اجراء اعتراضين على هذا الشرح . أولهما وضع البحار التي لا يكون فيها الجزر والمد ، ويجاب عليه بتقديم ثلاث علل . ففي المجامع المغلقة (١٤٥٨) ، لا يظهر المد والجزر وتأثير القمر . ويحل محله انصباب الأنهار (١٤٥٩) الذي يؤدي إلى تبدل مستوى ماء البحر : فيقف المـــاء زماناً ، ويغلظ وتقوى ملوحته وتتكيف فيـــه الارياح . العلة الثانية وضع البحار التي تبعد عن مدار القمر ومسافاته بعداً كبيراً ، فيمتنع منه المد والجزر فيها . والعلة الثالثة وجود ثقب في أسفل القدر ، تترتب عليه نتيجتان - « المياه التي يكون الغالب على أرضها التخلخل ، لأنه اذا كانت أرضها متخلخلة نفذ الماء منها إلى غيرها من البحار ، وتخلخل ، وانفست الرياح الكائنة في أرضها أولاً فأولاً ، وغلبت الرياح عليها ،وأغلب ما يكون هذا في ساحل البحار والجزائر » . وهكذا تتضح اضافة شرطين متممين حتى يحدث المد والجزر : كمية كافية من

الماء . ثم رياح ضعيفة جداً لكي لا تفسد حركة تصاعد الماء ذاته نحو القمر (١٤٦٠) .

ويرد الاعتراض الثاني على الوجه التالي : مادام المد والجزر يتوقفان على سخونة الماء . لماذا لا يكونان من الشمس الاقدر على تسخين الماء من القمر إلى حد كبير ؟ لماذا لا يمدّ الماء مع بدء طلوع الشمس ، ويجزر مع مغيبها ؟ يتذرع الجواب بطبيعة الماء ذاته ، بصرف النظر ، هذه المرة ، عن القمر والشمس معاً . يمكن أن نكتفي بهذا القدر (١٤٦١) أو أن نربط حركة الماء مرة أخرى بأبخرة الأرض . التي تذكر حركتها المستمرة المتناوبة بالشهيق والزفير ، فتدفع ماء البحر من قعره تارة وتضغط عليه ضغطاً كافياً يرفعه ، وطوراً تنقص مواردها من أسفل ، فيتراجع الماء حينئذ إلى قعر البحر .

ويعطى تفسير آخر يرتكز على الهواء أيضاً ، لكن بشكل جو هذه المرة . فالهواء المطل على البحر يستحيل دائماً إلى ماء ، فاذا استحال ، عظم ماء البحر ، وفاض عند ذلك ، واذا فاض البحر فهو المد . فعند ذلك يستحيل ماؤه ويتنفس ، فيستحيل هواءاً ، فيعود إلى ما كان عليه ، والجزر في دورة الامطار ذاتها ، » وهو دائم لا يفتر ، متصل ، مترادف ، متعاقب ، لأن الماء يستحيل هواءاً والهواء يستحيل ماءاً » . ولا يتحدث هذا التفسير ، لا هو ولا التفسير السابق عن القمر ، ويوضح المسعودي هذه الناحية بقوله : « وقد يجوز أن يكون ذلك عند امتلاء القمر اكثر ، لأن القمر إذا امتلا ، استحال الهواء أكثر مما كان يستحيل . وإنما القمر علة لكثرة المد لا للمد نفسه ، لأنه قد يكون والقمر في محاقه ، والمد والجزر في بحر فارس يكونان على مطالع القمر في أغلب الاوقات » .

كان التذرع بطبيعة الماء مهرباً . وهاك مهرباً آخر ، اختفى فيه القمر تماماً حتى من النقاش . فما هيجان ماء البحر الا كهيجان بعض الطبائع ، « صاحب الدم وصاحب الصفراء » . وفي ختام سلسلة التفاسير المعروفة ، يعيد المسعودي الحكيم ، كغيره ، هذا السر إلى الله . فالمد والجزر آية واعجوبة جعلها الله وحده (١٤٦٢) . ويدخل الفكر أصلاً هذه الظاهرة في نظام ما لا يعلم ، فيعاد إلى الخيال جميع حقوقه . ومعروف موضوع الملك الذي أوكل الله اليه الماء : ففي كل يوم يذهب جبريل إلى جنة عدن ، ويغطس جناحية في نهرها ، ثم يعود ويحركهما ، فيتساقط من كل جناح سبعون ألف قطرة ، يخلق منها الله عدداً مماثلاً من الملائكة » ، ويقول بعد ذلك : « لا تسقط قطرة ماء من السماء على الأرض الا وبرفقتها ملك » (١٤٦٣) . وبما أن الملك يوكل اليه مراقبة البحر ، فهو يلعب دور المخبر أو المنفذ . وأحياناً ، يكشف للخضر عن المد والجزر ويقول : « إن الموت يتنفس ، فينساب الماء إلى منخريه . فذلك الجزر ، ثم يتنفس فيخرجه من منخريه . فذلك المد (١٤٦٤) . وفي أغلب الاحيان ، يحدث الملك نفسه المد والجزر ، يغمس في الماء اصبعه أو قدمه كل يوم ، فيمد ، فاذا رفعه جزر .

ويبرز الاقرار بالعجز واحلال الخيال محله ببساطة ، معطى تتضمنه سائر التفاسير : نعني نقص اليقين في كل ما يتعلق بظاهرة المد والجزر . فالنظريات الفيزيائية ، تصطدم في النهاية بوقائع تقضي عليها ، أو تبقى بلا سند فرضيات ، لا يمكن التحقق من صحتها لذلك يحترس المسعودي من اختيار هذا الحل أو ذاك ، المعروض هنا أو هناك ، مع أنه ينهج ويفصل عرضه الاجمالي عن المد والجزر ، ويأتي به كاملاً ، ويتشبث ببحثه . وتؤيد ترددات الانسان أمام المد والجزر ما تشعرنا به جميع مظاهر البحر

الأخرى : فالمد والجزر يحيراننا لأنهما ظاهرة مزدوجة ، ثابتة على خريطة الأرض العامة ، لكن في الوقت ذاته متحركة ، هادئة أو عاصفة ، مفيدة أو ضارة ، تغطي جانباً من الأراضي ، إلا أنها تحترم كل الأراضي المحظورة عليها ، مروضة ، لكنها غير مستسلمة ، بدلالة أنها تحت الشاطىء بالمد والجزر أو العاصفة ، ويتوقف اجتياحها ثم يعود . باختصار ، لابد أن نخلص إلى القول — أو ربما ان نبدأ من هذه النقطة — إنهما كالأرض مسخران للبشر بلا شك ، إلا أن البشر تفوتهم طبيعتهما وحياتهما وحتى غائيتهما في نظام الخلق على نطاق واسع .

الانسان والبحر

« البحريون أناس لطفاء ، لا كياسة لديهم ، ولا يعرفون سوى لغة السفن ، ينشطون متى كان البحر هادئاً ، ويتكاسلون أثناء العواصف . عندئذ ، الكثرة تأمر والقلة تطيع . يعدون طوافة الارساء ومرقدهم . ويلهون برؤية المسافرين مصابين بدوار البحر » . تشير هذه الاسطر التي كتبها سرفنتس (١٤٦٥) إلى الملاحة القديمة ، ويمكن تطبيقها بلا صعوبة على أولئك الرجال الذين يسألهم مصنفو الجغرافية عن البحر ، ويصغون أحياناً إلى قصصهم البحرية . ويعرفهم الأدب العربي على حقيقتهم : فهم متشدقون ، نفاجون ، هزليون ، استؤمنوا في البحر ، على حيز غريب ومحظور ، ونكرر مرة أخرى قولنا انه منفرد (١٤٦٦)وقد سمح لنا الذين يرون البحر على هذه الصورة ممن يرتادونه ، وممن ينقلون أحاديثهم في مصنفاتهم ، بأن نتعرف على لجته . بقي أن نتحدث عن الحياة في البحر ، لنكمل وصفه ، معتمدين على أهل البحر أنفسهم ، نقصد حياة الحيوانات البحرية ، وحياة الذين يمخرون عبابه . ونرجىء حياة الحيوانات إلى

الفصل الخامس ، وحياة البحارة إلى الجزء الذي نتحدث فيه عن أنشطة البشر .

نؤخر اذن حالة أهل البحر ، ونساءل هنا جميع المقيمين على البر وينظرون إلى البحر من الشاطىء . فهل نستطيع أن نتحدث عن شاعرية بالنسبة اليهم ؟ ربما ، إلا أن هذه الشاعرية نادرة ، مطنبة ، لا تعي ذاتها ، تتم مثلاً من خلال صورة الأمواج التي تضرب جدران مدينة أو مرفأ . ويعبر بيت الشاعر راسين تعبيراً حرفياً تقريباً من هذه الصورة : « وحتى أسفل الحيطان التي يغسلها البحر » (١٤٦٧) . وتمثل هذه الناحية الحد الأقصى لما يمكن التنازل عنه للشعر ، باستثناء شكله ، غير الموجود عند مصنفي الجغرافية : فشاعرية راسين متوفرة لديهم ، انما في نثرهم . ويتثبت الحرص الصافي على الوصف في الأمور الأخرى .

وماذا يوصف بالضبط ؟ البحر بلا ريب ، كما رأينا ، عند الوجود في اللجة لكن متى عادت الأرض إلى الظهور ، ينعكس المنظور ، ويعود المشاهد إلى الشاطىء . ولا تعرض علينا مطلقاً واجهة برية من قادم من البحر ، باستثناء عجائب الهند (١٤٦٨) على الأرجح . اما ابن حوقل ، فجغرافي ، يقرر تخصيص فصلين منفردين لبحر الروم وبحر فارس (١٤٦٩) . وماذا يفعل ؟ ففيما عدا الممرات الخطرة والأماكن الهامة في هذه البحار ، المشار اليها على وضعها ، وكثير منها يقع ، والحق يقال ، في أفق الشاطىء ، يخصص الوصف لا للبحر ، بل للشواطىء ، التي نذكر مدنها وزروعها أو سهوبها ، كما يوصف أي بلد آخر ، ولا يقدم البحر هنا سوى اطار وصف الأرض (١٤٧٠) الممكن ، لكن غير الضروري ، مرة أخرى وعلى الدوام . علاوة على ذلك ، قد يصبح البحر

بشاطئه الفاصل ، مجرد ذريعة . فاذا كان داخل البلاد ليس من دار الاسلام وحدها . يسعد المصنف ان ينتهز الفرصة لزيارة بيزنطية من بحر الروم ، وبلد البجة والنوبة والحبشة من بحر القلزم .

في النهاية ، تضطر هذه الأمور الجغرافي أن يكون بحاراً وجوالة على شاطىء البحر ، متى تسنى له ذلك مجدداً . وهاك بعض أمثلة مأخوذة من عند ابن حوقل : فحجم وعدد الانهار ، الطبيعية أو الصنعية ، في خوزستان السفلى ، يضعفان كثيراً واجهة هذا البلد البحرية (١٤٧١). وليس ، كما نرى ، على العكس ، صورة أرض محدودة بسبب جبهة الماء تشاهد من اللجة . ويقول في مكان آخر ، في حديثه عن أنحاء قعر هذا الخليج ذاته : « ثم يقطع عرض نهر دجلة ، فيصير على ساحل هذا البحر إلى مهروبان من حد فارس ، ويعترض فيه أماكن تمنع من السلوك إلا في الماء » (١٤٧٢) : اذن تشبه الصعوبات صعوبات البر ، ثم تزول على مسافة قليلة من هنا بالملاحة في هذا البحر الذي يوصف لنا. أخيراً ، يعود إلى تكرار هذه الصيغة ذات المغزى « ثم يسير عليه آخذاً شطه . . . » (١٤٧٣) .

وهكذا ، لا شيء ، بالنسبة إلى ابن الساحل ، يثير افتتانه بالبحر وشوقه إليه . فمن أراد ان يحبه ويعرفه ويحيا فيه ، عليه ان يزيل الغلاف ، ويتحول على صورته ، ويصبح ملاحـــاً ، أي انساناً آخر في عالم آخر. وإلا لن يكون البحر سوى السبيل الوحيد الباقي للسفر ، واستطراداً في كتاب . فرؤية أهل البر له ، مبنية على المصلحة في النهاية : فالبحر جيد أو سيء حسب سهولة الاتصالات التي يوفرها من بلد إلى آخر ، عند اللزوم ، أو العقبة التي توضع في وجه تلك العلاقات ، حسب تصرفاته

الملائمة او السلمية ، أو على العكس وحسب غناها أو بخلها . مسمكة هنا ، عقيمة في مكان آخر ، مفتوحة على بلدان تستطيع التجارة ان تجني منها ربحاً خيالياً ، أو على العكس على أرجاء قاحلة . وهكذا يعارضون باتجاه الشرق بين بحر القلزم من جهة وبين بحار الهند والصين من جهة ثانية . ويؤخذ على بحر القلزم أنه صعب ومنفر وخطر حتى انه لا يسلك في الليل . وطبعاً لا تخلو البحار الأخرى من الأهوال ، انما يعوض عنها ، خلافاً لبحر القلزم ، بالكنوز المتوفرة فيها في نهاية الرحلة : الجواهر ، ومعادن الذهب والفضة والرصاص القلعي والأخشاب النبيلة و « العود » ، والكافور والتوابل ، والقصور ، وثروات أخرى تكثر في الشرق الأقصى (١٤٧٤) .

مع ذلك ، يغلب تمييز آخر في معظم الأحيان ، يفرق بين المشرق إجمالاً وبين المغرب . ففي المشرق ، يلخص وصف البحر ، رغم شدائده ، بألفاظ المقدسي الآتية : « وهو أبرك البحرين وأحمدهما عاقبة » (١٤٧٥) . وكان المسعودي قد كتب (١٤٧٦)قبل المقدسي ما يلي : « البحر الحبشي . . . أعظم ما في المعمور من البحار وأجلها قدراً ، وأعظمها خطراً ، لاكتناف الممالك الجليلة اياه ، وما خص به من الجواهر النفيسة وانواع الطيب والعقاقير في قعره وجزائره وشطوطه». ويقول الجاحظ صاحب النفوذ : «فاما بحرنا هذا ، فقد طم على كل بحر وأوفى عليه ، لأن كل بحر لم يجعل الله فيه من الخيرات شيئاً إلا وجعله في بحرنا هذا » . بالمقابل سمعة بحر الروم سيئة ، ينازع الروم دار الاسلام عليه ، ولا تسيطر عليه ، ولا يعرف جيداً على الاقل في شماله. وهو بحر صعب هائج تسمع له أبداً جلبة خاصة ليالي الجمع (١٤٧٩) وهذه الأمور سهلة التعليل : فالله لما خلق بحر الشام ، أوحى إليه أني

خلقتك . وأني حامل فيك عباداً لي يبتغون من فضلي ، يسبحوني ويقدسوني . ويكبروني ، ويهللوني . فكيف أنت صانع بهم .؟ قال رب إذاً أغرقهم . قال اذهب ، فقد لعنتك ، وساقلّ حليتك وصيدك . وأوحى إلى بحر العراق مثل ذلك . فقال رب اذا احملهم على ظهري ، فاذا سبحوك سبحتك معهم ، واذا قدسوك قدستك معهم ، وإذا كبّروك كبّرتك معهم . قال اذهب. فقد باركت فيك ، سأكثر حليتك وصيدك » (١٤٨٠) .

تتحدث هذه النصوص بوضوح ، وتسمح لنا ان نستخلص نتائجنا فالمرء يتساءل طبعاً عن غائيّة البحر من خلال البحر ذاته . ولا يملك هنا مفاتيح العلم الذي يعرفه الله وحده ، كما كانت الحال في موضوع أصل البحار وطبيعتها . لكن هنالك ناحية ثابتة على الأقل : فالبحر من صنع الله والله سخر كل الخليقة للانسان ، أسمى مخلوقاته . بالتالي ، إذا لم يستنفد الانسان كل غائية العمل الالهي الذي خلق البحر ، فهو يدخل فيه على نطاق واسع . ومن هنا ينشأ التضاد بين نواقص معرفة البحر وبين الصفة الحاسمة للمعيار المخصص له : فسوف يحكم على البحر فقط من زاوية منفعة الانسان وسعادته ومصالحه . فلن يقال انه جميل وطيب ، ولن يحب ، إلا اذا كان ملائماً وأميناً ومفتوحاً لا على المجهول فقط ، بل على النقيض على أرض البشر ، وان أمكن يحيط بها ، وأخيراً إذا كانت غنية اما بحد ذاتها أو بالبلدان التي تسمح بالوصول إليها . وتتمثل اجمالاً جيداً جداً مع الاهتمامات البشرية حتى إنه يتخذ ، بالنسبة إلى دار الاسلام في القرون الوسطى ، شكل الشؤون اليومية أو حتى وجه التاريخ : في الشرق رحلة بحرية طويلة ، محفوفة بالمصاعب ، لكن تذهب إلى بلدان يظن أن وظيفتها تموين دار الاسلام (١٤٨١) ، وفي

الغرب ، على النقيض ، بحر الروم الذي يبدو ، منذ الخليقة . أول سوق يذكرها القرآن (١٤٨٢) ، قبل أن يؤيدها التاريخ ، وهي أن الخطر على دار الاسلام يأتي من الغرب .

الجزر ، « جغرافية مبهمة »

تحدثت في مكان آخر عن الجزر خارج دار الاسلام : أقصد جزر بحار الهند والصين ، والجزر الاسطورية أو شبه الاسطورية التي توضع على تخوم العالم ، من أوروبة الغربية والشمال حتى الشرق الأقصى (١٤٨٣) ونظراً لما يجري من مجابهات في بحر الروم ، تجعله ثغراً من ثغور دار الاسلام ، اضطررت أن أتكلم أيضاً عن جزر هذا البحر (١٤٨٤). فالجزر الداخلة في مملكة دار الاسلام هي البليار ، صقيلية ، جربة ومدها وجزرها ، ارواد (ارادوس) مقابل المدينة السورية انطرطوس ، جزر لاكال (مرسى الخرز) ومصايد المرجان فيها ، الجزائر (جزائر بني مرغناي) (١٤٨٥) ، الجزيرة الخضراء ، وأخيراً قادس مع منارتها التي يريد البعض أن يرى فيها مجـــاز هرقل . والجزر التي يمتلكها الغرباء هي : قرشقة ، سردينية ، رودس التي حولت إلى ترسانة بيزنطية ومنطلق الغارات البحرية التي تصل إلى مصر . وتصنف بين الفئتين السابقتين جزر يتنازع عليها ، وتفقد : اقريطش ، قبرس التي ظن أنها رتبت تسوية موقتة بين دار الاسلام وبيزنطية. أخيراً كل باقي الجزر التي لا يمكن تصنيفها أو تعرف معرفة سيئة : مثل سترومبولي وبركانها (١٤٨٦)، وفافينيانا ، وبنتلاريا (١٤٨٧) ومالطة التي استولت عليها دار الاسلام ، ويستغرب ان يعتبرها ابن حوقل قفراً تسرح فيه الحمير والغنم المتوحشة (١٤٨٨) .

ويبدو عرض معظم تلك الجزر سيء ، وكذلك معرفتها (١٤٨٩).
أما الجزر المنتشرة في البحر في الجانب الآخر من برزخ السويس ، فيرتادها البشر ، ويعرفون موقعها جيداً على وجه الاجمال . ويتضح من وصفها أنها تنتمي إلى دار الاسلام بالسلطة السياسية أو التجارة و الدين أو أصل السكان (١٤٩٠) . اذن ، اذا انطلقنا من السويس ، نرى أولاً جزراً على جانبي رأس سيناء (١٤٩١) ، ثم بعدها بكثير جزيرة السرين التي تمر فيها مروراً الحبوب والتمور والعسل (١٤٩٢) ، وجزيرة الصلاب (١٤٩٣) ، وفرسان وكمران الملائمة للبحريين الذين يستعذبون من إحدى عيونها لكن يشك بسمعتها : يستوفى فيها مكس على كل ما يمر فيها كما في السرين ، وثبتت سلطات اليمن وجودهـا فيها باشادتها حصناً وسجوناً بخاصة (١٤٩٤) .

وتقع بعض الجزر على ساحل البحر الآخر من جانب افريقية : وهي : جزائر بني حدان ، وكان بها مراكب لمن آثر الحج ، تخطف بالحجاج إلى الجار وجدة ، وهي اليوم سفاجة (١٤٩٥) . ثم جزيرة سنجلة وبها مغاص لؤلؤ ، ويقصد في كل حين بالزاد والرجال : وهي المكور بلا شك (١٤٩٦) . ثم جزر سواكن الثلاث ، التي يسكنها تجار الفرس وقوم من ربيعة (١٤٩٧) . ثم باضع (مصوع) وتلك ، أو هذه الجزائر الغنية بالماشية وتجارة جلود الدباغ (١٤٩٨) . وبعد باب المندب، تأتي زيلع ، مركز مرور كالجزر السابقة ، وتجارة جلود الدباغ والعنبر والصدف أيضاً (١٤٩٩) ، ثم جزيرة نجه المجهولة (١٥٠٠) تماماً، وبخاصة سقطرة التي تنتمي إلى عالم المحيط الرهيب كما قلنا(١٥٠١).

وفي شرق جزيرة العرب ، متى خلفنا عبادان (١٥٠٢) ، نجد أولاً خارك بزرعها وكرمتها ونخلها ، وخاصة مغاصات اللؤلؤ فيها ، ويسمى

لؤلؤها الخاركي،ثم تأتي لاوان (شيخ شعيب) وابرون . (هندرابي) (١٥٠٣) من جهة فارس ومن جهة جزيرة العرب، الجزر الواقعة حول قطر واوال ، التي تتمثل بارخبيل البحرين . ثم من جديد لفارس ، جزيرة كيس (كيش . قيس) التي تشبه خارك ، والجزيرة الصغيرة خين (فرور) (١٥٠٤) وليست مأهولة ، والجزيرة الكبيرة ابن كاوال (ابر كافان ، لافت ، فشم اليوم) ، المزدحمة بالسكان . الخوارج ، وفيها جامع كبير (١٥٠٥) ، وبقربها جزر هرموز (ارموز) (١٥٠٦) ، وهنجام (هنكم) ومنها يستعذب ارباب المراكب .

أخيراً ، تجري رحلة قصيرة على بحر الخزر (١٥٠٧) . وقد أشرنا من قبل إلى جزيرة واقعة تجاه مصب الرس(اراكس) والكرمجتمعين : والواقع أن مشهدها يشبه مشهد شاطىء النهرين ، اذ إن الفوة ترتفع على شطها وعلى ضفاف النهرين (١٥٠٨) . مع ذلك ، هذه الجزيرة غير مأهولة ، ويخرج اليها منتجعة لاثارة الفوة ، ولاستعادة الدواب التي تسمن فيها لكثرة كلأها . وفيها وفي غيرها من جزر بحر الخزر مياه وأشجار (١٥٠٩) ، لكن لا عمارة فيها ، مما يؤيد الانطباع العام الناشىء عن وصف بحر الخزر : هو بحر وحش ، ويركب فيه، لكن بلا سرور فهو بحر لا يجتذب الحياة لا إلى مياهه ولا إلى جزره (١٥١٠) ، التي تتحفظ دار الاسلام بشأنها ، مثلما يلمع اليه ابن حوقل . والرمز التام هو حقاً في جزيرة أيضاً ، نعني البركان الذي يجعله المسعودي يثور في بعض أوقات السنة ، ويرتفع لهبه إلى علو شاهق حتى إنه ينور البحر على طول ستماية كيلومتر (١٥١١) .

ويمثل اجتماع الجزيرة والبركان والأرض والماء والنار (١٥١٢)حالة قصوى من « الجغرافية المبهمة » . وذكرت في مكان آخر (١٥١٣)هذه

الأسطر الموضحة كثيراً ، المأخوذة من ج . وغرون ول . مارين : « تقع ، بين الاقيانوس الذي يعتبر حد المجهول وما لا يمكن عبوره ، وبين البر الذي يمثل المعروف والحضارة هذه الجزر التي تشترك بصفات الاثنين ، جغرافياً وسيكولوجياً ، وربما غيبياً . فهي واقعة نوعاً ما على حدود العالم ، لا خارجه ولا ضمنه ، على شريط يدرك بين الداخل والخارج ، أشبه بهدب العالم ، على هذا الخط الذي لا سماكة له ولم يعد فيه العالم عالماً ، ويبدأ يصير عالماً : فالجزيرة تدل على الحد والفارق » .

مع ذلك ، تصح هذه الاشارة بخاصة في حالة جزر طرق العالم أو الباحة فما هو وضع الجزيرة المألوفة ، قرب السواحل ، أو المسكونة ، المزدحمة بالسكان والعامرة ؟ قد يخطر للانسان لأول وهلة أن الجزر تشكل أحد العناوين العادية في العالم المعروف ، وتبحثها على هذا النحو كرتوغرافية صورة الأرض التي توزعها على شتى البحار ، مثلما تفعل على البر بالأنهار أو المدن أو الجبال (١٥١٤) . لكن سرعان ما تتدخل أسس أخرى . فأولاً يثبت الحرص على وصل الجزيرة ، متى أمكن ، بالبر القريب منها نوعاً ما ، حقوق الأرض ، ويعيد وضع الجزيرة ، أي جزيرة ، في حالة مزدوجة : انما يستحيل أن ينازع تماماً البحر الذي تقع فيه الجزيرة ، لكن قد يراد اذا جاز القول ، منعها من الجري على غير هدى ، ومنافسة البحر عليها ، واجتذابها إلى البر ، لكي تتوازن القوتان المتناقضتان : الأرض والماء (١٥١٥) .

وتعود ترددات أخرى إلى المصطلحات ، وترتبط بلفظ « الجزيرة » ذاته ، اذ يعتبر ، مثلما قلنا ، كل بلد يعزله البحر أو مجرى ماء أو صحراء (١٥١٦) عن سائر البرور جزئياً أو كلياً . اذن . لا فرق بالمعنى

الصحيح بين الاندلس وصقلية وجزيرة العرب والجزيرة (١٥١٧) . واذا أريد التدقيق ، يقال الجزيرة في البحر . كما في حالة صقيلية (١٥١٨). وأصلاً، قد يتسهل هذا النوع من الترددات في بعض الحالات، باتساع البلاد ذاته ، كما لو كان الفعل البشري يتردد في إعطاء لفظ جزيرة معناه الكامل متى واجه مساحة معينة . فنحن لا نزال اليوم نشعر بالحاجة إلى وصف مدغشقر بالجزيرة الكبيرة ، ونتحدث عن استرالية بقولنا قارة، ونمتنع بتاتاً عن اللجوء إلى مفهوم الجزيرة عندما نشير إلى أكبر جزر العالم أي بالضبط ما نسميه بالقارات .

اذن « جغرافية مبهمة » بالنسبة إلى جميع الجزر . هذا ما يستشف من الوصف ، الذي يشير هنا إلى جزر غير مسكونة ، وهناك على النقيض إلى جزر مسكونة ومغمورة (١٥١٩) . قد يقال تارة جزر بلا تضاريس، وطوراً جزر تعتبر جبالاً برزت من المياه (١٥٢٠) . قلنا في حديثنا عن البحيرة (١٥٢١) مشهد متضاد . نضيف : بالنسبة إلى الجزيرة أيضاً ، فالبحيرة والجزيرة يبديان في النهاية وجهين من حقيقة واحدة ، يحددها الانتماء المزدوج إلى الأرض والماء . فالبحيرة ماء موضوع في الأرض، والجزيرة أرض موضوعة في الماء . ليكن . إنما لا يقف الأمر عند هذا الحد . فعلى جانبي وضع متوسط ، وضع الافق المنبسط ، يمكن أن تتطور البحيرة واطارها نحو مشهد مقعر ، مشهد منخفض محاط بالجبال . على العكس ، تتطور البحيرة نحو مشهد نفي الاعالي ، أي مشهد جبل يشرف على المياه المجاورة . ثم كما هي الحالة بالنسبة إلى البحيرة ، لتصبح بحيرة ، لابد لها أن تغطي مساحة كافية ، وإلا استحال وجودها . لكنها ليست مساحة مفرطة الاتساع ، وإلا تحولت

إلى بحر ، مثلما يحصل للجزيرة التي تنحصر بين هذا الحد الأدنى الذي يبرزها وبين المساحة الشاسعة جداً التي تحولها إلى قارة .

نعلم أن الخليقة ترتكز على نطاق واسع على ما اراده الله من توازن بين البر والماء . لكن نعلم أن هذا التوازن مرحلة انتقالية ، بين الفوضى الاصلية ، والاضطراب النهائي عند الحشر حيث يتخرب كل شيء ليحل محله نظام جديد أزلي فالتوازن الذي يسمح للجنس البشري ان يعيش المدة الزمنية المقدرة له ، لم يختتم ولم يقض نهائياً على النزاع بين البر والماء . فالنزاع متوقف فقط . ويبقى تحت الرماد ، في الحدود التي وضعها الله فيه . ويظل كل عنصر يبدي بأسه . الأرض بالاندفاعات البركانية أو الزلازل ، والماء بالعواصف أو المد والجزر . أما في الوقت الحاضر . فعلى جانبي هذه الشواطىء . يتناوب الانتصار والانكسار ، والتراجع والاجتياح ، وفي النهاية ، لا يتنازل لا البر ولا البحر عن شيء ، ويحتفظ كل منهما بنطاقه . مع ذلك سيأتي يوم يندفع فيه الماء والأرض ضد بعضهما . وسوف يؤدي نزاعهما بدعائم العالم . وتمثل الجزيرة والبحيرة التوازن الحالي في رمزيتهما الساكنة وفي مساحتهما المحدودة . لكن حتى في الابهام . تمثل الأرض التي تتحدى الماء أحياناً حتى في لججه . والماء الذي يقطع اواصر الاستمرار لاتصال البرور ، مقدمتين ، بالقدر ذاته ، البلبلات الرهيبة التي سوف يزول فيها عالمنا وزمننا .

* * *

حواشي القسم الأول

حواشي الفصل الأول

(١) يعتبر الماء أحياناً العنصر الأول ، في القرآن (انظر ٢٥ ، ٥٦ / ٥٤) وفي العلم المعاصر .

انظر مايلي مطلع الفصل الثاني .

(٢) القرآن — ١٦ — ١٥ — ٢١ ، ٣١ — ٣١ ، ١٠ — ٢٧ ، ٦١ — ٤١ ، ٩، ٧٨ ، ٦ ، ٧ .

(٣) انظر المقدسي — ص ١

(٤) الخوارزمي (ص) ، ص ٣٩ وما يليها .

(٥) حدود العالم ص ٦٠ — ٦١ . حول احتمال تأثير ابن خرداذبه (في حدود العالم وفي ابن حوقل الذي سوف نتعرض له فيما بعد) ، انظر دي خويه ، ابن خرداذبه ص ١٦ روماني (استشهاد المسعودي ، مروج الذهب : فقرة ٥٠٣) .

(٦) انظر جغرافية دار الا سلا م البشرية ، ج٢ ، ص ٢٠٩

(٧) البلدان المتاخمة لبحر قزوين ، في زاويته الجنوبية الغربية .

(٨) حدود العالم ، ص ٦٥

(٩) انظر جغرافية دار الاسلام البشرية ، ج٢ ، ص ١٠ وما يليها .

(١٠) حدود العالم ، ص ٦٠ — ٦٩ (و ١٩٣ — ٢٠٥) .

(١١) بحث الموضوع ، بحد ذاته ، في جغرافية دار الاسلام البشرية ، ج٢ ، بالنسبة الى الأرض بمجملها ، وبالنسبة الى البلدان الغربية : انظر الاحالات في المرجع ذاته ، الفهرس ، ص ٦٠٦

(١٢) على وجه الأرض : ابن حوقل ، ص ١٦٨ . أخذت الصورة الاجمالية التالية من ابن حوقل ، ص ١٦٨، اخذت الصورة الاجمالية التالية من ابن حوقل ، ص ١٦٨ — ١٧٠ ، ص ٣٤٦ — ٣٤٧ ، ص ٤٨٨ . اكرر هنا ، والح على شكل السلسلة: ما ورد في جغرافية دار الاسلام البشرية ، ج٢ ، ص ١٣٤ — ١٣٥ . يعثر على معطيات أخرى، جزئية ، لا سيما عند ابن خرداذبه ، ص ١٧٢ — ١٧٣ ، وترجمة ، ص ١٩ ، ص ١٣٤ (حاشية ٢) ، اليعقوبي ص ٣٢٦ — ٣٢٧ ، ابن الفقيه ، ص ٢٥ ، ٢٩ ، ١١٢ ، ٣٠٥ ، والمسعودي (م) ، فقرة ٥٠٣ ، حدود العالم ، ص ٨١ .

(١٣) حول هذا الجبل ، انظر جغرافية دار الاسلامية البشرية ، ج٢ ، ص ١٣٦

(١٤) انظر حدود العالم ، ص ٦٠ — ٦٩ ، وأماكن متفرقة بالنسبة الى ابن حوقل ، نحيل الى ماقلناه عن جبال ارمينية أو الا مانوس . وتظهر فكرة الشبكة ؟ ؟ في الحديث عن جبال تهامة في جزيرة العرب : جبال مشتبكة (ابن حوقل ، ٣٦) .

(١٥) ابن حوقل ، ص ٣٤٧ . يمكن مقارنة هذه « الشجرة الجبلية = التشعب » الناشئة عن الماء الكوني (المحيط : انظر حدود العالم ، ص ٦١ ، فقرة ١) ، بمعنى حركة الشمس (من الشرق الى الغرب) ببعض تصورات النشوء الكوني الهندية ، مثل تصورات اعمدة ازوكا .

(١٦) انظر ابن حوقل ، ص ١٥٨ ، مع تصحيح جزئي لترجمة وابت

(١٧) ابن حوقل ، ص ٣٦

(١٨) ابن حوقل ، ص ١٧٠

(١٩) يستعمل ابن حوقل (ص ٣٥) لفظ عرق في تقديمه صورة شاملة عن رمال الأرض . ويستخدم لفظ العرق أيضاً ليدل على سلسلة جبلية صغيرة تضرب من برقة الى فزان . الا اننا هنا في أرض رمال (ابن حوقل ، ص ٧٠) ، تشبه بطبيعتها ، في الغرب ، رمل نفزاوه، الذي يحول مثلما قلنا ، الجبل الى رمل . لا شك ان دقة مفهوم العرق تقل عن دقة مفهوم الفرع في وصف الجبال . مع ذلك ، تقسم الرمال والجبال ، مثلما سوف نرى ، تقسيماً جيداً الى عروق رئيسة والى فروع .

(٢٠) ابن حوقل ، ص ٣٥ ، ٣٦ ، ١٥٦ — ١٥٨ .

(٢١) ابن حوقل ، ص ٢٦

(٢٢) « على ما وصفته وسقته » : حرفيا وأنا ادفعه أمامي ، كما تدفع القطعان أو الدواب .

(٢٣) ابن حوقل ، ص ١٧٠

(٢٤) ابن حوقل ، ص ٣٩

(٢٥) ابن حوقل ، ص ١٦٩

(٢٦) المسعودي (م) ، فقرة ٣٦٢ .

(٢٧) انظر مثلا المقدسي ، ص ٩ ، الذي تشير خرائطه الى الطرق (بالأحمر) ، والى الأنهار (بالأزرق) ، والىالبحار (بالأخضر) ، وإلىالجبال (بالرمادي) والى الرمال (بالأصفر) .

(٢٨) حدود العالم ، ص ٧٩ — ٨٢

(٢٩) انظر في الريغفيدا ، أول هزيمة للمياه تمت بشكل رابية من الأرض ، اعتبرت التل الأصلي ومنشأ الكون . يقول ابن رسته ، ص ٢٦ ، في حديثه عن مكة · لما غرقت الأرض، رفع البيت ، فكان مكانه ربوة حمراء معروف مكانها .

(٣٠) حول هذه المواضيع ، انظر ابن الفقيه ، ص ١٩ — ٢٠ ، ٢٥ ، ابن رسته ، ص ٢٤ — ٢٦ ، المقدسي ، ص ١٣٦ — ١٣٧ ، أ . ج . ونسنك و هـ . أ . ر . جيب « عرف » في م١(٢) ، ج١ ، ص ٦٢٤ .

(٣١) ابن خرداذبه ، ص ١٧٢ — ١٧٣ ، ابن الفقيه ، ص ٢٥ .

(٣٢) انظر جغرافية دار الاسلام البشرية ، ج٢ ، ص ٥٢٨ — ٥٣٠ . يشير المقدسي ، ص ١٠٣ الى جبل العرج المقدس ، ويقول ان جبريل شق فيه للنبي وقت هجرته طريقا إلى المدينة .

(٣٣) نود ان نتحاشى اثقال النص بالحواشي ، فنكتفي هنا بالا شارة الى بعض الا حالا ت إلى مصنفين ابحاثهم أقرب الى الابحاث الموسوعية ، ثم نبرز بمزيد من التفصيل هذه المرة مصنفي المسالك والممالك : ابن حوقل (يوسع الاصطخري الذي نمتنع عن ذكره) والمقدسي . لذلك نحيل الى ابن خرداذبه ، ص ١٧٢ — ١٧٣ ، ابن الفقية ، ص ٢٥ — ١٣١ — ١٣٢ ، أبو دلف مسعر (ب) ، ص ١٨ ، المسعودي (م) ، فقرة ٢٠٤ — ٢٠٦ ، ٣٦٢ ، ٥٣٧ — ٥٣٨ ، ١١١٥— ١١١٦ — المسعودي (ت) ، ص ٧٤ ، ١٢٣ — ١٢٤ ، ١٩٨ ، حدود العالم ، ٦٠ — ٦٩ ، ابن حوقل ، ٢٣ ، ٢٨ — ٣٠ ،

٣٢ ، ٣٧ ، ٤٠ ، ٤١ ، ٤٦ ، ٤٩ ، ٦٦ ، ٦٩ ، ٧٦ ، ٨١ ، ٨٤ — ٨٧ ، ٨٩ ،
٩٠ ، ٩٢ ، ٩٤ — ٩٥ ، ١٠٢ ، ١١١ ، ١١٨ — ١٤٥ ، ١٥٠ ، ١٦٨ — ١٧٠ ،
١٧٣ ، ١٨٣ ، ١٩٠ — ٢٠١ ، ٢٢٥ ، ٢٢٩ ، ٢٢٩ ، ٣٠٩ ، ٣٤٦ — ٣٤٧ ،
٣٤٩ ، ٣٧٠ — ٣٧١ ، ٤٤٥ ، ٤٧٤ ، ٤٨٨ ، ٥٠٦ ، ٥٠٧ ، المقدسي ، ٧٦ —
٧٩ — ٨٢ ، ٨٦ ، ٨٧ ؟ ٩٣ ، ٩٥ ، ١٢٣ ، ١٣٩ — ١٤١ ، ١٦٠ (وحاشية هـ) —
١٦٢ ، ١٧٢ ، ١٧٤ ، ١٧٨ (وحاشية ب) — ١٨٤ ، ١٨٦ ، ١٨٨ ، ١٩١ ،
٢١٢ ، ٢٢٤ ، ٢٢٦ — ٢٢٧ (وحاشية آ) ، ٢٢٩ — ٢٣٠ ، ٢٣٣ — ٢٣٥ ، ٢٤١ ،
٢٥٤ ، ٢٧٢ - ٢٧٥ ، ٢٨٧ ، ٢٨٣ — ٢٨٤ ، ٢٨٨ ، ٢٩٠ ، ٢٩١ ، ٢٩٨ ،
٣٠١ (وحاشية ب) — ٣٠٢ (وحاشية د) ، ٣٠٣ — ٣٠٤ ، ٣٠٦ — ٣٠٩ ، ٣١١ ،
٣١٥ — ٣١٩ (حاشية ومن ٣١٨ وحاشية جـ) ، ٣٢٢ (حاشية ط من ٣٢١) ، ٣٢٦
(وحاشية ط) ، ٣٣٣ ، ٣٥٠ ، ٣٥٣ — ٣٥٥ ، ٣٥٨ ، ٣٧٣ ، ٣٧٥ — ٣٧٦ ،
٣٨٠ — ٣٨١ ، ٣٩٢ (حاشية آ) ٣٩٤ ، ٣٩٧ ، ٣٩٨ ، ٤٠١ ، ٤٠٧ ، ٤١٠ ،
٤١٤ ، ٤٢٠ ، ٤٢٤ ، ٤٢٧ ، ٤٢٨ ، ٤٣٠ (وحاشية ك) ، ٤٣١ (حاشية ب) ،
٤٣٢ ، ٤٣٧ ، ٤٣٩ ، ٤٤٤ — ٤٤٧ ، ٤٥٩ ، ٤٦١ (حاشية ق) ٤٦٢ ، ٤٦٥ ،
٤٦٨ ، ٤٧٠ — ٤٧١ (وحاشية ا) ، ٤٧٩ ، ٤٨٠ ، ٤٨٤ — ٤٨٧ — ٤٨٨ ، ٤٩٠ .

(٣٤) انظر حاشية ٢٧

(٣٥) يعلن هو عن ١٥٨ . انظر الخوارزمي (ع) ، ص ٣٩ وما يليها ، ابن سرابيون ، ص ٢٨ (ب) وما يليها ، اخوان الصفا ، ١ ، ص ١٦٤ ، قدامة ، ص ٢٣٢ ، م ٦٢ — ٦٣ .

(٣٦) انظر جغرافية دار الاسلام البشرية ، ج٢ — ص ٦٥ ، شكل ١٥

(٣٧) ابن الفقيه ، ص ١٩ — ٢٠ .

(٣٨) حول هذا الحافظ ، انظر ش . بيلا ، م١ (٢) ، ج٤ ، ٧٧٨ .

(٣٩) يقع لبنان على منعطف النصرانية (بعباده كما سيأتي فيما بعد) والتقليد التوراتي .

(٤٠) انظر ياقوت ، معجم البلدان ، بيروت ١٣٧٤—١٣٧٦ هـ / ١٩٥٥— ١٩٥٧ م — ج٢ — ص ٧٣ ، الهروي ، كتاب الزيارات ، ترجمة ،دمشق ١٩٥٧ ، ص ٢٠٢ (وحاشية ٧)

(٤١) ابن الفقيه ، ص ٢٥ ، كرره المقدسي جزئيا ، ص ١٣٧ . انظر أيضاً المقدسي ، ص ٨٢

(٤٢) ابن الفقيه ، ص ٢٠ . حول مجاهد ، انظر المراجع عند ه . لا ووست ، ابن بطه ، الا بانة بيروت — دمشق ، ١٩٥٨ ، ص ٢٤ ، حاشية ٢ .

(٤٣) المقدسي ، ص ١٣٦ — ١٣٧ ، حسب اسناد يرجع الى اسرة كثير بن عبدالله (حول هذا الحافظ ، انظر ابن حجر العسقلاني ، تهذيب التهذيب ، حيدر اباد — بيروت ، ١٩٦٨ ، ج٨ ، ص ٤٢١ — ٤٢٢ .

(٤٤) انظر ياقوت ، معجم البلدان ، ج ٥ ، ص ٥٨ — ٥٩

(٤٥) المسعودي (ت) ، ص ١٩٨ ، ٢٦٨

(٤٦) يبقى جبل جرزيم ، واسمه جبل الطور أيضاً ، قرب نابلس ، وطور عبدين ، في الجزيرة . ولا يذكر المسعودي الا هذا الأخير (مسعودي — ت، ص ٨١) . انظر ١ . هونغمان و م . ستريك ، م١ ، ج٤ ، ٩١٣ — ٩١٤ و ٩١٥ — ٩٢٢

(٤٧) قلنا : قيل في التنبيه ان معظم أخبارنا مستقاة من نصوص المسالك والممالك بالدرجة الاولى ، لأنها وحدها تستهدف وصف دار الاسلام وصفا كاملا منهجيا . هذا لا يعني أننا استغنينا هنا أو في غير هذا المكان عن قراءة النصوص الأخرى ، التي لا تحوي ، كما يخطر ببال القارىء سوى تدوينات إفرادية وطارئة ، قد تتمم في بعض الأحيان تدوينات كتب المسالك ، لكنها لم تقدم مثلها نظرة شاملة عن مملكة الاسلام . أما الموسوعيون ، وفي طليعتهم المسعودي ، فلن نحيل الا الى القسم العائد الى الجغرافية من أعمالهم ، حتى لو فهمت الجغرافية في أوسع معانيها ، ونستبعد القسم التاريخي (مع انه القسم الأعظم) .

(٤٨) حدود العالم ، ص ٦٣ — ٦٤ (و ١٩٨ — ١٩٩) . وما يلي الحاشية ٢٠٠

(٤٩) الاصطخري ، ص ٩٨ — ١٠٠ ، وابن حوقل ، ص ٣٠٩ ، ٣١٠ ، ٣١٤ ، والمقدسي - ص ٤٦٥ (جبل كود) ، ٤٦٨ ، ٤٧٠ — ٤٧١ ، حدود العالم ، ص ٦٥ ، ١٢٤ (و ٢٠١ ، ٣٧٣ — ٣٧٥) ، مع ذكر جبل آخر اسمه قوهستان أبي غانم ، ويدل على الأصح على رستاق أو مدينة : انظر الاصطخري ، ص ٩٧ — ٩٨ ، ابن حوقل ص ٣٠٩ ، المقدسي ، ص ٤٦٧ .

(٥٠) ابن حوقل ، ص ٣٧٠ ، يتوسع بالاصطخري ، ص ١١٩ . انظر أيضاً المقدسي ص ٣٥٣ — ٣٨٤ — حدود العالم ، آخر ص ٦٥ .

(٥١) الاصطخري : ١١٩ — ١٢٠ ، ابن حوقل : ٣٥٩ ، ٣٧١ — ٣٧٢ — المقدسي :

٣٩٨ - ٣٩٩ (الذي يسمى بلا ايضاح اضافي ، ص ٣٩٧ ، أحد جبال فارس قرب أصبهان : جبل الكحل) ، حدود العالم : يذكر هذا الكتاب جبل دنباوند ، (ص ١٣٥) فيه أيضاً تدوينات نادرة متفرقة عن وجود جبال (ص ١٣٢) ، ويشير (ص ٦٦) الى ان فروع الجبال الآخذة من فارس تحمل اسم كوه - جيلو ، قرب أصبهان . ويسمى المسعودي (ت) ، ٧٤ ، (انظر ب ا شوارتز ، فارس . . . = مذكور بعد فارس - لا يبزيغ - ١٨٩٦ - ١٩٢٩ ، ج٤ - ص ١٤٥٣ جبل كبر الذي يشرف على مدينة ماسبذان . أخيرا ، يشير ابن الفقيه ، ٢٥٩ ، الى جبل ايزا ، قرب نهوند .

(٥٢) يضع الاصطخري وابن حوقل والمقدسي جبال الخرمية في اقليم الجبال ، مثلما يلاحظ ، في حين يقع قلب بلد بابك في اقليم آخر (الران - اذربيجان) ، وهذا ما يقوله اصلا ابن حوقل، ص ٣٧١.ويمكن ان نزيل هذا التضارب اذا فكرنا بنواحي أخرى من اقليم الجبال ، فيها خرمية (انظر ج . وايت ، الحرائر الفارسية ، القاهرة - ١٩٤٨ ، ص ١٣٦) حسبما يقول المسعودي مثلا (المسعودي (ت) ، ٤٥٣) . الا أن ذكرى بابك التي يشير اليها صراحة الاصطخري وابن حوقل لا تجيز هذا التأويل . ولا يسعنا، فيما يبدو ، لازالة التناقض ، الا أن نفكر في الأرجاء الجبلية الواقعة في شمال غرب أقليم الجبال المتاخم لاذربيجان . ويشير المسعودي ، فقرة ٥٠٦ الى جبل ابي موسى الواقع فيما يظن في النطاق الخرمي .

(٥٣) لا يرد جبل اروند (الوند) باسمه صراحة في الفقرة التي تهمنا الا عند ابن الفقيه ، الذي يشيد به لأنه من مواليد همذان (ابن الفقيه ، ص ٢٢٠ ، ٢٢٤ - ٢٢٥ ، ٢٣٧ ، ٢٤٠ ، ٢٤٢ ، ٢٤٤) . ويلمح اليه ابن حوقل ، ٣٧٢ والمقدسي ، ٣٩٣ (ويذكر ابن خرداذبه رستاق اروند في عداد رساتيق أصبهان ، ٢١ ، الا ان الأسم غامض عنده : انظر حاشية آ عند الناشر) . بشأن اروند،انظر م . سترك و د . ن . ولبر ، في م١(٢)- ج١ ، ٤٣٨ ، و ج . لوسترانج ، أراضي الخلافة الشرقية - مشار اليه فيما بعد الخلافة الشرقية ، كمبريدج - ١٩٠٥ ، ص ١٩٥ - ١٩٦ .

(٥٤) انظر ر . بلانشار - في ب . فيدال دي لا بلاش و ل . غالوا ، الجغرافية العالمية- ج٨ ، آسية الغربية - باريس ، ١٩٢٩ ، ص ١٣٠ .

(٥٥) الاصطخري وابن حوقل يكرران الوصف ويتوسعان فيه في بحث أقليم الديلم : الاصطخري ، ١٢٣ ، وابن حوقل ، ٣٨٠ - أخذت عنهما بعض صفات عرضي .

(٥٦) المسعودي (م) فقرة ٢٠٤ — ٢٠٥ ، المسعودي (ت) ، ٧٤ ، ابن الفقيه ، ٢٧٧ ، ٢٧٩ ، مسعر (ث) ، ٣٣ — ٣٤ ، حدود العالم ، ١٣٥ و (٣٧٥) .

(٥٧) يعلن أبو دلف مسعر وابن حوقل (مرتين) انه يمكن النقاش في مسألة امكانية الصعود .

(٥٨) الاصطخري ، ٦٧ ، حدود العالم ، ٦٥ — ٦٦ ، ١٢٦ ، ابن حوقل ، ٢٦٣ — ٢٦٤ . المقدسي ، ٤٣٩ . لا يجوز ان ينخدع المرء بلائحة أسماء الجبال التي تأتي منها الأنهار ، والواردة في تعداد ابن حوقل ، ٢٧٥ ، ففيها اسم علم واحد ، حو جبل دينار (وليس ديناك : ابن حوقل ، ترجمة ، ص ٢٧١ ، انظر شوارتز ، فارس ، ج١ ، ص ٤) . تنطبق الملاحظة ذاتها على جبل جم ، اسم احدى المدن ، مهما قال الاصطخري ، ٧٨ ، وابن حوقل ، ٢٨١ (اللذان يناقضهما الاصطخري ، ٧٠ ، وحوقل ، ٢٦٧) انظر شوارتز ، مشار اليه من قبل ، ج ، آخر ص ٣ . ويجوز أن يكون جبل الطين (الاصطخري ، ٧٣ ، ابن حوقل ، ٢٧٢ ، ترجمة ، ص ٢٦٩) « جبل طين » (انظر مع ذلك شوارتز ، مشار اليه ، ج٢ ، ٩٢) .

(٥٩) يعني لفظ طبر « جبلا » في اللهجة المحلية : انظر لوسترانج ، الخلافة الشرقية ، ٣٦٩ .

(٦٠) غمضت علي تسمية جبل بنقشله ، الذي يذكره المقدسي ، ٢٥٥ ، ويدخل في كورة الخزر الغريبة المربوط وصفها كيفيا عنده بوصف أقليم الديلم . بشأن المواضيع المشروحة هنا ، انظر ابن الفقيه ، ٣٠٥ — ٣٠٦ ، الاصطخري ، ١٢١ — ١٢٥ ، ابن حوقل ، ٣٧١ ، ٣٧٥ ، ٣٧٦ — ٣٧٧ ، ٣٨١ — ٣٨٣ ، المقدسي ، ٣٥٣ — ٣٥٥ ، ٣٥٨ ، ٣٧٣ ، حدود العالم ، ٦٤ — ٦٥ ، ١٣٤ — ١٣٦ (و ١٩٩ — ٢٠٠) ، لوسترانج ، مشار اليه من قبل ، ٣٧٢ — ٣٧٣ (يذكر المسعودي (ت) ، ٧٤ ، جبال مورجان (حول موقع هذه القرية ، انظر ابن حوقل ، ٣٨٤) .

(٦١) المقدسي ، ٤١٤ ، الذي يذكر أيضاً بعض الجبال (٤١٠ ، ٤١٤) . انظر أيضاً حدود العالم ، ١٣ .

(٦٢) ابن حوقل ، ٢٤٦ ، المقدسي ، ١٢٣ ، ١٢٦ .

(٦٣) انظر الخريطة ، رقم ١٩ ، ابن حوقل ، ترجمة وايت ، ص ٣٩٢ .

(٦٤) المقدسي ، ٤٩٠

(٦٥) الاصطخري ، ١٣٣ ، ابن حوقل ، ٤٠٢ ، المقدسي ، ٤٩٠ (ح ، ب) . حدود العالم ، ٢٢٢ . ويذكر أيضاً في هذه المفازة جبل يشك باسمه (بجنوبه ، بختويه) : الاصطخري ، ١٣٧ (و ح ، ٣) ، ابن حوقل ، اخر ص ٤٠٧ .

(٦٦) انظر مثلا اليعقوبي ، ٢٨٩ . أحيل هنا اجمالا الى ابن حوقل ، ٤٢٦ – ٥٢٥ (خاصة ٤٤٨ : يتألف ختل كله من جبال) . المقدسي ، ٢٦٠ – ٣٥٢ . هنالك وجهة نظر مختصرة لكنها مقنعة في حدود العالم ، ١٠٢ – ١١٧ ، ١١٩ – ١٢١ . لم أدخل في تعداد الجبال المعينة بأسمائها ، جغير – اغز ، وهو بلد تناولته في حديثي عن الأتراك في جغرافية دار الاسلام البشرية ، ج٢ . انظر مايلي ، الحاشية ٢٨٧ .

(٦٧) انظر ابن حوقل ، ٤٣١ ، ٤٣٤ ، ٤٤٠ ، ٤٤٥ ، ٤٤٧ ، ٤٤٨ ، وأماكن أخرى . المقدسي ٢٨٠ ، ٢٨٨ – ٢٨٩ ، ٣٠٢ ، ٣٠٤ ، ٣٠٥ ، ٣٠٧ – ٣٠٨، وأماكن أخرى .

(٦٨) انظر حدود العالم ، ١٠٤ (خوجستان) ، ١٠٦ (سارفان) ، ١٠٨ (طخارستان) ١١٥ (بتم ، بتمان) ، المرجع ذاته (فرغانة) ، ١١٩ (ختل ، ١٢٠ (رشت ؟) .

(٦٩) المقدسي ، ٣٠٩ . حدود العالم ، ١٠٥

(٧٠) الاصطخري ، ١٤٣ ، ابن حوقل ، ٤٢١ ، المقدسي ، ٣٥٠

(٧١) ابن حوقل ، ٥٠٩

(٧٢) الاصطخري ، ١٥٥ (لم ينقل ابن حوقل الأسم ، ٤٤٧) .

(٧٣) الاصطخري ، ١٧٨ ، ابن حوقل ، ٤٩٥

(٧٤) الاصطخري ، ١٨٠ ، ١٨٤ ، ابن حوقل ، ١٦٨ ، ٤٧٥ ، ٤٨٦ ، ٤٨٨ ، ٤٩٥ ، ٤٩٧ ، ٤٩٨ – ٤٩٩ ، ٥٠١ ، ٥٠٥ – ٥٠٦ ، ٥١٥ ، حدود العالم ، ١١٥ ، يجعل من بتم ناحية جبلية أصلا . بشأن بتم انظر و . برتولد ، التركستان حتى الغزو المغولي (مستشهد به فيما بعد : تركستان) ، لندن ، ١٩٦٨ ، ص ٨٢ . اقتصر في بحث هذه النواحي على الرجوع الى جغرافي المسالك والممالك، والى كتاب حدود العالم، فعندهم وصف منهجي . أما الباقون فعلى الهامش أو يتحدثون عرضا : انظر مثلا المسعودي (ت) ، ٧٤ ، بخصوص جبل قرب نيسابور .

(٧٥) انظر م . لومبار ، المعادن في العالم القديم من القرن الخامس حتى القرن الحادي عشر ، باريس — لا هاي ، ١٩٧٤ ، ص ٤٣ ، ٢٣٨ .

(٧٦) الاصطخري ، ١٥٢ ، ابن حوقل ، ٤٤٠ — ٤٤١ ، المقدسي ، ٢٩٨ ، ٣٠٨

(٧٧) المقدسي ، ٢٧٥ (س ٩ — ١١) ، ٤٢٦ (س ٨ بشأن شلجي بكسر أو فتح الشين ، المذكورة من قبل ، ص ٢٧٥ ، س ٧ — ٩ ، لكن كمدينة دون الاشارة الى الفضة) .

(٧٨) الاصطخري ، ١٥٥ ، ١٥٦ ، ١٦٠ ، ١٦٢ ، ابن حوقل ، ٤٤٥ ، ٤٤٧ ، ٤٤٨ ، ٤٤٩ ، ٤٥٧ ، ٤٦٥ ، حدود العالم ، ١٠٩ ، المقدسي ، ٣٠٣ ، ٣٢٩ ، الوحيد الذي يسمي بنجهير جبل فضة . بشأن بنجهير ، انظر لوسترانج ، الخلافة الشرقية ، ص ٣٥٠ .

(٧٩) حدود العالم ، ٦٣ — ٦٥ ، ١٠٢ — ١٢٢ . الأسم اسم قسك ، ٦٣ (١٩٩) .

(٨٠) انظر جغرافية دار الا سلام البشرية ، ج٢ ، ٢٥٩ — ٢٧٢ .

(٨١) ابن حوقل ، ١٦٩ (انظر م . كانار ، تاريخ سلا لة الحمدانيين في الجزيرة وفي سورية ، الجزائر ١٩٥١ ، ص ١٢٨) ، يضيف امتدادا يعبر نهر دجلة : جبل الشقوق ، الذي ينبغي ان يلحق به جبل سنجار في الشمال الغربي ، ويقول الاصطخري ، ٥٣ (لم يكرره ابن حوقل) عنه ان اسمه مأخوذ عن المدينة القائمة هنالك ، وجبل ماردين الذي يحمل أيضاً اسم المدينة المقابلة له ، حتى ولو لم يرد هذا التفصيل : حدود العالم ، ٦٦ (و٢٠٣)، الا صطخري ، ٥٢ ، ابن حوقل ، ٢١٤ (المدينة وضحها الناسخ الذي زارها بعد نحو من خمسين عاما على وضع الكتاب في صيغته النهائية : ابن حوقل ، ٢٢٣—٢٢٤) ، المسعودي (ت) ٨١ ، يتحدث عن (علم الشبطان) « مما يلي طور عبدين » ، أي في جنوب شرق ماردين . انظر أيضاً ابن سرابيون ، ٢٩ (ب) ، ٣١ (آ) ، ٣٢ (ب) .

(٨٢) انظر ابن حوقل ، ١٦٩ (جبل زيتا وجبل زامر : انظر كانار ، مشار اليه من قبل ، ١٢٣ ، ح ١٠٤) . يذكر أيضاً جبال الداسن ، من اسم احدى المدن (ابن حوقل ، ١٦٩ ، ٢٩٧ ، ٣٧٠) ، الجبل « الذي بآمد » (ابن الفقيه ، ٦٧ ، ١٣٤) ، والجبال المعروفة بالسلك (٠٠من رساتيق اذربيجان) وجبل شعران (ويسمى أيضاً جبل

قنديل أو التاج أو شيرويه) في حوض الزاب الصغير (ابن الفقيه ، ١٣١ — ١٣٢ ، المسعودي (ت) ، ٧٩) ، وجبل بالوسه ، قرب نصيبين (الاصطخري ، ٥٢ ، ابن حوقل ، ٢١١) . مع ذلك ، يذكر كثيرا جبل بارما ، عن اسم قرية بين تكريت والموصل : ابن سرابيون ، ٢٩ (ب) ، ٣٢ (ب) ، قدامة ، آخر ص ٢٣٢ (يضيف اليه اسم جبل ساتيدما) ، الا صطخري ، ٥٣ ، ابن حوقل ، ١٦٩ ، ٢٠٨ ، ٢٢٥ ، حدود العالم ، ٦٦ (و ٢٠٢ — ٢٠٣) . انظر أيضاً لوسترانج ، الخلافة الشرقية ، ٩١ ، ٩٨ . بشأن هذه الناحية ، انظر المقدسي ، ١٢٣ .

(٨٣) ثمنين ، باسورين ، قسشابور ، تجمع ، فيما يبدو ، لتدل على جبال مرتبطة بجبل الجودي : المسعودي (م) ، فقرة ٦٤ ، ابن حوقل ، ١٦٩ ، ٢١٩ ، ٢٢٥ .

(٨٤) ابن خرداذبه ، ٧٦ ، قدامة ، ٢٤٥ ، المسعودي (م) ، فقرة ٦٤ ، الشابشتي ، ١٩٩ ، الا صطخري ٥٥ ، ابن حوقل ، ١٦٩ ، ٢٢٥ ، ٢٢٩ ، المقدسي ، ١٣٦ ، ١٣٩ ، ١٤٧ ، حدود العالم ، ٦٦ . انظر أيضاً ما تقدم ، ص ١٠ . وردت قصة نوح في القرآن ، ١١ ، ٣٩ / ٣٧ و ٤٦ / ٤٤ : انظر طبعة بلا شير ، ج٢ ، ٤٣٩ (حاشية) و م . سترك في م١ (٢) ، ج٢ ، ٥٨٨ — ٥٨٩ ، اللذين يشرحان الالتباسات الممكنة بين هذا الجبل وبين جبل آخر يحمل الأسم نفسه وجبل ارارات : اثار هذا الالتباس عند المقدسي ، ٣٨٠ . يذكر المسعودي (ت) ، ٨١ جبل التنين في تلك الأرجاء .

(٨٥) ذكريات أرمنية لا نتساب الأمن الى نوح ، عند المقدسي ، ٣٧٤ .

(٨٦) ما لم يكن الأسم يشير الى شخص اسطوري عربي : انظر لوسترانج ، الخلافة الشرقية ، ١٨٢ . مع ذلك يلاحظ التشابه بين الحارث (اراتور) وصيغة اسم ارارات ، المشتق من السريانية : اورارتو .

(٨٧) انظر قدامة ، ٢٣٢ ، الاصطخري ، ١١٢ ، ابن حوقل ، ٣٤٦ — ٣٤٧ (مع الحاق بجبل القبق ، الذي يعتبر كثير الألسن : انظر ما يلي ، ص ٣١ ، حاشية ١٧٦ ، وبجبال أخرى في هذه الأماكن ، تسمى باسم القرى ، مثل واهر وورزقان : انظر ابن حوقل ، ٣٣٦) ، ٣٧٢ ، المقدسي ، ٣٧٣ ، ٣٨٠ ، حدود العالم ، ٦٦ ، ٧٧ (و٢٠٣، ٢١٨) . انظر أيضاً لوسترانج ، الخلافة الشرقية ، ١٨٢ ، م . سترك ، في م١ (٢) ، ج١ ، ٢٥٩ — ٢٦٠ . تعتبر الألف مدينة ، رمز الماضي ، الذي يتصل بحادثة قصاص أهل « البئر » : انظر الفصل الثاني ، حول نهر الرس الأرمني .

(٨٨) الا صطخري ، ١١٢ ، من أجل الا ذربيجان والران وارمينية .

(٨٩) ابن حوقل ، ٣٣٥ ، ٣٤٧ ، ٣٧٢ ، حدود العالم ، ٦٦ (و ٢٠٢) .

(٩٠) المقدسي ، ١٨٨ — ١٨٩ . حول المواضيع المعالجة هنا ، انظر الخوارزمي (ع)، ، ١٢٥ ، ابن سرابيون ، ٤٤ (آ) ،ابن خرداذبه ، ١٧٣ ، قدامة ، ٢٣٢ (و م ٦٥) اليعقوبي ، ٣٢٦ — ٣٢٧ (ترجمة ، ص ١٧٦، ح٢) ، ابن الفقيه ، ٢٥ ، ١١٢ ، ١١٧ ، ٢٩٥ ، الثعالبي ، ٩٥ ، الا صطخري ، ٤٣ ، ٤٨ ، ابن حوقل ، ١٦٨ ، ١٧٠ ، ١٧٤ ، ١٨١ ، ١٨٣ ، ١٨٥ ، ١٨٦ ، ٢٢٥ ، ٢٢٩ ، المقدسي ، ٤٤، ١٦٠ (وحاشية ى) — ١٦٢ (و ح ب) ، ١٧٢ — ١٧٤ ، ١٧٨ ، ١٨٤ ، ١٨٦ ، ١٨٨ — ١٨٩ ، ١٩١ ، ٢٥٢ ، ٢٥٤ ، (ح يا) ، حدود العالم ، ٦٧ . اليعقوبي ٣٢٧ ، يضع عاملة في جبل الجليل : انظر هـ . لا منس ، فرس لبنان » ، في منوعات جامعة القديس يوسف في بيروت ، ١٤ روماني ، ١٩٢٩ ، ص ٣٩ . ابن خرداذبه، ٧٧ (ح يه) ، يتحدث عن جبال الغور » ، الا أن النص مبهم ، على الأقل بالنسبة للفظ جبل ، ويلحق الجبل بناحية معروفة جيدا أصلا : الغور ، المسعودي (م)، فقرة ٢٠٦ ، يذكر الجبل الأقرع بين اللاذقية وانطاكية . بشأن الجولان ، كما يفهمه المقدسي ، انظر مايلي، الفصل السادس ، ص ٤٠٤ ، حاشية ٢١٣٦ .

(٩١) قدامة ، ٢١٩ ، المقدسي ، ١٩١ .

(٩٢) سنير جزء من حرمون بالمعنى الصحيح الا انهما يستعملان أحدهما بدل الآخر، : (سفر تثنية الأشتراع ، ٣ روماني ، ٩ ، وقوى ، معجم التوراة ، ٥ روماني ، باريس ، ١٩١٢ عمود ١٤٦٦ قدامة ، ٢١٩ ، (و ح آ)، يسمي جبل رمي بين بعلبك ودمشق، وهو مجهول ، المنطقة هي الزبداني ولا بد ان الجبل المقصود هو الجبل الشرقي مثلما يفكر الناشر .

(٩٣) المقدسي ، ١٧٢ و وح كجـ) ، الترجمة ، فقرة ١٧٨ ، ح ٢٢٢ . ا . س . مرمرجي (نصوص جغرافية عربية عن فلسطين ، باريس ١٩٥١) يحرك نصره . انظر صفحات من تاريخ جبل عامل (في لبنان)، بيروت، جماعة من الباحثين) ، ١٩٧٩ .

(٩٤) حول هذا التمسك بالوطن ، انظر المقدسي ، ترجمة ، ص ١٩ روماني ، وجرافية دار الاسلام البشرية ، ٣١٣ — ٣١٤ .

(٩٥) يذكرهما المقدسي في مكان آخر في عداد الرساتيق : المقدسي ، ١٥٤ ، ١٦٠ (ترجمة ، فقرة ١٤٦ ، ح ١٣٠) ، ١٧٥ .

(٩٦) لا تذكر جبال الشراة الا مرة واحدة (المقدسي ، ١٨٦) ، لكن قد تكون ملحقة بكورة الشراة : بالفعل تذكر الشراة ككورة في معظم الاحيان : المقدسي ، ١٥٤ — ١٥٥ و ١٧١ (ترجمة ، فقرة ١٩٦ ، ج ٢٦٧٠) ، ١٨٥ (« نهر الشراة » : انظر ترجمة ، فقرة ٢٢٣ ، ج ٨٩٠) .

(٩٧) وارد، منذ العهد القديم، في ٢ من صموئيل، و ١٥ ، ٣٠ ، وفي زكريا، ١٤ ، ٤ .

(٩٨) انظر سفر تثنية الأشتراع ، ٣ ، ٨ — ٩ ، عمود ٦٣٣ — ٦٣٧ ، وما تقدم حاشية ٩٢ .

(٩٩) ذكر أكثر من ٦٠ مرة في العهد القديم . انظر قوى ، معجم التوراة ، ٤ ، عمود ٢٢٧ — ٢٣٤ .

(١٠٠) على افتراض ان جبل نضره (أو نصره : انظر ما تقدم حاشية ٩٢) اسم جبل فعلا : انظر ملاحظة دي خويه في المقدسي ، ١٧٢ ، ح كج .

(١٠١) احيل الى مقالي : « بعض نصوص المقدسي عن تمثيل اقاليم الاسلام : الجغرافية والمشهد الذهني . الدراسات العربية ، تحاليل ونظريات (جامعة باريس ٨ — فنسين) ، ١٩٧٩ ، ٢ / ٣ ، ص ٢٧٧ — ٣٠١ .

(١٠٢) المقدسي ، ٢٠٩ .

(١٠٣) لعل ذلك يحصل دون ان يعي المصنفون الأمر دوماً وتماماً . ويسترعي انتباهنا الى الجبل الذي اسميه « كاملا » ، اجتماع ثلاث ميزات قياسية (هي دور الجبل في الهندسة الأرضية ، وكيانه وتاريخه المقدس) ، لا غلظه الخام أو طول استشهاده . على سبيل المثال ، لا شك ان جبل الجودي مشهور ، على وجه الاجمال ، أكثر من جبل لبنان ، لكنه مثله مقدس ، وواضح الكيان كثيرا ، الا انه ادنى منه في صفات العلو والحجم وفي مركزه في النظام الجبلي العالمي .

(١٠٤) حول جبال جزيرة العرب ، انظر ما تقدم ، ص١٠٨ ، و قدامة ، ٢٤٨ ، ابن الفقيه ، ٢٥ ، ٩٢ ، ٢١٢ ، ابن رسته ، ٥٦ — ٥٧ ، اليعقوبي ، ٣١٢ ، ٣١٤ ، المسعودي (ت) ، ٢٧٩ ، ٣٣٤ (يعطي اسمى جبلي طي) ، الاصطخري ، ٢١ — ٢٦ ، ابن حوقل ، ٢٩ ، ٣٠ ، ٣٢ — ٣٧ ، ٤٠ ، المقدسي ، ٥٣ ، ٦٧ ، ٧٠ ، ٧٦ — ٧٧ ،

٧٩ ، ٨٢ ، ٨٤ ، ١٠٢ – ١٠٣ ، ١٠٦ ، ١١٢ ، ١١٣ ، ١٣٧ ، ٢٥٤ (ح ط)، حدود العالم ، ٦٦ – ٦٧ (و ٢٠٢) .

(١٠٥) انظر ما تقدم حاشية ٣٢

(١٠٦) احالة الى القران ، الشعراء / ١٥٠ (قول النبي صالح لثمود) : « . . . وتنحتون الجبال بيوتا » .

(١٠٧) حول هذا الشخص ، ابن علي ، والكيسانية ، انظر هـ . لا ووست ، الأنشقاقات في الاسلام باريس ، ١٩٦٥ ، ص ٢٦ – ٣٢ . و . و . مادلونغ ، في م١(٢) ، ج٤ ، ٨٦٩ – ٨٧١ . أعلن النبي ان الله راض عن جبل رضوى ، والنسبة الى الجذر الذي اشتق الأسم منه : رضي .

(١٠٨) انظر ابن خرداذبة ، ١٤٠ – ١٤١ (و ح آ مع احالة الى الهمداني ، ١٠٠) ، الاصطخري ، ٢٦ ، ابن حوقل ، ٣٧ ، حدود العالم ، ٢١ (و ح١) ، ٢٠٣

(١٠٩) حدود العالم ، ٦٦ ، يسمي تهامة (لا السهل الساحلي) جزيرة العرب الجنوبية استبعد عن هذه الرؤيا مصنفا كالهمداني ، الذي يقتصر حديثه على جزيرة العرب ، ولا يتناول صورة شاملة لدار الاسلام .

(١١٠) انظر أ . غروهمان ، في م١ ، ج٤ ، ٣٧١

(١١١) شبام أيضاً يطلق على قرية : انظر غروهمان ، مشار اليه ، واليعقوبي ، ٣١٢ ، الذي يسمي « جبل طي » سلمى : انظر أيضاً ما تقدم حاشية ١٠٤ .

(١١٢) انظر مقالي المشار اليه من قبل : « بعض نصوص المقدسي » .

(١١٣) انظر المسعودي (ت) ، ٣٠٠ . ابن رستة ، ١١٦ – ١١٧ ، ابن الفقيه ، ٥٩ ، الاصطخري ، ٤٠ ، ابن حوقل ، ١٣٢ ، ١٥٠ ، ١٥٧ ، ١٥٨ ، ١٦٠ ، ١٦٨ ، ١٧٠ ، المقدسي ، ٢٠٩ ، ٢١٢ ، حدود العالم ، ٦٨ ، ٨١ . ويعطي المسعودي (م) فقرة ٢٢٠ ، اسم جزء من هذه السلسلة المزدوجة : الطيلمون . ويسمى جبل الطير (أو بوقيران : ابن رستة ، ٨٢ . حول هذا الطير وهذا الأسم ، انظر ج . مسبيرو وج . وايت ، « معطيات لجغرافية مصر » ، مذكرات المعهد الفرنسي للاثار الشرقية في القاهرة ، ٣٦ . روماني ، ١٩١٩ ، ص ٦٤ – ٦٥) ، ويقع في الجانب الشرقي من نهر النيل ، بالقرب من منية ابن خصيب (انظر جغرافية ابي الفدا ، النص العربي ، طبعة رينو دي سلين ،

باريس ، ١٨٤٠ ، ص ٦٧ ، والهروي ، الاشارة الى أماكن الزيارة ، ترجمة وطبعة ح. سورديل تومين ، دمشق ، ١٩٥٧ ، ص ٩٩ ، و ح ٢) . يذكر قدامة ، م ٦٤ ، اسما مبهما جداً (سلوقية) ، نقله المقدسي ، ٢٠ ، ح يا : بلوقبه : يبدو ان النص يشير الى نصف الدائرة (حول معنى الصيغة الخامسة لـ تعرج ، انظر م ج ع ، ج ٤ ، ٢٩٨) التي يرسمها نهر النيل بين الأقصر ونجع حمّادي . فهل نقراء بلوقيه : ابولونيد ، أي ابولونيو بوليس (بارفا) ، أو قوص (انظر ج . ــ ش غرسين ، قوص ، القاهرة ١٩٧٦ ، ص ١٨ وما يليها) نشير الى أن الف ليلة وليلة تحوي قصة بلوقيه . لكن لعل بلوقيه صورة خاطئة بوقيرا(ن) .

(١١٤) انظر ابن حوقل : ص ١٣٢ ، ١٥٨ ، ١٧٠ ، وحدود العالم : ص ٦٧

(١١٥) الاصطخري : ص ١٩ ، ابن حوقل : ص ١٧ . انظر المقدسي : ص ٢١٦ « اقليم المغرب ، في زاوية الاسلام موضوع ، وبعضه خلف البحر مقطوع »

(١١٦) اليعقوبي : ص ٣٥٨ — ٣٥٩ (يذكر اسم انقبق ، المشكوك بصورته ، الذي يقصد به تل الجزائر على الأرجح) . قارن بالحقبة التالية للحقبة التي تهمنا ، في ج . ديسبوا ، « الأطلس » ، في م١ (٢) ، ج١ ، ٧٧٠ — ٧٧١ . حول حقيقة هذه المنطقة التضاريسية ، انظر ا . بريتان ، « الجزائر » في الموسوعة العالمية ، باريس ، ج١ ، ١٩٦٨ ، ص ٦٣٢ .

(١١٧) اضف الى الجبال الواردة لا حقا اسما مشكوكا جدا فيه ، يطلق على جبال المقدسي : ص ٢٢٧ (وحاشية آ) . أما جبال برقة (برقة : انظر عقبة برقة : ابن حوقل : ص ١٥٧ ، ١٧٠ وحدود العالم : ص ٨١) ، فقد أخذ اسمها كما نرى من أسم المنطقة ، الشهير جدا والشائع استعماله . حول جبل اشبرتال (رأس سبارتيل) انظر مايلي عن الأندلس .

(١١٨) أو توجان : ابن حوقل : ص ٨٩ ، المقدسي : ص ٢١٨ ، ٢٢٩ (وحاشية ن، ك : انظر الادريسي ، وصف أفريقية والاندلس ، ترجمة دوزي ودي خويه ، لا يدن، اعادة طبع ، ١٩٦٨ ، ص ٩٥ ، ج١) .

(١١٩) ابن حوقل : ص ٨٨ (ربما عنت تازة فج الجبل) .

(١٢٠) المقدسي : ص ٢١٧ ، ٢٢٠ ، ٢٢٩ — ٢٣٠ . التعبير لجاك برك في « من الفرات الى الأطلس » باريس ، ١٩٧٨ ، ١ ، ص ٣٨١ .

(١٢١) ابن حوقل : ص ٩٤ – ٩٥ . حدود العالم : ص ٨١ (باسم جبل طرابلس) .

(١٢٢) ابن خرداذبة : ص ٨٩ . ابن الفقيه : ص ٨٠ . اليعقوبي : ص ٣٥ ، ٣٥٨–٣٥٩ . ابن حوقل : ٨٤ – ٨٥ . المقدسي : ٢٢٧ .

(١٢٣) ابن حوقل : ص ١١٨

(١٢٤) المسعودي(م) : فقرة ٢٧٦ ، ٤٦٤ ، ٩١٢ . المسعودي (ت) : ٨٩ (بركان صقلية ، وضع في جزيرة ، لعل التباسا حصل بينه وبين سترومبولي) . ابن حوقل : ٢٥٥ – ٢٥٦ . المقدسي : ٢٣٢ – ٢٤١ .

(١٢٥) ابن خرداذبة : ص ٩٠ . ابن الفقيه : ٨٨ . المسعودي (ت) : ١٠١ . الاصطخري : ٣٥ ، ٣٦ . ابن حوقل : ٤٧ ، ٦٢ ، ١٠٩ ، ١١١ ، ١١٥ ، ١٩٠ . المقدسي : ٢٢٣ (وحاشية ح) ، ٢٣٣ – ٢٣٥ ، ٢٤٨ . حدود العالم : ٦٩ ، ٧٩ ، ١٠٤ ، ١٥٥ (و ٢٠٥) .

(١٢٦) يلاحظ ان هذه الجبال الثلاثة الأخيرة لم تذكر الا مرة واحدة عند ابن حوقل وابن الفقيه والمسعودي . حول شلير ، انظرا . ليفي بروفنسال ، شبه جزيرة ايبيريه في القرون الوسطى حسب الروض المعطار ، لايدن ، ١٩٣٨ ، ص ١٣٧ . حول اسم شلير ، انظر مايلي .

(١٢٧) ابن حوقل : ١٩٠ . اشبرتال وجبل (عوضا عن طرف) الغر .

(١٢٨) حدود العالم : ٦٩ (و ٢٠٥) . تقطع السلسلة الثانية نهر تاجو في عقبة اذا أخذنا منطوق النص الحرفي .

(١٢٩) أصله شرقي (وتبقى لغته شرقية) لكنه أقام في الأندلس : انظرا . ليفي – بروفنسال في الأندلس ١٨ روماني ، ١٩٥٣ ، ص ٥٦ ، وفي م١ (٢) ، ج١ ، ص ٥٠٣ (تلخيص نظام جبال الأندلس حسب الرازي . أخذنا معلوماتنا عن الرازي : ص ٦٥،٦٦، ٦٧ (وحاشية ٧) ، ٧٦ ، ٨١ ، ١٠٠ – ١٠١ .

(١٣٠) انظر م . بسنيه ، معجم الجغرافية القديمة ، باريس ، ١٩١٤ ، ص ٧١٢

(١٣١) يكرر الروض المعطار هذه المعلومات ، طبعة ليفي بروفنسال ، شبه جزيرة ايبيرية، مشار اليها ، ص ١٧٨ ، وحاشية ٤ .

(١٣٢) انظر العذري ، مختارات جغرافية تاريخية ، طبعة ع . ع . الاهواني ، مدريد ، ١٩٥٦ ، ص ٦٦ و ١٦٢ .

(١٣٣) الجاحظ (ح) ، ج ٣ ، ٢٩٩ ، ٣٧١ .

(١٣٤) الآيات ٦٢ / ٦١ — ٦٣ / ٦٢ .

(١٣٥) ابن حوقل : ٨٦ ، ٤٠٢ ، ٤٠٧ ، ٤٩٥ . المقدسي : ٧٧ (مرتين) ، ١٧٣ ، ٤٩٠ (ب) ، هذه الاحالة الأخيرة مقصود بها ، بدليل الأرقام ، الجبل ذاته الوارد عند ابن حوقل ٤٠٢ . بالفعل كلاهما ينقل عن الاصطخري : ١٣٣ .

(١٣٦) ابن حوقل : ٢٢٢

(١٣٧) المقدسي : ١٧٣

(١٣٨) ابن حوقل : ٣٧٢ ، ٣٨٠

(١٣٩) اضافة الى الألفاظ التي سوف نذكرها ، نشير الى ما ورد عند المقدسي مرتين ، ٤١٤ ، ٤٢٨ ، عن مدينتين في خوزستان وفارس ، واقعتين في هودة . والهودة تعني حرفيا سنام الجمل ، لكن لو افترضنا ان بوسعنا ترجمة هودة هنا بأكمة أو حدبة ، تبقى مشكلة استعمال حرف الجر « في » المستعمل عوضا عن « على » الشائعة عند المصنفين الجغرافيين في حالات من هذا النوع (على الجبل ، على التل ، . . . الخ) . ويفترض دي خويه وجود تصحيف لوهدة : منخفض ، قاع (دي خوية ، م ج ع ، ج ٤ ، ٣٧٠) . (انظر الحاشية ح و يعط من المقدسي ، مشار اليه)

(١٤٠) ابن حوقل : ١٢٢ ، ١٨٣ ، المقدسي : ٨٤ ، ١٣٨ ، ٢٩٢ ، ٣٧٧ ، ٤٠٧ ، ٤٢٨ .

(١٤١) ابن حوقل : ٥٠٧

(١٤٢) ابن حوقل : ٤٠٨ ، و م ج ع ، ج ٤ ، ٣٥٢ .

(١٤٣) ابن حوقل : ٧٩ ، ٢٢٥ ، و م ج ع ، ج ٤ ، ٢٠٥ .

(١٤٤) ابن حوقل : ١٨٣ ، ٢٢٦ .

(١٤٥) ابن حوقل : ٣٥٢ ، ٤٠٤ ، ٤٨٨ وأماكن أخرى ، المقدسي : ٣٧٧ ، ٤٢٧ ، ٤٩٢ وأماكن أخرى .

(١٤٦) ابن حوقل : ٢٩٧ ، ٣٦٥ ، المقدسي : ١٢٢ ، ١٣٦ ، ١٣٩ ، ١٤٠ ، ١٤١ ، ١٤٦ ، ٢٤٨ ، ٣١١ ، ٣٧٦ ، ٣٨٣ ، ٤٢٨ ، ٤٣٤، ٤٤٥ ، ٤٩٠ (حاشية ط)

(١٤٧) المقدسي : ١٤٠ .

(١٤٨) المقدسي : ٢٤٨

(١٤٩) إبن حوقل : ٣٤٢

(١٥٠) ابن حوقل : ٤٨٨

(١٥١) انظر على التوالي : المقدسي : ٣٧٧ ، ابن حوقل : ٤٠٨ ، المقدسي : ١٤١ ، ابن حوقل : ١٢٢ ، ٢٢٦ .

(١٥٢) ابن حوقل : ٣٦٥ . حول الكثبان ، أي « جبال الرمل » ، « العظام » أحيانا التي « لا ترتقى ولا تتوقل » ، انظر ابن حوقل : ٣٦ ، ١٥٧ ، ١٧٠ .

(١٥٣) عظيم : ابن حوقل : ٨١ ، ٩٠ ، ٣٤٦ — ٣٤٧ ، ٣٦٥

(١٥٤) عالي وأسماء فاعل من الأشتقاق ذاته : ابن حوقل : ٨٠ ، ٩٤ ، ٣٧٠ ، المقدسي : ٢٢٩ ، ٣٥٣ ، ٣٨٠ .

(١٥٥) شاهق : ابن حوقل : ٩٠ ، ١٧٠ ، ٣٦٥ ، ٣٧٠ ، ٥٠٥ ، المقدسي : ١٦١، ٣٩٨ .

(١٥٦) مطل ، منيف : ابن حوقل : ٣٧ ، ٩٤ ، المقدسي : ١٦٠ (وحاشية ح) ، ١٦١ ، ١٦٢ ، ١٨٦ ، ١٨٨ ، ٢٢٦ ، ٢٢٩ .

(١٥٧) لا يسلك ، لا يرتقى ، وعر ، صعب ، أملس : ابن حوقل : ٣٧ ، ٣٧٠ ، ٣٧١ ، المقدسي : ٣٨٠ ، ٣٩٨ .

(١٥٨) منيع ، ممتنع ، حصين : ابن حوقل : ٣٧ ، ٨٠ ، ٨١ ، ١٨٣ ، ٣١٠ ، ٣٧١ ، ٣٧٦ — ٣٧٧ ، ٥٠٥ ، المقدسي : ٣٩٨ ، ٤٦٨ ، ٤٧١ .

(١٥٩ سامق (عالي ، عالي جداً ، لكن على وجه التخصيص ، صورة رائعة ، مؤنقة للنبات والأشجار) ، تقترن بصنوها للسجع « شاهق » ، المذكور في الحاشية ١٥٥ : ابن حوقل : ٩٠ ، ١٧٠ ، ٣٦٥ ، ٥٠٥ .

(١٦٠ وحشة الجبال : المقدسي : ٤٨٧ ، شاخ (بمعنى عال جداً ومعتز ، تكبر) ،
ابن حوقل : ٨٠ ، ٨١ ، عاس : المقدسي : ٣١٥ (حاشية يو ، ٤١٠ .

(١٦١) ابن حوقل : ٢١٤

(١٦٢) ابن حوقل : ٣٨٠

(١٦٣) ابن حوقل : ٣١٠ — ٣١١ ، المقدسي : ٤٧١ ، كلاهما نقل عن الاصطخري :
٩٨ .

(١٦٤) ابن حوقل : ٩٤

(١٦٥) ابن حوقل : ٥٠٦ . انظر لوسترانج ، الخلافة الشرقية ، ٤٦٦ — ٤٦٧
والخريطة ٩

(١٦٦) المقدسي : ٣٧٥

(١٦٧) انظر م ج ع ، ج ٤ ، ٣٣٠

(١٦٨) الاصطخري : ٢٤ ، ابن حوقل : ٣٢

(١٦٩) ابن حوقل : ٤٩٥

(١٧٠) ابن حوقل : ١٧٠ ، ١٨٣

(١٧١) أحياناً يرد بالمفرد : جبل : لننظر مثلا ابن الفقيه : ١٢٦ ، ١٩٢ ، ٢٠٩
وأماكن أخرى .

(١٧٢) المقدسي : ٢٨٨ ، ٤٣٥

(١٧٣) ابن حوقل : ٧٨ ، ١٧٤ ، ٣٥٧ ، ٤٠٢ (الاصطخري : ١٣٤) .

(١٧٤) المقدسي : ٨٥ ، ٤٦٢

(١٧٥) ابن حوقل : ٦٦ ، ٢٢٦

(١٧٦) ابن حوقل : ٤١ ، ٢٤٦ ، ٣٤٦ — ٣٤٧ . حول هذه الاحالة الأخيرة ، الاحظ ان تعبير « جبل عظيم » ينطبق ، فيما يبدو من حرفية النص ، على جبل القبق ، هو والتدوين الذي يشير الى كثرة الألسنة فيه (٣٠٠ ونيف) (انظر الحاشية ٨٧) . الا ان كثرة الألسنة تتعلق بجبل سبلان وقراها (اذربيجان) . بالتالي أميل الى الظن على نفس

المنوال ان اتساع الجبل يشمل بلا تعيين القبق وأرمينية : لذلك خصص المقطع لا تصال جبل القبق بجبال أرمينية .

(١٧٧) هذا أحد معاني لفظ صمد الغامض : القرآن : ١١٢ : ٢ وترجمة بلاشير ج٢ ، ص ١٣٤ ، حاشية ٢ ، و ت . ل . جديدي (الغزل عند العرب ، وضع العذريين . اسهام في علم اجتماع الأدب العربي ، الجزائر ، ١٩٧٣ ، ص ٨٠) بترجمة « بلا يدرك » .

(١٧٨) ابن منظور ، لسان العرب ، بيروت ، ١٩٧٤ — ١٩٧٦ / ١٩٥٥ — ١٩٦٦ ، لفظ شعب . و ر . دوري ، ملحق المعاجم العربية ، ليدن — باريس ، ج١ ، ١٩٢٧ ، ٧٦٠ — ٧٦١ ، شوارز ، ايران ، ج٧ ، ٨٠ (الفهرس) .

(١٧٩) انظر ذكر أحد الطرق عند اليعقوبي ، ٣٤٩ ، بالتعبير : بين جبال وشعاب .

(١٨٠) الاصطخري : ٢١ ، ابن حوقل ٢٨ ، المقدسي : ٧١ . تعداد هذه الشعاب منهجيا عند اليعقوبي : ٣١٤ — ٣١٥ .

(١٨١) ابن حوقل : ٩٢ ، ٤٤٣ ، المقدسي : ٧١ ، ١٧٥ ، ٤٣٦ .

(١٨٢) الاصطخري : ٢٢ ، ابن حوقل : ٢٩ ، المقدسي : ٧٦ ، ٤٤٣ . انظر أيضاً احالات أقل وضوحا : ابن حوقل : ١٨٢ ، ٤٤٨ . من أجل برقة ، التي لها موقع مماثل ، أجد (عند المقدسي : ٢٢٤) لفظ هوية : منخفض ، حوضة .

(١٨٣) ابن حوقل : ٤٦ ، عن الاصطخري : ٢٩ ، لكنه يضيف لفظ كم الأساسي ، حرفيا : مدخل اليد من الثوب ، ومنه (م ج ع ، ج٤ ، ٣٤٢) .

(١٨٤) الا صطخري : ١٣٣ — ١٣٤ ، ابن حوقل : ٤٠٢ .

(١٨٥) ابن حوقل : ١٧٤ ، ٢١١

(١٨٦) الا صطخري : ٢٥ ، ابن حوقل : ٣٣

(١٨٧) المقدسي : ٧١

(١٨٨) لا أرى الا مثالين على الألتباس بين شعب ووادي : المقدسي : ١٧٤ (وهي — نابلس — في واد قد ضغطها جبلان) ، و ٣٦٣ (مدن ياجوج وماجوج خارج دار الا سلام : الجبل الذي السد في شعب منه) ، حيث يستعمل اللفظان ، مثلما يلاحظ ، أحدهما عوضا عن الآخر (مؤلف مشار اليه ، ٣٦٣ ، س٤ و ٩ .

(١٨٩) الاصطخري : ٢٢ (الذي لا يعطي رقما للعرض ويكتفي بالقول انه ضيق)، ابن حوقل: ٢٩ ، حول رمية السهم ، غلوة ، انظر جغرافية دار الاسلام ، ج ٢ ، ١٧ ، شكل ٦

(١٩٠) ابن حوقل : ١٤٥ ، ١٦٩ ، ١٧٠ ، مع تصحيح ترجمة وايت : ليس النيل هو المقطوع الى شعبتين بل الجبل . تطبيقات أخرى للجذر شعب على الجبل : ابن حوقل : ١٨٣ ، ٢٧٢ (تصحح ترجمة وايت بـ « مضايق » : انظر الحاشية ٣٤٩) .

(١٩١) ابن حوقل، ٣١١، ٣٩، ٤٤٨، المقدسي، ٤٧١ . نستطيع ان نتذكر ايضاً بالنسبة الى الاودية الضيقه، لفظ فج جمعه فجاج (خانق، ممر)، لكنه اندر الى اقصى حد وغير ثابت دوما بهذا المعنى الدقيق (معنى الحسم : ارض عميقة) : انظر مثلا ابن حوقل، ٤٦ ٣و٤٩٨–٤٩٩

(١٩٢) ابن خرداذبة : ٤٣ — ٤٤ ، ابن الفقيه : ٢٠٠ — ٢٠١ ، ٢٢٧ ، الا صطخري : ٧٨ ، ابن حوقل : ٢٧٦ ، ٢٨٢ ، ٢٨٨ ، ٤٧٣ ، المقدسي : ٣٥ ، ٢٥٩ ، ٤٢٠ ، ٤٣٤ ، ٤٣٧ (مع تصحيح الحاشية ح) ، ٤٥٥ تغنى الشعراء بشعب بوان ، خاصة المتنبي : انظر ابن الفقيه : ٢٠٠ ، وابن حوقل ، ترجمة وايت ، ص ٢٦٥ . والبعد الوحيد المعطى هو فرسخان للطول (الا صطخري ، ذكر من قبل ، وابن حوقل : ٢٨٢) بالنسبة الى العرض انظر لوسترانج ، الخلافة الشرقية : ٢٦٤

(١٩٣) جان الأزرق ، باريس ، الناشر « البلييياد » ، ٢ روماني ، ١٩٧٢ ، ص ١٧٥

(١٩٤) المقدسي : ٤٨٨ : عقاب هينة .

(١٩٥) ابن حوقل : ١٥٥

(١٩٦) تكفي نظرة سريعة الى خريطة هذه المناطق لتبرر هذه « التضاريس » المزعومة .

(١٩٧) يسميها الجغرافيون في الحقيقة ، ايله أو ويله . وقد ظهرت تسمية عقبة ايله عند الادريسي في القرن الثاني عشر ، ثم اختصرت « العقبة » في وقت لا حق . انظر هـ . و . غليدن ، في م١ (٢) ، ١ روماني ، ٣٢٤ . ويرد لفظ « العقبة » عند جغرافيي حقبتنا ليدل على مكان معين قرب مكة ، على السفوح الحادة في برقة أو جزيرة العرب ، التي سنتحدث عنها فيما بعد .

(١٩٨) انظر بلا نشار ، الجغرافية العالمية ، ح ٨ ، مشار اليه ، ١٢٩ — ١٣٠ — ١٥١

(١٩٩) ابن خرداذبة : ٨٤ ، قدامة : ٢٢١ ، اليعقوبي : ٣٤٢ ، ابن حوقل : ١٥٧ ، المقدسي : ٢٤٥

(٢٠٠) ابن حوقل ٣١٩ ، يكتفي بالقول بأن ولاية السند (بلدان نهر مهران) تحوي فجاجا (مفردها فج) : شعب ، مخرم (انظر حاشية ١٩١)

(٢٠١) انظر (مع ثنية) ابن خرداذبه : ١٣٠ (وح او يه) ، ١٣٤ ، ابن رستة : ٧٦ ، اليعقوبي : ٣١٢ – ٣١٥ (مقترنة بالثنية) ، الاصطخري : ٢٢ ، ابن حوقل : ٢٩ ، المقدسي : ٧٣ ، ٧٦ ، ١٠٠ . انظر ف . بوهل ، « منى » في م١ ، ج٣ ، ٥٦٦ ، مونتغوموري وات و . « عقبة » في م١ (٢) ج١ ، ٣٢٤ ، كذلك « انصار » ، المرجع ذاته ، ج١ ، ٥٢٩ – ٥٣٠ ، ف . بوهل و ج . جوميه ، « حمرة » ، المرجع ذاته ، ج٢ ، ٤٤٩ – ٤٥٠

(٢٠٢) ابن خرداذبة : ١٢٦ ، ١٤٧ ، قدامة : ١٨٦ ، ١٩١ (و ح يو) اليعقوبي : ٣١١ ، ابن رستة : ١٧٥ ، ١٨٤ ، المقدسي : ٢٥١ ، ٢٥٣ تقع بركة العقبة اليوم على بعد ٤٠٠ كم تقريبا الى غرب البصرة : انظر اطلس عالم التايمز ، لندن ، ١٩٦٨ ، ص ٣٣ ، ٨/١

(٢٠٣) اليعقوبي : ٣٢٥ . انظر لوسترانج فلسطين والحكم الاسلامي ، لندن ، ١٨٩٠ ، ص ٣٨٩ ، ر . دوسو ، الطوبوغرافية التاريخية لسورية القديمة وفي القرون الوسطى ، باريس ، ١٩٢٧ ، ص ٣٩٧ ، ك . بيديكر ، فلسطين وسورية ، لا يبزيغ ، ١٨٩٣ ، ص ٣٤٠ ، يبرز ارتفاع المنحدرات الحادة في هذا المكان . هذا « ممر غرناطة » .

(٢٠٤) اليعقوبي : ٣٢٧ ، الاصطخري : ٤٩ ، ابن حوقل : ١٨٧ ، المقدسي : ١٩١ (فيق أو افيق ، انظر الترجمة ، ص ٢٧١ ، مع المراجع) . نذكر أيضاً بما قيل من قبل ، ص ١٩ ، عن « طريق الدرجات » (لكن دون لفظ عقبة) ، الذاهب من الجليل إلى بعلبك .

(٢٠٥) المسعودي (ت) ، ٨٨ . ويتحدث المقدسي ، ١٥٠ ، عن عقبة الشهداء على الطريق التي تذهب من حوض دجلة الأعلى الى شواطىء البحر الأسود (بنطس) ومن هناك الى بفلاغونية . تقع العقبة قرب قيصرية بحر بنطس (كبيرة ، انظر المرجع المذكور ح . يد) ، بالتالي نحو وادي ليكس – كلكيد ايرماك : ذكريات حملات سيف الدولة في هذه المنطقة من الامبراطورية البيزنطية (انظر ا . فاسيلييف ، بيزنطية والعرب ، ج ٢ / ١ : السلالة المقدونية (٨٦٧ – ٩٥٩) . الطبعة الفرنسية لـ م . كانار ، بروكسيل ، ١٩٦٨ ، ص ٣٤٣ – ٣٤٤)

(٢٠٦) المقدسي : ٣٨١ ، لا ورمية عقبتان . . .

(٢٠٧) ابن خرداذبه : ١٤ ، ١٩،ابن رستة : ١٠٤ ، ١٦٥ ، ابن حوقل : ٢٣٤ ، المقدسي : ١٣٤ ، ٣٣٧ . انظر شوارز ، فارس ، ج٤ ، ٤٥٥

(٢٠٨) ابن رستة : ١٦٦ — ١٦٧ ، انظر شوارز ، المرجع ذاته ، ٤٧٨

(٢٠٩) ابن الفقيه : ٢٢٩ ، ٢٣٩ ، وشوارز ، المرجع ذاته ، ٤٥٥ — ٤٥٦

(٢١٠) ابن خرداذبة : ٢١ ، ابن الفقية : ٢١١ ، مسعر (ب) ٣٤ ، المقدسي : ٢٥٨ ، ٣٩٣ — ٣٩٤ ، وشوارز ، المرجع ذاته ، ٤٥٦

(٢١١) ابن الفقيه : ٢٥٩

(٢١٢) ابن حوقل : ٣٦٣

(٢١٣) قدامة : ١٩٦ (و ح . ك) ، الاصطخري : ٨٠ (كنسا ، وابن حوقل : ٢٨٥ (كسنه) ، ويشير المؤلفان الأخيران الى وجود مركز مراقبة ومكس (مرصد : انظر دوزي ، ملحق ١ ، ٥٣٣ ، م ج ع ، ج٤ ، ٢٤٧ ، وايت ، ترجمة ص ٢٨٠ : « مكس ») انظر شوارز ، فارس ، ج٣ ، ١٨٢

(٢١٤) الاصطخري : ٧٩ ، ابن حوقل : ٢٨٣

(٢١٥) الاصطخري : ٧٩ ، ابن حوقل : ٢٨٤ ، المقدسي : ٤٦ ، ٤٥٧ ، وشوارز ، فارس ، ج٣ ، ١٩٦

(٢١٦) المقدسي : ٤٥٦ ، وشوارز ، مذكور سابقا ، بآخر الصفحة (و ح.٣١) — ١٩٦

(٢١٧) ابن خرداذبة : ٤٣ (و ح . ح) ، وشوارز ، فارس ، ج٢ ، ٩٢ ، ج٣ ، ١٧٣ — ١٧٤ ، ١٧٨

(٢١٨) المقدسي : ٢٤ : « ونهر إرجان يتفجر من جبال فارس ويقع فيه ماء مالح تحت العقبة ». يبدو ان هذا الملح ملح رافد نهر رامهرمز ، الذي يلتقي فيما بعد على مسافة حوالي ٢٠ كم الى جنوب هذه المدينة ، بنهر ارجان : انظر شوارز ، فارس ، ج٣ ، ٢٠٢ (و ح . ٤) ، ج٤ ، ٢٩٥ . حول الجص المالح في هذه المنطقة ، انظر بلانشار ، الجغرافية العالمية ، ج٨ ، مشار اليه ، ص ١٤٦ . ظننت في السابق (المقدسي ، ترجمة ، ص

٦٧،ح ١٢٠٠) ان العقبة المقصودة هنا ربما كانت عقبة الطين أو عقبة الفيل . لكن على الرغم من تردد الجغرافيين بشأن مياه هذه المنطقة (انظر شوارز ، فارس ، ح ٤ ، ص ٢٩٥ ، ولو سترانج ، الخلافةالشرقية ، ٢٧٠ ، ح ١)يقع مجرى نهر اوجان اجمالا ، إلى شرق وشمال شرق هذه المدينة، ورافدهنهر رامهرمز الى شمالها الغربي ، في حين لا بد من التفتيش عن عقبة الفيل ، وهي أقرب الى ارجان على الطريق القادم من شيراز ، في الجنوب الغربي من ارجان . .

(٢١٩) قد تؤدي إلى الالتباس ترجمةابن‌رستة ، ١٥٠ (ترجمة وايت ، ص ١٧٣) إ « ممر » . ليس المقصود هنا عقبة بل « درب » بين الجبل والبحر ، في الزاوية الجنوبية الشرقية من بحر الخزر يقابل الدرب الآخر ، الشهير ، المسمى باب الأبواب (دربند) على الشواطيء الغربية (انظر جغرافية دار الاسلام ، ج٢ ، ص ٢٦٢ – ٢٦٣) .

(٢٢٠) ابن حوقل : ٤٥٣ – ٤٥٤ ، اطلس التايمز ، ص ٣٢ ، ز/٢

(٢٢١) ابن خرداذبة : ٢٤ ، قدامة : ٢٠٢ ، المقدسي : ٣٥١ ، ٣٥٢ (وح . يد) . حول هذه الطرق ، انظر لوسترانج ، الخلافة الشرقية ، ٣٨٨ ، ٤٣٠ – ٤٣١ (مع تشكيل مزدران) واطلس التايمز ، ص ٣٢ ، ي / ٢

(٢٢٢) ترابية ، بكل تحفظ : قدامة : ٢١٠ ، حول هذه الطرق ، انظر ابن خرداذبة : ٣٢ والمقدسي : ٣٤٧ – ٣٤٨ ، انظر أيضاً اطلس التايمز ،ص ٣١ ، ب – ج / ٢– ٣ و د / ٢

(٢٢٣) ابن خرداذبة : ٣٠ ، قدامة : ٢٠٨ ، المقدسي : ٣٤١ . يشير ابن خرداذبة وقدامة ، فيما يبدو ، إلى عقبتين على حوض نهر سيحون الأعلى (اياكسارت ، سير داريا) ، ولا مجال للتدقيق أكثر مما فعلت ، الا اذا كنت مقصرا . انظر لوسترانج ، الخلافة الشرقية ، ٤٨٩ ،وأطلس التايمز ،ص ٢٤ ،ا – ب / ٥ و ٤٣ ،يد / ٦ ،وبارتيلو ،التركستان ، ١٥٦

(٢٢٤) توفير مرحلتين : ابن حوقل : ٤٥٣ – ٤٥٤ . اختصار طريق أيضا ، غير محدد بالأرقام ، لعقبة الفيل : انظر المقدسي : ٤٥٣ (وح . ط) .

(٢٢٥) ابن رسته : ١٧٥ : كانت عقبة فسهلت ، المقدسي : ٤٥٣ ، يشير أيضاً اضافة إلى الآبار ، إلى بعض مواضع خراب في زمنه .

(٢٢٦) الاصطخري : ٧٩ – ٨٠ ابن حوقل : ٢٨٣ – ٢٨٤ ، وحاشية ٢١٢

(٢٢٧) المقدسي : ٤٦

(٢٢٨) ابن خرداذبة : ٣٠، قدامة : ٢٠٨ ، اليعقوبي : ٣٤٢ ، المقدسي : ٤٥٦. الاستشهاد مأخوذ من المقدسي : ٣٨١ . يقارن بما قلناه عن جبال آسية الوسطى : انظر جغرافية دار الاسلام : ج٢ ، ص ٢٢٩ ، ٢٤٦

(٢٢٩) اسفل (جمعه اسافل : القسم المنخفض) أو اندر ، لحف (حرفيا : اسفل جبل قليل العلو) : انظر ابن حوقل : ٤١ ، ٨١ ، ١١١ ، ١٦٩ ، ٢٢٠ ، ٢٦٨ ، ٣٧١ وأماكن أخرى ، المقدسي : ح زمن ص ٣٢١ ، ٣٧٦ ، ٣٨٩ ، ٣٩٤ ، ٤٣٣ ، ٤٤٧ ، ٤٦١ (ح . يز) ، ٤٦٥ ، ٤٩٠ (ح . ب) وأماكن أخرى

(٢٣٠) اكتفي هنا ببعض أمثلة مأخوذة من المقدسي . من أجل البلدان : المقدسي : ١٧٩ ، ٢٠١ ، ٢٠٦ ، ٢٦٢ ، ٢٧٩ ، ٢٩٢ – ٢٩٣ ، ٣١٦ (ح – يه) ، ٣٨٤ : من أجل المدن ، التي يرمز الى اقسامها العالية والمنخفضة أحيانا بالجامع أو السوق ، وحتى بالرباط ، انظر المقدسي : ٧١ (٧١ ، بالنسبة الى مكة الكعبة تمثل الأنتقال بين المنطقتين) . ١٤٠ ، ١٨٤ ، ١٩٩ ، (الفسطاط) ، ٢٧٧ ، ٣١٠ ، ٣٣١ ، ٣٣٦ ، ٣٥٦ ، ٣٥٩ ، ٣٦٠ ، ٤١١ – ٤١٢ ، ٤٣٦ ، أحيانا ، يتعلق الموضوع بمدينتين مختلفتين : المرجع ذاته ، ٢٢٩ ، ٢٩٦ ، ٣٠٣ ، ٣٣٠ ، ٣٤١ ، من أجل حي ، المرجع ذاته : ٢٠٢ ، من أجل قصر : ٤٣١ ، ٤٤٩

(٢٣١) الجمع سهول ، والألفاظ المشتقة : سهلة سهولة ، سهلي ، التي لا أفرق بينها ، لأنها تدرس هنا في نفس النص العلاقة ذاتها للجبل (الملاحظة ذاتها معكوسة : جبل ، جبال ، جبلي) .

(٢٣٢) ابن حوقل ٧٧ ، ٣٧٠ ، ٣٧٦ ، ٤١٥ ، ٤٩٩ ، ٥٠٧ ، ٥١٤ ، المقدسي : ١٢٣ ، ١٦٤ ، ١٧٣ ، ١٧٤ ، ١٨٧ ، ١٨٨ ، ٢٧٩ ، ٢٨٣ ، ٣٥٣ ، ٣٥٤ ، ٣٧٣ ، ٣٧٦ ، ٤٠٧ ، ٤٢١ ، ٤٢٧ ، ٤٣٤ ، ٤٣٥ ، ٤٥٩

(٢٣٣) ابن حوقل : ٤٣١ ، ٤٣٩ ، ٤٤٠ ، ٤٤٢ – ٤٤٥ ، ٤٤٨ ، ٤٤٩ ، ٤٥٠ ، ٥٠٤ ، ٥١٤ ، المقدسي : ١٤٠ ، ٢٣٣ – ٢٣٥ ، ٢٨٠ ، ٢٨٨ – ٢٨٩ ، ٣٠٥ ، ٣٦٠ ، ٣٦٩ ، ٣٧٥ – ٣٧٨ ، ٣٨٩ – ٣٩٠ – ٣٩٣ ، ٤١٤ ، ٤٢٢ ، ٤٢٤ ، ٤٢٥ ، ٤٢٨ ، ٤٣٠ ، ٤٣٢ ، ٤٣٤ ، ٤٣٥ ، ٤٣٧ ، ٤٥٩ ، ٤٦٤ ، ٤٦٥ ، ٤٧٩

(٢٣٤) ابن حوقل : ٤١٥ ، ٤٤٢ ، ٤٩٥، ٥٠٢، ٥١٤ ، المقدسي : ٣٨٩ (ح . آ)
٣٩٣ ، ٤٢٤ ، ٤٢٨ ، ٤٣٠ ، ٤٣٥ ، ٤٦٥ ، ٤٨٠

(٢٣٥) ابن حوقل : ٣٤٦ . حول فجاج ، جمع فج : مضيق مخرم ، شعب ، انظر حاشية ١٩١ ، و ٢٠٠ . يلاحظ ان فجاج أعماق ، يمكن ان تبدو تطور ، بالجمع ، لتعبير مألوف ، خص للدلالة على بلد لا متناهي : من كل فج عميق : من جميع الجهات، من أبعد المناطق (ترجمة ش . بيلا ، العربية الحية ، باريس ، ١٩٦١ ، عمود ٩ — ١٠) مثال آخر ، أقل وضوحا ، بين أرض سهلة وجبل أرض مرتفعة : ابن حوقل : ٥٠٧

(٢٣٦) المقدسي : ١٥٢ ، انظر أيضاً المرجع ذاته ، ١٦٦ ، مع سهل وحده بالمفرد : من أجل فلسطين بدقة : اغوار ، سهل ، جبال : المرجع ذاته ، ١٨٦ ، مع اضافة بادية العرب : سهل ، جبل ، اغوار ، بادية .

(٢٣٧) ابن حوقل : مفترشة

(٢٣٨) ابن حوقل : ٧٤ : واسعة الأفضاء (يحذف « سهل » في ترجمة وايت ، ص ٧١ ، س ٦ : الكلمة غير موجودة في الأصل) .

(٢٣٩) لكن ليس بالضرورة بالنسبة الى دار الاسلام : انظر جغرافية دار الاسلام ، ج٢ ، ١٦١ — ١٦٥ ، ١٩٧

(٢٤٠) ابن حوقل : ١٦٢ اداه وايت ص ١٦١ (انظر ح . ٧٧٢ عنده) حسب م ج ع ، ج٤ ، ١٩٠ ، مبسوط : مستو)

(٢٤١) وايت (ص ٧١) يؤديها بممتلكات واسعة

(٢٤٢) قد تصحح هذه الأقوال ، بهذا المعنى ، ما قلناه من قبل ، عن الجبل ككتلة . على الأقل ، تبدو استثناءات بسبب ندرتها . بشأن هذه الأمثلة ، انظر ما يلي ، ص ٤٧ . حول بلاد ربيلار ، الذي يبرز جيونو اتساعه مع ذلك : انظر طبعة لا بلياد ، باريس ، ج٢ ، ١٩٧٢ ص ٢٠٦ — ٢٠٩

(٢٤٣) ابن حوقل : ٦٨ ، ١٧٤ ، ١٧٦ ، ٢١١ ، ٢٨٨ ، المقدسي : ٨٧ ، ٤٧٩

(٢٤٤) ابن حوقل : ٢٢٦ ، ٢٥٢ — ٢٥٣ ، ٤٣٤ ، ٤٤٠ ، ٤٤٧ ، ٤٤٨ ، ٥٠٢ ، ٥١٠ ، ٥١٢ ، المقدسي : ٣٠٢ ، ٣٠٤ ، ٣٠٧ — ٣٠٨ ، ٣١١

(٢٤٥) ابن حوقل : ٨٧

(٢٤٦) ابن حوقل : ٤٤٨ ، يؤديها وايت ، ٤٣٤ ، « باراضي خالية من الحزونة » .

(٢٤٧) ابن حوقل : ١٠٢

(٢٤٨) ابن حوقل : ٢١١ يقول : سهلية مستوية

(٢٤٩) لا يمكن أن يقصد : ابن حوقل : ص ٣٦ ، « ارض مستوية » ، لأن هذا النعت يجب عندئذ ان ينطبق أيضاً على جبال الرمل . فالتضاد واقع ، كما في الألفاظ المشتقة من جذر سوى ، بين الأستواء وبين حدة انحدار الجبال . فالأستواء ان وجد ، يتوارى على أي حال خلف هذا التضاد ، ولعل دوره الوحيد ينحصر في تقويته ، والا فماذا يمنع ان لم يكن الرمل الأملس ، توقل هذه الكثبان

(٢٥٠) ابن حوقل : ٣٧١ : وعر ، سهل ، جبل ، يترجم وايت (ص ٣٦٢) بدقة تامة اللفظ الأول بـ « منخفض » . بالفعل لا يمكن ان يقصد النص وجود عوائق أرضية فقط ، كما في الأماكن الأخرى ، بل التضريس المقعر ، الذي يتميز ، كما سبق ، عن الجبل وعن السهل : انظر ح ٥٧٧

(٢٥١) صعبة — منيعة ، شاهقة — عالية : ابن حوقل : ٣٧٠

(٢٥٢) المقدسي : ٤٨٨ ، بالنسبة الى مسالك مفازة فارس

(٢٥٣) ابن حوقل : ٨٧ ، ٩٣ (أمثلة عن المغرب) ، فحص البلوط الشهير (انظرا . هويسي ميرندا ، م١(٢) ، ج٢ ، ٧٦٢ — ٧٦٣) مذكور عند ابن حوقل : ١١٠ ، والمقدسي : ٢٤٧ . حول معاني هذا اللفظ ، انظر دوزي ، ملحق . ج٢ ، ٢٤٣

(٢٥٤) ابن حوقل : ٢١٤ (في الحديث عن جبال ماردين) ، يدقق في ما قاله الاصطخري ٥٢ ، المقدسي ٣٠٢ (ح . ٨) في كلامه عن بلخ ، ٣٢٩ (منخفض تحتله بحيرة : منطقة اسافل جبال ، تنطبق الآن مع الحدود الحالية الايرانية الأفغانية في ناحية زابل) .

(٢٥٥) ابن حوقل : ٤٠٢

(٢٥٦) ابن حوقل : ٦٦

(٢٥٧) الاصطخري : ١٥٢ ، ابن حوقل : ٢٤٣ (واضح جداً ، الا أن ترجمة وايت ، ص ٤٥٥ ، تصير أفضل لو توضحت) ، ٤٤١ ، ٤٧٣ (تضاد بين الصحراء

الرمادية والخضرة الداكنة للمزروعات والأشجار)، ٥٠٤ (يحذف « من رمل » في ترجمة وايت ، ص ٤٨٣ ، س ٤) ؛ المقدسي : ٢٣٣ ، ٣٠٨ (والتصحيح ح . يج)، ٤٩٦ (مهم جداً لأنه يشير الى عجيبة وجود مزروعات في وسط الصحراء بين الرمال) .

(٢٥٨) انظر وايت ، مثلا ، : « سهل » عوضا عن صحراء (ابن حوقل ، ترجمة ، ص ٤٢٦ ، ٤٥٥ ، ٤٨٣) ؛ وبشأن الألفاظ المشتقة من جذر سنوي (ص ٦٣ وأماكن اخرى) ، « هضبة » عرضا عن ساحة وصحصاح (ص ٦٣ و ٣٩٣) .

(٢٥٩) الفرضية الثالثة ، أو فرضية لفظ يضيف قيمة رابعة الى القيم التي يتألف منها لفظ سهل ، لم تسجل ، لأن الألفاظ المبحوثة لا يدخل أي منها في هذه الحالة .

(٢٦٠) ولو كانت الألفاظ المشتقة من جذر سوى أهم بكثير من هذه الناحية ، لأنها تقترن على الأقل مرة واحدة بلفظ سهل ، وتسمح بتعيين احدى قيم هذا الجذر .

(٢٦١) بشأن الرفرة ، انظر ابن حوقل : ٢٢١ (خصب يقترن بالمزدوجة سهل سوى ، يقارن بابن حوقل : ١٢٣ ، ١٤٠ ، ١٦٤ ، ١٧٣ (زريعة السهول) ، ١٧٤ ، ٢٣٣ (في سهلة كثيرة المزارع) ، ٢٨٠ — ٢٨١ ، ٣٧٥ ، ٣٧٧ ، ٣٧٨ (في سهلة كثيرة الخير) ، ٤٢١ ، ٤٣٤ ، ٤٣٧ ، ٤٦٤ . يثبت اقتران السهل والخصيب ، بالتضاد ، عند المقدسي ، ٤٠٧ ، في الحديث عن رامهرمز .

اذن تعد صفة استثنائية ، صفة حدب السهل ، وتبرز على هذا الأساس . بشأن اقتران السهل بالجذب ، انظر ابن حوقل ٣٦ (رمال الصحراء) . اخيرا ابن حوقل ، ٤١٥ ، في حديثه عن زرنج ، يبين الصفة الاستثنائية لغنى السهل ، المقتطع من رمل الصحراء بعد جهد جهيد .

(٢٦٢) استثنائية ومقنعة : يتم التعبير عن اقتران فكرة الخصب ، بوساطة جذر آخر ، سوى : ابن حوقل : ١٧٦ (ذكر في الحاشية السابقة) .

(٢٦٣) فحص ، بالمعنى الآخر (معنى الخصب) يكرر معنى سهل . لكن كلا ، لأن فحص يشير إلى الأرض على العموم ، لكن ليس الى السهل : انظر دوزي ، ملحق ٢ ، ١٤٣

(٢٦٤) انظر ابن الفقيه : ٣٢ ، ٣٣ ، الذي يعارض جذري سهل وغلظ

(٢٦٥) ابن حوقل : ٣٦ ، ٤١٥ (ذكر في الحاشية ٢٦١)

(٢٦٦) ابن حوقل : ٣٦

(٢٦٧) هكذا يفهمها ابن حوقل (ذكر في الحاشية ٢٥٥) : مساحة مغلقة محاطة بالجبال

(٢٦٨) انظر الأمثلة الثلاثة (خولان ، طبرقة ، بلد البجة) المذكورة من قبل ص ٤٢ .
انظر أيضاً تعبير جبال وضواحي (جبال وبلدان منفتحة ، معرضة الشمس) عند ابن حوقل :
٤٦٤

(٢٦٩) تقابل هذه النتائج بالنتائج التي استخلصتها سابقا من أحد نصوص الهمداني : « أرض جزيرة العرب حسب الهمداني ، مجلة القاهرة الجديدة ، ج ١ ، ١٩٧٥ ، ص ٢٤١ — ٢٦٣

(٢٧٠) سهل ، سهلة ، صفة (نعت لارض أو بر) : ابن حوقل : ٣٦ ، ٤١٥ ، ٤٣١ ، ٤٤٥ ، ٥٠٧ أيضاً اسمان : المقدسي : ١٤٠ ، ٢٣٣ ، ٢٨٠ ، ٢٨٨— ٢٨٩ ، ٣٠٥ ، ٣٦٠ ، ٣٧٥ ، ٣٧٦ — ٣٧٨ ، ٤٣٤ ، ٤٣٥ ، ٤٣٧ ، ٤٦٤ ، سهول جمع سهل : المقدسي : ١٧٣ ، ٣٧٣ ، ٤٥٩ ، سهولة (عكس جبال) : المقدسي : ٢٨٣ ، سهلي : ابن حوقل : ٢٢١ ، ٥١٤ ، المقدسي : ١٢٣ ، ١٧٤ ، ٢٣٣ وما يليها ، ٤٢١

(٢٧١) انظر ما تقدم ، ص ١٣ ، الحاشية ٥٧

(٢٧٢) هنا وفي الصفحات التالية ، أخذت التدوينات من ابن حوقل والمقدسي من نصوص معبر عنها بصراحة في المكان المعين بأنها جبلية

(٢٧٣) ابن حوقل : ٢٥٧

(٢٧٤) المقدسي : ٢٣٠

(٢٧٥) المقدسي : ١٤٢ (حيث يقال ان احد المناطق باردة لقربها من الجبل) ، ٣٥٤

(٢٧٦) المسعودي (ت) : ٣٠٠

(٢٧٧) المسعودي (م) ، ج٧ ، ١٨٤ ، المسعودي (ت) : ٤٦ — ٤٧

(٢٧٨) المسعودي (ت) : ٦٨ — ٦٩

(٢٧٩) يشير المسعودي الى وجودها ، بلا ايضاح ، في تتمة النص المستشهد به . انظر مثلا المسعودي (م) ، فقرة ٢١٤ ، و ج٧ ، ١٨٤ ، المشار اليه من قبل .

(٢٨٠) انظر جغرافية دار الاسلام ، ج٢ ، ٤٨ — ٥٦

(٢٨١) المرجع ذاته ، ص ٤٩ ، شكل ٨

(٢٨٢) المرجع ذاته ، اشير اليه

(٢٨٣) يعثر كثيرا على هذا التصنيف الى حروم وصرود (مثلا ابن حوقل : ٢٨٧ – ٢٨٨) اذكر الحالتين المشار اليهما هنا ، لأن فيهما تلميحا صريحا الى الجبال : ابن حوقل : ٣١٠ ، المقدسي : ٤٧١ – ٤٧٢ (بشأن كرمان ، وان كان ابن حوقل ، ٣١١ ، يدرج جبال القفص في الجروم) ، بالنسبة الى المغرب : المقدسي ، ٢٣٦ (دون احالة صريحة الى جروم وصرود في الحقيقة) .

(٢٨٤) انظر الحاشية السابقة

(٢٨٥) المقدسي : ٣٥٩ (و ح . يا : « امطار مستمرة »)

(٢٨٦) ابن حوقل : ٣٢ ، المقدسي : ٧٩

(٢٨٧) قرب جبل يسمى جفيراغز ، على تخوم المملكة وبلدان الترك : الاصطخري : ١٧٠ ، ابن حوقل : ٤٨١ (ترجمة ، ص ٤٦٢ ، مع المراجع) وجغرافية دار الاسلام ، ج٢ ، ٢٢١

(٢٨٨) ابن حوقل : ٤٨٨ . يخلط النص فيما يبدو بالتناوب ، الماء الجامد في الصيف والحار في الشتاء ، الخاص بالعيون العالية ، وعيون ماء حار دائم ، ترتبط بحركات نشوء الجبال في المنطقة . انظر ، ب . كاميرا دالميدا ، في فيدال دي لا بلاش وغالوا ، الجغرافية العالمية ، ج٥ : دول بحر البلطيق ، باريس ، ١٩٣٢ ، ص ٢٧٧

(٢٨٩) ابن حوقل، ٢٤٦ (يقول بدقة في هذا المجال ان حلوان المدينة الوحيدة في العراق ، التي تثلج أحيانا) ، ٣١٠ – ٣١١ ، ٤٩٧ ، المقدسي : ٤١٤ ، ٤٣٢ ، ٤٧١

(٢٩٠) المقدسي : ٧٩ ، ٩٥ ، ١٨٦ ، ٣٥٤ ، ٤٢٣

(٢٩١) المقدسي : ٩٥

(٢٩٢) بالنسبة الى النيل : انظر جغرافية دار الاسلام ، ج ٢ ، ١٣٥ وما يليها . بالنسبة الى جيحون وسيحون : ابن حوقل : ٣٢٨ ، ٤٤٩ ، ٤٧٥ . بالنسبة الى مهران : ابن حوقل : ٣٢٨ ، المقدسي ٤٨٢ . الوضع أقل وضوحا بالنسبة الى الفرات (انظر مع ذلك المسعودي (م) ، فقرة ٢٢٨)ودجلة الخارجة من كهف أو باب الظلمات ، في

جبال الجزيرة ، الى شمال شرق آمد ، في ديار بكر . انظر المقدسي : ٢٠ (الترجمة ، ص ٥٥ والفهرس ، ص ٢٥٦) .

(٢٩٣) على التوالي ، ابن حوقل : ١٧٠ (من أجل كل الشبكة المائية العائدة للبحيرة الميتة) ، المقدسي ، ٢٢ ، ١٦٠ (ترجمة فقرة ١٤٦ ، وحاشية ١٢٩) ، ابن حوقل : ١٧٤ (وحاشية ٩٢) ، المقدسي : ٢٢ ، ابن حوقل / ٢١١ ، ابن حوقل : ٢٢٨ ، ٢٩٧ ، ٣٧٠ (تردد بين ارمينيا واذربيجان : ٣٤٥ ، المقدسي : ٣٧٥ ، ابن حوقل : ٢٧٤ – ٢٧٥ (لوحة مفصلة) ، المقدسي : ٢٤ ، المقدسي : ٢٣ – ٢٤ ، ٤٤٥ – ٤٤٦ ، ابن حوقل : ٣٦٥ ، المقدسي : ٣٠٩ (حول تعريف غرجستان ، انظر ما تقدم ، ص ١٥) ابن حوقل : ٤٨٦ ، ٤٩٥ ، ٥٠٦ ، المقدسي : ٣٣٢ .

(٢٩٤) انظر مثلا : ابن حوقل : ١٢٢ ، ١٦٩ ، ٢١١ ، ٢٧٩ ، ٢٨١ ، ٢٧٩ ، ٣٨١ (مع تضاد بين لحف الجبل الرطب ، والقمم الجافة أو القليلة الأمطار) ، ٤٠٢ ، ٤٤٠ ، ٤٨٤ ، ٤٨٧ ، ٤٨٨ ، ٤٩٢ ، ٤٩٥ ، ٤٩٧ ، المقدسي : ١٧٦ (ترجمة ، ص ٢٠٩ ، حاشية ٢٦٣) ، ١٨٨ (ذكر ضعف عيون لبنان)– كذا –: تدوين في فترة الجفاف ، ٢٠٩ ، ٢٢٥ ، ٢٢٧ ، ٢٣٣ – ٢٣٥ ، ٢٧٥ ، ٣١٩ (ح . يه من ص ٣١٨) ، ٣٢٠ (ح . يط) ، ٣٥٩ ، ٣٧٣ ، ٣٨٩ ، ٤١٤ ، ٤٢٧ ، ٤٣١ (ح . ب) ، ٤٣٥ ، ٤٣٧ ، ٤٩٠ (ح . ب) ، ٤٩٣ (ح .يج) ، ٤٩٤ (ح يط من ٤٩٣) .

(٢٩٥) المسعودي (ت) : ٤٥ – ٤٦ . عدلت ترجمة كارادي فو

(٢٩٦) اليعقوبي : ٢٨٩ ، ابن حوقل : ٨٤ – ٨٥ ، ٣٨٢ ، ٤٤٤ ، المقدسي : ١٦١ – ١٦٢ ، ١٧٤ ، ٢٧٢ ، ٣٦٧ ، ٣٧٣ ، ٣٩٣ – ٣٩٤

(٢٩٧) المقدسي : ١٦٠ ، ٣٥٩ ، ابن حوقل : ٤٩٧

(٢٩٨) بالنسبة الى اليهودية (تدوين مبدلة : ابار ، لا عيون) ، انظر المقدسي : ١٧٦ – ١٧٧ (ترجمة ص ٢٠٩ ، ح ٢٦٣) . بالنسبة الى جزيرة العرب ، المرجع ذاته ، ص ٩٤ (مقطع وارد في مقالي المشار اليه في الحاشية ١٠١ (بشأن حالة لبنان ، الا غرب ، انظر الحاشية ٢٩٤ . انظر أيضاً ابن حوقل ، ١٧١ (لمنطقة القدس)، ٣٤٦ (جبال بحيرة خلاط) .

(٢٩٩) ابن حوقل : ٢٨١ (توسيع الا صطخري ، ٧٨) .

(٣٠٠) المقدسي : ٣١٥ ، ٤١٠

(٣٠١) المقدسي : ٤٣٠

(٣٠٢) ابن حوقل : ٣٣ ، ٣٧ ، ٨٤ – ٨٥ ، ٨٩ ، ٩٤ ، ١٧٤ ، ٢٠٤ (بالنسبة لجبل القلال ، انظر جغرافية دار الأسلام ، ج٢ ، ٣٧٩) ، ٢١١ ، ٢١٧ ، ٢٢٠ ، ٣٦٨ ، ٣٧٧ ، ٤٣٩ ، ٤٤٤ وأماكن متفرقة ، المقدسي : ١٨٦ ، ٢٧٢ ، ٣٧٣ ، ٤٣٥ ، ٤٣٧ (مع تصحيح حاشية ﻫ) وأماكن متفرقة . نص هام : نص ابن الفقيه العائد الى ارونه (الا حالة في الحاشية ٥٣) ، وسأعود اليه في الفصل التالي .

(٣٠٣) ابن حوقل : ٣٤٧ – ٣٤٨

(٣٠٤) هكذا اترجم ، حسب النص ، الجمع خيرات ، يمكن ان يعني هذا اللفظ : قمح ، حبوب .

(٣٠٥) بشأن لفظ خلنج ، انظر جغرافية دار الاسلام ، ج٢ ، ص ٥٧٩ ، الفهرس ، الكلمة (خلنج) .

(٣٠٦) مراكب (عوضا عن ركب ، مفرده ركاب) جمع مركب .

(٣٠٧) بشأن قياس ، انظر م ج ع ، ج٤ ، ٣٣٥

(٣٠٨) اعترف بعجزي عن ترجمة لفظ ثالث يصف هؤلاء العبيد : شهوريات ، اذا كان هذا شكلها الصحيح . يقترح وايت (ترجمة ، ص ٣٤١) « المغنيات » ، لكن يصبح اللفظ مكررا مع مغنيات

(٣٠٩) ارطال : وايت ، المرجع ذاته ، يترجمها بقناني

(٣١٠) الاسطال . ويت ، المرجع ذاته ، يترجمها بالاسطال

(٣١١) لجين ، عسجد

(٣١٢) لفظ حب غامض . يتردد وايت في الترجمة في المرجع ذاته . م ج ع ، ج٤ ، ٢١٢ . يعطي لمحبب معنى حبيبي . المقصود بداهة حجر رسمه حبيبي لكن أي حجر ؟ اترجم بـ « غرينا » ، بلا تعيين ، لا تقيد ، في الفرنسية ، بالاشتقاق اللغوي الفقهي ، ولو من بعيد جداً (انظر معجم ليتريه لفظ غرينا وغريناد (يكتب بالأجنبي) .

(٣١٣) ابن حوقل : ٤٤٢ ، ٤٤٤ ، المقدسي : ١٦٠ (ح . ز) ، ١٨٨ ، ٢٢٤ ، ٢٧٨ ، ٢٥٨ ، ٤٠٧ ، ٤٢١ ، ٤٢٤ ، ٤٣٥ ، ٤٣٧ ، ٤٧١

(٣١٤) بالنسبة الى الأشجار ، التي لم تحدد طبيعتها (برية أو مثمرة) ، انظر ، ابن حوقل : ١٧٤ ، ٣١٠ (انظر كتاب الحدود ، ٦٥) ، ٣٧٧ ، ٣٨١ ، ٤٣٩ ، المقدسي : ١٧٣ ، ١٨٦ ، ٢٣٣—٢٣٥ ، ٣٧٣ ، ٤٢٠ — ٤٢١ ، ٤٢٤ ، ٤٣٩ ، ٤٧١ . بالنسبة الى المروج انظر مايلي عن القطعان .

(٣١٥) يبدو وجوده بديهيا تلقائيا ، مع الأشجار (يذكر أحيانا صراحة ، انظر ما تقدم ، ص ٥٤) . في جميع الأحوال ، يشار الى خلو الجبال منه : انظر الحاشية٣٠٦
(٣١٦) حول الثمار ، البرية أو خلافها ، والمشاجر ، انظر ابن حوقل : ٩٠ ، ٩٤، ١٧٢ ، ١٨١ ، ٢١١ ، ٢٢٠ ، ٣٦٨ ، ٣٨١ ، المقدسي : ١٥١ — ١٥٢ ، ١٦٢ ، ١٧٢ (و ح . ك) مع احالة الى كبر التفاح ورخصه) ، ١٧٤ ، ١٧٨ ، ١٨٨ (عن لبنان — ثمار ، قصب « فاري » ، ورند : انظر الترجمة ، ص ٢٣٨ — والجولا ن الذي يذكران الدوام فيه غذاء اعضاء احدى الاخويات) ، ١٨٩ ، ٢٣٣ — ٢٣٥ ، ٢٤١، ٣٥٣ ، ٣٥٤ (يستبعد النخيل بسبب البرد) ، ٣٧٣ ، ٣٩٤ ، ٤١٤ ، ٤٣٥ ، ٤٣٧ ، ٤٧١

(٣١٧) ابن حوقل : ٧٦ ، ٨٤ — ٨٥ ، ٢٠٤ (بالنسبة الى جبل القلال ، انظر الحاشية ٣٠٢) ، ٣٦٥ ، ٤٨٨ ، المقدسي : ٣٥٣ — ٣٥٤ (و ح . ا) ، ٣٧٣

(٣١٨) بالنسبه الى البساتين ، انظر ابن حوقل : ٣٣ ، (بصيغه مجاز) ، ٩٠ ، ٤٣٩ ، ٤٤٤ ، المقدسي : ٢٢٧ ، ٣٥٤ ، ٣٩٤ ، ٤٣٥ ، ٤٣٧ (مع تصحيح الحاشية هـ) . بالنسبه الى الحقول والمزروعات ، انظر ابن حوقل : ٣٧ ، ٨٤ — ٨٥ ، ٩٤ — ٩٥ ، ١٧٤ ، ٢٠٤ (بالنسبة جبل القلال ، المذكور في الحاشيتين ٣٠٢ ، ٣١٧) ، ٢١١ ، ٢٢٠ ، ٣٦٥ ، ٣٧٩ ، المقدسي : ١٦٠ (ح . ر) ، ١٨٦ ، ٢٢٧ ، ٢٣٣ — ٢٣٥ ، ٣٥٤ ، ٣٧٥ ، ٤١٤ ، ٤٧١ . بالنسبة الى خصبها ، انظر ابن حوقل : ٢٨٠ ، ٣١٠ ، ٣٧٧ ، ٥٠٥ (خصب تشير اليه الخضرة) ، المقدسي : ١٦٠ ، ٢٧٢ ، ٢٧٨ ، ٣٧٣ (خصب تشير اليه اسعار المواد الزهيدة) ، ٤٧١ . فلنتذكر أيضاً ما يقابل الجبل المجدب ، وهو استثناء اشير اليه (انظر الا حالا ت في الحواشي ٢٩٨ ، ٣٠٠ ، و ٣٠١) .

(٣١٩) ابن حوقل : ٤٩٨ — ٤٩٩

(٣٢٠) هكذا اترجم الجمع فحاج (المفرد فج) (انظر الحواشي ١٩١ ، ٢٠٠ ، ٢٣٥) . هذه الدروب بين الجبال تفترض كما يرى من بقية النص ، وجود حد ادنى من الأتساع أو الفضاء .

(٣٢١) ابن حوقل : ٩٤ — ٩٥ ، ٢٨٠ ، ٤٩٨ ، ٥٠٥ ، المقدسي : ١٦٠ (ح . ز)، ١٦١ — ١٦٢ ، ١٨٦ ، ٢٣٣ — ٢٣٥ ، ٢٧٨ ، ٣٠٩ ، ٣٥٣ ، ٣٥٤ (ح ١)، ٣٥٥ ، ٣٧٣ ، ٣٧٥ .

(٣٢٢) المقدسي : ٣٨٠

(٣٢٣) ربما ما عدا الأتراك : ابن حوقل يشير الى أن الجبال في غرب فارس مسكونة (مأ هولة) بالأكراد لكن دون تحديد « القرى » ، ويذكر اسماء القبائل فقط (ابن حوقل ، ٣٧٠) . في مكان آخر ، بالنسبة الى فارس (ص ٢٦٩ — ٢٧١) في الحديث عن زموم الكرد، يتحدث ابن حوقل عن القرى والمدن في البدء ، الا أن تتمة النص تلح خلافا لذلك على البداوة وعلى الانتقالات الواسعة ، وتوحي بوضوح بأن هذه المدن والقرى تجمعات خيم . انظر أيضاً ابن حوقل : ٢١٥ ، ٢١٧ ، ٢٢٨ ، ٢٤٧ ، ٢٥٧ ، ٢٦٥ (واضحة جداً) ، ٣٢٨ ، ٣٣٦ ، ٣٥٨ (خريطة : انظر الترجمة ، ص ٣٥٠ ، س ١٠) ، ٣٦٩ . في الأصل، لم تتوضح صراحة صلة الأكراد بالجبال الا مرتين : ص ٢٥٧ (عبر المناخ) ٣٧٠ . استثناء آخر هام : الأقوام البدو في جبال كرمان (ابن حوقل : ٣٠٩ — ٣١٠) .

(٣٢٤) ما تقدم ، ص ٥٢ آخرها — ٥٣

(٣٢٥) احيل ، لبيان هذه الذهنية ، الى التحاليل الرائعة لجورج دوبي ، خاصة في سان برنار ، الفن السيستيري .

(٣٢٦) ابن حوقل : ٣٠٠ ، المقدسي : ٣٣٣ (خراسان) . يضاف ا س ، حسب اشارة المقدسي : ٤٤٣ (ح . يح) : انظر م ج ع ج٤ ، ٢١٨ .

(٣٢٧) ابن حوقل : ٤٨٨ ، ٥٠٢ ، ٥٠٥ — ٥٠٦ ، ٥١٥ ، المقدسي : ٣٩٧ ، ٤٤٣ (ح . يح) ، ٤٧٠ (مع معطيات عن كيفية جمع الانتيموان : لا أفصلها هنا ، لأنها تدخل في دراسة التقنيات التي سوف تعالج في جزء آخر . مع ذلك ، ساتحدث فيما

بعد عن التقنيات التي تسمح بجمع غاز النشادر ، لأننا نستشف عبر الكلام عنها ، كما سوف أقول ، صورا تامة لحياة الجبال) . لا أدري وجه استعمال نضح تعبير نضح الجبل الوارد عند المقدسي ، ٣٩٦ – ٣٩٧

(٣٢٨) ابن حوقل : ٥٠٥ – ٥٠٦ . حول استعمال غاز النشادر في السيمياء ، انظرا . ايلياد ، الحدادون والسيميائيون ، طبعة جديدة ، باريس ، ١٩٧٧ ، ص ١٧٢ (المراجع)

(٣٢٩) ابن حوقل : ٣١٤ ، ٣٤٦ ، ٤٨٧ ، ٤٨٨ ، ٤٩٥ ، ٥٠٥ ، ٥١٥ ، المقدسي : ١٨٤ ، ٢٠٩ (وحاشية د)، ٣٣٣ ، ٤٤٣ (و ح . يح) . فلنتذكر ان ملح النشادر يمكن ادراجه في فئة هذه المواد

(٣٣٠) ابن حوقل ٣٠٠ (بالنسبة الى جبال اصطخر ، الاشارة اليها يسبقها قائمة بمعادن فارس لكن دون التحديد ما اذا كانت جبلية) ، ٤٣٤ ، ٥٠٦ ، المقدسي : ١٨٤ ، ٤٤٣ ، ٤٧١

(٣٣١) ابن حوقل : ٥٠ (ذهب البجة : انظر جغرافية دار الاسلام ، ج ٢ ، ١٧٤) ٣٠٩٠ – ٣١٠ ، ٣١٤ ٣٤٨ ، ٤٣٤ ، ٤٤١ (مع فكرة هامة : توقف استثمار الفضة بسبب نقص الحطب) ٤٤٥، ٤٩٥ صعوبات الأستخراج) ، ٥٠٥ ، ٥١٠، ٥١٥ ، المقدسي : ٢٠٩ ، ٢٢٦ (و ح . ط) ، ٢٧٥ ، ٢٧٨ ، ٢٩٨ ، ٣٠٣، ٣٢٦ ، ٢٧١

(٣٣٢) ابن حوقل : ٣٧ ، ٥٠ (زمرد بلد البجة : انظر جغرافية دار الاسلام ، ج٢ ، مشار اليه) ، ١٥٠ ، ٣٤٨ ، ٤٣٤ (معدن القدور البرام ، تحمل الى سائر بلاد خراسان من جبلها) ، ٤٨٨ ، ٥١٥ . حول ترجمة غرينا « قصد يرام » انظر الحاشية ٣١٢ . انظر أيضاً المقدسي : ٣٠٣ (اطار جبلي : قرب بلدان « جبل الفضة ») .

(٣٣٣) ابن حوقل : ٥١٥ ، القرآن ، ٣٥ ، ٢٥ / ٢٧

(٣٣٤) حدود العالم : ٦٥

(٣٣٥) ابن حوقل : ٣٤٦ – ٣٤٨ (حول صعوبة القطع في المجموعة الجبلية ، انظر الحاشية ١٧٦) ، ٣٧٧ ، ٥١٤ ، المقدسي : ٣١٠ ، ٣٥٥ ، ٣٥٦ ، ٣٦٨ – ٣٦٩

(٣٣٦) يمكن ان نتحدث أيضاً بداهة عن بربر جبال افريقية الشماليه . عن الأكراد وارتباطهم الواضح بالجبال (فارس) ، انظر المقدسي : ٤٣٥ . يشكل الأرمن في جبال الأمانوس حالة خاصة : انظر المقدسي : ترجمة ص ٢٣٨ ، حاشية ١٧٧

(٣٣٧) المقدسي : ٢٣٠

(٣٣٨) ابن حوقل : ٨٥ ، ٤٠٢

(٣٣٩) تلتقى استنتاجاتي في أكثر من نقطة مع استنتاجات ب . ا . كمب ، السلطات ، والخطابات ورؤية العالم ، عند ياسين بن خير الله العمري الموصلي . باريس ، جامعة باريس ٣ ، ١٩٧٩ ، اطروحة دور ثالث ، سحب .

(٣٤٠) الأصطخري : ٩٨ ، ابن حوقل : ٣١٠ ، المقدسي : ٤٧١

(٣٤١) ابن حوقل : ٣٤٦ ، المقدسي : ٣٨١

(٣٤٢) الأصطخري : ٩٨ ، ابن حوقل : ٣١٠ ، المقدسي : ٤٧١ ، ٤٨٩

(٣٤٣) ابن حوقل : ٣٧٧ ، ٤٤٤ ، ٤٩٨

(٣٤٤) ابن حوقل : ٤٩٨ ، المقدسي : ١٨٨ (بالنسبة الى لبنان ، وان كانت نصرانية نساكه غير محددة) ، ٢٠٩ ، ٣٧٤ ، ٣٧٦ ، حول استعمال القصب الفارسي . المقصود هنا ، انظر م ج ع ، ج٤ ، ٣٢٥

(٣٤٥) ابن حوقل : ٣٧ ، ٩٤ — ٩٥ ، ٣٧٢ ، ٣٧١ ، المقدسي : ١٨٨ ، ٣٦٧ (اديرة في جبال طبرستان ، بلا تدقيق اضافي) ، ٣٧١ (ح . بط ، من ص ٣٧٠) ، ٣٩٨ — ٣٩٩ ، وبالنسبة الى جزيرة العرب ، ما تقدم ، ص ٢١ —٢٢ .المسعودي (ت)، ٧٤ ، يتحدث بلا تدقيق ، عن نساك في الجبال الواقعة بين قومس ونيسابور .

(٣٤٦) ابن حوقل : ٢٧١ ، ٣١٠ ، ٥٠٥ ، المقدسي : ٢٣٤ ، ٣٥٤ (ح . ١) ، ٤٨٩

(٣٤٧) ابن حوقل : ١١٨ (صقلية ، ٢٠٠ (بلاد الروم) ، ٣٤٦ (منطقة في ارمينية)، ٣٨٣ (جرجان) . مجموعات اخرى عند المقدسي : ١٠٣ (اعراف اليمن) ، ١٤٠ (ثغور الأناضول والجزيرة) ، ٣٥٤ (ح ١٠) و ٣٥٦ — ٣٥٧ (بلد قومس) .

(٣٤٨) الأصطخري : ٧٣ ، ابن حوقل . ٢٧١ — ٢٧٣

(٣٤٩) من الفارسية : ديج — باياه : اثافي القدر . يصحح هنا (ابن حوقل ، ٢٧٢) : « شعاب » في ترجمة وايت (ص ٢٦٩) بـ « حروف جبلية » ، « اعراف » .

(٣٥٠) حول هذا النظام انظر م ج ع ، ج٤ ، ١٨٤

(٣٥١) المقدسي : ٨٥ ، ١٧٥ ، ٢٠٠ (ح . يب) . فيما يتعلق باوس (ابن حوقل : ٥١٣) ، يقول النص ان المدينة « ماتصقة » بجبل عليه مرقب للترك : وابت (ترجمة ، ص ٤٩٠) يجعل هذ المرصد ملكا لهم . الأفضل ان نفهم على الوجه التالي : للترك ، أي الاحتياط من الخطر التركي ، اذ لا يتصور ، فى مثل هذا الوضع الملائم ، ان يضطر الترك ان يحرسوا في هذا المكان البقول والمواشي ، كما لو كانوا هم المحاصرين . في ختام هذه الاحالات ، اذكر بالأرض الواسعة المحصنة بيز الجبل والبحر (الخزر) من دربند (باب الأبواب) الى تخوم دار الاسلام : انظر جغرافية دار الاسلام ، ج٢ ، ص ٢٦٣

(٣٥٢) ابن حوقل : ٢٢٥ ، بشأن هذا النوع من المدن ، انظر ابن حوقل : ٢٢٢ ، ٢٢٨ ، ٤٥٤ (الرباط) ، ٤٤٩ — ٤٥٠ ، المقدسي : ١٦٧ ، ٢٢٩ ، ٢٣٤ ، ٢٩١ ، ٣٠٣ (ح . د من ٣٠٢) ، ٣٠٨ ، ٣١١ . نذكر أيضاً بجبل القلال (انظر جغرافية دار الاسلام ، ج٢ ، ٣٧٩) خارج حدود دار الاسلام (ابن حوقل ٢٠٤) .

(٣٥٣) الاصطخري : ٩٨ ، ابن حوقل : ٣١٠ ، المقدسي : ٤٧١ (سكان جبال البارز في كرمان) . يطبق المؤلفان الأولان ، بشيء من التناقض ، الصيغة على البلوص ، الذين يعيشون على السفوح المنخفضة من جبال القفص .

(٣٥٤) مأخوذ من المقدسي : ٣٤ ، ٣٥ (ح . ح) ، ١٧٣ ، ٣٠٩ — ٣١٠

(٣٥٥) يمكن ان تنعت الصفة « عزيزي » في هذا النص ، عمر بن عبد العزيز ، الخليفة الأموي ، الذي يعتبر مثال التقوى والسنة : انظر م ج ع ، ج٤ ، ٣٠٠

(٣٥٦) حرفيا : عادات العمرين ، أي خليفتي الرسول : أبي بكر وعمر

(٣٥٧) وأحيانا الدواب أيضاً : صيغة مهمة عند المقدسي ، ٤٦٢ ، يتحدث فيها عن « دواب جبلية الفت هذا النوع من التوقل» .

(٣٥٨) المقدسي : ٣٥٤ (ح ١٠)

(٣٥٩) المقدسي : ٣٥٥ ، ٣٥٦ ، ٣٦٠

(٣٦٠) بشأن اللفظين لباقة واليف ، انظر م ج ع ، ج٤ ، على التوالي ، ص ٣٤٧ ، و ١٨٠ — ١٨١ . أما لفظ دولة (أفضل من دولة : مصيبة ، سوء حظ) فيحيل الى ميل

الديلميين الى سلطة قوية ، بداهة : اشارة الى سلالة (دولة) البويهيين ، التي سيأتي الكلام عنها .

(٣٦١) المقدسي : ٣٩٩ آخرها — ٤٠٠ ، يعود الى وصف مزاج الديلميين كخاتمة الصفحات المذكورة آنفاً .

(٣٦٢) انظر أيضاً ، بصيغة مختصرة ، الاشارة الى اوراس ، عند ابن حوقل : ٨٤ آخرها — ٨٥

(٣٦٣) الاصطخري : ٩٨ ، ابن حوقل : ٣١٠ ، ٤٠٢ ، المقدسي : ٤٧١ ، ٤٨٨ — ٤٨٩ ، ٤٩٣ (و ح . يج) ، ٤٩٤ (ح . يط من ص ٤٩٣) .

(٣٦٤) لا خلاق لهم : انظر دوزي ، ملحق ١ ، ٣٩٩ . تعذيب آخر مطبق في هذه المناطق : الركض حافي الأرجل عشرين فرسخا : المقدسي : ٤٨٩

(٣٦٥) ما تقدم : ص ١٠ ، ٢١ ، ٣٦

(٣٦٦) ابن الفقيه : ٥٩ ، المقدسي : ١٨٦

(٣٦٧) ابن حوقل : ٢٩٧ (استنادا الى الاصطخري : ٩١ ، مع بعض التعديلات ، انظر شوارز ، فارس ، ج١ ، ٤) ، المقدسي : ١٢٢ ، ١٣٠ ، ٤٤٥

(٣٦٨) انظر ما تقدم : ص ١٧ و ٢١ ، ابن رستة : ١١٦ — ١١٧ ، الاصطخري : ٤٢ ، ابن حوقل : ١٦٠ ، المقدسي : ٤٦ ، ١٣٦ ، ١٤٦ ، ١٥١ (بشأن « ربوة يسوع » ، جبل الجليل ، وتحديد مواقعه المحتملة حسب تقاليد العصر ، انظر ياقوت ، معجم البلدان ، ج٢ ، ١٥٧ — ١٥٨ — الذي يستشهد بابن الفقيه في صيغته التامة ، التي لا نعرفها اليوم — والمقدسي ، ترجمة ، ص ١٤٨ ، ح ١٦) ، ١٥٢ آخرها — ١٥٤ (اصحاب الكهف ، انظر الترجمة ، فقرة ١٢٣ — ١٢٧) ، ١٧٢ ، ١٧٣ (ترجمة ، ص ٢٠١ ، ح ٢٢٩٠) ، ٢٠٩ (ترجمة في الحوليات الاسلامية ، ١١ روماني ، ١٩٧٢ ، ص ١٣٢ ، ح . ١٧٢) . حول أصحاب الكهف ، انظر جغرافية دار الاسلام ، ج٢ ، ٤٦٠ — ٤٦١ ، و ا . ليسكو ، معبد لاصحاب الكهف في الأردن ، م دا ، ٣٦ ، روماني ، ١٩٦٨ ، ص ٣ — ٩ أخيرا ، يجب ان نلاحظ ان جبل صديقا الذي يتحدث عنه المقدسي ، ١٨٦ و ١٨٨ ، يتصل على الأرجح بتاريخ أبناء (ذرية) نبي ثمود : انظر المقدسي ، ترجمة ، ص ٢٣٧ ، ح . ١٠٩

(٣٦٩) يذكر تلي التوبة بداهة بعودة يونس الى الله وتوبته ، وعودة الله الى البشر ، وصفحه عن يونس وعن سكان نينوى .

(٣٧٠) ما تقدم ، ص ١٠ آخرها – ١١

(٣٧١) ابن الفقيه : ٥٩ ، المقدسي : ٢٠٩

(٣٧٢) المقدسي : ١٨٨

(٣٧٣) ما تقدم ، ص ٢١ آخرها

(٣٧٤) الهمداني : ٧٩

(٣٧٥) ابن حوقل : ٣٦٥ ، ٤٣٨ ، المقدسي : ٤٦

(٣٧٦) المقدسي : ٤٦ ، ٦٧ ، ١٩٣ ، ٢٠٩ انظر القرآن ، ٢٤ ، ٣٥ ، والمقدسي ، ترجمة ، ص ١١٩ ، ح . ٧

(٣٧٧) ابن حوقل : ١٧١ ، المقدسي : ٤٦ ، ١٥١ ، ١٧٢ (ترجمة ، ص ١٩٩ ، ح. ٢١٧) ، ١٧٣ ، ١٨٦ – ١٨٨

(٣٧٨) ينبغي أيضاً ان نفكر بقاف ، الجبل الأسطوري في اقاصي العالم . تأملنا فيها من ناحية أخرى ، في اطار دراسة الأرض الكلية : انظر جغرافية دار الاسلام ، ج٢ ، ١٠ ، ٨ ، ٢٧٠ .

(٣٧٩) انظر ما تقدم : ص ١٣ . بشأن جبل دنباوند ، ومنطقته وأساطيره ، انظر ابن خرداذبه : ١١٨ قدامة : ٢٤٤ ، ٢٥٠ ، ابن رستة : ٩٧ ، ١٠٦ ، ١٥١ ، ابن الفقيه : ٢٧٤ – ٢٧٩ ، المسعودي (م) ، فقرة ٢٠٤ – ٢٠٥ ، ٥٣٧ – ٥٣٨ ، ١١١٥ ، المسعودي (ت) ، ٦٨ ، ٧٤ ، ١٢٣ – ١٢٤ ، المقدسي ج٣ ، ١٤٦ – ١٤٨ مسعر (ب) : ٣٣ – ٣٤ ، حدود العالم : ١٣٥ (٣٧٥) ، الاصطخري : ١٢٣ ابن حوقل : ٣٧١ ، ٣٧٢ ، ٣٨٠ ، المقدسي: ٣٨٤ ، ٣٨٦ ، ٣٩٢ (ح ١٠) ، ٣٩٨ ، ٤٠٠ . انظر أيضاً م . ستريك ، م١(٢) ، ج٢ ، ١٠٨ – ١٠٩ ، وبلانشار ، جغرافية عالمية ، ج٨ ، مشار اليها ، ١٣٨ .

(٣٨٠) بمعدل ٥٠٪ فقط ، باقراره ، لكن « يدفع حياته ثمناً لذلك

(٣٨١) أحمر على حد قول المسعودي : اللون العام للبركان داكن ، وناجم عن التراخيت ، وهي صخر شبه بورفيري .

(٣٨٢) حماقات على حد قوله عن قصص دنباوند ، وهو يشير اليها (لأن أصله فارسي ، ويتمسك بتقاليد بلده : انظر جغرافية دار الاسلام ، ج١ ، ٢٩٣ . لكن يتفوق هنا

ذهنه العلمي) ، باقتضاب بالغ. في الواقع . ويلوذ ابن حوقل والمقدسي بالصمت حيال هذا الموضوع .

(٣٨٣) ابن الفقيه : ٢٧٧ – ٢٧٨ : ترجمة (بعد الوفاة) ﻫ . ماسى ، راجعها ش . بيلا ، دمشق ، ١٩٧٣ . الحيوان المقصود هنا الغول الأسير ، مثلما يتضح من تتمة النص . يعثر مجددا على موضوع الباب الذي يدل على حدود العالم ، في اسطورة ياجوج وماجوج : انظر جغرافية دار الاسلام ، ج٢ ، ٥٠٠ وما يليها .

(٣٨٤) يصل الاسطورة الفارسية ، بطرق اخرى ، العناصر ذاتها (النار ، المصيبة ، المدرفة) التي تربطها الاسطورة اليونانية ببعضها (خاق هيفايستوس فولكين باندورا ، فتح ايبيميته العلبة ، وهو شقيق بروميتيه خالق الانسان وسارق النار الالهية) .

(٣٨٥) يعتبر تقليد اخر ، هامشي هو أيضاً ، الأسير تنينا له سبعة اروس ، نشأ من مستبد تائب (ابن الفقيه : آخر ٢٧٨) . بشأن اساطير اخرى ، غير واردة في النصوص الجغرافية ، انظر م . ستريك ، في م١(٢) ، ج٢ ، ١٠٨ – ١٠٩

(٣٨٦) انظر دوره في نهضة الادب الفارسي ، شاهنامه خاصة : الاحالات في ستريك ، المرجع ذاته .

(٣٨٧) ما تقدم ، ص ٩

(٣٨٨) حدود العالم : ٧٩

(٣٨٩) تبدو اللوحة الواردة في كتاب حدود العالم (ص ٧٩ – ٨٢) ، من هذه الناحية واضحة الى حد كبير . فهذا المصنف وسط بين جغرافية صورة الأرض وجغرافية المملكة الأدق ، ويقدم في لوحته جميع المفاوز المعروفة جنبا الى جنب ، كبرت أم صغرت ، الفت مجموعات أم لم تؤلف الا انها لا تحة فقط (أو تعليق على اطلس اذا شئنا) ، حريصة فقط تقريبا على تحديد المواقع وعلى الطوبوغرافية ، وفي جميع الأحوال قليلة المعلومات ، ان لم نقل بصراحة خالية من المعارف الدقيقة عن مفهوم الصحراء بالذات والتعريف المعطى في اللوحة ، والمذكور من قبل يكفي بحد ذاته ونهائيا .

(٣٩٠) الاصطخري : ٢٠ ، ٣٩ ، ٤١ ، ٤٣ ، ابن حوقل : ١٩ ، ١٣٢ ، ١٤٣ ، ١٥٨ ، ١٦٥ ، المقدسي : ١٩٣ ، ٢٠٩ – ٢١٠ .

(٣٩١) انظر ما تقدم ، ص ٦٦ ، في الكلام عن سيناء

(٣٩٢) التقدير صحيح : هذا بالفعل اعظم عرض في شبه جزيرة سينا تقريبا ، وفي الأتجاه الآخر ، المسافة بين سينا على عرض الا سماعيلية ، اذ ان القسم الأبعد الى الشمال ، يؤلف حسب المصنفين الجغرافين منطقة مصرية ، الجفار (من الفرع الشرقي للنيل الى العريش) .

(٣٩٣) السماق ، مفردها سمقة : انظر م ج ع ، ج٤ ، ٢٦٤

(٣٩٤) تيه ، مصدر تاه : بالمعنى الأصلي ، مكان ضل فيه بنو اسرائيل الطريق

(٣٩٥) مفازة عند المقدسي على الأرجح ، الا أن النص تغير : انظر المقدسي : ٢١٠ ح ١٠) .

(٣٩٦) ما تقدم ، ص ٤٤

(٣٩٧) بالنسبة الى البحث الذي يهمنا هنا ، احالاتنا تضاف الى احالا ت الحاشية ٢٥٧ ، وهي : الاصطخري : ٢٦ ، ٧٩ ، ١٣٦ ابن حوقل : ٣٧ ، ٢٨٣ ، ٤٠٦ ، ٤٧٣ ، المقدسي : ٤٤ ، ٣٦١ ، ٣٩٦ ، ٤٧٨ ، ٤٩٤

(٣٩٨) المقدسي : ٤٤ (بالنسبة الى مجمل المقطع ، انظر المرجع ذاته ، ٣٣ — ٣٥)

(٣٩٩) ابن حوقل : ٤٧٣ ، ذكر من قبل في الحاشية ٢٥٧ . يحذف من ترجمة وايت ، ص ٤٥٥ ، س ٢٤ — ٢٥ ، النفي (« لا يرى شيئاً . . . . الا ») الذي يفيد عكس المعنى .

(٤٠٠) الجاحظ (مستشهد به ، ابن حوقل ، المرجع ذاته ، بكنيته ابي عثمان) لا يتحدث في الحقيقة عن صحراء (اذا استشهد به ابن حوقل حرفيا) ويتوسع النقاش في الواقع ، ويتعدى هذا المفهوم ، ليصل الى جمال اجتماع الأشجار والأرض المزروعة وتبدو الصحراء في نص ابن حوقل — باسمها — أرضا ليست مجدبة بالضرورة بلا ريب ، لكن بعيدة عن الخضرة الحقيقية الظاهرة في الحقول الحقيقية والمشاجر .

(٤٠١) ابن حوقل : ٦١ ، ١٥٣ ، ١٥٨ ، ٤٥٢ ، ٥١٦ ، المقدسي : ٢٣١ ، ٢٤٣ ، ٢٨٢ . انظر أيضاً اسحاق بن الحسين : ٤٥٠ — ٤٥٢

(٤٠٢) ترد « الرملة » أحيانا أيضاً ، وهي اسم حبة الرمل أو المكان الرملي أو الأرض الرملية .

(٤٠٣) انظر ابن حوقل : ٣٦ ، ٣٩ ، ٦٧ ، ٨٦ ، ١٥٨ ، ٢٥٣ ، ٤٠٨ ، ٥١٣ ،

وأماكن أخرى ، المقدسي : ٨٧ ، ٢٣١ ، ٢٤٦ ، ٢٨١ - ٢٨٢ ، ٢٩٢ ، ٣٢٠ (وحاشية يط) ، ٤٣٨ ، ٤٥٩ ، ٤٦٧ ، ٤٨٨ ، وأماكن أخرى حول الرمل المجتاح هنا أيضاً ، لكن في نص يجمع فيه لفظ رمل مع لفظ برية أو مفازة أو بادية ، انظر مثلا ابن حوقل : ٦١ ، ١٥٣ ، ١٥٨ . حول بلاد زرنج ، انظر الاصطخري : ٢١٤ ، وابن حوقل : ٤١٥ - ٤١٦ .

(٤٠٤) انظر ما تقدم : ص ٥ - ٨

(٤٠٥) ابن حوقل : ٣٥ - ٣٦ ، و ١٥٧ - ١٥٨

(٤٠٦) قد ينطبق هذا الوضع ، بداهة وقطعا ، تقديراً ، على اسماء البلدان الأخرى ، المذكور انها داخلة في النظام الرملي : ولو اقتصرت نحويا على بعض منها،في حين تشملها الاضافة كلها في الواقع .

(٤٠٧) ابن حوقل : ٣٥ ، ٣٨ ، ١٥٧ ، ١٥٨ ، المقدسي : ١٥٤

(٤٠٨) حسب ابن حوقل على الأقل ، لكن انظر تحديد موضع آخر في حدود العالم : ٢٢٢

(٤٠٩) احيل في جميع هذه النقاط ، اضافة الى جميع ما هو مدون بشأنها وجمع حتى الآن، الى مقالي المعنون : « ارض جزيرة العرب حسب الهمداني » ، مجلة القاهرة الجديدة (القاهرة ١ روماني ، ١٩٧٥ ، ص ٢٤٣ - ٢٤٤)

(٤١٠) مع اسماء مشتقة من الجذر ذاته : قفرة ومقفر . انظر الاصطخري : ٢٥ ، ٢٨ ، ٣١ ، ابن حوقل : ٣٤ ، ٤١ ، ٥٠ ، المقدسي : ٢٤١ ، ٤٥٩

(٤١١) هذا هو تعريف الهمداني (الحاشية ٤٠٩) . يتحدث لسان العرب عن خلاء بلا نبات ولا ماء .

(٤١٢) انظر الاستشهادات بالاصطخري وابن حوقل في الحاشية ٤١٠

(٤١٣) ابن حوقل : ٦١ ، ١٥٣ ، ١٧٠ ، المقدسي : ٤٦٧

(٤١٤) الاصطخري : ٢٧ ، ابن حوقل : ٣٩ ، ١٤٨ . ذكرت برية أيضاً وحدها بلا نعت ، عند ابن حوقل : ٥١٢ ، المقدسي : ٢٤٦ ، ٢٨٨ . انظر أيضاً المقدسي : ٤٤ (نص استشهد به وترجم ص ٧١) .

(٤١٥) ابن حوقل : ٣٩ (الاصطخري : ٢٧) و ٤١ (تصحيح ترجمة وايت ، ص

٣٩ : لا يمكن ان يكون المقصود « السهول » ، لأن الطريق في سفح الجبل ، ولا بد ان يقال في الحد الأدنى « فوق السهول » لا « عبر السهول » .

(٤١٦) الاصطخري : ٦٠ ، ١٠٥ ، ابن حوقل : ٢٠ ، ٢٢ ، ٢٤٣ ، ٣٢٤ ، ٥٠٧

(٤١٧) حول هذا المعنى للفظ « برية » أو الصفة « برى »(ق) ، انظر الاصطخري : ٤٦ ، ابن حوقل : ١٨١ (الحديث عن منبج بين ساحل الشام ونهر الفرات ، « مدينة برية » ، أي بعيدة في داخل البر على حد قولنا . تصحح ترجمة وايت ، ص ١٧٨ ، مع ملاحظة ان ابن حوقل خفف نص الاصطخري : (في برية) ، وجعله « مدينة برية » ، المقدسي : ١١٨ (طرف البصرة البري : بداهة يقابله الطرف النهري أو البحري) ، ١٤٠ (اذرمة في الجزيرة : اذرمة صغيرة في البرية . استشهاد غير ثابت ، لكنه لعله يعني « بعيدا عن أي مجرى مائي » ، في هذه البلاد التي يخترقها دجلة والفرات ورافدهما) ، ٢٣٢ (بطرلية ، في صقلية : بطرلية قبلية برية ، مثال واضح جداً ، بعكس المدن البحرية الواردة في النص ذاته – برطنيق غير بحرية) ، ٢٨٨ (تقابل جهة النهر ، جهة البر) .

(٤١٨) الحديث عن منبج (الحاشية ٤١٧ السابقة) .

(٤١٩) ابن حوقل : ٨٣ ، ١٠٣ ، ٢٢٧ ، ٣٠٩ (جدير بالاهتمام لأن الاصطخري عنده مفاوز فقط ، المقدسي : ٤٨٦

(٤٢٠) منقطع : يمكن فهمه « متباعدة » ، وان كان النص (اتساع الصحراء الكبرى) لا يسمح بهذا التاؤيل .

(٤٢١) المقدسي : ١٢٨

(٤٢٢) رأينا (ما تقدم ، ص ٧٠) ان صحراء سينا على حدة ، وتستشف صورة الهلال الخصيب عبر لفظ مقوسة : المقدسي : ٢٤٩

(٤٢٣) ابن حوقل : ١٠١ ، عند البربر ، النموذج ذاته ، ولفظ بادية أيضاً ، عند البلوص (الاصطخري : ٩٨ ، ابن حوقل : ٣١٠ ، المقدسي : ٤٧١) ، وعند البدهة في السند (الاصطخري : ١٠٥ ، ٩٨ ، ابن حوقل : ٣٢٣ – ٣٢٤ ، وان قيل ان لهم اخصاصا واجاما ياؤون اليها : ربما كان هذا هو السبب الذي دعا ابن حوقل الى تصحيح الاصطخري – الذي يتحدث فقط عن البادية – والقول : والبدهة كالبادية من البربر ، ليبتعد بلا ريب عن نموذج البداوة الشاملة الخالصة المنتشرة عند العرب) .

(٤٢٤) المقدسي : ٦٦،١٠ ، ٢٤٨،١٥٢ – ٢٥٦، ٤٨٧ – ٤٩٦ وأماكن اخرى .
لم يحسب المغرب بين الأقاليم العربية التي تحوي بادية (المرجع ذاته : ٢٤٨) .

(٤٢٥) بشأن هذه البلدان ، انظر ابن حوقل : ٢٠ ، ٢١ ، ٣٤ ، ٣٥ ، ٣٨ ، ٣٩ ، ٤١ ، ١٥٨ ، ١٧٩ ، ١٨٦ ، ٢٣٥ ، ٢٣٩ ، ٢٤٤ ، ٢٤٧ ، وأماكن اخرى ، المقدسي : ٦٢ – ٦٣ ، ٦٦ ، ٩٧ ، ١١٣ ، ١١٧ –١٢٠ ، ١٢٣ ، ١٢٨ ، ١٤٢، ١٥٦ ، ١٦٢ ، ١٧٣ ، ١٧٥ ، ١٧٨ ، ١٨٤ ، ١٨٦ ، ٢٤٩ ، وأماكن اخرى .

(٤٢٦) المقدسي : ١٥٢

(٤٢٧) ابن حوقل : ٦٩ ، ٧١ – ٧٨ ، ٨١ ، ٨٤ ، ١٠١ ، ٢٥٧ ، ٣٢٨ ، المقدسي : ٢٢٤ ، ٢٤٣ ، ٤١٤ ، ٤٨٤

(٤٢٨) ابن حوقل : ٧٧ ، ٨١ ، ٨٤ ، ١٠١ ، المقدسي : ٢٤٣ ، ٢٤٨ ، ٢٥٢ ، ٢٨٤ .

(٤٢٩) يشير المقدسي : ٢٤٨ ، ٢٥٢ ، إلى كثرة العرب في البادية .

(٤٣٠) على ما هي عليه – اما بصفة : مفترشة (الاصطخرى : ٦٠) ، أو واسعة ، تصف البادية (المقدسي : ٢٥٢) او ايضاً بوصف البادية اغلب الارض (الاصطخرى : ١٠٧ ، ابن حوقل : ٣٢٨ ، المقدسي : ٤٨٤) .

(٤٣١) علنى ، بخوس ، مباخس (حول النقطتين الأخيرتين ، انظر م ج ع ، ج٤ ، ١٨٥) . ويذكر نقص المياه الدائمة الجريان عند الحاجة : الاصطخري : ١٠٧ ، ابن حوقل : ٣٢٨ ، المقدسي : ٤٨٤) .

(٤٣٢) ابن حوقل : ٧٨ : في ضواحي المدن ، وسنعود إلى هذه الحالة .

(٤٣٣) ابن حوقل : ٣٩ : (تصحح ترجمة وايت ، ص ٣٨ : « وادي ») ، ٦٩

(٤٣٤) ابن حوقل : ٧٦ (حول لفظ حوزة : مرعي طبيعي ، ونتاج بمعنى قطعان ، انظر م ج ع ، ج٤ ، ٢٢٠ ، ٣٦٠) ، ٧٨ ، ٢٣٩ ، المقدسي : ١٤٢

(٤٣٥) ما سبق : ص ٧٦ (والحاشية ٤٢٣) .

(٤٣٦) الاصطخري : ٢٦٠ كرره ابن حوقل، لكن دون ذكر الاتساع، لسبب انشائي بلا شك ، بقصد المحافظة على توازن السجع (منقطعة العمارة ، منفردة المنازل والقرى) .

(٤٣٧) الاصطخري : ١٠٥ ، ١٠٧ ، كرره ابن حوقل : ٣٢٥ ، ٣٢٨ والمقدسي : ٤٨٤ (حيث الصيغتان اللتان سوف نستشهد بهما مفصولتان ببضعة أسطر) .

(٤٣٨) المقدسي : ٢٥٢

(٤٣٩) بقع ، بادية ، سهلة : المقدسي : آخر ٢٤٩ ، آخر ٢٥٢ ، ٢٥٣

(٤٤٠) المقدسي : ٢٥٣

(٤٤١) المقدسي : ٢٤٨ ، الاحظ أيضاً بين قوسين ، غياب الألوان : اللون الأسود وحده مذكور (المرجع ذاته ، ٢٥٣ ، مثالان) .

(٤٤٢) المقدسي : ٢٤٨ . يقول في ص ٢٤٨ : فيد مدينة صغيرة ، ويعلن صراحة : وهي من مدن الحجاز لا محالة ، ولكن أوصلنا اليها وصف الطرق (طريق القادسية) .

(٤٤٣) المقدسي : ٢٤٨

(٤٤٤) حول المواضيع المعروضة ، انظر المقدسي : ٢٤٨ — ٢٥٠

(٤٤٥) لا تدخل فيها الطرق الفرعية (البنيات : حول هذا اللفظ ، انظر م ج ع ، ج٤ ، ١٩٤) المقدسي : ٢٥٢ .

(٤٤٦) المقدسي : ٢٥٠ — ٢٥٢

(٤٤٧) يقال لنا بان بادية العرب بها بحيرة ، ولا نهر الا نهر الأزرق ، الزرقاء اليوم ، رافد نهر الاردن من الضفة الشرقية (يبق في التوراة) . حذار من الالتباس مع نهر الزرقاء الصغير الساحلي في فلسطين ، أي نهر التمساح في العصور القديمة .

(٤٤٨) منهل ، جمعه مناهل . حول هذه الطرق ، انظر المقدسي : ٢٤٩ وما يليها . حول الليالي : ٢٥٢ ، حول منهل : ٢٥٠ (وحاشية آ) ، ٢٥٤ ، و م ج ع ، ج٤ ، ٣٦٨

(٤٤٩) المقدسي : ٢٤٨

(٤٥٠) حول هذه المواضيع والمواضيع اللاحقة (تصنيف المياه) ، أحيل اجمالا الى المقدسي : ٢٥٢ — ٢٥٤

(٤٥١) المقدسي : ٢٤٨ — ٢٥٢ (كل تمور تيماء جيدة) .

(٤٥٢) المقدسي : ٢٥٢ ، ٢٥٣ . حول لفظي بقال وهائل ، انظر م ج ع ، ج٤ ، ١٩٢ ، ٣٧٠ — ٣٧١ . حول حاكم (قاضي من المرتبة الثانية ؟ أو قاضي مدينة صغيرة ؟ أو ضابط شرطة ؟) انظر ا . ليفي بروفنسال ، تاريخ التنظيم القضائي في بلدان دار الاسلام ، طبعة ثانية ، لايدن ، ١٩٦٠ ، ص ١١٠ ، ٢٧٧ ، ٥٢٤ ، ٥٦١ — ٥٦٤ ، ٥٧٦

(٤٥٣) المقدسي : ٢٤٨ ، ٢٥٢ ، ٢٥٤

(٤٥٤) المقدسي : ٢٤٨ ، اخر ٢٤٩ — ٢٥٢ — ٢٥٥

(٤٥٥) المقدسي : آخر ٢٥٢ — ٢٥٣ في الحديث عن تيماء ، المذكور من قبل . لا حظ أيضا حمام فيد ، المرجع ذاته ، ٢٥٤ (حول هذا الحمام ، انظر مع ذلك الحاشية ٤٤٢) .

(٤٥٦) المقدسي : ٢٥٢

(٤٥٧) المقدسي : ٢٥٣

(٤٥٨) المقدسي : ١٨٦ ، ٢٤٨ ، آخر ٢٥٢ ، ٢٥٣ . حول لفظ خفة في تطبيقه على المناخ ، انظر م ج ع ، ج٤ ، ٢٢٨ . تدوين آخر جيد عن البرية : ابن حوقل : ٢٨٠

(٤٥٩) انظر مثلا المقدسي : ٦٣ ، ٤٧٣ . عنوان بحث هذه الصحراء : مفازة خراسان (الاصطخري : ١٣٣) مفازة خراسان وفارس (ابن حوقل : ٣٩٩ ، مفازة خراسان : المرجع ذاته ، مثلا ص ٢٨٧) . المفازة التي بين هذه اقاليم (أي اقاليم الأعاجم : المقدسي : ٤٨٧) .

(٤٦٠) الاصطخري : ١٣٣ ، ابن حوقل : ٤٠١ (الصحراء في ترجمة هذه الفقرة تعني المفازة)

(٤٦١) مما يلي البحر : المقصود خليج فارس .

(٤٦٢) انظر م ج ع ، ج٤ ، ٢٤٤ . يستعاض هنا عن معنى الرباط الشائع (دير محصن ، خاصة في الثغور) بمعنى مركز تفتيش ورقابة ، يتوقف فيه المسافر ، ويجدد قواه ، كما يستخلص من الوصف .

(٤٦٣) عند المقدسي (انظر ص ٤٩٠ — ٤٩٢ ، الحواشي) عرض فيه ، زائد التنظيم في نسخة اسطنبول .

(٤٦٤) تتعارض ، عند المقدسي مثلا ، صيغ « الرهيبة » (٤٨٧ ، ٤٨٨ ، ٤٩٣ ، ٤٩٤) وصيغ « الفرج والمدونة »(٤٩٣) .

(٤٦٥) المقدسي : ٤٨٧ ، ٤٨٨ (يشبه استعمال فعل ركب في المفاوز ، فعل ركب البحر بالنسبة الى مغاوز تخوم شمال الصحراء الكبرى : المقدسي : ٢٤٦)

(٤٦٦) مع ذلك كل شيء نسبي : فالمقدسي : ٤٩٣ ، يذكر ، كما يجب ، طريقا لا تندر فيها لا الحياة ولا الحراسة .

(٤٦٧) المقدسي : ٤٨٧

(٤٦٨) الاصطخري : ١٣٣ — ١٣٤ ، ١٣٧ ، ابن حوقل : ٤٠٢ ، ٤٠٨ ، المقدسي : ٤٨٧ ، ٤٨٨ ، ٤٩٠ ، ٤٩٣

(٤٦٩) حول التجزئة والدعار ، انظر الاصطخري : ١٣٣ ، ١٣٥ ، ١٣٦ ، ابن حوقل : ٤٠٢ ، ٤٠٤ ، ٤٠٦ ، المقدسي : ٤٨٧ ، ٤٨٨ — ٤٨٩ ، ٤٩٠ ، ٤٩٢ ، ٤٩٤ (حاشية يط من ٤٩٣)

(٤٧٠) الاصطخري : ١٣٦ ، ابن حوقل : ٤٠٦ ، لا ريب ان هذا ما فعله المقدسي أيضاً في القصة الواردة في ص ٦٤

(٤٧١) الاصطخري : ١٣٢ — ١٣٥ ، ابن حوقل : ٤٠٣ — ٤٠٤ ، المقدسي : ٤٩٢ — ٤٩٤

(٤٧٢) المقدسي : ٤٨٨

(٤٧٣) الاصطخري : ١٣٦ ، ١٣٧ ، ابن حوقل : ٤٠٤ ، ٤٠٥ ، ٤٠٧

(٤٧٤) الاصطخري : ١٣٦ ، ابن حوقل : ٤٠٦

(٤٧٥) ابن حوقل : ٤٠٢ ، يتوسع في الاصطخري : ١٣٤ . حول معنى المفردة (قافلة بلا متاع) انظر م ج ع ، ج٤ ، ص ٣١٤

(٤٧٦) ابن حوقل : ٤٠٣ ، يتوسع في الاصطخري : ١٣٤ . حول تعبير على السمت. والقصد (خط مستقيم) ، انظر م ج ع ، ج٤ ، ٣٢٦

(٤٧٧) الاصطخري : ١٣٥ — ١٣٨ ، ابن حوقل : ٤٠٥ — ٤٠٩ ، المقدسي : ٤٨٧ ، ٤٨٨ ، ٤٩٣ — ٤٩٥

(٤٧٨) احيل على وجه الاجمال الى اماكن متفرقة من الاصطخري : ١٣٤ — ١٣٨ ، وابن حوقل : ٤٠٣ — ٤٠٩ ، والمقدسي : ٤٨٧ — ٤٩٥

(٤٧٩) والمقدسي أيضاً بطريقة منهجية زائدة وأدق .

(٤٨٠) سنيج المدينة الوحيدة في هذه المفازة (الاصطخري : ١٣٤ ، ابن حوقل : ٤٠٢ — ٤٠٣) ومدينة ذزه هي أيضاً على تخوم المفازة ، وتتبع بداهة أقليم الجمال الصخري : ١٣٤ ، ابن حوقل : ٤٠٣ ، شأنها شأن قرية بدره (الاصطخري : ١٣٥ ، ابن حوقل : ٤٠٤ ، حيث ترد خطأ دزه أخرى : شوارز ، ايران ، ج٧ ، ٩٢٩) . وترشيز تابعة لنيسابور (الاصطخري : ١٣٨ ، ابن حوقل : ٤٠٩) ، وخبيص على شفير المفازة وتتبع كرمان أيضاً (الاصطخري : ١٣٦ ، ابن حوقل : ٤٠٧) ومثلها راور القرية « العامرة » (الاصطخري : ١٣٦ ، ابن حوقل : ٤٠٦ ، وشوارز ، ايران ، ج٣ ، ٢٢٥) ، وقرية قرب نرماشير (الاصطخري : ١٣٨ ، ابن حوقل : ٤٠٩ ، ولوسترانج ، الخلافة الشرقية ، ٣١٣) . وتتبع قم (الاصطخري : ١٣٨ ، ابن حوقل : ٤٠٤) قريتان على حنب المفازة دوماً) . والقرى السبع الداخلة في قاب الصحراء هي : دانجي ، جرمق (تفسيرها ثلاث قرى) ، كرى ، خزانة ، ساغند (حول حقيقة ساغند ، انظر المقدسي فيما يلي) ، بشتاذران ، وبن (الاصطخري : ١٣٥ ، ١٣٧ ، ١٣٨ ، ابن حوقل : ٤٠٤ ، ٤٠٥ ، ٤٠٨ — ٤٠٩) . يلاحظ ان ابن حوقل الذي يحذو حذو الاصطخري عن كثب ، يمتنع عن مجاراته (اذن يخالفه بعض الشيء) ليعتبر في عرضها العام (الاصطخري : ١٣٥ ، ١٣٧ ، ١٣٨ ، ابن حوقل : آخر ٤٠٢) ان المفازة لا تحوي أي قرية .

(٤٨١) ابن حوقل : ٤٠١ — ٤٠٩ (يكرر الاصطخري : ١٣٣ — ١٣٨) احيل اليه اجمالا لهذه الأقوال .

(٤٨٢) يكتفي المقدسي ، ٤٨٨ ، بذكر تناوب الجروم والصرود (المناطق الحارة والباردة) ليشير الى فروق الحرارة التي تعد احدى ميزات المناخ الصحراوي .

(٤٨٣) المقدسي : ٤٩٤ (حاشية س في ص ٤٩٣) .

(٤٨٤) ابن حوقل : ٨٦ ، ١٠٣ ، ٢٢٧ ، ٤٣٦ (تسجيل نبات : اصابع العروس الصمغية) ، ٤٤١ ، ٤٤٣ ، ٤٤٦ ، ٤٥٢ ، ٤٧٧ ، ٥١٦ ، ٥١٧ ، المقدسي : ٢٤١ ، ٢٨٢ ، ٣٢١ (حاشية ج) ، ٤٨٤ ، ٤٨٦

(٤٨٥) ابن حوقل : ٨٣ ، ١٠٣ ، ١٥٣ ، ٥٢٧ (صحاري شبه مجهولة الى جنوب الصحراء الكبرى ، بين بلاد الزنج والمحيط) ، المقدسي : ٢١٢ ، ٢٤١ ، ٢٤٣ ، ٢٤٦

(٤٨٦) ابن حوقل : ٢٢٧ ، المقدسي : ١٤٠ ، ٢١٠

(٤٨٧) يبدو عدد الاستشهادات من هذه الناحية مذهلا بالنسبة الى الاستشهادات الممكن الاتيان بها لدار الاسلام (انظر الحاشيتين ٤٨٥ و ٤٨٦) . وتتناول كل ولايات دار الاسلام الشرقية ، باستثناء ارمينية واذربيجان : انظر ابن حوقل : ٢٦٠ ، ٢٨٠ ، ٢٨٧ ، ٣٠٥ ، ٣٠٩ ، ٣١٤ ، ٣١٦ ، ٣١٩ ، ٣٢٥ ، ٣٢٧ ، ٣٥٧ ، ٣٨٣ ، ٣٨٦ ، ٣٨٩ ، ٣٩٩ وما يليها ، ٤١١ ، ٤٢٢ — ٤٢٤ ، ٤٢٦ ، ٤٣٦ ، ٤٣٨ ، ٤٤١ ، ٤٤٣ ، ٤٤٦ ، ٤٥٢ ، ٤٥٥ — ٤٥٦ ، ٤٧٧ ، ٤٧٩ ، ٤٨٤ ، ٤٨٧ ، ٥٠٢ ، ٥١٦ ، ٥١٧ ، المقدسي : ٢٨٢ ، ٢٨٨ — ٢٨٩ ، ٢٩٢ ، ٣٠١ (ح ب) ، ٣٠٨ ، ٣٢٠ ، ٣٢١ (ح ز) ٣٤٣ ، ٣٤٤ ، ٣٥٧ ، ٣٥٨ ، ٣٩٠ ، ٣٩٢ (ح آ) ٤١٨ ، ٤٣٧ ، ٤٥٨ ، ٤٦٠ ، ٤٦٣ ، ٤٦٧ ، ٤٦٨ ، ٤٧١ (و ح آ) — ٤٧٣ ، ٤٨٤ ، ٤٨٦

(٤٨٨) نبرز من الاحالات المعطاة في الحاشية ٤٨٤ ، على وجه التخصيص : ابن حوقل : ٥١٧ (مع تكرار التدوين الخاص بالسير على خط مستقيم (على القصد : انظر الحاشية ٤٧٦) أو حسب توفر المرعي ، حتى منازل المراحل لا يمكن تحديدها بدقة تصحح ترجمة وايت ، ص ٤٩٤) .

(٤٨٩) انظر ابن حوقل : ٨٦ (حول قرية كانت مزدهرة في الماضي ، في المغرب ، تحولت ارضها الى مفازة ١٤٧ (الاصطخري ، ٤٠ : توالي المفاوز والأراضي المزروعة في النوبة) ، ٤٤٦ (في خراسان، مفاوز يعبر عنها تناقص مفاجىء في أعمار الأرض) ، ٤٧٧ (واحة في خوارزم ، محاطة بالمفازة من جميع جهاتها) ، المقدسي : ١٤٠ (التضاد بين احدى المدن والمفازة في الجزيرة) .

(٤٩٠) ما تقدم ، ص ٨٤ — ٨٥

(٤٩١) يستبعد على هذا الاساس ، تيه ، رمل ، وحتى قفر . ولم يعزل القفر تماما كتعبير ، ويستنفد كل معناه بفكرة المفازة . الحاشية ٤١٠ ، ٤١١ .

(٤٩٢) نظر بنوع خاص وجود صحراء في مفازة فارس الكبرى : الاصطخري : ١٣٦ ، ابن حوقل : ٤٠٦

(٤٩٣) انظر (ما تقدم ص ٧٥ ، حاشية ٤١٩) اقتران برية ومفازة أو أيضاً ص ٧٨ ، تردد الاصطخري بين مفاوز وبوادي .

(٤٩٤) احد ابواب زرنج في سجستان ، يسمى باب الأطعام ، ويؤدي الى الرساتيق : الاصطخري : ١٣٩ ، ابن حوقل : ٤١٤

(٤٩٥) أمثلة شهيرة : الريف العراقي (الاصطخري : ٢٠ ، ٥٩ ، ابن حوقل : ١٨ ، ٢٣٤ ، ٢٤٣ ، المقدسي : ١١٨ ، ولوسترانج ، الخلافة الشرقية ، ٢٤) .

(٤٩٦) بالنسبة الى الأندلس ، وبوجه ادق الى قرطبة ، يستعمل لفظ قنبانية : انظر المقدسي : ٢٣٣ ، ٢٢٥ ، دوزي ، ملحق ، ٢ ، ٤٠٨ ، ليفي بروفنسال ، الاندلس المسلمة ، مشار اليها ، ج٣ ، ٥٠ ، ٢٢٥ وأماكن متفرقة (قنبانية قرطبة) ، ٢٧٧ ، ج١ (النعت قنباني) .

(٤٩٧) ابن الفقيه : ١٠٤ — ١٠٥ ، ابن حوقل : ٤٧٢ — ٤٧٣ ، المقدسي : ٣٥ (تغييرات ، المرجع ذاته ، ٢٥٩) . حول شعب بوان ، انظر ما تقدم ص ٣٤

(٤٩٨) المقدسي : ١٥٩ ، ٢٣٤ ، ٣٧٣ ، (انظر القرآن ، ٤٧ ، ١٧) ، ٣٨٥ ، ٤٠٩ ، ٤٦٦ (ح د) . يثير موضوع الجنة المقاونة باماكن اخرى ، لا تلفظ الجنة فيها (مثل ارمينية اذربيجان) ، لابد من ادراجها في الفئة ذاتها بداهة : ابن حوقل : ٤٧٢ ، المقدسي : ٤٢٤ (وضع منطقة سابور في فارس) .

(٤٩٩) ابن حوقل : ٣٣٨

(٥٠٠) المقدسي : ٤٢٤ . حول معنى اسم الفاعل « دانية » ، انظر م ج ع ، ج٤ ، ٢٣٨

(٥٠١) المقدسي : ٢٢٨ ، ٢٣٠ ، ٣٢٠ ، ٤٢٥

(٥٠٢) ابن حوقل : ١٠٨ ، ١٤٧ ، ١٧٤ ، ٢٣٦ ، ٣٦٣ ، ٤٦٤ ، ٤٩٢ ، ٤٩٤ ، ٤٩٧ ، ٥٠٠ ، ٥٠٧ ، ٥٠٩

(٥٠٣) ابن حوقل : ٤٧٢ — ٤٧٤ . بالنسبة لكل النصوص المترجمة فيما بعد . تدقق ترجمتنا أو تصحح عند الاقتضاء ، ترجمة ج . وايت . ظهرت التعليقات ، مع بعض

الفوارق الشكلية ، في « جغرافي عربي في الريف » ، القوس ، ٧٢ (تكريم جورج دوبي) ، ١٩٧٨ ، ص ٤٣ – ٤٨

(٥٠٤) مكبة حرفيا غطاء : انظر م ج ع ، ج٤ ، ٣٣٧

(٥٠٥) حول لمط والنسبة لمطية ، انظر جغرافية دار الاسلام ، ج٢ ، ح ١٠٦٧

(٥٠٦) مقومة بالاستواء : انظر م ج ع ، ج٤ ، ٣٣٦

(٥٠٧) زرفشان

(٥٠٨) ميادين ، المفرد ميدان : انظر م ج ع ، ج٤ ، ٣٥٨

(٥٠٩) رياضها وميادينها ، حرفيا

(٥١٠) ما تقدم ، ص ٧١

(٥١١) أي ما يقرب من ٧٠ كم

(٥١٢) تلي الاحالة الى الجاحظ ، في نص ابن حوقل ، في الواقع ، نصا سوف نستشهد به ، لكنها ذاتها يأتي بعدها نصوص أخرى استشهد بها من قبل ، تحوي موضوع الكثافة أيضاً .

(٥١٣) انها منطقة البصرة ، يدل عليها نهر الابلة (ابولوغوس القديمة) : انظر لوسترانج ، الخلافة الشرقية ، ١٩ ، ٤٤ ، ٤٦ (ح ١) – ٤٧

(٥١٤) معنى جملة ابن حوقل واضح ، رغم تركيبها الثقيل بلا جدل : انظر م ج ع ، ج ٤ ، ٣٧٨

(٥١٥) سترابون ، كتاب ٢ ، فصل ٥ ، فقرة ١١ . لفت انتباهي الى هذا المقطع صديقي لويس مارين

(٥١٦) جغرافية بشرية اذن ، بالمعنى الذي بيناه في جغرافية دار الاسلام ، ج١ ، ٨ روماني آخرها – ٩ .

(٥١٧) بعض الأمثلة : الرمل المذكور لا كارض ، بل عنصر غالب في موقع احدى المدن (ابن حوقل : ١٤٤) . الأرض يذكرها المقدسي ، ٣١٥ ، اللزجة (علكة : انظر م ج ع ، ج٤ ، ٣٠٣ – ٣٠٤) ، وهي ليست كذلك بداهة . كذلك المقدسي ،

٤٢٠ ، يذكر تربة فارس كأرض مناجم ، اللون الابيض لمكان معين في أورشليم بجب ربطه بالاحرويات (مكان القيامة) : المقدسي ، ١٧٢ ، حول لون الترب السوداء في المدينة ، انظر المقدسي : ٢٨٠

(٥١٨) المقدسي : ٣٨٨ ، ٣٨٩ (ح – آ) ، المرجع ذاته ، ٦٧ (أفضل) ، توصف به ارض جزيرة العرب ، يحيل بداهة الى فضائل البلاد في تاريخ دار الاسلام ، وعلى النقيض ، المرجع ذاته ، ٣٨٥ (لعينة ، لا رض الري) يفسر في اطار مقتل الحسين .

(٥١٩) مثلا ، ابن حوقل . ٣٦٣

(٥٢٠) ابن حوقل : ٤٤٢ ، المقدسي : ٣٠٨

(٥٢١) بالنسبة الى الخصب أو نقيضه ، انظر ابن حوقل ، ١٤٦ (غير نقي) ، ١٦٠ ، ٢٥٧ (خصب) ، ٤٥٣ (ازكى) ، ٥٠٥ (جيدة) . بالنسبة الى « الأرض » ، انظر ابن حوقل : ٢٥٣ ، ٤٩٤ ، المقدسي : ٢٩٤ ، ٣٠٨ (جذر صح) ، ابن حوقل : ٢٣٩ ، ٤٤٢ (جذر طيب) ، على العكس ، جذور فسد (ابن حوقل : ١٣١) وعفن (المقدسي ، ٣٠٥) . بالنسبة الى الجفاف ، ابن حوقل : ٢٥٣ و ٤٩٤ (أنص مبالغ ؟ به او جفاف خفيف) ، المقدسي : ٣١٥ . بالنسبة الى الرطوبة : ابن حوقل : ٢٥٧ . بالنسبة الى القساوة : المقدسي : ٣٨١ : بالنسبة الى الملح : ابن حوقل : ١٤٦ ، ٢٥٣ ، المقدسي : ٤١٠ . يلاحظ ان هذه الأرض ، في حالات كثيرة ، هي التي تقوم فيها مدينة (نظر حاشية ٥١٧) : مثلا ابن حوقل : ١٤٦ ، ١٦٠

(٥٢٢) ابن حوقل : ١٣٥

(٥٢٣) ابن حوقل : ١٤٧ ، المقدسي : ٢١٣

(٥٢٤) ابن حوقل : ١٤٧ ، ١٥٣ ، المقدسي : ٢٠٨ ، ابن حوقل : ١٤٤ ، يمد هذا الازدهار بعيدا على الضفة اليمنى .

(٥٢٥) ابن حوقل : ١٣٦ – ١٣٧ ، ١٤٧ ، ١٤٨ ، المقدسي : ٢٠٦ – ٢٠٨ ، ٢١٢ – ٢١٣

(٥٢٦) المقدسي : ٢٠٠ ، ٢٠٦ ، ٢٠٧ ، ٢٠٨ . تبدو الأرض (السوداء بعد الفيضان) عند المسعودي (م) فقرة ٧٧٤ ، (ت) ، ٣٤ ، ولا مزيد وفي اطار اشارة شعرية .

(٥٢٧) فيضان الصيف ، التماسيح ، مذاق الماء ولونه . الموضوع شائع في الأدب ، وفي

الجغرافية انظر الاصطخري : ١٠٧ ، ابن حوقل : ٣٢٨ ، المقدسي : ٢٣ (ترجمة ، ص ٦٤ ، حاشية ١١٢ ، مع احالات اخرى .

(٥٢٨) الاصطخري : ١٠٧ ، وابن‌حوقل :٣٢٨ ، في الكلام عن مهران ، يعثر على هذه الجملة الموحية : « وهو نهر كبير عذب جدا ، وفيه التماسيح كتماسيح النيل ، وهو كالنيل في الكبر وجريه كجريه بماء الأمطار الصيفية ، ويرتفع على وجه الأرض ، ثم ينضب ، فيزرع عليه حسبما يزرع بأرض مصر »

لا يتناول هذا النص صراحة الا الري ، كما نرى ، وليس تخصيب التربة . والمقدسي مقتضب أكثر من ذلك ، ٤٨٣ : « وعليه مزارع عند زيادته ، كما ذكرنا بمصر » .

(٥٢٩) ابن حوقل ، ١٤٨ ، يعارض في الحقيقة النيل وحده (لكن نعرف انه باعث الخضرة) والصحراء .

(٥٣٠) يعد التدوين ، كما عند المقدسي ٣٨١ ، عن الحراثة ، وعلاقتها بالرطوبة أو درجة قساوة التربة ، استثناءاً فعليا .

(٥٣١) المسعودي (ت) ، ٤٥

(٥٣٢) المقدسي : ٢ ، ترجمة ص ٥ و ٢٧٧ (ح ٧٣) .

(٥٣٣) ما تقدم ، ص ٥٧ - ٥٩ . سوف تتاح لنا فرصة العودة الى هذا الموضوع في جزء آخر ، في بحث انشطة البشر . فلنتذكر خاصة أفضلية الحديث عن المعادن (ذهب ، فضة ، وحجارة كريمة خاصة) : انظر من بين احالات كثيرة ، ج روسكا (عنوان الماني) ١٩١٢ ،والهمداني ، كتاب الجوهرتين العتيقتين ، الناشر والمترجم ، ج . تول، اوبسالا ، ١٩٦٨ . حول المعتقدات المرتبطة بالفلزات وبالحجارة الكريمة ، انظر ايلياد ، الحدادون والسيميائيون ، مشار اليه ، ص ١٦ ، ١٩ ، ٣٥ ، ٤٠ - ٤١ ، ٤٣ وأماكن متفرقة .

(٥٣٤) ابن حوقل : ٢٩٨ ، ٤٠٥ ، ٤٤٦ - ٤٤٧ ، المقدسي : ٢٢٦ ، ٢٨٠ ، ٢٨١ ، ٣١١ ، ٣١٥ ، ٣٢٦ (ح . ه) ٤٤٣ (وح . يح) ، ٤٦٥

(٥٣٥) القرآن ، ٣ ، ٤٣ ، ٥ / ١١٠ ، ٦ / ٢ ، ٧/ ١١ ، ١٧ / ٢٣،٦٣ / ١٢ ، ٢٨/ ٣٨ ، ٣٢ / ١١ ، ٣٨ / ٧١ ، ٧٧ ، ٥١ / ٣٣

(٥٣٦) المقدسي : ٣١٠

(٥٣٧) ابن حوقل : ٣٢ ، ١٤٤ ، ١٥٥ ، ١٥٧ ، ١٥٨ ، ١٧٠ ، ٤١٥ - ٤١٦ ، ٤٣٤ (مع الملح) ، المقدسي : ٩ ، ١٨٦ ، ١٩٥ ، ٢٠٩ ، ٢١٠ ، ٢١١ ، ٢٣١ ، ٢٥٣ ، ٣٠٦ ، ٣٢٠ (ح . يط) ، ٣٣٣ (ح . ز) ، ٣٩٦ ، ٤٥٩ ، ٤٦٧ ، وما تقدم ، ص ٧٢ - ٧٣ . انظر أيضاً ابن رسته : ١٦٠

(٥٣٨) ابن حوقل : ٣٠ (مقترنة بحرة أرض حجرية) ، ٢٢٧ - ٢٢٨ ، ٢٥٩ ، ٣٠٠ ، ٤٠٧ ، ٤١٥ ، ٤٣٤ (مع الرمل) ، ٤٨٧ ، ٥٠٢ ، ٥١١ ، المقدسي : ٨٠ ، ٨٢ ، ١٩٥ ، ٢٠٩ ، ٢٤٥ ، ٣١٥ ، ٣٥١ - ٣٥٢ ، ٣٧٢ ، ٤١٠ ، ٤١٩ ، ٤٥٣ ، ٤٨١

(٥٣٩) انظر المقدسي : ١٤٦ ، ١٨٤ ، ٢١٣ ، وابن حوقل : ٣٣ (ابن رسته : ٢٥)، ٢٢٢ ، ٢٣٨

(٥٤٠) حول الكلس أو الحوارة ، انظر المقدسي : ٢ ، ١٨٤ و م ج ع ، ج٤ ، ٢٢٠ ، حول السماق ، مفرده سمقة ، المقدسي : ٢ ، ١٨٤ ، ٢٠٩ ، ٤٥٩ (مع الرمل) وم ج ع ، ج٤ ، ٢٦٤

(٥٤١) مومياي ، نفط ، قير (بشأن اللفظ الأول ، انظر احالة عند ابن حوقل ، ترجمة، ص ٢٩٤ ، ح ٣٧٤ : مسعر (ب) : ١٢ ، الاصطخري : ٩٣ (كرره ابن حوقل : ٣٠٠ ، والمقدسي : ٤٢٨) ، المقدسي : ٤٠٢ ، ٤٢٠ ، ٤٤٤ (بشكل نار ودخان) . يبرز وجود صاحب البريد حقيقة السلطة المركزية ، وذلك بين الأشخاص الرسميين الذين يراقبون أعمال المحصول . ينز القير المقصود في هذا المقطع (الاصطخري ، مشار اليه) من جدران الكهف .

(٥٤٢) ابن حوقل : ٢٩ ، ٣٠ ، ١٦٢ ، ١٧٠ ، ١٨٥ ، ٤٠٦ ، ٤٠٧ ، المقدسي: ١١٨ ، ١٢٣ ، ١٤٧ ، ٢٥٣ ، ٣٥٥ ، ٣٨١ ، ٤٤٠ ، ٤٩٠

(٥٤٣) ابن حوقل : ٣٠ ، ١٤٤ ، ٢٥٣ ، ٤١٥ ، ٤٢٤ ، المقدسي : ٨٠ ، ٨٢ ، ١٩٥ (و ح . ح) ، ٣٥٥ ، ٤١٠ ، ٤٨١ . على النقيض ، لا يعثر على الملح في نيسابور : المقدسي : ٣١٥

(٥٤٤) ابن حوقل : ٦٦ . التربة ذاتها في منبج ، في سورية الشمالية الشرقية : المرجع ذاته ، ١٨١ .

(٥٤٥) المقدسي : ٢٠٩ ، ٢٨٠

(٥٤٦) ابن الفقيه : ٢٦٠ ، ابن حوقل : ٢٢٢ ، ٤٣٨ (بشأن فارس ، انظر م ج ع ، ج٤ ، ٣١٥) ، المقدسي ١١٨ ، ١٢٣ ، ١٤٦ ، ١٤٧ (حول نخوخ ، مقعر ، انظر م ج ع ، ج٤ ، ٢٣٠ ، ودوزي ، ملحق ١ ، ٤١١) ، ١٨٤ ، ٢٥٣ ، ٣٢٦ ، ٣٣٣ ، ٤٣٣ ، ٤٤٠ ، ٤٤٣ (و ح . يح : غضار أبيض لطرش البيوت) . مسعر (ب) ١٢ ، يشير في باكوالي جريان نفط أبيض ، ابن الفقيه ، ٦٨ ، يميز بالنسبه الى الأهرام بين المرمر والبورفير (الرخام : انظر دوزي ، مشار اليه ، ٥١٩) .

(٥٤٧) المقدسي : ٢٨١ ، ٣١١ ، ٣١٥ ، ٤٦٥ ، و م ج ع ، ج٤ ، ٣٠٣ — ٣٠٤ (النعت علم : لزج) .

(٥٤٨) المسعودي (م) فقرة . ٩٠ ، ٥١٤ ، المسعودي (ت) : ١٠٨ ، الاصطخري : ١٥٥ ، ابن حوقل : ٢٢٧ — ٢٢٨ ، ٢٩٨ ، ٣٠٠ ، ٤٤٦ — ٤٤٧ ، ٤٨٧ ، ٥٠٢ ، المقدسي : ٢٢٦ ، ٣٢٦ (و ح . ٨) ، ٣٣٣ ، ٣٥١ — ٣٥٢ ، ٣٨١ ، و م ج ع ، ج٤ ، ٢٩٣ . يخطر بالبال أيضاً سباخ البحيرة الميتة (المقدسي ، ١٨٤) والمواد التي ترافق في النصوص الجغرافية الملح : كالقلويات أو (ابن حوقل : ٢٢٧ — ٢٢٨ ، ٤٨٧ ، المقدسي : ٣٥١ — ٣٥٢ ، حول لفظ ملاحة ، انظر دوزي ، ملحق ٢ ، ٦١١) .

(٥٤٩) ابن الفقيه : ٦٦ ، ٧٦ ، ابن حوقل : ١٨٥ ، المقدسي : ١٧٢ ، ٣٣٣ (ح . ز) ٣٩٧ . حول هذه الحجارة (حجارة الاستمطار أو الصواعق خاصة) ، انظر ايلياد ، الحدادون والسيميائيون مشار اليه ، ص ٣١ ، ٧٨ ، ١٥٩ — ١٦٠ (المراجع) .

(٥٥٠) الهمداني : ١٥٠ ، ابن حوقل : ٣٦ ، ٣٧ ، ١٥٥ ، ١٥٧ ، ١٥٨ ، ١٧٠ ، ٤٠٤ — ٤٠٧ ، ٥١٥ ، المقدسي : ٩ ، ١٧٠ ، ١٩٥ ، ٢٠٩ ، ٢١٠ ، ٢٥٣ ، ٣٠٦ ، ٣٢٠ (ح . يط) ، ٣٥٠ ، ٤١٤ ، ٤٩٠ . حول النعت دهس (رخو ، تغوز فيه الرجل كثيرا) ، انظر م ج ع ، ج٤ ، ٢٣٨

(٥٥١) الهمداني : ٦٧ — ٦٨ (حيث تزيد الأدوية التجزئة : وتنسب هي أيضاً الى القبائل) ، ١١٩ ، المسعودي (م) ، فقرة ١٢٧٦ ، المسعودي (ت) : ٦٨ — ٦٩ (ذكر سابقا ، ص ٤٨ — ٤٩) ، ابن الفقيه : ٣٠ — ٣٢ (مع الفاظ اخرى) ، المقدسي : ٨٦ ، ٩٤ ، ٩٥ ، ميكيل ، بعض نصوص المقدسي » ، مقال ذكر .

(٥٥٢) ابن حوقل : ٣٧١ . حول نجد جزيرة العرب ، انظر ابن حوقل : ٣٩ ، ٤٠١ ، المقدسي : ٨٦ ، ٩٤ ، والمقال الوارد ذكره في الحاشية السابقة .

(٥٥٣) من فعل غار : تسرب ، نفذ ، اختفى في الأرض (عن الماء)

(٥٥٤) الاصطخري : ٤٥ ، ابن حوقل : ١٧٠ ، ١٧٣ ، المقدسي : ٢٦ ، ١٥٢ ، ١٦٦ ، ١٧٥ ، ١٨٤ ، ١٨٦ ، ١٨٧ ، ٢٦٩

(٥٥٥) المسعود (م) ، فقرة ٣٦٢ و غ . فران ، م١ ، ج٤ ، ٤٩٠

(٥٥٦) المقدسي : ١٢٤ ، ١٢٨ ، ٣٢٩ ، ٤٨٤

(٥٥٧) انظر النص المذكور من قبل ، ص ٤٨ — ٤٩

(٥٥٨) ما تقدم : ٣٢ — ٣٤

(٥٥٩) ابن حوقل : ١٣٩ وما يليها ، المقدسي : ١١٧ ، ١٢٠ ، ١٢٤ ، ١٨٤ ، ٢٠١ ، ٢٢٨ ، ٢٨٤ ، ٢٨٩ ، ٢٩٢ — ٢٩٣ ، ٣٠٣ ، ٣١٢ ، ٣٢٩ (و ح . يد) — ٣٣١ ، ٣٣٢ ، ٤٢٩ . يلاحظ أحيانا استعمال الفاظ اخرى : مثلا الصيغة الخامسة من فرق لتقسيم قناة الى فروع أصغر منها :

المقدسي : ٣٣١ ، خليج يعني قناة متفرعة عن نهر (انظر مثلا النيل ، المقدسي: ١٩٨، لسيحون ، المرجع ذاته ، ٢٢ (ح . يد) ، لمهران : ابن حوقل : ٣٢٠ ، ٣٢٣) ، خاصة عمود للدلالة احيانا على الذراع الرئيس لنهر كبير (النيل ، دجيل ، جيحون أو نهر مرو / مرغاب) ، بالنسبة الى التشعبات : المقدسي : ٢٠٠ ، ٢٠١ ، ٢٨٥ ، ٢٩٣ ، ٣١٢ ، ٤١١

(٥٦٠) المقدسي : ٢٠ ، ١١٧ ، ٢٩٠ ، ٤٨٢ : انظر م ج ع ، ج٤ ، ٢٧٤

(٥٦١) المقدسي : ٤٤٦

(٥٦٢) المقدسي : ٦٢ ، ١٢٢ ، ٤١٢ ، ٤٩٠ (ح ط) ، م ج ع ، (مشار اليه) يؤول الأسواق تأويلا اخر : موزعة في اماكن عديدة .

(٥٦٣) المقدسي : ٨٦ ، ١١٨ ، ١٢١ ، ١٤٠ ، ١٤٢ ، ١٥٦ ، ١٦٢ ، ٢٠٢ ، ٢٢٨ ، ٢٣٤ ، ٢٧٢ ، ٢٧٣ ، ٢٨٠ ، ٢٨٣ ، ٢٨٤ ، ٢٨٩ ، ٢٩٠ ، ٣٠١ ، (ح ب) ، ٣٠٣ ، ٣١٠ ، ٣٢٠ ، ٣٢١ (ح . آ) ، ٣٥٣ ، ٣٦١ ، ٣٧٣ ، ٣٧٨ ، (اقتران المساحة بالغنى واضح جدا) ، ٣٨٥ ، ٤٢٦ ، ٤٣٢

(٥٦٤) المعنى الآخر واسع ، بقعة بلاد عامة : انظر مثلا ابن الفقيه : ٢٠٩ – ٢١١ (كرره المقدسي : ٢٥٧ – ٢٥٨) .

(٥٦٥) ابن حوقل : ٦٦ ، ١٧٤ ، ١٨٣ ، ١٨٥ (باستثناء بلد لوط المخروب والمحروق) ، ٢١١ ، ٢٢٦ ، ٤٨٨ ، المقدسي : ١٥٤ ، ١٥٩ ، ١٦٠ ، ٢٥٣ ، ٢٥٧ ، ٢٥٩ ، ٣١٤ ، ٣٨٨

(٥٦٦) انظر لوسترانج ، الخلافة الشرقية ، ٩٣

(٥٦٧) ابن حوقل : ٦٧

(٥٦٨) المقدسي : ٣٢٩ (يقارن بالمرجع ذاته ، ٤٨٤ ، الذي يعارض به هذه المرة بطيحة ببطيحة ، العراق ببلد آخر .

(٥٦٩) انظر المدخل ، ص ١ – ٢) ل ش . بيلا ترجمة مروج الذهب للمسعودي

(٥٧٠) المقدسي : ٢٢٨

(٥٧١) الاصطخري : ١٣٦ ، ابن حوقل : ٣٨١ (نز مع نجل ، بمعنى قريب) ، ٤٠٥ ، و م ج ع ، ج٤ ، ٣١١

(٥٧٢) ابن حوقل : ٤٨٨

(٥٧٣) ابن حوقل : ٢٩ ، ٣٨١ ، المقدسي : ٧٧ ، ٢٤٩ ، ٢٥٠ . معنى عام جداً ل وطاء الذي يبدو اصلا عوضاً عن اغوار ، جمع غور ، من أجل السجع في مثل سائر (المقدسي ١٨٨)

(٥٧٤) ابن خرداذبه : ٩٧ ، ابن حوقل : ٣١٩

(٥٧٥) ابن الفقيه : ٣٢

(٥٧٦) ابن حوقل : ٢٨٢ ، ٣٥٢ ، ٤٠٤ ، ٤٠٥ ، ٤٨٨ ، حوضة بالقلب : المقدسي : ٤١٤ ، ٤٢٨ (انظر م ج ع ، ج٤ ، ٣٧٠ ، وحاشية ١٣٩)

(٥٧٧) تبرز أيضاً صعوبات السير : انظر تعبير أرض وعرة المسالك (بيلا ، اللغة العربية الحية ، مشار اليه ، عمود ١٠) . حول وعر ، وعرة ، الجمع أوعار انظر ابن حوقل : ٣٧٠ – ٣٧١ (بمعنى « هوة » و « صعب وهائل » في اطار جبال عالية جداً ،

ثم « منخفضات » بعكس السهول والجبال : انظر ترجمة وايت ، ص ٣٦٢ والحاشية ٢٥٠) ، ٤٠٢ ، ٤٣٩

(٥٧٨) اعطيت الا حالا ت في الحاشية ٢٢٩

(٥٧٩) لا يستعمل لفظ سفح وحده ابدا بل دوماً المضاف جبل

(٥٨٠) انظر ما تقدم ، ص ٣٣ — ٣٤ . بالمعنى المبين هنا ، أو بالنسبة الى وادي ، بلا تدقيق ، انظر ابن حوقل : ٣١ ، ٣٣ ، ١٥٥ (تضاد بين الاودية والعقاب) ، ٣٢٤ ، ٤٨٨ ، المقدسي : ٧١ ، ٧٧ ، ٨٣ ، ٩٧ ، ١٥١ ، ١٦١ (ترجمة ، ص ١٧٧ ، حاشية ١٣٤)، ١٧١ ، ١٧٤ (استثناء وارد : وادي نابلس محصور بين جبلين، مضغوط بينهما) ، ١٧٩ ، ٢٢٩ ، ٢٣١ (دراعه ، لا يظهر لفظ الوادي في الحقيقة ، الا ان تعبير نهر جرار يبدو مساوياً وادي جرار الذي سنتحدث عنه فيما بعد) ، ٢٣٤ — ٢٣٥ ، ٢٤٧ ، ٢٤٩ ، ٢٥٠ ، ٢٥٢ ، ٢٥٤ (ح . ط) ، ٣٠١ ، ٣٠٣ ، ٣٥٠ ، ٣٦٣، ٤٣٦ ، ٤٥٣ ، ٤٩٤

(٥٨١) المقدسي : ١٤٢ ، ٤٦٦ ، ٤٧٨ ، ٤٩٤

(٥٨٢) الا صطخري : ١٣٧ ، ابن حوقل : ٤٠٧ ، ٤٠٨

(٥٨٣) حول مواضيع خصب الوادي ، انظر ابن حوقل : ٤٠٨ ، المقدسي : ٨٣، ٩٣ ، ١٧١ ، ٢٢٩ ، ٢٣٤ — ٢٣٥ ، ٣٠٣

(٥٨٤) ابن حوقل : ٥١١ ، المقدسي : ٢٣٣

(٥٨٥) المقدسي : ١٤٠ ، ١٦٨ ، ٣٧٧

(٥٨٦) الا صطخري : ١٣٧ ، ابن حوقل : ٤٠٧ ، المقدسي : ٢٢٤ ، ٢٢٦ ، ٢٢٩ (مثالا ن) ، ٢٣١ ، ٢٣٣ ، حول جرار ، انظر م ج ع ، ج٤ ، ٢٠٤ . انظر القرآن ١٣ / ١٨ / ١٧ ، حاشية ترجمة بلاشير : حرفيا ، جرت اودية »

(٥٨٧) عندما يتميز أحد الوديان بماء مستنقع ، باقي ، يكون الماء في الآبار أو العيون كما ابنا .

(٥٨٨) انظر جغرافية دار الا سلام ، ج٢ ، ١٠ — ١٦

(٥٨٩) موضوع أدب ، انظر أبو الحيان التوحيدي ، الامتاع والمؤانسة ، الناشر أحمد أمين و أ . الزين ، القاهرة ، ج٢ ، ١٣٧٣ / ١٩٥٣ ، ص ١٠٤ وما يليها

(٥٩٠) جغرافية دار الاسلام ، ج٢ ، ١٧٤

(٥٩١) المسعودي (ت) ، ١٠٥

(٥٩٢) الجاحظ (ح)٤ ، ٢٠٦

(٥٩٣) الناشر بيلا ، ص ٢٦ ، انظر ترجمة ب . كارادي فو ، مفكرو الاسلام ، باريس ، ج٢ ، ١٩٢١ ، ٢٥٤

(٥٩٤) ابن الفقيه : ٦٤ — ٦٥ ، ترجمة ماسي (راجعه ش . بيلا) مشار اليه ، ٨٠

(٥٩٥) الضمير في « حللته » عائد في كل هذه الجملة ، ليس الى قرار الأرض ، كما يمكن ان يظن من سياق الترجمة ، بل الى الماء

(٥٩٦) مسعر (ب) : ٣٩

(٥٩٧) المقدسي : ٣٨٤

(٥٩٨) المقدسي : ١٤٧ ، ١٦٨ (الترجمة ، ص ١٩١ ، ١٨٥)

(٥٥٩) المقدسي : ٤٢٦ — ٤٢٧

(٦٠٠) المسعودي (ت) ، ٧٣ ، الذي يعطي التواريخ في تقاويم اخرى : فارسية (٩ ديماه) ، اسكندرية أو قبطية (٩ طوبه) وسورية ، منسجمة مع التقويم اليوليوصي (٥ كانون الثاني)

(٦٠١) المسعودي (ت) : ٧٣ آخرها — ٧٥

(٦٠٢) قدامة ٢١٠ — ٢١١

(٦٠٣) المقدسي : ج٢ ، ٣٤ — ٣٥ . ذكر زلازل ارضية اخرى عند ابن رسته : ١٧٠ ، ومسعر (ب) ٤١ . في حقبات متأخرة انظر م . أ . طاهر « نصوص مؤرخين شاميين عن الزلازل في القرن الثاني عشر الهجري » ، م د ش ، ٢٧ ، ١٩٧٤ ، ص ٣٠ — ١٠٨ . انظر أيضاً م . أ . طاهر ج . ب . بواريه « الزلزلة التاريخية في الشرق الأدنى والأوسط . . . » ، مجلة جمعية علم الزلازل في امريكة ، سوف يظهر في وقت لاحق

(٦٠٤) انظر جغرافية دار الاسلام ، ج٢ ، ٩٠ . تكرر موضوع المراكب في كتاب الف ليلة وليلة (رحلة سندباد السادسة وقصة ثالث قلندر ، ابن الملك)

(٦٠٥) ابن الفقيه : ٦٧ ، ٧٦ ، ١٣٤ ، يكرره جزئيا المسعودي (ب) ، فقرة ٨١٦

(٦٠٦) انظر استشهاد ابن بطلان عند أ . ويدمان ، في م ، ج٣ ، ١٠٩

(٦٠٧) يتدخل الهواء في فرضية جابر بن حيان (انظر ويدمان ، مقال ذكر) الذي يعتبر المغناطيسية قوة لا مادية شبيهة بالعطور . والنار ، على الأقل بشكلها المجازي كسم ، تتدخل بسم الحية ، الشبيه بالمغناطيسية من ناحية زوال اثره بنسغ الاترج ، مثلما يزول أثر المغناطيس بالثوم .

(٦٠٨) كما ان موضوع جبل الحديد يتعدى ، على مستوى آخر ، الجغرافية ، ويدخل في القصة والأدب : انظر الحاشية ٦٠٤ ، والبيهقي ، كتاب المحاسن والمساوىء ، بيروت ، ١٣٨٠ / ١٩٦٠ ، ص ١١٣ : ضل أحد الملوك وجيشه في احدى الصحاري ، فوضع رجليه الحافيتين على درعه على الأرض ، وتغطى بدرعه . ثم مات في هذا الوضع . وكان « المنجمون قد تنبأوا عند ولادته بأنه سيتوفى بين جبلين من حديد » .

(٦٠٩) انظر ما تقدم ، ص ١٢ — ١٣ ، ٣٣ ، ٤٧ آخرها — ٤٩ ، ٥٢ ، ٩٧ ، ٩٩ وأماكن متفرقة . اضف المقدسي ، ٣٨١ (حول تقنيات الحراثة التي يقتضيها اثر الثلوج الغزيرة في الأرض ، في منطقة اردبيل .

(٦١٠) المسعودي (ت) ، ٤٥ (ترجمة معدلة بعض الشيء) .

(٦١١) انظر مثلا ابن حوقل : ١٣ ، المقدسي : ١٩٥

(٦١٢) المقدسي : ٣٩٧ . انظر أيضاً ابن خرداذبه : ١٧٢ ، مسعر (ب) : ٣٧ (عين تتحجر بملامسة الزئبق) ، حول هذه المواضيع ، انظر ما يأتي الفصل ٢ ، ص ١٢٦ — ١٢٧

(٦١٣) المقدسي : ٣٨٠ . حول المعتقدات المرتبطة بالنيازك ، انظر ايلياد ، الحدادون والسيميائيون مشار إليه ، ١٤ ، و ١٥٩ (المراجع) .

(٦١٤) انظر ما تقدم ، ص ٥٧

(٦١٥) انظر ما تقدم ، ص ٩٦ (و ح . ٥٤١ . عرفت صيغة الطير رواجا عظيما : الاصطخري : ٩١ ، ابن حوقل : ٢٩٧ ، المقدسي : ٤٤٥ ، حدود العالم : ١٢٨ ، ٣٧٩ (انظر شوارز ، فارس ، ج١ ، ٣٧)

(٦١٦) انظر جغرافية دار الاسلام ، ج٢ ، ٧٨ ، ٨٠ ، ١٧٧ (و ح . ١٠٣٣) ، ٢٦٠ ، ٢٦٧

(٦١٧) انظر ما تقدم ، ص ١٣ ، ٦٦ آخرها — ٦٩

(٦١٨) اليعقوبي ، ٣١٢ ، (بركان بني سليم ، على بعد حوالي عشرة فراسخ من المدينة ، انظر « البؤرات البركانية الكثيرة الى أقصى حد والحديثة ، يذكرها بالنسبة لهذه المنطقة بلانشار ، في الجغرافية العالمية ، ج٨ ، مشار اليه ، ١٨٢) . المقدسي ، ١٠٢ (بالنسبة الى منطقة عدن ، انظر و لوفنرين ، في م١(٢) ، ج١ ، ١٨٦ ، وبلانشار المرجع ذاته ، ص ١٧٥ — ١٧٦) ، ١٠٣ (بالنسبة الى منطقة صنعاء خاصة ، ذكر مكان خرجت منه نار احرقت بستان مقسمون (القرآن ، ٦٨ : ١٧) : حول الآثار المنظورة (بازالت) للبراكين في المشهد الطبيعي ، انظر بلانشار ، الموجع ذاته ، ص ١٧٤) . اخيرا يلاحظ « بركان » وادي برهوت أو بلهوت في حضرموت انظر الاصطخري : ٢٦ آخرها — ٢٧ ، ابن حوقل : ٣٨ ، المسعودي (م) ، فقرة ٩١٢،٤٦٤ ، المسعودي (ت) ، ٩٠ ، المقدسي ، ج٢ ، ٩٧ ، ج . شليفر ، في م١ ، ج١ ، ٦٧٠ ، ج رنتز ، في م(٢) ، ج١ ، ١٠٧٦ — ١٠٧٧

(٦١٩) المسعودي (م) ، فقرة ٩١٢ ، المسعودي (ت) ، ٩٠ ، الاصطخري : ٦٤ ، ابن حوقل : ٢٥٥ ، المقدسي : ٤٤٤ ، حدود العالم : ١٣٠ ، ٣٨١ . شوارز (فارس ، ج٣ ، ١١٦ ، ج٤ ، ٢٩٣) يميل ، اعتمادا على الاصطخري ومع بعض الحق ظاهريا ، الى عين بيتومية .

(٦٢٠) المقصود ، في الواقع ، على الأرجح ، الجايزر : المسعودي (م) فقرة ٩١٣ ، المسعودي (ت) ، ٩١ ، وايضا ابن الفقيه : ٢١٤ . انظر شوارز ، فارس ، ج٤ ، ٤٦٧ آخرها — ٤٦٨

(٦٢١) حول هذا المركب البركاني ، المعروف معرفة سيئة في الغالب (انظر الى تحديد موقع اتنا في احدى الجزر التي تبدو متميزة عن صقلية ، ووجود بركان في جزيرة « مقابل تاورمين » ، انظر جغرافية دار الاسلام ، ج٢ ، ٣٦٧ ، شوارز ، فارس ،

ج٤ ، ٢٩٤ ، ابن خرداذبة : ٩٠ ، ١٥٥ آخرها ، المسعودي (م) ، فقرة ٢٧٦ ، ٤٦٤ ، ٩١٢ ، المسعودي (ت) ، ٨٩ – ٩٠ ، ابن حوقل : ٢٥٥ – ٢٥٦ ، المقدسي : ٢٣٢ ، ٢٤١

(٦٢٢) انظر الصفات المشار اليها في الحاشية ٦١٨ ، والحاشيتين ٦١٩ ، ٦٢٠ . أخذ الوصف الوارد هنا ، من جغرافية دار الاسلام ، ج٢ ، ٢٦٠ ، ما تقدم ، ص ٦٧ ، المسعودي (م) ، فقرة ٣٧٧ ، ٤٦٤ ، ٩١٢ – ٩١٣ ، المسعودي (ت) : ٩٠ – ٩٢ ، عجائب الهند : ٢٨٥ ، ابن حوقل : ٢٥٥ – ٢٥٦ ، المقدسي : ٢٤١ ، وصيف شاه : ٤٨

(٦٢٣) المقدسي : ٢٣٢

(٦٢٤) المقدسي : ٢١١ . انظر أيضاً مسعر (ب) : ٣٦ ، ابن حوقل : ٢٩٧ ، ٥٠٥– ٥٠٦ (كهوف بتم ، مع ابخرة غاز النشادر ، ذكر من قبل) ، المقدسي : ١٥٣ (شبكة جوفية مبينة بانهدام القبة : انظر الترجمة ، ص ١٥٧ – ١٥٨) ، ١٧١ ، ١٧٥ (كهف له مدخلان) ، ١٨٥ ، ٣٣٣ (و ح . ز) ، ٤٤٤ – ٤٤٥ .

(٦٢٥) انظر الحاشية ٦١٨ ، والمسعودي (م) ، فقرة ٨٧ ، المقدسي : ١٠٢ ، ١٣٦ (انظر المرجع ذاته ، ١٤٤ ، ١٤٦)، ١٧١ (حول كهف القدس ، انظر ج . ووكر ، م١ ، ج٢ ، ١١٥٢ و ١١٥٤) ، ١٧٥ وما يليها ، ١٨٥

(٦٢٦) لا ريب ان لدينا هنا اختلاط عدة مواضيع ، مواضيع الكهف (أو الكهفين) و مواضيع الصخور المنحوتة في المنطقة ، في بهستون (بيستون) و طاق – أي بستان : انظر لوسترانج، الخلافة الشرقية ، ٢٦٣ ، أ . هرزفيلد ور . ن – فراى، في م ا (٢)، ج١ ، ١٢٨٦ ، شوارز ، فارس ، ج٤ ، ٤٨٧ وما يليها ، م ج ع ، ج٤ ، ٢٠٥ (لفظ جرن) ، بالنسبة الى النصوص ، انظر ابن حوقل : ٢٩٧ ، ٣٥٩ ، ٣٧٢ ، المقدسي : ٤٤٤ – ٤٤٥ ، حدود العالم : ١٢٨ . يبدو ان الكهف المقصود هنا ، يتفق جيدا مع وصف ج . سوتيرو دي شاف ، « استكشاف كهفي في ايران »، سبيلونكا ، ١٩٧٤ ، ج٤ ، ص ١٠٩ – ١١٠ حول المعتقدات الخاصة بالكهوف ، انظر ايلياد ، الحدادون والسيميائيون ، مشار اليه ، ١٥ ، ٣٣ – ٣٤ ، وأماكن متفرقة .

(٦٢٧) انظر المقدسي ، ذكر من قبل ، في الكلام عن كهوف مصر

(٦٢٨) انظر كهف سابور وما تقدم ، ص ١٠٨ (استشهاد المقدسي) .

(٦٢٩) الاصطخري : ٩١ ، ابن حوقل : ٢٢٢ ، ٢٩٧ ، المقدسي : ٣٩٨ ، ٤٤٤ ، ٤٤٥

(٦٣٠) المقدسي : ١٦٠ ، ذكر من قبل ، ص ٥٢

(٦٣١) ابن حوقل : ١٧٤

(٦٣٢) ابن حوقل : ٢٢٢ ، م١ ، ج٢ ، ٩١٠ (مغفل الأسم) ، بلا نشار ، في جغرافية عالمية ، ج٨ ، مشار اليه ، ٢٢١

(٦٣٣) المقدسي : ٢٠ ، ١٣٦ ، ١٤٤ ، ١٤٦ . ر . هارتمان ، م١ ، ج١ ، ٩٩٥ . يعثر على اقتران الأخضر والظلمات في ماء آخر غامض : الاقيانوس .

* * *

حواشي الفصل الثاني

(٦٣٤) انظر ايلياد ، الحدادون والسيميائيون ، مشار اليه ، ١٣٠ و ١٣٩ . الأسطر المذكورة من كيرشويغر ، مؤلف كتاب Aurea Catena Homari ، (١٧٢٣) فيما يظن . علاقة الماء بالحجر الفلسفي ملحوظة بجلاء في ابن الفقيه ، ٢٠٥

(٦٣٥) الاحالات الى النصوص المذكورة هي الآتية : ٢٥ : ٥٥ / ٥٣ — ٥٦ / ٥٤ ، ٢١ : ٣١ / ٣٠ ، ٢٧ : ٦٢ / ٦١ (انظر الفصل الأول ، ص ٢٦ آخرها — ٢٧) ، ١٤ : ٣٧ / ٣٢ (جزئيا) ، ١٦ : ١٥ تستهدي ترجمتي بترجمتي ر . بلاشيروم . حميد الله

(٦٣٦) مع اهمال التأويلات العائدة الى الأخرويات ، انطلاقا من مقطع اخر من القرآن : ٢٣ : ١٠٠ / ١٠٢ انظر ب . كارادي فو ، م١ (٢) ، ج١ ، ١١٠٣ — ١١٠٤ . بالنسبة الى التفسيرات المشار اليها هنا ، انظر المقال ذاته وبلاشير ، القرآن ، ٢ / الحاشية ص ٣١٠ — ٣١١

(٦٣٧) القرآن ، ٦ : ٢ ، ٢٠ : ٥٧ / ٥٥ ، ٢٢ : ٥ ، ٣٢ : ٦ / ٧ — ٧ / ٨ ، ٥٥ : ١٣ / ١٤

(٦٣٨) ر . بلاشير : « شروب » ، م . حميد الله : « مبرد » .

(٦٣٩) العلاقة مباشرة بين المطر والنبات في مجمل الـ ٦٣ حالة تقريبا التي ذكرها بلاشير (القرآن ، الفهرس ، لفظ مطر) . تندس مياه العين أو النهر بين اللفظين في ثلاث حالات فقط : ١٣ (بلاشير رقم ٩٢) : ١٨ / ١٧ ، ٢٣ (٦٦) : ١٨ — ١٩ ، ٣٩ (٨٢) : ٢٢ / ٢١

(٦٤٠) مبينة بايجاز كما قلنا في ثلاثة مقاطع من القرآن : انظر الحاشية السابقة

(٦٤١) اليعقوبي : ٣٢٥ ، بالتأكيد النبع الكبير في رأس العين ، الذي يروي بعلبك وضواحيها .

(٦٤٢) ابن خرداذبة : ١٧٢ . الموقع مرتبط بوفاة الخليفة المأمون . يرتبط بشبكة ماء بردان ، أي كيدنوس القدامى .

(٦٤٣) ابن الفقيه : ٦٤ (انظر المرجع ذاته ، ١١٦) . لنا عودة الى الاردن والنيل . أما ذكر الأماكن الاخرى ، فلعله يتفسر على ضوء الصفة المقدسة ، التي تحظر اعادة استعمال المياه التي مستها (الحجرات ، جمع حجرة ، تحيل فيما يبدو الى « الغرف » التي دفن فيها النبي وزوجه عائشة وخليفتاه أبو بكر وعمر ، واجداده ، أو أحد مشاهير الرجال : انظر م١ (٢) ، ج٣ ، ٥٦٤ ، الهروي، كتاب الزيارات ، طبعة ذكرت ، ص ٦٣ ، و ٩٠ — ٩١ ، الترجمة ، ص ١٤١ و ٢٠٦ — ٢٠٧) .

(٦٤٤) حدود العالم : ٧٠، يكرر النص بـ« انهار طبيعية » الفرق المبين من قبل (المرجع ذاته ٦٩) بين مجاري ماء طبيعية وصنعية (اقنية)

(٦٤٥) الاخوان ، ر ١ ، ١٦٤ — ١٦٥

(٦٤٦) باستثناء تحفظ مصنفاته الاخرى ، الضائعة ، التي يحيل اليها ، في المقطع المشار اليه هنا (المروج ، فقرة ٢١٤) ، بالنسبة الى آراء اخرى خاصة باصل المجاري المائية . يبدو ان كتاب التنبيه لا يأخذ بفرضية اخوان الصفا (ص ٤٥ — ٤٦)

(٦٤٧) ما تقدم ، الفصل ١ ، ص ١٠٨

(٦٤٨) ابن الفقيه : ٦٤ ، ٧٨ . يعود الرمل الى الظهور عوضا عن حبال القمر (انظر جغرافية دار الاسلام ، ج٢ ، ١٣٦ — ١٣٨) ، بشكل جبل (أو جبال) الرمل عند الاسواني ، ٢٥٩ . انظر ج . هـ . كرامرز « النيل » في م١ ، ج٣ ، ٩٨١

(٦٤٩) الاسواني : ٢٦٠ بديهي ان « ثم » يجب ان تفهم صعدا على النهر . المريفع قرب سوبه ، مصر بلد علوة النوبي ، الذي يعرفه الأسواني جيدا . بالاحرى ، لا نجد صببا عرضا للنيل يبلغ مسيرة شهر . احيل جملة ، بالنسبة الى بلدان منابع النيل والنيل الأعلى ، التي لا تدخل في مملكة الاسلام ، الى جغرافية دار الاسلام ، ج٢ ، ١٣٥ آخرها ١٣٨ و ١٥٣ وما يليها .

(٦٥٠) ايلياد ، الحدادون والسيميائيون ، مشار اليه ، ٣٣

(٦٥١) المرجع ذاته ، ص ١٦

(٦٥٢) ابن الفقيه : ١١٧

(٦٥٣) انظر المقدسي ، ترجمة ، ص ٦٥ ، حاشية ١١٤

(٦٥٤) المسعودي (م) ، فقرة ٢٨٨ – ٢٨٩ ، المقدسي : ٢١ – ٢٢ ، وصيف شاه ٣٤٤ وما يليها

(٦٥٥) ابن خرداذبه : ١٦١ ، ابن الفقيه : ٧٣ تلميح في القرآن : ٤٣ : ٥٠

(٦٥٦) المقدسي ، ج٢ ، ٤٢، ج٤ ، ٥٦

(٦٥٧) سفر التكوين ، ٢ ، ١٠ – ١٤ . قوى ، القاموس ، لفظ « نهر » ، ج٢ ، ٢٩٩٠ ، كرامرز ، « نيل » ، م١ ، ج٣ ، ٩٧٩ ، المسعودي (ت) ، ٩٧ ، حاشية ٢ لوسترانج ، الخلافة الشرقية ، ٤٣٤ ، حاشية ١

(٦٥٨) القرآن ، ٧٧ : ٢٧ ، ابن الفقيه : ٩٥ . حول التقليد الاسلامي ، انظر ١ . ج. ونسنك ، كتاب التقاليد الاسلامية الاولى ، لايدن ، ١٩٦٠ ، ص ١٨٣ . حالة اخرى ، يتحول فيها الموضوع الى موضوع اسلامي : القبة فوق الصخرة صارت مسجد ابراهيم ، ويخرج من تحت الصخرة ماء كثير . في مجال آخر ، هنا بهلوي ، روحنت فيه جغرافية الانهار ، انظر ج – دي مبناسي « تفسير روحي لاسطورة جغرافية مزدية » ، المجلة الاسيوية ، ٢٥٩ ، ١٩٧١ ، ص ٢١ – ٢٤

(٦٥٩) حول هذه المواضيع انظر ابن الفقيه : ٦٤ ، ٩٥ ، ١٧٤ – ١٧٥ ، ٢٢٠ (عين في فارس ، في اروند، تعد من عيون الجنة)، المسعودي (م) ،فقرة ٢٨٨ – ٢٨٩ ، ٧٧٥ ، المسعودي (ت) ، ٣٥ (لبن وعسل لمنطقة الاسكندريه) ، المقدسي ، ج٢ ، ٤٢ ، ج ٤ ، ٥٦ ، المقدسي : ٢١ – ٢٢ – ٢٣ (يصحح الرس ويجمل الشاش (نهر الشاش ، اسم آخر لسيحون) : انظر الترجمة ، ص ٦٥ ، ح ١١٤)، ١١٣ (الفرات باسم « نهر ») ، ١٣٦ – ١٣٧ ، ١٤٥ ، ١٩٣ ، ٢٠٠ ، ٢٠٣ آخرها ، ٢٩٨ (نهر منطقة مرو ، مبارك بسبب ذكرى ذي القرنين ، المشهور بأنه باني المدينة : انظر ابن الفقيه : ٣١٦) ، ٤٧٤ (مهران ، لم يسم ، وصف بالنبيل) ، وصيف شاه : ٤٣ – ٤٤ ، ٣٤٤ – ٣٥٠ . ربما وجب أيضاً مقارنة الرقم ٧ بهذه المعطيات (بالنسبة الى الأنهار التي تؤلف النيل ، صعدا من بلد علوة ، الاسواني : ٢٥٩ ، بالنسبة للانهار التي تسقي مدينة الشيز ، في الجبال ، وكل منها يدير رحى ، مسعر (ب) : ٨ . بالنسبة الى التقليد الاسلامي ، انظر ابن حنبل ، المسند ، القاهرة ، ١٣١١ / ١٨٩٣ ، ج٢ ، ص ٢٨٩ ، ٣٣٥ ، ٤٤٦ ، ج٣ ، ص ١٦٤ ، ج٤ ، ص ١٤ ، ٢٠٨ وما يليها .

(٦٦٠) المقدسي : ٣٣ (ترجمة ، ص ٦٥ حاشية ١١٥ – ١١٦) ، الاحالات الى القرآن كما يلي : ١٣ : ١٨ / ١٧، ٢٥ : ٤٠ / ٣٨ ، ٥٠ : ١٢ ، ١٥ : ٢٧ ، ٥٢ : ٢٧ ، ٥٦ : ٤١ / ٤٢ .

(٦٦١) الحالة معقدة جدا لا سيما وان نهر الكر ، الذي يعني اسمه « آبار » ، مثله مثل الرس ، من انهار فارس ، كالرس بالذات (انظر ابن حوقل : ٢٦٣ ، ٢٧٥ – ٢٧٦ ، المقدسي : ٤٤٦) . مع ذلك يبدو ان هذين النهرين مقصودان ، لا همية مجاري المياه في منطقة ارمينية اذربيجان القبق . العقبة الاخرى : يذكر المقدسي ان التقليد يعتبر الكر من انهار الجحيم ، خلافا للرس ، الذي يعد من انهار الجنة . صححت من قبل (حاشية ٦٥٩) رس وجعلته شاش ، لأعود الى سيحون . ربما اخطأت ، لكن اذا حوفظ على التصنيف كما ورد عند المقدسي ، لا نفهم ماذا يعمل في اطار الجنة ، نهر يذكر بداهة بتدوينات ذم . انظر مايلي ، ص ٢١٥ .

(٦٦٢) مشكوك فيه اصلا : انظر تردد الناشر ، اللفظ ، م ج ع ، ج٤ ، ١٤٠ . والمقدسي ٢٣ ح ز

(٦٦٣) لا يمكن ان نستبعد كليا معنى سم (ثقب الابرة) في صورة الجمل الذي يمر في هذا الثقب قبل ان يدخل الكفار السماء (القرآن ، ٧ : ٣٨ / ٤٠) ياقوت ، معجم البلدان ، ج٣ ، ٢٤٥ ، يتحدث عن وادي سمى ، في الحجاز .

(٦٦٤) صورة اخرى : سبخة (أرض مالحة) .

(٦٦٥) انظر لوسترانج ، الخلافة الشرقية ، ١٢٤ ، حاشية ١ ، و ر . هارتمان ، « الفرات » ، في م١ (٢) ، ج٢ ، ٩٦٨(١) .

(٦٦٦) ذكر ابن قتيبة التقليد وذكر ان النهرين الكافرين هما دجلة ونهر بلخ ، وسبب هذا الكفر الري الشحيح الذي يتناقض مع ري النيل والفرات ، السخي : انظر المقريزي ، الناشر وايت ، مذكرات المعهد الفرنسي للاثار الشرقية في القاهرة ، مجلد ٣٠ ، ص ٢١٨ . انظر ابن الفقيه : ١٧٤ ، المقدسي : ١٤٥ . حول برهوت (أوبرهوت أو بلهوت) ، انظر الهمداني : ١٢٨ ، ٢٠١ ، ٢٠٣ ، والحاشية ٦١٨ ، الهروي ، كتاب الزيارات ترجمة مذكورة ، ص ٣٨ ، و ٢٢١ ، ياقوت ، معجم البلدان ، ج١ ، ٤٠٥ – ٤٠٦

(٦٦٧) المسعودي (م) ، فقرة ٢١٣

(٦٦٨) المقاطع المذكورة مأخوذة من المسعودي (م) ، فقرة ٧٨٥ ، ٢٢٩ – ٢٣٥ ،

انظر أيضاً المسعودي (ت) ، ٨٠ ، ابن رستة : ٩٤ آخرها – ٩٥ ، المقدسي : ١٨ ، ٢٠ (ح . يا) يتحدث في كلامه عن النيل ، عن ذراع يصب في بحر القلزم : بلا ريب التبس عليه مع القناة ، غير المستعمل آنذاك ، الذي كان يصل النيل بالبحر المذكور : انظر كرامرز ، « النيل » م١ ، ج٣ ، ٩٨٠(١) .

(٦٦٩) « القديم » فعلا

(٦٧٠) تسمية عادية لشط العرب ، الا ان المسعودي يتكلم هنا عن مجر دجلة القديم (حاشية المترجم ش . بيلا) : انظر ح ١١٦١

(٦٧١) أي الجزء المنخفض الذي يمكن ان يغمره الفيضان (حاشية المترجم)

(٦٧٢) انظر بلانشار ، في جغرافية عالمية ، ح٨ ، مشار اليه ، ٢٢١ – ٢٢٥ ، لوسترانج ، الخلافة الشرقية ، ٢٥ – آخرها – ٢٩ ، م ستريك و ج . لا سنير ، « كارون » ، م١(٢) ، ج٤ ، ٧٠٢

(٦٧٣) لخصه ب . سبولر ، « اموداريا » ، م١(٢) ، ج١ ، ٤٦٨ – ٤٧٠ (مع المراجع) ، انظر لوسترانج ، الخلافة الشرقية ، ٤٥٥ وما يليها ، بارتولد ، التركستان ، ١٤٦ ، ١٥٠ وأماكن متفرقة ، كامينا دالميدا ، جغرافية عالمية ، ج٥ ، مشار اليه ، ٣٠٣

(٦٧٤) اليعقوبي : ٢٧٨ . تصحح ترجمة وايت ، ص ٨٣ (« تقع خوارزم عند مصب جيحون ») ، التي تحدث التباسا ، لتصبح : « على آخر نهر بلخ » .

(٦٧٥) ابن رستة : ٩١ – ٩٢ (انظر بارتولد ، التركستان ١٤٦) ، حدود العالم : ٧١

(٦٧٦) ابن خرداذبة : ١٧٣ (وح . ز) ، ناحية هامه : يجعل المصنف النهر يصب في بحيرة كردر ، الا انه اضاف هو أو الناسخ أو أحد المفسرين : في بحر جرجان : أي بحر الخزر . يحيل وصف المسعودي (ت) ، ٩٦ ، للبحيرة ، احدى أوسع البحيرات في العالم (انظر المروج ، فقرة ٢٢٣) الى بحر آرال ، الا ان بارتولد (مشار اليه) يرى بالاحرى في « هذه البحيرة المسماة الجرجانية « ساري قميش ، على مجرى جيحون القديم باتجاه بحر الخزر ، على حوالي ٢٥٠ كم الى جنوب غرب شواطىء بحر آرال . في الواقع ، يقال انه « يخرج من هذه البحيرة انهار عظيمة تصب في البحر الخزري » . انظر أيضاً المرجع ذاته ، آخر ٩٧ ، ثم ٩٧ (الفقرة الأولى)

و ٢٤٥ (يصحح في ترجمة كارادي فو ، « بحيرة جرجان » التي تحيل الى بحر الخزر ، الى « البحيرة المعروفة بالجرجانية » حسب النص العربي) ، وكلها احالات تزيد الالتباس ، اذا ان هذه البحيرة أي ساري قميش ، تتلقى مع جيحون ، سيحون : نفكر ببحيرة آرال لا سيما وان شواطئها شهدت المجابهات بين الغز والكيماك .

(٦٧٧) الاصطخري : ١٦٦ آخرها – ١٦٧ ، ١٦٩ ، ابن حوقل : آخر ٤٥١ (بحيرة ارآل مسماة بحيرة جيحون) ، ٤٧٧ ، ٤٨٠

(٦٧٨) المقدسي : ٢٢ ، ٢٨٥ ، انظر سبولر ، « امودداريا » ، في م١(٢) ، ج١ ، ٤٦٨(٢) ، ولوسترانج ، الخلافة الشرقية ، ٤٥٥

(٦٧٩) انظر سبولر ، مشار اليه

(٦٨٠) مع اغفال ساري قميش (الحاشية ٧٧٦) . انظر لو سترانج ، الخلافة الشرقية ، ٤٥٨ ، ح١

(٦٨١) ابن خرداذبة : ١٧٨ ، ابن الفقيه : ٢٧ ، ابن رسته : ٩٠ – ٩١

(٦٨٢) المسعودي ذكر من قبل ، ص ١١٦ ، ابن الفقيه : ٢٢٠ ، ٢٢٥ ، ابن رستة : ٩٤

(٦٨٣) انظر جغرافية دار الاسلام ، ج٢ ، ١٨ ، والمسعودي (ت) ، ٦٩ آخرها

(٦٨٤) ابن الفقيه : ٦٣ ، ٦٦ – ٦٧ ، المسعودي (ت : ٢٤٢ ، ابن حوقل : ١٥٣

(٦٨٥) المسعودي (م) ، فقرة ٤٢٤ ، المسعودي (ت) : ٢٤٢

(٦٨٦) المسعودي (ت) : ٢٤٢

(٦٨٧) ابن سيرابيون : ٤٤ (ا – ب) المسعودي (ت) : ٢٤٢ ، ابن حوقل : ١٥٣ ، المقدسي : ٢٢ ، ٢٣ (ح يز من ٢٢) . انظر ر . هارتمان ، في م١ (٢) ، ج١ ، ٧٢٧ ، واليعقوبي ، ترجمة ، ص ١٦٩ ، ح ٦ . سنعود فيما بعد ، في حديثنا عن الخريطة ، الى الشكوك المتعلقة بنظام ماء الارنط – الأردن – بردى (انظر أيضاً الحاشيتين ٦٩٥ و ٧٠٠ وص ١٩٦ – ١٩٨ .

(٦٨٨) ابن خرداذبة : ٢٨ ، قدامة : ٢٠٥ ، ابن الفقيه : ٣٢٧ آخرها . الأسم غامض (ماعدا مقطعه الأخير ، من الفارسية آب أي ماء ، نهر) . انظر ترددات الناشر (ابن خرداذبة ، مشار اليه ، ح ز ، ابن الفقيه ، مشار اليه ، ح يط) .

(٦٨٩) ابن الفقيه : ٦٤

(٦٩٠) المسعودي (م) ، فقرة ٧٧٦

(٦٩١) ابن الفقيه : ٢٠٨ (هندميذ) ، مسعر (ب) : ٣٣

(٦٩٢) ابن الفقيه : ٢٥٩ — ٢٦٠

(٦٩٣) المقدسي : ٣٩٧

(٦٩٤) المسعودي (م) ، فقرة ٨٩ ، المسعودي (ت) ، ١٠٧ . انظر ما يلي بالنسبة الى بزوغه

(٦٩٥) قدامة : م ٦٥ . حول شكوك نظام ماء المنطقة ، الحاشية ٦٨٧ والحاشية ٧٠٠ وص ١٩٦ — ١٩٨ ، حيث يلاحظ ان قدامة وحده يشترك في الوقوع في هذه الأخطاء .

(٦٩٦) مسعر (ب) : ٢٨ — ٢٩

(٦٩٧) ابن خرداذبة : ١٧٦ ، ابن الفقيه : ٢٦٦ ، المسعودي (ت)، ١٠٨

(٦٩٨) المقدسي ج٤ ، ٩٠ ، يضيف ان العمالقة سخروا من قصر قامة زائريهم ، لكنهم طرحوا السؤال بحكمة : كيف عاد الأتراك ليستطيع رواية هذه القصة

(٦٩٩) الاحالات كما يلي : مسعر (ب) : ١٦ ، الهمداني : ١٦٠ ، المسعودي (ت) ، ٩٧ ، ابن خرداذبة : ٢٠ آخرها ١٧٦ ، ابن الفقيه : ٢٦٦ ، ابن رستة : ١٥٥ ، المسعودي (ت) : ١٠٧ — ١٠٨ ، ابن حوقل : ٣٦٦ (نسخة اخرى : يضيع زرين روذ في بحيرة في كرمان : طهفيروز) ابن خرداذبة : ٧٩ آخرها ، المسعودي (ت) : ١٠٧—١٠٨ ، المهلبي (ى) ، ج٥ ، ٣١٥ — ٣١٦ (وياقوت ، معجم البلدان ج٤ ، ١٦٧ ، بيديكر فلسطين وسورية ، مشار اليه ، ١٢ ، ٢٤١ ، كارا دي فو يرى ان ابى فطرس نفس انتي باتريس ،أو كفر سابا (انظر بسنيه،مفردات جغرافيه قديمه ، مشار اليه ، ٥٤) المذكور انه بجوار النهر .

(٧٠٠) لأنه من جهة لا ينضب (انظر ص ١١٦) حتى قبيل الكارثة التي تسبق يوم القيامة (انظر ابن الفقيه : ١١٦ ، المرجع ذاته ، ١٠٤ لنهر ابى فطرس ، ومن جهة اخرى ، لأن ماء الصاب في البحيرة الميتة لا يرفع مستواها ، مثلما مر معنا .

يضاف هذا الى جميع الشكوك المشار اليها في الحاشية ٦٨٧ ، ٦٩٥ ، و ص ١٩٦ — ١٩٨ .

(٧٠١) انظر بلا نشار ، جغرافية عالمية ، ج٨ ، ١٥١ ، ١٥٢ ، ١٧٧ ، ١٨٨ ، ٢١٦

(٧٠٢) مسعر (ب) : ٨ ، ١١ ، ١٤ ، ٣٧

(٧٠٣) المسعودي (م) ، فقرة ٧٠٥ ، المقدسي : ٣٩٧ (س ٩ — ١٠ ، ذكر ص ١٠٨)

(٧٠٤) مسعر (ب) : ٨ ، ١١ ، ١٤ ، ابن الفقيه : ٢٤٧ ، ابن رسته : ١٥٨ ، ١٥٩ الاصطخري : ٤٣٦ الرازي : ٦٧ ، المقدسي : ٣٩٧ (س ٨ : ذكر ص ١٠٨)

(٧٠٥) ابن خرداذبة : ١٧٢

(٧٠٦) ابن الفقيه : ١٩٩ — ٢٠٠

(٧٠٧) ابن خرداذبة : ١٧٢ ، ابن الفقيه : ٢٤٧ ، ابن حوقل : ٣٤٦ ، المقدسي : ١٤٦ . التعبير من ابن الفقيه (الشب والنشادر) ومن ابن حوقل (البورق) .

(٧٠٨) انظر مسعر (ب) : ١١ ، ابن رستة وابن حوقل والمقدسي ، ذكروا من قبل

(٧٠٩) انظر ص ٩٩ و ١٠١ من الفصل الأول

(٧١٠) ابن سيرابيون : ٤٠ (١) ، ابن رسته : ١٨٥ (هول) .

(٧١١) ابن الفقيه : ١٨٩ . الواقع ان الالتباس يشمل كل هذه الصور : انظر م ج ع ، ج٤ ، ٢٣٠ و ٣٧٠ (مع احالات اخرى) ، يبدو ان استعمال هذه الألفاظ يمتد من سواد العراق الى فارس الغربية . انظر المقدسي : ٤٢٦ ، س ٧ و ١٠

(٧١٢) ابن حوقل : ٢٧٨ — ٢٧٩

(٧١٣) فوارة ، حول المعنى الأخير ، انظر مثلا ابن الفقيه ، ٢٠٥ (ه . ماسى ترجم ببساطة : فجروا)

(٧١٤) اليعقوبي : ٣٢٥ ، ابن حوقل : ١٧٤

(٧١٥) انظر لوسترانج ، الخلافة الشرقية ، ٣٠ — ٧٤ ، اماكن متفرقة

(٧١٦) ابن الفقيه : ١٠٤ — ١٠٥ . أمثلة اخرى على النهر الذي يعطى اسمه الى احدى المدن أو المناطق : ابن حوقل : ٢٤٣ ، ٢٤٥ ، ٢٥٢ ، المقدسي : ١١٤ — ١١٥

(٧١٧) مثال ابن حوقل : ١٧٤ (قناة متفرعة عن بردى بأمر من يزيد بن معاوية) ، ٢٤٣ (انهار تأخذ مياهها من دجلة) .

(٧١٨) مثال ابن حوقل : ٢٣٦ — ٢٣٧ ، ٢٤٣ ، ٤٧٩ — ٤٨٠ ، ٤٨٤ — ٤٨٦ ، ٤٩٦ — ٤٩٧ ، ٥٠١ وغيرها .

(٧١٩) المسعودي (م) ، فقرة ٣٠٤ ، ٧٧٧ ، ابن الفقيه : ٥٨ ، المقريزي ، طبعة مذكرة (مجموعة اعمال المعهد الفرنسي للآثار الشرقية في القاهرة) ، ٢١٨ ، حاشية ٥

(٧٢٠) حدود العالم : ٦٩ — ٧٠ ، ذكر جزئيا ص ١١٦

(٧٢١) فيما بعد ، يقول المصنف (ص ٧٩) ان الانهار الصالحة للملاحة هي الأنهار التي عددها في نظرته العامة (حدود العالم : ٦٩ — ٧٩) .

(٧٢٢) حدود العالم : ٧٠ — ٧٩

(٧٢٣) مع مثال على التشعب واضح جداً (ذكر من قبل ، فقرة ٤٦ : « يتفرع نهر آخر عن دجلة فوق بوله ويسمى نهر بوله » طبعاً المقصود بداهة قناة (انظر ترجمة مينورسكي ، دكر من قبل) ، وتضم الفئة الاخرى ما نسميه الروافد .

(٧٢٤) ذكر من قبل ، فقرة ٢٤ ، ٢٦ ، ٤٠ ، ٤٨ (مثالان) ، ٢٧ ، ٣٩ و ٤٥ (أقل وضوحا) .

(٧٢٥) ذكر من قبل ، فقرة ٢٧

(٧٢٦) سيل ، حرفيا : الجريان

(٧٢٧) بالنسبة الى منابع النيل ، مثلا (انظر جغرافية دار الاسلام ، ج٢ ، ١٣٥ آخرها — ١٣٨) ، أو ، بصورة أقل وضوحا ، بالنسبة الى شبكة ماء الأردن والأرنط وبردى : انظر الحواشي : ٦٧٨ ، ٦٩٥ ، ٧٠٠ ، وما يلي ١٩٦ — ١٩٨ .

(٧٢٨) انظر ما تقدم ، فصل ١ ، ص ٥١ ، مفهوم واضح حتى في مناطق خالية من الأنهار الكبيرة الدائمة انظر بالنسبة الى اليمن ، الهمداني : ١٠٩

(٧٢٩) سنعود الى هذا الموضوع فيما بعد ، في الحديث عن الخريطة . بالنسبة الى النظرة

العامة ، يمكن الاستعانة بجغرافية صورة الأرض ، العامة (كتاب الحدود ، ص ٧٠ – ٧٩) أو المصغرة في بلدان دار الاسلام (المقدسي : ٢٠ – ٢٤) .

(٧٣٠) حدود العالم : ٧١ ، ٢٠٨

(٧٣١) بالنسبة الى النيل والفرات وبردى ، وجيحون ، وسيحون ، والدجيل (كارون ، نهر الأهواز) ، والمرغاب (نهر مرو) : الاصطخري : ٥٧ ، ٥٩ ، ١٦٦ ، ابن حوقل : ١٧٤ ، ٢٣٨ ، ٤٧٥ ، ٥١١ آخرها ، المقدسي : ١٨٩ ، ١٩٨ ، ٢٠٠ ، ٢٠١ ، ٢٨٥ ، ٢٩٣ ، ٣١٢ ، ٤١١ ، حدود العالم : ٧٧ .

(٧٣٢) انظر جدول كتاب حدود العالم : ٧٠ – ٧٩ ، وأماكن متفرقة

(٧٣٣) حول نعبة ومشتقات الجدر ذاته ، انظر الفصل الأول ، ص ٣٢ – ٣٤ . انظر أيضاً مثلا ابن حوقل : ٢٣٦ آخرها – ، ٢٤٣ ، المقدسي : ٢٠ (ح يا) .

(٧٣٤) انظر حول هذا المعنى لشعبة وجذر ، ابن حوقل : آخر ٧٩ (من أجل نهر ساحلي في المغرب الأقصى) ، المقدسي : ٢٠ (بالنسبة الى الخابور بالنسبة الى الفرات) ، ١١٧ (بالنسبة الى دجلة : تلاقي الأقنية والأنهار القادمة من خوزستان ، انظر لوسترانج ، الخلافة الشرقية : ٢٨ ، ٤٢ – ٤٣ وأماكن متفرقة) ، ٢٩٠ (ربما كانت اقنية) متفرعة من جيحون وعائدة اليه) ، آخر ٤٨٢ (انهار تشكل جيحون في مجراه الأعلى انظر م ج ع ، ج٤ ، ٢٧٤

(٧٣٥) انظر ما تقدم ص ١٢٨ (و ح ٧١٦) . يلاحظ ان المثالين المذكورين ، ونكتفي بهما ، يعبران عن الحركة المزدوجة : من المدينة الى مجرى الماء ، ومن مجرى الماء الى المنطقة ، وان المدينة هي صاحبة المبادهة .

(٧٣٦) ليست بلخ على النهر بالذات ، بل على مسافة من ضفته اليسرى

(٧٣٧) انظر م ج ع ، ج٤ ، الفهرس ، اللفظ

(٧٣٨) مثال : ابن رستة : ٩٠ ، ابن الفقيه : ٦٣ ، ٦٤ ، ٩٥ ، اليعقوبي : ٣٥٨ ، المسعودي (ت) : ٢٤٢ ، لعل التدقيق ناشىء عن الرغبة بتمييز النهر عن بعض المجاري المائية الأخرى المنسوبة اليه في افريقية الغربية خاصة (انظر كرامرز ، « النيل » ، في م١ ، ج٣ ، ٩٨١(٢) ، وجغرافية دار الاسلام ج٢ ، ١٣٦ ، ١٤٠ ، والحالة الأقل احتمالا ان المقصود قرية عراقية (المسعودي (ت) : ٧٨ ، المقدسي : ٢٧ ،

٥٣ ، ١١٤ ، ١٢١) تختلف عن قناة تحمل الأسم ذاته : انظر لوسترانج ، الخلافة الشرقية ، ٧٢ — ٧٣

(٧٣٩) نحيل دفعة واحدة هنا الى فهارس م ج ع ، ج٤ ، اللفظ ، ونكتفي أحياناً ببعض التدقيقات الاضافية .

(٧٤٠) انظر ابن حوقل : ٣٦١ ، ٣٦٥ ، المقدسي : ٣٩٦.

(٧٤١) بالنسبة للفظين الاخيرين ، انظر ابن رستة : ٨٩ ، المسعودي (ت) : ٨١ (لعل تسمية مهران السند،المركبة ، تقابل تسمية نيل مصر ، نظرا للمقارنة التقليدية الجارية بين النهرين) .

(٧٤٢) حول هذا الالتباس ، انظر ابن الفقيه ، الذي يميز احيانا (٦٣ — ٦٤ ، ١١٦) ويخلط أحيانا اخرى (٩٥) . حول تسمية نهر كالف ، حسب مدينة من الضفة اليمنى، انظر المسعودي (ت) : ٩٥ ، الذي يقول بدقة فيما بعد ان المقصود جيحون ، نهر بلخ ، والترمذ ، وخوارزم : من بين شتى التسميات الأخرى ، اذا لزم الأمر .

(٧٤٣) بالنسبة الى الاسمين الأخيرين ، انظر المسعودي (ت) : ٨٨ ، ٢١١ ، ٢٤٢ ، اليعقوبي ٣٢٤ ابن رستة : ٩١ . بشأن الأرنط ، انظر أيضاً مايلي ، ص ١٧٤

(٧٤٤) بالنسبة الى اسم دجيل (الاهواز) ، انظر ابن خرداذبة : ١٧٦ ، اليعقوبي : ٢٧٢ ، ابن رستة : ٩٠ ، ٩١

(٧٤٥) انظر ، اضافة الى م ج ع ، ج٤ ، فهرس ، اللفظ ، حدود العالم : ٧٣ ، المسعودي (م) : فقرة ٥١٠ ، المسعودي (ت) ؛ ٨٣ آخرها .

(٧٤٦) انظر ابن رسته : ٩١ ، المسعودي (ت) : ٩٥ . أخذ الأسم الأخير من اسم أحد الأقوام (انظر جغرافية دار الاسلام ، ج٢ ، ٢٢٤)، اما الأسمان الأولان ، فهما في الواقع اسما أحد النهرين اللذين يؤلفان نهر جيحون الأعلى : نظرة شاملة عند ابن حوقل : ٤٧٥ ، ولوسترانج ، الخلافة الشرقية ، ٤٣٥

(٧٤٧) ابن رستة : ٦٢ ، ابن حوقل : ٢٥٢ ، ٣٦٥ ، حدود العالم : ٧٤ — ٧٥ ، ولوسترانج ، الخلافة الشرقية ، ٤٣٥ ، ٢٣٧ . ويثبت اسم أخير ، هو بهمنشير ، مسعودي (ت) : ٧٨ ، الالتباس صبيا ، بين حوضي دجيل ودجلة ، عبر ، اسمي دجلة العوراء والأعمى : انظر ستريك ولاسنر ، « كارون »، م١ (٢)، ج٤ ، ٧٠٢

(٧٤٨) ابن حوقل : ٤٨٦

(٧٤٩) الجاحظ(١) : ١٩٨ ، قدامة : ٢٣٣ ، المسعودي (ت) : ٧٨ ، و س . هـ . لونغريغ ، م١(٢) ، ج١ ، ٤١٧

(٧٥٠) حدود العالم : ٧٢

(٧٥١) انظر الأمثلة عند لوسترانج ، الخلافة الشرقية : ٥٧ ، ٥٩ ، ٦٠ ، ٧٣

(٧٥٢) الاصطخري : آخر ١٥٥ ، ابن حوقل : ٤٤٨ ، حدود العالم : ٧٣ ، ٢١١

(٧٥٣) انظر م ج ع ، ج٤ ، الفهرس ، اللفظ ، بشأن نهر الرس ، نهر ارمينية الذي يصب في الكر ، انظر أيضاً نهر الكر في فارس أيضاً ، عند ابن حوقل ، ٢٧٥ (ترجمة ، ص ٢٧١ ، حاشية ١٩٧) .

(٧٥٤) لوسترانج ، الخلافة الشرقية : ٥١ واماكن متفرقة

(٧٥٥) المرجع ذاته ، ص ٢٤٠

(٧٥٦) المقدسي : ٤٠٨

(٧٥٧) ابن خرداذبة : ١٧٥ ، اليعقوبي : ٢٦٩ ، ابن رستة : ٩٠ ، م ج ع ، ج٤ ، اللفظ ، ولوسترانج ، الخلافة الشرقية ، ٦٠ — ٦١ وأماكن متفرقة

(٧٥٨) المقدسي : ٤٧٤ ، ٤٧٩ — ٤٨١ ، المسعودي (ت) : ٨٣ ، يقارن بالحدود : ٧٢

(٧٥٩) اليعقوبي : ٣٢٤ . لا تقع حمص على النهر تماما ، الا ان النص لا يفسح المجال للشك

(٧٦٠) انظر بلانشار ، جغرافية عالمية ، ج٨ ، مشار اليه ، ١٣٠ — ١٣١ ، ب . شوارز و ا . ميكيل ، « كرخة » في م١ (٢) ، ج٤ ، ٦٨٠

(٧٦١) اسم القبيلة أحياناً على احدى الأقنية : انظر لوسترانج ، الخلافة الشرقية : ٤١

(٧٦٢) الاصطخري : ٥٧ (يمكن ان يحيل اسم القناة الى المنطقة التي يرويها) ، ابن حوقل : ٢٣٦

(٧٦٣) مسعر (ب) : ٤٥ — ٤٦ (يكرره ياقوت في معجم البلدان ، ج٤ ، ٤٠٦) ، انظر س ١٠ . بوسورث ، « أيدحج » ، م ١ (٢) ، ج٣ ، ١٠٤١ ، شوارز ،

فارس ، ح ٤ ، ٣٣٨ . يبدو ان تعبير « بحر عجاج » مفضل عند المصنف : انظر ما تقدم ، ص ١٢٤

(٧٦٤) ما تقدم ، ص ١٢٨ آخرها — ١٢٩

(٧٦٥) المسعودي (م) ، فقرة : ٢١٣ ، ٢٣٦ . اشارة الى شح النيل ، المرجع ذاته ، فقرة ٧٧٨

(٧٦٦) يعثر على هذه الاحالات ، فيما يلي ، حاشية ٨٢٨ وحاشية ٨٢٩

(٧٦٧) المقدسي : ٣٢٩ — ٣٣٢

(٧٦٨) ولا في مطلع المجلد ، اللوحة العامة لمجاري ماء دار الاسلام (ص ١٩ — ٢٤) .

(٧٦٩) المقدسي : ٧

(٧٧٠) المقدسي : ٣٦٢ (الزاد والماء) ، ابن حوقل : ١٥٥

(٧٧١) التدخل عبر ناحية طقسية : المقدسي : ٣٨٧

(٧٧٢) ابن الفقيه : ٢٢٣ . يلي بعد بضعة أسطر ، الموضوع العكسي المنتظر : الماء عامل موت لنقصه أو فرط وجوده .

(٧٧٣) في آمد ، في الجزيرة : المقدسي : ١٤٠ . قارن باتجاه آخر رئيس ، اشير اليه في الحاشية ٤٩٤

(٧٧٤) المقدسي : ١٦٤ ، ٤٦٢ وأماكن متفرقة .

(٧٧٥) المقدسي : ٤٠٢ ، ٤٠٨ ، ٤٤٤ ، ٤٦٢ (فارق الرحى تحركها الابل) وأماكن متفرقة ، مسعر (ب) : ٢٦ ، يتحدث عن نهر قادر على تسيير مائة طاحون

(٧٧٦) المقدسي : ١٢٤ ، ١٩٨ ، انظر أيضاً الى الملاحة ، المرجع ذاته : ١٣٥ ، آخر ١٩٦ ، ١٩٧ ، ٢٠٠ آخرها ، ٢٩١ — ٢٩٣ ، ٣٢٣ ، ٤٠٩ ، ٤١١ ، ٤١٢ ، ٤١٤ ، ٤١٩ (و ح . ج) . حول معنى « رفق » (حياة سهلة ، موارد طبيعية ، ثروات) انظر مثالا عند المقدسي : ١١٩ ، س ٨

(٧٧٧) ابن حوقل : ١٣٧ ، ١٤٥ ، المقدسي : آخر ٢٠٦ ، ٤١٤

(٧٧٨) بالنسبة للحالة الأخيرة ، انظر المقدسي ١٢٩ (حيث اشكل لفظ حجر بالسكون.

حول جذر بلد ، انظر م ج ع ، ج ٤ ، ١٩٢ — ١٩٣ ، حول الصيغة الثانية (أو الخامسة) لجذر شمر ، المرجع ذاته ، ٢٧٧) . حول استعذاب الماء من النهر والقناة ، انظر المقدسي : ١٢١ ، ١٣٨ ، ١٤٠ ، ١٦١ ، ١٩٦ ، ١٩٨ ، ٢٠٦ ، آخر ٢٠٧ ، ٢٠٨ ، ٢٨٣ ، ٢٨٨ ، ٢٩١ ، ٣٠٤ ، ٣٠٥ ، ٣٠٦ ، ٣١٢ ، ٣١٩ (ح يه من ٣١٨) ، ٣٢١ ، ٣٣١ ، ٤٠٨ ، ٤١٢ ، ٤١٣ ، ٤٢٥ ، ٤٢٩ ، ٤٣٢ ، ٤٣٥ ، ٤٣٧ ، ٤٦٢ — ٤٦٧ ، ٤٧٩ ، ٤٨٠

(٧٧٩) المقدسي : ٤٤٧ (ح ب) ، ابن الفقيه : ١٨٩

(٧٨٠) الجاحظ(١) : ١٩٨

(٧٨١) ابن الفقية : ١٨٩ ، المقدسي : ٤٢٩

(٧٨٢) حول البصرة ، رغم القناة (ابن الفقيه ، مشار اليه) ، انظر المقدسي : ١٢٩ . حالا ت اخرى ، مع تواتر كر « من بعيد » : المقدسي : ٧٩ ، ٨٣ ، ٨٥ ، ٨٦ (مثالان) ، ٨٧ ، ١٢٩ ، ١٩٦ ، ٣٢٦ (ح . ه) ، ٤١٦ ، ٤٢٧ ، ٤٢٨

(٧٨٣) صفحة مثالية : المقدسي ، ١٦٨ ، حول القناة المعلقة ، انظر المقدسي ، ١٦٤ ، حول المثالج الطبيعية أو الصنعية ، انظر الاصطخري : ١٦٧ ، ١٩٨ ، بالنسبة الى الشذروان ، انظر م ج ع ، ج٤ ، ٢٦٨ — ٢٦٩

(٧٨٤) ينفرد المقدسي باعطاء أوسع لائحة اسماء (نظرا للالفاظ الواسعة الاستعمال) لكل هذه التقنية المائية : دولاب (جمعه دواليب) ، حنانة ، زرنوق ، قادوس ، فوارة ، سانية (جمعة سواني) ، خيزور (جمعة خيازير) انطونية ، مزملة ، ناعورة (جمعها نواعير) ، شباك : انظر المقدسي : ٣١ ، ٩٣ ،٩٣(ح يه)، ١٥٥ ، ١٦٤ (ترجمة ص ١٨٤ ، حاشية ١٦١) ، ٢٠٨ ، ٢٣١ ، ٢٣٣ ، ٢٥٢ ، ٣٩٤ ، ٤٠٢ ، و م ج ع ، ج٤ : ١٨٢ ، ٢٢٠ ، ٢٢٥ ، ٢٥٣ ، ٢٦٥ ، ٢٧٠ ، ٣٢١ . حول المسناة ، (حاجز لرفع مستوى الماء للري) ، انظر الجاحظ(١) : ١٩٧ . يعثر أيضاً عند ابن سيرابيون ، ٣٣ (ب) و ٣٤ (ب) على دوالي (مفردها دالية) وشواديف (مفردها شادوف) . حول ساقية بمعنى سانية ، انظر م ج ع ، ج ٤ ، ٢٦٢ . حول هذه التقنيات ، انظر ل . منسى و ب . لا فيريير ، الساقية ، القاهرة ، ١٩٧٤

(٧٨٥) مثال المقدسي : ٢٣٤ ، ٢٥٣ ، ٢٧١

(٧٨٦) الا صطخري : ٦٤ ، ابن حوقل : ١٥٥ ، المقدسي : ٤١٧

(٧٨٧) ابن الفقيه : ٢٥٩ ، ٢٦٥

(٧٨٨) المسعودي (م) : فقرة ٣٠٨ — ٣٠٩ . حول قسطس ، انظر المرجع ذاته ، ترجمة ، ص ١١٦ ، حاشية ٤ ، جغرافية دار الا سلام ، ج٢ ، ص ١٧ ، حاشية ٦ ، ول . بولنز ، الا ساليب الزراعية في القرون الوسطى حسب مصنفات الزراعة الأندلسية : التقاليد والتقنيات ، جنيف ، ١٩٧٤ ، ص ٣٧ ، م . حميد الله ، معجم النبات لابي حنيفة الدينوري ، القاهرة ، ١٩٧٣ ، ص ١٥

(٧٨٩) ملتزق : المترجم يفهم : « ملتصق بالجانب » ، وهذه الحالة تنطبق على جميع القطرات . يفضل فيما يبدو اعطاء الصيغة الثامنة معناها المعنى المعكوس المتوسط : لزج ، سميك ، ثخين .

(٨٩٠) حول هذه المواضيع ، انظر ابن الفقيه :١٨٩ ، وابن حوقل: ١٤٦ ،المقدسي ١٢٩ (ح . كو) ، ١٩٨ ، ٢٠٧ . حول العملة الفضية المسماة مزبقة (دانق)، انظر م ج ع ، ج٤ ، ٢٥٢

(٧٩١) ابن رستة : ١٥٥ ، خوارزمي (م) / ٦٩ وما يليها ، ابن حوقل : ٣٦٦ ، ٤٣٣ ، ٤٣٦ ، ٤٩٧ ، المقدسي : ٣٣٠ وما يليها . انظر أيضاً البخاري ، الجامع الصحيح ، ترجمة أو . هوداس و و . مارسيه ، الأحاديث الا سلا مية باريس ، ١٩٠٣ — ١٩١٤ ، ٤ مجلدات : م مجلد ٣ ، ص ١٠٢ — ١١٢ . اليك بعض التدقيق حول شتى النقاط في النص المترجم : حول والي المعونة أو أمير الحماية ، انظر دوزي ، ملحق ٢ ، ١٩٢ ، ك . كاهين ، م١ (٢) ، ج٣ ، ٤٠٦ — ٤٠٧ . حول شق ، بمعنى اسم جمع (عرض ، تدريج) ، انظر م ج ع ، ج٤ ، ٢٧٥ . الشعيرة وحدة وزن (انظر ١ . زمباور ، « حبة » م١ (٢) ، ج٣ ، ١١) أو قياس كما هي الحال هنا (انظر جغرافية دار الا سلام ، ج٢ ، ١٧ — ١٨ وشكل ٦) . يرى المقدسي ،٦٥ — ٦٦ ،انها تساوي أقل من ٤ مم بقليل . ترجمت شوكبحزم اغصان(حول بعض شكوك النص،انظر ابهامات النص،انظر المقدسي ، ٣٣١ ، ح . ج و د) بشيء معلوم كل يوم : يبدو لي أن الأفضل العودة الى ما قيل من قبل على العموم عن رواتب هؤلاء الأشخاص .

(٧٩٢) ابن الفقيه : ٢٢١ آخرها — ٢٢٢

(٧٩٣) المسعودي (م) : فقرة ٨٩٦ — ٨٩٧

(٧٩٤) ليس الماء البارد نقيض الماء الحار طبيعيا ، بل عكس الماء العذب المسخن . ويتراءى الوسط أيضاً عبر الماء الطيني ، الموصوفة على وجه الدقة بأنه الأبيض البراق الذي يخرج من جبال الطين من مشرق الشمس فحو مغربها ، القابل بسرعة ما يرد اليه من الحر والبرد » . وبذا نرى انه يجب فهم الوسط بمعناه العام : أرض الجبال ، لكن الجو أيضاً .

(٧٩٥) انظر الاحالات في الحاشية ٦٣٦ ، ابن حوقل : ٤٨١ ، يشير ان بحيرة آرال تبقى مالحة رغم صغرها ورغم قوة نهري جيحون وسيحون : ومن هنا جاءت فرضية اتصالها ببحر الخزر .

(٧٩٦) المقدسي : ٤٤٥

(٧٩٧) ج٢ ، ٤٢ ، انظر ما تقدم الفصل الأول ، ص ١٠٨ وما يلي ص ١٦٠ آخرها– ١٦١

(٧٩٨) الاصطخري : ٤١ ، ابن حوقل : ٥٦ أ المقدسي : ٢٠٨ ، اسحاق : ٤٤٧

(٧٩٩) الهمداني : ١٥٥

(٨٠٠) المسعودي (ت) ، ١٠٦ – ١٠٧ ، مأخوذ من ارصاد طفسية ج٢ ، ٣ ، ٣٨

(٨٠١) المسعودي (م) : فقرة ٦٥

(٨٠٢) المسعودي (ت) : ٥٤ ، ذكر في ما تقدم الفصل الأول ، ص ١٠٨

(٨٠٣) وصيف شاه : ١١٦

(٨٠٤) المقدسي : ١٢٩

(٨٠٥) المسعودي (م) : فقرة ٨٩٧

(٨٠٦) ابن حوقل : ٤٦٤ ، (تحفظ هنا : ان الماء يقدم مبردا في أسواق سمرقند) .

(٨٠٧) ابن حوقل : ٤٨٨ ، اشير اليه من قبل في الفصل الأول ، ص ٥٠ ، (وح ٦٠)

(٨٠٨) ما تقدم ، الفصل الأول ، ص ١٠٩ (وح ٢ و ٤)

(٨٠٩) المسعودي (م) ، فقرة ٩١٣ ، ابن الفقيه : ٢١٤ ، الهمداني : ١٠٥ ، الاصطخري : ٤٤ آخرها – ٤٥ ، ابن حوقل : ١٧٣ ، ٣٦٦ ، المقدسي : ١٦١ ، ١٨٥ – ١٨٦ ، ٣٣٤ .

(٨١٠) الاصطخري ، ذكر من قبل ، ابن حوقل : ١٧٣

(٨١١) ابن الفقيه ، ذكر من قبل

(٨١٢) انظر جغرافية دار الاسلام ، ج٢ ، ١١

(٨١٣) انظر المسعودي (م) ، ٣٨ ، ٧٠ . يبدو ان هذا التوزيع لا يأخذ بعين الأعتبار تذكير الأسمين العربيين أو تأنيثهما ، مثلما لا يفعل الفولكلور : انظر م . رودنسون ، « قمر » ، في م١ (٢) ، ج٤ ، ٥٤١ (مع المراجع) .

(٨١٤) المسعودي (م) ، فقرة ٩٠

(٨١٥) ابن الفقيه : ١٥١

(٨١٦) ابن حوقل : ١٦١ — ١٦٢

(٨١٧) ابن فضلان : ١٠٦ — ١٠٧ ، من أجل بلد البجناك (المذكور في جغرافية دار الاسلام ، ج٢ ، ٢٢٨)

(٨١٨) المقدسي : ١٢٤ . ينبغي فهم النعت لطيف بمعنى « يسامي الدم » (نقيض غليظ انظر دوزي ملحق ٢ ، ٥٣٢ ، وما يلي حاشية ٩٤٥) أو نقيض صلابة : قوة ، قساوة مستعملة للفرات) ، ويثير المرح الفكر : كنت اترجم المتفقهة بالمعنى العام « الذين يتعاطون النشاطات الفكرية » ، لولا الاحالة الواضحة الى اخصائي بالفقه (حول الجصاص ، فقيه حنفي ، ٣٠٥ هـ / ٩١٧ م — ٣٧٠ هـ / ٩٨١ م ، انظر أو — سبايس ، م١ (٢(، ج٢ ، ٤٩٨) . بشأن نهر الصرات ، ربما كانت الترجمة الحرفية « فوق نهر الصرات ، قبل ان يمس الفرات هذا الماء » . بالفعل نهر صرات قناة متفرعة من نهر عيسى (الذي يذهب من الفرات الى دجلة) الذي يصب في دجلة في بغداد : انظر لوسترانج ، الخلافة الشرقية ، ٦٦

(٨١٩) ابن رستة : ١٥٥ ، ابن الفقيه : ٢٢١ ، الثعالبي : ١٢٤

(٨٢٠) يبرر تطبيق هذا المصنف نعت أنثى « على ماء النيل ، النهر المذكر ، تأويلا يمكن ان نفكر فيه بالنسبة للجزيرة : ماء دجلة المؤنثة والعكس بالنسبة للفرات .

(٨٢١) انظر ايلياد ، الحدادون والسيميائيون ، مشار اليه ، ٣١ ، وكرجي ، كتاب انباط المياه الخفية ، ترجمة ١ . مزهيري : حضارة المياه الخفية ، نيس ، ١٩٧٣ ، ص ٦٧

(٨٢٢) حول نبع كلسي آخر ، للتناقض ذكر انثى ، انظر مايلي ، ص ١٦٢

(٨٢٣) المقدسي : ٩

(٨٢٤) انظر على التوالي ، ياقوت ، معجم البلدان ، ج ١ ، ٢٨٥ ، يستشهد بابي لف مسعر (المقصود دجيل وفرعه مسرقان) ، المسعودي (ت) ، ٧٩ ، ابن حوقل : ٢١٠ ، ٢٩٨ ، المقدسي : ١٤٤ ، ٤٨٣ ، الأسواني : ٢٥٩ — ٢٦٠ (تدوين آخر : اكاد اقول في المختبر ، ماء النيل الأبيض يبقى ابيض بعد انصبابه في النيل الأخضر مدة ساعة) .

(٨٢٥) انظر ما تقدم ، الفصل الأول ، ص ٧٩ ، و ٨٣

(٨٢٦) المقدسي : ٤٥٠ (وح ا) (ماء ، منهل) اشارة الى المرحلة بين منهلين ، في جزيرة العرب : انظر م ج ع ، ج ٤ ، ٣٦٨) ، ٢٥٣ . تضاد جيد بين الماء والرمل والرمل في المقدسي ، ١١١ (س ١) ، في الحديث عن مسلك في جزيرة العرب . مثال مناهل على مسلك ، في جزيرة العرب دوما ، عند ابن خرداذبة : ١٢٦ — ١٢٧ . احيل مرة اخرى الى الاحالة الواردة في الحاشية السابقة .

(٨٢٧) اليعقوبي : ٣٣٢ ، ابن خرداذبة : ١٣١ (بحر الرجز)

(٨٢٨) قلنا انه يحصل احيانا بالأسم ، بهذا المعنى أو ذاك ، بين الماء والبلد الذي يسقيه : انظر ما تقدم ص ١٢٨ (وح (٥) وص ١٣٢ ، حاشية ٣ ، وابن حوقل : ٣٧ ، ٧٤ ، ٧٨ ، ٨٠ ، ٨١ ، ٨٤ ، ٨٦ ، ٨٧ ، ٨٩ ، ٩٠ ، ٩١ ، ٩٣ ، ١١٢ — ١١٣ ، ١١٥ ، ١١٦ ، ١٧٦ ، ٢١٧ ، ٢٥٢ ، ٢٥٥ ، ٣٨٢ ، ٤٢٢ ، ٤٣٥ ، ٤٤٨ ، ٤٨٦ ، ٥٠٦ ، ٥٠٩ ، ٥١٨ . بالنسبة الى اسماء مكرورة أحيانا ، تعود فعلا الى المناهل ، انظر ابن حوقل : ٨٧ ، ٨٩ ، ١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٤١ ، ٣٦٥ ، المقدسي : ٤٥ ، ٦٧ ، ٧٢ ، ٨٢ ، ١٠٣ ، ١٠٦ ، ١١٠ ، ١١٢ ، ١١٧ ، ١٤٦ ، ١٥١ ، ١٦٥ ، ١٦٧ ، ١٧١ ، ١٧٤ ، ١٧٥ ، ١٩١ ، ٢١٨ ، ٢٢٠ ، ٢٣١ ، ٢٣٢ ، ٢٤٦ ، ٢٤٧ ، ٣٤٤ (ح يه) ، ٣٤٥ (ح ب) ، ٣٤٧ ، ٣٥٠ ، ٤٠٦ ، ٤١٤ ، ٤١٦ ، ٤١٧ ، ٤١٩ (ح آ) ، ٤٤٥ ، ٤٨٦ ، ٤٩٢ (ح ى من ٤٩٠) ، ٤٩٤ ، ٤٩٥

(٨٢٩) وجود الماء ، وفرته ، انعدامه أو ندرته ، كلها مشار اليها عند ابن حوقل : ١٩ ، ٢٨ ، ٢٩ — ٣٠ ، ٣١ — ٣٤ ، ٣٦ ، ٣٧ ، ٤١ ، ٤٧ ، ٦٧ ، ٦٨ ،

٦٨ ، ٧٠ — ٧٣ ، ٧٦ — ٨١ ، ٨٣ — ٩٠ ، ٩٣ ، ٩٤ ، ١٠٣ ، ١٠٨ ، ١١٦ ، ١١٧ ، ١١٩ ، ١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٥٣ ، ١٥٥ ، ١٥٨ ، ١٧١ ، ١٧٣ ، ١٧٦ — ١٧٩ — ١٨١ ، ٢١١ ، ٢١٤ ، ٢١٧ ، ٢٢٠ — ٢٢٤ ، ٢٢٦ — ٢٢٩ ، ٢٣٧ ، ٢٣٩ ، ٢٤٠ ، ٢٤٢ ، ٢٤٣ ، ٢٥٢ ، ٢٥٣ ، ٢٥٦ ، ٢١٤ ، ٢١٧ ، ٢٢٠ — ٢٢٤ ، ٢٢٦ — ٢٢٩ ، ٢٣٧ ، ٢٣٩ ، ٢٣٩ ، ٢٤٠ ، ٢٤٢ ، ٢٤٣ ، ٢٥٢ ، ٢٥٣ ، ٢٥٦ ، ٢٥٨ ، ٢٦٩ ، ٢٧٣ ، ٢٧٤ ، ٢٧٧ — ٢٨٣ ، ٢٩٨ ، ٣٠٢ ، ٣١١ ، ٣١٢ ، ٣٢٠ ، ٣٢٢ ، ٣٣٥ — ٣٣٧ ، ٣٤٠ ، ٣٤٧ ، ٣٤٩ ، ٣٥٢ ، ٣٥٨ ، ٣٥٩ ، ٣٦٢ ، ٣٦٤ — ٣٦٦ ، ٣٦٩ ، ٣٧٠ ، ٣٧٨ — ٣٨٢ ، ٣٨٨ ، ٣٨٩ ، ٤٠٢ — ٤٠٩ ، ٤١٤ ، ٤١٥ ، ٤١٧ ، ٤١٨ ، ٤٢٠ ، ٤٢١ ، ٤٣٣ ، ٤٣٥ — ٤٥٢ ، ٤٦٤ ، ٤٦٧ ، ٤٧٣ ، ٤٧٥ — ٤٨٠ ، ٤٨٣ — ٤٨٧ ، ٤٨٩ ، ٤٩٢ — ٥٠٥ ، ٥٠٩ ، ٥٠٩ ، ٥١٠ ، ٥١٢ ، ٥١٣ ، المقدسي : ٦٥ ، ٧٤ ، ٧٦ — ٨٠ ، ٨٢ — ٨٦ ، ٩٢ ، ٩٣ ، ٩٥ ، ١٠٧ ، ١٠٨ ، ١١٠ — ١١٢ ، ١١٧ ، ١١٩ ، ١٢٠ ، ١٢٢ ، ١٣٧ ، ١٤٠ ، ١٤١ ، ١٤٦ ، ١٥١ ، ١٥٥ ، ١٥٧ ، ١٦٠ — ١٦٢ ، ١٧٢ ، ١٧٤ ، ١٧٥ ، ١٨٦ ، ١٨٨ ، ١٩١ ، ١٩٥ ، ٢٠٦ ، ٢٠٨ ، ٢٠٩ ، ٢١٦ ، ٢٢٤ — ٢٣٥ ، ٢٤٦ ، ٢٤٨ ، ٢٥٠ (وح . يد) ، ٢٥٢ — ٢٥٥ ، ٢٥٧ ، ٢٥٩ ، ٢٦٠ ، ٢٧٠ — ٢٧٢ ، ٢٧٤ ، ٢٧٥ ، ٢٧٧ — ٢٧٩ ، ٢٨١ — ٢٨٥ ، ٢٨٨ — ٢٩١ ، ٢٩٩ ، ٣٠١ ، ٣٠٢ (وح د) — ٣٠٩ ، ٣١١ — ٣١٣ ، (وح د) ، ٣١٤ ، ٣١٦ — ٣١٩ وح يه يه من ٣١٨) ، ٣٢٠ (وح يط) ، ٣٢١ (وح ب و ز) ، ٣٢٦ (وح . ه) ، ٣٢٩ ، ٣٣١ (وح يب) ، ٣٣٣ ، ٣٤٩ ، ٣٥٣ ، ٣٥٤ ، ٣٥٦ — ٣٥٩ (وح يا) ٣٦٠ ، ٣٦٧ ، ٣٧٣ ، ٣٧٥ — ٣٧٨ ، ٣٨٥ ، ٣٨٦ ، ٣٨٩ (وح ب) — ٣٩٢ (وح ٠ آ) ، ٣٩٤ (وحاشيتها) ٣٩٦ ، ٣٩٨ ، ٤٠٢ ، ٤٠٤ ، ٤٠٥ ، ٤٠٧ — ٤٠٩ (وح . ط) ، ٤١٠ — ٤١٤ ، ٤١٦ ، ٤١٧ ، ٤٢١ ، ٤٢٤ ، ٤٢٦ — ٤٣٨ ، ٤٤٣ — ٤٤٥ (وح . ه و يح) ، ٤٤٧ (وح ب) — ٤٥٠ (وح ب) ، ٤٦١ — ٤٦٧ ، ٤٧٠ ، ٤٧٤ ، ٤٧٨ — ٤٨١ ، ٤٨٣ ، ٤٨٧ ، ٤٩٠ (وح ب) ، ٤٩١ (وح ط من ٤٩٠) ، ٤٩٣ ، ٤٩٤ (وح ط و يط من ٤٩٣) ، ٤٩٥ (وح . يز من ٤٩٤) .

(٨٣٠) المقدسي : ٢٨٣ ، ٣٣١ (وح يب) ، ٤٤٥ (وح . ه) ، ٤٤٦ ، ٤٦٦

(٨٣١) المقدسي : ٤٤ ، ٢٠١ ، ٤٨٧ آخرها – ٢٨٨ ، ٢٩١ ، ٢٩٩ ، ٣٣١ –
٣٣٢ ، ٣٩٣

(٨٣٢) المقدسي : ٣٣ ، ١١٣ ، وأماكن متفرقة .

(٨٣٣) المقدسي : ٣٥ (و ح . ج) ،

(٨٣٤) المقدسي : ٣٦ ، الصفحتان الأخيرتان تترافقان بلا تمييز مع البحار والأنهار

(٨٣٥) ابن حوقل : ٢٩ – ٣٠ ، المقدسي : ٣٤ ، ٣٦ ، ١٦٤

(٨٣٦) ابن حوقل : ٢٢٠ . حول المكان والقصائد الموحاة ، انظر ياقوت ، معجم البلدان ، ج٢ ، ٥١٨ ، لفظ دير الشياطين .

(٨٣٧) ابن حوقل : آخر ١٣٧ ، ١٧٤ ، ٢٢١ – ٢٢٢ ، ٢٣٥ – ٢٣٦ ، ٢٤٢ –
٢٤٤ ، ٢٧٩ ، ٢٨٠ ، ٢٨٢ ، ٣٣٥ – ٣٣٨ ، ٣٤٧ ، ٣٦٣ ، ٤٣٩ ، ٤٤٣ ،
٤٦٤ ٤٧٣ ، ٤٨٤ ، ٤٨٧، ٤٩٢ – ٥٠٠ ، ٥٠٩ ، ٥١٣ ، المقدسي : ١٤٠ ،
١٥٧ ،٢٧٧، ٢٧٩، ٢٨٢ ، ٣٠١ – ٣٠٢ ، ٣١٢ ، ٣٣١ ، ٤١٤ ، ٤٦٤ ، ٤٦٦

(٨٣٨) ابن حوقل : ١٧٤ ، ١٧٩ ، ٢١١ ، ٣٦٨ – ٣٦٩ ، ٤١٥ ، ٤٤٥ ،
٤٦٧ ، ٤٩٢ – ٤٩٤ ، المقدسي : ١٥٧ ، آخر ١٦٧ – ١٦٨ ، ٢٧٢ – ٢٧٣ ،
٢٧٣ ، ٢٨٣ ، ٣٠٢ (و ح د) ، ٣١٢، ٣٣١، ٣٩٤ ، ٤٤٩ ، ٤٥٠ (ح . ب)

(٨٣٩) انظر على التوالي : المقدسي : ١٥٩ (ح د) ، آخر ١٦٧ ، ٣٧٠، ابن حوقل : ٩٠ . اكتفي هنا ، كما اكتفيت في الحواشي السابقة ، بالمصنفين اللذين يمثلا ن على أفضل وجه جغرافية دار الاسلام ، لئلا أكثر من الاحالات بافراط . يمكن ايجاد عند بعض المصنفين تعليقات اخرى هامة : انظر مثلا اليعقوبي : ٢٤٣ (المائة طاحون في بغداد) ، ٢٥٠ – ٢٥٤ (تموين كل اهالي بغداد بالماء العذب) ، وفرة الماء في بغداد مما يسمح باقلمة النخيل البصري فيها) ، ٢٦٤ (وفرة الماء الجانب الغربي من سامراء) ، ٢٦٦ (نفقات بالغة لحفر القناة الكبرى اللازمة لتأسيس سامراء) .

(٨٤٠) المقدسي : ٤١١ – ٤١٢

(٨٤١) حرفيا : على مسمع الصوت (صيحة ، م ج ع ، ج٤ ، ٢٨٣) .

(٨٤٢) انظر م ج ع ، ج٤ ، ٢٦٨ – ٢٦٩ ، و ج . ج . ب . د ديميزون ، معجم فارسي فرنسي ، رومة ، ٤ مجلدات ، ١٩٠٨ – ١٩١٤ ، ج٢ ، ص ٢٣٢ .

(٨٤٣) ابواب .

(٨٤٤) تشكيل حسب شوارز ، فارس ، ج٤ ، ٣٠٣

(٨٤٥) ابن حوقل : ٤٩٢ . انظر أيضاً مشهد الريف الأخضر ، ما تقدم ، ص ٨٨ — ٨٩ . اعيدت الترجمة ، في النص الوارد في الفصل الأول ، ص ٨٨ ، حاشية ٩

(٨٤٦) اللفظ المستعمل باغ الفارسي

(٨٤٧) الصيغة العاشرة استصبى : انظر م ج ع ، ج٤ ، ٢٧٩ .

(٨٤٨) ميدان ، جمعة ميادين : انظر المرجع ذاته ، ص ٣٥٨ .

(٨٤٩) الصيغة الثانية فصل ، ربما محاطة بجدار أو فصيل : انظر المرجع ذاته ، ٣١٧ ، دوزي ، ملحق٢ ، ٢٧٢ .

(٨٥٠) الصيغة الثانية فصص : انظر دوزي ، المرجع ذاته ، ٢٧٠

(٨٥١) الصيغة الثالثة طالب ، حرفيا ، طلب احدهم الآخر .

(٨٥٢) المغاني ، حرفيا : المنازل أو الثروات

(٨٥٣) حرفيا : القصور

(٨٥٤) مشترف أو مستشرف : انظر م ج ع ، ج٤ ، ٢٧٤

(٨٥٥) حرفيا : أماكن اجتماع ، مجالس

(٨٥٦) السامانيون بداهة .

(٨٥٧) ابن الفقيه : ٢٢٠ — ٢٢٧

(٨٥٨) على نقيض مدح العيون الحارة ، ضمنا

(٨٥٩) بحر السريع

(٨٦٠) بحر البسيط

(٨٦١) البحر البسيط ، ذكر اسم الشاعر : وهب الهمذاني

(٨٦٢) البحر الكامل

(٨٦٣) الهمذاني ، نسبة ابن الفقيه ، ونسبة ناظم أول قصيدة عن اروند (انظر الحاشية ٨٦١) . لم يعط اسم الشاعر الثاني ، لكن يمكن ان نقدر ان المقصود أيضاً شخص

فارسي من المنطقة ذاتها . ولا شيء يمنع أيضاً ان نفكر ، نظرا للموضوع وبعض الصور الشائعة (ربيع ، الوان ، برق ثياب ، الخ) ان المقصود الشاعر ذاته ، وان كان ابن الفقيه ينسب القصيدة الثانية الى « شاعر آخر » ، دون تسميته .

(٨٦٤) انظر بلانشار ، الجغرافية العالمية ، ج٨ ، نمشار اليه من قبل ، ١٢٨ .

(٨٦٥) انظر المقدسي ، ج٢ ، ٤٢ : « كل ماء عذب مأخوذ من بئر أو نهر أو أي مصدر آخر ، يأتي دوما من السماء . وفي يوم القيامة ، يرسل الله ملاكا معه حوض ، يجمع فيه كل تلك المياه ، ويعيدها الى الجنة » .

(٨٦٦) ترجم ماسه : « عيون لا تجف » » ، والتعبير « لم تجمد » يمكن فهمه في بالمعنيين المشار اليهما .

(٨٦٧) هكذا ترجمت فاقع نضر

(٨٦٨) هكذا ترجمت « اقحوان جمعه اقاحي » ببليس – زهر اللؤلؤ – التي تدخل في فصيلة المركبات . لم يعط لون الأقحوان الذي يتبدل من نوع الى آخر .

(٨٦٩) « متناقضة » ، حرفيا : « لا تتشابهان ، وتشبه احداهما غيرها » .

(٨٧٠) من جوهرين متبددين . ترجمها ماسه : « من مادة تتناثر » . ففضلت أخذ اللفظ بمعناه الجمع والحسي : « حجارة كريمة » .

(٨٧١) باستثناء خوف الحملان ، الذي يبدو صفة مزاج (اللفظ الدال عليه أكثر من نعت طبيعي : اسم من حذر هلع ، الذي يعبر عن القلق) .

(٨٧٢) كسا ، ثوب ، البست ، حلل ، لبس

(٨٧٣) « وشح صدره بمورد . اديته بحمالة ، لأن الصورة الحربية اللاحقة تنسجم معها في رأيي .

(٨٧٤) ترجمت : بثوب متراخ » حللا لم تعقد . ماسيه : (وهو ينسجها) ، حتى انها لم تعقد ، أي المعاطف .

(٨٧٥) حرفيا : الاثمد ، الذي يصنع الكحل منه

(٨٧٦) ابن الفقيه : ٢٢٦ ، البيتان ٣ – ٤ حدائق ، روض ، رياض

(٨٧٧) ابن رستة : ٢٢١ ، انظر الحاشية ٨١٩

(٨٧٨) سوء ترقيم ليس له مقابل

(٨٧٩) ابن الفقيه : ٢٢٣

(٨٨٠) لكي يصح التضاد ، لا بد من افتراض الحوض طبيعيا ، حول هذا المعنى ، انظر دوزي ، ملحق ٢ ، ٣٣٦ ، واللسان ، اللفظ ، الذي يشرح بلا مزيد من الشرح . حوض مجتمع الماء .

(٨٨١) أو بالا حرى روايات اخرى عن مجهول : قالوا . ذكر تياذوس (تيودوريه) فيما بعد .

(٨٨٢) ابن الفقيه : ١٥١ — ١٥٢ . اشارة موجزة : ١٥٩ — ١٦٠ تلخص الشروط الملائمة لفتح بئر .

(٨٨٣) اشير اليه بايجاز ص ١٤٥

(٨٨٤) يضاف نعتان ، هما رطبة ، بديهي بالنسبة الى المياه ، ويابسة ، يمكن ان تلمح الى الجفاف العام ، موضوع الحديث ، وتتناقض مع رطبة . الناشر (ترجمة ص ١٨١ ، حاشية ٢) يصحح اعتمادا على مخطوط مشهد : فاسدة

(٨٨٥) النار غالبة في الشرق ، فيجب ان ينسب الغرب الى العنصر العكسي بالدرجة الاولى أي الماء (انظر جغرافية دار الاسلام ، ج٢ ، ص ١١) . من جهة اخرى تسمح القوى الصاعدة والنازلة بنسبة الجنوب الى الأرض والشمال الى الهواء . أما عند الهمداني فالتوزيع كما يلي بالترتيب : شمال غربي جنوب غربي ، جنوب شرقي وشمال شرقي (المرجع ذاته ، ٤٩) .

(٨٨٦) ترد هذه الصفات بكثرة ، حتى انها تجعل التعليق مشكلة يستحيل حلها ، بسبب اتساعها . احيل الى الحاشية في الشرح المخصص للمقدسي فيما بعد ، وهي مذكورة عنده واكتفى هنا بالاحالة الى ابن حوقل ، نظرا لاهميته في جغرافية المسالك والممالك (وحده أو عندما يتوسع بالاصطخري) ، أو اعطي بعض الاحالات العائدة الى الصفات المذكورة بمزيد من الدقة . انظر في نطاق هذا التفكير بشأن السهولة أو الصعوبة : اليعقوبي : ٢٣٥ ، ٢٦٧ ، المقدسي : ٧٨ ، ٩٣ ، ١١٩ ، ١٢٣ ، ١٣٨ ١٦٤ ، ٢٥٣ ، ٢٩٢ ، ٣١٥ ، ٣١٩ ، ٤٢٩ (خاصة موضوع الماء « القريب » الذي لن أعود اليه فيما بعد) .

(٨٨٧) المقدسي : ٧٧ ، ابن خرداذبه : ٨٤

(٨٨٨) اليعقوبي : ٢٧٢ ، المقدسي : ٤٤٥ ، وما تقدم ١٢٤ – ١٢٥

(٨٨٩) المقدسي : ١٨٤ ، ٢٥٣ .

(٨٩٠) الجاحظ(١) : ١٩٤ – ١٩٧ ، المسعودي (م) ، فقرة ٢٧٧ ج٦ ، ابن حوقل : ٧٧ ، ٧٨ ، ١٤٨ / ١٣ ٧٩ ، ٨٧ ، ١٧٧ (حول لفظ طفس ، انظر م ج ع ، ج ٤ ، ٢٩٠) ، ١٨٥ ، ٢٢٢

(٨٩١) مثلا ابن حوقل : ٤٦٤ : عذب ، بارد ، خفيف . حول المثالج ، انظر ما تقدم ، ص ١٣٨ (و ح . ٨٣) .

(٨٩٢) مسعر (ب) : ١٧ . حول معنى النعت حامية ، انظر دوزي ، ملحق ، ج١ ، ٣٣٠ . فهذا النعت ونعت مانعة (حامية) توصف بهما العيون .

(٨٩٣) ابن حوقل : ٨٧ ، ٨٨ ، ٩٠ ، ١٢٤ ، ١٤٨ / ١٣ ، ٢١٠ ، ٢٣٧ ، ٢٣٩ ، ٢٥٣ ، ٢٧٣ ، ٣٢٨ ، ٣٤٥ ، ٣٦٣ ، ٤٠٣ – ٤٠٦ ، ٤١٧ ، ٤٥٢ ، ٤٦٤ ، ٤٨١

(٨٩٤) حرفيا عفوصة من العفص ، مذاق مر : ابراهيم ، ترجمة ص ١٠٦٢ (في الحديث عن منطقة بادربورن) ، مما يدل على عدم الدقة في هذه المادة ، في تقدير الطعمين الآخرين الحموضة والمرارة . انظر المسعودي (م) ، فقرة ٨٩٦ ، المشار اليه ص ١٤١ ، ويميز من هذه الناحية المر والحامض والقابض ، والحريف ، ويقول ان هذا التصنيف أحد التصانيف الكثيرة الاخرى .

(٨٩٥) المسعودي (م) ، فقرة ٨٩٧ ، ما تقدم ، ص ١٤١ ، المقدسي ، ج٢ ، ٤٢ ، ابن حوقل ، ١٣ ، ٢٧٧ ، ٤٠٧ .

(٨٩٦) ابراهيم ، ترجمة ، ص ١٠٦١ آخرها – ١٠٦٢ ابن حوقل : ٢٥٤ ، ٢٩٨ ، ٤٠٣ آخرها ، ٤٥٢ .

(٨٩٧) احيل مرة اخرى الى التعليق اللاحق اعتمادا على نص المقدسي

(٨٩٨) انظر ج . لومانيين ، « الذوق الموسوعة العالمية ، ح٨ ، ١٧٠

(٨٩٩) ابن حوقل : ٩٤ ، ١٢٣ ، ٣٤٥ ، ٤٥٢ (اميل الى الظن بأن التسخن والتبرد

يرتبطان باسباب طبيعية : فالفروق القصوى لحرارة آسية الوسطى ، الترجمة ، وايت، ص ٤٣٧ ، على اساس « يسرع البرد عوضا عن يسرع ، يميل فيما يبدو الى ظاهرة صنعية ناشئة عن الا نسان) ، ٤٦٤ حول سرعة التبرد ، انظر مايلي النص المترجم المأخوذ من المقدسي .

(٩٠٠) ابن حوقل : ٧٩ ، ٩٤ ، ١٢٣ ، ١٢٤ ، ٢٥٣ ، ٢٦٩ ، ٢٨٩ ، ٣٤٥ ، ٣٦٣ ، ٤٠٣ ، ٤٨٦ — ٤٨٧ ، ٥٠٤ (أحيا ، يتوارى اسم الماء بالذات خلف اسم الشرب : شراب ، شروب) .

(٩٠١) الجاحظ(١) ، ١٩٧ (امراء) ، ابن حوقل : ١٣ ، ٧٣ ، ٩٤ ، ١٢٢ ، ١٢٣ ، ٢٦٩ ، ٣٤٥ ، ٣٦٩ (مع نعت المرىء عدة مرات ، وسنتحدث عنه) .

(٩٠٢) ذوق الهواء ووزن الماء : المقدسي : ص ٢ آخرها

(٩٠٣) وزن المياه والتراب : المقدسي : ٢٥٧ — ٢٥٨

(٩٠٤) المقدسي : ١٠١

(٩٠٥) اضيف لزيادة الايضاح واعتمادا على السياق اللاحق التدقيق العائد للجسم : انظر م ح ع ، ج٤ . ٢١٨ (الصيغة الخامسة : تحلب) .

(٩٠٦) اختيرت هاتان المهنتان بداهة لعلاقتهما بالماء ، الداخل في العطور ، أو الذي تغسل به الثياب لاعادة بيعها (لفظ تاجر الرثاث مفضل عندي على لفظ بائع أقمشة)

(٩٠٧) انظر ما تقدم ، ص ١٦١ بآخرها ، في الحديث عن مياه جيحون .

(٩٠٨) المقدسي ، ١٢٩ ، اشرنا اليه من قبل ، ص ١٣٨ ، (حول بعض نقاط القراءة؛ انظر المرجع ذاته ح١) .

(٩٠٩) المقصود مياه البحر والنهر (أو الأقنية) المختلطة

(٩١٠) حرفيا الأعضاء التناسلية (حجر بحاه مثلثة)

(٩١١) المقدسي : ٢ ، ٨

(٩١٢) المقدسي : ١٠١

(٩١٣) المقدسي : ١٦٢ ، ٢٢٦ ، ٢٢٧ — ٢٢٩ ، ٢٣٢ ، ٢٦٠ ، ٢٧٢ ، ٢٧٣ ، ٢٧٧ ، ٢٧٨ ، ٢٨١ ، ٢٨٣ ، ٣٠٧ ، ٣٠٨ ، ٣١٢ ، ٣٢٠ ، ٣٢٩ ، ٣٥٦ ،

٣٧٣ ، ٣٧٦ ، ٣٧٨ ، ٣٨٩ ، ٣٩٢ (ح – آ) ، ٣٩٣ ،٣٩٨، ٤٠٧ – ٤٠٩ ،
٤١١–٤٢٤،٤٢٩–٤٣١ ٤٣٥،٤٣٦ ، ٤٥٩ ، ٤٦٢ ، ٤٦٤ – ٤٦٦ ، ٤٩٣ .

(٩١٤) المقدسي : ١٦٤ ، ٣٠٨ ، ٣١٣ ، ٣٢٢ (ح . و ص ٣٢١)

(٩١٥) جرى حاد ، شديد الجري ، منحدر ، محدار (انظر م ج ع ، ج ٤ ، ٢١٣) ،
المقدسي : ٣٥٧ ، ٤١١ ، ٤٥٠ (ح . ب) ، ٤٦٦ ، ٤٧٠

(٩١٦) المقدسي : ٣١٦ (انظر ح يب) : من الفارسية تج (مجرى ، سرعة) وآب (مياه)

(٩١٧) المقدسي : ٣٣،٨٣ ٨٤،١٠٧ ، ١٠٨ ، ١١٩ ، ١٤٤ ، ١٦٢ ، ١٦٧ ،
١٧٩ ، ٢٢٨ ، ٢٣٠ ، ٢٥٢ ، ٢٥٣ ، آخر ٢٧١ ، ٢٧٢ ، ٢٧٧ ، ٢٧٨ ،
٢٨٣ ، ٢٨٦ ، ٢٩١ ، ٣٠٥ ، ٣٠٧ ، ٣٠٨ ، ٣٢٠ ، ٣٢٩ ، ٣٣١ (و ح . يب)،
٣٥٣ ، ٣٥٤ ، ٣٦٥ ، ٣٧٣ ، ٣٧٧ ، ٣٨٥ ، ٣٨٦ ، ٣٩٠ – ٣٩٢ ، ٤٠٢ ،
٤٢٥ ، ٤٣٣ ، آخر ٤٤٥ ، ٤٦١ ، ٤٧٩ ، ٤٨٠ ، ٤٨١ ، ٤٩٣

(٩١٨) المقدسي : ٩٥ ، ١٠٨ ، ٢٥٣ ، ٣١١ (ح . لب) ، ٤٣٦

(٩١٩) المقدسي : ٢٠٢ (اوسع) ، ٢٠٨ (أكثر) ، ٣٩١ (اغزر) .

(٩٢٠) المقدسي : ٣٠٧ ، ٣١٩ .

(٩٢١) المقدسي : ١١٨ ، ١٢٩ ، ٢٨٣ ، ٢٩٩ ، ٣٢١ (ح . ز) ، ٣٥٧

(٩٢٢) يمكن ان يستعمل النعت للآبار أو العيون : المقدسي : ١٠٨ ، ١٧٢ ، ٢٢٥ ،
٢٥٤ (ح ط) ، ٣٠٨ ، ٣٢٢ (ح . ز من ٣٢١) ، ٤٢٦ ، ٤٢٧ ، ٤٨٢ (ح ٧
من ٤٩٠) ، ٤٩٣ ، ٤٩٤ (و ح . يط من ٤٩٣) .

(٩٢٣) ٢٥٤ المقدسي

(٩٢٤) المقدسي : ١٦٤ ، ٢٠١ ، ٢٢٥

(٩٢٥) المقدسي : ٣٢١

(٩٢٦) المقدسي : ٢٨٣ ، ٣٣١ (ح . يب) ، ٤٣٤ . حول مداد ، المنفي هنا ،
انظر م ج ع ، ج٤ ، ٣٥٢

(٩٢٧) المقدسي : ٢٧٨ ، ٤٣٥ ، ٤٣٦ ، ٤٤٥ ، ٤٦١

(٩٢٨) المقدسي : ٣٥٩ ، ٣٩٢ ، ٣٩٤

(٩٢٩) المقدسي : ١٨٤ ، ٢٥٣

(٩٣٠) المقدسي : ٤٧٠ ، وما تقدم ص ١٥٠ آخرها – ١٥١

(٩٣١) المقدسي : ١٤٠ ، ٢٠٠ ، ٢٠٧ ، ٣٠٢ (ح . د) ، ١٥ (للحمامات) ، ٣٥٨ ، ٣٨٩ (ح . ب) ، ٣٩٤ ، ٤٣٠ ، ٤٣٢ . حول آجين ، انظر الحاشية ٩٤٧

(٩٣٢) المقدسي : ٣٣٢ ، ٤٤٥ (و ح . د)

(٩٣٣) « الجبل المفترس »

(٩٣٤) يهمل المقدسي كما نرى ظاهرات اخرى للتطور الصوتي

(٩٣٥) بالفعل يمكن فهم مجمل النص : حبل وحل ، طين (الفارسية خر) ، أو الغائط (العربية خر أو الخر للسجع مفصل) . انظر الأبيات التالية .

(٩٣٦) احتفظ بامانة لتشكيل اسم المدينة ، بالقراءة اخرى ، الذي صححها الناشر الى خرا (لكي تتقارب مع اللفظ العربي خراء : انظر الحاشية ٩٣٥) ، الذي يمكن ان يذكر ايضاً ، على علاته ، باللفظ الفارسي خر : ضباب سحاب منخفض . وزن الشعر . لا وجود له (انظر المقدسي : ٣٣٢ ، ح حاشية ج لا وجود لهذا الوزن) ياقوت معجم البلدان ، ح١ ، ٣٥٤) يعطي صيغة معدلة ومنظمة عن بحر السريع .

(٩٣٧) المقدسي : ٧٩ ، ١٦٠ ، آخر ٢٠٧ ، ٢٦٠ ، ٣٢٩ ، ٣٩٢ ، ٣٩٤ ، ٤٠٩ (و ح . ط) ، ٤٨٣

(٩٣٨) المقدسي : ١٢٩ ، آخر ٢٠٨ (حول اثر حقول الا رز الضار ، انظر المرجع ذاته ، ح . يز و ٤٣٦ . انظر أيضاً مايلي الفصل السادس ، الا رز) ، ٤٠٤ (ح ١٠ من ذاته ، ح . يز و ٤٣٦ . انظر أيضاً مايلي الفصل السادس ، الا رز) ، ٤٠٤ (ح ١٠ ٤٩٠)

(٩٣٩) حميم : ١١٩ ، ١٧٨ (مقترنة بجحيم ودالة على البلد) ، ٤١٠ ، ٤٦٧ (مع شرح مختصر عن مقطع حميم مع مبالغة الى « حميمان » : ليصير خاصا بجهنم . انظر م ج ع ، ج٤ ، ٢١٩) . ويقال ان كل ماء حار يسمى حميما (بلا ريب لأنه معرض الى تسخين الهواء خلافا للعين) . والحميم ضد يعني الماء الحار أو الماء البارد ، لكن ليس هنا في جميع الأحوال : فالا حالات المستشهد بها تعود الى نصوص ذم (وصف مثالب البلدان الموصوفة) .

(٩٤٠) حلو ، حلاوة ، احيانا مجازا للحاوية (الآبار الأقنية . . .) : المقدسي : ٨٤، ٨٥ ، ٩٢ ، ١٠٣ ، ١٢٣ ، ١٢٩ ، آخر ١٩٩ آخر ٢٠١ ، ٢٠٦ ، ٢٠٨ ، ٢٢٧ ، ٢٥٠ (ح . يد) ، ٢٥٣ ، ٢٥٤ ، ٣١٢ (ح . يو) ، ٣١٣ (ح . د) ، ٣٢٩، ٣٣١ ، ٣٣٤ ، ٣٥٨ ، ٣٨٨ ، ٣٨٩ (ح . ب) ، ٤٢٥ ، ٤٢٧ ، ٤٢٩ ، ٤٤٥ (ح . يح) ، ٤٦٥ ، ٤٦٦ ، ٤٨٢ ، ٤٩٤

(٩٤١) عذب ، عذوبة : المقدسي : ٨٢ ، ٨٦ ، ١١٨ ، ١٤٠ ، ٣٢١ (ح . ب) ، ٣٢٣ ، ٣٢٩ ، ٣٥٨ (متصل بالصفاء) ، ٣٧٩ (متصل بالخفة) ، ٣٨٦ ، ٤٤٥ ٤٤٦ ، ٤٨٣ . حول معنى عذب ، انظر م ج ع ، ج٤ ، ٢٩٧ ، مع امثلة واضحة جداً ، مأخوذه من ياقوت (احدها مذكور عند المقدسي ، ١٦١ ،ح ط : « ماؤها عذب شروب ليس بصادق الحلاوة ») ، « ماؤها عذب ليس بحلو . انظر بالمقابل مثالا أقل وضوحا ، عند ابن حوقل ، ٢٩٨ : ماء حلو عذب .

(٩٤٢) يكثر استعمال هذا النعت مجازا للحاوية : المقدسي : ٨٥ ، ٧٤ ، ٩٢ ، ١٠١ ، ١٠٧ ، ١٠٨ (و ح . ب ، مع نعت رديئة) ، ١١٧ ، ١٤٠ ، ١٤١ ، ١٧١ ، ١٧٤ ، (نص ذم بوضوح) ، ٢٠٩ ، ٢٥٤ ، ٢٩١ ، ٤٢٧ ، ٤٩٣ — انظر م ج ع ، مشار اليه .

(٩٤٣) هنا أيضاً يصف النعت مالح الحاوية : المقدسي : ٨٥ ، ١٣٨ (وآبار الموصل مالحة ، وشربهم من دجلة ومن نهر زبيدة : حول هذا النهر انظر لوسترانج ، الخلافة ٨٨) ، ١٦٤ (مالحة ، نعت عائد الى مدينة الرملة ، ومحصور بين « عميقة الآبار » و « ماء المطر في جباب مقفلة » ، وكله وارد في نص مثالب هذه المدينة) ، ١٨٤ ، ١٩٥، ٢٢٦ ، ٢٥٣ (ماء مالح قبحه الله) ، ٢٨١ (في نطاق نص مزعجات المدينة) ، ٣٢٢ ، ٤٢٥ (يملح ماء النهر من وقت العنب الى وقت المطر) ، ٤٢٦ ، ٤٤٦ (اربع بحيرات مالحة ، وبحيرة واحدة عذبة في فارس) ، ٤٩٣ . يجب الا يلتبس مع مليح (جميل طيب احيانا) : انظر وصف العيون بـ « عجيبة خفيفة » ، المقدسي : ٢٥٢ (و ح . ح) .

(٩٤٤) المقدسي : ٨٤ ، ١٠١ ، ١٦١ ، ١٦٢ ، ١٦٤ ، ١٨٤ ، ١٩٧ ، ٢٥٨ ، ٢٨١ ، ٣٠٢ (ح . د) ، ٣٠٨ ، ٣٧٩ ، ٤٢٩ ، ٤٣٠ (نفي الخفة) ، ٤٣٣ ، ٤٣٦ ، ٤٤٨ (للآبار) ، مع افعل التفضيل ، المرجع ذاته ، ١٧٥ ، ١٨٤ .

(٩٤٥) خشن ، زعاق (خاصة للحمامات) ، صلاب ، لطيف : على التوالي : المقدسي : .

١٨٤ ، ٤١٤ تترافق الخشونة مع الصحة) ، ١٠٨ ، ١٩٦ ، ١٢٤ ، ١١٣ . حول لطيف بمعنى « يسامي الحسم » ، انظر دوزي ، ملحق ٢ ، ٥٣٢ ، حول زعاق ، انظر تعريف لسان العرب ، « مر غليظ » : غليظ ، عكس لطيف : انظر دوزي ، مشار اليه ، لا يطاق شربه بسبب ملوحته الشديدة (اجاج) .

(٩٤٦) المقدسي ، للالفاظ التالية : حسن : ٣٥٩ (ح . ك) ، طيب : ١٠١ ، ٢٠٨ (عن الحمامات) ٢٩٤ (صفة منفية في ١٢٩ ، ٢٥٣) ، مرىء : (حول هذا الجذر انظر ما تقدم ، ص ١٦٢) ١٨٤ ، آخر ٤٨٠ (صفة منفية ٣٠٤) ، صح : ١٣٨ ، ٣١٤ ، ٣٥٨ ، ٣٩٦ ، ٤١٤ (صفة قد تقترن بالخشونة) ، ٤٥٩ ، ٤٦٤ ، ٤٨٠ ، (صفة منفية ٤٣٦ ، بسبب حقول الارز : انظر الحاشية ٩٣٨) ، جود : ١٢٤ ، (الصفة مالح : انظر الحاشية ٩٤٣ بآخرها) ، ٢٥٢ (و ح . ك) ، عجب : ١٠٨ ، ٢٥٢ (ح . خ)، ٢٥٤ ، ٣٠٣ ، ٣٣٣ (و ح . ز) ، ٤٠٢ ، ٤٦١ .

(٩٤٧) معتدلة : المقدسي : ٤١٤ ، رضي : ١٠١ ، ١٤٢ ، ١٦٠ ، ١٧٨ ، ١٨٤ ، ١٩٦ ، ٢٠٨ (حاشية يز) ، ٢٤٨ ، ٣٣٢ ، ٣٩٦ ، ٤٤٨ ، ٤٧٨ ، اشر : ٣٦٥ ، مذمومة : ٢٨١ (للاقنية في منطقة بخارى) ، آجن : ١٩٦ (تبدل عام يشمل الأقذار) ، كريه : ١٠١ ، ٢٠٨ ، ٢٥٣ ، قاتل : أو يقتل : ١٠١ ، ٣٧٠ . يلاحظ ان كلمة الزعاق (ح . ٩٤٥) يمكن ان تقرأ زعاف المدروسة سابقاً (« يقتل فورا «كالسم خاصة») ، ولا بد من أخذها ، في حالة مياه الحمامات ، بالمعنى المجازي . وتوصف البحيرة المقلوبة (المقدسي : ١٨٤) بانها وحشة ، لكن بمعنى عام على الأرجح .

(٩٤٨) المقدسي : ١٤٦ ، ١٨٤ ، ٢٥٣ ، ٣٧٠ (صيغة مماثلة في ١٧٨ : « بلد قاتل للغرباء رديء الماء ») .

(٩٤٩) المقدسي : ٣٥٨ ، انظر م ج ع ، ج٤ ، ١٧٥ ، وديميزون ، معجم ، ج١ ، ١٣٩ ، ج٢ ، ٩ (انظر بنوع خاص الأمثلة المنتهية « بران » في تركيبها) .

(٩٥٠) فعل آخر للقياس ، يستعمل حتماً لتقدير حجم مياه دجلة بالنسبة الى نيسابور المقدسي : آخر ٢٩٩ .

(٩٥١) المقدسي : آخر ٢ — ٣

(٩٥٢) ابن الفقيه : ٢٢٠ — ٢٢١

(٩٥٣) ابن الفقيه : ٢٢٢

(٩٥٤) المسعودي (م) ، فقرة ٨٩٧ ، اشير اليها ص ١٤٤ وفي الحاشية ٨٠٥)

(٩٥٥) المقدسي : ٤٤٨ (انظر أيضاً ابن حوقل ، ذكر سابقا ، ص ١٤٦)

(٩٥٦) المقدسي : ٣٩٧

(٩٥٧) المقدسي : ١٨٤ ، ٢٥٣ ، ٣٩١ ، ٣٩٦ ، ٤٤٤ ، ٤٧٨ . حول الصيغة الرابعة اطلق ، انظر م ج ع ، ج٤ ، ٢٩١ ، حول الصيغة الثانية ، المرجع ذاته ، ٣٠٦

(٩٥٨) المقدسي : ٣٦ (انظر ما تقدم ، ص ١٤٩) ، ٣٣٦ (و ح . بو)

(٩٥٩) الجاحظ(١) : ١٩٧ ، المقدسي : ٢٤١

(٩٦٠) ما تقدم ، ص ١٤٥

(٩٦١) المقدسي : ١٨٤ — ١٨٥ ، اصحح الصورة الواردة في طبعة دي خوية : الأحداث وأصحاب العلل ، الأحداث (الشباب أو الرعاع) : انظر دوزي ، ملحق ١ ، ٢٥٨) باحداب جمع حديب (الاحدب : انظر بلا شير ودرمون ، في د ج ع ، ١٨١) أو الى اغراب جمع غريب (الا جرب) ، حول صيغة جمع افعال للفظ فعل، انظر دي ساسي، صرف ونحو عربي ، ج١ ، ٣٨٦ ، بلاشير وغودفروا دي مونبين ، صرف ونحو عربي كلاسيكي ، ١٧٩ .

(٩٦٢) وتصنيف المقدسي واضح جدا من هذه الزاوية : ١٨٤ ، ٣٩٦ ، ٣٩٧ ، ٤٤٤ ، ٤٤٨ . يتخذ ابن حوقل الموقف ذاته ، ٢٩٨ ، ويشير الى عين ماء حلو عذب يشربه الناس لتنقية الجوف ، وهو احدى خاصيات فارس .

(٩٦٣) ابن حوقل ، ٢٧ (يكرر الاصطخري ، ٢١ : فلفظ البحر ، « كمية كبيرة من الماء » ، يحيل هنا الى البحيرة مثلما يثبت من النقاش اللا حق ، عن موقع البحيرة المقلوبة) ، ٢٩ ، ٣٠٩ ، ٣٨٠ — ٣٨٢ ، ٤٤٧ ، ٥٠٥ ، المقدسي : ٩٥ ، ١٤٢ (لا بحيرة في الجزيرة ، وان ذكرت بحيرة صغيرة ص ١٤٠) ، ١٧٩ ، ٢٢٢ آخرها — ٢٢٣، ٢٤٨ ، ٣٢٣ ، ٣٦٥ ، ٤٥٩ ، ٤٧٠ (باستثناء نهر جيرفت) ، ٤٨١ ، ٤٨٧ (الفرق التمييز بين الأنهار الدائمة والفياض) . انظر أيضاً كتاب حدود العالم ، آخر ٧٣ — ٧٨ .

(٩٦٤) انظر ما تقدم ، ص ١١٦ ، وجغرافية دار الاسلام ، ج١ ، ٦٨ — ٧٠ ، وشكل ١٤ (آ) و ١٥ ، قدامة : م ٧١ ، يعطي مجموعاً يساوي ٢٥٨

(٩٦٥) انظر جغرافية دار الاسلام ، ج١ ، مشار اليه

(٩٦٦) المقدسي : ١٩ وما يليها

(٩٦٧) اثبات آخر : في العرض الاجمالي ذاته ، يسمى المقدسي ، بعد الأنهار الـ ٢٧ ، ثلاثة أمثلة عن انهار ريفية : ولا تضم اي نهر من المغرب .

(٩٦٨) المسعودي (م) ، فقرة ٢١٥ — ٢٤٢ ، (ت) ، ٨٤ — ٨٩) لا يذكر أي اسم لمغرب دار الاسلام او لنهر يصب في بحر الروم . ولا يظهر نهر تاجه ، المسعودي (م) ، فقرة ٣٩٩ ، مثلا ، وان قيل عنه انه « احد اشهر انهار العالم » ، الا في سياق الكلام عن تاريخ الأندلس . ويذكر الوادي الكبير عند المسعودي (ت) ، ١٠٠ — ١٠١ باسم « نهر قرطبة » .

(٩٦٩) لم يشر الى أي نهر في المقطع العائد الى المغرب : ابن الفقيه ، ٩٧ — ١١٢

(٩٧٠) حدود العالم : ٦٩ — ٧٩ . يحصل الانطباع العام ذاته ، عند قراءة الخوارزمي (ع) ، اماكن كثيرة ، وقدامة (م ٧١) وخاصة ابن سيرابيون ، الذي يخصص بالمقابل شروحا مستفيضة لانهار الجزيرة واقنيتها (ص ١١٩ — ١٣٧ : لا يذكر نهرا واحدا من مغرب دار الاسلام في نظرته العامة الى انهار الأرض ، ص ١١٩ — ١٥٥) ووضع الفزاري اعقد : فكتابه الجغرافية يتضمن انهارا مغربية واندلسية (انظر طبعة حج صادق ، م د ش ، ٢١ روماني ، ١٩٦٨ ، ص ١٤٢ ، فهرس لفظ وادي ، اماكن متفرقة) ، لكنه اعيد النظر به في القرن السادس / الثاني عشر ، على يد أحد الاندلسيين المسمى الزهري ، الذي عد له بلا ريب ليزيد أهمية موطنه (انظر أمثلة عن تعديلاته ، المرجع ذاته ، ص ٢٤) ، حول الأسباب التي تمنعنا من أخذ هذا المصنف بعين الأعتبار في كتابنا ، انظر جغرافية دار الاسلام ، ج١ ، الطبعة الثانية ، ١٤ روماني .

(٩٧١) حول المعطيات الواردة هنا ، انظر المقدسي ، ٤ ، ٩ ، ١٢ ، ١٩ — ٢٠

(٩٧٢) انظر شوارز فارس ، ج٤ ، ٣٠٩ — ٣١٠ ، يجب الا يحصل التباس بينه وبين نهر في صقلية سنتحدث عنه فيما بعد .

(٩٧٣) يصب في بحر الخزر من الجهة الغربية، الى شمال المدينة الحالية ممشكلة : يقع النهر في الواقع خارج حدود المملكة : انظر جغرافية دار الاسلام ، ج٢ ، ٢٦٤ ، ٥٣٨ وأماكن متفرقة . لا يرد في هذه اللوحة الا لأن المقدسي يدخل في وصف مملكة الاسلام كل البلد حتى نهر اتل : المقدسي ٣٥٣ ، ٣٥٥ ، ٣٦٠ — ٣٦١

(٩٧٤) انظر لوسترانج ، الخلافة الشرقية ، ٣٧٦

(٩٧٥) انظر المقدسي ، : ١٩ ، ح ز

(٩٧٦) مثال آخر : يرد نهر طاب بين أسماء الأنهر الثلاثة المسماة فيما بعد عند المقدسي (ص ٢٠) كمثال على الأنهار الثانوية، الا ان طاب ليس الانهر ارجان المذكور من قبل، في مجراه الأسفل : انظر المقدسي : ١٩ ، ح ز (انظر مع ذلك الترجمة ، ص ٣٣٠ —٣٣١).

(٩٧٧) « انهار جارفة » اوديتها « فجاج رهيبة » . يبلغ عرض وادي كيدنوس خاصة عشرة امتار تقريبا في مضيق أبواب كيليكية : انظر بلانشار ، الجغرافية العالمية ، مشار اليها ، ٧٤ — ٧٥

(٩٧٨) انطرسوس شهير في تاريخ البطولات لعلاقات دار الاسلام والروم : انظر جغرافية دار الاسلام ج٢ ، ٤٢٤ ، ٤٧٦ ، ٥٣٤ ، وأماكن متفرقة . بالفعل جمعت الأنهار الثلاثة في الوصف العام اللاحق ، وجامعها المقدسي (ص ٢٢) .

(٩٧٩) المقدسي : ٢٠ — ٢٤

(٩٨٠) انظر الحاشية ٩٧٦

(٩٨١) لا ريب ان المقصود نهر صغير مسحوب من عبن غزارتها عظيمة : انظر لوسترانج ، الخلافة الشرقية ، ٢١٥ ، شوارز ، فارس ، ج٦ ، ٧٦٤ — ٧٦٥ . بالنسبة للقضية التي يثيرها احتمال اختفاء نهر العاصي ، انظر الترجمة ، ص ٦٤ ، ح ١١١

(٩٨٢) اشارة الى موطن المؤلف والى تعلقه المعروف جيدا بمسقط رأسه .

(٩٨٣) انظر الحاشية ٩٧٧ وبلانشار في الجغرافية العالمية ، ح٨ ، مشار اليها ، ٤٨ ، ٥٣ — ٥٤ ، ٧٨ ، ١١٥ — ١١٦ ، ١٢٤ ، حيث لم يقترن ذكر هذه الأنهار بالحديث عن سفن نهرية . ويمكن أجراء التحفظات ذاتها بشأن انهار العالم ، الواردة في حدود العالم على انها صالحة الملاحة : يبدو واضحا جدا ان هذه الصفة ترد تلقائيا للدلالة على نهر عظيم (انظر ما تقدم ، ص ١٢٩) .

(٩٨٤) عرفت هذه الأنهار بالافادة منها في ري الأراضي بنوع خاص (نموذجها زند – روذ) ، أو هي قصيرة جداً مثل نهر الاردن . ولعل الاستثناء الوحيد هو نهر العباس ، لكنه في الحقيقة ذراع من دجلة مثلما سبق وقلنا .

(٩٨٥) انظر الحاشية ١٢٩

(٩٨٦) المسعودي (م) ، فقرة ٣٩٩ ، ابن حوقل : ١١٦ آخرها ، حدود العالم : ٧٩ ، ٢٢١

(٩٨٧) مثال : اليعقوبي : ٣٥٤ ، ٣٥٥ ، ابن حوقل : ١١٥ ، ١١٦ ، المقدسي : ٢٣٣ – ٢٣٥

(٩٨٨) اليعقوبي : ٣٥٤ ، المسعودي (م) ، فقرة ٤٠٣ ، المسعودي (ت) ، ١٠٠ – ١٠١ ، ابن حوقل : ١١٢ – ١١٣ ، ١١٥ . أما ملقون ، فهو مادى آنة الا على أو أحد روافده (ابن حوقل : ١١٦) .

(٩٨٩) اليعقوبي : ٣٥٥

(٩٩٠) الرازي ، ٦٢ ، ٩٠ ، ١٠١ – ١٠٤

(٩٩١) انظرا – ليفي بروفنسال ، « تدمير » في م١ ، ج٤ ، ٨٤٨ ، و « الاندلس » في م١(٢) ، ج١ ، ٥٠٣ و ٥١٢ (خريطة) حذار من الالتباس بينه وبين نهر شقر ، الذي يجري بعيدا الى الشمال ، ويصب في البحر حوالي بلنسية : وهو المقصود عند اليعقوبي باسم البلد : اليعقوبي : آخر ٣٥٥

(٩٩٢) حول (ه) في آخر الكلم ، الملفوظة « أوه » ، انظر المسعودي (م) ، فقرة ٩١٦ ، ابراهيم (أ) ، ترجمة ص ١٠٥٥ ، حاشية ٣ آخرها .

(٩٩٣) ابن حوقل : ١١٨ (بلرم « المدينة الكبرى » في الجزيرة) ، ١١٩ – ١٢٠ ، ١٢٢ – ١٢٣ ، (مع اسماء العيون ، وتعبير « نهر كبير » لوصف روطة ، في حين ينبع تحت باب المدينة ، التي تقع على البحر) ، المقدسي : ٢٣١ . ينبغي الا يحصل التباس بين وادي عباس ونهر عباس (انظر الحاشية ٩٧٢) .

(٩٩٤) المقدسي : ٢٣٢

(٩٩٥) انظر مثلا اليعقوبي : ٣٥٧ ، ابن حوقل : ٨٩ ، بشأن مدن (الجزائر) : اليعقوبي : ٣٥٨ ، ابن حوقل : ٧٨ ، ٨٤ ، ٨٦ ، ٨٩ ، ٩٠ ، المقدسي : ٢٢٩ . بشأن احدى المناطق (تونس الشمالية) ، ابن حوقل : ٧٤

(٩٩٦) اليعقوبي : ٣٥٩ ، ابن حوقل : ٩١

(٩٩٧) بشأن هذه الأنهار ، انظر اليعقوبي : ٣٥٧ — ٣٥٨، ابن حوقل : ٨١ ، ٨٨، ٩٠ . يلاحظ ان الروافد (ايناون ووادي نمالته ، وهو اسم مدينة) ، لا تذكر كروافد . وتذكر كروافد نهر سبه ، نهر نهر مشكوك باسمه (اليعقوبي ، آخر ٣٥٧، بشأن تحديد موقع المنطقة ، انظر ج . ايفر ، « غماره » ، في م١ (٢) ح٢ ، ١١٢١) ونهرآخر اغفل اسمه في منطقة البصرة (ابن حوقل : ٨١، حول تحديد موقع هذه المدينة ، انظر ج . ايفر ، م١ (٢) ، ج١ ، ١١٢٠) .

(٩٩٨) ابن حوقل : ٧٩ — ٨٠ . يلاحظ ان احد النهرين اللذين يتألف منهما نهر سفدد يأتي من البصرة (انظر الحاشية السابقة) .

(٩٩٩) ابن حوقل : ٨٨ — ٨٩ ، لا يذكر ان مسون اسم مدينة أيضا (مسون حالياً) . بشأن صاع (مدينة ونهر) انظر البكري ، وصف افريقية الشمالية ، ترجمة م . كوك دي سلين ، باريس ، ١٩٦٥ ، ص ١٧٧ ، ١٨١ ، ٢٧٣

(١٠٠٠) ابن حوقل : ٧٨

(١٠٠١) ابن حوقل : ٨٩ . بشأن تحديد موقع هذا البلد ، انظر الادريسي ، وصف افريقية والأندلس ، الناشر دوزي ودي خويه ، لايدن ، ١٩٦٨ (تصوير)، ترجمة، ص ٩٥

(١٠٠٢) اليعقوبي : ٣٥٨ ، ابن حوقل : ٩٠ (شلف اسم مدينة أيضاً) .

(١٠٠٣) ابن حوقل : ٨٨ ، ٩٠ . انها منطقة واقعة بين مسيلة وقصر البخاري . يمكن ان يخطر ببالنا اسر الأعلى (قارن نص ابن حوقل بنص البكري ، مشار اليه ، ١٢٦ ، ح١٠ . بشأن موقع مدينة اشير انظر ج . ماركه ، م١(٢) ، ج١ ، ٧٢٠) ، لكن يبدو ذكر الملح يشير الى شط الحضنة .

(١٠٠٤) ابن حوقل : ٨٥ آخرها .

(١٠٠٥) بشأن المدينة والنهر ، انظر المقدسي ، ٥٥ ، ٢١٦ (ح . ك) ، ٢٢٧ ، ٢٤٦، وتحيل هذه الاحالات الى منطقة بجه فيما يبدو .

(١٠٠٦) اليعقوبي : ٣٤٨

(١٠٠٧) انظر الأسماء عند ابن خرداذبه : ٨٢ ، ٨٨ ، اليعقوبي : ٣٤٢ ، ابن

لفقيه : ٧٩ — ٨٠، قدامة : ٢٢١، ٢٢٣ ، ابن حوقل : ٦٢ — ٦٣ (خريطة) .
يختفي اسم وادي بالذات أحيانا لصالح اسم ثاني مضاف : انظر المقدسي : ٢٤٤ (ح . و)
بشأن وادي الرمل ، انظر مثلا ابن الفقيه : ٨٠ ، ٨٤ وما يليها ، ٢٤٢ ، وجغرافية
دار الاسلام ج٢ ، ٤٩١ — ٥٢٩

(١٠٠٨) ابن حوقل : ٧٠ ، المقدسي : ٢٢٤ : وادي جرار ، دون تدقيق الأسم
المقصود بداهة وادي قابس ، وهو مجرى ماء غزير ، تغذيه عيون جميلة .

(١٠٠٩) ابن حوقل : ٦٧ — ٦٨ ، المقدسي : ٢٢٤

(١٠١٠) التعبير من الاصطخري ، ١٩ ، يكرره ابن حوقل ، ١٧ : انظر جغرافية
دار الاسلام ، ج٢ ، ٥٢٩ .

(١٠١١) انظر اليعقوبي ، ترجمة وايت ، ص ٧ روماني و ح ١ — ٣

(١٠١٢) انظر ابن حوقل : ٩٠ ، الذي يعود الى طريقه الموصوف سابقا (المرجع ذاته :
٨٨)) . ويضيف باهتمام : « وقد اتيت بهذا الطريق مقلوبا لأني سلكته من المغرب الى
افريقية » .

(١٠١٣) بشأن اهتمامات ابن حوقل التجارية والسياسية ، انظر جغرافية دار الاسلام ،
ج١ ، ٢٩٩ — ٣٠٢ ، ٣٠٦ — ٣٠٩

(١٠١٤) على الأقل جغرافيو المسالك والممالك : ابن حوقل الذي يتوسع كثيرا بالاصطخري
والمقدسي .

(١٠١٥) أخذ وصف النيل والبلاد التي يسقيها من : الخوارزمي (ع) : ١٠٨ ، ابن
سيرابيون : ٤٣ آ ب ، ابن خرداذبه : ١٧٦ ، اليعقوبي : ٣٣٠ — ٣٣٤ ، ٣٣٧ —
٣٤٠ ، ٣٤٢ ، ابن الفقيه : ٥١ ، ٥٨ ، ٦٠ ، ٦١ ، ٦٣ — ٦٨ ، ٧٤ ، ٧٨ ،
ابن رسته : ٨٠ — ٨٢ ، ٩٠ ، ١١٥ — ١١٧ ، قدامة : م ٦٤ ، المسعودي : (م)
فقرة ٢١٥ — ٢٢١ ، ٤٨٧ ، ٧٧٤ — ٧٨٥ ، ٧٨٨ ، ٧٩٠ ، ٨٠٤ — ٨٠٥ ،
١٢٨٦ ، المسعودي (ت) : ٢٣ ، ٢٨ ، ٣٤ — ٣٥ ، ٦٥ ، ٨٢ ، ٨٥ ، ٩٧ ،
٢٤٢ ، ٢٩٧ ، ٣٠٠ ، ابن حوقل : (يتوسع بالاصطخري ، ٣٩ — ٤٢ وأماكن
متفرقة) : ٥١ ، ١٣٥ — ١٤٣ ، ١٤٥ — ١٤٧ ، ١٤٨ ، ١٤٨ / ١٣ ، ١٤٩ —
١٥٣ ، ١٥٦ ، ١٥٨ — ١٦١ ، ١٧٠ ، ٣٢٨ ، المقدسي : ١٨ ، ٢٣ ، ١٩٣ ،

١٩٦ ، ١٩٧ (ح . و) ، ١٩٨ - ٢٠٢ ، ٢٠٣ آخرها ، ٢٠٦ - ٢٠٨، ٢١١ - ٢١٣ ، ٤٨٢ ، اسحاق : ٤٤٧ - ٤٤٨ ، الحدود : ٧٨ ، الأسواني : ٢٦١ . ساتناول بعض هذه الا حالا ت في بعض النقاط الخاصة .

(١٠١٦) ابن الفقيه : ٦٥ ، المقدسي : ٢٠٧

(١٠١٧) ابن الفقيه : ٦٠ ، المسعودي (م) ، فقرة ٨٠٩ ، ابن حوقل : ١٦٠ و ش. بيلا ، اللفظ في م ١ (٢) ج٣ ، ٧٣ - ٧٤

(١٠١٨) ابن الفقيه يتاقض في ص ٦٣ ص ٦١ التي يصف فيها سفاد التماسيح في بلد النيل ، كما يصف بيضها وتفقيسه .

(١٠١٩) بشأن نهر الشاش ، انظر المسعودي (ت) : ٩٧

(١٠٢٠) ابن حوقل : ١٤٧

(١٠٢١) المسعودي (م) ، فقرة ٧٧٨ - ٧٧٩ ، ابن حوقل : ١٣٦ - ١٣٧ ، ١٤٧ ، المقدسي : ٢٠٦ .

(١٠٢٢) المقدسي : ٦٥ (ح . يا من ٦٤) ، ٢٠٠ (ترجمة جزئية في الحوليات الاسلامية (القاهرة ، معهد فرنسي للآثار الشرقية) ، ١١ روماني ، ١٩٧٢ ، ص ١١٩، ح ٧٣) .

(١٠٢٣) ابن رستة : ١١٦ ، المسعودي (م) فقرة ٧٨١ ، المقدسي : ٢٠٦ . حول هذه القياسات ، انظر جغرافية دار الاسلام ، ج٢ ، ١٧ (وشكل ٦) - ١٨

(١٠٢٤) المسعودي (ت) : ٩٧

(١٠٢٥) المسعودي (ت) : ٩٧ ، ابن حوقل : ٤٨ / ١٣

(١٠٢٦) المسعودي (م) ، فقرة ٧٧٨ ، ٧٨٢ ، المقدسي : ٢٠٦

(١٠٢٧) ابن حوقل : ١٣٧ ، المقدسي : ٦٥ (ح يا من ص ٦٤) ، ٢١٢ - ٢١٣ . نلاحظ مرة اخرى ان طمي النيل الشهير لا يرد في الحديث عن الخصب .

(١٠٢٨) ابن رسته : ١١٦ ، المسعودي (م) ، فقرة ٧٧٨ ، ابن حوقل : ١٣٦ - ١٣٧ ، المقدسي : اشير اليه .

(١٠٢٩) انظر ابن حوقل ، ترجمة ، ص ١٣٥ ، حاشية ٦٣١ - ٦٣٥

(١٠٣٠) اليعقوبي : ٣٣٩ – ٣٤٠ ، المسعودي (م) ، فقرة ٧٧٦ – ٧٧٧ ، ٧٨٦ ، المسعودي (ت) ، ٢٩٧ ، الاسواني : ٢٦١ ، وما تقدم ، ص ١٢٤

(١٠٣١) المسعودي (م) ، فقرة ٧٧٦ – ٧٧٧ ، آخر ٧٨١ ، المسعودي (ت) : ٢٨ ، ٣٠٠ ، المقدسي ٠ ٢٠٨ .

(١٠٣٢) المسعودي (ت) : ٣٠١

(١٠٣٣) المسعودي (م) ، فقرة ٧٨٢ ، ٧٨٥ ، ابن حوقل : ١٣٦ ، ١٥٣ ، وما تقدم ص ٩٣ ، وحاشية ٥٢٧ وص ١٢٠ آخرها – ١٢١

(١٠٣٤) بلسم ، بلسان (ابن حوقل : ١٦١) : انظر م ج ع ، ج ٤ ، ١٩٣ ، الجاحظ (ت)، الفهرس ، هذا اللفظ ، ص ١٦٢ ، و ا. غالب ،قاموس علوم الطبيعة (الموسوعة في علوم الطبيعة) ، بيروت ٣ أجزاء ، ١٩٦٥ – ١٩٦٦ ج ١ ، ص ١٦٢ .

(١٠٣٥) ابن حوقل : آخر : ١٤٢

(١٠٣٦) المسعودي (م) ، فقرة ٧٧٤ ، المسعودي (ت) : ٣٤ ، ابن حوقل : ١٣٧ ، ١٣٩ ، المقدسي آخر ٢٠٦ ، وما تقدم ، ص ١٣٧ آخرها

(١٠٣٧) المسعودي (ت) ، ٣٤

(١٠٣٨) المسعودي (م) ، فقرة ٧٧٤

(١٠٣٩) الأشهر المعطاة مقابلة ، ليست اشهر السنة الهجرية ، بل الأشهر المسماة السورية العربية ، هنا : تموز آب ايلول . اتبعت في الأشهر القبطية هنا ومن قبل ، التشكيل (الذي يختلف أحيانا عن تشكيل النص العربي) المتبع عند ش . بيلا وفي ترجمته .

(١٠٤٠) تشرين الأول ، تشرين الثاني ، كانون الأول

(١٠٤١) كانون الثاني ، شباط ، اذار .

(١٠٤٢) نيسان أيار حزيران .

(١٠٤٣) انظر جغرافية دار الاسلام البشرية ، ج٢ ، ص ١٣٥ آخرها – ١٤٠

(١٠٤٤) المرجع ذاته ، ص ١٥٦

(١٠٤٥) ابن الفقيه : ٧٨ ، المسعودي (م) ، فقرة ٢١٩ ، ابن حوقل : ١٤٥ ، ١٧٠ (وحاشية ١٩٠)

(١٠٤٦) انظر معلومات المسافات الواردة عند ابن حوقل : ١٤٥ (الى ثلث الطريق من اتفو صعدا حتى اسوان) ، والواردة عندك بيديكر ، مصر والسودان ، لا يبزغ — باريس ١٩١٤ ، ص ٣٤١ آخرها — ٣٤٢ أما كرامرز (« النيل » ، في م١،ج٣ ، آخر ٩٧٩) فيعكس الموقعين .

(١٠٤٧)) يقول ابن حوقل ان المضيقين واقعين » بين جبلين .

(١٠٤٨) قدامة : م ٦٤ ، المقدسي : ٢٠ (ح . يا) : الحاشية ١١٣

(١٠٤٩) حول المواضيع المبحوثة هنا ، انظر ابن الفقيه : ٦٧ — ٦٨ ، ٧٤ ، المسعودي (م) ، فقرة ٢٢٠ ، ٧٨٣ — ٧٨٤ ، ٧٩٧ — ٧٩٨ ، ابن حوقل : ٦ ، ١٣٣ (خريطة) ، ١٤٧ ، ١٥٧ ، ١٥٩ — ١٦٠ ، ١٧٠ (مع التصحيح المذكور في الحاشية ١٩٠) ، المقدسي : ٢٠٨ . العصور القديمة ، للنظر سترابون (مدينة ارسينويه وبندها) ١٧ روماني ، ١ ، ٣٥ — ٣٨ ، وبسنيه ، مفردات ، مشار اليه ، ٨٥ . أيضاً كرامرز ، مشار اليه ، ٩٧٩ (يذكر خليج المنهي حسب الادريسي : هو خليج المنهي أو المنهي عند المسعودي) و ب . م هولت ، « فيوم » في م١(٢) ، ج٢ ، ٨٩٣
(١٠٥٠) انظر المسعودي (م) ، فقرة ٢٢٠ ، حيث يمكن ان نترجم مثل ش . بيلا : « يجتاز النيل سدود اللاهون « أو » يمر النيل قرب سدود اللاهون » ، المرجع ذاته ، ٧٨٢ — ٧٨٣ ، يتحدث عن خليجين مختلفين (خليج الفيوم والمنهي)، في حين يذكر ، فقرة ٧٩ ، خليج المنهي وحده فقط قرب بلد الفيوم .

(١٠٥١) هنا أيضاً ، لا يسمح شيء في النص (المقدسي : ٢٠٨) بأن يقدر القارىء بأن هذا السد ، الموصوف عند ذكر الفيوم ، يقع في مكان آخر سوى على مستوى هذا الموقع (الا اذا قصد بالنهر الخليج ، وبالسد الحاجز)

(١٠٥٢) المسعودي (م) ، فقرة ٧٩٧

(١٠٥٣) لا شيء يدل على انه باني الخليج القائم ، خلافا الى المرجع ذاته ، فقرة ٧٨٣

(١٠٥٤) لخص بيذكير تاريخها ، مصر والسودان ، مشار اليه ، ١٨٧ — ١٨٨

(١٠٥٥) ابن رسته : ١١٦ ، المسعودي (م) ، فقرة ٧٨١، ابن حوقل : ١٤٦ ، المقدسي : ١٩٧ — ١٩٨ ، ٢٠٠ (يشير الى ان الفاطميين هدموا الجسر الغربي) .

(١٠٥٦) ابن حوقل ، ١٦١ ، يقلد الاصطخري، ٤٢ (ويجعله غامضا) :

والحوف ما كان من النيل اسفل الفسطاط » « وما كان من النيل جنوبه يعرف بالريف » . بشأن تفسير هذه الاتجاهات ، انظر كرامرز ، مشار اليه ، ٩٨٠ (عمود ٢) .

(١٠٥٧) بشأن عمود انظر ما تقدم ، ص ١٣١

(١٠٥٨) حول الخليجين ، وذكر ذراع النيل القديم ومحاولات وصل النيل ببحر القلزم ، انظر المسعودي (م) فقرة ١٤٢٦ – ١٤٢٨ ، المقدسي : ١٢ ، ٢٠ (ح . و) ٢٠٠ ، ٢٠٦ ، كرامرز ، مشار اليه (ص ٩٨٠) و س . هـ . بيكر « الفسطاط » : في م١ ، ج١ ، ٨٤٠ ، ٨٤٢ ، حول الالتباس بين الخليجين عند المقدسي ، انظر الاحالة في الحاشية التالية .

(١٠٥٩) بالنسبة الى المقدسي ، يبدو ان الالتباس ثابت بين ذراع الروضة وخليج أمير المؤمنين : انظر ترجمتي (المشار اليها سابقاً، ص١٨١)، ح١٤ . ٥٣ ، ٥٤ ، ٧٨ .

(١٠٦٠) انظر كرامرز ، مشار اليه (ص ٩٨٠ ، عمود ٢) و ابن حوقل : ١٤٣ . الذي يصرح انه يكتفي بالشيء الأساسي ، رغم اعطائه تفاصيل جمة .

(١٠٦١) المسعودي (م) ، فقرة ٧٧٩ ، المقدسي : ٢٠٠ ، ٢٠٦

(١٠٦٢) لا ريب ان المسعودي يسميها ترعة، المسعودي (م)، المرجع ذاته، ترعه الذنب أو الذنب : انظر كرامرز ، مشار اليه ، (٩٨٠ ، عمود ١) ، ذنب التمساح (انظر بحيرة التمساح الحالية التي تخترقها قناة السويس) . انظر أيضاً المسعودي (م) ، فقرة ١٤٢٦ – ١٤٢٨ .

(١٠٦٣) في منتصف الطريق بين الفسطاط ودمياط : المقدسي : ٢١٤ . حول سردوس، انظر كرامرز مشار اليه (٩٨٠ ، عمود ١) .

(١٠٦٤) المقدسي : ٢٠٨ ، يشرح القادوس ويقول انه كوز الدولاب .

(١٠٦٥) يبدو ان المصنفين لا يميزون ابدا بين الشعبة والخليج والماء : انظر مثلا ابن حوقل : ١٣٩ – ١٤٣ ، حيث اذكر من بين بعض النواحي الغامضة تسمية الماء الآخذالى دمياط وتنيس ماء (ص ١٣٩) وشعبة (١٤٣)

(١٠٦٦) المسعودي (م) ، فقرة ٧٨٢ ، يذكر سبعة خلجان (اقنية واذرع اذ يسمى بينها خليج دمياط وخليج والاسكندرية) ويدخل فيها خليج الفيوم وخليج المنهي (حاشية ١٠٥٠) ويذكر في مكان آخر (فقرة ٢٢٠) انه ينقسم الى خلجانات تذهب الى بلاد

تنيس ودمياط ورشيد والاسكندرية ويقول المقدسي (ص ٢٠ وحاشية يا) فيقول في المتن ان النيل يتشعب خلف الفسطاط فنهر يفيض في الاسكندرية ونهر بدمياط . وفي الحاشيةيا : ثم ينقسم سبعة اقسام منها قسم الى الاسكندرية بعد ما ينقسم قسمين .

(١٠٦٧) بشأن الملاحة في النيل (شعبة الرشيد) انظر اليعقوبي : ٣٣٨ ، ابن حوقل : اخر ١٤٠ ، يتحدث ركوب التجار من الاسكندرية الى مصر في الصيف عند زيادة النيل ، وبمراكب خاصة طبعا ، ويقول المسعودي (فقرة ٢٢١ من المروج) ان السفن كانت تجري في النيل وتصل الى أسواق الاسكندرية . يبدو ان تسمية المصب اشتوم شائعة : فالمهلبي (ي) ، ١ روماني ، ١٩٦ ، يورد اللفظ ذاته في كلامه عن مصبين اخرين (تنيس — دمياط) : انظر أيضاً تعبير اشتوم تنيس عند المقريزي ، ذكر عند مسبيرو ووايت « نصوص » ، مقال ذكر (حاشية ١١٣) ، ١٧

(١٠٦٨) اكثر تلك الأوصاف تفصيلا ، وصف ابن حوقل : ١٣٨ — ١٣٩ ، ١٥٢ ، ١٥٦ ، ١٦١ وأماكن متفرقة .

(١٠٦٩) المسعودي (م) ، فقرة ٢٢٠ — ٢٢١

(١٠٧٠) ابن حوقل : آخر ١٣٨ — ١٣٩

(١٠٧١) بشأن البحيرة والمدينة ، انظر اليعقوبي : ٣٣٨ ، وابن رسته : ٩٠ ، وابن الفقيه : ٢٥٢ ، والمسعودي ، فقرة ٧٨٨ — ٧٩٠ من م . و ٣٥ من ت ، وابن حوقل : ١٥٢ ، ١٥٦ ، والمقدسي : ٢٠١ — ٢٠٢ ، ٢٠٣ ، ٢٠٨ ، وحدود العالم : ٥٦ ، ٧٨ .

(١٠٧٢) تبدو الشعبة الأخرى خليجا تصل الى الاسكندرية بعد سقاية الريف .

(١٠٧٣) ينبغي فهم تعبير « الى دمياط » « صعدا الى دمياط (انظر اتجاه الطريق من الفرما (بيلوز) الى دمياط مرورا بتنيس) . ويجعل اليعقوبي بحيرة تنيس نهاية النيل من هذه الناحية . الا ان الأتصال بارز عند المهلبي (ذكر من قبل ح . ١٠٦٧) ؛ واتصال بحيرة تنيس ببحر الروم وارد صراحة عند ابن حوقل وعند المقدسي (انظر مايلي حول تناوب الماء الحلو والمالح عليها) : ابن حوقل : ١٥٦

(١٠٧٤) ابن حوقل : آخر ١٤١ ، يذكر عين موسى في الدلتا

(١٠٧٥) المقدسي : ٢٠٨

(١٠٧٦) اليعقوبي : ٣٣٩ آخرها .

(١٠٧٧) المقدسي : آخر ٢٠٧ (ذكر من قبل ، ص ١٦٦)

(١٠٧٨) المقدسي : آخر ٢٠٨ (ذكر في المكان ذاته)

(١٠٨٠) انظر ما سبق ، ص ١٤٥ آخرها — ١٤٦

(١٠٨١) اخذنا بعين الأعتبار تردد الصور : شبره ، شبري ، شبرو (من لفظ قبطي قديم يعني بلد : انظر م ج ع ، ج ٤ ، ٢٦٩) يرجح ان النبيذ المسمى شبراوي عند المسعودي (م) ٧٧٩ ، هو في الواقع شراب العسل المستنبذ في شبرو (ابن الفقيه دون تعيين الأسم المكان ابن حوقل) ١٦١ ، في هذه الحالة يخالف المسعودي ويقول ان النبيذ الشبراوي يتخذ بمصر من ماء طوبة ، وهو كانون الآخر بعد الغطاس ، واصفى ما يكون النيل في ذلك الوقت .

(١٠٨٢) انظر المسعودي (م) ، فقرة ٧٣٤ ، ٧٧٩ ، ١٢٨٦، المقدسي : ٢٠٦ (بالنسبة لعيد الصليب في الشام : المرجع ذاته ، ١٨٣ () وما تقدم ، ص ١٨١

(١٠٨٣) المسعودي (م) فقرة ٧٧٩ — ٧٨٠ ، انظر دوزي ، ملحق لفظ غطاس ، ج٢ ، ٢١٦

(١٠٨٤) كانون الثاني

(١٠٨٥) أي ٩٤١ بعد الميلاد

(١٠٨٦) مؤسس سلالة الأخشيديين المحلية ، سوف يمارس السلطة من ٣٢٣ / ٩٣٥ الى ٣٣٥ / ٩٤٦

(١٠٨٧) الملاهي (أيضاً : آلة موسيقية) : قد يكون حشواً مع عزف . لقصف أيضاً معنى شراهة ، مأدبة فاخرة : انظر ترجمة تي . بيلا .

(١٠٨٨) انظر ما تقدم ص ١٧١ (وحاشية ٩٦١) : لا توجد لا انهار ولا بحيرات في جزيرة العرب .

(١٠٨٩) حول هذه المواضيع ، انظر مثلا ابن خرداذبه : ١٢٦ ، ١٢٩ ، ١٣٨ ، ابن رسته : ١٧٥ (وادي السباع وزباله : تصحح الترجمة ص ٢٠٣ : المقصود ماء مستنقع لا حارى . ابن حوقل : ٢٩ ، آخر ٣٠ ، ٣١ ، آخر ٣٣ (تصحح الترجمة،

ص ٣٧ و ٣٨ / النص ص ٣٨ و ٣٩ : « بوادي » لا أودية . المقدسي : ٨٠ ، ٢٥٢ .
لوائح الأودية عند الهمداني : ٧١ — ٧٨ ، ٨٩ — ٩٠

(١٠٩٠) انظر بشأن وادي القرى (انظر ١ . غروهمان ، م١ ، ج٤ ، ١١٣٥ — ١١٣٦) وروده ، في معظم الأحيان ، في قوائم البلدان أو الطرق . ابن خرداذبه : ١٢٩ ، ١٥٠ ، قدامة : ١٩١ ، ٢٤٨ ، ابن رسته : ١٧٧ ، ١٨٣ ، ابن الفقيه : ٧ ، ٢٦ ، المسعودي (ت) : ٣٣٥ وأماكن اخرى (اطار بسيط لاحداث تاريخية) ، ابن حوقل : ٢١ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٣٤ ، ١٥٨ ، المقدسي : ٣٠ ، ٥٣ ، ٨٣ — ٨٤ ، ٩٧ ، ١٠٧، ١١٠ ، ٢٤٩ ، ٢٥٠ ، ٢٥٢ . يلاحظ ان لفظ وادي يستعاض عنه احيانا بلفظ بطن مقعر ، منخفض) : انظر ابن حوقل : ٢٩ (الاصطخري : ٢٢) : بطن روادي) ، المقدسي : ٧٧ ، ١٠٥ — ١٠٧ ، ٢٤٩ ، ٢٥٠ (انظر ص ١٠٢) .
حول نهر الأزرق انظر الحاشية ١١١٥ .

(١٠٩١) اليعقوبي : ٣١٢ — ٣١٣ ، ابن رسته : ٢٥ — ٢٦ ، ٤٤ — ٥٢ ، ابن حوقل : ٢٩ — ٣١ ، المقدسي : ٧٧

(١٠٩٢) الاصطخري : ٢١، ابن حوقل : ٢٧ ، آخرها — ٢٨ (حول تبديل سواني بسواقي ، انظر م ج ع ، ج٤ ، ٢٦٥) . حول موضوع الأراضي المستمرة ، انظر جغرافية دار الاسلام ، ج٢ ، ١٥ .

(١٠٩٣) انظر الهمداني : ١٦٠ ، المشار اليه من قبل ، ص ١٢٦ (وياقوت ، معجم البلدان ، ج٤ ، ١٧٩ ، ١٨٠ ، ج٥ ، ٦٣) . بشأن العيون (التي شوهتها المزروعات اليوم ، وهي غير كافية في جميع الأحوال ولا تفي بحاجات التطوير الهائلة) ، انظر بلا نشار ، في الجغرافية العالمية ، ج٨ ، مشار اليه ، آخر ١٧٧ — ١٧٨ .

(١٠٩٤) انظر كتاب الحدود : ٧٧ ، ١ . لوفغرين ، « بيهان » ، و م ١٠ . غول ، (بيهان القصب » ، م١ (٢) ، ج١ ، ١١٦٦ — ١١٦٧ ، اطلس عالم التايمز ، ص ٣٣ ، واسهاب مماثل عند ابن الفقيه : ٢٨ (اليمامة) .

(١٠٩٥) موجودة حقيقة في فصل الأمطار فقط : ابن خرداذبة : ١٣٦ ، ابن سيرابيون : ٤٩(١) ، ابن رسته : ١١٠

(١٠٩٦) انظر مثلا ابن الفقيه : ٨٤ — ٨٦ ، ٩٣ ، ١٠٧ ، ١٠٨ ، ١١٠

(١٠٩٧) كتاب حدود العالم : آخر ٧٨ — ٧٩

(١٠٩٨) اختار من الاشارات والأوصاف العديدة لبئر زمزم ، بالنسبة الى المواضيع التي تهمنا هنا مايلي :ابن رستة : ٤٠ — ٤٤ ، ٥٨ ؛ ابن الفقيه : ١٩ ، ١١٦ ، ٢٢٢ ؛ المسعودي (م) ، فقرة ٩٣٨ — ٩٤٠ . يلاحظ في قصة هاجر واسماعيل ، التي ترمز الى الاسلام ، دون ان تكون الاسلام ، تفوق صورة البئر على صورة العين (ربما زمزم ستصبح عينا جارية لولا حذر أو شح هاجر التي حفرت له في البطحاء ، وقيل ان في قعر زمزم ثلاث عيون ، قدسها الاسلام ، وفضل البئر على العين ، مع ذلك ، تندرج البئر في تاريخ جزيرة العرب التقليدية وفي مشهدها . انظر أيضاً المقدسي : ١٧١ ، الترجمة ، ص ١٩٨ ، حاشية ٢١٠

(١٠٩٩) صلاة مأخوذة من كتاب ابن قدامة ، ترجمته مذكورة (معدلة قليلا) ، ص ٨٦

(١١٠٠) ابن الفقيه ، ١١٢ ، يتحدث عن عيون عديدة ، في حين يقول المقدسي ان عيونها ضعيفة .

(١١٠١) قدامة : ٢١٩ (وحاشية و) .

(١١٠٢) المقدسي : آخر ١٧٤ . المقصود بلا ريب في الواقع جدول واحد أو عدة جداول آتية من العيون ، كثيرة ومقناة : انظر ابن حوقل : ١٧١ ، وبيدكير ، فلسطين وسورية ، مشار اليه ، ٢٢١ .

(١١٠٣) ابن حوقل : ١٨٥ (الاصطخري ، ٤٨) . حذار من الالتباس بينه وبين قناة في العراق (فيما يلي ، ص ١٩٢) .

(١١٠٤)) المقدسي : ١٨٥ (ترجمة ، ص ٢٣١ ، حاشية ٨٩) ، حول منطقة الشراة ، المرجع ذاته ، الفهرس ، اللفظ وما تقدم ، ص ٢٠ (حاشية ٩٦) .

(١١٠٥) المقدسي : ٥٤ ، ١٥٤ (وحاشية د) و ن . اليسيف ، نور الدين ، دمشق ، ج ١ ، ١٩٦٧ ، ص ١٢١ (وادي بطنان) .

(١١٠٦) المقدسي : ١٥١ ، ١٥٤ (ترجمة ص ١٧٧ ، حاشية ١٣٤) ، ١٧١ (ترجمة ، ص ٢٧٣ ، اللفظ) .

(١١٠٧) ابن خرداذبة : ١٧٧ ، ابن سيرابيون : ٤٤ (ب) ، ابن رستة : ٩١ ، ابن حوقل : ١٧٨ (باسم نهر « ابو الحسن قويق) ، المقدسي : ١٥٥ ، وبيديكر ،

فلسطين وسورية ، مشار اليه ، ٤٠٤ . حذار من الا لتباس بين هذا النهر والنهر الذي يحمل الأسم ذاته في خراسان : المقدسي : ٣٣٦ (و ٣٣١ ، حاشية يب) .

(١١٠٨) انظر ما تقدم ، ص ١١٨ و ١٧٣ . بشأن الأنهار الثلاثة والمواضيع المعالجة هنا ، انظر اليعقوبي : ٣٦٢ ، ابن خرداذبة : ٩٩ ، ١٧٦ – ١٧٧ (و ح ا – ب) ابن سيرابيون : ٤٤ (١) ، ابن رسته : ٩١ ، ابن الفقيه : ٦٣ ، ٦٤ ، ٩٥ ، ١١٦ (اسم آخر لبردان : الغضبان : شكس) ، المسعودي (م) ، فقرة ٧٧٥ ، المسعودي (ت) ، ٨٧ – ٨٨ ، ابن حوقل : ١٨٣ (جيحان أهم من سيحان) ، المقدسي : ١٩ ، ٢٢ ، (ح . يز) وترجمة ، ص ٦٣ ، ح ١٠٧ ، و ١١٠

(١١٠٩) المسعودي (ت) ، ذكر من قبل : انظر الفصل الأول ، ص ٣٧

(١١١٠) حول هذه الشبكة المائية ، انظر الخوارزمي (ص) ١٢٥ ، ابن خرداذبه : آخر ٧٩ ، ١٧٧ ، ابن سيرابيون : ٤٤ (ا – ب) ، قدامة : م ٦٥ ، اليعقوبي : ٤٢٤ ، ٣٢٥ ، ٣٢٧ ، ابن رستة : (٩١ ، و ح هـ) ، ابن الفقيه : ٦٤ ، ١١٦ ، ١١٨ ، ١٢٢ ، المسعودي (ت) : ٨٨ ، ١٠٧ – ١٠٨ ، ٢٤٢ ، ابن حوقل : ٢٧ – ٢٨ ، ١٥٣ ، ١٧٠ ، ١٧٣ – ١٧٤ ، ١٨٤ ، المقدسي : ١٩ ، ٢٢ (و ح يز) ، ٢٣ (زبداني : انظر ما تقدم ، ص ١١٩) ، ١٥٦ ، ١٦٠ ، ١٦١ ، ١٦٢ » و ح و ، ترجمة ص ١٨٠ ، ح ١٥٣) ، ١٧٣ ، ١٨٤ ، ١٨٥ ، ١٨٧ ، ١٩٢ ، ٢٦٩ .

(١١١١) انظر بيديكر ، فلسطين وسورية ، مشار اليه ، ٣٨٠ ، أيليسيف ، مشار اليه ، ٢٤٢ .

(١١١٢) بلانشار ، جغرافية عالمية ، ح ٨ ، مشار اليه ، ٢٠٨ و ٢٠٩ (خريطة) و ر . دوسو ، طبوبوغرافية تاريخية لسورية القديمة وفي القرون الوسطى ، باريس ، ١٩٢٧ ، ص ١٩٥ (وحاشية ٥) – ١٩٨ .

(١١١٣) انظر بلا نشار ، مشار اليه ، المسعودي (ت) ٨٨ ، حاشية ٢ ، دوسو مشار اليه ، ٢ (حاشية ٤) ، ١٩٥ ، ٢٢٩ ، ٤٣٨ – ٤٣٩ وخريطة ١٤ ، ايليسيف ، مشار اليه ، ١٩٢ وخريطة (د / ٢) .

(١١١٤) انظر المسعودي (ت) : ١٠٧ ، حاشية ٢ و ٣ ، والمقدسي : ترجمة ، ص ١٧٩ ، ح ١٤٥

(١١١٥) انظر المقدسي : ١٦٢ (وحاشية) و ترجمة ص ١٨٠ ، ح ١٥٣ . أشرنا من قبل الى الشك الذي يكتنف ، ص ١٩٣ ، حوض الأردن ، متى ابتعدنا عن النهر . لم يذكر المقدسي ، ٢٤٨ ، ٢٥١ ، ان نهر الأزرق (داخل وادي الزرقاء السهبي : انظر اطلس التايمز ، ٣٤ ، ج / ٦ – د / ٦ – د / ٧) تابع لشبكة الأردن المائية ، بل جعله مجرى ماء (الوحيد اصلا) في البادية العربية السورية .

(١١١٦) حول هذه المدينة (زغر أيضا) الواقعة في النواحي الجنوبية من البحيرة الميتة ، انظر المقدسي ، ترجمة ، ص ٣٢٨ – ٣٢٩

(١١١٧) المقدسي : آخر ١٨٥ ، مع التصحيح المقترح في الترجمة ، ص ٢٣١ ، حاشية ٩١ (ما تقدم ص ١٧١ ح ١)

(١١١٨) انظر ما تقدم ، ص ١٢٦ (اليعقوبي : ٣٢٨ ، لا يشير الى العلاقة نهر أبي فطرس – الاردن) .

(١١١٩) انظر اليعقوبي : ٣٢٧ ، يتحدث عن بحيرة طبرية « التي يخرج منها نهر الاردن الشهير » ، والمسعودي (ت) ، ١٠٧ ، الذي يعطي صورة صحيحة عن الواقع ، لكن يحتفظ باسم نهر الاردن لمصرف البحيرة ، فيبقى الرافد بلا اسم .

(١١٢٠) انظر أيضاً ابن حوقل على الأرجح ، ١٥٣ ، فهو يجعل نهر الأردن يجري كالنيل من الجنوب الى الشمال

(١١٢١) انظر ما تقدم الفصل ١ ص ١٩ ، ح٢

(١١٢٢) بالنسبة الى بردى وشتى الأماكن التي تحمل اسما غامضا ، انظر المقدسي ، ترجمة ، ص ٦٤ ، حاشية ١١١

(١١٢٣) انظر ر . هارتمان ، « بحر لوط » ، م١(٢) ، ج١ ، ٩٦١

(١١٢٤) ما تقدم ، فصل ١ ، ص ١٩

(١١٢٥) يشير اليعقوبي الى أحد ينابيع حوض الليطاني الأعلى ، ٣٢٥ ، عندما يذكر في كلامه عن بعلبك « عينا عجيبة يخرج منها نهر عظيم » .

(١١٢٦) انظر بلانشار ، مشار اليه ، ٢٠١ ، بيديكر ، فلسطين وسورية ، مشار اليه ، ٣٨٠

(١١٢٧) ابن الفقيه : ١٠٤ (بالنسبة الى نهر أبي فطرس ، المفترض نبعا كلسيا للا ردن : انظر ما تقدم ، ص ١٢٦) ، ١١٦ (انظر ما تقدم ، ص ١٩٣) .

(١١٢٨) انظر ما تقدم ، ص ١١٦ و ١٢٥

(١١٢٩) هنا مجال ذكر تسمية « درجات » التي يشار بها الى هذه المنطقة : انظر ما تقدم فصل ١ ص ١٩ .

(١١٣٠) وضع خاص ، ابرزه المقدسي : ٢٢ (و ح يز)

(١١٣١) انظر ما تقدم ، ص ١٩٢ آخرها (و ح ٥) – ١٩٣ ، في الحديث عن زمزم

(١١٣٢) للجبل أيضاً قيم مقدسة : انظر ما تقدم ، فصل ١ ، ص ٢١

(١١٣٣) باستثناء واحد سوف نتحدث عنه فيما بعد

(١١٣٤) بشأن النظرة الاجمالية الى الشبكة المائية الطبيعية أو المحدثة في العراق وخراسان، انظر لوسترانج ، الخلافة الشرقية : ٢٤ – ٨٥ ، ٢٣٢ – ٢٤٧ وأماكن متفرقة . بالنسبة للمصنفين العرب الآخرين ، نعطي فيما يلي احالات اجمالية ، على ان نعود الى بعضها في الحديث عن نقاط معينة (المعطيات العائدة الى دجلة والفرات الأعليين ، سوف تعطي فيما بعد ، في وصفهما) : الخوارزمي (ص) : ١٢٩ – ١٣٠ ، ١٤٠ ، ابن سيرابيون: ٣٠ (ب) – ٣١ ، (ب) ، ٣٢ (ب) – ٤١ (آ) ، ابن خرداذبة : ٦ – ١٤ ، ٧٤ ، ١٥٤ ، ١٧٢ ، ١٧٤ ، ١٧٦ ، ١٧٨ ، قدامة : ٢٣٢ آخرها – ٢٣٥ ، ٢٣٨ ٢٤٠ – ٢٤١ ، اليعقوبي : ٢٣٤ ، ٢٣٧ – ٢٣٨ – ٢٤٢ – ٢٤٦ ، ٢٤٩ – ٢٥٧ ، ٢٦٠ ، ٢٦٣ – ٢٦٤ ، ٢٦٩ ، ٢٧٢ ، ٢٧٤ آخرها ، ٣٠٩ ، ٣٢٠ – ٣٢٣ ، ابن رستة : ٨٧ ، ٩٠ – ٩١ ، ٩٣ آخرها – ٩٦ ، ١٠٤ ، ١٠٨ ، ١١١ ، ١٥٥ ، ١٨٥ – ١٨٧ ، ابن الفقيه : ٦٣ ، ٦٤ ، ٩٣ ، ٩٥ ، ١١٩ ، ١٢٨ ، ١٤٦ ، ١٦٨ ، ١٧٤ – ١٧٥ ، ١٧٦ ، ١٨٢ ، ١٨٥ ، ١٨٧ ، ١٩٧ ، ١٩٨ ، ٢١٠ ، ٢١٢ ، ٢١٣ ، ٢٢١ ، ٢٢٢ ، ٢٢٦ ، ٢٢٧ ، ٢٢٩ – ٢٣١ ، ٢٣١ ، ٢٣٦ ، ٢٤٢ ، ٢٥٣ ، ٢٩٦ ، المسعودي (م) فقرة ٢٢٩ – ٢٣٥ ، ٢٤٠ ، ٢٤٢ ، المسعودي (ت) : ٢٨ ، ٥٧ ، ٦١ ، ٦٣ – ٦٥ ، ٨٧ ، ٨١ ، ٨٣ ، ٩٢ ، ٩٤ ، ١١٥ ، ابن حوقل (يتوسع بالا صطخري) : ٧ ، ١٨ ، ٣٥ ، ٤٢ ، ٤٦ – ٤٧ ، ٤٩ ، ٢٣١ ، ٢٣٤ – ٢٤٧ ، ٢٤٩ ، ٢٥٣ ، ٢٥٨ ، المقدسي : ١٣ ، ١٩ ، ٢٠ (و ح ط) ، ٢٣ ، ٥٣ ، ١١٣ – ١٢٥ ، ١٢٩ ، ١٣٤ ، ٢٥٨ ، ٣٢٩ (ح و) ، حدود العالم : ٧٤ – ٧٧

(١١٣٥) حول رافد الدجلة هذا ، وحول نظام حبس الماء في هذه المنطقة ، انظر س . هـ . لونغريغ ، م١ (٢) ، ج٢ ، ٣٥٢ – ٣٥٣ . حذار من الخلط بين نهر بين ونهر بين المذكور سابقا (ص ١٩٣) .

(١١٣٦) باستثناء بعض تفرعات النهر الثالث التي تصب مباشرة في دجلة ، دون الاستعانة بقاطول كسرى : انظر ابن سيرابيون : ٣٦ (١) .

(١١٣٧) صرصر ، وكوتي والنيل اسماء مدن أيضا . وتعطي قناتا بان وقريش اسميهما الى قريتين صغيرتين : نهر بان ونهر قريش . حول دجيل ، القديم والحديث ، انظر ابن حوقل آخر ٢٢٨ ، لوسترانج ، الخلافة الشرقية ، ٥١ ، ٦٥ ، ٨٠ ، و ٨٥ ، ر . هارتمان و س . ه . لونغريغ ، « دجلة » في م١ (٢) ، ج٢ ، ٢٥٧ ، ر . هرتمان ، « فرات » في م ا (٢) ، ج٢ ، ٨٦٨ ، عمود ٢

(١١٣٨) انظر ما تقدم ، ص ١٢٧

(١١٣٩) حول معنى العوراء ، انظر لوسترانج ، الخلافة الشرقية ، ٤٤ ، ح١ ، والحاشية ١١٦٢ .

(١١٤٠) حول هذه المدينة ، انظر لوسترانج ، المرجع ذاته ، ٤٧ وأماكن متفرقة ، وكرامرز ، م١ ، ج٣ ، ١٠٣٦ .

(١١٤١) مثال ديالة ، ذكر من قبل ، الشك ذاته بشأن رافد دجلة المسمى الذيب ، الذي يذكره قدامة : آخر ٢٣٢ – ٢٣٣ انظر أيضاً المسعودي (ت) : آخر ٧٩

(١١٤٢) ابن حوقل : آخر ٢٣٦ : « وكأن نخيلها غرست ليوم واحد » الاصطخري : ٥٧ : على صف واحد .

(١١٤٣) هذه الصفة للمشهد العراقي واردة عند الاصطخري بدقة وعند ابن حوقل : مشار اليه ، في الحديث عن البصرة .

(١١٤٤) انظر مثلا المسعودي (ت) : ١١٥ ، ابن حوقل : ٢٤٤ – ٢٤٥ بالنسبة الى التاريخ الاسلامي المسعودي (ت) ، ٤٠٣ ، ٤٢٣ ، ٤٦٧ ، ٤٧١ ، ٤٧٢ ، ٤٧٧ ، ٤٨٧ ، ٤٨٨ ، ٤٩٠ ، ٤٩٧

(١١٤٥) وافدان ، رافدان ، (اسم يطلق احيانا على النهرين – دجلة والفرات)

رائدان (حرفيا : اللذان يذهبان قدما لاعداد الملجأ بما فيه التفتيش عن الماء للقافلة) : المسعودي (ت) ، ٦٥ (مع استشهاد بالفرزدق وبشار) .

(١١٤٦) اليعقوبي : ٢٣٩ - ٢٥٤ . على الرغم من الأعمال المنجزة ، هنا أيضاً ، لا تعطى سامراء الا نطباع بوجود تفرعات كثيفة : المرجع ذاته ، ٢٦٣ - ٢٦٤ .

(١١٤٧) حول معنى لفظ جزيرة ، انظر الفصل الأول ، ص ١٠٠

(١١٤٨) عاصمة خوزستان

(١١٤٩) منطقة في جزيرة العرب ، وراء البحرين . انظر ا . غروهمن م ١ ،ج ٤ ،١٢١٨

(١١٥٠) منطقة في الجزيرة حول الموصل: انظر م . كانار ، م١ (٢) ،ج٢ ، ٣٥٧-٣٥٨

(١١٥١) منطقة في الجزيرة ، على الفرات ، تمتد من سميساط الى العراق : انظر كانار ، المرجع ذاته ، ٣٥٧ .

(١١٥٢) مركز ديار مضر ، على الفرات ، على ١٨٠ كم تقريباً الى شرق جنوب شرق حلب : انظر ا . هونغمان ، م١ ، ج٣ ، ١١٨٥ - ١١٨٧ .

(١١٥٣) منطقة الثغور : انظر ١ . هونغمان ، م١ ، ج٤ ، ٧٧٧

(١١٥٤) التتمة والنهاية (الطرق البرية) : « والمدينة مدرجة أهل الجبل وأصبهان وكور خراسان » المرجع ذاته، ٢٣١ آخرها-٢٣٨. ترجمت في نص اليعقوبي فعلي « ترقى، يحتط » بـ « ينزل ويصعد » ويمكن اداؤها بـ « يقترب منها » (انظر دوزي ، ملحق ١ ، ٥٥٠) ، و « ويوضع لكنني فضلت المحافظة على المعنى الأصلي لأن النص يميز فيما يبدو السفن الصاعدة نحو بغداد عن السفن النازلة منها .

(١١٥٥) اليعقوبي : ٣٣٢ ، ابن رسته : ٩٤ - ٩٥ ، ١٨٥ ، ابن حوقل : ٢٣٥ - ٢٣٦ (انظر م ج ع ، ج٤ ، ٢٦٣ ، لفظ سميرية » .

(١١٥٦) اليعقوبي : ٣٠٩ ، ابن رستة : آخر ٩٤ - ٩٥ ، المسعودي (م) ، فقرة ٢٢٩ ، ٢٣٤ ، ٢٣٥ (و ح١ من الترجمة ، يشار أيضاً الى تغير في دجلة في بغداد) ، المسعودي (ت) ، ٦٣ - ٦٤ ، ٨٠ . انظر ما تقدم ص ١٢١ والخلافة الشرقية للوسترانج : آخر ٢٥ - ٢٨ .

(١١٥٧) الاصطخري : آخر ٥٧ ، ابن حوقل : ٢٣٨

(١١٥٨) في وقت ابكر حسب البلاذري : انظر لوسترانج ، الخلافة الشرقية ، ٢٧

(١١٥٩) قدامة : ٢٤٠ — ٢٤١ ، ابن رستة : ٩٤ ، المسعودي(م)فقرة ٢٣٧ — ٢٣٨ ، المسعودي (ت) مشار اليه م . ستريك وصالح العلي ، م١ (٢) ، ج١ ، ١١٢٦— ١١٣٠

(١١٦٠) انظر وصف البطيحة : اليعقوبي : ٣٢٣ ، ابن رستة : ٩٤ — ٩٥ ، ١٨٥ المسعودي (م) ، فقرة ٢٣٨ ، المقدسي ، ج٤ ، ٧٠ ، ابن حوقل : ٢٣٨ (الاصطخري : ٥٧) ، المقدسي : ٣٤ ، ٤٧ ، ١١٩ ، ١٢٥ ، ١٢٨ ، ١٣٣ . ذكر ابن رستة الزط في نصه : ٩٥ (ترجمة ، ١٠٦) ، في حين نقلهم المعتصم من البطيحة الى الشام الشمالية ، خاصة الى السهول المرزغية عند الارنط الأدنى : انظر م . لومبار ، الاسلام في عظمته الأولى ، باريس ، ١٩٧١ ، ص ١٥٤ آخرها — ١٥٥ ، ١ . بوبوفيك ، ثورة الزنج في العراق في القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي ، ١٩٧٦ ، ص ٥٣ — ٥٤ ، الاصطخري : ٦٥ ، وابن حوقل : ٢٥٧ يتحدثان عن الزط في خوزستان .

(١١٦١) اقيم سكر عند الخيزرانية على دجلة لتمر المياه الى دجلة العوراء فمذار ، فاعورت دجلة ومن هنا جاء اسم العوراء : ابن رستة : ٩٥ . لست متأكدا بهذا الشأن ان لوسترانج (الخلافة الشرقية ، آخر ٢٧ — ٢٨) قرأ جيدا نص ابن رستة . فالسكر المقصود لا يقع عند المذار ، على دجلة السفلى ، بل صعدا بعيدا جدا نحو الأعلى قرب الخيزرانية ، قرب فم الصلح (ابن رستة ، آخر ٩٤) . أما « انقطاع دجلة العوراء قرب المذار (« مذار ، حيث قطع المجرى بسكر ») ، فيبدو انه يعني عند ابن رسته (آخر ٩٤ : هي أي دجلة منقطعة من ثم) ، نظرا لوصفه دجلة صعدا ، النقطة القصوى ، التي يستطيع الماء فيها في مجرى دجلة القديم (الذي عاد مجرى دجلة الحالية) ان يصعد من عند التلاقي عند القرنة بين هذا المجرى القديم وبين المجرى المستعمل في أيام ابن رستة . فليس الانقطاع المقصود الانقطاع الناشيء عن السكر ، بل انقطاع الملاحة فقط في مجرى مهجور صعدا . لذلك يجب فهم تعبير دجلة العوراء ، بمعنى دجلة السفلى على الاجمال ، أي ابتداء من المكان الذي « عورها » سد فم الصلح » : ومن هنا المحافظة على هذا الأسم على طول المجرى الأسفل ، الذي هجر في البدء في فم الصلح في المنطقة الواقعة الى شرق واسط (وهذا ما يثبته المسعودي (م) ، فقرة ٢٣٥ ، وح١ من الترجمة) ، ثم صببا (شط العرب) من المكان الذي تعود فيه دجلة الى استعمال هذا المجرى ، وتدمير سد فم الصلح والانتشار باتجاه الجنوب والبطيحة .

(١١٦٢) المسعودي (ت) ، ٢٨ ، يشير الى ان ريح الجنوب ، الهابة على وادي دجلة الأسفل ، تجعل النهر يضطرب : قارن بما قيل عن مجاري الماء الأخرى ، ص ١٢٢ ، ١٨٣ ، ١٩٥ .

(١١٦٣) ابن رستة : ٩٤ (مع التعبير : تدعى بلاد البحر بلا د السفالية) ، ابن حوقل : ٢٣٧ (الا صطخري ، ٥٧) ، المقدسي : ١٣ ، آخر ١٢٤ — ١٢٥ ، ١٢٩ ، وما تقدم ص ١٣٨ . سنعود الى دراسة المد والجزر في موضوع البحار .

(١١٦٤) المسعودي (م) ، فقرة ٢٤٢ ، ابن حوقل : ٤٦ — ٤٧ (الذي يبدو انه يخلط بين دردورين ، هذا الدودور ودودور آخر ، يقع بعيدا الى الشرق : انظر الاصطخري : ٣٠) ، المقدسي : ١٢

(١١٦٥) ابن حوقل : ٢٣٧ (الا صطخري : ٥٧) : صحيح ان الدردور يقع عند التقاء دجلة وقناة قادمة من الابلة ، الا انه على هذا الأساس واقع في منطقة المد والجزر .

(١١٦٦) انظر المقدسي : ٢٣ (ح ح) ، ١١٨ . حول معنى جزيرة ، انظر ص ١٠٠ . حول عبادان ، انظر ل . لوكهارت ، م١(٢(، ج١ ، ٥

(١١٦٧) حول مجاري الماء في خوزستان ، انظر ابن سيرابيون : ٤٠ (ب) — ٤١ (١)، ٤٧ (١) ، ابن خرداذبة : ١٧٢ ، ١٧٦ ، اليعقوبي : ٢٧٢ (ترجمة ، ص ٧٣ ، ح١) ٢٧٤ آخرها ، ٣٦١ (تصحح الترجمة ، ص ٢٢٨ : ليس جسر المراكب ، بل جسر النهر ، الذي يسمى مسرقان) ، قدامة : ١٩٤ ، ابن الفقيه : ٢٢٧ ، ابن رستة : ٩٠ — ٩١ ، المسعودي (م) فقرة ٢٤٢ ، المسعودي (ت)، ٨٣ ،ابن حوقل يوسع الاصطخر ي) ٤٩ ، ٢٥٢ — ٢٥٣ ، ٢٥٥ ، ٢٥٧ — ٢٥٨ ، ٣٦٥ ، المقدسي : ١٢ (ح يج) ، ١٩ ، ٢٣ ، ١١٨ ، ٤٠٢ ، ٤٠٥ — ٤١٢ ، ٤١٩ ، حدود العالم : ٧٤ — ٧٥ . حول الصفات المشتركة لمياه جميع هذه المنطقة ، انظر بلا نشار جغرافية عالمية ، ج٨ ، مشار اليه ، ٢٢٤ .

(١١٦٨) أو احدى اقنيتها ، لكن ربما النهر ذاته . المقدسي : ٤٠٨ ، ولوسترانج ، الخلافة الشرقية : ٢٤٠ (دجيل عوضا عن دجلة) .

(١١٦٩) ابن سيرابيون : ٤٠ (ب) آخرها — ٤١ (١) ، المقدسي : ٤٠٦ ، ٤١٢ احالا ت اخرى عند لوسترانج ، الخلا فة الشرقية ، ٤٨

(١١٧٠) في الواقع تتحكم مجاري المياه النازلة من جبال زغروس في الشبكة المائية في الجزيرة المنخفضة انظر. بلانشار ، جغرافية عالمية ، ج٨ ، مشار اليه ، ٢٢٢ – ٢٢٤

(١١٧١) حول كارون ، انظر م . تيريك وج . لا سنر ، م١(٢) ، ج٤ ، ١ . ٧ – ٧٠٤ .

(١١٧٢) يرى ابن خراداذبة : ١٧٦ ، وابن رستة : ٩١ سيرابيون : ٤٧(١) ، ان مسرقان لا يصب في الدجيل ، بعد تركه اياه ، بل في البحر : حول هذه التبدلات المختلفة انظر لوسترانج ، الخلافة الشرقية ، آخر ٢٣٧ ، ستريك ولا سنر ، مقال ذكر ، آخر ٧٠١

(١١٧٣) انظر على التوالي للجسور : المقدسي : ٤١٠ ، ٤١٢ (وفيما بعد هنا ايضاً) ، الاصطخري : ٦٢ (ابن حوقل : ٢٥٣) . حول سد تستر ، انظر اشارة الاصطخري مشار اليه ، و ٦٤ (ابن حوقل : ٢٥٢ و ٢٥٥) . حول جسرا لاهواز ويحيرتها ، انظر ما تقدم : ١٥٠ – ١٥١ .

(١١٧٤) ينزل الجغرافيون النهر أيضاً من جبال اصبهان ، في حين تنشأ في جبال زغروس ، في جنوب همذان ، ويتلقى فعلا من جهة الضفة اليسرى رافدين يجلبان له مياه زاغروس الى غرب اصفهان . اليعقوبي : ٣٦١ ، يخلط في نهر واحد الدجيل والمسرقان وهذا النهر : انظر توالي المدن المذكورة و تحديد جسر مراكب طوله ٥٦٣ سفينة في جندي سابور . حول دزفول (مدينة ، نهر وجسر) انظر ل . لوكهارت ، م١(٢) ج٢ ، ٣٥٩ – ٣٦٠ .

(١١٧٥) نذكر ان هندوان اسم مدينة ونهر في فارس أيضاً (انظر لوسترانج ، الخلافة الشرقية ، ٢٧٠ ، ٢٧١ و ح١ من ٢٧٢) واسم جسر الأهواز الشهير خاصة (انظر ما تقدم ، ص ١٥٠) : خلط هنا أيضاً عند اليعقوبي يذكر كتاب حدود العالم ، ٧٥ ، نهر سوسة الذي يستنفد ماؤه بالري بعيداً جداً عن مكان رفده الدحيل صعدا . حول ضريح دانيال ، انظر ما تقدم ص ١٣٩ . حول الكرخة ، انظر شوارز وميكيل ، م (٢) ج٤ ، ٦٨٠

(١١٧٦) انظر لوسترانج ، الخلافة الشرقية ، آخر ٢٣٧ (يدقق الأصطخري : ٦٢ ، ابن حوقل : ٢٥٢) ويذكر المقدسي : ١٢ (ح يجـ) قناة اخرى (أو رافدا) بين حصن مهدي والمصب : انظر ايضاً : حدود العالم : آخر ٧٤ .

(١١٧٧) انظر حدود العالم : ٧٥ (قارن بصتريك و لا سنر ، م١(٢) ، ج٤ ، ٧٠٣ ، عمود ١) . ابن خرداذبة : ١٧٢ ، يقول ان تستر واقعة بين اربعة مجاري مائية : دجيل، مسرقان ، مهروبان ، وباسيان . ويحيل باسيان الى شبكة أقنية تصريف المياه الى شرق دجيل الأسفل : انظر المقدسي : ٤١٢ ، ولوسترانج ، الخلافة الشرقية ، ٢٤٢ — ٢٤٣ ، ٢٤٧ . أما مهروبان ، فيثبت الألتباس بين حوضي دجيل وطاب (انظر بالنسبة الى حوضي هذين النهرين الأسفلين ، المرجع ذاته ، ٢٧٠ ، حاشية ١) : بالفعل مهروبان اسم مرس واقع في منطقة طاب الأسفل (انظر المرجع ذاته ، ٢٧٠ — ٢٧٣ ، ٢٩٤ ، ٢٩٧) . يكرر ابن الفقيه ابن خرداذبة (مع تردد بشأن المدينة أو المدن الواقعة بين الأنهار الأربعة: انظر ابن الفقيه ، ترجمة ، ص ٢٧٥ ، ح٦) وسمي نهري مهروبان وباسيان، باسمين تصعب قراءتهما (انظر ابن خرداذبة : ١٧٢ ح و) : ماهينان (مهيمان) ناروبان (نرويان) : ابن الفقيه : ٢٢٧ (ح يا) ترجمة ص ٢٧٥ .

(١١٧٨) انظر المقدسي : ٤٠٣ ، يقول ان معظم سكان الأهواز هاجروا الى البصرة وفارس ، ثم يورد تأمل أحد سكان هذه المدينة : « الخوز ما كان فوق الأهواز مثل العسكر وجندي سابور والسوس ، وأما نحن فعراقيون » . بالنسبة الى وجود لفظ العراق في اسماء الأماكن ، انظر المرجع ذاته : ٤١١ — ٤١٢ (الجانب العراقي والجانب الفارسي من دجيل أو من تفرعاته) : وفي الأتجاه الآخر ، ص ٤١٣ : « سواد البصرة كلهم عجم » ، والبصرة نموذج لمدينة بيرون الخوزية التي تسمى « البصرة الصغرى » (المرجع ذاته ، وان كان هذا التعبير يمكن ان يعثر عليه في مكان آخر بعيد جداً : انظر بالنسبة الى الشام ، المرجع ذاته ، ص ١٥١ ، ١٧٨) .

(١١٧٩) المسعودي (م) ، فقرة ٢٧٠ ، ابن حوقل : آخر ٤٦ ، ٢٥٧ .

(١١٨٠) الاصطخري : آخر ٦٢ ، ٦٥ ، ابن حوقل : ٢٥٣ ، ٢٥٧ ، المقدسي : ٤١٢ .

(١١٨١) الا صطخري : ٦٣ ، ٦٥ ، ابن حوقل : ٢٥٣ ، ٢٥٧ . حول نواحي الشك لهذا المشهد النهري عبر التاريخ ، انظر ، ستريك ولا سنر ، م (٢) ، ج٤ ، ٧٠٢ ، عمود ٢

(١١٨٢) الا صطخري : ٣١ ، ٦٣ ، ٦٥ ، ابن حوقل : ٤٩ ، ٢٥٣ ، ٢٥٨ ، المقدسي : ٤٠٨ (مع ارحية في السفن ، ٤١٤ آخرها .

(١١٨٣) الا صطخري : ٦٢ ، (ابن حوقل : ٢٥٢) يشير المقدسي الى الجبال عرضا عند حديثة عن المدن الجبلية : ٤١٤ (احداها في وسط الجبال ، ويقع فيا ثلج كثير) . حول تضاريس البلا د ومجاريها المائية، انظر بلا نشار ، جغرافية عالمية، ج ٨، مشار اليه ، ١٤٦

(١١٨٤) يستعمل المقدسي بانتظام هذه التسمية (انظر ياقوت ، معجم البلدان ، ج١ ، ٩٢ : اقور واثور) : ترد اثور ص ٢٠ (ح د) ، و ٢٨ (ح يج) . ثم اختفت اثور بعد استعمال التسمية العامة جزيرة ، الا في حالا ت نادرة ، يبررها الحرص على تقديم عرض نظري (مثال ابن رستة : ١٤ ، كرره المسعودي (ت) ، ٦١ .

(١١٨٥) وودت صراحة على هذا الا ساس عند ابن الفقيه : آخر ٢٦ — ٢٧

(١١٨٦) حول هذه التفرعات ، انظر ابن سيرابيون : ٣١ (آ) ، ٣٢ (ب) ، ٣٣(آ)، ٣٥ (ب) ، ابن خرداذبة : ١٧٥ ، ابن رستة : ٩٠ ، ابن الفقيه : اخر ١٢٩ ، يمزج بوضوح بين ثرثار وهرماس ، أو خابور (خطأ صحح المرجع ذاته ، ص ١٣٥)، ابن حوقل : ٢٢٠ ، يتحدث بالنسبة الى المنطقة ذاتها ، قرب سنجار ، عن وادي الحيل ، الذي يحتمل ان يدخل في شبكة مياه الثرثار ويتكلم قدامة ، ٢١٧ ، عن تفرع ، يدعى خليج ابن جميع ، في المنطقة ذاتها التي تحوي نهر سعيد . بالنسبة الى اقنية أقل أهمية (منطقة الموصل) ، انظر ابن حوقل : آخر ٢١٤ ، ٢١٨ — ٢١٩ (اصطخري ٥٣) . انظر أيضاً بالنسبة الى الموصل مايلي، ص ٢١١ ، ح ٤ .

(١١٨٧) حول دجلة والفرات الأعليين وروافدهما ، انظر الخوارزمي (ص) : ١٢٩ — ١٣٠ ، آخر ١٣٩ — ١٤٠ ، ابن سيرابيون : ٣٠(آ) — ٣٣(آ) ، ٣٥ (آ) — ٣٥ (ب) ، ٤١ (١) — ٤١ (ب) ، ابن خرداذبة : ٧٤ — ٩٦ ، ١٧٤ ، ١٧٥ ، قدامة : ٢١٧ ، ٢٣٢ — ٢٣٣ ، م ٦٦ — ٦٨ . اليعقوبي : ٣٦٢ ، ٣٦٣ ، ابن رستة : ٩٠ ، آخر ٩٣ — ٩٤ ، ١٠٤ ، ١٠٨ ، المسعودي (م) ، فقرة ٢٢٨ ، ٢٣٩ ، ٢٣٩ — ٢٤٠، ٦١ ، ٧٨ — ٨١ ، ٩٥ ، ابن الفقيه : آخر ٢٦ — ٢٧ ، ١١١ ، ١١٤ ، ١٢٨ — ١٢٩ ، ١٣٣ ، ١٣٤ آخرها — ١٣٥ ، ابن حوقل : (يوسع الاصطخري) : ١٨، ١٦٥ ، ١٦٩ ، ١٨٠ ، ١٨١ ، ١٨٧ ، ١٩٦ ، ٢٠٨ — ٢١١ ، آخر ٢١٤ — ٢١٥ ، آخر ٢١٦ — ٢١٧ ، ٢١٩ ، ٢٢٠ ، آخر ٢٢١ — ٢٢٣ ، آخر ٢٢٤ — ٢٢٩ ، ٣٤٠ ، ٣٤٤ ، ٣٤٥ ، ٣٧٠ ، المقدسي : ٢٠ (ح د) ، ١٢٣ ، ١٣٦ — ١٣٨ ، ١٤١ (وح ١) ، ١٤٤ (وح يح و يط و ك) ، ١٤٥ (و ح د) ، حدود العالم : ٧٦ ، ١٤١ .

(١١٨٨)) انظر التقليد الا داري الذي حفظه ابن خرداذبة : ٧٤ (عمل الفرات ، مع كور الخابور) ، ٩٤ — ٩٥ (عمل الموصل و كور ديار ربيعة) .

(١١٨٩) حول حدود ارمينية ، انظر م . كانار ، م١(٢) ، ج١ ، ٦٥٥ . احالا ت الى ارمينية ، بالنسبة الى دجلة والخابور ، عند المسعودي (م) فقرة ٢٣٩ ،وابن حوقل : ٣٤٤ ، بالنسبة الى الزابين ، نازلة على وجه الدقة من كردستان ، عند ابن حوقل : ٢٢٨ (اذربيجان وارمينية) ، ٣٧٠ وحدود العالم : ٧٦ . أما المقدسي ، فيجمع كل هذه المرتفعات ، بما فيها اذربيجان ، تحت تسمية الرحاب العامة . ويتحدث ابن رستة ، ٩٠ ، عن ارمينية وعن منابع الزابين فيها وحتى عن منابع النهروان (ما تقدم ، ص ١٩٩) .

(١١٩٠) يعين مصنفان دون سواهما بوضوح منابع النهرين في الأراضي البيزنطية ، هما ابن حوقل : ٢٠٨ ، ٢٠٩ والمقدسي : ٢٠

(١١٩١) قارن ابن رسته : آخر ٣٣ ، بقدامة : ٢٣٣ وبالمقدسي : ٢٠

(١١٩٢) ابن حوقل : ٢٢٦ (يتوسع بالا صطخري : ٥٤) . قارن بالهروي ، كتاب الاشارات الى معرفة الزيارات ، ترجمة مذكورة ، ص ١٣٨ — ١٤٠

(١١٩٣) المقدسي : ٢٠ ، ١٤٤ ، ١٤٦ ، انظر أيضاً الفصل الأول ، ص ١١١

(١١٩٤) حول هذه المدن ، انظر ابن حوقل ، ٢١٩ — ٢٢٠ ، ٢٢٢ آخرها ، ٢٢٥ ، ٢٢٨ .

(١١٩٥) انظر مثلا ابن خورداذبة : ٩٧ ، ٩٩ — ١٠٣ ، قدامة : ٢١٦ ، ٢٥٢ — ٢٥٥

(١١٩٦) من أجل نظرة اجمالية ، انظر لوسترانج ، الخلافة الشرقية، ١١٠ — ١١٤ (يصحح ص ١١٣ ، س ٥ ، ليصبح دجلة بدلا من الفرات) وأماكن متفرقة . ر . هارتمان و س . هـ . لونغريغ ، م١ (٢) ، ج٢ ، ٢٥٦ ، ٢٥٧ — ٢٥٧ .

(١١٩٧) ذئب أو ديب ، انظر المقدسي : ١٤٤ (يح) . ياقوت ، معجم البلدان ، ج٥ ، ٣٢٣ . حذار من الخلط بينه وبين رافد الفرات الذي يحمل الأسم ذاته ، ولا بين قناة اسمها قريب : الزيب ، في منطقة سامراء : انظر حاشية ١١٤١ .

(١١٩٨) المقدسي : ١٤٤ آخرها (و ح يط) .

(١١٩٩) او ساتيدماد ، يسمى نهر المصوليات عند المقدسي : آخر ١٤٤ (و ح ك) . حول التباس مع باسانيا انظر فيما يلي الحديث عن هذا النهر .

(١٢٠٠) حول هذا النهر ، المشكوك باسمه ، انظر المسعودي (ت) : ٨٠ ، المقدسي : ١٤١ (و ح آ كتبت د خطأ) ، ١٤٥ (و ح د) ، ياقوت ، معجم البلدان ، ج٣ ، ٤٢ ، ١٣٨ . اظن انه ينبغي ان نفكر في هذا النهر لقراءة ابن سيرابيون : ٣٥ (أ) و ح ب ، التي تحيل بلا تدقيق الى مقطع من لوسترانج لم اتعرف عليه) : فافس (التي قراءها الناشر هـ . فون مزيك ، قراءها سابقا فقس عند ابن الخوارزمي (ص) : ١٣٠ ، ولها الا حداثيات ذاتها) أي بلا شك فافان ، الواقعة قرب مرفد بهتن ودجلة .

(١٢٠١) دي خويه (المدسي : ١٤٤ ، حاشية ك) يجعل هذه النهر ساتيدما . الا ان الا سمين مختلفان عند ابن سيرابيون : ٣٥ (آ . ب)، وخاصة تحديد موقع باسانفا الذي لا ينطبق مع موقع ساتيدما ، لأن النهر الأول يصب في دجلة في الضفة اليسرى ، على خمسة فراسخ (أقل من ٣٠ كم) من جزيرة ابن عمرو صعدا (ابن سيرابيون ، مشار اليه) . مع ذلك لا بد من التحفظ بعض الشيء حول معطيات ابن سيرابيون (اذ يقال ان باسانفا ينشأ الى شمال شرق آمد، في منطقة ميافارقين وهي مدينة تابعة في الواقع الى حوض ساتيدما، مما يمكن ان يعلل خطأ دي خويه) . . ويبدو اذا اكتفينا بالمعلومات العائدة الى المرفد ذاته وحده ، ان باسنفا هي النهر المسمى في مكان آخر باعيناثا : انظر لوسترانج، الخلافة الشرقية ، ٩٤ ، هرتمان ولونغريغ، مشار اليه ، (يجعل خطاء باسانفا سفان : انظر مايلي عن هذا النهر) .

(١٢٠٢) المسعودي (م) ، فقرة ٢٣٩ ، (ت) ، ٨٠ ، حول جبل باسورين المسمى في هذا البحث ، انظر الفصل الأول ، ص ١ ، ح٤ . هذا النهر والنهر السابق مصوران على اطلس التايمز ، ٣٧ ، ز / ٨ ، وينشآن على جانبي مدينة سرنك

(١٢٠٣) المسعودي (م) فقرة ٢٣٩ ، (ت) : ٨٠ — ٨١ ، يقرنه بدقة بالسابق ، مما يسمح فيما يبدو ، بتدقيق دوشا مثلما نقترح .

(١٢٠٤) تحيل المعلومات المعطاة عند المسعودي (ت) ، ٨١ ، والمقدسي : ٢٠ (ح د) (انظر أيضاً ياقوت ، معجم البلدان ، ج٣ ، ٢٢٤) بوضوح كبير الى هذه المنطقة . حول جبل الشيطان ومنطقته ، الواردين عند المسعودي ، انظر الفصل الأول ، ص ١٧ ، ح٢ ، وياقوت ، مشار اليه ، ج٢ ، ٥١٨ ، وج ٥ ، ص ٣٤٤ — ٣٤٥ . قدم لي هارتمان ولونغريغ تحديد النهر مع وادي المر (وان كانا من ناحية اخرى ، يخلطان بين سفان وباسانفا) .

(١٢٠٥) المقدسي : ١٣٨ — ١٣٩ ، لوسترانج ، الخلافة الشرقية ، ٨٨ ، أ . هونغمان ، موصل « في م١ ، ج٣ ، ٦٥١ (نهر زبيدة قناة فيما يظن) ، ايليسيف نور نور الدين ، مشار اليه ، ج١ ، ١٠٤ .

(١٢٠٦) المسعودي (ت) : ٧٩ ، ابن حوقل : ٢٢٥ ، ٢٢٨

(١٢٠٧) من أجل نظرة شاملة ، انظر جغرافية دار الاسلام ، ج٢ ، ٤٠٩ — ٤١٠ ، لوسترانج ، الخلافة الشرقية ، ١١٥ ، وما يليها ، و ر . هارتمان ، م١ ، ج٢ ، ١٢٥— ١٢٦ (اعيد في م١(٢) ، ج٢ ، ٩٦٧ — ٩٦٨) .

(١٢٠٨) المسعودي (م) فقرة ٢٢٨ يخرجه منها فيما يبدو ، ابن سيرابيون : ٣١ (ب) يحدد التقاء الفراتين بعد رفد انجا صعدا : والعكس هو الصحيح .

(١٢٠٩) يخلط أحيانا بينها وبين سميساط ، ويصحح ياقوت الخطأ (لوسترانج الخلافة الشرقية ، آخر ١١٦ — ١١٧) . حول هذه المدينة ، انظر فاسيليف وكانار ، بيزنطية والعرب ، ج٢ : السلالة المقدونية ، مشار اليه سابقا ، ٤٦ (ح١) وأماكن متفرقة .

(١٢١٠) حذار من الخلط بينه وبين الذيب رافد دجلة (انظر ما سبق) .

(١٢١١) حول شبكة ماء قباقب — قراقيس — زرنوق — قناة ملطية ، انظر المعطيات الدقيقة عند ابن سيرابيون : ٣٣ (آ) و ٤١ (ب) . ويذكر ابن سيرابيون ، ٣٣ (آ) رافدا ثالثا هاما لقباقب ، هو الحوريث أو الجوريث) : والواقع انه رافد لجيحان (انظر لوسترانج ، الخلافة الشرقية ، ١٢٢) .

(١٢١٢) موقع هذا النهر غلط عند ابن سيرابيون ، ٣١ (ب) الذي يبدو انه يجعله أول رافد للفرات من جهة المنبع .

(١٢١٣) انظر المسعودي (ت) : ٩٥ ، ابن الفقيه : آخر ٥٠ ، ١٠٦ ، ٢٥٥، ابن حوقل : ١٨١ ، المقدسي : ١٤٧ ، لوسترانج : الخلافة الشرقية ، ١٢٣ — ١٢٤ (و ح١) .

(١٢١٤) ابن الفقيه : ١٧٥ ، ياقوت ، ج٤ ، ٤٩٧ ، ايليسيف ، نور الدين ، مشار اليه (كيسوم أو كيسون) ، ج١ ، ١٦٢ ، ١٦٤ ، وخريطة ١ / د

(١٢١٥) لا بد من ربط نهر ديصان بحوض البليخ ، ويسميه ابن الفقيه : ١٧٥ ، وهو نهر من الأنهار التي تشكل رافد الفرات هذا : انظر ايليسيف ، مشار اليه ، ١٥٣ — ١٤٤ .

(١٢١٦) انظر اليعقوبي : ٣٦٢ ، ابن حوقل : ٢١١ ، و ٢٢٢ (مع الأسف لمصائب الزمن) . حذار من الخلط بين هذا الخابور وخابور دجلة ، الذي تحدثنا عنه من قبل . أما الثرثار الداخل في الشبكة المائية ذاتها ، انظر ما سبق . وقد اشرنا الى بلد منابع الخابور والهرماس في الفصل ١ ، ١١١ وفي هذا الفصل ، ص ١٢٥ آخرها — ١٢٦

(١٢١٧) يذكر ابن سيرابيون ، ٣٢ (ب) مجرى ماء يجلب الى الفرات ، بعد هيت صببا (على ١٤٠ كم تقريبا الى غرب شمال غرب بغداد (عبر البادية الشامية العراقية ، مياه منطقة عين التمر (وهي على ١٣٠ كم تقريبا الى غرب كربلاء : انظر صالح ا . العلي م١ (٢) ، ج١ ، ٨١٢) : والواقع لا يوجد هنا سوى الأودية ، التي استخدمت اسرتها بلا ريب اثناء شق الأقنية : انظر ر. هارتمان ، الفرات ، م١ (٢) ، ج٢ ، ٩٦٨ ، عمود ٢

(١٢١٨) بالنسبة الى مجاري المياه التي سوف تبحث ، انظر الخوارزمي (ص) : ١٤١ ، ابن سيرابيون : ٤٦ (ب) — ٤٧ (آ) ، ابن خرداذبة : ١٧٤ ، ١٧٥ ، اليعقوبي : ٣٦٣ — ٣٦٤ ، ابن رستة : ٨٩ ، ابن الفقيه : ٢٩٣ — ٢٩٦ — ٢٩٧ ، المسعودي(م) ، فقرة ٥٠٦ ، (ت) ، ٩٣ — ٩٥ ، الاصطخري : ١١١ ، ابن حوقل : ٧ ، ١٣ ، ٢٢٠ ، ٣٣٨ ، ٣٤٠ ، ٣٤٥ ، ٣٤٧ ، ٣٤٩ ، ٣٥٠ ، ٣٨٨ ، المقدسي : ١٩ ، ٢٣ ، ٣٦٢ ، ٣٧٣ ، ٣٧٤ ، ٣٧٥ ، ٣٧٩ (وح يز) ، ٣٨٠ ، ٣٨١ ، حدود العالم : ٧٧ ، ١٤٤ ، لوسترانج ، الخلافة الشرقية ، ١٦٦ ، ١٦٨ ، ١٧٦ — ١٨١ واماكن متفرقة .

(١٢١٩) لعله فوروتان أو اكيرا ، في الضفة اليسرى ، نظرا لموقع بلد الران ، من اسم الرافد (نهر اران) و المعلومات الواردة عند ابن خرداذبة : ١٧٤ (كرره ابن رستة ، ٨٩ ، الذي يشير الى روافد اخرى بلا اسماء) .

(١٢٢٠) هذا التحديد الخاطىء للتبعية الأرمنية (انظر الحاشية ١١٨٩ ، تعوضت الى الشرق ، حيث تعد جبال اذربيجان احيانا تابعة لارمينية : انظر حدود العالم بشأن منابع سفيذ روذ الذي سنتحدث عنه فيما بعد .

(١٢٢١) حول بلد دربند ، انظر جغرافية دار الاسلام ، ج٢ ، ٢٦٢ — ٢٦٤ . يبدو ان سمور وسفيذ روذ نهر واحد : المسعودي (ت) : آخر ٩٤ — ٩٥ الذي يقول ان المصب يقع قرب دربند ، ويجعل الجسر (انظر بشأنه لوسترانج ، الخلافة الشرقية ، آخر ١٨٠) قنطرة (وهو جسر سفن عند ابن حوقل والمقدسي) يشبه جسر سنجه .

(١٢٢٢) القرآن : ١٨ : ٥٩ / ٦٠ — ٦٠ / ٦١ ، ابن خرداذبة : ١٧٤ آخرها — ١٧٥ ، ابن الفقيه : ٢٨٧ ، المقدسي : ٤٦ (تقليد آخر يفضل الشام ، المرجع ذاته : ١٩) ، لوسترانج ، الخلافة الشرقية : ١٧٩ .

(١٢٢٣) ما تقدم الفصل الأول ، ص ٥٤

(١٢٢٤) القرآن : ٢٥ : ٤٠ / ٣٨ ، ٥٠ : ١٢ ، ابن حوقل : ٣٤٥ ، المقدسي : ٣٨٠ . يقارن هذه المعطيات بموضوع جحيمي ، منسوب بغرابة الى الكر (ما تقدم ١١٩ وحاشية ٦٦١) ويتحدث اليعقوبي عن ٣٠٠ مدينة : ٣٦٤

(١٢٢٥) حول هذه المجاري المائية، انظر ابن خرداذبة : ١٧٥ ، ابن سيرابيون : ٤٦ (ب) ، ليعقوبي : ٢٧١ ، ٢٧٦ ، ٢٧٧ ، ابن رستة : ٨٩ — ٩٠ المسعودي (م) فقرة ٥٠٧ ، (ت) : ٩٣ ، الاصطخري : ١١١ ، ١٢٢ ، ابن حوقل : ٣٤٥ ، ٣٥١ ، ٣٧٨ آخرها — ٣٧٩ — ٣٨٢ ، المقدسي : ١٩ ، ٢٣ ، ٣٥٨ ، ٣٦٧، حدود العالم : ٧٧ (و ٢١٨) .

(١٢٢٦) الفارسية سبيد

(١٢٢٧) حول هذا النهر ، انظر جغرافية دار الاسلام ، ج٢ ، ٢١٩

(١٢٢٨) قاله الاصطخري : ١١١ (ابن حوقل : ٣٤٥) صراحة بالنسبة الى سفيد — روذ ، وهو اشهر الأنهار مع طيفوري ، وهذا الأخير يظهر وحده في العرض العام لا نهار العالم الكبرى، عند المقدسي : ١٩ ، لكنه لم يصنف في عداد فئة اعظم اثنى عشر نهرا صالحاً للملاحة .

(١٢٢٩) حول هذه التبدلات ، انظر الاصطخري : ١٢٢ ، وابن حوقل : آخر ٣٧٨ (والطبعة الأولى من م ج ع ، ج٤ ، فهرس اللفظ ، ولوسترانج ، الخلافة الشرقية : ٢١٥) ويعطي اليعقوبي اسم نهر موسى لنهر الري الكبير .

(١٢٣٠) المقدسي : ٢٣ : يخرج نهر الري من عين فوارة ، حرفيا فيض ماء .

(١٢٣١) حول شبكة مياه زغروس على سفحيه ، انظر ابن خرداذبة : آخر ٢٠ ، ١٧٦ ، اليعقوبي : ٢٧٤ ، ابن سيرابيون : ٤٧ (آ) ، ابن رستة : ٩١ ، قدامة : م ٦٥ ، الاصطخري : ٦٢ ، ٦٨ ، ابن حوقل : ٢٤٩ ، ٢٦٢ (خريطة) ، ٢٦٥ ، ٢٧٥ — ٢٧٦ (لوحة مفصلة لمجاري المياه في فارس) ، ٣٦١ ، ٣٦٥ — ٣٦٦ ، ٣٧٠ ،

المقدسي ١٩ ، ٢٠ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ٣٩٠ ، ٣٩٦ ، ٤٢٥ ، ٤٤٤ – ٤٤٦ ، ٤٥٣ ، ٤٥٥ ، ٤٥٦ ، ٤٩٥ آخرها حدود العالم : ٧٤ (و ٢١٢ – ٢١٤) . . انظر مينورسكي ، « منه » في م١ ، ج٣ ، ٢٥٢ – ٢٥٤ ، شوارز ، فارس ج١ ، آخر ٤ – ٩ وأماكن متفرقة ، لوسترانج ، الخلافة الشرقية ، ٢٥٢ – ٢٥٣ ، ٢٥٥ ، ٢٥٩ ، ٢٦٣ – ٢٦٧ – ٢٧١ ، ٢٧٦ – ٢٧٩ وأماكن متفرقة .

(١٢٣٢) صفة مرت ص ١٢٦

(١٢٣٣) انظر الملاحظة الاجمالية ، الخاصة بهذه المجاري المائية في فارس ، لمينورسكي ، في حدود العالم : ٢١٢ .

(١٢٣٤) حول كرمان ونهرها ، اللذين يمددان باتجاه الشرق شبكة المياه في زغروس دون ان تحسنه حقا ، انظر الاصطخري : ٩٨ – ٩٩ ، ابن حوقل : ٣١١ (والترجمة ، ص ٣٠٦ ، ح ٤٤٧ ، مع اسمي د ي و ى – روذ وهري – روذ ، وحذار من خلط هذا الأخير مع نهر هرات) ، المقدسي : ٤٧٠ ، حدود العالم : ٧٣ – ٧٤ (الذي يقول ان النهر أو ما يتبقى منه يصب في البحر قرب هرمز : التباس مع حوض دزدان .

(١٢٣٥) حول مهران وروافده ، انظر الخوارزمي (ص) : ١٣١ – ١٣٣ ، ابن سيرابيون : ٤٧ (آ) – ٤٨ (ب) ، قدامة : م ٦٦ – ٦٧ ، اليعقوبي : ٣٣٦ ، ابن الفقيه : ٦١ ، ٦٣ ، ابن رستة : ٨٩ ، ١٣٥ ، المسعودي (م) ، فقرة ٢١٥ ، ٢١٧ ، ٢١٨ ، ٢٢٥ ، ٢٨٧ (ت) : ٨١ – ٨٣ ، الاصطخري : ١٠٤ – ١٠٥ ، ١٠٧ ، ابن حوقل : ٣١٩ ، ٣٢٠ ، ٣٢٢ – ٣٢٤ ، ٣٢٧ ، ٣٢٨ ، ٤٤٩ ، المقدسي : ١٩ ، ٢٢ – ٢٣ ، ٢٠٦ ، ٤٧٤ ، ٤٧٩ ، ٤٨٠ ، ٤٨٢ – ٤٨٤ ، حدود العالم : ٧٢ (و ٢٠٩ – ٢١٠) ، وصيف شاه : ٤٣ – ٤٤

(١٢٣٦) عند ابن حوقل : ٤٤٩

(١٢٣٧) مع بيت الذهب ، وهو الأسم المعطي للمتان : المسعودي (م) ، فقرة ٢١٧ ، الاصطخري : ١٠٤ ، ابن حوقل : ٣٢٢

(١٢٣٨) يضاف الى هذه الشكوك ، ابن حوقل ٣٢٨ ، الذي يتحدث عن نهر الجندرور (مدينة قريبة من الملتان : المرجع ذاته ، ٣٢٢) الذي يصب في مهران « الى نواحي المنصورة » أي على مجرى النهر الأسفل حيث لا يوجد في الحقيقة أي رافد . وفي الأصل ،

يبدو ان سند – روذ ابن حوقل يقابل لا سند روذ حدود العالم ، بل مجمل شبكة شنب ستلج المائية .

(١٢٣٩) حول اختلا ف املا اسم هلمند ،انظر ص ١٣٣ . حول هذه الأنهار وتفرعاتها ، انظر اليعقوبي : ٢٨١ (تصحح ترجمة وايت ، ص ٩٠ : لا يشكل هلمند الحدود مع مكران ، بل سجستان . ولم يقل بأن هلمند لا يجتاز المفاوز . وهو يمر بها بلا شك ، لكن قبل ان يصل الى سجستان أو الى المنطقة المقصودة : أي سناروذ وزالق : وحول تحديد موقع زالق ، انظرلوسترانج ، الخلا فة الشرقية ، ٣٣٥ ، ٣٤٤) ، ٢٨٩ (مع تحديد نهر يدخل في الشبكة المائية ذاتها ، وهو نهرقندهار ، الترنك : الترجمة ، ص ١٠٣ حاشية ٥) ابن رستة : ١٧٤ ، ابن الفقيه : ٢٠٨ المسعودي (م) ، فقرة ٥١٠ – ٥١١ ، (ت) ، ٨٣ ، الاصطخري : ١٤٠ – ١٤١ ، ابن حوقل : ٤١٧ – ٤١٨ ، ٤٢٠ ، ٤٢٢ ، المقدسي : ١٩ ، ٢٣ ، ٣٠٤ ، ٣٢٩ – ٣٣٠ ، حدود العالم : ٧٣ ، ولوسترانج ، مشار اليه ، ٣٣٨ وما يليها (الذي يذكر ، بحق ، ص ٣٤٠ آخرها – ٣٤١ ، نهرا آخر هاروذ ، رافد بحيرة زره ، ولم يشير اليه باقي الجغرافيين) .

(١٢٤٠) اوضحهم المقدسي : ٢٣ . انظر أيضاً ابن رستة : ١٧٣

(١٢٤١) اللغة الفارسية : ده (عشرة) واس (رحى) . حول شبكة المياه على السفح الشمالي للكتلة الأفغانية ، انظر الا صطخري : ١٠٥ – ١٠٦ ، ١٥٦ ، وابن حوقل : ٤٤٨ ، ٤٥٠ ، المقدسي : ١٩ .٢٣ ، ٣٠١ ، ٣٠٢ (و ح د) حدود العالم : ٧٣

(١٢٤٢) القندس (قديماً ختلا ب) يظهر بشكل نهرين من حوضه الأعلى ، هما كاسان وأندراب. الا صطخري : ١٥٦ ، ابن حوقل : ٤٤٨) . الألتباس بين الشبكتين المائيتين ناشيء عن كون منطقة بانيان التي تقع في حوض قندس (انظر و . بارتولد ف . ر . الشين ، م١ (٢) ، ج١ ، ١٠٤٠) ، منسوبة عند بعض الجغرافيين الى حوض دهاس (انظر الاصطخري : ١٥٥ ، وابن حوقل : ٤٥٠ ، اللذين يقولا ن ان النهر يمر في باميان ويذهب الى غرجستان ، أي الى الغرب) . ويدرك بصورة أفضل الفصل بين هذه السفوح الشمالية وبين حوض جيحون الأعلى (انظر ما تقدم عن نهري كابول وبنجهير) حول هذه المناطق ، انظر اطلس التيمز ، ٣١

(١٢٤٣) حوله ، انظر اليعقوبي : ٢٨٩ ، ابن رستة : ١٧٣ ، الا صطخري : ١٤٨ – ١٤٩ (صعدا ، احالة الى منطقة باميان : انظر الحاشية السابقة : كرره ابن حوقل ؛

٤٣٥) ، ابن حوقل : ٤٣٥ — ٤٤٦ ، آخر ٤٤١ ، ٤٤٤ ، ٤٥٦ ، المقدسي : ١٩ ، ٢٣ ، ٢٩٨ ، ٣٠٩ ، ٣١١ ، ٣١٢ ، ٣١٤ ، ٣٣٠ — ٣٣١ ، حدود العالم : ٧٣ ، لوسترانج ، الخلافة الشرقية : ٣٩٧ وما يليها ، الاصطخري : ١٤٨ (ابن حوقل ٤٣٥) يقول ان اسم مرغاب ربما كان مشتقا من مرو اب : ماء مرو

(١٢٤٤) انظر ما تقدم ، ص ١٤٠ — ١٤١

(١٢٤٥) حول مياه منطقة هرات — سرخس ، انظر ابن رستة : ١٧٣ ، الاصطخري : ١٥٠ — ١٥١ ، ابن حوقل : ٤٣٨ — ٤٣٩ ، ٤٤٠ ، ٤٤٥ ، المقدسي : ١٩ ، ٢٣ ، ٣٢٩ — ٣٣٠ ، ٣٣١ (ح يب) حدود العالم : ٧٣ .

(١٢٤٦) انظر الاصطخري : ١٥٤ ، ابن حوقل : ٤٤٥ ، المقدسي : ٣٣١ (ح يب)، ٣٣٦

(١٢٤٧) انظر الاصطخري : ١٤٦ ، ابن حوقل : ٤٣٣ ، المقدسي : ٣٢٩ (و،ح ق)، ولوسترانج ، الخلافة الشرقية ، ٣٨٤

(١٢٤٨) يقال لنا ان حجم الماء الاجمالي في هذه المنطقة ، حسب مرجع يذكره المقدسي ، يزيد عن حجم ماء دجلة ، مع شيء من المبالغة .

(١٢٤٩) انظر الاصطخري : ١٥٤ — ١٥٥ ، ابن حوقل : ٤٤٦ — ٤٤٧

(١٢٥٠) انظر مثلا ابحاث برتولد ، التركستان ، ٦٤ وما يليها ، ٨٢ وما يليها ، ١٤٤ وما يليها ، لو سترانج ، الخلافة الشرقية ، ٤٨٥ وما يليها ، ٤٦٦ ، ٤٧٠ ، ٤٧٦ وما يليها ، مينورسكي ، في حدود العالم : ٢٠٨ — ٢٠٩ (٦ — ١٢ ، ٢١٠ — ٢١١ (١٧ — ٢٣) ، سبولر « اموداريا » في م١(٢) ، ج١ ، ٤٦٧

(١٢٥١) حتى في نظر المتعاطفين الشيعة ، مثل ابن حوقل أو مقدسي : انظر جغرافية دار الاسلام ، ج١ ، ٣٠٢ حاشية ١) ، ٣١٧ — ٣١٩

(١٢٥٢) في العنوان « نهر » في المفردات (م ج ع ، ج٤ ، ١٣٧ — ١٤٣) ، احصيت. ٢٣٠ اسما (يدخل بعضها في بلدان خارجة عن دار الاسلام) ، منها ٧٠ للبلدان التي تهمنا هنا .

(١٢٥٣) أحيانا أيضاً نهر بلخ ، رغم ان هذه المدينة لا تقع على النهر بالذات ؛ انظر ما تقدم ، ص ١٣٣ (وحاشية ٤) و ٢١٩

(١٢٥٤) الفارسية : زرفشان : موزع ذهب ، بوليميتس في العصور القديمة : انظر بسنيه ، مفردات ، مشار اليه ، ٦١٦ .

(١٢٥٥) حول النهر وروفده ، انظر الخوارزمي (ص) : ١٤٦ ، ابن سيرابيون : ٤٤ (ب) – ٤٥(آ) ، ابن خرداذبة : ٢٧ ، قدامة : ٢٠٤ ، ٢٠٧ ، ٢٠٨ (و م ٦٩) ، المسعودي (م) ، فقرة ٢٢٣ ، (ت) ، ٩٧ ، ٩٩ ، ٢٤٥ ، المقدسي : ج ٤ ، ٥٦ ، الا صطخري : ١٨٥ – ١٨٧ (والحواشي) ، ابن حوقل : ٤٨١ ، ٥٠٧ ، ٥٠٩ ، ٥١١ – ٥١٣ ، ٥١٦ ، ٥٢٢ – ٥٢٤ ، المقدسي : ١٩ ، ٢٢ ، ٢٢٣ ، ٣٣٢ ، ٣٤٢ ، حدود العالم : ٧٢ – ٧٣ و (٢١٠ – ٢١١) .

(١٢٥٦) يسمى ترك عند المسعودي (ت) وابن حوقل (الطبعة الأولى) . والاصطخري .

(١٢٥٧) انظر الا صطخري : ١٨٢ ، ابن حوقل : ٥٠١ – ٥٠٢ ، المقدسي : ٢٨٢ ، ولوسترانج ، الخلافة الشرقية : ٤٦٠ – ٤٦٩

(١٢٥٨) محورو الثياب ومبيوضوها

(١٢٥٩) حول هذا الأسم ، انظر ما تقدم ، ص ٢٢١ ، حاشية ٤ . حول زرفشان وحوضه ، انظر اليعقوبي : ٢٩٣ (الذي يسمي النهر نامق ويجريه باتجاه معاكس) – ٢٩٤ ، الا صطخري : ١٧٨ – ١٨١ ، ابن حوقل : ٤٧٣ ، ٤٨٣ – ٤٨٧ ، ٤٩١– ٤٩٣ ، ٤٩٥ – ٥٠١ ، ٥٠٤ – ٥٠٦ ، المقدسي : ١٩ ، ٢٦٦ ، ٢٦٩ (وح و) ، ٢٧٨ – ٢٧٩ ، ٢٨١ ، ٣٣١ – ٣٣٢ (وح ز) ، حدود العالم : ٧٣ (و ٢١١) ، ولو سترانج، الخلافة الشرقية : ٤٦٠ ، ٤٦٦ ، ٤٦٨

(١٢٦٠) حول هذه الا شارات الى الصغد ، انظر الفصل الأول ، ص ٥٥ – ٥٦ و ٨٨ – ٩١ ، حول الماء القذر ، الفصل الثاني ، ص ١٦٥

(١٢٦١) حول نهر دنبة وروافده ، انظر الخوارزمي (ص) : ١٤٥ – ١٤٦ ، ابن سيرابيون : ٤٤ (ب) – ٤٥(آ) ، ابن خرداذبة : ٢٥ ، ٣٣ ، ١٦٩ ، ١٧٣ ، ١٧٤ ، ١٧٨ ، ١٧٩ ، قدامة : ٢٠٢ ، ٢١١ ، ٢١٢ ، م ٦٩ – ٧٠ ، اليعقوبي : ٢٧٨ ، ٢٨٠ ، ٢٨٩ – ٢٩٢ ، ابن رستة : ٩١ – ٩٣ ، ١٤٢ ، ١٩٣ ، ابن الفقيه : ٦٣ ، ٩٥ ، ١٠٤ ، ١١٦ ، ١٩٧ ، ٢١١ ، ٢٧٤ ، ٣١٤ ، ٣٢١ ، ٣٢٤ ، ٣٢٤ ، ٣٢٥ ، المقدسي ، ج٤ ، ٥٦ المسعودي (م) ، فقرة ٢٢٣ ، ٢٢٥ ، ٢٢٦ ، (ت) : ٥٢ ، ٥٦ ، ٩٥ – ٩٨ ، ٢٤٥ ، ٢٤٩ ، الا صطخري : ١٦٦ – ١٦٧ ،

ابن حوقل : ٧ ، ٣٥ ، ١٦٩ ، ٣٢٨ ، ٤٢٦ ، ٤٤٨ – ٤٤٩ ، ٤٥١ – ٤٥٥ ، ٤٥٩ ، ٤٧٤ – ٤٨٢ ، آخر ٤٨٩ – ٤٩٠ ، ٥٠٢ ، ٥٠٦ ، ٥١١ ، ٥١٢ ، ٥١٥ – ٥٢٠ ، المقدسي : ١٩ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٦٣ – ٦٤ ، ٢٥٨ ، ٢٦٠ ، ٢٨١ ، ٢٨٣ – ٢٨٥ ، ٢٨٧ – ٢٩٣ ، ٢٩٥ ، ٣٠٣ ، ٣٢٣ ، ٣٤٠ ، ٣٤٣ ، ٣٤٤ ، ٣٤٥ (ح ب) ، ٣٤٨ ، ٤٨٢ ، حدود العالم : ٧١ – ٧٢ (و ٢٠٨ – ٢٠٩) ، سبولر ، م١(٢) ، ج١ ، ٤٦٧ – ٤٧٠ ، بارتولد ، تركستان ، ٦٤ وما يليها ، لوسترانج ، الخلافة الشرقية : ٤٢٧ – ٤٢٨ ، ٤٣٣ وما يليها ، ٤٤٦ وما يليها .

(١٢٦٢) انظر ابن خرداذبة : ١٧٤ ، ابن الفقيه : ٣٢٤ ، المسعودي (م) فقرة ٢٢٥ ، (ت) : ٢٤٩ وما تقدم ، ص ١١٨ ، آخر ١٢١ – ١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٢٦

(١٢٦٣) في الخريف في بيكين

(١٢٦٤) ذكرها المسعودي (ت) : ٩٦

(١٢٦٥) ابن الفقيه : ٢٧٤ ، ٢١٤

(١٢٦٦) المقدسي : ٣٤٠

(١٢٦٧) فيها زامل أو رامذ عند ابن رستة : ٩٣ (ترجمة ، ص ١٠٣ ، ح ١٠) ، مع ثلاثة روافد مسماة : انظر لومترانج ، الخلافة الشرقية : ٤٣٦ ، ٤٤٠

(١٢٦٨) الوضع واضح بالنسبة الى دهاس أو نهر بلخ (نهر بلخ : حذار من الخلط بينه وبين جيحون ، الذي يطلق عليه أحيانا هذا الأسم) : انظر ما تقدم، ص ٢١٩ . بالنسبة الى شبكة ختلاب (قندس) وروافده (اندراب ، كاسان ، ووتراب) ، نلاحظ ان ابن رستة يتحدث عن رافد جيحون ، لكن لا يذكر ابن حوقل ختلاب ، ويشرح رافديه اندراب وكاسان ، ويعدهما نهرين مستقلين ، لا علاقة ملحوظة لهما بجيحون: انظر ابن رسته : ٩٣ ، ابن حوقل : ٤٤٨ ، لوسترانج ، مشار اليه ، آخر ٤٢٧ ، ٤٢٨ ، ٤٣٦ ، اطلس التايمز : ٣١ ، ه / ٢ – ٣ ، وما تقدم ، مشار اليه و ص ٢١٩ حاشية ١

(١٢٦٩) اسم اخر محتمل لنهر جيحون عند المقدسي : نهر كالف (ت) : ٩٥ (انظر ما تقدم ، ص ١٣٣) .

(١٢٧٠) تقابله فضة مناجم جميع هذه المنطقة الجبلية (ذكر ابن رستة ، ٩٣ ، هذه الصفة العائدة الى نهر وخشاب) .

(١٢٧١) نذكر بان صورة الجنة الأرضية مألوفة بالنسبة الى اراضي هذه المناطق (انظر للصغد ما تقدم ، الفصل الأول ، ص ٨٨) .

(١٢٧٢) مذكورة بالنسبة الى المصب في الحد الأدنى ، عند ابن حوقل : ٤٨٠

(١٢٧٣) حول هذه التفاصيل الأخيرة ، انظر ابن حوقل : ٤٧٨ — ٤٨١

(١٢٧٤) حول وضع النهر في التقاليد الفارسية ، انظر صيغة الهمداني ، ١٦٠ ، المذكورة ص ١٢٦ و ١٩١ .

* * *

حواشي الفصل الثالث

(١٢٧٥) انظر ما تقدم ، فصل ٢ ، ص ١٢٨ آخرها - ١٢٩ ، وابن حوقل (٢٦٥ توسيع الاصطخري ٦٨) : يستهل بحث « البحار » بـ « البحر الأعظم » ، المعروف ببحر فارس ، ثم ينتقل الى ذكر خمس بحيرات يسمي اربعاً منها بحيرة والخامسة بحرا (بحر جنكان) .

(١٢٧٦) انظر مثلا بالنسبة الى بحيرة خوارزم ، حدود العالم : ٥٣ ، وبالنسبة الى بحر الخزر ، التسميتين بآن واحد (الخزري وطبرستان) في المقطع الواحد : المقدسي : ١٩ ، ٣٥٣ ، ٣٦١ .

(١٢٧٧) انظر المقدسي : ٣٨١ (و ح يج)

(١٢٧٨) انظر ما تقدم ، فصل ٢ ، ص ١٢٩ - ١٣٠

(١٢٧٩) لن نبحث في بحر ميوطيس ولا في بحر بنطس ، لأنهما لا يدخلان في دار الاسلام .

(١٢٨٠) يعرف الجغرافيون اتصال بحر الروم ببحر الظلمات ، واتصال بحر ميوطيس ببحر بنطس ، وبحر بنطس ببحر الروم . ثم انهم يفترضون أحيانا ان بحر بنطس متصل ببحر الظلمات (البحر المحيط من الجهة الأخرى . انظر د . م . دنلوب ، « بحر بنطس » م١ (٢) ج١ ، ٩٥٥

(١٢٨١) ينطبق هذا الكلام على النيل أيضا ، الذي يسمى بحرا ونهرا

(١٢٨٢) وان يكن بشكل متغير جداً : انظر كامينا دالميدا ، جغرافية عالمية ، ج٥ ، مشار اليه ، ٣٠٦ - ٣٠٧ و ١ . بلان ، الموسوعة العالمية ، ج٣ ، ١٩٦٨ ، ص ١٠١٢

(١٢٨٣) بحيرة مالحة (مثال : « بحيرة « طبرستان) وبحر عذب (مثال : « بحر » خلاط) ، بحيرة واسعة (مثال : « بحيرة طبرستان) وبحر ضيق (مثال : « البحيرة »

الميتة أو على الدوام بحيرة خلاط) ، بحر مسلم فقط (البحيرة الميتة وبحيرة خلاط) وبحر « مشترك » (مثال : بحيرة طبرستان أو بحيرة خوارزم) .

(١٢٨٤) ما تقدم ، فصل ٢ ، ص ١١٤ و ١٤٢

(١٢٨٥) المسعودي (م) ، فقرة ٣٠٠ — ٣٠٢ بالنسبة الى هذه الشروح والشروح اللاحقة (اعدنا توزيع المعطي المتوفر اذا لزم الأمر ، لاسباب تتعلق بالتصنيف) : تستوحي ترجمتنا من ترجمة ش . بيلا .

(١٢٨٦) قائم ، نقيض اصلا لـ استحال ، لا يتغير .

(١٢٨٧) مأخوذ عن اليونانية : اسطقس .

(١٢٨٨) لا بد ، فيما يظهر ، من تصحيح الصورة منها الى منه في طبعة ش . بيلا

(١٢٨٩) سور ، وقد رأينا معناه الدقيق من قبل : الفصل ٢ ، ص ١٢٧ اخرها . ترجم ش . بيلا : الهوة الواسعة في المحيط .

(١٢٩٠) أو من مجرى الماء : النهر .

(١٢٩١) لاول وهلة ، يميز المسعودي في نصه البالغ الصعوبة ، عملين للحرارة : ففي الحالة الثانية يبدو عمل الحرارة مفهوما بوضوح ، ويؤثر في الرطوبة الأولى المجتمعة . أما في الحالة الاولى فيشار الى عمل الحرارة صراحة فقط لاحتراق الباقي من الماء واستحالته، مما يوحي بان جوهر الماء القائم (حاشية ١٢٨٦) لم يتأثر بذلك العمل. لكن يقال بأن الرطوبة الاولى جفف اكثرها ، لذلك يجب التسليم بأن الحرارة اثرت فيها أيضاً .

(١٢٩٢) تؤدي فكرة هوة بلفظين : حفرة (ترجمة ش . بيلا : حوض) وهور (حرفيا : مجمع ماء ، حول المعنى الدقيق ، انظر الفصل ٢ ، ص ١٢٧ آخرها و ٢٠٠ ، ترجمة بيلا : هوة واسعة في المحيط) .

(١٢٩٣) انظر ما تقدم ، فصل ٢ ، ص ١١٧ ، ١٢٤ ، ١٢٦

(١٢٩٤) حول هذه المواضيع ، انظر المسعودي (م) فقرة ٢١٣ ، ٢١٤ ، ٢٧٤ ، ٢٩٣ ، ١٤٢٦ (الصعوبة هي انخفاض بحر الروم وارتفاع البحر الأحمر) ، المسعودي (ت) : ١٠٠ ، ١٠٣ ، المقدسي : ج ٤ ، ٥١ ، اخوان الصفا ، ج ١ ، ١٦٣ — ١٦٤ ، الاصطخري : ١٦ آخرها — ١٧ ، ابن حوقل : ١١٠ (اللفظ المستعمل « خليج » ،

ويعني الفرضة أو القناة ، اختار المعنى الثاني ، لأن المقارنة بالقناة المسحوبة من النهر ، وهي لوحة كلاسيكية وشهيرة أحيانا ، تبدو لي واضحة جدا وان كانت كامنة (مستترة) انظر بالنسبة الى مصر ، الفصل الثاني ، ص ١٨٧) ، المقدسي : ١٦ . ترد صورة الطوق مثلا عند ابن حوقل : ١٢ آخرها (الاصطخري : ١٧) ، يتحدث المقدسي عن حلقة ، ويعطي ابن سيرابيون ، ٩٣ ، لمحة جيدة عامة عن البحر المحيط الذي يمر وراء الشرق الأقصى وبلدان الترك ، ثم يعود الى بحر الروم . حول مجرى الأنهار نحو الجنوب ، انظر الفصل ٢ ، ص ١٢٣

(١٢٩٥) انظر جغرافية دار الاسلام ، ج٢ ، ١٠ (مع احالة حاشية ٢) ، ٢٠ — ٢١

(١٢٩٦) حول المواضيع المشارة هنا ، انظر ابن خرداذبة : ٩٣ ، المسعودي (م) ، فقرة ١٩٣ ، ٢٧٣ ، وصيف شاه : ٣١ ، ويحدد موقع ضريح سليمان أحيانا في جزر انداماں (انظر عجائب الهند ، ٢٧٣ — ٢٧٤)

(١٢٩٧) انظر ما تقدم ، فصل ١ ، ص ٩٤

(١٢٩٨) المقدسي : ١٦

(١٢٩٩) اعطي هنا اهم الاحالات الى الخرائط ، على ان اعود الى بعضها عند بحث بعض النقاط الخاصة : ابن خرداذبة : ٦١ ، ١٠٣ وما يليها ، ١٢٤ ، ١٥٤ ، ١٧٣ (وح ز) قدامة : ٢٣٠ — ٢٣١ (م ٥٩ — ٦٢) ابن الفقيه : ٧ — ٨ ، ٧٨ ، ٨١ ، ١٤٥ ، ٢٨٩ آخرها — ٢٩٠ ، ابن رستة : ٨٣ — ٨٩ ، المسعودي (م) فقرة : ١٩٢ ، ٢٤٣ — ٢٤٥ ، ٢٥٠ — ٢٥٨ ، ٢٧١ — ٢٨١ ، ٢٨٤ ، ٢٩٢ — ٢٩٦ ، ٢٩٨ ، ٣٥٦ ، ٣٦١ — ٣٦٣ ، ٣٧٩ ، ٤٠٤ — ٤٠٦ ، ٤٥٥ ، ٤٥٨ ، ٤٦٢ ، ٤٦٣ ، ٧٣٩ ، ١١٠٧ ، ١٤٢٦ — ١٤٢٨ ، المسعودي (ت) : ٧٦ — ٧٨ ، ٨٤ ، ٩٠ ، ٩٨ — ١٠٠ ، ١٩٢ — ١٩٥ ، اخوان الصفا ، ج١ ، ١٦٣ — ١٦٤ ، وصيف شاه : ٣٥ وما يليها ، ابن حوقل (توسيع الاصطخري) : ١١ وما يليها ، ١٨ ، ٤٢ وما يليها ، ٤٩ ، ١٠٩ ، ١٦٥ ، ١٠٠ وما يليها ، ٢٠٥ ، ٢٣١ ، ٢٤٩ ، ٢٥٢ ، ٢٦٠ ، ٢٦٥ ، ٢٧٢ ، ٢٧٧ ، ٢٩٠ ، ٣٠٥ ، ٣٠٩ ، ٣١٦ ، ٣٣١ ، ٣٧٥ ، ٣٨١ — ٣٨٣ — ٣٨٦ وما يليها ، ٣٨٩ ، ٥٢٧ ، المقدسي : ١٠ وما يليها ، ١٤ — ١٩ ، ٤٦ ، ٦٢ — ٦٣ ، ١١٣ ، ١٥١ ، ١٥٢ ، ١٧٨ — ١٧٩ ، ١٨٤ ، ١٩٣ ، ١٩٥ ، ٢٠٩ ، ٢١٢ ، ٢٣٢ ، ٢٣٥ ، ٣٥٣ ، ٣٦١ ، ٣٧٥ (وح يط) ،

٤٢٢ ، ٤٤٦ ، ٤٥٩ ، ٤٦١ ، ٤٦٨ ، ٤٧٢ ، ٤٧٤ ، ٤٨١ ، ٤٨٤ ، حدود العالم : ٥١ آخرها — ٥٣

(١٣٠٠) المقدسي : ١٦ — ١٩

(١٣٠١) القرآن : ٣١ : ٢٦ / ٢،٧ ، ٢٥ : ٥٥ / ٥٣ (كرر في ٥٥ : ١٩ — ٢٠).

(١٣٠٢) القرآن (٥٥ : ٢٠) يضيف بالفعل : والله جعل ذلك حاجزا على حسب ما اخبر في كتابه (الآية) انظر القران ٢٧ : ٥٢ / ٦١ ، والمسعودي (م) فقرة ١٤٢٦ بينهما برزخ لا يبقيان .

(١٣٠٣) مؤكد باستعمال لو

(١٣٠٤) أما البحر الوارد بالمفرد في القرآن ، فهو ثاني هذين البحرين كما قلنا ، أو حسب سياق الآية كل البحر الممكن تصوره انطلاقا منه ، والذي يدعى المؤمن الى ضربة بسبعة المعتبرة رمز اللا نهاية (نص الآية) ٣١ : ٢٦ / ٢٧ بكاملها : ولو ان ما في الأرض من شجرة اقلام ، والبحر يمده من بعده ابحر ، ما نفدت كلمة الله : فالدعوة الى التصور قوية لا سيما ان النص العربي فيه ايجاز بين لو ولما .

(١٣٠٥) ذكره المسعودي صراحة (م) فقرة ١٩٢ . يظهر الرقم ٥ عند ابن رستة ، مشار اليه ، وعند المقدسي : ١٦ (ذكر الجيهاني) و ٢٣٢ (و ح يه : تدخل بحر اذريس) .

(١٣٠٦) ابن الفقيه : ٧ — ٨

(١٣٠٧) سنعود فيما بعد ، بشكل آخر ، وبمزيد من الوضوح ، الىفكرة هذا الاتصال، ،ن جهة الشمال، بين بحر الروم بحر بنطس بحر ميوطيس(تمثله رومة هنا) وبين البحر المحيط (تمثله تولية هنا) .

(١٣٠٨) المسعودي (م) ، فقرة ١٩٢ و ٢٩٢

(١٣٠٩) زابج تصحيح الزنج الوارد مرتين ، اقترحه : بالنسبة الى الزابج (جافاغا) ، انظر جغرافية دار الاسلام ، ج٢ ، ٧٨ آخرها أماكن متفرقة .

(١٣١٠) المسعودي (م) ، فقرة ٢٠٣ — ٢٠٥ ، ابن الفقيه : ١٥٣ ، ١٦٠ ، ابن حوقل : ٥٢٧ .

(١٣١١) انظر ما تقدم في بحث البحر الذي يطوف بجزيرة العرب ، وأيضاً : ابن الفقيه ٠ ٧٨ ، والمسعودي (م) فقرة ٢٥٦ — ٢٥٧ ، ٢٧١ ، ٢٨١ ، (ت) : ٧٦ ، ٨٤ ، ٩٠ ، المقدسي : ١٨ ، حدود العالم : ٥٢

(١٣١٢) واضح جداً عند المقدسي : ١٥

(١٣١٣) ابن الفقيه : البحر الغربي الدبوري (نسبة الى دبور : الريح الغربية) ، حول سائر التسميات ، (ماعدا الروم وحدها) ، انظر ابن خرداذبة : ١٠٤ — ١٠٥ ، ١٥٤ ، ابن رستة : ٨٦ ، ٨٨ ، قدامة : ٢٣١ ، م ٦٠ ، المسعودي (م) فقرة ١٩٢ ، ٢٥٨ ، (ت) : ٨٤

(١٣١٤) المسعودي (م) فقرة ١٩٢

(١٣١٥) خليج (فرضة ، ذراع ، قناة) : ابن الفقيه : ٧ ، المسعودي (م) فقرة ٢٧٢ ، الاصطخري : ١٧ ، ابن حوقل : ١١ آخرها ، المقدسي : ١٤ (أقل وضوحاً) .

(١٥١٦) بما فيهم الجغرافيون الذين يضمون اليه سواحل الأندلس والمغرب الأطلسية : انظر الاصطخري : ٥٠ ، ابن حوقل : ١٩٠

(١٣١٧) المقدسي : ١٤ ، الاصطخري : ٣٠ ، ابن حوقل : ٤٧

(١٣١٨) الاصطخري ، مشار اليه ، ابن حوقل : ١١ آخرها — ١٢

(١٣١٩) المسعودي (م) فقرة ٢٨٤ ، ابن حوقل : ١٩٠ ، حدود العالم : ٥٣

(١٣٢٠) ابن الفقيه : ١٤٥ . يشار الى بحر الخزر عبر بلد الخزر ، « وراء دربند » ، حول الجزر الخالدات (السعادة) ، انظر جغرافية دار الاسلام ، ج٢ ، ٢٠ — ٢١ وأماكن متفرقة . سنعود فيما بعد الى الجدل حول اتصال بحر بنطس وبحر الخزر .

(١٣٢١) انظر هذه الأبعاد ، مع الاحالات ، عند د . م . دنلوب ، « بحر الروم » ، م١ (٢) ، ج١ ، ٩٦٣ — ٩٦٤

(١٣٢٢) ابن حوقل : ١٩٠ — ١٩١ (توسيع الاصطخري : ٥٠) ، انظر أيضاً المسعودي (م) ، فقرة ٢٨٣ — ٢٨٤ .

(١٣٢٣) المسعودي (م) ، فقرة ٧٨٩ ، (ت) ، ٨٤ ، ابن حوقل : ١٩٠ ، المقدسي : ١٤ ، ٢٣٥

(١٣٢٤) المسعودي (م) ، فقرة ٢٧٣ ، مع احتمال وجود موقع آخر : انظر جغرافية دار الاسلام ، ج٢ ، ٥٣٣

(١٣٢٥) قدامة : ٢٣١ ، م ٦٠ ، ابن رستة : ٨٥ ، المسعودي (م) ، فقرة ٢٧٦ ، المقدسي : ٢٣٢ (ح يه)

(١٣٢٦) المسعودي (م) ، فقرة ١٢٦ — . حول الموضوع القرآني لالتقاء (مجمع) البحرين ، الواقع في هذه الأرجاء ، انظر المقدسي : ١٩ (ترجمة ، ص ٥٣ ، ح ٧٩) و ١٥١ (حول موقع آخر ، انظر الفصل ٢ ، ص ٢١٥) .

(١٣٢٧) انظر المسعودي (م) فقرة ٢٧٩ : « ومنه ينفجر خليج القسطنطينية الذي يصب الى بحر الروم . حول المضايق ، انظر جغرافية دار الاسلام ، ج٢ ، ٤١٢ — ٤١٣

(١٣٢٨) ابن خرداذبة : ١٠٣ ، قدامة : م٦٠ ، ابن رستة : ٨٦ ، ٨٨ (البحر الارميني هو بحر بنطس فيما يبدو : قارن بلائحة البحار الخمسة الواردة في المرجع ذاته ، ص ٨٣ آخرها) ، المسعودي (م) ، فقرة ٢٧٨ ، ٢٩٣ — ٢٩٤ ، ٤٥٨ ، المسعودي (ت) : ٩٨ ، ٩٩ . يجمع البحران أحيانا في اسم واحد : بحر البلغار والروس ، المسعودي (م) ، فقرة ٢٩٤ ، ٤٦٢ ، المسعودي (ت) : ٩٨ . حول مجمل بحري ميوطيس وبنطس وانهارهما ، انظر جغرافية دار الاسلام ، ج٢ ، ٣١١ — ٣١٢ وأماكن متفرقة .

(١٣٢٩) المسعودي (م) فقرة ٢٧٨

(١٣٣٠) المسعودي (م) ، فقرة ٢٩٥ — ٢٩٦ ، ٤٥٥ ، ٤٥٨ ، ٤٦٢ ، (ت) : ٩٩ ، ابن حوقل : ١٣ ، ٣٨٨ .

(١٣٣١) المسعودي (ت) : ٩٨

(١٣٣٢) المسعودي (م) ، فقرة ٤٠٤ — ٤٠٦ هذا هو موضوع « بحر الصقالبة » ، بشكل ادق ، بعد تدخل بحر ميوطيس : (انظر الحاشية ١٣٠٧) ، الاصطخري : ١٨ ابن حوقل : ١٣ ، ١١٠ ، ١٩١ ، ٢٠٢ ، ٣٨٨ ، ٣٩٢ ، حدود العالم : ٥٤ ، انظر أيضاً جغرافية دار الاسلام ، ج٢ ، ٣١١ — ٣١٢ .

(١٣٣٣) تحدثنا من قبل عن اطرافة الاولى ، حول بيزنطية ، انظر ابن حوقل : ٢٠١

(١٣٣٤) المسعودي (م) ، ٢٨٣ — ٢٨٤ ، ابن حوقل : ٢٠٥ ، حدود العالم : ٥٣

(١٣٣٥) المقدسي : ١٥ . النص التالي ، مأخوذ من ابن حوقل : ٢٠٥ (ترجمة وايت ، ص ١٩٠ — ٢٠٠ ، معدلة ، يصحح خاصة ، وان كان المعنى لا يتبدل ، يعاف — استنادا الى م ج ع ، ج٤ ، ٣٠٢ — الى يعاف . لقد ترجمت معظم هذا النص ، بصيغة مختلفة قليلا ، في جغرافية دار الاسلام ، ج٢ ، ٤٧٤) .

(١٣٣٦) ابن خرداذبة : ٦١ ، قدامة : م٦١ ، ابن الفقيه : ٧ ، المسعودي (م) ، فقرة ١٩٢ ، ٢٤٣ ، ٢٥٧ ، ٢٥٨ ، ٢٩٢ ، ٣٨٠ ، المسعودي (ت) ، ٧٦

(١٣٣٧) قارن ابن رستة : ٨٣ — ٨٤ و ٨٧

(١٣٣٨) ابن رستة : ٨ ، ٨٨ آخرها — ٨٩ ، المسعودي (م) ، فقرة ٢٥٦ ، ابن حوقل : ٤٢ ، ٢٦٥ ، ٢٧٦ ، المقدسي : ١٠ وما يليها .

(١٣٣٩) التسمية الأخيرة واردة عند ابن رستة : ٨٧

(١٣٤٠) هذه التسمية الأخيرة واردة عند الاصطخري : ٣٠ (ابن حوقل : ٤٦) .

(١٣٤١) التعبير « الخليج الفارسي » أقل استعمالا من التعبير الآخر الشائع : يرد عند قدامة : م٦١ .

(١٣٤٢) يذكر هذا الأسم (ابن رستة : ٨٤) بلا ريب القرب من البحر المحيط ، البحر الأخضر .

(١٣٤٣) ابن حوقل : ٤٦ ، ٢٦٥ ، ٣١٦ .

(١٣٤٤) المسعودي (م) ، فقرة ٣٦١ و ٣٧٩ . حول هذه البلدان ، انظر جغرافية دار الاسلام ، ج٢ ، ٧٨ — ٨٠ . أما بالنسبة الى أسماء بحار ثانوية ، مفصلة ، لكن في علاقتها بالبلدان الواقعة على شواطئها ، انظر النصوص المذكورة ص ٢٣٧ ، حاشية ٣

(١٣٤٥) ابن رستة : ٨٤ ، ابن حوقل : ١٨ ، ٤٢ ، المقدسي : ١١ ، ١٧٨ — ١٧٩

(١٣٤٦) اترجم طيلسان بهلال ، وهو معطف قصير يأخذ تقريباً هذا الشكل (انظر جغرافية دار الاسلام، ج٢، ١٩١) . حول اشكال هذا البحر الصورية، انظر المقدسي : ١٠

(١٣٤٧) الاصطخري : ٢٩ — ٣٠ ، ابن حوقل : ٤٦ ، المقدسي : ١١ ، ٢٠٩ ، حدود العالم : ٥٤٨ (عنوان الجزر)

(١٣٤٨) الاصطخري : ٢٩ ، ابن حوقل : ٤٥ — ٤٦ ، المقدسي : ١٢

(١٣٤٩) ابن رستة : ٨٧ ، المقدسي : ١٢ .

(١٣٥٠) الاصطخري : ٣٠ ، ابن حوقل : ٤٦ ، المقدسي : ١١ ، ١٢ ، ١٤ وجغرافية دار الاسلام ، ج٢. ، ١٧٢ .

(١٣٥١) المقدسي : ١١

(١٣٥٢) انظر الفصل ٢ ، ص ٢٠٤ — ٢٠٥ ، و ٢٠٧

(١٣٥٣) المسعودي (م) ، فقرة ٢٥١

(١٣٥٤) ابن حوقل : ٣٠٩

(١٣٥٥) ابن حوقل : ٢٧٢ ، ذكر في الفصل ١ ، ص ٦٢

(١٣٥٦) من اشهرها مصايد جزر خارك ، بفتح الراء أو كسرها : الاصطخري : ٣٠، ابن حوقل : ٤٧

(١٣٥٧) الاصطخري : ٢٩ ، ابن حوقل : ٤٦ ، ٣٨٨

(١٣٥٨) الاصطخري : آخر ٣٠ ، ٣١ ، ابن حوقل : ٤٨ ، ٤٩ ، المقدسي : ١٨ آخرها ، ٤٢٢ .

(١٣٥٩) الاصطخري : ٣١ ، ابن حوقل : ٤٨ ، المقدسي : ١١

(١٣٦٠) المسعودي (م) ، فقرة ٣٥٩ ، ابن حوقل : ٤٧ ، المقدسي : ١٦ ، ١٨ (مع الاستشهاد بالقرآن : ٥٥ / ٢٢)

(١٣٦١) الاصطخري : ٣٠ ، ابن حوقل : ٤٧ ، انظر أيضاً المسعودي (م) ، فقرة ٢٥٩ (أقل وضوحاً) .

(١٣٦٢) ابن حوقل : ٢٩٠ — ٢٩١ ، المقدسي : ١٤

(١٣٦٣) المقدسي : ١٩ ، لفظ بحيرة . انظر أيضاًالمرجع ذاته : ٣٦٢ ، مع الاشارة الى امكانية الطواف حولها .

(١٣٦٤) اليعقوبي : ٣٥٤ آخرها .

(١٣٦٥) ابن خرداذبة : ١٢٤ ، ١٥٤ ، ١٧٣ ، اليعقوبي : ٢٧٦ ، ٢٧٨ ، ٣٥٤، قدامة : م ٦٢ ، ابن رستة : ٨٣ ، ٨٦ ، ابن الفقيه : ٧ ، ٢٨٧ آخرها ، ٢٨٩ آخرها

(مع اسم كردبيل) ، المسعودي (م) ٢٥٨ ، ٢٨١ ، ٤٦٢ ، المسعودي ، (ت) : ٩٠ (الذي يذكر اسماء بلدان أو مدن اخرى على الشاطىء في حين يسمى البحر البحر الخزري) ، الاصطخري : ١٢٨ ، ابن حوقل : ٣٨٦ ، المقدسي : ١٦ .

(١٣٦٦) المسعودي (ت) : ٩٠ ، ابن الفقيه : ٧ ، يسمى بحر الخزر البحر الخرساني الخزري .

(١٣٦٧) هذا وضع قدامة : م٦٢

(١٣٦٨) انظر ما تقدم الفصل ٢ ، ص ١٢١ آخرها — ١٢٢ والمسعودي (ت) : ٩٦

(١٣٦٩) يستوحي الوصف التالي من ابن حوقل : ١٣ ، ٣٧٧ ، ٣٨١ ، ٣٨٢ آخرها — ٣٨٣ ، ٣٨٨ — ٣٨٩ ، المقدسي : ٣٥٣ ، ٣٦١ آخرها — ٣٦٢ ، ٣٧٥ (ح يط) ، حدود العالم : ٥٣ بالنسبة الى شواطىء بحر الخزر الشرقية ، انظر جغرافية دار الاسلام ، ج٢ ، ٢١٨ — ٢١٩ .

(١٣٧٠) حول النعت ملمعة ، ملمعة ، ملمعة ، (المقدسي : ٣٧٥ ، ح يط) ، انظر م ج ع ، ج٤ ، ٣٥٠

(١٣٧١) في جزيرة واقعة مقابل مصب النهر المؤلف من الربس والكر (حول الفوة في هذه المنطقة انظر الفصل ٢ ، ص ٢١٤ آخرها) .

(١٣٧٢) حول التنين في بحر الخزر ، انظر المسعودي (م) ، فقرة ٢٨١ . تحدثنا من قبل عن التنين في جغرافية دار الاسلام ، ج٢ ، ٤٨٩ ، ٥١٠ — ٥١١

(١٣٧٣) حول الأسمين الأخيرين ، انظر ابن خرداذبة : ١٧٣ (ح ز : حول قرية كردر ، انظر ابن حوقل : ٨٠) وابن حوقل : آخر ٤٥١ ، بحيرة الجرجانية (المسعودي (ت) ٩٦) تحيل الى سرى قميش لا الى بحيرة خوارزم (ارال) : انظر برتولد ، التركستان ، ١٤٦ ، والفصل ٢ ، ص ١٢٢ ، الحاشيتين ١ و ٥ لوصف بحيرة خوارزم ، انظر ابن حوقل : ١٣ ، ٤٧٧ ، ٤٨١ ، والمقدسي : ٢٢ ، وحدود العالم : ٥٣ .

(١٣٧٤) استثناء : المقدسي : ١٧ (في لائحة البحار السبعة الواردة على لسان المعترض المفروض الذي تحدثنا عنه) ، حدود العالم : ٥٣ (يتحدث عنها كأنها البحر السابع في العالم)

(١٣٧٥) حدود العالم : ٥٤ — ٥٦

(١٣٧٦) لا تشكل البحيرات الصغيرة المشار اليها بصورة ادق (حدود العالم : ٥٥ ، رقم ٢٦ — ٢٧) استثناء في الحقيقة : لأنها تؤخذ مثالا عن المجامع الصغيرة ، ولا تسمى أصلا .

(١٣٧٧) حاجز ري بداهة . يمكن ان نفكر أيضاً في البحيرة التي ظهرت في وقت متأخر على الخريطة (لكن لا نفهم جيداً من اين اتت ، وبأي سيرورة طبيعية ، هذه البحيرات الجديدة ، ولا لماذا استبعدت مع انها حسية مثل سائر البحيرات) ، أو في البحيرات الطارئة (الموقتة) ، التي تدوم قليلا جداً لكي يجوز الجزم بأنها وجدت منذ زمن بعيد . ويستطرد النص ويقول : . . . ولا قديمة ، وتجف أحيانا حتى لا يبقى فيها ماء ابداً » . لكن حتى هذه الصفة ، كما قلنا ، لا تكفي لا ستبعاد البحيرة المتقطعة من فئة البحيرات . في النهاية ، لا أرى الا البحيرة الصنعية التي يتحقق فيها تعريف عدم القدم .

(١٣٧٨) انظر الفصل ٢ ، ص ١٩٩ ، ٢٠٠ ، و ٢٠٢ آخرها — ٢٠٣ . لا يشكل اتساع اتساع البطحية صفة مصنعة ، يقول كتاب الحدود بوجود مستنقعات صغيرة ، كما قلنا .

(١٣٧٩) انظر ما تقدم ، ص ٢٤٤ بحث بحيرة خوارزم

(١٣٨٠) مع بعض الشكوك في التصنيف : اذا حسبت بحيرة خوارزم بين البحار ، فبحر ميوطيس تابع للبحيرات : الحدود : ٥٣ آخرها — ٥٤

(١٣٨١) باستثناء بحيرة (أو بركة) على أحدالمسالك (المقدسي : ١١٠ ، ١١٢) ، والمستنقع الذي يصب فيه نهر رزين روذ (ابن حوقل : ٣٦٦) ، انظر الفصل ٢ ، ص٢١٦

(١٣٨٢) المقدسي : ٢٢٦ ، ابن حوقل : ٨١ . حول تشكيل اريج ، بتسكين الراء (وليس اريج ، انظر ليفي بروفنسال ، تاريخ الأندلس الا سلا مية ، مشار اليه ، ج٣ ، ٢٧٢) ، انظر ياقوت ، معجم البلدان ، ج١ ، ٣٥١ (اصلا مستوحى من ابن حوقل . حول مدينة البصرة (ينبغي الا يخلط بينها وبين البصرة العراقية) ، انظر ج • ايفر ، م١ (٢) ، ج١ ، ١١٢٠ .

(١٣٨٣) ما تقدم فصل ٢ ، ص ١٨٥ — ١٨٦ و ١٨٨

(١٣٨٤) الا صطخري : ١٠٧ (ابن حوقل : ٣٢٨) ، المقدسي : ٤٨٤) ، مع احالة الى نموذج البطيحة العراقية :

(١٣٨٥) انظر الفصل الثاني ، ص ٢٠٣ آخرها — ٢٠٤ والحاشية السابقة .

(١٣٨٦) انظر ابن حوقل : ٢١٠ — ٢١١ ، الذي يجعل مساحة البحيرة جريبا ، حرفيا : « المساحة التي يبذر فيه جريب (يختلف جدا فعلا حسب الأماكن والعصور : انظر المقال المحشي في م١ (٢) ، ج١ ، ١٠٤١) . بحيرة واحدة أيضاً (تستعمل كملاحة أيضاً) لهضبة فارس : ابن الفقيه : ٣٤٥ — ٢٤٦ .

(١٣٨٧) ابن حوقل : ٤٩٥ ، ٥٠٦ ، حدود العالم : ٥٥

(١٣٨٨) المقدسي : ٣٢٣ ، حدود العالم : ٥٦ و (١٨٥)

(١٣٨٩) ليس لباقي بحيرات وادي الأرنط أو مستنقعاته الشهرة ذاتها ، وتظل شديدة الأرتباط بنهري الأرنط والأردن اللذين يشكلا نها .

(١٣٩٠) ابن حوقل : ٧ ، ٤١٧ ، ٤١٨ ، المقدسي : ٣٢٢ آخرها — ٣٢٣ — ٣٢٩ ، حدود العالم : ٥٥

(١٣٩١) ويتبدل تبدلا هائلا حسب ما يجلبونه له من مياه ، ويتقلص من جراء حاجات الري فيضعف ، أو على النقيض ، يزيد بالفيضانات . وهذه الأنهار هي هلمند (ورافده، خردروي أو ارجنداب) خوش (نهر نيشاك) ونهر فاره : ابن حوقل : ٤١٧ ، ٤٢٠، ٤٢٢ ، المقدسي : ٣٠٤ ، ٣٢٩ ، ولوسترانج ، الخلافة الشرقية : ٣٤٢ ، ٣٤٥ . ولا يذكر الجغرافيون نهر الهارود : انظر المرجع ذاته ، ٣٤٠ آخرها — ٣٤١ والفصل الثاني ، ٢١٨ .

(١٣٩٢) التي تجعله يشبه المستنقعات ، حسب تصنيف النماذج المشار اليه من قبل (يقول ابن حوقل ان السمك فيه كثير : اذن ليس فقط على الشواطىء بالضرورة) ، يشير المقدسي ، ٣٢٩ ، بهذه المناسبة الى البطيحة العراقية .

(١٣٩٣) ابن حوقل : ٣٠ فرسخا طولها (حوالي ١٧٣ كم) وسفر يوم عرضها . ويرد العرض نفسه عند المقدسي والطول يزيد عن ٢٠ فرسخا (حوالي ١١٥ كم) ، حدود العالم : ٣٠ فرسخاطولا ، و ٧ عرضا (٤٠ كم تقريباً) .

(١٣٩٤) المقدسي : ٣٢٩ (ح يج) يسميها بحيرة السنط (يقصد السنط)

(١٣٩٥) الاصطخري : ١١١ — ١١٢ ، ابن حوقل : ٧ ، ٣٤٦ ، المقدسي : ٣٨٠ (ارجيج) .

(١٣٩٦) تقدير ضعيف : تزيد المسافة على ١٢٠ كم في اعظم عرض لها ، من الشمال الغربي الى الجنوب الشرقي . ينطبق تقدير ابن حوقل في الواقع على عرض البحيرة في وسطها .

(١٣٩٧) انظر م (ت) : ١٠٩ ، الاصطخري : ١١١ ، ابن حوقل : ٧ ، ٣٤٥ – ٣٤٦ ، المقدسي : ٣٨٠ – ٣٨١ ، حدود العالم : ٥٤ . توحي تسمية الشراة بوضوح ان الاسلام لم يقض على المعتقدات والأديان التي سبقته . حول هذه التسمية وتسميتي تلا (تله) وشاها (شاهو ، شاهي) ، التتين لم تردا في طبعة كرامرز ، اذا لم اك مخطئاً ، انظر الاصطخري (م ج ع ، ج ١ ، ١٨٧٠) ، ١٨١ ، ١٨٩ ، ابن حوقل (م ج ع ، ج ٢ ، ١٨٧٣) ، ١٨٧٣) ، ٢٣٩ ، ٢٤٧ ، ٢٤٨ ، ٢٧٤ (ح يجـ) ، مينورسكي ، حدود العالم : ١٩٣ ، ولو سترانج ، الخلافة الشرقية ، ١٦٠ – ١٦١ (اللفظ الفارسي « شور » أي « مالح » ، الذي يعطي أحيانا اسمه للبحيرة ، لكن خارج عصرنا ، وارد في كتاب الحدود ، مشار اليه ، بشكل شورى) حدود العالم : ٦٠ (انظر أيضاً المرجع ذاته ، ١٤٣ : ارمانة أو ارمية) يتحدث عن بحر ارمني (من أجل معنى آخر لهذا التعبير ، انظر حاشية ١٣٢٨) .

(١٣٩٨) ذكر من قبل ، الفصل ١ ، ص ٦٠ آخرها (المقدسي : ٣٨١ ، انظر أيضاً ابن حوقل : ٣٤٦)

(١٣٩٩) الاصطخري : ١١١ ، يؤكد وحده وجود السمك .

(١٤٠٠) الاصطخري : ١٢١ ، ١٢٤ ، ١٢٥ ، ابن حوقل : ٣٧٦ ، ٣٧٧ ، ٣٨١ (مثالا ن) ، حدود العالم : ٥٥ (رقم ٢٧) الذي يشير ، اضافة الى بحيرات هذه المنطقة ، الى بحيرات جبال طوس ، في خراسان (حول الواقع ، انظر المرجع ذاته ، ١٨٥ . على النقيض ، يبدو أن منطقة اخرى من خراسان ، تدعى جوزاجان ، تقع بين مرو وبلخ (المرجع ذاته ، ٥٥ ، رقم ٢٦ لا تحوي الا بحيرة واحدة .

(١٤٠١) المعلومات الاساسية متوفرة عند الاصطخري : ٦٨ ، ٧٥ – ٧٦ ، ٧٩ ، ويكررها ابن حوقل : ٢٦٥ ، ٢٧٦ – ٢٧٧ ، ٢٨٤ ، المقدسي : آخر ٢٣ ، ٤٢٤ (ح آ) ، ٤٤٦ ، حدود العالم : ٥٤ – ٥٥ ، بالنسبة الى تحديد الموقع ، انظر لوسترانج ، الخلافة الشرقية : ٢٥٢ ، ٢٥٣ ، ٢٦٧ ، ٢٧٨ ، وشولرز ، فارس ، ج ١ ، ٩ – ١١

(١٤٠٢) تذكر بحيرتان أيضاً ، الا انهما لا تدرجان في العرض الاجمالي لبحيرات الولاية ، هما بحيرة درخيد (درخيذ ، انظر الاصطخري : ٧٤ ، ابن حوقل : ٢٧٥)

لوسترانج ، الخلافة الشرقية : ٢٦٥) ثم بحيرة غور ، وهي بركة على الأصح : انظر الاصطخري : ٧٤، ٧٦، ابن حوقل : ٢٧٣ ، ٢٧٨ ، شوارز ، فارس ، ح٢ ، ٥٨

(١٤٠٣) تتراوح الأطوال المعطاة بين ٨ و ١٢ فرسخا (٤٦ و ٦٩ كم تقريبا) ، ماعدا بختكان : حوالي ٢٠ فرسخا (حوالي ١١٥ كم) .

(١٤٠٤) حذار من الخلط بينه وبين كر التخوم الجنوبية في جبل القبق . يعكس كتاب حدود العالم المنظور ، فيجعل البحيرة خطأً أصل النهر الذي يصب في البحر .

(١٤٠٥) يشير أحد اسماء بحيرة اورمية (أو خلاط) ، كبوذان ، الى اللون اللازوردي (اللغة الأرمينية : غابوييد ، اللغة الفارسية : كابود) : انظر لوسترانج ، الخلافة الشرقية : ١٦٠ ، ديميزون ، معجم ، ج٣، ٣١٦ ، مينورسكي ، حدود العالم : ١٩٢ آخرها — ١٩٣ ، الا ان الجغرافيين لا يذكرون هذه الصفة بما فيهم مصنف الحدود الفارسي .

(١٤٠٦) انظر بالنسبة الى بحيرة الفيوم ما تقدم ، فصل ٢ ، ص ١٨٦ ، وبالنسبة الى البحيرات الشاطئية في السند ، الخاصة بالزط : الاصطخري : ١٠٧ (ابن حوقل : ٣٢٨ ، المقدسي : ٤٨٤) .

(١٤٠٧) انظر ما تقدم ، فصل ١ ، ص ٧ و ٩٩ (سفالة) .

(١٤٠٨) ابن حوقل : ٤٥ آخرها (الاصطخري ٢٩)

(١٤٠٩) عجائب الهند : ٢١٣

(١٤١٠) عجائب الهند : ٢٠١ . يعثر على تعبير « عالم آخر » الذي يختتم به المقطع الذي سنستشهد به في الف ليلة وليلة (قصة عبد الله البري وعبد الله البحري) .

(١٤١١) عجائب الهند : ٢١٨

(١٤١٢) أخبار الصين والهند ، فقرة ٣ ، الجاحظ (ح) ، ج٥ ، ٣٢١ (الصيغة المشار اليها موجودة أيضاً في ح٣ ، ٢٦٥ ، و ج٤ ، ١٧١) . يستبعد التفكير بتأثير أحد العملين في الآخر ،ويقضي المنطق بالظن انهما يعتمدان على القصص البحارة الذين يلتقي المصنفان بهما في البصرة .

(١٤١٣) انظر المسعودي (م) ، فقرة ٢٧٢ ، ٧٨٨ — ٧٩٠ ، المسعودي (ت) ،

٧٣ ، ما تقدم فصل ٢ ، ص ١٨٨ ، وبالنسبة الى مجاز هيراقليس (جبل طارق) ، الفصل الثالث ، ص ٢٣٨ آخرها — ٢٣٩

(١٤١٤) اليعقوبي : ٣٠٩ ، المسعودي (م) ، فقرة ٢٢٩ — ٢٣٤ : وما تقدم فصل ٢ ، ص ١٢١

(١٤١٥) المسعودي (م) ، فقرة ٣١٣ ، المسعودي (ت) : ٨٤ ، ١٠٣ . استوحينا في ترجمتنا من ش . بيلا على نطاق واسع .

(١٤١٦) ارسطاطاليس ميتيور ولوجيكا ، ج١ ، ١٤ (حاشية المترجم) .

(١٤١٧) انظر جغرافية دار الاسلام ، ج٢ ، ١٠ ، وما تقدم فصل ١ ، ص ١٠٤ ، وفصل ٢ ، ص ١٢٠

(١٤١٨) انظر ما تقدم ، فصل ١ ، ص ٨ ، وفصل ٢ ، ص ١١٣ — ١١٤ و ١٩٣

(١٤١٩) صورة الجبال والأودية واردة عند المقدسي ، ١٢ ، وخاصة المسعودي (م) فقرة ٢٤٥ (مذكورة ومترجمة جزئياً في جغرافية دار الاسلام ، ج٢ ، ١٦٩) . انظر ايضاً بالنسبة الى الصفات المذكورة هنا أخبار الصين والهند ، فقرة ١٠ ، وعجائب الهند : ٢٠٢ ، ٢١٥ ، ٢١٨ (مذكورة من قبل ، ص ٢٥١ آخرها) وأماكن متفرقة.

(١٤٢٠) انظر المثال المذكور من قبل ، ص ٢٥١ آخرها ، عجائب الهند : ٢٠١ ، ٢٤٨ وأماكن متفرقة ، المسعودي (م) ، فقرة ٢٦٨ (« يتحرك البحر بتحرك الرياح »)

(١٤٢١) أخبار الصين والهند ، فقرة ١٠ ، عوضا عن ارصفة ، حرفيا جبال . انظر أيضاً ابن رستة : ٨٩ .

(١٤٢٢) المسعودي (م) ، فقرة ٢٥٧ . انظر أيضاً ابن حوقل : ١٢ (ريح واحدة في بحر الروم)

(١٤٢٣) ابن حوقل : ٣٨٩ ، المقدسي : ١١ — ١٢ . انظر أيضاً الفصل الأول ، ص ٣٣ ، والفصل الثالث ص ٢٤١ — ٢٤٢ .

(١٤٢٤) أخبار الصين والهند ، فقرة ١٠ ، كررها ولخصها المسعودي (م) ، فقرة ٣٧٣ ، الذي يضيف مع ذلك ثلاث صفات : السحاب الأبيض ، قطع صغار ، ومطر سهك فيه أنواع من قذى البحر .

(١٤٢٥) ابن رستة . ٨٦ — ٨٧ و٨٨ آخرها . (ومنه أخذ النص المترجم هنا وهو الأكمل) . ابن الفقيه : ٨ ، المسعودي (م) ، فقرة ٣٥٧ — ٣٥٨ . المسعودي وحده يعود صراحة الى معشر أما ابن رسته وابن الفقيه فقد سبقا المسعودي ، وصنفا كتابيهما في الفترة ذاتها تقريبا . بالتالي . يصبح احتمال نقل احدهما عن الآخر ضعيفا ، والأفضل التفكير بأنهما اطلعا مباشرة على كتاب هذا الفلكي . ويشير اليعقوبي ، ٣٦٧ ، الى شدة اضطراب البحر في الشتاء دون تسميته .

(١٤٢٦) انظر التعبير « حسب الفترة التي تبدأ بها »

(١٤٢٧) المسعودي (م) ، فقرة ١٣٢٩ — ١٣٣٠ ، المسعودي (ت) ، ٢٠ — ٢١ ، ذكر في جغرافية دار الاسلام ج٢ ، ص ١٤ — ١٥

(١٤٢٨) انظر المسعودي (م) ، فقرة ٣٥٨ : « ودوام الأمطار في كانون وكانون وشباط » .

(١٤٢٩) انظر سوفاجيه ، أخبار الصين والهند ، ٣٨ — ٣٩ روماني ، المسعودي (م) ، فقرة ٣٥٨ فيه تفصيل أفضل : ولا يقطع من عمان الى الهند في حزيران ، الا مركب معزز ، وحمولته خفيفة .

(١٤٣٠) يتحدث النص عن « الظلمة » كما رأينا ، ترجمها تس . بيلا ، المسعودي (م) فقرة ٣٥٨ ، (ضباب داكن) .

(١٤٣١) يتضمن التفريق المبين (« على الأقل في الجزء الشمالي من هذا البحر ») ان الأضطراب يخف عند الاتجاه الى الجنوب .

(١٤٣٢) المسعودي (م) ، فقرة ٣٥٨

(١٤٣٣) يتساءل المرء ، عند مطالعته المسعودي اذا كانت الهند وبحرها مفروضين في نصف الكرة الجنوبي (انظر بهذا الشأن المسعودي (م) ، فقرة ٢٦٢ ، ترجمة ح ٢) لكن لا شيء يسمح بالفصل في هذا الموضوع ، ويناقض توزيع الأقاليم (انظر جغرافية دار الاسلام ، ج٢ ، ٥٨ ، شكل ١٤ — آ) هذه الفرضية (انظر أيضاً المسعودي (م) ، فقرة ١٨٨) . مع ذلك لا يهمنا سبب ظاهرة تعاكس الفصول هنا ، بل الظاهرة بحد ذاتها .

(١٤٣٤) المسعودي (م) ، فقرة ٣٨٠ ، ابن الفقيه : ١٣ ، وصيف شاه : ٦٠

(١٤٣٥) ورد حرفيا « وغيره من البحر الحبشي » .

(١٤٣٦) المسعودي (م) ، فقرة ٣٧٩ ، ابن الفقيه : ١٣ ، وصيف شاه : ٦٠

(١٤٣٧) ابن الفقيه : آخر ٩ — ١٠ . برستوج : لا شك انه من الفارسية : بيربستوك : خطاف .

(١٤٣٨) انظر الحاشية ١٣٧٢ . استوحينا معطياتنا من المسعودي (م) ، فقرة ٢٨١ — ٢٨٢ و ٢٨٥ — ٢٨٨ ابن الفقيه : ٣٠٠ — ٣٠١ ، عجائب الهند : ٢١٥ — ٢١٦ . لا نهتم هنا بالتنين ، الا من ناحية علاقاته بالعاصفة . سوف نعود اليه فيما بعد ، في النبات .

(١٤٣٩) يكرر لفظ زوبعة بالذات في نص أخبار الصين والهند المشار اليه من قبل وفي المسعودي (م) : فقرة ٢٨٥

(١٤٤٠) اسمه الفارسي ، على حد قول المسعودي (م) ، فقرة ٢٨٨ ، احدها ، وهو تصحيف اجدر هاك

(١٤٤١) حول هذه الزوابع ، انظر أخبار الصين والهند ، فقرة ١٣ ، ابن خرداذبة : ٦٠ ، ابن الفقيه : ١١ ، ٢٩٠ (بحر الخزر) ، المسعودي (م) ، فقرة ٢٥٤ ، ٢٧٠ ، ابن حوقل : ٤٦ — ٤٧ ، ٢٣٧ ، ٢٥٧ ، وما تقدم ، الفصل ٢ ، ص ٢٠٤ آخرها — ٢٠٥ و ٢٠٧ .

(١٤٤٢) ترجمة تخمينية . بقول المسعودي (م) ، فقرة ٢٥٤ ، ان البحريين يكنون درودور مسندم بابي حمير ؟؟؟ بالفعل حمير اسم رجل (انظر اللسان لفظ حمر) . لكن لا بد ان يعطى هذا الأسم معنى في النص المذكور . ويتحدث ش . بيلا بهذه المناسبة عن « لقب » ، ولا يشرح قصده . يفكر طبعا بالحمار ، الذي يشبه ظهر الأرصفة ظهره لكن لا بد في هذه الحالة ، اذا فكرنا بالتصغير ، ان نشكل اللفظ حمير . خطر لي أن ارى في حمير ، الذي احتفظ به لا ستعماله كعلم ، في النصف الثاني من الكنية ، تصغير اسم الفاعل حامر (حمير عوضا عن حويمر ، على غرار حريث تصغير حارث ، مع اهمال الحرف الصوتي : انظر هـ . فليش ، كتاب الفقه العربي (الصرف) ، بيروت ، ج١ ، ١٩٦١ ، ص ٣٨٩) من فعل حمر : قشر .

(١٤٤٣) كسير وعمير : ترجمة سوفاجية ، في أخبار الصين والهند ، ذكر من قبل . وكسير وعوير لغة عامية اصلا ، بمعنى حالة سيئة « (انظر لسان العرب ، لفظ « عور »

(١٤٤٤) حرفيا كسير وعمير والثالث ليس فيه خير

(١٤٤٥) المسعودي (م) ، فقرة ٢٧٥ ، ٢٧٦ (ترجمة ، حاشية ٥) ، ٧٣٩ ، المسعودي (ت) : ٨٤ ، ٩٩

(١٤٤٦) ابن حوقل : ٤٦ (الاصطخري ٣٠)،ادق من المقدسي في هذه النقطة ، ويعارض اضطراب البحر وضعف الهواء . مع ذلك يلاحظ ان المقصود هنا الأمواج ، لا التيار بالمعنى الدقيق : يمكن في جميع الأحوال ، ان يظن انه يشرح الحركة السطحية في الأعماق ، وفي التاريخ الماضي ، انسكاب المياه على فرعون .

(١٤٤٧) انظر ما تقدم ، ص ٢٣٤ — ٢٣٥

(١٤٤٨) انظر أخبار الصين والهند ، فقرة ١٧ ، الكندي : ج٢ ، ١٠٩ — ١٣٣ ، عجائب الهند : ٢٦٦ — ٢٦٧ ، الجاحظ (١) : ٢٠١ ، ابن خرداذبة : ٧٠ ، ابن الفقيه : ٩ ، ١٣ ، ابن رستة : ٨٩ ، المسعودي (م) ، فقرة ٢٥٩ — ٢٦٩ ، . المسعودي (ت) : آخر ١٢ — ١٣ ، ١٢٤ — ١٢٥ ، ٤١٢ ، حدود العالم : ٥٣

(١٤٤٩) انظر سوفاجيه ، أخبار الصين والهند ، فقرة ٤٦ (ح١ من فقرة ١٧) ، تدقق بهذا المعنى ترجمة وايت (ص ٤٤) لا بن حوقل ، ٤٧ ، لتصبح : « يحدث كل من المد والجزر مرتين كل ٢٤ ساعة » .

(١٤٥٠) المقدسي : ١٢ آخرها : حرفيا : « ولهذا البحر الصيني زيادات في وسط الشهر واطرافه » يتفق هذا الكلام جيدا مع معطيات ر . جبرات « المد والجزر » في الموسوعة العالمية ، ح١٠ ، ١٩٦٨ ، ص ٤٤٩ والشكل (المنحني السفلي) ، حيث تقع اشد السعات فعلا حوالي اليوم الخامس واليوم العشرين من كل شهر . ويشير أيضاً الى المد والجزر اليومي .

(١٤٥١) يشير ابن خرداذبة أيضاً مثل المقدسي الى المد والجزر اليوميين (اشارة الى القمر) .

(١٤٥٢) يعين الحد عند جزيرة ابركافان ، على سواحل فارس : انظر أخبار الصين والهند ، ذكر من قبل ، فقرة ٤٢ (حاشية ٥ من فقرة ١٣) .

(١٤٥٣) انظر سوفاجيه ، أخبار الصين والهند ، ٤٦ (حاشية ٢ ، فقرة ١٧) .

(١٤٥٤) يبدو ان المسعودي يرى الأمور بدقة زائدة . مثلما يتضح من مروج الذهب ، فقرة ٢٦١ آخرها حيث يعتبر « المد والجزر » الشهريين مدا وجزرا شديدي السعة) ، وهذه الصيغة في كتاب التنبيه : ١٠٣ : « والكلام في كيفية المد والجزر السنوي والقمري الذي هو الشهري » .

(١٤٥٥) أخذت هذه الصفة من أبي الحيان التوحيدي : المقابسات ، نشرها ح . السندوبى ، القاهرة ، ١٣٤٧ هـ / ١٩٢٩ م ، ص ٢٣٢ (حسب الذهنية المبينة في جغرافية دار الاسلام ، ج ٨ ، ص ١٣ روماني) .

اعتبرت هذه النظرية اصلا استثنائية وعلى هامش الأفكار المقبولة على العموم .

(١٤٥٦) ابتداء من هنا ، أخذنا معطياتنا من المسعودي (م) و (ت) ، مشار اليهما ، اللذين ينهجان التأمل العام في المد والجزر ويتوسمان فيهما .

(١٤٥٧) لعل ذلك عائد الى أثر النار الجوفية ، الا ان المسعودي لا يبينه .

(١٤٥٨) تشبيه بالبحيرات ، المسعودي (م) فقرة ٢٦٠

(١٤٥٩) قارن بكتاب الحدود : ٥٣ : يرتبط مد الماء بالأنهار وحدها في البحار غير غير البحار الشرقية .

(١٤٦٠) ربما اضطررنا الى مقارنة هذا الفرض الأخير بما قيل عن الرياح الهابة على مجامع المياه المغلقة ، التي يظن انها تتكاثف . فاذا اخترنا ان نستنتج انها تصبحاقوى لأنها تكاثفت وتركزت ، وقعنا في الحالة المشار اليها هنا ، أي حالة الرياح القوية جداً التي تعيق المد والجزر ، الا ان هذه الصفة لا تتفق مع انعدام الحركة العامة في مشهد المجامع المائية المغلقة (الا اذا افترضنا ان المياه الثقيلة تقاوم الرياح) هذا مع أخذ تأثير الرياح في المياه ، المشار اليه في جميع الأماكن . واذا قبلنا مثلما فعلت ، تغليل الرياح الهادئة ، وجب عندئذ ان نسلم ، كنتيجة للفرض المعروض ، بضرورة وجود الرياح لاحداث المد والجزر أو لتسهلهما .

(١٤٦١) مثلما يفعل المسعودي (م) ، فقرة ٢٥٩

(١٤٦٢) آية ، اعجوبة : ابن الفقيه : ١٩٢ ، المقدسي : ١٢٤ آخرها — ١٢٥ (و ح د : وله اعلم) . احالة الى السر المطلق ، بلا تفسير ، في المسعودي (م) ، فقرة ٢٦٥ ، (ت) ، ١٠٤

(١٤٦٣) المقدسي ، ج٢ ، ١٦٢ . مباشرة قبل المقطع الخاص بدور الملك في المد والجزر .

(١٤٦٤) ابن الفقيه : ٩ ، المقدسي : ١٣ . فضلت عوضا عن لفظ السمع ، الترجمة الحرفية بـ منخريه . حول السمك ، انظر جغرافية دار الاسلام ، ج٢ ، ٥ . حول الخضر ، انظر ا . ج . ونسنك ، م١ ، ج٢ ، ٩١٢ — ٩١٦ ، لفظ الخضر (كرر في م١ (٢)، ج٤ ، ٩٣٥ — ٩٣٨

(١٤٦٥)مجاز الزجاج ترجمة جان كاسون، باريس، الناشر البلياد، ١٩٥٦، ص ١٢٧١ .

(١٤٦٦) انظر مع الاحالات ، جغرافية دار الاسلام ، ج١ ، ١١٩ و ج٢ ، آخر ٧٦

(١٤٦٧) باجازيه ، ٥ ، ١٧١٩ . انظر من الجغرافيين : اليعقوبي : ٣٥٠ ، ابن رسته : ١١٨ ، اسحاق : ٤٤٧

(١٤٦٨) هذا الكتاب مستوحى من البحريين ، خلافا لاخبار الصين والهند ، التي تعكس أخبار التجار : انظر جغرافية دار الاسلام ، ج٢ ، مشار اليه .

(١٤٦٩) يفصل ابن حوقل فيهما الا صطخري تفصيلا واسعا . أما المقدسي ، فيعطي أخبار البحرين في فصله العام عن البحار والأنهار . يمكن ابداء ملاحظات مماثلة عن المصنفين الثلاثة .

(١٤٧٠) عند ابن حوقل : ٤٧ — ٤٨ ، الصيغ التالية مستعملة : « وابتدىء بالقلزم وساحله . . » و « يطوف بحدود ديار العرب التي ذكرتها واثبتها من هنا الى عبادان والبحرين »

(١٤٧١) انظر ما تقدم ، فصل ٢ ، ص ٢٠٧

(١٤٧٢) ابن حوقل : ٤٩

(١٤٧٣) ابن حوقل : ٤٨ — ٥٠

(١٤٧٤) ابن سيرابيون : ١٣٠ — ١٣١ ، المسعودي (م) فقرة ٣٧٩ ، ٨٩٨ — ٨٩٩ المقدسي : ٤٧٤ ، وصيف شاه : ٣٩ ، انظر أيضاً ، لكن بالنسبة الى بحر عدن ، الصعاب التي يذكرها المسعودي (م) ، فقرة ٢٤٥

(١٤٧٥) المقدسي : ١٤

(١٤٧٦) المسعودي (ت) ، ٧٦

(١٤٧٧) حرفيا معمور

(١٤٧٨) جاحظ (١) : ٢٠٢

(١٤٧٩) المقدسي : ١٥

(١٤٨٠) المقدسي : ١٥ — ١٦

(١٤٨١) انظر جغرافية دار الاسلام ، ج١ ، ١٢٠ - ١٢١ و ج٢ ، ٧٧

(١٤٨٢) ذكر في جغرافية دار الاسلام ، ج٢ ، ٤٧٨

(١٤٨٣) انظر جغرافية دار الاسلام ، ج٢ ، ٧٨ ، ٨٠ ، ٣٤٦ ، ٣٤٨ ، ٣٤٨ - ٣٤٩ ، ٤٨٥ - ٤٩٠ ، ٤٩٥ - ٤٩٧ وأماكن متفرقة .

(١٤٨٤) انظر جغرافية دار الاسلام ، ج٢ ، ٣٧٧ - ٣٨٠ . يضاف الى الاحالات المعطاة : ابن رستة : ٩٨ ، المسعودي (م) ، فقرة ٢٧٣ ، ٢٧٦ ، ٨٢٨ ، ٩١١ - ٩١٢ ، ٩٢١ ، المسعودي (ت) ، ١٠١ ، ١٠٣ ، ابن حوقل : ٧٦ ، ١١٤ - ١١٥ ، ١١٨ وما يليها ، ١٧٩ ، ٢٠٣ - ٢٠٤ ، المقدسي : ١٥ ، ١٨٤ ، ٢٢٦ ، ٢٢٨ ، ٢٣٥ ، ٢٣٩ ، ٢٤٦ ، حدود العالم : ٥٨ - ٦٠ افتتح البيزنطيون اقريطش مجددا عام ٣٥٠ هـ / ٩٦١ م : انظر م . كانار ، م١ (٢) ، ج٤ ، ١١٠٩ - ١١١٢ . وأعيد فتح قبرس بعد ذلك بقليل : انظر ر . هرتمان ، م١ ، ج١ ، ٩٠٥ . يلاحظ ان لفظ جزيرة ، بمعنى شبه جزيرة ، يستعمل أيضاً في الحديث عن بعض المدن أو مناطق تتمتع بهذا الموقع : المهدية (المقدسي : ٢٢٦) ، جزيرة ابي شارف ، الى شرق تونس (المقدسي : ٢٢٧ ، ٢٤٦ : انظر ابن حوقل : ٧٣ (الجزيرة) والبكري،وصف ، ترجمة ذكرت ٨٥) . مرسى الخرز ((لاكال) الى جانب جزيرات أو ارصفة مذكورة في أمكنة اخرى : المقدسي : ٢٢٦ - ٢٣٩) ، مجاز هيراقليس (ابن حوقل : ٦٢، حدود العالم : ٥٩) .

(١٤٨٥) جزيرة بني زغناي عند المقدسي : ٢٢٨ ، ٢٤٦

(١٤٨٦) انظر جغرافية دار الاسلام ، ج٢ ، ٣٦٧

(١٤٨٧) ارجع ذاته ، حاشية ٢١٧٩ وابن حوقل : ١١٨

(١٤٨٨) ابن حوقل : ٢٠٤ . بقيت مالطة خاضعة لدار الاسلام حتى ٤٨٣هـ / ١٠٩٠ م (انظر ا . روسي م١ ، ج٣ ، ٢٢٧) . ويعلن نص ابن حوقل ان مالطة من الجزر الشهيرة غير العامرة (الحمير متوحشة) : اشارة الى الغارات البيزنطية عليها ربما ، لا سيما ان المصنف يتحدث بعدها مباشرة عن سقوط اقريطش وقبرس . وصحيح انه يمكن فهم غير العامرة بمعنى أقل قوة أي قليلة الأزدهار . لكن عندئذ لا نفهم لماذا يقصدها قوم بالزاد لاشتيار العسل وصيد الغنم والحمير ، ولماذا يسمح أهل الجزيرة ان وجدوا لهؤلاء الغرباء بهذا العمل والصعوبة في نص ابن حوقل هي انه يوحي بجزيرة متوحشة ومقفرة .

ثم ان ابن حوقل يطيب له اصلا ان يتكلم عن الحيوانات الأهلية التي توحشت : انظر بالنسبة الى افريقية ابن حوقل ١٥٣ (ذكر في جغرافية دار الاسلام ، ج٢ ، ١٧٧) .

(١٤٨٩) بشأن قصر ذكر جزر الباليار (ابن حوقل ٢٠٤)، أو عند المصنف ذاته، وقد سبقه الاصطخري بذلك ، وجهل موقع جبل القلال الذي اعتبر جزيرة (انظر جغرافية دار الاسلام ، ج ٢ ، آخر ٣٧٨ — ٣٧٩) . الا ان الاختبار الحاسم مع ذلك ، يتمثل في صقلية التي يخصص لها ابن حوقل صفحات كاملة (ابن حوقل : ١١٨ — ١٣٠)، الا انه يجري العرض العام لها في بضعة اسطر ، ثم يتحدث عن مدينتها الكبرى المسماة بالرم وعن صفات اخلاقها وعاداتها (ومنها ذمه المعلمين فيها) .

(١٤٩٠) بالنسبة الى الجزر التي ستتحدث عنها ، انظر ابن خرداذبة : ٦١ — ٦٢ ، المسعودي (م) ، فقرة ٢٥٣ ، ٢٥٤ ، ٨٧٨ ، ٨٧٩ ، الهمداني : ٥٢ — ٥٣ ، ابن حوقل : ٤٢ — ٤٣ ، ٤٧ ، ٥٠ ، ٥١ ، ١٥٠ ، المقدسي : ١٢ ، ٢٨ ، ١٠٣ ، ١٠٤ ، حدود العالم : ٥٧ — ٥٨ (والتعليق ١٩٠) حول الجزيرة الاستوائية ناره ، انظر جغرافية دار الاسلام ، ج٢ ، ٤٨٦

(١٤٩١) حدود العالم : ٥٨ باسم فاران وجبيلات ، يشير الى بعض الجزر فعلا ، وبحق. وقد رأينا من قبل (ص ٢٤١ — ٢٤٢) ان المصنفين كانوا يكتفون على وجه العموم بتسمية الأماكن ، كالأنحاء الخطرة ، وهذا ما يفعله كتاب الحدود أيضاً .

(١٤٩٢) لم تذكر كجزيرة ، بل كمرسى ، انظر ابن حوقل (خرائط) : ١ ٢ آخرها —، ٤٤ ، والمقدسي : ١٠٦ ، ١٠٧ (المسالك في البر) . مع ذلك يبدو ان الجزيرة القريبة تدخل في الوصف (المقدسي : ٥٣ ، ٧٠ ، ٨٦ ، ١٠٤) ، اذا حكمنا على اساس اقتران سرين وكمران المذكورة جزيرة ، في الكلام عن نظام الضرائب .

(١٤٩٣) لم اتمكن لا هنا ولا في ترجمتي من تحديد موقع هذه الجزيرة (المقدسي : ٣٢٦) . لكن اذا أخذنا بعين الأعتبار انها تحدد بداية مضيق ، واعتمدنا المسلك الذي يتبعه المصنف ، يمكننا بكل تحفظ ان نحدد موقعها عند مستوى جبل الصبايا (جزيرة) (واقبل هذا الحل هنا دون ان يكون لدي حجة اخرى) ، أو في نواحي جنوبية شرقية قريبة من جزر فرسان ، حيث تؤدي كثرة الجزيرات والأرصفة الى تعدد الممرات الخطرة : انظر اطلس التايمز ، ٣٣ ، د / ٧ و هـ / ٨

(١٤٩٤) يعبر اسم آخر عن مظهري الجزيرة : عقل : عرقلة ، ربط (ومنه أحيانا :

حصن ، قلعة) أو ذهن ، ذكاء (انظر المسعودي (م) ، فقرة ٨٧٨ ، حيث توصف ماء الجزيرة بأنه ماء العقل لأنه اشتهر بتأثيره الطيب في الاستعدادات الذهنية) .

(١٤٩٥) بنو حدان بضم الحاء (وليس حدان بكسر الحاء : يصحح ابن حوقل ، ترجمة وايت ، ص ٤١ ، ٤٩ ، ١٤٧) فخذ من الازد (انظر وستنفيلد ، قوائم النسب ، غوتنجن ، ح١ ، ١٨٥٢ ، ١٠ ، ج٢ ، ١٨٥٣ ، ص ٢٣٢ ، ياقوت ، معجم البلدان ، معجم البلدان ، ج٢ ، ٢٢٧ ، ش . بيلا ، الوسط البصرى وتكوين الجاحظ ، باريس ، ١٩٥٣ ، ٢٦٧) ، ابن حوقل : ٤٢ ، يبدو انه يتحدث عن حركات الحج في الماضي . في الواقع انتقلت الطريق الى الأماكن المقدسة في جزيرة العرب نحو الجنوب : يصعدون في النيل حتى اسوان ، ويسلكون الدرب حتى مرسي عيذاب على بحر القلزم ، المقابل تماما لساحل الحجاز ، وهذا يسمح بتقصير مسافة قطع البحر الأحمر الى الحد الأدنى (انظر اليعقوبي : ٣٣٥ وخاصة المقدسي : ٧٨) . اذن ينبغي التفتيش عن جزر بني حدان في الشمال الابعد ، لكن بالتأكيد قبل خليج السويس (نظر الدور مرمى القلزم في الجهة الشمالية) انظر ابن حوقل ، خريطة ٢١ ، ٤٣ . بالفعل يعلن ابن حوقل ، ٥٠ ، ١ ، أن منطقة مناجم الزمرد ، التي يمتلكها البجة وبنو ربيعة ، تمتد بين عرضي عيذاب وبني حدان . ومن المعلوم ان منازل البجة شمالا تبدأ عند درجة عرض ٢٦ (انظر ب . م . هولت ، البجة ، م١ (٢)، (٢) ، ج١ ، ١١٩٢) . ويبدو ان جزيرة سفاجة الواقعة عند عرض ٢٧ تقريباً تلائم تماماً : ويؤلف النيل منعطفاً في منطقة قوص وقفط ، فيقترب الىاقصى حد له من البحر ، ويذكر ابن حوقل ، ٥١ ، وجيها محليا ذهب من قفط الى الحج ، وابحر من جزر بني حدان فوصل الى عينونة على شاطىء البحر الآخر ، وهي واقعة عند درجة عرض٢٨ شمالا ، عند منفرج خليج العقبة ، على طريق الحج البرية الذاهبة من مصر اليعقوبي : ٣٤١) .

(١٤٩٦) يقال لنا بأن سنجلة تقابل جدة ، والمسافة بينهما يوم وليلة (٤٢) . والمسافة بالنسبة الى جزيرة المكور حوالي ٢٠٠ كم (اطلس التايمز ، ٣٣ ، ب ٦ ، ويقول ابن حوقل المرجع ذاته أن هذه الجزيرة واقعة بين عيذاب (قرب حلايب) وسواكن ، بين رأسين احدهما دوي (حاليا مرسي دلوين) : انظر اطلس التيمز ، ٨٥ أو ٩

(١٤٩٧) ابن حوقل ، ٤٢ ، يضعهم مقابل جدة ، وهم في الحقيقة علىأكثر من درجتين الى جنوب شرق سواكن بالنسبة الى جدة .

(١٤٩٨) المقصود جزر نجمعها اليوم تحت اسم دهلك . حول هذه المناطق ، انظر جغرافية دار الاسلام ، ج٢ ، ١٦١ – ١٦٢ ، ١٦٥ ، ١٦٦ (حاشية ٤) ، ١٦٩

(حاشية ٣) ، ٢٠٠ – ٢٠١ ، ٥١٦ (حاشية ١ من ٥١٥) (يضاف الى الاحالات : اليعقوبي : ٣١٩) : لونغريغ ، م١ (٢) ، ج٢ ، ٩٢ – ٩٣

(١٤٩٩) تقترن اصلا عادة في الوصف بالجزر السابقة : انظر جغرافية دار الاسلام ، ج٢ ، مشار اليه ، واطلس التايمز ، ي / ٥

(١٥٠٠) عبرت من قبل عن ترددداتي بهذا الشأن : انظر جغرافية دار الاسلام ، ج ٢ ، آخر ١٦٩ (انظر اسم قرية الجزيرة قرب مقيشوه : اطلس التايمز ، يا / ١٠) . يعلن ابن حوقل ، ٤٣ ، انه يمكن القول ان زيلع تقع بين غلافقة (شمال مخا في جزيرة العرب : انظر المرجع ذاته خريطة ٢١ آخرها) ، عدن وجزيرة نحا . تصحح من هذه ترجمة وايت التي تسيء تقطيع النص اذا اتبعتها وايت يجب ان تقول محاذيين لا محاذ ذي ، واذا اردنا الاحتفاظ بقراءة وايت ، يجب عندئذ ان نفهم : « جزيرة وبربرة ، مما يؤدي الى تعقيد الأمور ، لعدم وجود جزيرة في تلك الأنحاء (اذا كان المقصود جزيرة أو شبه جزيرة)

(١٥٠١) انظر ما تقدم ، ص ٢٤٢ ، وجغرافية دار الاسلام ، ج٢ ، ١٧٢

(١٥٠٢) سميت جزيرة لأنها محصورة بين دجلة والدجيل والبحر : انظر ما تقدم ، ص ٢٠٥

(١٥٠٣) انظر بشأنهما لوسترانج ، الخلافة الشرقية ، ٢٦١

(١٥٠٤) انظر شوارز ، فارس ، ج٢ ، ٨٧ – ٨٨

(١٥٠٥) انظر المرجع ذاته : ٨٢ – ٨٤ ، لوسترانج ، الخلافة الشرقية ، ٢٦١ . التحقق من ان ابن كاوان قسم وارد عند المسعودي (م) ، فقرة ٢٥٤ ، الذي يؤكد وقوعها قرب جزيرة هنجام (هنكام) .

(١٥٠٦) لم ترد كذلك في الحقيقة في الطريق البحرية عند ابن خرداذبة : ٦١ – ٦٢

(١٥٠٧) المسعودي (م) فقرة ٤٦٤ ، الاصطخري : ١٢٨ ، ابن حوقل : ٣٨٨ ، المقدسي : ٣٦٢

(١٥٠٨) انظر ما تقدم الفصل ٢ ، ص ٢١٤ ، الفصل ٣ ، ص ٢٤٤

(١٥٠٩) جزيرة سياه كويه ، وهي شبه جزيرة في الواقع ، تابعة للغز : انظر جغرافية دار الاسلام ج٢ ، ٢١٨ (وحاشية ٥) و ٢٢١

(١٥١٠) باستثناء السمك (مع التحفظات الواردة ص ٢٤٤) .

(١٥١١) حول الظاهرات البركانية في بحر الخزر ، انظر كامينا دالميدا ، جغرافية ج٥ ، مشار اليه ، ٣٠٧

(١٥١٢) مثال آخر : ستروملولي : انظر جغرافية دار الاسلام ، ج٢ ، ٢٦٧

(١٥١٣) المرجع ذاته ، ٤٨٥

(١٥١٤) انظر مثلا الأخوان ، ١ ، ١٦٣ — ١٦٣

(١٥١٥) أمثلة عن علاقة الجزيرة بالبر عند قدامة ،م٦٠ ، وابن حوقل : ٤٢ — ٤٣ ، والمقدسي : ١٥

(١٥١٦) انظر الفصل الأول ص ١٠٠ . من أجل تفسير خاص للغة البحريين (قطر يوصل اليه بحرا ، يفترض انه جزيرة ، لم يعرف انها داخلة في البر) ، انظر سوفاجيه ، أخبار الصين والهند ، ص ٣٦ (حاشية ٤ ، من فقرة ١٥) .

(١٥١٧) بالنسبة الى الأندلس ، انظر ابن حوقل آخر ٦١

(١٥١٨) ابن حوقل : ١١٨ . انظر أيضاً ، لسيلان ، أخبار الصين والهند ، فقره ٥ . وصحيح ان تعبير في البحر يزيد الغموض لأنه ينطبق على شبه جزيرة : المقدسي : ٢٢٧ ذكر في الحاشية ١٤٨٤) .

(١٥١٩) أمثلة اخرى مقدمة، خاصة لخليج فارس ، يضاف ابن حوقل: ١١٤ — ١١٥ (غنى ما يورقة) ، ١١٨ وما يليها (المرجع ذاته لصقلية) ، ٢٠٣ — ٢٠٤ (خصب جزر بحر الروم ماعدا مالطة ، ذكر) ، المقدسي : ٨٤ (غني قبرص) ، ٢٣٢ (المرجع حدود العالم : ٥٩ — ٦٠ (غني جزر بحر الروم) .

(١٥٢٠) انظر ما تقدم ، ص ٢٤٢ و ٢٤٩ في الحديث عن سقطرة (صورة البوج) أو عن جزر بحيرة خلاط في اذربيجان . وأحيانا تأخذ الجزيرة من الجبل ، لا تضريسه ، بل احدى صفاته النوعية : ملجأ (انظر ابن حوقل ، ٧٦ ، في كلامه عن جزيرة الجزائر) .

(١٥٢١) ما تقدم ، ص ٢٥٠ — ٢٥١

الفهرس

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

* * *

٣٠٠٠ ط١ / ٩ / ١٩٩٢